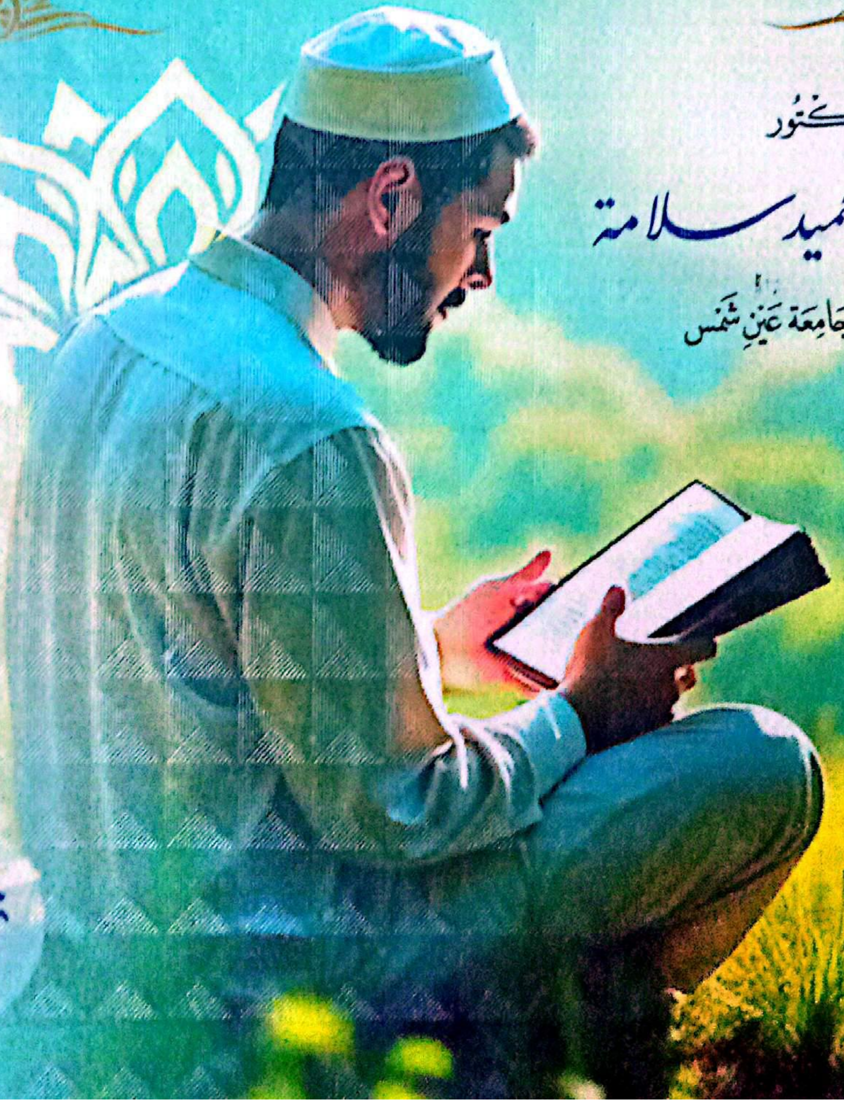
لماذا نبتغي الإسلام دينًا ولا نقبل غيره؟

سؤال يحتاج منك إجابة

تأليف الدكتور

إيهاب عبد الحميد سلامة

كلية البنات - جامعة عين شمس



زهران

بسم الله الرحمن الرحيم

اسم الكتاب : لماذا نبتغي الاسلام دينًا
سؤال يحتاج منك اجابة

اسم المؤلف : إيهاب عبد الحميد سلامه

رقم الايداع : 2025/4168

الترقيم الدولي : 7-1878-95-922-928

الطبعة الأولي
2025

توزيع
مكتبة زهران

15 شارع الشيخ محمد عبده - خلف جامعة الأزهر - الأزهر الشريف
01149383472 - 01222900401 - 01223786418
مكتبة زهران للطبع والنشر والتوزيع /

سؤال يحتاج منك إجابة

لماذا نبتغي الإسلام دينًا ولا نقبل غيره؟

تأليف الدكتور

إيهاب عبد الحميد سلامة

كلية البنات . جامعة عين شمس





بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمدُ لله ربِّ العالمين ، الذي خلق الإِنْسَان علَّمَه البيانَ ، الحَمْدُ لله الذي جَعلنا مُسلمين ، وأنعمَ علينا بنعمةِ الإِسْلام ، الحَمْدُ لله الذي قال في محكم القُرْآن : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ آل عمران: ٨٥ ، والحمدُ لله الذي رضِي لنا الإِسْلام دِيْنًا ؛ فقال : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ المائدة: ٣

والصَّلاةُ والسَّلامُ الأتمان الأكملان عَلَى نبينا المصطفى ﷺ الذي قال ربُّنا ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ الأحزاب: ٥٦

ثم أما بعد ،

ليس من المبالغة في شَيْء إذا قلنا إنَّ أهمَّ قضيةٍ يجب أنْ تشغلَ بالَ الإِنْسَان ، وتَملِكُ عليه تفكيرَه وعقلَه ولُبَّه هي قضية « الدِّيْن » ، ما يؤمن به ويعتقده ؛ وذلك لخطورة ما يترتَّبُ على هذه القضيةِ من نتائجَ في الحياة الدُّنْيا والآخرة ، فإنَّ تحديد هذه القَضِيَّة وتحديد موقف الإِنْسَان منها بمثابة وضع الأساس لبناء شاهق ، فإِنْ كان الأساسُ قويًّا مَتينًا سَلِمَ البناءُ ، وإنْ كان الأساسُ هَشًّا ضعيفًا ؛ انهار على ساكنه وضاع ما بذله في بنائه من جُهْدٍ ووقتٍ هباءً منثورًا.

وأَظُنُّ أَنَّهُ ما مِن « مُسْلمٍ » سليمِ العَقْل ، ناضجِ الفكر ، إلا وقد سأل نفسَه في لحظة من اللحظات ، وفي وقت من الأوقات هذا السؤال : « لماذا أَبتغي الإِسْلام

دِيْنًا ؟! »، « هل الإِسْلام هو الدِّيْن الحق ؟! »، « لماذا الإِسْلام هو الدِّيْنُ الصَّحِيح ولماذا هو الحقُّ المطلق وغيرُه الباطلُ ؟! » ، « ولماذا لا يكون غيره هو الصَّحيحُ وهو الباطل ؟! » .

ولا أُخفي على قارئي أن هذه الأَسْئِلَة شغلت فكري وبالي فترةَ شبابي رَدَحًا من الزَّمن ، وكنتُ أرجو أن يَمُنَّ اللهُ عَلَيَّ وأن أُجيبَ على هذه الأَسْئِلَة إجابةً منطقيةً شافيةً ، تَشفِي الغليلَ ، وتريح العَقْل والقلبَ معًا ، وها هو فضل الله يَغمُرُني ، ويَمُنُّ عليَّ بالوقتِ والجُهدِ ، ويُعينُني على إخراج هذا الكتاب ، الذي أظُنُّ أَنَّهُ أهم ما كتبتُ من مُؤلفات عِلْمِيَّة في حياتي .

وأنا أعلمُ من الواقع المعِيش أن هناك الكثيرين ممَّن يحتاجون إلى مَن يساعدهم في الإجابة عن هذا السُّؤال ، وها أنا أضعُ بين أيديهم هذا الكتابَ ، الذي حاولتُ فيه مخلصًا أن أجيب على ما سبق من أسئلة .

فاللهَ أسألُ أنْ ينفعني به ، ويَنفع به غيري ، وأنْ يجعله خالصًا لوجهه ، وألا نبغي من ورائه شَيْئًا من زهرة الحياة الدُّنْيا ، وأن يَأْجُرني عليه في الآخِرة ، وأن يكون من العِلْم النافع الذي يُنتفع به ، واللهُ بكل جميل كفيل ، وهو حسبنا ونِعم الوكيل ، وآخر دعوانا أَنَّ الحَمْد لله رب العالمين .

د. إيهاب عبد الحميد سلامة

القاهرة ، ٢٠٢٤م

التمهيد

أُحِبُّ في هذا التَّمهِيد أن أُسَلِّطَ الضوءَ على عِدَّةِ أمور :

الأمر الأول :

أرغب في أن يَطمئِنَّ قلبي إلى أنَّ قارئي ـ ونحن في بداية هذا المُؤَلَّفِ ـ قد فهم عني المقصود من عنوان هذا الكتاب فهمًا صَحِيحًا ، ووَعى المقصودَ مِنه على حسب ما أردْتُ .

فما أقصدُه من هذا العنوان هو بيان نقطتين أساسيَّتَيْن :

⇦ أنْ أُبيِّنَ الأسبابَ التي تجعلُني أُومِنُ بالإِسْلام دِيْنًا ، وأعتنقُه ، وأَدِينُ به ، ولماذا أَعتقدُ أَنَّهُ الحقُّ كل الحق .

⇦ وأنْ أُبيِّنَ الأسبابَ التي تَدفعني إلى رفضِ ما سِواه وعدم قَبُوله ، والاعتقاد بأنَّ ما سواه باطل كل البطلان. سواءً ما كان سواه دِيْنًا أم مذهبًا فلسفيًّا ، وذلك بناءً على أَدِلَّة أقدمُها ، وبراهينَ أحتَجُّ بها.

إن كان هذا ما فهمه قارئي من العنوان فبِها ونِعْمَت ، وإن كان فهم شَيْئًا غير ذلك فليراجع فهمه .

الأمر الثاني :

ثاني الأمور التي أحبُّ أنْ أخصَّها بمزيد بيانٍ هي : « **لماذا كتبتُ هذا الكتاب؟** » ولماذا تحمَّلتُ عناءَ جمع مادته والتأليف بينها . وأعتقد أنَّ ذكر هذا مما يفتح قلبَ قارئي لما سأقولُه تِبَاعًا ، ويجذب عقلَه ولبَّه لما سأسطره لاحقًا .

لماذا كتبتُ هذا الكتاب ؟

قبل أن أنتضي قلمي ، وأشرع في الكتابة في هذا العنوان ، وأدفع بأفكاره إلى سِنِّه كانت تتردد في ذهني عدة أسئلة ، تلك الأَسْئِلَة هي : « **لماذا أنا مُسلِمٌ ؟ ولماذا**

أومن بالإِسْلام ؟ ولماذا أبتغيه ؟! فأسارع ـ بيني وبين نفسي ـ بالإجابة قائلا : « لأَنَّ الإِسْلام هو الحق !! » ، **فأجدني أردُّ قائلًا : لماذا تعتقد أَنَّ الحقَّ في الإِسْلام ؟ ولماذا ليس الحقُّ في المَسِيْحِيَّة أو في اليَهُودِيَّة أو البُوذِيَّة أو في غيرها ؟!** » ؛ وإذا أحببتُ أنْ أدعو شخصًا للإسلام فلا بدَّ أن تكون إحدى نقاط الحوار هي : أَنَّ الإِسْلام هو الحق؟ وسيكون الرد المنطقي المتوقع ممن أدعوه : « لماذا ؟!! » . عند هذه النقطة أجد نفسي توقفتُ قليلًا ، أحاولُ أن أبحث عن إجابةٍ شافيةٍ تريح القلب والنفس .

كانت هذه الأَسْئِلَة تتردد في ذهني وخاطري ، وتأخذ عَلَيَّ تفكيري وعقلي وَتملِكُ عَلَيَّ نفسي ، وأظنُّ ظَنًّا يبلغُ اليقينَ أَنَّهُ ما من امرئٍ مُسْلمٍ نضيجِ الرأي ، راجح العَقْل إلا وقد وردت على ذهنه مثل تلك الأَسْئِلَة .

وقد يقول قائل : قد كان يكفيك أن تَطَّلعَ على بعض المؤلفات التي كتبت في هذا الشأن ، تروي بها غُلَّتكَ ، وتُطفِئُ ظمأك ، وتجيبُ بها عن أسئلتِكَ ، وتذهبُ بقلق نفسك ، فهي بالعشرات إن لم تكن بالمئات . أقول : نعم ، إنَّ الأمر كذلك ، ولكن القراءة شَيْء ، وأن تكتبَ أنت بيدك ، وتَخبر الأمر عن معاينة ، وتبذل مجهودًا في جمع المادة العِلْمِيَّة وتوثيقها وترتيبها وصياغتها شَيْء آخر !

وأذواقُ الناس مختلفة ، فالأسلوب الذي تقرؤه في كتاب ويروقك قد لا يروق غيرك ، وما قد يروق غيرك قد لا يروقك ، مع أَنَّهُ موضوع واحد والعناوين متقاربة .

وقد يكتب الله القبول لكلمات كتبت بمداد الصدق والإخلاص ولا يكتب لغيرها ، وما يصل ليدك قد لا يصل ليد غيرك .

وأنا أرجو من الله بهذه الكلمات الثواب والأجر ، وأن يرزقنا في كتابتها الصدق والإخلاص ، حتى وإن كان موضوعُ الكتاب وعنوانه مكررًا ومُعادًا ، فلعل كلمة فيه تهدي إنسانًا ما في مكان ما . وليكن كلامنا هنا على أقل تقدير من قبيل ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الذاريات: ٥٥

وأنا مع ذلك أرجو أن أكون في أطواء هذا الكتاب **قد أشرتُ إلى فكرة ما**

غابت عن غيري ، أو معلومة لم يتنبه إليها سواي ، أو تحليل قدمته يستفيد به غيري لم يجده في مكان آخر، أو وفقني الله في الإجابة عن هذه الأسئلة بطريقة أكثر فائدة وتشويقًا .

أقولُ : كانت هذه الأَسْئِلَة التي أَثْبَتُّها تتردد في ذهني ، وترِدُ على خاطري مرارًا وتكرارًا ، وكنتُ أُمَنِّي النفسَ بالإجابة عنها في وقت لاحق ، وأكتفي بإجابات بسيطة ، أُطَمْئِنُ بها نفسي ، لا تُسمن ولا تُغني من جوع ، وتمنعني مشاغلُ الحياة التي تسلب الوقت والجُهدَ ، ولا تترك لي فرصةً لإجابة متأنية ترضى بها نفسي تمام الرِّضا ، ولكن وجدتُ أَنَّ العمرَ يجري ، والأجلَ يدنو ، وخشيتُ أنْ ألقى الله ولم أجب عنها إجابة تفصيلية يقينية جامعة مانعة ، أزدادُ بها اطمئنانًا ، ويزداد بها غيري كذلك ؛ لذلك عزمت على تأليف هذا الكتاب ، أضع فيه إجابات منظمة ومنطقية لهذه الأَسْئِلَة .

ولا أستطيع أن أقولَ إن السبب أو الأسباب التي ذكرتُها هي الأسباب الوحيدة التي دفعتني لتأليف هذا الكتاب ؛ ولكن تَظاهرَتْ جملةُ أسبابٍ أخرى زادتني رغبة في المضي قُدُمًا فيه وتجعل إجابتنا عن السؤال « لماذا نَبْتَغِي الإِسْلام دِيْنًا ؟ ولماذا لا نبتغي غيره؟ » ذات فائدة كُبْرَى ، ومن تلك الأسباب :

(١) في بعض الأوقات تَعْصِفُ بالإنسان مِحَنٌ ومصائبُ وابتلاءاتٌ تَؤودُه ، وتفوقُ قدرتَه على الاحتمال ، وتَعجِزُ نفسُه عن تجاوز هذه المحن والمصائب والابتلاءات والشيء الوحيد الذي يُعينه على هذا التجاوز ، ويمنحه الصَّبر على تلك المحن والمصائب والابتلاءات هو إيمانه بأنه إذا صبر **سيلقى خير الجزاء** ؛ وسيعوضُه اللهُ عن ذلك. وعند هذه النقطة **يجب أن يتأكد أنَّ دينه هو الحقُّ والصواب لكي يطمئنَّ على ما له من ثواب .**

(٢) ولا يقتصر الأمر على لحظات المصائب ، بل في لحظات الرخاء التي يُطالبُ فيها الإِنْسَان بالبذل والعطاء للفقراء والمساكين ، هنا إذا علمت النفسُ الكَزَّة الشحيحة بأن ما تعطيه وما تُخرجه لهؤلاء الفقراء والمساكين ستجده في الآخرة أوفر ما يكون ؛ فسَتَنْبَسِط يدُها بالعطاء عن طيب خاطر ، وهنا أَيْضًا نعود إلى

نفس النقطة ، وهي أن هذه النفس تريد أن تَتَثَبَّتَ وتَتَيَقَّنَ أنَّ دينها هو الحقُّ والصواب لكي تَطمَئِنَّ على ما لها من ثواب .

(٣) انهيار الأمم والمجتمعات مرتبطٌ بانهيار الأخلاق ، ولا مِراءَ أَنَّ الدِّيْنَ هو الأساس للأخلاق ، تلك حقيقةٌ يعرفُها القاصي والداني ، ويُقِرُّها المُؤرخون والفلاسفةُ والأدباءُ على اختلاف أطيافهم ومَشارِبِهم وتَوَجُّهاتهم الفكرية .

- يقول المؤرخ الشهير ول ديورنت **William James Durant** (ت: ١٩٨١م): « والحضارة العظيمة لا يُقضَى عليها من الخارج إلا بعد أن تَقضي هي على نفسها من الداخل ، وشاهد ذلك أنَّا نجد الأسباب الجوهرية **لسقوط رومة في شعب رومة نفسه ؛ أي : في أخلاقها ، وفي النزاع بين طبقاتها ، وفي كساد تجارتها ، وفي حكومتها الاستبدادية البيروقراطية ، وفي ضرائبها الخانقة ، وحروبها المهلكة** »[(١)] .

- ويحدثنا التَّاريخ أَيْضًا أنَّ « أولَ خُطوة قام بها القيصر أوغسطوس **Augustus Caesar** (٦٣ ق.م ـ ت: ١٤ ب.م) بعد جيل من الحروب الأهلية ، وبعد انتشار مذهب الشك **Skepticism** في الإمبراطورية الرُّومَانِيَّة هي العودة بروما إلى الممارسات الدينية القديمة ، وإصلاح المعابد الموجودة فيها ، وحث الرجال على الدخول في نظام الكهانة القديم ، وبناء المعابد الجديدة ، مثل المعبد الذي بناه للإله أبولو. فالحل الأمثل الذي لجأ إليه هذا القيصر **هو العودة إلى « الدِّيْن » بعد انتشار مذهب الرواقية ، ومذهب الشكوكية** الذي اعتبر الدِّيْن « شَيْئًا ما » يمكن أن يُتَجاذب أطراف الحديث فيه على مائدة العشاء ، أو مع مجموعة من الأصدقاء في لحظة من لحظات المتعة والانتشاء ، أما أن يكون موضع اهتمام السياسة أو الرجل المفكر فهذا ما لا يُقبل »[(٢)] .

---

(١) قِصَّة الحَضَارَةِ ، تَرْجَمَة : مُحَمَّد بدران ، مكتبة الأسرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط ١ ، (٢٠٠١م) ، المجلد ٦، ١١/ ٤٠٤

(٢) **John B. Noss, Man's Religion, the Macmillan Company, New York, seventh printing, 1953, p91**

➢ ومن أقوال أمير الشعراء الخالدة :

إِنَّمَا الْأُمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ ... فَإِنْ هُمُو ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا

إذا علمنا تلك الحقيقة ـ أَنَّ الأخلاق أساس قيام الأمم ، وَأَنَّ الدِّيْن مصدر الأخلاق ـ **علمنا أن ابتغاءنا « للدِّين » غايةٌ لا مناص منها لصلاح الدُّنْيا والآخرة ،** وإذا ضممنا إلى تلك الحقيقة قول نبيِّنا ﷺ : « **إنما بعثت لأتمم مكارم ـ وفي رواية صالح ـ الأخلاق** »[(١)] ، وشفعنا هذا القول النبوي الطاهر بقول الإمام الشاطبي (ت: ١٣٨٨م) في شريعة الإِسْلام : « **والشريعةُ كلُّها تَخَلُّقٌ بمكارم الأخلاق** »[(٢)] **ازداد حُبُّنا للإسلام ؛ وتعلقت به قلوبنا أكثر وأكثر .**

يقول د. عبد الله دراز[(٣)] في كلام نفيس له : « عرفنا أَنَّ الفكرة الدينية هي الغذاء الوافي لقوى النفس المختلفة ، والمِداد الخالد لحيويتها . ونُزيد الآن أنَّ للأديان وراء هذه الوظائف النفسية الفردية وظائف أخرى اجتماعية ، ليست بأقل من أختها

(١) حديث صحيح ، يُنْظَرُ : الألباني : سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ط١ ، ١٩٩٥م ، الحديث رقم ٤٥

(٢) الموافقات ، دار ابن عفان ، الرياض ، ط ١ ، (١٩٩٧م) ، ٢/ ١٢٤

(٣) لأهمية د. محمد عبد الله درازفي مجال الدراسات الفكرية والدينية نود أن نعطى نبذة عن هذا العَلَم. لما له من ثقل علمي. ولد د. محمد عبد الله درازعام ١٨٩٤م ، وحصل على الثانوية الأزهرية في عام ١٩١٢م ، **ثم تعلم الفرنسية بمجهوده الخاص** ؛ ليستخدمها فيما يعود على قضية بلاده ودينه بالنفع ، وفي عام ١٩٢٨ م اختير للتدريس بالقسم العالي بالأزهر ، ثم بقسم التخصص عام ١٩٢٩م ، ثم بكلية أصول الدِّيْن عام ١٩٣٠م ، وفي عام ١٩٣٦ سافر إلى فرنسا في بعثة أزهرية ، واشتغل للتحضير لدرجة الدكتوراه ؛ فكتب رسالتين عن « التعريف بالقرآن » وعن « الأخلاق في القُرْآن » ، **نال بهما دكتوراه الدولة من السربون بمرتبة الشرف الممتازة في عام ١٩٤٧م** . توفي في ١٦/ ١/ ١٩٥٨م

يُنظَر هذه المعلومات وغيرها مقال بعنوان : « دستور الأخلاق في القُرْآن » ، بقلم : مُحَمَّد خليفة التونسي ، مجلة العربي الكويتية ، ع ١٩١ ، عام ١٩٧٤م ، ص ١٠٤ . وينظرأيضًا معلومات عن أهم مؤلفاته مقدمة الكتاب « الدِّيْن » طبعة دار القلم .

خطرًا .

لا حاجة بنا إلى التنبيه على أَنَّ الحياة في الجماعة لا قيام لها إلا بـ « التعاون » بين أعضائها ؛ وأن هذا التعاون إنما يتم « بقانون » ينظم علاقاته ، ويحدد حقوقه وواجباته ، وأنَّ هذا القانون لا غنى له عن « سلطان » نازع وازع ، يكفل مهابته في النفوس ، ويمنع انتهاك حرماته . تلك كلها مبادئ مقررة ، والحديث فيها مُعاد مملول .

وإنما الشأن كل الشأن في هذا السلطان النازع الوازع : ما هو ؟

فالذي نريد أن نُثْبِتَه في هذه الحلقة من البحث هو أَنَّهُ ليس على وجه الأرض **قوةٌ تكافئ قوةَ التدين أو تدانيها في كفالة احترام القانون** ، وضمان تماسُك المجتمع واستقرار نظامه ، والتئام أسباب الراحة والطمأنينة فيه ... أجل إن الإِنْسَان يُساق من باطنه لا من ظاهره ، وليست قوانين الجماعات ولا سلطان الحكومات بكافيين وحدهما لإقامة مدينة فاضلة ، تحترم فيها الحقوق ، وتؤدي الواجبات على وجهها الكامل ؛ فإنَّ الذي يؤدي واجبه رهبة من السوط أو السجن أو العقوبة المالية ، لا يلبث أن يهمله متى اطمأن إلى أَنَّهُ سيفلت من طائلة القانون.

ومن الخطأ البين أن نَظُنَّ أنَّ في نشر العلوم والثقافات وحدها ضمانًا للسلام والرخاء ، وعوضًا عن التربية والتهذيب الديني والخلقي ؛ ذلك أَنَّ العِلْم سلاح ذو حَدَّين : يصلح للهدم والتدمير ، كما يصلح للبناء والتعمير ، **ولا بد في حسن استخدامه من رقيب أخلاقي يوجهه لخير الإنسانية وعمارة الأرض** ، لا إلى نشر الشر والفساد »[(١)] .

من خلال هذا الكلام النفيس نقف على مدى الكارثة التي ستَحُلُّ قريبًا من ديارنا بإهمالنا « الدِّيْن » في مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا ومناهجنا الدِّراسيَّة ؛ فغيابُ الدِّيْن نذيرُ شُؤْم وبلاء لا بدَّ أَنَّهُ واقع ، وليس له دافع ؛ لذلك لا بد من اتباع الدِّيْن (الإسلام) لصلاح الدُّنْيا والآخرة.

(١) الدِّيْن ، ص ٩٨ ، ٩٩ (طبعة دار القلم) .

(٤) حث الإسلام على النظر في الأديان ، قال تعالى :﴿ **وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ** ﴾ الزخرف: ٤٥ قال المفسرون : « ليس المراد بسؤال الرسل حقيقة السؤال لإحالته ، **ولكنه مجاز عن النظر في أديانهم والفحص عن مِلَلِهم** »[١] . ومن المنطقي أنك تحتاج أن تعرف الإسلام أَوْلًا حق المعرفة ، حتى تقارن بين الإسلام وبين غيره.

(٥) مع زيادة القراءة والاطلاع ، نقف على تنبيهات العلماء على خطورة « **التقليد** » ، وخطورة « **النِّفاق** » ، وخطورة « **أَلَّا يَقُومَ عملُ المرءِ (عبادتُه) على أساسِ الإخلاصِ والصوابِ والإيمانِ الصحيح** » ، وهذه التنبيهات مما يَقِذُ المسلمَ وينعى عليه توانيه . ولنعط أمثلة لهذه التنبيهات بما كتبه الإمام الزَّمَخْشَرِيّ (ت : ٥٣٨ هـ) في تفسيره :

- قال : « ما أقبح التقليد ، والقول المتقبل بغير برهان »[٢] .
- وقال عند قوله تعالى ﴿ **أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا** ﴾ الأحزاب: ١٩ : « ... هل يَثْبُتُ للمنافقِ عملٌ حتى يَرِدَ عليه الإحباطُ؟ قلتُ : لا، **ولكنه تعليمٌ لِمَنْ عسى يَظُنُّ أَنَّ الإيمانَ باللسان إيمانٌ ؛ وإنْ لم يواطئْه القلبُ ، وأَنَّ ما يعمل المنافقُ من الأعمال يُجدى عليه ؛ فَبُيِّنَ أنّ إيمانَه ليس بإيمانٍ ، وأنَّ كلَّ عمل يوجد منه باطلٍ . وفيه بَعثٌ على إتقان الـمُكَلَّفِ أساسَ أمره ، وهو الإيمانُ الصحيح ، وتنبيهٌ على أَنَّ الأعمالَ الكثيرةَ من غير تصحيحِ المعرفة كالبناء على غير أساس ، وَأَنَّهَا مما يذهبُ عند الله هباءً منثورًا** »[٣] .

---

(١) الكَشَّاف ،ت: يوسف الحمادي، مكتبة مصر، القاهرة، ط١، (بدون بيانات أخرى) ، ٤/ ١٥٩

(٢) السابق ، ، ٣/ ١٩٣

(٣) السابق ، ٣/ ٥٥٦

- وفي قوله تعالى ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ إبراهيم: ٢٧ يقول : « ... **الذين لم يَتَمَسَّكوا بحُجَّةٍ في دينهم ، وإنما اقتصروا على تقليد كبارهم وشيوخهم ، كما قَلَّدَ المشركون آباءهم** ؛ فقالوا : ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾ الزخرف: ٢٢. وإضلالهم في الدُّنْيا أَنَّهُمْ لا يَثْبُتونَ في مواقف الفتنِ ، وتَزَلُّ أقدامُهم أولَ شَيْء ، وهم في الآخرة أضلُّ وأزلُّ »[(١)] .
- ويشير عند قوله ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۞ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ **طه: ١٥ – ١٦** : « ... وفي هذا حثٌّ عظيمٌ على العمل بالدليلِ ، وزجرٌ بليغ عن التقليد ، وإنذارٌ بأنَّ الهلاك والردى مع التقليدِ وأهله »[(٢)] .

وإذا نظرنا في أمر « المقلد ، والمنافق ، ومَن يفعل أوامر الشَّرع على غير ما أتى به الشرع » نجد أَنَّ الثلاثة **يجمعهم عدمُ الإيمان العميق بالإسلام وعدم معرفتهم به ، وعدم وثاقة صلتهم به ، وعدم معرفته على حقيقته** ، ولو أَنَّهُمْ آمنوا بالإسلام حق الإيمان ، وعرفوه حق المعرفة ، وأحبُّوه حقَّ الحبِّ ما وقعوا في ذلك .

(٦) لا جدال أَنَّ الإِنْسَان يبحث في حياته الدُّنْيا عن أسباب الراحة والاطمئنان والسعادة ، ويشير علماءُ النفس وعلماءُ تنمية الموراد البشرية إلى أهمية « الدِّيْن » في هذا الجانب .

- يقول د. براين وس **Dr. Brain Weiss** : « إنَّ **المتدينين** يخبروننا أَنَّ السعادة تَنبعُ من مَلْء قلب الإِنْسَان بالحب والإيمان والأمل ، ومن ممارسة الإحسان والسخاء بالعطف ، **وهم ـ حقيقة ـ محقون في ذلك** ، وهم بموقفهم هذا

---

(١) السابق ، ٢/ ٥٣٩

(٢) السابق ، ٣/ ١٣٩ ، ولينظر أَيْضًا ما قاله عند قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ الإسراء: ١٩

يستجلبون لأنفسهم التوازن والانسجام »[(١)] .

- ويشير ستيفن كوفي ـ أحد رواد التنمية البشرية المشهورين ـ إلى عدة أمور لكي تجعل حياة الإِنْسَان أكثر مصداقية وهدوءًا وإخلاصًا وجودة ؛ فيؤكد على أهمية أن تكون هناك بَوْصَلَة لتوجيه الإِنْسَان إلى « الاتجاه الصحيح » ، هذه البوصلة تتمثل في « اعتناق المبادئ السليمة » المبنية على :
  - الوعي الذتي **Self – awareness** .
  - الضمير **Conscience**.
  - الإرادة الحرة **Independent Will**.
  - الخيال المبدع **Creative Imagination** .

ويربط ستيفن كوفي الضمير بـ « الدِّيْن » (عالم الأخلاق ، الفكر الأخلاقي ، قضايا الصواب والخطأ)[(٢)] .

(٧) الإسلام يرتبط بالفطرة ، واهتداء الإِنْسَان لفطرته كسب كبير ، وغنى عظيم ، « والحقيقةُ أنَّ في فطرة الإِنْسَان فراغًا لا يملؤه علمٌ ولا ثقافة ولا فلسفة ؛ إنما يملؤه الإيمان بالله جل وعلا . وستظل الفِطرة الإنسانية تحس بالتوتر والجوع والظمأ ، حتى تجد الله ، وتؤمن به ، وتتوجه إليه »[(٣)] ؛ أي أنَّ : من لوازم توثيق الصلة بين المسلم ودينه إرشادُهُ إلى« السعادة » ، وتوجيهه إلى « الاتجاه الصحيح » وإبعاد التوتر والقلق عن حياته . إن توثيق الصلة بين المسلم ودينه وبيان أَنَّهُ الحق يجعل المسلم يُقبل عليه ، ويرتوي بقيمه الأخلاقية ، وبمبادئه الرَّبَّانِيَّة بما

---

(١) **Many Lives, Many Masters, Piatkus Books, Great Britain, first published, 1994, p. 210** ، وهذا الكتاب بِيعَ منه أكثر من مليون نسخة .

(٢) **Stephen R. Covey, First Things First, Simon and Schuster, New York, 1994, p.60** ، وستيفن كوفي أحد مشاهير رواد التنمية البشرية ، وصاحب كتاب : العادات السبع للناس الأكثر فاعلية .

(٣) د. يوسف القرضاوي : الخصائص العامة للإسلام، ص ١١

يحقق له السعادة في الدُّنْيا والآخرة.

(٨)في عصرنا هذا تؤدي وسائل التواصل الاجتماعي دورًا خطيرًا في تشكيل ثقافة الشباب ووعيهم ، ومكمن الخطورة في هذه الوسائل السهولةُ المفرطة في الوصول إليها ، وفي مشاهدة محتواها ، وفي بعض هذه المواد ما يشكك في أمور الدِّيْن وثوابته وتاريخه وأصوله : القُرْآن والسنة ، الأمر الذي يُفضي في نهاية المطاف بهؤلاء إلى التشكك في أمور دينهم ، والانصراف عنه ، بل ـ عياذًا بالله ـ يصل بعضهم إلى درجة الإلحاد ، ولا أحتاج إلى كثير أَدِلَّة لأوضح ذلك ، فالواقع يشهدُ بما أقول ، وهنا يجب أن نوضح للشباب هؤلاء أَنَّ الإِسْلام هو الحق ، وأن نقدم لهم الأَدِلَّة على ذلك .

(٩)هناك الكثير من أمور حياتنا ـ عاداتنا وتقاليدنا ـ لا نستطيع أن نُقَيِّمَها ، ولا أنْ نَتَبَيَّنَ فيها وجه الصواب أو الخطأ إلا إذا كان لدينا المقياس الصحيح والمعيار القويم الذي يمكننا من هذا التقييم والتقويم لتلك العادات وهذه التقاليد ، ولا شكَّ أَنَّ المقياس الذي سيعتمد عليه المسلم الواثق في دينه هو « الإِسْلام » ، وهنا أَيْضًا يجب أن يتثبت أَنَّهُ على الحق .

(١٠) مما يَهُزُّ ثقةَ المسلم بدينه أن يرى ـ ولقد رأى فعلًا ـ بعضًا ممن يلتزمون السَّمْتَ الإسلامي (اللحية الكثة الوافرة ، الملابس البيضاء القصيرة ، غطاء الرأس ...) يقفون مع الطغيان وأهله ، ويعاونونهم بكل صدق وتفانٍ ، وفي أوقات الرخاء والأمن من الحساب والعقاب تجدهم يُعَلِّقُون ، وينقدون ، ويَتَبَاكونَ في الفضائيات على التفريط في حقوق الدِّيْن والناس !! وفي أوقات الطغيان والمِحن والأزمات التي تحتاج فيها الأمة هؤلاء تجدهم يلتزمون الصمت ، كأنَّ على رؤوسهم الطير لا ينبسون ببنتِ شفة ، وقد كانوا من قبل يملؤون الدُّنْيا تباكيًا وصراخًا على الحقوق المضيَّعة .

هذا الموقف صدم كثيرًا من الشباب ، وجعلهم يراجعون أفكارهم ، بل يراجعون دينهم ؛ فأي دِيْن هذا الذي يقف مَن يُمثِّلونه مع الظلمة والقَتَلَة ، أليس

هؤلاء الشيوخ الذين يبررون مواقف الطغاة ويؤيدونهم كنا نتزاحم في صلوات الجُمَع على خُطبهم ، وكنا نرحل من مسجد لمسجد ، ومن محافظة لأخرى لسماع دروسهم ؟! أليس هؤلاء الذين صَدَّعوا رؤوسنا بعدل الإِسْلام وكراهية الظلم ؟! أين هم الآن ؟ ولماذا يسكتون ؟ ولماذا عن هذا الظلم غافلون ؟!

لقد كان لهؤلاء المشايخ فتنةٌ وتأثيرٌ سلبيٌّ على الشَّبِيبة لا تبلغها فتنة ، فتنةٌ ما أبقت وما ذرت ، تركتهم حيارى ، وامتَلَخَتْ أواخي الإيمان وعُراه في نفوس كثير منهم .

ولا نستطيع أن نترك هذه النقطة دون الإشارة إلى « التشويه المتعمد » للإسلام بأيدي بعض المشايخ أنفسهم على الفضائيات ، حيث نراهم يخرجون « الجن والعفاريت » على الهواء مباشرة ، مما جعل « الإِسْلام » ـ وإنا لله وإنا إليه راجعون ـ أُضحوكة ، ومثار سخرية من أبنائه قبل أعدائه ، فيقوم المذيع (الأستاذ الجامعي الأزهري!!) بهذا الإخراج للجن والعفاريت على مرأى ومسمع من الناس ، ويأتي بحركات وأقوال تجعلنا نبكي دمًا ونتحسر بحسرات تملأ قلوبنا على ما وصلنا إليه . فوالله لو أراد أعداؤنا تشويه صورة الإِسْلام ما وصلوا إلى هذه الدرجة . تلك الصورة التي اهتزت يجب أن نعمل على تثبيتها ببيان أَنَّ الإِسْلام هو الدِّيْن الحق ، وأن هؤلاء المشايخ لا يمثلون الإِسْلام من قريب أو بعيد ، بل يمثلون أنفسهم فقط.

(١١) الرِّدة الصامتة التي يسير إليها المجتمع عن قصد أو غير قصد ، والانفلات الأخلاقي الذي باتت العين لا تُخطئه في الواقع الحي أو على شبكات التواصل الاجتماعي ، وغياب الدور الحقيقي لمن أوكلت لهم أمر الدعوة إلى الله ، وغلبة صوت العلمانيين والملحدين ، وفتح أبواب الإعلام بكل صوره لهدم ثوابت الأمة ورموزها ، كل هذا يولد ويهيئ بيئة لظهور شباب يتساءلون عن أهمية الدِّيْن ومكانته ، ولماذا يبتغون الإِسْلام دِيْنًا ؟

(١٢) أصحاب العقول الفلسفية المتسائلة لماذا خُلقنا ؟ ولماذا وجد الكون ؟ يجب أن تُقدم لهم الإجابة التي تريح قلوبهم . وهذه الإجابة لكي تطمئن إليها نفوسُهم يجب أن تَتَثَبَّت من صدق مصدرها : الإِسْلام .

(١٣) الإنسانُ مَقُودٌ أبدًا بفكرة صحيحة أو فاسدة ؛ فإذا صلحت هذه الفكرة صلح كل شَيْء ، وإن فسدت فسد كل شَيْء .

(١٤) لا شك أن تفاعل قارئ القُرْآن مع القُرْآن يختلف من شخص لآخر ، فالذي يقرأ القُرْآن وهو موقن أَنَّهُ من عند الله ، يختلف عمن يقرؤه وهو غير ذلك ، فتأثير آي القُرْآن واستقبال هذا التأثير والتفاعل معه لا بد أن يكون مختلفًا .

(١٥) تأدية بعض الحق لدين الله ، وإعداد الإجابة ليوم الحساب ، ففي الحديث عن النَّبِيّ ﷺ: « لا تَزُولُ قدما عبد حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه ، وعن علمه ما فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن جسمه فيم أبلاه »(١) .

(١٦) المظلوم الذي لا يستطيع دفع الظلم عن نفسه ـ وما أكثر الظلم في حياتنا وبلادنا ! ـ عندما يؤمن بأن الإِسْلام هو الحق ، وَأَنَّ الآخرة حَقٌّ ؛ فَإِنَّهُ يصبر على الظلم ؛ لأنه يعلم أَنَّ الظلم ظلمات على صاحبه يوم القيامة ، وأَنَّهُ يوقن بقول النَّبِيّ ﷺ : « اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافرًا، فَإِنَّهُ ليس دونها حجاب »(٢) .

(١٧) عندما تعلم أَنَّ الإِسْلام هو الحق تعرف ضلال من يدعو لغيره ، من العِلمانيين والليبراليين والماركسيين وغيرهم ، وعندما تعلم أَنَّ الإِسْلام هو الحق الذي يجب أن يُبتغى يجِلُّ في عينيك من يدافع عنه بكل ما أوتي من قوة ، وضحى في سبيله بكل غالٍ ونفيس .

(١٨) أثناء كتابتي لهذا الكتاب وقع حدثٌ مُزَلزِلٌ في يوم ٧ أكتوبر ٢٠٢٣م ، ألا وهو حادث « **طوفان الأقصى** » ، حيث قامت حركةُ المقاومة الإسلامية حماس بهجوم مفاجئ على إحدى المستوطنات اليَهُودِيَّة في أراضينا العَرَبِيَّة المحتلة ، وكانت نتيجة هذا الهجوم مقتل عدد كبير من هؤلاء المستوطنين وأسر المئات منهم . وكان الرد الإسرائيلي على هذا الحدث المزلزل دكّ قطاع غزة بالطائرات

---

(١) حديث صحيح ، يُنْظَرُ : الألباني : صحيح الجامع الصغير وزياداته ، المكتب الإسلامي ، ١٤٣١هـ ، (بدون بيانات أخرى) ، حديث رقم : ٧٣٠٠

(٢) حديث صحيح ، يُنْظَرُ : الألباني ، السلسلة الصحيحة ، رقم : ٧٦٧

وارتقاء أكثر من « ٣٠ ألف شهيد » من أهلنا وإخواننا في أراضينا المحتلة.

ومما أَكْلَمَ الصدر ، وقطَّع نياط القلب أن معظم المسلمين قد خذلوهم ، بل حاصروهم ، ولم يقدموا يد العون لإخواننا في الوقت الذي وقفت جوار إسرائيل أمريكا وبريطانيا وفرنسا وألمانيا ... ، بل وقفت بعض الدول العَرَبِيَّة المسلمة بجوار الكيان الصيهوني ضد إخواننا في غزة ، وأمدوهم بالمواد الغذائية ، في الوقت الذي أكل أهل غزة أوراق الشجر ، وماتوا جوعًا !!!

كانت المشاهد التي تعرضها قناة الجزيرة تمزق القلب تمزيقًا ، وتجعلني أغمض عيني ، ويضيق صدري ، ولا ينطلق لساني . يا إلهي ، يا أرحم الراحمين ، ألا من معين لهؤلاء ؟! ألا يوجد زعيم عربي واحد يمد يد الغوث لهؤلاء ؟! اللهم رحماك رحماك .

ولكن مما جعل النفس يدخلها بعض الراحة ، ويُفرِّج عن همها بعض التفريج ، أن هؤلاء عند الله ـ بإذنه ـ من الشهداء ، ونحن على يقين من أَنَّ الله ادَّخر لهم النعيم المقيم في الآخرة ، وتركوا وراءهم من يحبون العاجلة . لماذا نحن على اليقين ؟ لأننا نؤمن بالله ، وبكتابه ورسوله ؛ أي لأننا نَبْتَغِي الإِسْلام دِيْنًا ؛ لأنه الحق المبين.

الأمر الثالث :

ثالث الأمور التي أودُّ بيانها الفصولُ التي سَيَضُمُّها هذا المؤلَّف والتصور الذي سيسير عليه ، وقصدي من هذا أن أضع بين يدي القارئ الرباط الجامع الذي يجمع بينها ؛ فهذا ـ في تصوري ـ أدعى لجذب انتباه القارئ لمادة هذا الكتاب .

تصورنا وخطتنا لإنجاز هدف الكتاب بشقيه (أسباب ابتغائنا الإسلام دينًا وأسباب رفضنا لغيره) سيكون ـ إن شاء الله ـ من خلال النقاط الآتية :

- تقديم بيان يوضح المقصود بـ « الدِّيْن » ، والمقصود بـ « الإِسْلام » .
- إثبات أَنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ موجود ، وأَنَّهُ هو خالق الكون بكل مَن فيه.
- إثبات أَنَّ القُرْآن كلام الله ، نزل على رَسُول أُمِّيّ هو مُحَمَّد بن عبد الله ﷺ .
- إثبات أَنَّ القُرْآن الكريم نُقِلَ إلينا نقلًا سليمًا .

ومن خلال المعطيات التي ستُذكَر في هذه النقاط سنبَيِّنُ أَنَّ الله تعالى الموجود

بالأدلة اليقينية ، وخالق هذا الكون بكل ما فيه ومن فيه ، أنزلَ « رِسالَة » على شخص أُمِّيّ يأمرنا فيها بأن نؤمن به ، ونسمع ونطيع لما جاء في هذه الرِّسالَة ، وأمرنا في هذه الرِّسالَة أيضًا أن نَبْتَغِي الإِسْلام دِيْنًا .

وهذه الرِّسالَة التي نزلت على هذا الرَّسُوْل الأُمِّيِّ لا يمكن أن تكون من تأليفه وصنعه ؛ لأن هذه الرِّسالَة قد ضَمَّتْ في ثناياها وأطوائها ما يستحيل معه أن تكون من كلام هذا الرَّسُوْل مُحَمَّد بن عبد الله ﷺ ، أو من بنات أفكاره ، وهذه الرِّسالَة نُقلت إلينا نقلًا كاملا بلا تحريف أو تصحيف أو تعديل أو تبديل .

من خلال هذا التصور تنبثقُ الفصولُ الآتية :

⇦ الفصل الأول: المقصود بمصطلح « الدِّيْن » ، والمقصود بمصطلح « الإِسْلام » .

⇦ الفصل الثاني : الأَدِلَّة على وجود الله .

⇦ الفصل الثالث : القُرْآن كلام الله .

⇦ الفصل الرابع : مَوْثُوقِيَّة نقل القُرْآن .

⇦ الفصل الخامس : لماذا نَبْتَغِي الإِسْلام دِيْنًا ؟

من خلال هذه الفصول الخمسة يتحقق بفضل الله الإجابة عن النقطة الأساسية الأولى ، أو الهدف الأساسي الأول .

ويأتي الهدف الثاني « لماذا لا نَقْبَل غير الإِسْلام دِيْنًا ؟ »

والإجابة عن هذا السؤال تتطلب تحديد الأديان الرئيسية التي يمكن أن تُنافِسَ الإِسْلام على الإيمان بها ، وقد تَمَّ تحديد هذه الأديان ، وتحديد الأسباب التي من أجلها نرفض اعتناقها ، ولا بد أنْ يكون هذا الرفض قائمٌ على أسس وقواعد ، وليس رفضًا عاطفيًّا لمجرد الرفض .هذا التصور جمعناه كله في الفَصْل السادس ، وجعلنا عنوانه : « لماذا لا نَقْبَل غير الإِسْلام دِيْنًا ؟ » .

بعد هذه الفصول الستة رأينا أَنَّ المقام يقتضي وجود حديث يتناول جانبين مهمين من وجهة نظرنا ، جانب عن« كيف نفهم الإِسْلام ؟ » ؛ إذ الإِنْسَان عدو ما

يجهل ، وجانب يدل ويشير إلى حيوية الإِسْلام في وقت يتم التشويه المتعمد من أبنائه قبل أعدائه ؛ فجعلنا الفَصْل السابع بعنوان : « كيف نفهم الإِسْلام ؟ » ، والفصل الثامن بعنوان : « لماذا أسلموا ؟ » ، خَصَّصناه للحديث عن العقول الكبيرة التي أسلمت لله رغم كل التشويهات المتعمدة من حوله .

تلك هي فصول الكتاب ، وأسأل الله التوفيق والسداد في التعبير عنها .

الأمر الرابع :

الأمر الرابع والأخير في هذا التَّمهِيد هو لتَجلية المنهج الذي سأسير عليه في هذا الكتاب .

ولا نحتاج إلى مزيد بيان لأن نقول إن اتباع الباحث لمنهج محدد مهم للغاية ، وأَنَّهُ من العبث وتضييع الوقت أَنْ يسير الباحثُ في عمله على غير هدى من مَنْهَج علمي صحيح محدَّد ، وخطة محكمة ؛ لأن هذا سيؤدي إلى نتائج عبثية ، لا ندري مدى صحتها ونصيبها من الحقيقة . إِنَّ المَنْهَج « بصفة خاصة هو العصب الذي يسري في كل أعمال الباحث ، ويكاد يحدد اتجاهه الفكري ، ويستقطب أفكاره الرئيسية »[(١)] ، و« ليست طبيعة الموضوع هي التي تعطي العمل قيمته ؛ بل هو المَنْهَج الذي استخدم فيه »[(٢)] . والعلماء يربطون بين معنى « العِلْم » و« المَنْهَج » ؛ بمعنى أَنَّ العِلْم لا يكون « علمًا » إلا إذا ارتبط بـ« مَنْهَج » ، فالعلم ليس إلا منهجًا في التفكير ، وليست العِلْمِيَّة موقوفة ـ دائمًا ـ على حقائق ثابتة أو شبه ثابتة ، بل المهم ـ في ذلك ـ المَنْهَج الذي يتعامل مع هذه الحقائق ؛ لذلك يرى العلماء أن كلَّ علم يكون علميًّا بقدر ما تكون طريقته علمية ، وتؤكد « تاريخية العِلْم » أَنَّ الحكمة ـ وهي الآن المعرفة العِلْمِيَّة الموثقة ـ ليست رهن مرحلة عُمرية أو منصب أو عقيدة ، بل **رهنُ منهجٍ بحثٍ محدد القواعد ، وأهلية الباحث في مرحلة بعينها**[(٣)] .

---

(١) إبراهيم مدكور ومنهج الفلسفة الإسلامية ، مجلة العربي ، د. حامد طاهر ، العدد ٤٥٠ ، ص ١٣٨

(٢) د. سيد أحمد علي الناصري : فن كتابة التَّاريخ وطرق البحث فيه ، ص١٨١

(٣) د. جون غريبين : تاريخ العِلْم ، ١/ ١٠

بناء على ما سبق فقد اختططت لنفسي المنهج الآتي :

١ـ لن أنقل معلومة علمية أو اقتباسًا إلا عن مصدر موثوق فيه علميًّا ، ومن متخصص في الشأن الذي نحن بصدده .

٢ـ الاعتماد على المصادر غير الإسلامية عند الحديث عن غير الإِسْلام قدر المستطاع .

٣ـ مراعاة اللغة الواضحة المعبرة عن المعنى المقصود .

٤ـ العرض المنطقي للأفكار ، بحيث تترابط الأفكار ويأخذ بعضها بحجز بعض.

ذلك هو تمهيدي الذي أبدأ به هذا المؤلف ، والله أسأل أن يرزقني الإخلاص في القول والعمل ، فهو من وراء القصد .

*****

الفَصْل الأول

بيان معنى الدِّيْن ومعنى الإسلام

- **بيان معنى الدِّيْن** :

(١) المعنى المعجمي للفظة « الدِّيْن » في المعاجم العَرَبِيَّة .

(٢) المعنى الاصطلاحي لـ « الدِّيْن » .

(٣) السياق الثقافي لكلمة « الدِّيْن » .

- **بيان معنى الإِسْلام :**

❋ المعنَى اللغوي لكلمة « الإِسْلام » .

❋ المعنى الاصطلاحي لـ « الإِسْلام » .

- **الخصائص العامة الإسلام :**

❋ الرَّبَّانِيَّة .

❋ الإنسانيَّة .

❋ الشمول .

❋ الوسطيَّة .

❋ الواقعيَّة .

❋ الوضوح .

❋ الجمع بين الثبات والمرونة .

الفَصْلُ الأَوَّلُ
بيان معنى الدِّيْن ومعنى الإسلام

إن قصدنا الرئيس الذي ابتغيناه ، وغايتنا التي شمرنا عن ساعد الجِد لأجلها بيان أَنَّ الإِسْلام هو الدِّيْن الحق ، وما سواه الباطل ، والوصول إلى هذا الهدف وتلك الغاية يترتب عليها أمور كثيرة ، منها أن كل كبيرة وصغيرة في حياتنا سَتُقَيَّد بهذا الدِّيْن ، وأنَّ اتباع هذا الدِّيْن في كل أوامره أمر لا مناص منه ولا فكاك .

إذا كان الأمر كذلك فإن المَأتَى الصحيح لهذا الهدف أن نُبَيِّنَ ـ أَوْلًا ـ ما المقصود بالدِّينِ ؟ وما المقصود بالإسلام؟ ؛ فليس من المنطقي أن يتحكَّمَ فينا شَيْء ويوجه كل أمور حياتنا، ويؤثر في نظرتنا لما حولنا ، ولا نعلم ماهيته ، ولا كنهه ولا خصائصه ، فالوضع المنطقي السليم في ترتيب أعمالنا العَقْلِيَّة يقتضينا أن نبدأ بتحديد ما الدِّيْن ، وما الإِسْلام ، فهذا من قبيل : « أثبت العرش ثم انقش » ، ومن قبيل « الحكم على الشيء فرعٌ عن تصوره » .

*****

» أولا معنى مصطلح « الدِّيْن » :

*** المعنى المعجمي للفظة « الدِّيْن » في المعاجم العَرَبِيَّة :**

من يحاولُ البحث عن معنى لفظة « الدِّيْن » في المعاجم العَرَبِيَّة يجد نفسه في

فوضى مُعجمية ومتاهةٍ من المعاني والدِّلالات لهذا اللفظ ، ويكاد ينتشر علينا أمرُ الوصول إلى دلالة لغوية محددة لهذا اللفظ . وقد كفانا مُؤْنةَ الخوض في هذه الفوضى وتلك المتاهة ، العَلَّامةُ د. مُحَمَّد عبد الله دراز(ت : ١٩٥٨م) في كتابه المهم « الدِّيْن : **بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان** » ؛ فَبَيَّنَ أنَّ كلمة « الدِّيْن » تؤخَذُ :

- تارة من فعل متعدٍ بنفسه : « دانه ، يَدينهُ » .
- وتارة من فعل متعدٍ باللام : « دان له » .
- وتارة من فعل متعدٍ بالباء : « دان به » .

وباختلاف « الاشتقاق تختلف الصورة المعنوية التي تعطيها الصيغة :

١ـ فإذا قلنا : « دانَهُ دِيْنًا » عنينا بذلك أَنَّهُ : مَلَكَهُ ، وحَكَمَه ، وساسه ، ودَبَّرَه ، وقَهَرَه ، وحاسبه ، وقضَى في شأنه ، وجازاه ، وكافأه ؛ فالدِّيْن في هذا الاستعمال يدور على معنى الملك والتصرف بما هو شأن الملوك من السياسة والتدبير والحكم والقهر ، والمحاسبة والمجازاة ...

٢ـ وإذا قلنا : « دان له » أردنا أَنَّهُ : أطاعه ، وخضع له . فالدِّيْن هنا هو الخضوع والطاعة ، والعبادة والورع ...

٣ـ وإذا قلنا : « دان بالشيء » كان معناه أَنَّهُ : اتخذه دِيْنًا ومذهبًا ؛ أي : اعتقده ، أو اعتاده أو تخلق به ، فالدِّيْن على هذا هو المذهب والطريقة التي يسير عليها المرء نظرِيًّا أو عمليًّا . فالمذهب العملي لكل امرئ هو عادته وسيرته ؛ كما يُقال : « هذا دِيني ودَيدني » . والنظري عنده هو عقيدته ورأيه الذي يعتنقه ... » [(١)] .

وبعد هذا التحليل اللغوي يقول د. مُحَمَّد عبد الله دراز: « وجملة القول في هذه المعاني اللغوية أنَّ كلمة الدِّيْن عند العرب **تشير إلى علاقة بين طرفين يُعَظِّمُ أحدهما الآخر ويخضع له** ، فإذا وُصِفَ بها الطرف الأول كانت خضوعًا وانقيادًا ، وإذا وصف بها الطرف الثاني كانت أمرًا وسلطانًا ، وحكمًا وإلزامًا ، وإذا نظر بها إلى الرباط الجامع بين الطرفين كانت هي الدستور المنظم لتلك العلاقة ، أو المظهر الذي

---

(١) الدِّيْن بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ، دار البيان ، القاهرة ، ط١ ، (٢٠١٧م) ، ص ٢٦

يُعَبِّرُ عنها . ونستطيع الآن أن نقول إنَّ المادة كلها تدور على **معنى لزوم الانقياد ؛ فإنَّ الاستعمال الأول: الدِّيْن هو إلزام الانقياد ، وفي الاستعمال الثاني : هو التزام الانقياد ، وفي الاستعمال الثالث: هو المبدأ الذي يُلتَزَمُ الانقياد له** » (١) .

بناء على بيان د. دراز للمعنى اللغوي لهذا اللفظ فإننا « نفهم » أننا مع هذا اللفظ أمام ثلاثة عناصر : أ ـ مُخضِعٌ . ب ـ مَخضُوعٌ . ج ـ وعلاقة أو رابط يجمع بينهما. وعندما أقول : « إِنَّ الإِسْلام ديني » فهذه الجملة قد تعني أنني :

- ⇦ خاضعٌ للإسلام ومنقادٌ له .
- ⇦ وتعنى أَنَّ الإِسْلام هو المخضوع له ؛ لأنه سلطانٌ وحكمٌ ومُلزِمٌ لي .
- ⇦ وأنَّ ما يقوله الإِسْلام ويأتي به هو الدستور المُنَظِّمُ لي ولحياتي ولأفعالي وأقوالي ، وأنا ملتزمٌ به .

هذا هو المعنى اللغوي والمعجمي للفظ الدِّيْن .

وبتأمُّل هذا التعريف نجد أننا إذا اكتفينا به سنقع في « إشكالية » مرتبطة بجانب من جوانبه الدلالية ، الجانب الأول جانب المُخضِع ؛ إذ قد يُثير سؤالا أو أسئلة : هل أي خضوع يسمى دِيْنًا ؟ هل الخضوع للأب وللأم يسمى دِيْنًا ؟ هل الخضوع للحاكم يسمى دِيْنًا ؟ هل الخضوع للمنتصرِ دِيْنًا ؟!

هذا التساؤلات والاعتراضات تنبَّه لها د. دراز ، وأشار إلى أَنَّ المعنى اللغوي والمعجمي يوقع فيها ؛ فقال : « بيد أنَّ هذه التحليلات الاشتقاقية كلها إنما تكشف لنا عن جذر المعنى وأصله في اللغة ، **ولا تُصور لنا حقيقته واضحةً وافيةً** ، كما هي في عُرف الناس واصطلاحاتهم ، بل لا تزال المسافة منفرجة بين المعنى اللغوي والمعنى العُرفي ؛ ذلك أَنَّهُ ليس كل خضوع وانقياد يُسَمَّى في العُرف تدينًا ، فخضوع المغلوب للغالب ، وطاعة الولد لوالده ، وتعظيم المرءوس لرئيسه ، كلُّ أولئك قد يكون من معدن آخر غير معدن الدِّيْن ، كما أَنَّهُ ليس كلُّ رأي ومذهب ، ولا كل سيرة وخلق

(١) السابق ، ص ٢٧

يسمَّى دِيْنًا »[1] ؛ إذن ، فلننتقل إلى المعنى الاصطلاحي رَجَاة أن نقف على المعنى الدقيق لمصطلح الدِّيْن .

* المعنى الاصطلاحي لـ« الدِّين » :

التعريفات الاصطلاحية التي قُدِّمَت لمصطلح « الدِّيْن » كثيرة للغاية[2] ، تجعل مَن يُضطرُّ للاختيار منها في حَيْرةٍ شديدة من أمره ، أيُّها يختار وأَيُّها يدع ؟ وما الدقيق منها وما الأكثر دقة ؟

ولكي نتفادى هذه المشكلة ـ مشكلة تعدد التعريفات ـ ولكي نقف على أدقها أرى أنْ نُقَدِّمَ بين يدي التعريف الاصطلاحي أهمَّ الخصائص والسمات التي تتَمَزَّى بها فكرة أو ظاهرة « الدِّيْن » ، ونستعين بتلك الخصائص وهذه السمات في نهاية الأمر للوقوف على أدق التعريفات الممكنة . ولا يخفى علينا أن ما سنقدمه من خصائص لظاهرة الدِّيْن سيفيدنا من زاوية أخرى وهي تمكيننا من تصور أدق لهذه الظاهرة ؛ إذن فمن خلال عرض هذه الخصائص نحقق هدفين : دقة التصور ، ودقة التعريف .

نقول : مما سجَّله الباحثون والعلماءُ عن خصائص « الدِّيْن » وسماته :

- « ... تتَمَثَّلُ أهم سمات الدِّيْن في الإيمان **بوجود قوى خارقة للطبيعة** ، ويَطرَح الدِّيْنُ رؤيةً كليَّةً للعالم ، ونظامًا متكاملًا من العبادات ومشاعر دينية »[3] .
- « ... الدِّيْن يُعَبِّرُ عن العلاقة بين المطلق في إطلاقه والمحدود في محدوديته ؛ ولهذا يتصف أيُّ دِيْن بما يأتي : أ ـ الاعتقاد في مطلق . ب ـ تحديد علاقة الفرد بهذا

(١) السابق ، ص ٢٨

(٢) ذكر د. دراز لتعريف الدِّيْن أكثر من أربعة عشر تعريفًا ، وجاء في مادة « الدِّيْن » في موسوعة « العقيدة الإسلامية » ، وزارة الأوقاف ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، ٢٠١٠م ص ٥٩٨ ما نصه: « إذا كان فقهاء اللغة قد اختلفوا حول معنى الدِّيْن ، فإنَّ علماء العقيدة ـ بل البشر بوجه عام ـ قد اختلفوا أَيْضًا حول هذا المعنى ، واضطربوا اضطرابًا بينًا ، وذهبوا مذاهب شتى كلها تعبر عن نظرتهم ومذهبهم الفكري أو العقدي الذي ينتمون إليه » .

(٣) سعد الفيشاوي : المُعْجَم العِلْمِيّ للمعتقدات الدينية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ط١ ، (٢٠٠٧م) ، ص٥٢٣

المطلق . ج ـ ممارسة شعائر وطقوس معينة »[(١)] .

- « السِّمَة الأساسية والحاسمة في الدِّيْن هي **الإيمان بقوة أو ظاهرة فوق طبيعية** »[(٢)] .

وذكر د. مُحَمَّد عبد الله درازعددًا من هذه الخصائص :

- « ... نحنُ لا نوافق على حذف مبدأ الألوهية من تعريف الأديان ، بل نذهب مع الفيلسوف الألماني إرنست شلاير ماخر **بأنَّ قِوام حقيقة الدِّيْن هو ذلك الشعور بالحاجة والتبعية المطلقة لقوة ماهرة** ؛ فلا ريب أنَّ هذا الشعور ركن أصيل لا بد منه في تحقيق ماهية الدِّيْن من حيث هو »[(٣)] .

- « ... المُتَدَيِّن يهدف بتقديسه إلى حقيقة خارجة عن نطاق الأذهان ، وإن كانت تُعبر عنها الأذهان فَإِنَّهَا في هذا التعبير تشير إلى ذات مستقلة ... وأهم مميزاتها أَنَّها ليست مما يقع عليه حِسُّ المُتَدَيِّن ، ولا مما يدخل في دائرة مشاهداته ، وإنما هي شَيْء غيبي لا يدركه إلا بعقله ووجدانه ... ثم إن هذا الغيب الذي تؤمن الأديان بوجوده من وراء الطبيعة ليس من جنس هذه الطبيعة المادية المنفعلة ، بل هو شَيْء ذو قوة فعَّالة مُؤثِّرَة ، وله أسلوب في تصرفاته ، مباين للطرائق التي تؤثر بها المادة فيما حولها... على أَنَّها قوةٌ عاقلة تقصد ما تفعل ، وتتصرف بمحض إرادتها ومشيئتها . وأخيرًا فإنَّ هذه القوة العاقلة المدبِّرة في نظر المتدينين ليست قوة منطوية على نفسها ، منعزلة عنه وعن العالم ، **بل يرى أنَّ لها اتصالا معنويًّا به وبالناس ، تسمع نجواهم ، وتصغى لشكواهم** ، وتُعنى بآلامهم وآمالهم ، وتستطيع ـ إن شاءت ـ أن تكشف عنهم ما يدعونها إليه »[(٤)] .

---

(١) مراد وهبة: المُعْجَم الفلسفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، (٢٠١٦م) ، ص٣٥٥

(٢) **M.Rosenthal and P.Yudin, A Dictionary of Philosophy, Progress Publisher, Moscow, first printing, 1967, p.387**

(٣) الدِّيْن بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ، ص ٣٥

(٤) السابق ، ص ٣٦ ، ٣٧

- « ... فالفاصل الأخير الذي يتم به تصوير القوة التي يؤمن بها المُتَدَيِّن أَنَّهَا **قوة علوية سبحانية ، قاهرة غير مقهورة ، يخضع هو لها ، ولا تخضع له** » [(١)] .
- « ... أما المُتَدَيِّن فخضوعه شعوري اختياري معًا ، وهو حين يخشع لمعبوده ويسجد لعظمته **يفعل ذلك عن طواعية لا عن كراهية** » [(٢)] .
- « ... خضوع المُتَدَيِّن لمعبوده ... ليس الخضوع الذي يخلق اليأس ، ويكبت النفس ... بل هو شعورٌ يُرَفِّه عن القلب بما يفتحه أمامه من آفاق الإمكان ، وهو شعورٌ يضع عن النفس الأثقال ، ويحطم ما حولها من الأغلال ... » [(٣)] .
- « ... ذلك هو فصل ما بين الفلسفة والدِّيْن ، غاية الفلسفة المعرفة ، وغاية الدِّيْن الإيمان ، مطلب الفلسفة فكرة جافة ، ترتسم في صورة جامدة ، ومطلب الدِّيْن روح وثابة وقوة محركة . لا نقول كما يقول كثير من الناس إن الفلسفة تخاطب العقول ؛ وإن الدِّيْن يخاطب القلوب ويستهوي المشاعر ، غير مبالٍ بمبادئ المنطق وقواعد العلم... ؛ **فذلك وصف لا ينطبق على كل الأديان ، ولكنَّا نقول إنَّ الدِّيْن في كل أوضاعه لا يقنع بعمل العَقْل قليلًا أو كثيرًا حتى يُضَمَّ إليه ركونُ القلب** » [(٤)] .

من خلال هذه الاقتباسات والنقولات يمكن أن نضع أيدينا على أهم خصائص ظاهرة « الدِّيْن » بوجه عام عند كل المتدينين ، ونحددها كالآتي :

⇦ الإيمان بقوة خارقة للطبيعة ، ذات مستقلة ، قائمة بنفسها .

⇦ هذه القوة ليست مما يقع عليه حسُّ المُتَدَيِّن ، ولا مما يدخل في دائرة مشاهداته (؛ لَأَنَّهَا غيب).

---

(١) السابق ، ص ٤٢

(٢) السابق ، ص ٤٤

(٣) السابق ، ص ٤٥

(٤) السابق ، ص ٦٧

⇦ هذه القوة الغيبية فَعَّالة مُؤَثِّرَة قاهرة غير مقهورة ، يخضع لها المُتَدَيِّن ، ولا تخضع له ، ولها أسلوب في تصرفاتها مباين للطرائق التي تؤثر بها المادة فيما حولها.

⇦ هذه القوة لها اتصالٌ معنويٌّ بالناس ، تسمع نجواهم وشكواهم.

⇦ يطرح الدِّيْن رؤية شاملة كليَّة للعالم .

⇦ غاية الدِّيْن عَمَلِيَّة ، يُعرفنا الحقَّ لنؤمن به ونحبه ، ويعرفنا الواجب لنؤديه، وتكمُلُ نفوسُنا بتحقيقه.

⇦ يقدم نظامًا متكاملًا من العبادات والشعائر .

⇦ يخاطب القلبَ والعقلَ معًا .

⇦ يوضح العلاقة بين القوة الخارقة للطبيعة ومن يعبدها .

⇦ يشعر المُتَدَيِّن بأنه في حاجة إلى هذه القوة الخارقة .

⇦ يخضع المُتَدَيِّن لهذه القوة خضوعًا اختياريًّا وبرغبة ورهبة وحب .

⇦ هذا الخضوع يرفه عن القلب بما يفتح أمامه من آفاق الإمكان.

إذا استندنا إلى هذه الخصائص لفكرة « الدِّيْن » ، وأخذناها في الاعتبار ، يمكن في ضوئها أن نختار التعريف أو التعريفات التي تغطي هذه الخصائص كلها أو معظمها.

من هذه التعريفات التي نختارها في ضوء هذه الخصائص :

✓ الدِّيْنُ ـ بوجه عام ـ هو : « الاعتقاد بوجود ذات ـ أو ذوات ـ غيبية ، عُلوية ، لها شعور واختيار ، ولها تصرف وتدبير للشئون التي تعني الإِنْسَان ، اعتقاد من شأنه أن يبعث على مناجاة تلك الذات السامية في رغبة ورهبة ، وفي خضوع وتمجيد . وبعبارة موجزة هو : الإيمان بذات إلهية ، جديرة بالطاعة والعبادة . هذا إذا نظرنا إلى الدِّيْن من حيث هو حالة نفسية **etat subjectif** بمعنى التدين. أما إذا نظرنا إليه من حيث هو حقيقة خارجة **fait objectif** فنقول : هو جملة النواميس النظرية التي تحدد صفات تلك القوة الإلهية ، وجملة القواعد

العملية التي ترسم طريق عبادتها »[(١)] .

✔« وضعٌ إلهي سائقٌ لذوي العقول باختيارهم المحمود إلى الخير بالذات ، قَلْبِيًّا وقَالَبِيًّا ، كالاعتقاد والعلم والصلاة »[(٢)] .

✔ « الدِّيْن **Religion** مجموعة معتقدات وعبادات مقدسة ، تؤمن بها جماعة معينة ، يسد حاجة الفرد والمجتمع على السواء ، أساسه الوجدان ، **وللعقل مجال فيه . يقول الجرجاني : الدِّيْن وضع إلهي يدعو أصحاب العقول إلى قبول ما هو عند الرَّسُوْل ﷺ** »[(٣)] .

من خلال هذه الخصائص والتعريفات الاصطلاحِية يمكن أن نقول تلخيصًا إنَّ الإِنْسَان « المُتَدَيِّن » هو الذي :

(١) يعتقد بوجود ذات غيبية علوية .

(٢) ويعتقد بأن هذه الذات لها شعورٌ واختيارٌ وتصرفٌ وتدبيرٌ للشئون التي تعني الإِنْسَان وقوة لا يعلوها قوة .

(٣) وهويخضع لهذه الذات خضوع المُحبِّ.

(٤) وهذا الخضوع اختياريٌّ ، يصل إليه الإِنْسَان بعقله .

(٥) ويترتب على هذا الخضوع عبادته لهذه الذات ، وتنفيذ كل ما تقوله .

(٦) تكون عبادته لهذه الذات وفق قواعد معينة .

(٧) ويترتب على هذا الخضوع ترفيه عن القلب بما يفتحه أمامه من آفاق الكمال.

وبذلك تتضح الفروق بين المعنى اللغوي والاصطلاحي ، فخضوع الإِنْسَان للأب أو للأم أو للحاكم ليس دِيْنًا ؛ وذلك لأن هؤلاء ليسوا : ذوات علوية غيبية لها تصرف لشئون الإِنْسَان ، وليسوا ذوي قدرة لا تعلوها ولا تدانيها قوة ، ولا يعبدهم الإِنْسَان وفق قواعد معينة .

---

(١) د. محمد عبد الله دراز: الدِّيْن بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ، ص ٤٧

(٢) الكَفَويّ : الكليات ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٢ ، (١٩٩٨م) ، ص ٤٤٣

(٣) المُعْجَم الفلسفي ، مجمع اللغة العربية، ص ٨٦

* **السياق الثقافي لكلمة « الدِّين »** :

بعد الانتهاء من التعريف العُرفي أو الاصطلاحي لكلمة « الدِّيْن » أُراني في محل الاضطرار إلى بيان دلالة أخرى مرتبطة به ، هذه الدلالة يمكن أن نسميها بـ « الدلالة الثَّقافِيَّة » ، وأقصد هنا بالدلالة الثَّقافِيَّة الدلالة الاجتماعية والفكرية والنفسية التي تستدعيها كلمة « الدِّيْن » عند جماعة معينة أو أمة معينة .

والتنبيه على هذه الدلالة الثَّقافِيَّة أمر من الخطورة بمكان ، فدلالة « الدِّيْن » في الثقافة الإسلامية تختلف عن دلالة كلمة « الدِّيْن » في الثقافة الأوربية ، والبون واسع بين هاتين الدلالتين الثقافيتين ، والهوة عميقة بينهما .

ولنأخذ نموذجًا عن معنى الدِّيْن في ثقافتنا الإسلامية العَرَبِيَّة عند عَلَمين من أعلام الثقافة الإسلامية شيخ الإِسْلام ابْن تَيْمِيَّة (ت : ٧٢٨هـ) ـ رحمة الله وطيب الله ثراه ـ ، في إحدى مؤلفاته العِلْمِيَّة « اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم » ، والإمام الشاطبي (ت:١٣٨٨م) في كتابه « الموافقات » ، فالدِّيْنُ عندهما :

- « جماع الدِّيْن : أن لا نعبد إلا الله ، وأن نعبده بما شرع ، لا نعبده بالبدع »[(١)] .
- « ... فعل المعروف والأمر به ، وترك المنكر والنهي عنه »[(٢)] .
- « ... فالحلال ما حلله الرَّسُوْل ، والحرام ما حرمه الرَّسُوْل ، والدِّيْن ما شرعه الرَّسُوْل ... »[(٣)] .
- « ... ولما كان أصل الدِّيْن الذي هو دِيْن الإِسْلام واحدًا ، وإنْ تنوعت شرائعه ، قال النَّبِيّ ﷺ في الحديث الصحيح : إنَّا ـ معاشِرَ الأنبياء ـ ديننا

(١) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ، مكتبة الرياض الحديثة ، (بدون بيانات أخرى) ، ص ٤٥١

(٢) السابق ، ص ٣١٢

(٣) السابق ، ص ٤٤٧

واحد ، والأنبياء إخوة لعَلَّاتٍ ، وإنَّ أولى الناس بابن مريم لأنا ، فليس بيني وبينه نبي ـ فدينهم واحد ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، وهو يعبد في كل وقت بما أمر به في ذلك الوقت ، وذلك هو دِيْن الإِسْلام في ذلك الوقت... » [(١)] .

- « ... هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا قوام لأحدهما إلا بصاحبه فلا ينهى عن المنكر ، ولا يؤمر بمعروف يغني عنه » [(٢)] .

وعند الإمام الشاطبي (ت: ١٣٨٨م) في شريعة الإِسْلام :« والشريعةُ كلُّها تَخَلُّقٌ بمكارم الأخلاق » [(٣)] .

وإذا قمنا بعمل « استبيان » على عينات عشوائية ، تشمل كل طبقات المجتمع في أي مجتمع إسلامي، ووضعنا السؤال الآتي : « ماذا تعني كلمة دِيْن لديك ؟ » فلن تخرج الإجابة (على الأقل بنسبة ٨٠٪) عن المعاني الواردة في النصوص المقتبسة.

فالدين يعني في ثقافتنا عبادة الله بما شرع على يد رسوله ، ويعني توحيده ، ويعني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويعني على وجه الإجمال ـ كما قال الإمام الشاطبي ـ التخلق بمكارم الأخلاق: ويعني العِلْم ، والرحمة ، والكرم ، والعمل ، المروءة ، النشاط ، البناء ، التعمير .....

فالدِّيْن في الثقافة الإسلامية ـ كما يظهر في النصوص التي اقتبسناها ـ يعني أو يرتبط بدلالة ثقافية « **إيجابية مقبولة** » منزهة ، مقدسة .

أما « الدِّيْن » في الثقافة الأوربية فله **دلالة** ثقافية اجتماعية نفسية « **سلبية ممقوتة** » ، هذه الدلالة السلبية **ظهر أثرها في أقوال كبار أعلام هذه الثقافة** ، من هذه الأقوال ما يأتي :

---

(١) السابق ، ص ٤٥٥ ، وأولاد العَلَّاتِ: بنو أب واحد والأمهات مختلفات ، والأعْيَانُ: بنو أبٍ وأمٍّ، والأَخْيَافُ: بنو أمٍّ واحدة والآباء مختلفون .

(٢) السابق ، ص ٢٩٧

(٣) الموافقات ، دار ابن عفان ، الرياض ، ط ١، (١٩٩٧م) ، ٢/ ١٢٤

➢ قال فولتير (ت: ١٧٧٨م) :« إنَّ فكرة التأليه إنما اخترعها دهاةٌ ماكرون من الكهنة والقساوسة الذين لقوا من يصدقهم من الحمقى والسخفاء »(١) .

➢ وينقل لنا المؤرخ ول ديورنت في كتابه « قِصَّة الحَضَارَةِ » رأي الأديب الكبير « جوته **Goethe** » (ت: ١٨٣٢م) في الدِّيْن ، فيقول عنه : « ... وكان جوته يكره على الأخص تأكيد المَسِيْحِيَّة على الخطيئة والندم وَيُؤْثِر أن يأثم دون ندم . كتب إلى هردر ـ حوالي ١٧٧٤ ـ يقول : ليت تعليم المسيح كله لم يكن هذا الهراء الذي يُثِير سخطي بصفتي بشرًا مخلوقًا مسكينًا محدودًا ذا رغبات وحاجات!! »(٢) . ويقول عنه أَيْضًا « ... وإذا كان وثنيًّا عامدًا في الدِّيْن والأخلاق ؛ فقد خلا من الإحساس بالخطيئة ، ولم يشعر بحاجة إلى إله يموت كفارة عنه ، **وأنكر كل حديث عن الصَّلْب** ... وقد ذهب جوته **إلى أَنَّ الدِّيْن**

---

(١) **Votaire Essal sur les moeurs, p.133**، نقلا عن د. محمد عبد الله دراز: الدِّيْن ص ٧٧ ، ويذكر لنا التَّاريخ عن فولتير : أَنَّهُ « كان حر الفكر في الدِّيْن ؛ لذا رفض رجال الدِّيْن أن يدفنوه في باريس حسب الطقوس المسيحية ، ولكن نقل جثمانه ١٧٩١م ودفن في مقبرة العظماء البانثيون » . يُنْظَرُ : المَوْسُوعَة العَرَبِيَّة الميسرة ، دار الشعب ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٧٢م، ص ١٣٣٧

(٢) قِصَّة الحَضَارَةِ ، تَرْجَمَة : فؤاد أندراوس ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ط١ ، (١٩٨٦م) ، ٤١/ ٢٥٩ ، و يوهان فولفجانج فون جوته (١٧٤٩م ـ ١٨٣٢م) ، شاعر وكاتب ومسرحي وروائي ألماني، ومن أعظم الكُتَّاب والمفكرين الأوربيين ، وأكثر من تعددت جوانب براعتهم في العصور الحديثة ، وكان له تأثير عميق في نمو مذهب الرومانتيكية الأدبي، ظهرت عبقريته في ميادين شتى في الأدب والعلم على السواء . من مؤلفاته : « آلام فرتر » ١٧٧٤م « إيفيجيني توريس » ١٧٨٦م ، « هرمان ودوروتيا » ١٧٩٧م . وأعظم مؤلفاته الأدبية مسرحية « فاوست » نشر الجزء الأول منها عام ١٨٠٨م ، وقد شغلته هذه المسرحية طوال فترة شبابه حتى وفاته ، أتم الجزء الثاني قبل وفاته بوقت قصير ، وتعتبر مسرحية فاوست أعظم المؤلفات الشعرية والفلسفية في العالم ، **وله أَيْضًا والديوان الشرقي للشاعر الغربي**. اهتم في فترات من حياته باللاهوت والطب وعلم الآثار ، وحرر عدة مجلات أدبية وفنية وعلمية ، وهو يعتبر بحق أعظم أدباء ألمانيا . يُنْظَرُ المَوْسُوعَة العَرَبِيَّة الميسرة ، ص ٦٥٨ ، ٦٥٩ وينظر أيضًا: **Lexicon Universal Encyclopedia, vol.9, p.223**

المسيحي ثورة سياسية جهيضة انقلبت أخلاقية ... وقد أعجب بلوثر ، وامتدح حركة الإصلاح البروتستنتي لتخطيها أغلال التقاليد ؛ ولكنه أسف على انتكاسها إلى العقائد المتزمتة »[(١)] .

- وينقل لنا ديورنت رأي الشاعر الكبير شيلر (ت : ١٨٠٥م **Friedrich Schiller** في الدِّيْن ؛ فيذكر عنه : « ... وفي قصيدة أخرى (آلهة اليونان) ١٧٨٨م امتدح اليونانَ على حساسيتهم الجمالية ، وإبداعاتهم الفنية ، وزعم ـ في إبهام حذر ـ أَنَّ **العالم بات كئيبًا قبيحًا منذ حَلَّت المَسِيْحِيَّة محلَّ الهيلينية** . وكان واقعًا تحت سحر جوته ، كما وقع جوته من قبل تحت سحر فنكلمان ... ولعل تصوير شيلر وجوته الرومانسي لليونان القديمة **كان هروبًا من المَسِيْحِيَّة** ؛ فشيلر ينتمي إلى التنوير رغم بعض الفقرات الورعة ، شأنه في ذلك شأن جوته ؛ وقد قبل إيمان القرن الثامن بالخلاص عن طريق العَقْل البشري ، لا النعمة الإلهية ، واحتفظ باعتقاد ربوبي في الله ـ شخصي في الشعر فقط ـ وخلود غامض . ورفض الكنائس كلها البروتستنتية منها والكاثوليكية . ولم يكن يطيق مواعظ هردر . وقد كتب بيتين شهرين في إبجرام ، عنوانه : عقيدتي ، يقول فيهما :

أي دِيْن أعترف به ؟!! ولا واحد من كل
الأديان التي تذكرها لي . ولم ؟ بسبب الدِّيْن »[(٢)] .

وينقل عنه قوله : « إنني أجد أَنَّ المَسِيْحِيَّة تحتوي فعلا على الأصول الأولى لكل ما هو أسمى وأنبل ، وصورها الخارجية المختلفة لا تبدو لنا بغيضة مُنَفِّرة إلا

---

(١) قِصَّة الحَضَارَة ، ٤١/ ٣٥٠

(٢) السابق ، ٤١/ ٣٠٩ ، وشيلر هو شاعر ودرامي وفيلسوف ومؤرخ ألماني ، يقف مع جوته على قمة الأدب الألماني ، من أعماله الرئيسية : وليام تل ، تأثر بنظريات الفيلسوف إيمانويل كانت أيما تأثير ، وبناء على نظرية كانت في العَقْل والأخلاق طور نظريته الفكرية الروح الجميلة **the beautifull soul** ، ظهرت في مقالاته الفلسفية . يُنْظَرُ :
Lexicon Universal Encyclopedia, vol.17, p.120

لَأَنَّهَا تعبيرات سيئة عن الأسمى ... ولم يشدد أحدٌ تشديدًا كافيًا على ما يمكن أن يكونه هذا الدِّيْن لعقل جميل ، أو على الأصح ما يمكن أن يفهمه منه عقل جميل . وهذا يفسر نجاح هذا الدِّيْن نجاحًا كبيرًا مع الطبائع الأنثوية ، وأَنَّهُ في النساء فقط يمكن احتماله إطلاقًا »(١) .

- وينقل ديورنت عن المؤرخين أَنَّ الدِّيْن (المسيحي) كان أحد أسباب انهيار الإمبراطورية الرُّومَانِيَّة وحضارتها : « ويقول عظيم المؤرخين إنَّ المَسِيْحِيَّة كانت أهم أسباب سقوط الدولة الرُّومَانِيَّة ؛ لأن هذا الدِّيْن كما يزعم هو ومن يسير على نهجه قد قضى على العقائد القديمة التي كانت هي الدعامة الخُلقية للنفوس الرُّومَانِيَّة ، والدعامة السياسية للدولة الرُّومَانِيَّة ؛ **ولأنه ناصب الثقافة القديمة العداء ؛ فحارب العِلْم والفلسفة والأدب والفن ، وجاء بالتصوف الشرقي الموهن فأدخله في الرواقية الواقعية التي كانت من خصائص الحياة الرُّومَانِيَّة** ، وحول أفكار الناس عن واجبات هذا العالم ، ووجههم إلى الاستعداد لاستقبال كارثة عالمية ، وهو استعداد مضعف للعزيمة ، **وأغراهم بالجري وراء النجاة الفردية عن طريق الزهد والصلاة** ، بدل السعي للنجاة الجماعية بالإخلاص للدولة ، والتفاني في الدفاع، وحطَّم وحدةَ الإمبراطورية ، حين كان الأباطرة العسكريون يكافحون للاحتفاظ بها ، وشجَّع أتباعه على الامتناع عن تولي المناصب العامة أو أداء الخدمة العسكرية ، **وكان المبدأ الأخلاقي الذي يدعو إليه السلام وعدم المقاومة** ، حين كان بقاء الإمبراطورية يتطلب تقوية الروح الحربية وبهذا كله كان انتصار المسيح إيذانًا بموت رومة . ولا يخلو هذا الاتهام القاسي من **بعض الحقيقة** ؛ فقد كان للمسيحية على الرغم منها **نصيب في فوضى العقائد التي ساعدت على إيجاد ذلك الخليط من العادات التي كان لها نصيب في انهيار رومة** »(٢) .

- بل يذكر لنا ديورنت هجوم رجال الدِّيْن أنفسهم على الدِّيْن ورجاله ، فينقل هجوم القديس جيروم **Jerome** (ت: ٤٢٠م) على رجال الدِّيْن ، فينقل أَنَّهُ

---

(١) السابق ، ٤١/ ٣٠٩ـ ٣١٠

(٢) السابق ، تَرْجَمَة : مُحَمَّد بدران ، المجلد ٦، ١١/ ٤٠٨ ـ ٤٠٩

كان « يسخر من رجال الدِّيْن الذين يعقصون شعورهم ، ويُعطِّرون ثيابهم ، ويترددون على المجتمعات الراقية ، والقسيسين الذين يجرون وراء الوصايا ، ويستيقظون قبل مطلع الفجر ليزوروا النساء قبل أن يقمن من فراشهن ، ويندد بزواج القساوسة ، **وبشذوذهم الجنسي** ، ويدافع دفاعًا قويًّا عن بقاء رجال الدِّيْن بلا زواج »[1] .

لن تلبث العَقْلِيَّة الأوربيةُ والغربيةُ بعد سرد هذه النصوص والأقوال أن يرسخَ في وعيها الجانبُ الثقافي السيئ والممقوت للدين ؛ فالدين في الثقافة الأوربية يرتبط عند كبار مُؤَرِّخِيه وأدبائه وعلمائه ومفكِّريه بـ :

- عدم المنطقية وعدم العقلانية .
- **مصدر كآبة للعالم** .
- أحد أسباب انهيار الدول وتأخرها وتخلفها .
- وأنَّ رجاله يسعون وراء الشهوات الجنسية وملاذات الحياة .

لكل هذه الأسباب يجب أن يحذر القارئ عند قراءة كلام العلمانيين والتنويريين عن « الدِّيْن » ، فهناك فرقٌ بين دِيْن ودينٍ .

ومن الذين نبهوا على أهمية هذا السياق الثقافي لكلمة « الدِّيْن » وخطورة إغفاله وعدم أخذه في الحسبان العلامة محمود شاكر في كتابه الماتع « أباطيل وأسمار » في معرض ردِّه على الكاتب لويس عوض ، فقال في معرِض هذا الرد :

« إنَّ الذي يريد أَنْ يكتب عن « الدِّيْن » يجب أَنْ يكون ملمًا بصورة جامعة دلالية لكل معاني لفظ « الدِّيْن » ، فإذا فعلنا ذلك ، ووقفنا على المعنى الدقيق ، وتبينا معناه تفصيلًا كان تبيُّنُه عاصمًا للفكر من الزلل عند الكلام في أمر من أمور الدِّيْن . ثم كان تبيُّنُه عاصما أَيْضًا من الضَّلال في بحث الألفاظ التي يدخل في بعض بيانها لفظ الدِّيْن. ثم كان تبيُّنُه عاصمًا أَيْضًا من الخلط في المعاني التي يدخلها الناس في الدِّيْن من

(١) السابق، المجلد ٦، ١٢/ ١٠٩ ـ ١١٠

قِبَل تأويل الألفاظ ، أو يخرجونها من الدِّيْن من قبل نقيض التأويل ، وهو إبطال معاني الألفاظ تحكمًا وعَرامة ... وتأويل الألفاظ حَتَّى تخرج عن حق دلالتها ، وإبطال معانيها عرامة حَتَّى لا تكون لها دلالة البتة ، داءان قديمان ، ولكنهما اليوم أكثر شَيْء تفشيًا في كتابة الكاتبين ، ممن جعل ديدنه الكتابة في الدِّيْن والحمية له بلا عقل صحيح أو علم عاصم . أما أهل العناد والمخالفة ، فهم أشدُّ إيغالا في البعد عن الطريق »(١) .

وهذا الذي أوضحه الشيخ شاكر في منتهى الأهمية ، فعندما يدعو كاتب ما لفصل « الدِّيْن » عن « السياسة » تأسيًّا بما حدث في الغرب يكون قد وقع في خطأ كبير ، فدلالة « الدِّيْن » في الثقافة العَرَبِيَّة ليست هي نفس دلالة « الدِّيْن » عند اليهود والنصارى ؛ وذلك لأنهم يستخدمون لفظ « الدِّين» للدلالة على شَيْء يأبى ديننا نحن أَنْ يسلم بدلالته إباء مطلقًا . ثم شاع اللفظ عند عامة أهلنا بالمعنى الذي جاء في تراث أهل الكتابين ؛ فدخل على معنى الدِّيْن ما ليس منه ؛ وحدث اختلاط وفساد ، كلاهما يؤدي إلى سوء التفكير وإلى ضلال النظر عن الحق الذي أمرنا باتباعه »(٢) . فدلالة « الدِّيْن » في الثقافة العَرَبِيَّة ليست هي نفس دلالة « الدِّيْن » عند اليهود والنصارى .

كان هذا هو تعريف الدِّيْن والتصور الذي نرتضيه عنه .

وننتقل إلى المصطلح الثاني مصطلح الإِسْلام .

» **ثانيًا معنى مصطلح « الإِسْلام »** :

المصطلح الثاني الذي نود الوقوف عليه مصطلح « الإِسْلام » : ما هو ؟ وما أركانه ؟ وما أهم خصائصه ؟

❊ **المعنى اللغوي لكلمة « الإسلام »** :

(١) أباطيل وأسمار ، ص ٤١٨

(٢) السابق ، ص ٤١٨

تدور المعاني المعجمية لكلمة « الإِسْلام » حول معنى « **الانقياد والاستسلام** » :

- جاء في لسان العرب لابن منظور (ت: ٧١١هـ) : « والإسلام والاستسلام: الاِنْقِيَادُ ، والإسلام من الشَّرِيعَة : إظهار الخضوع وإظهار الشَّرِيعَة والتزام ما أتى به النَّبِيّ ﷺ » .
- وفي مقاييس اللغة لابن فارس (ت : ٣٩٥ هـ) : « السين واللام والميم معظم بابه من **الصِّحَّةِ وَالْعَافِيَةِ ؛ ويكون فيه ما يشذ، والشاذ عنه قليل** ... ومن الباب أَيْضًا الإِسْلام ، **وهو الانقياد ؛ لِأَنَّهُ يَسْلَمُ مِنَ الإباء وَالِامْتِنَاعِ** » .

فالمعني المعجمي يدور حول الانقياد والاستسلام .

※ **المعنى الاصطلاحي لـ« الإسلام » :**

إذا جئنا إلى المعنى الاصطلاحي للإسلام نجد أَنَّهُ يتردد ـ كما تقول موسوعة العقيدة الإسلامية ـ بين ثلاثة معانٍ (١) :

- **المعنى الأول** : « الدِّيْن الذي جاء به الأنبياء والرسل ـ عليهم السلام ـ وقد وُصِفَ كثيرٌ منهم به ، أو بما هو مشتق منه ... [و] الدِّيْن الذي أرسل الله به الأنبياء لهداية خلقه . وقد تواتر مجيئهم به منذ آدم ـ عليه السلام ـ إلى مُحَمَّد ﷺ ، وهم متفقون في أصوله الكبرى من العقائد والأخلاق والأمر بعبادة الله والخضوع لهديه ، والاستعداد للقائه ، ولكنهم قد يختلفون في بعض الشرائع والأحكام ، تبعًا لاختلاف الزمان والمكان والأحوال وتفاوت ما يقع في بعض المجتمعات من أمراض وفساد » .
- **المعنى الثاني** : « الدِّيْن الذي جاء به مُحَمَّد ﷺ من عند الله الذي أرسله بتلك الرِّسالَة العامة التي تميزت ـ بكمالها وشمولها ـ عما سبقها من رسالات الأنبياء ... وليس الإِسْلام الذي يراد به معنى الدِّيْن الذي جاء به مُحَمَّد ﷺ منحصرًا في العبادات ، أو فيما هو ظاهر من أحكام هذا الإِسْلام ، وإنما هو

(١) موسوعة العقيدة الإسلامية ، وزارة الأوقاف ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، ط١ ، (٢٠١٠م) ، مادة : الإِسْلام والإيمان ، بقلم د. عبد الحميد عبد المنعم مدكور ، ص ١١٧ وما بعدها .

دِيْن عام يشمل العقائد والشرائع والأحكام والأخلاق ونحوها ، مما أمره الله بتبليغه للخلق ، وهو ما يؤدي إليه النظر في آيات القُرْآن الكريم وأحاديث النَّبِيّ الأمين ، كما يؤدي إليه النظر في كتب الفقه ، ونُظُم التشريع التي تضمنتها شريعته ... والإسلام بهذا المعنى العام يبدأ بالنطق باللسان للشهادة التي هي أول أركان هذا الاسم ... [و] يتطلب مقتضيات أخرى وعناصر كثيرة كي يتم بناؤه وتكتمل أركانه ، **وينبغي أن تكون جميعها مقرونة بالتسليم لله ، والإذعان لأمره ولشرعه** » .

- **المعنى الثالث** : « وقد يكون المراد بالإسلام ـ في بعض الآيات والأحاديث ـ الأعمال الظاهرة التي هي من ضمن أعمال الإِسْلام بالمعنى العام الذي سبق الحديث عنه ، والذي يتضمن الأعمال الظاهرة والباطنة جميعًا » .

في هذا التعريف نجد أَنَّ المعنى الاصطلاحي يشمل ثلاثة مستويات :

(١) كل ما جاء به الأنبياء جميعهم.

(٢) ما جاء به النَّبِيّ ﷺ كاملًا.

(٣) بعض ما جاء به النَّبِيّ ﷺ .

ووجه الصلة بين الاصطلاحي والمعنى المعجمي أن ما أتى به الإسلام يجب أن يكون مقرونًا بالتسليم لله والإذعان لأمره ولشرعه.

ووجه الجمع بين المستوى الثاني والأول من التعريف الاصطلاحي أن ما جاء به النَّبِيّ ﷺ في أصوله هو ما جاء به الأنبياء من قبله ، مع اختلاف في التشريع من أمة لأمة.

تلك هي المعاني اللغوية والاصطلاحية لمصطلح الإسلام ، ولا أعتقد أننا بتقديم هذا التعريف نكون قد أعطينا تصورًا شاملًا عن هذا الدِّيْن العظيم ، فلا بد من فضل بيان لأهم خصائصه ومميزاته.

❊ **الخصائص العامة لـ « الإِسْلام »** :

أعتقد أَنَّهُ لكي يتم اكتمال تصورنا عن الإِسْلام لا بد أن نتناول بالحديث أهم

خصائصه التي تميزه عن غيره ، وأن نضع أيدينا على أهم الملامح الفارقة التي تفرق بينه وبين غيره [(١)] . وأهم هذه الخصائص هي :

✓ **الخَصِيْصَةُ الأولى من الخصائص العامة للإسلام : الرَّبَّانِيَّة** :

والمراد من « الرَّبَّانِيَّة » هنا أمران :

(١) رَبَّانِيَّة الغاية والوِجهة .

(٢) رَبَّانِيَّة المصدر والمنهج .

ولنبسط القول في هذين الأمرين :

(١) **رَبَّانِيَّة الغاية والوجهة** :

والمقصود بهذا النوع من الرَّبَّانِيَّة أَنَّ الإِسْلام يجعل غايته الأخيرة وهدفه البعيد هو حسن الصلة بالله ـ تبارك وتعالى ـ ، والحصول على مرضاته ، فهذه هي غاية الإِسْلام وبالتالي هي غاية الإِنْسَان ، ووجهته ، ومنتهى أمله وسعيه وكدحه في الحياة.

ولا جدال في أنَّ للإسلام غاياتٍ وأهدافًا أخرى : إنسانية واجتماعية ، ولكن عند التأمل نجد هذه الأهداف في الحقيقة خادمة للهدف الأكبر ، وهو مرضاة الله ـ تعالى ـ وحسن مثوبته ، فهذا هو هدف الأهداف ، أو غاية الغايات .

إن كل ما في الكون قد خُلِقَ للإنسان ، أما الإِنْسَان نفسه فقد خُلِقَ لله ـ جَلَّ جلاله ـ لمعرفته وعبادته ، وأداء أمانته في الأرض .

ومن ثمار هذه الرَّبَّانِيَّة ـ رَبَّانِيَّة الغاية والوجهة ـ :

- معرفة غاية الوجود الإنساني ؛ أي أن يعرف الإِنْسَان لوجوده غاية ، ويعرف لمسيرته وجهة ، ويعرف لحياته رِسالَة ؛ وبهذا يحس لحياته قيمة ومعنى ، ولعيشه طعمًا ومذاقًا ، وأَنَّهُ ليس ذرة تائهة في الفضاء ، ولا مخلوقًا سائبًا يخبطُ خبط عشواء في ليلة ظلماء .
- الاهتداء إلى الفطرة ، حيث يهتدي الإِنْسَان إلى فطرته التي فطره الله عليها ،

---

(١) اعتمدنا بشكل أساسي في بيان هذه الخصائص على كتاب الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي « **الخصائص العامة للإسلام** » ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٧٧م

والتي تطلب الإيمان بالله تعالى ، ولا يعوضها شَيْء غيره .

- سلامة النفس من التمزق والصراع ، وهذه ثمرة نفيسة ، تحمي النفس البشرية من التمزق والصراع الداخلي ، والتوزع والانقسام بين مختلف الغايات وشتى الاتجاهات . ولا يريح النفس الإنسانية شَيْء كما يريحها وحدة غايتها ووجهتها في الحياة ؛ فتعرف من أين تبدأ وإلى أين تسير ، ومع من تسير .
- التحرر من العبودية والأنانية والشهوات. فمن ثمرات الرَّبَّانِيَّة أَنَّها ـ حيث تستقر في أعماق النفس ـ تحرر الإِنْسَان من العبودية لأنانيته ، وشهوات نفسه ولذات حسه ، ومن الخضوع والاستسلام لمطالبه المادية ورغباته الشخصية .

والوسائل التي بها تَغرس الرَّبَّانِيَّة في النفوس متعددة ، منها : طريق العبادات ، وطريق الآداب وطريق التربية والتكوين ، طريق الإعلام والتوجيه والتثقيف العام ، طريق التشريع .

(٢)**ربانية المصدر والمنهج** :

ونعني به أَنَّ المنهج الذي رسمه الإِسْلام للوصول إلى غاياته وأهدافه منهجٌ رباني خالص ؛ لأنَّ مصدره وحي الله تعالى إلى خاتم رسله مُحَمَّد ﷺ ، والرسول ﷺ هو الداعي إلى هذا المنهج أو هذا الصراط ، المبين للناس ما اشتبه عليهم من أمره .

ومن **تدبر القُرْآن وجد الرَّسُوْل ﷺ مجرد عبد مأمور تخاطبه سلطة أعلى منه ، محيطة به ، قادرة عليه** ، تملك عتابه ولومه إذا اجتهد فأخطأ في بعض الأمور ، كما في قصة ابن أم مكتوم ، وأسرى بدر ، والمنافقين المتخلفين في غزوة تبوك ، وزينب بنت جحش وغيرها . فالحقيقة أَنَّ القُرْآن هو كلام الله وحده ، وتنزيل رب العالمين ، فليس لمحمد ﷺ من هذا القُرْآن إلا التلقي والحفظ ، ثم التبليغ والدعوة ، ثم التفسير والبيان ؛ ولهذا نجد القُرْآن الكريم يُعقِّبُ على كثير من الأحكام والتشريعات بلفت الأنظار إلى رَبَّانِيَّة مصدرها ؛ لتطمئن الأنفس ، وتستريح الضمائر

وتنشرح الصدور للاستجابة والتنفيذ ، ولا يتلكأ متلكئ ، أو يتوانى متوان في الطاعة لحكم الله .

✓ **الخَصِيْصَةُ الثانية الإِنسَانِيَّةُ** :

الإسْلامُ يمتاز بنزعته الإنسانية الواضحة الثابتة الأصلية في معتقداته وعباداته وتشريعاته وتوجيهاته ، إِنَّهُ دِيْن الإِنْسَان ، فالإسلام مع ربانيته في غايته ووجهته هو إنساني أَيْضًا في الغاية والوجهة .

ويرى الإِسْلام أَنَّ الإِنْسَان له إرادة وقدرة ؛ لذلك كان لِتَحَمُّله أمانة التكليف معنى ، وثوابه وعقابه مما يوافق العدل الإلهي والحكمة الإلهية ، واستخلافه في الأرض ، واستعماره فيها غاية .

وعند تأملنا في الفقه الإسلامي نجد « العبادات » لا تأخذ إلا نحو الربع أو الثلث من مجموعه ، والباقي يتعلق بأحوال الإِنْسَان ، من أحوال شخصية ، ومعاملات ، وجنايات ، وعقوبات وغيرها . وحتى في العبادات نجد الجانب الإنساني متحقق فيها ، فالزكاة عبادة ، وهي في جوهرها إنسانية ، فهي تؤخذ من الإِنْسَان الغني ؛ لتُرَد على الإِنْسَان الفقير ، هي للأول تزكية وتطهير ، وللثاني إغناء وتحرير .

ولا يلغي الإِسْلامُ دور العَقْل الإنساني وإيجابيته في فهم الوحي والاستنباط منه ، والقياس عليه ، وملء ما سكت عنه من فراغات تشريعية ، إن وجود النَّصّ الإلهي المقدس ليس عائقًا للعقل عن التحليق والإبداع ، فقد ترك الوحي للعقل مجالات عديدة يثبت فيها ذاته ويبرز قدراته .

ويتميز الإِسْلام عن غيره من الأديان والفلسفات بنظرته الشاملة المحيطة لماهية الإِنْسَان ، والنفاذ إلى أغوار طبيعته ، والاعتراف بكل جوانبه وخصائصه ، دون ميل أو شطط ، أو إهمال لناحية لحساب أخرى ، فبعض الأديان والفلسفات نظرت إلى الجانب الروحي في الإِنْسَان ، غير عابئة بجانبه العقلي وجانبه الحسي والمادي ، بل ربما دعت إلى تعذيب الجسم في سبيل سعادة الروح ، وبعض المذاهب والفلسفات لم تنظر إلا إلى الجانب المادي في الإِنْسَان ، ولم تُبالِ بغيره ، ولم تعترف به ؛ فالإنسان كائن اقتصادي ، أو حيوان منتج لا أكثر .

وبعض المذاهب والفلسفات أَلَّهت الإِنْسَان ، واعتبرته كائنًا مستقلًا ، يقوم وحده مستغنيًا عن الله ؛ فأساءت إلى الإِنْسَان من حيث أرادت الإحسان إليه ، وجعلته نباتًا شيطانيًّا ، خرج إلى الوجود من غير زارع ولغير هدف ، إلا أن ييبس ويصبح هشيمًا ، تذروه الرياح أو تأكله النار.

وبعض المذاهب ـ كالرأسمالية ـ تدلل الإِنْسَان الفرد ، وتطلق له العنان حتى يتحطم في النهاية ـ باسم الحرية ـ دون أن تجعل للمجتمع حقًّا في مراقبته ومحاسبته وتقويمه من أجل مصلحته هو في النهاية ، ومصلحة المجتمع من ورائه .

وبعض آخر ـ كالشيوعية ـ يضغط على الإِنْسَان الفرد ، ويكبله بقيود شتى ، ويحرمه من كثير من الحريات ، وكثير من الحقوق الطبيعية باسم المجتمع ؛ حتى يكاد يسحقه سحقًا .

ومن دلائل تكريم الله للإنسان في نظر الإِسْلام أَنَّهُ فتح له باب التَّقَرُّب إليه ـ سبحانه وتعالى ـ أَنَّى شاء ومتى شاء ، **ولم يحوجه إلى وسطاء يتحكمون في ضميره ، ويقفون حُجَّابًا بينه وبين ربِّه** ، فلا حاجة للإنسان في الإِسْلام إلى وساطة كاهن يصل عن طريقه إلى الله ، ولا يقبل منه عبادة بغير توسطه ، ولا يستطيع التوبة من ذنب ارتكبه إلا بالجلوس أمامه في ذل وخنوع على كرسي الاعتراف المشهور ؛ فليس في الإِسْلام كاهن ولا كهنوت .

✓ الخَصِيْصَةُ الثالثة الشمول :

الشمول من الخصائص التي تميز بها الإِسْلام عن كل ما عرفه الناس من الأديان والفلسفات والمذاهب ، بكل ما تتضمنه كلمة « الشمول » من معان وأبعاد . إِنَّهُ شمول يستوعب الزمن كله ، ويستوعب الحياة كلها ، ويستوعب الإِنْسَان كله .

إنها رِسالَة لكل الأزمنة والأجيال ، ليست رِسالَة موقوتة بعصر معين أو زمن مخصوص ، ينتهي أثرها بانتهائه ، كما كان الشأن في رسالات الأنبياء السابقين على مُحَمَّد ﷺ ، فقد كان كل نبي يبعث لمرحلة زمنية محدودة ؛ حتى إذا ما انقضت بعثَ الله نبيًّا آخر .

أما مُحَمَّد ﷺ فهو خاتم النبيين ، ورسالته هي رِسالَة الخلود التي قَدَّرَ اللهُ بقاءَها إلى أنْ تقومَ الساعةُ ، ويُطوى بها بساطُ هذا العالم ، فهي تتضمنُ هداية الله الأخيرة للبشرية ، فليس بعد الإِسْلام شريعةٌ ، ولا بعد القُرْآن كتابٌ ، ولا بعد مُحَمَّد نبيٌّ .

ولم يسبق لنبيٍّ قبل مُحَمَّد ﷺ أن أعلن أنَّ رسالته هي الخاتمة ، وأن لا نبيَّ بعده ، بل بشرت التوراة بمن يأتي بعد موسى ، وبَشَّر الإنجيل بمن يأتي بعد المسيح عيسى ، وهو « الفارقليط » .

وإذا كانت هذه الرِّسالَة غير محددة بعصر ولا جيل ـ فهي كذلك غير محدودة بمكان ولا بأمة ، ولا بشعبٍ ولا بطبقةٍ . إنها الرِّسالَة الشاملة التي تُخاطبُ كلَّ الأمم وكل الأجناس ، وكل الشعوب ، وكل الطبقات . إنها ليست رِسالَة لشعب خاص ، يزعم أَنَّهُ وحده شعب الله المختار ! وَأَنَّ الناس جميعًا يجب أن يخضعوا له . وليست رِسالَة لإقليم معين ، يجب أن تدين له كل أقاليم الأرض ، وتُجْبَى إليه ثمراتها وأرزاقها .

وهي كذلك رِسالَة الإِنْسَان من حيث هو إنسان كامل ، إنها ليست رِسالَة لعقل الإِنْسَان دون روحه ، ولا لروحه دون جسمه ، ولا لأفكاره دون عواطفه ، ولا عكس ذلك ، إنها رِسالَة الإِنْسَان كله : روحه ، وعقله ، وجسمه ، وضميره ، وإرادته ، ووجدانه .

ومن معاني الشمول في الإِسْلام أَيْضًا أَنَّهُ رِسالَة للإنسان في كل مجالات الحياة ، وفي كل ميادين النشاط البشري ؛ فلا يدع جانبًا من جوانب الحياة الإنسانية إلا له فيه موقف ، قد يتمثل في الإقرار والتأييد ، أو في التصحيح والتعديل ، أو في الإتمام والتكميل ، أو في التغيير والتبديل ، وقد يتدخل بالإرشاد والتوجيه ، أو بالتشريع والتقنين ، قد يسلك سبيل الموعظة الحسنة ، وقد يتخذ أسلوب العقوبة الرادعة كل في موضعه . المهم هنا أَنَّهُ لا يدع الإِنْسَان وحده ـ بدون هداية الله ـ في أي طريق يسلكه ، وفي أي نشاط يقوم به : ماديًّا كان أو روحِيًّا ، فردِيًّا أو اجتماعِيًّا ، فِكريًّا أوعمليًّا ، دينيًّا أو سياسيًّا ، اقتصاديًّا أو أخلاقيًّا .

والتشريع في الإِسْلام تشريع شامل كذلك ؛ إِنَّهُ لا يشرع للفرد دون الأسرة ، ولا للأسرة دون المجتمع ، ولا للمجتمع منعزلًا عن غيره من المجتمعات . إنَّ تشريع الإِسْلام يشمل التشريع للفرد في تعبده وصلته بربه ، وهذا ما يُفَصِّلُه قسمُ « العبادات » في الفقه الإسلامي ، وهو ما لا يوجد في التشريعات الوضعية .

ويشمل التشريع للفرد في سلوكه الخاص والعام ، وهذا يشمل ما يُسمَّى « الحلال والحرام » ، أو الحظر والإباحة .

ويشمل التشريع ما يتعلق بأحوال الأسرة ، من زواج وطلاق ونفقات ورضاع وميراث ، وولاية على النفس والمال ونحوها . وهذا يشمل ما يسمى في عصرنا « الأحوال الشخصية » .

ويشمل التشريع ما يتعلق للمجتمع في علاقاته المدنية والتجارية ، وما يتصل بتبادل الأموال والمنافع ، بعوض أو بغير عوض ، من البيوع والإجارات والقروض والمداينات والرهن والحوالة والكفالة والضمان وغيرها ، مما تتضمنه في عصرنا القوانين المدنية والتجارية .

ويشمل التشريع ما يتصل بالجرائم وعقوباتها المقدرة شرعًا ، كالحدود والقصاص ، والمتروكه لتقدير أهل الشأن كالتعازير ، وهذا يشمل الآن ما يسمى بـ « التشريع الجنائي » ، أو « الجزائي » وقوانين العقوبات .

ويشمل التشريع الإسلامي ما يتعلق بواجب الحكومة نحو المحكومين ، وواجب المحكومين نحو الحكام ، وتنظيم الصلة بين الطرفين مما عنيت به كتب السياسة الشرعية والخراج ، والأحكام السلطانية في الفقه الإسلامي ، وتضمنه في عصرنا « التشريع الدستوري » أو « الإداري » و« المالي » .

ويشمل التشريع الإسلامي ما ينظم العلاقات الدولية في السلم والحرب ، بين المسلمين وغيرهم ، مما عنيت به كتب السير أو الجهاد في فقهنا الإسلامي ، وما ينظمه في عصرنا « القانون الدُّوَلِي » .

ويبدو شمول التشريع الإسلامي في أمر آخر ، أو بعد آخر ، وهو النفاذ إلى أعماق المشكلات المختلفة ، وما يؤثر فيها ، وما يتأثر بها ، والنظر إليها نظرة محيطة مستوعبة

مبنية على معرفة النفس الإنسانية ، وحقيقة دوافعها وتطلعاتها وأشواقها ، ومعرفة الحياة البشرية وتنوع احتياجاتها ، وربط التشريع بالقيم الدينية والأخلاقية ، بحيث يكون التشريع في خدمتها وحمايتها ، ولا يكون مِعْوَلًا لهدمها .

من عرف هذا جيدًا **استطاع أن يفهم موقف التشريع الإسلامي وروعته من قضايا كثيرة ، كالطلاق وتعدد الزوجات والميراث والربا والحدود والقصاص وغيرها ، مما أثبتت الدراسات المقارنة ، وأثبت الاستقراء التَّارِيخِيّ والواقعي فضل الإِسْلام فيه ، وتفوقه على كل تشريع سابق أو لاحق .**

✓ **الخَصِيْصَةُ الرابعة الوَسَطِيَّة**:

وهذه خصيصة أخرى من أبرز خصائص الإِسْلام ، وهي « الوَسَطِيَّة » ، ويعبر عنها أَيْضًا بـ « التوازن » ، ونعني بها التوسط أو التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين ، بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير ، ويطرد الطرف المقابل ، وبحيث لا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه ، ويطغى على مقابله ويحيف عليه .

ووسطية الأمة الإسلامِيَّة إنما هي مستمدة من وسطية منهجها ونظامها ، فهو منهج وسط لأمة وسط . منهج الاعتدال والتوازن الذي سلم من الإفراط والتفريط أو من الغلو والتقصير .

وللوسطية في الإِسْلام معان أخرى تلازمها وتقتضيها ، منها :

- الوسطية تعني العدل .
- الوسطية تعني الاستقامة .
- الوسطية دليل الخيرية .
- الوسطية تمثل الأمان .
- الوسطية دليل القوة .
- الوسطية مركز الوحدة .

والإسلامُ وسط في تشريعه ونظامه القانوني والاجتماعي ، فهو وسط في التحليل والتحريم بين **اليَهُودِيَّة التي أسرفت في التحريم** ، وكثرت فيها المحرمات ، **وبين المَسِيْحِيَّة التي أسرفت في الإباحة** ؛ حتى أحلَّت الأشياء المنصوص على تحريمها في

التوراة ، مع أَنَّ الإنجيل يُعلن أَنَّ المسيح لم يجئ لينقض ناموس التوراة ؛ بل ليكمله . ومع هذا أعلن رجال المَسِيْحِيَّة أن كل شَيْء طاهر للطاهرين .

والتشريع الإسلامي وسط في شئون الأسرة ، كما هو وسط في شئونه كلها ، وسط بين الذين شرعوا تعدد الزوجات بغير عدد ولا قيد ، وبين الذين رفضوه وأنكروه ، ولو اقتضته المصلحة وفرضته الضرورة الملحة .

وهو وسط في الطلاق بين الذين حرموا الطلاق ؛ لأي سبب كان ، ولو استحالت الحياة الزوجية إلى جحيم لا يُطاق كالكاثوليك ، وقريب منهم الذين حَرَّموه إلا لعلة الزنا والخيانة الزوجية كالأرثوذكس ، وبين الذين أرخوا العنان في أمر الطلاق ، فلم يقيدوه بقيد أو شرط .

إن النظام الإسلامي تلتقي فيه الفردية والجماعية في صورة متزنة رائعة ، تتوازن فيها حرية الفرد ومصلحة الجماعة ، وتتكافأ فيها الحقوق والواجبات .

✓ **الخَصِيْصَةُ الخامسة الواقعية** :

ونعني بها مراعاة واقع الكون من حيث هو حقيقة واقعة ، ومراعاة واقع الحياة من حيث هي مرحلة حافلة بالخير والشر ، تنتهي بالموت ، وتمهد لحياة أخرى بعد الموت .

وتعني الواقعية أَيْضًا مراعاة واقع الإِنْسَان من حيث هو مخلوق مزدوج الطبيعة ، فهو نفحة من روح الله في غلاف من الطين ، ففيه العنصر السماوي والعنصر الأرضي ومن حيث هو ذكر أو أنثي لكل منهما تكوينه ونزعاته ووظيفته ، ومن حيث هو عضو في مجتمع ، لا يستطيع أن يعيش وحده ، ولا أن يفنى تمامًا في المجتمع ، ولهذا تصطرع في نفسه عوامل الأنانية والغيرية .

وجاء الإِسْلام بأخلاق واقعية راعت الطاقة المتوسطة المقدورة لجماهير الناس فاعترفت بالضعف البشري ، وبالدوافع البشرية ، وبالحاجات البشرية المادية والنفسية ، ويظهر ذلك في :

(١) لم يوجب الإِسْلام على من يريد الدخول في الإِسْلام أن يتخلى عن ثروته وأمور

معيشته كما يحكي الإنجيل عن المسيح أَنَّهُ قال لمن أراد اتباعه : « بع ما لك واتبعني » .

(٢) ولم يجئ في القُرْآن ولا في السنة ما جاء في الإنجيل من قول المسيح : « أحبُّوا أعداءكم ... من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر ، ومن سرق قميصك فأعطه إزارك » .

فقد يجوز هذا في مرحلة محدودة ، ولعلاج ظرف خاص ، ولكنه لا يصلح توجيهًا عامًّا خالدًا لكل الناس ، في كل العصور ، وفي كل بيئة ، وفي كل حال ، فإن مطالبة الإِنْسَان العادي بمحبة عدوه ومباركة لاعنه ، قد يكون شَيْئًا فوق ما يحتمله . كما أن إدارة الخد الأيسر لمن ضرب الخد الأيمن أمر يشق على النفوس ، بل يتعذر على كثير من الناس أن يفعلوه .

(٣) أقرت التفاوت الفطري والعملي بين الناس ، فليس كل الناس في درجة واحدة من حيث قوة الإيمان ، والالتزام بما أمر الله به من أوامر ، والانتهاء عما نهى عنه من نواه ، والتقيد بالمثل العليا ، فهناك مرتبة الإِسْلام ، ومرتبة الإيمان ، ومرتبة الإحسان .

(٤) راعت الأخلاق الإسلامية الظروف الاستثنائية كالحرب ، فأباحت من أجلها ما لا يباح في ظروف السلم ، **كهدم المباني أو تحريق الأشجار ونحوها** ومثل ذلك الكذب لتضليل العدو عن حقيقة أوضاع الجيش الإسلامي وعُدده وعتاده وخططه ، فإن الحرب ـ كما جاء في الحديث ـ خدعة .

وتتجلى واقعية الإِسْلام في أَنَّهُ جاء بشريعة لم تغفل الواقع في كل ما أحلت وحرمت ، ومن مظاهر هذه الواقعية في مجال الحلال والحرام :

١ـ أن شريعة الإِسْلام لم تُحَرِّم شَيْئًا يحتاج إليه الإِنْسَان في واقع حياته ، كما لم تبح له شَيْئًا يضره في الواقع .

٢ـ وراعَتْ الشَّرِيعَةُ فطرةَ البشر في الميل إلى اللهو والترويح عن النفس ؛ فرخصت في أنواع من اللهو كالسباق وألعاب الفروسية وغيرها ، إذا لم تقترن بقمار ولا بحرام ، ولم تصد عن ذكر الله وعن الصلاة .

وقد راعت الشَّرِيعَةُ فطرةَ المرأة وواقعها في حب الزينة ، وعمق الرغبة في التجمل

؛ فأباحت لها بعض ما حرمت على الرجال كالتحلي بالذهب ولبس الحرير .

٣ـ قدرت الشَّرِيعَة الضرورات ـ التي تعرض للإنسان وتضغط عليه ـ حق قدرها ؛ فرخصت في تناول المحرمات على قدر ما توجب الضرورة .

٤ـ ومن واقعية الشَّرِيعَة أَنَّها عرفت ضعف الإِنْسَان أمام كثير من المحرمات ؛ فسدت الباب إليها بالكلية ؛ ولهذا حرمت قليلها وكثيرها ، كما في الخمر .

٥ـ ومن واقعية الشَّرِيعَة أَنَّها راعت قوة الدوافع الجنسية لدى الإِنْسَان فلم تطرحها دبر الأذن ، ولم تنظر إليها باستخفاف ولا باستقذار ، كما فعلت بعض المِلَل والنِّحَل ؛ **فشرعت في إشباع الجانب الجنسي بطريقة نظيفة ، وذلك بشرعية نظام الزواج ، وأباحت تعدد الزوجات .**

٦ـ ومن واقعيتها إباحتها للطلاق عند تعذر الوفاق بين الزوجين ، هذا مع تعظيم الإِسْلام لشأن العلاقة الزوجية . ولقد أرغم الواقع المَسِيْحِيَّة المعاصرة على الاعتراف بحق الطلاق ، برغم التحريم الغليظ في الإنجيل ، بل يضطرون اضطرارًا لإباحته ، إلى حد التوسع والإسراف المرذول ، وإذا آخر القلاع المَسِيْحِيَّة المتشددة تسقط أخيرًا ، وتعلن إباحة الطلاق ، وذلك في روما الكاثوليكية .

٧ـ ومن واقعيتها أَنَّها اعترفت بالدافع الفطري الواقعي في حب التَّمَلُّك ، فأقرت مبدأ الملكية الفردية ، وما يترتب عليه من حق التصرف في الملك ، وحق الإرث له .

٨ـ ومن واقعيتها أَنَّها عملت بكل قوة على تطهير المجتمع من أسباب الجريمة ، وتربية الأفراد على حياة الاستقامة ، ولكنها مع هذا لم تكتف بالوازع الأخلاقي وإن حرصت كل الحرص عليه ، **ولكن في الناس من لا يرتدع إلا بعقوبة زاجرة ولا تكفيه الموعظة الحسنة ، ولا التوجيه الرشيد** ، ولهذا كان لا بد من سوط السلطان ، بجوار صوت القُرْآن .

ومن هنا أوجبت الشريعة العقوبات من الحدود والقصاص والتعازير ، ولم

تذهب إلى ما ذهب إليه الخياليون من الناس الذين ينادون بإلغاء عقوبة الإعدام إشفاقًا على القاتل المسكين !! دون أن ينظروا إلى مصيبة المقتول وأهله .

ومن واقعية الإِسْلام مراعاته سُنَّة التدرج فيما يشرعه لهم إيجابًا وسلبًا .

✓ **الخَصِيْصَةُ السادسة الوضوح** :

الوضوح هو إحدى الخصائص العامة للإسلام ، وأول مظاهر الوضوح في الإِسْلام :

- أن أصوله ودعائمه الكبرى واضحة بينة ، لا لزعمائه وقادة الفكر والدعوة فقط ، ولا لخاصة المثقفين من أتباعه وأنصاره فحسب ، بل لجمهرة المؤمنين به أيًّا كانوا يستوى في ذلك الأصول الاعتقادية ، والشعائر التعبدية وأمهات الفضائل الخُلقية ، والأحكام التشريعية .
- وثاني مظاهر هذا الوضوح وضوح مصادره ، فمصادر الإِسْلام محدَّدةٌ بَيِّنَةٌ ، تُستقى منها فلسفته النظرية ، وتشريعاته العملية .

والمصدر الأول في الإِسْلام هو القُرْآن ، **ومن نعمة الله أن ليس في الدُّنْيا كتابٌ توفرت على فهمه وتفسيره كبارُ العقول في مختلف الأعصار والأمصار ، من شتى الثقافات والمعارف ، مثلما يسر الله للقرآن العظيم .**

والمصدر الثاني سنة مُحَمَّد ﷺ ، ونعني بها ما ثبت عن النَّبيّ ﷺ من قول أو فعل أو تقرير ، وهي الشرح النظري والتطبيق العملي للقرآن الكريم .

- وثالث مظاهر هذا الوضوح وضوح الأهداف والغايات ، فغاية الإِسْلام كله واضحة أمام عيني كل مسلم ، فغايته إخراج الناس من الظلمات إلى النور .
- ورابعها: وضوح مناهجه وطرقه التي وضعها للوصول إلى غاياته المثلى وأهدافه العليا فعباداته وشعائره تُغذي الروح ، وتزكي النفس ، وتربي الإرادة ، وتوحِّد الاتجاه ، وتُدَرِّب الإِنْسَان على كمال العبودية لربِّه الأعلى .

وأخلاقه تقاوم الأنانية ، وتُرَبِّي روح الغيرية ، وتُعنى بزكاة الفرد ، وتماسك المجتمع ، تُزكي نوازع الخير ، وتقلم أظافر الشر . وهي أخلاق فطرية واقعية مفهومة معللة ، شاملة متوازنة ، يجتمع العَقْل والنقل على تحسين ما حسنته ، وتقبيح ما قبحته .

وآدابه وتقاليده تُربِّي الأذواق ، وتحمي الأخلاق ، وتُجَمِّلُ الحياة ، وتصنع وحدة المظهر مع المخبر ، وتصون المجتمع من عبث المتحللين ، وتزمت المتزمتين .

✓ **الخَصِيْصَةُ السابعة الجمع بين الثبات والمرونة** :

من أجلى مظاهر التوازن والوسطية التي يَتَمَيَّز بها نظام الإِسْلام ، وبالتالي يَتَمَيَّز بها مجتمعه عن غيره ـ التوازن بين الثبات والتطور ، أو الثبات والمرونة . فهو يجمع بينهما في تناسق مبدع ، واضعًا كلًا منهما في موضعه الصحيح ، الثبات فيما يجب أن يخلد ويبقى ، والمرونة فيما ينبغي أن يتغير ويتطور . وهذه الخصيصة البارزة لرسالة الإِسْلام لا توجد في شريعة سماوية ولا وضعية .

فالشرائع السماوية قبل الإِسْلام كانت جامدة ؛ لأنها كانت مرحلية ، لزمن موقوت ، ولقوم مخصوصين ، فلم تكن في حاجة إلى المرونة التي تؤهلها للعموم والخلود ، بخلاف الإِسْلام ، الذي بعث رسوله إلى الناس كافة ، وخُتِمَ به النبيون .

وسجل التَّاريخ على كثير من رجال هذه الأديان وقوفهم في وجه الحركات العِلْمِيَّة والتحريرية الكبرى ، ورفضهم لكل جديد في ميدان الفكر أو التشريع أو التنظيم .

أما الشرائع الوضعية ، فهي تمثِّل ـ عادة ـ المرونة المطلقة ؛ ولهذا نراها في تغير دائم ولا تكاد تستقر على حال ، حتى الدساتير التي هي أم القوانين كثيرًا ما تُلغَى بجرة قلم ، من حاكم متغلب ، أو مجلس للثورة ، أو برلمان منتخب انتخابًا صحيحًا أو زائفًا ، حتى يُصبح الناس ويُمسوا وهم غير مطمئنين إلى ثبات أي مادة ، أو قاعدة قانونية كانت بالأمس موضع التجلة والاحترام .

ولكن الإِسْلام ـ الذي ختم الله به الشرائع والرسالات السماوية ـ أودع الله فيه **عنصر الثبات والخلود ، وعنصر المرونة والتطور معًا** ، وهذا من روائع الإِعْجَاز في هذا الدِّيْن ، وآية من آيات عمومه وخلوده ، وصلاحيته لكل زمان ، وكل مكان .

ونستطيع أن نحدد مجال الثبات ومجال المرونة في شريعة الإِسْلام ورسالته الشاملة الخالدة في النقاط الآتية :

* الثبات على الأهداف والغايات ، والمرونة في الوسائل والأساليب .
* الثبات على الأصول والكليات ، والمرونة في الفروع والجزئيات .
* الثبات على القيم الدينية والأخلاقية ، والمرونة في الشئون الدنيوية والعلمية.

هذا هو المراد بالدِّين لغة واصطلاحًا ، والمراد بالإسلام لغة واصطلاحًا ، وتلك خصائصه العامة ، وآملُ أن أكونَ قد وُفِّقْتُ في بيان المراد بهذين المصطلحين. ولننتقل الآن إلى الفَصْل الآتي .

الفصل الثاني

الأدلة على وجود الله

- **العقل وأهميته .**
- **أدلة وجود الله :**

✓ **الأدلة العَقْلِيَّة على وجود اللّه :**

⇦ قانون العِلَّة .

⇦ قانون الوجود .

⇦ قانون الحدوث .

⇦ قانون النظام .

⇦ قانون العناية الإلهية .

✓ **دليل الفِطرة .**

- **إيمان العقول الجبارة بالله .**
- **وحدانية الله .**

الفَصْلُ الثَّانِي
الأدِلة على وجود الله تعالى

أثبتنا في مقدمة هذا الكتاب وتمهيده أننا نسعى لإثبات أَنَّ الإِسْلام هو الدِّيْن الحق؛ لذلك نبتغيه ، وما سواه الباطل ؛ لذلك نَقليه .

وحتى تتتابع فصول الكتاب بصورة مرتبة ، ويأخذ بعضها بحجز بعض ؛ جعلنا الفَصْل الأول للحديث عن ماهية الدِّيْن ، وماهية الإِسْلام ، وضعنا فيه تَصُورًا للدين وخصائصه ، وتصورًا للإسلام وخصائصه .

ونأتي إلى الفَصْل الثاني ، وجعلناه بعنوان : الأَدِلَّة على وجود الله .

وسبب وضعنا هذا الفَصْل بهذا العنوان هو أننا إذا أردنا أنْ نثبت أَنَّ الإِسْلام هو الحق فيجب أنْ نثبت أَوْلًا أَنَّ الله حقٌّ وأَنَّهُ موجودٌ ، وَأَنَّ الله لا إله غيره ، وأَنَّهُ ـ سبحانه ـ هو خالق الكون والوجود بكل ما فيه .

وأهمية هذا الإثبات ـ إثبات وجود الله ـ ونصب الأَدِلَّة القاطعة على وجوده **يجعلنا نَقْبَل كل ما يأمرنا به ، ونسمع ونطيع لكل ما يطلبه منا ، فالحق لا يخرج منه إلا الحق .**

إذن ، فإثبات وجود الله هو المُستنَد الذي نستندُ إليه لإثبات أَنَّ الإِسْلام هو الحق ؛ لأنه من عند الله الحق ، الذي خلقني وخلق هذا الكون بكل ما فيه.

فلنبدأ بعون الله وتوفيقه في تقديم الأَدِلَّة التي تدل عليه سبحانه ، ونسأل الله التوفيق والسداد .

العقلُ وأهميته في قضية الإيمان :

قبل البدء في عرض أَدِلَّة وجود الله أُحِبُّ أنْ أجيبَ عن سُؤال قد يطرح نفسه في هذا المقام ، وهو : ما الأداة التي نَملِكُها ، ونستطيع بها ـ ومن خلال الأَدِلَّة المتنوعة ـ **معرفة الله** عَزَّ وَجَلَّ ؟

فالأدلة شَيْء ، والأداة التي تستطيع أن تفهم هذه الأَدِلَّة ، وتستنبط منها دلالة وجود الله شَيْء آخر .

للإجابة عن هذا السؤال أقول : إنَّ الأداة التي مُنِحَت للبشر ويستطيعون بها معرفة الله هي « العَقْل » ، تلك النعمة التي مَنَّ بها على الإِنْسَان ، وبها تَمَزَّى عن الحيوان ، وفيها قال شاعر العربية الأكبر المتنبي :

لـولا العُقـول لكـان أدنـى ضَـيْغَمٍ أدنـى إلى شَرَفٍ مـن الإنسـانِ

فالعقل هو أهم الأدوات الدالة على الله ، فهو القائد ، وهو المرشد ، وكم من أَدِلَّة على الله شاهدة ، وبراهين بوجوده ناطقة ، ولكن لا جدوى منها لمن لا يُعْمِلون فيها عقولهم وأفهامهم .

وقد أبان العلماء عن أهمية العَقْل كأداة وكطريقٍ هادٍ إلى الله :

- يقول أديب الفلاسفة ، وفيلسوف الأدباء أبو حيان التوحيدي (٤٠٠هـ) : « العَقْل هو المَلِكُ المفزوعُ إليه ، والحكم المرجوعُ إلى ما لديه ، في كل حال عارضة وأمر واقع ، عند حَيرة الطالب ، ولَدَدِ الشَّاغِب ، ويَبَسِ الرِّيق ، واعْتِساف الطَّريق . وهو الوسيلة بين الله وبين الخلق ، وبه يَتَمَيَّزُ كلامُ الله ، ويُعرَفُ رَسُول الله ، ويُنصرُ دِيْن الله ، ويُذَبُّ عن توحيد الله ، ويُلتمسُ ما عند الله ، ويتحبب إلى عباد الله ، ويتخلص من عذاب الله . نوره أسطعُ من نور الشمس ، وهو الحكم بين الجِنِّ والإنس ، التكليفُ تابعه ، والذم والحمد قريناه ، والثواب والعقاب ميراثه ، به ترتبط النعمة ، وتُستدفع النِّقمة ، ويستدام الراهن ، ويُتألَّف الشارد ، ويُعرف الماضي ، ويُقاس الآتي ، شريعته الصدق ، وأمره المعروف ، وخاصته الاختيار ، ووزيره العِلْم ، وظهيره الحلم وكنزه الرفق ، وجنده الخيرات ، وحليته الإيمان ، وزينته التقوى ، وثمرته

اليقين »[(١)] .

- ويذكر العلامة مُحَمَّد فريد وجدي قوله : « **قِوام الدِّيْن العَقْل** ، ومادته العِلْم ، وميزانه الدليل ، العَقْل المطلق من أسر الأوهام التقليدية ، والعلم القائم على الأعلام الوجودية ، والدليل الخالص من الأهواء النفسية »[(٢)] .
- وينص الشيخ أبوبكر الجزائري على هذه الأهمية ـ أهمية العقل ـ فيذكر : « إنَّ العَقْل السليم إذا أصدر حكمًا على شَيْء ما من الأشياء المحسوسة أو المعقولة فإنَّ حكمه لا ينتقض أبدًا ، بخلاف حكم غيره مما طريقه الحواس ، أو العادات أو الاستقراء ، فَإِنَّهُ كثيرًا ما ينتقض ، فالعين المبصرة قد تصدر حكمًا ما على مرئي من المرئيات ، بأنه ثابت أو متحرك ؛ فتخطئ في الحكم ... وأما حكم العادات القائم على التجارب فإن الخطأ فيه أكثر ، وأكثر منه خطأ حكم الاستقراء والتتبع ؛ لأن الإِنْسَان مهما أوتي من قوة لا يستطيع أن يحيط علمًا بالأشياء كلها . فلذا كان الخطأ أكثر في أحكام الذين يبنون أحكامهم على التجارب والملاحظات والقياسات والافتراضات . أما أحكام العَقْل فَإِنَّهَا متى **ثبتت سلامة العَقْل وصحته لا تنتقض أبدًا** ، سواء كانت واجبة أو جائزة أو

---

(١) البصائر والذخائر ، ت : أحمد أمين ، السيد أحمد صقر ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ط ١ ، (١٩٥٣م) ، ص ٨ ، وأبو حيان التوحيدي وصفه ياقوت الحموي في كتابه مُعْجَم الأدباء ٥/ ١٩٢٣ بقوله : « كان متفننًا في جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام على رأي المعتزلة ... فهو شيخ في الصوفية، وفيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة، ومحقق الكلام، ومتكلم المحققين، وإمام البلغاء » . وفي كتاب البصائر والذخائر مواضع أخرى متعددة تدل **على أهمية العَقْل** ، منها :

* « قال سفيان الثوري، قال وهب: ما عُبِدَ الله بمثل العَقْل » ٣/ ١٥

* « وما أحسن ما قاله أبو زيد البَلْخِيّ، قال: العَقْلُ آلةٌ أعطيناها لإقامة العبودية لا لإدراك الرّبوبية، فمن طلب بآلة العبودية حقيقة الرّبوبية فاتته العبودية ولم يحظَ بالرّبوبية » ، ٧/ ٥٩

(٢) السيرة المحمدية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مكتبة الأسرة ، القاهرة ، ط١ ، (١٩٩٩م) ص ٧٤ ، ٧٥

مستحيلة »[١] .

وقد اهتمَّ الإسلامُ وعلماؤه بـ « العَقْل » اهتمامًا بالغًا ، ولا أَدَلَّ على أهمية العَقْل في الإِسْلام ـ من أنَّ مادة « ع ق ل » وردت تصريفاتها في القُرْآن أكثر من ٤٩ مرة[٢] ، من مثل قوله تعالى : ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ الملك: ١٠

وقد تبنَّى فقهاء الإسلامِ وفلاسفته مفهوم أنَّ « العَقْل » هو« أهم ما يُمَيِّزُ الكائِن الإنساني ، وأَنَّهُ يتكون من مجموعة من المعايير التي يستخلصها مما تَمُدُّه به الحواس من المعرفة ، التي يتم التحقق من صحتها على أساس التجربة والخبرة »[٣] .

وقد طور المسلمون هذا المفهوم « خصوصًا في فقه الإمام أبي حنيفة ، ثم المعتزلة عمومًا ، وعند ابن رشد ، وجعلوا العَقْل ـ البرهان العقلي ـ أساسًا للإيمان ، وأساسًا للتنظيم الاجتماعي وللسلوك الفردي المتطابقين مع العَقْل ، والهادفين إلى تحقيق مصالح الفرد والجماعة »[٤] .

ونجد أبا حامد الغزالي (٥٠٥ هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ يُجِلُّ العَقْل ، ويضعه في مكان معتبر ومنزلة سامقة ، وفي كتب أبي حامد الغزالي المنطقية نجد « **أَنَّ العَقْلَ هو وحده أداة المعرفة** ، لكن الحواس تشوش عليه ، وهذا يوجب نقد المعرفة الحسية ، والخيال أَيْضًا ـ أو الوهم كما يسميه أبو حامد ـ يشوش وظيفة العَقْل ، فعلى الإِنْسَان أن يحارب سلطان الوهم ؛ لكي يستطيع تصور الأمور المجرَّدة ، والحقائق غير المحسوسة ... أما عن المعرفة الدينية فإن الذي يؤخذ من كتب أبي حامد ـ مثل كتاب : الاقتصاد في

---

(١) عقيدة المؤمن ، دار السلام ، القاهرة ، ط٢ ، (١٩٩٧م) ، ص٣٢

(٢) يُنْظَرُ : مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي : المُعْجَم المفهرس لألفاظ القُرْآن الكريم ، دار الحديث القاهرة ، القاهرة ، ط١ ، (١٩٩٦م) ، ص ٥٧٥

(٣) سامي خشبة ، مصطلحات الفكر الحديث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مكتبة الأسرة ، القاهرة ، (٢٠٠٦م) ، ٢/ ٨٧

(٤) السابق ، ٢/ ٨٧

الاعتقاد ـ أن مصادر هذه المعرفة هي :

- أولا : الوحي الإلهي أو الشرع المنقول .
- ثانيًا : العَقْل الإنساني أو الحق المعقول ، على حد عبارته ...

على أَنَّ العَقْل ، وإن كان قادرًا على معرفة كثير من الأمور بطريق النظر والاستدلال ، مثل : **الاستدلال على وجود الصانع ، وعلى حدوث العالم** ، ونحو ذلك من أمور تستند إلى النظر في الواقع الذي نشاهده ، فإن هناك أمورًا ليس للعقل سبيل إلى القطع بها ، مثل : البعث ، والثواب والعقاب في الآخرة ، فهذه أمور تحتاج إلى شهادة الوحي لكي تصل إلى اليقين »[(١)] .

وقد ألف شيخُ الإسلام ابن تَيْمِيَّة كتابًا قيمًا في العلاقة بين الشرع والعقل أسماه : « دَرء تعارض النقل مع العَقْل » ، ومن أقواله في هذا الكتاب: « ... وهذا مما يبين أن ما جاءت به الرسل هو الحق، وَأَنَّ **الأَدِلَّة العَقْلِيَّة الصريحة توافق ما جاءت به الرسل، وأن صريح المعقول لا يناقض صحيح المنقول ، وإنما يقع التناقض بين ما يدخل في السمع وليس منه ، وما يدخل في العَقْل وليس منه** »[(٢)] .

ويوضح د. يوسف القرضاوي علاقة الشريعة الإسلامية بالعقل ، ويبين دور العَقْل في هذه الشريعة الغراء ، فيشير إلى أَنَّ الوحيَ ترك « للعقل أمورًا كثيرة في مجالات متعددة :

أ- ترك للعقل في مجال العقيدة أن يهتدي إلى أعظم حقيقتين في هذا الوجود :

- **الحقيقة الأولى** : وجود الله ووحدانيته ، فوجود الله ـ كما تهدي إليه الفطرة السليمة ـ يقتضيه كذلك النظر الصحيح والعقل الصريح ....
- **الحقيقة الثانية** : ثبوت الوحي والنبوة والرسالة ، فالعقل هو الذي يثبت

---

(١) مقال بعنوان : « العَقْل عند الغزالي » ، د. مُحَمَّد عبد الهادي أبو ريدة ، مجلة العربي الكويتية ، ع:٢٤٩ ، أغسطس ١٩٧٩م ، ص ٣٦ ، ٣٧

(٢) درء تعارض النقل والعقل ، تحقيق : محمد رشاد ، جامعة الإمام محمد بن سعود ، ط ٢، (١٩٩١م) ، ٢/ ٣٦٤

إمكان ذلك ووقوعه بالفعل ... ؛ ولهذا قال علماء الإِسْلام : إنَّ العَقْل أساس النقل ....

ب- وترك الوحي مجال التشريع أن يجول فيه ويصول في فهم النصوص ؛ فيفرِّع على الأصول ، ويقيس على الفروع ، ويستنبط الأحكام ، ويُكيف الوقائع ، ويرعى القواعد في جلب المصالح ودرء المفاسد ....

ت- وترك للعقل في ميدان الأخلاق أن يصدر حكمه وفتواه في كثير من الأعمال التي يلتبس فيها الخير بالشر ويشتبه الحلال بالحرام ...

ث- ثم ترك الوحي للعقل بعد ذلك أن يجولَ في آفاق هذا الكون العريض ما شاء ، صاعدًا إلى الأفلاك وهابطًا إلى الأرض ...

ج- ترك له أن يبتكر ويخترع في وسائل الحياة وأمور الدُّنْيا ما شاء ، ما دام ملتزمًا حدود الحق والعدل ...

ح- ترك للعقل أن يستفيد من تجارب الآخرين ، وينتفع بتراث السابقين ، ومعارف اللاحقين »[(١)] .

وقد أشار علماؤنا إلى أَنَّ العَقْل ليس فقط أداة لمعرفة الله ، بل هو وحده كافٍ لمعرفته ، فـ« الإيمان بالله والتوحيد لا يُشترَطُ فيه بَعثة الرُّسُل ، وإنزال الكتب ، وأَنَّهُ إن لم يبعث رسولًا ولم ينزل كتابًا، كان الإيمان به وتوحيده واجبًا ؛ **لما رَكَّبَ فيهم من العقول ، وَنَصَبَ لهم من الأَدِلَّة ومَكَّنَهم من النظر والاستدلال** »[(٢)] ، و« أَدِلَّة العَقْل الموصلة إلى ذلك (معرفة الله وتوحيده) معهم في كل زمان »[(٣)] .

وإذا كان الأمر كذلك ـ أي : إذا كان العَقْل يكفي لمعرفة الله والإيمان به ـ فَلِمَ

(١) الخصائص العامة للإسلام ، ص ٥٥ وما بعدها .

(٢) الزمخشري: الكَشَّاف ، ١/ ١٢٩

(٣) السابق ، ٣/ ٥٣٥

بعث اللهُ الرُّسُل ؟ نقول : « بعثة الرسل من جملة التنبيه على النظر والإيقاظ من رقدة الغفلة ؛ لئلا يقولوا : كنا غافلين ؛ فلولا بعث إلينا رسولًا يُنَبِّهنا على النظر في أَدِلَّة العَقْل »[1] .

وإذا أخذنا نبحث عن : ما المقصود بهذا المصطلح - العَقْل - نجد هذه التعريفات له :

» قال الكفَوي (١٠٩٤هـ) : « ... والصواب ما قاله بعض المحققين ، وهو أَنَّهُ نورٌ معنويٌّ في باطن الإِنْسَان ، يبصر به القلبُ ـ أي : النفس الإنسانية ـ المطلوبَ ؛ أي ما غاب عن الحواس بتأمله وتفكره ، بتوفيق الله ـ تعالى ـ بعد انتهاء درك الحواس ، ولهذا قيل : بداية العقول نهايةُ المحسوسات »[2] .

» وفي المُعْجَم الفلسفي ، في مادة (العَقْل Reason, intelligence, intellect, understanding, intellectual): « والجمهور يطلق العَقْل على ثلاثة أوجه :

- الأول : يرجع إلى وقار الإِنْسَان وهيئته ، ويكون حدُّه أَنَّهُ هيئة محمودة للإنسان في كلامه ، واختياره وحركاته وسكناته .
- الثاني : يُرادُ به ما يكتسبه الإِنْسَان بالتجارب من الأحكام الكُلية ؛ فيكون حدُّه أَنَّهُ معان مجتمعة في الذهن ، تكون مقدمات تستنبطُ بها الأغراض والمصالح .
- والثالث : يراد به صحة الفطرة الأولى في الإِنْسَان ؛ فيكون حده أَنَّهُ قوة تدرك صفات الأشياء من حسنها وقبحها وكمالها ، ونقصانها .

أما الفلاسفة ، فإنهم يطلقون العَقْل على المعاني الآتية :

* أول هذه المعاني قولهم : إن العَقْل جوهر بسيطٌ مدرك للأشياء بحقائقها....
* وثاني هذه المعاني قولهم إنَّ العَقْل قوة النفس التي بها يحصل تصور المعاني ، وتأليف القضايا والأقيسة ....

---

(١) السابق ، ٣/ ٨

(٢) الكُليَّات ، ت : عدنان درويش ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٢ ، (١٩٩٨م) ، ص ٦١٨

* والمعنى الثالث للعقل هو القول إِنَّهُ : قوة الإصابة في الحكم ؛ أي تمييز الحق من الباطل ، والخير من الشر ، والحسن من القبيح ....
* والمعنى الرابع للعقل هو القول إِنَّهُ قوة طبيعية للنفس متهيئة لتحصيل المعرفة العِلْمِيَّة ...
* والمعنى الخامس للعقل هو القول إِنَّهُ مجموع المبادئ القبلية المنظمة للمعرفة ، كمبدأ عدم التناقض ، ومبدأ السببية ، ومبدأ الغائية ، وتتميز هذه المبادئ بضرورتها وكليتها واستقلالها عن التجربة ....
* والمعنى السادس للعقل هو القول إِنَّهُ الملكة التي يحصل بها للنفس علم مباشر بالحقائق المطلقة ....
* ويطلق لفظ العَقْل أَيْضًا على مجموع الوظائف النفسية المتعلقة بتحصيل المعرفة ، كالإدراك ، والتداعي ، والذاكرة ، والتخيل والحكم والاستدلال ... »(١) .

عند تأمل هذه التعريفات لا نجد بينها تضادًا ، بل تنوعًا ، فالاختلاف هنا اختلاف تنوع وليس اختلاف تضاد ، فكل تعريف تناول جانبا من جوانب العَقْل ، فالعقل هو كل هذه التعريفات ، فهو :

⇦ نورٌ معنويٌّ تُبصِرُ به النفسُ الإنسانِيَّةُ ما غاب عن الحواس بتأمله وتفكره.
⇦ وهو هيئة محمودة للإنسان في كلامه ، واختياره وحركاته وسكناته .
⇦ وهو معان مجتمعة في الذهن ، تكون مقدمات تستنبطُ بها الأغراض والمصالح .
⇦ وهو قوة تدرك صفات الأشياء من حسنها وقبحها وكمالها ، ونقصانها .
⇦ وهو جوهر بسيطٌ مدرك للأشياء بحقائقها.
⇦ وهو قوة النفس التي بها يحصل تصور المعاني ، وتأليف القضايا والأقيسة.
⇦ وهو قوة الإصابة في الحكم ؛ أي تمييز الحق من الباطل ، والخير من الشر ،

---

(١) د.جميل صليبا ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، (١٩٨٢م) ، ٢/ ٨٤

والحسن من القبيح .

- ⇦ وهو قوة طبيعية للنفس متهيئة لتحصيل المعرفة العِلْمِيَّة
- ⇦ وهو مجموع المبادئ القبلية المنظمة للمعرفة ، كمبدأ عدم التناقض ، ومبدأ السببية ، ومبدأ الغائية.
- ⇦ وهو المَلَكَة التي يحصل بها للنفس علم مباشر بالحقائق المطلقة .

بناء على ما سبق نقرِّر ـ مطمئنين ـ أَنَّ العَقْل يؤدي دورًا مهمًا في قضية الإيمان ، وأنَّ دوره لا يمكن بأي حال من الأحوال الاستغناء عنه ، وأن بناء الإيمان على الجانب العاطفي فقط دون الجانب العقلي دليلٌ على فشل هذا الإيمان ، ودليلٌ على تهافته وعدم قيمته.

الأدلة على وجود الله :

أ- **الأدلة العَقْلِيَة** [(١)] : نذكر هنا جملة من أحكام العَقْل وقوانينه القاضية بوجود الله تعالى ، والهادية إلى معرفته عَزَّ وَجَلَّ .

(١) **قَانُونُ العِلَّة** :

لقد رُكِّزَ في فطرةِ كل إنسان عاقلٍ أنَّ كلَّ مُتَغَيِّر من جسم أو حال أو صفة ، لا بدَّ له من سبب تغيَّر به ، ولا يخرج شَيْء عن هذا القانون بحال من الأحوال ، إذ كل من يرى آنيةً موضوعةً ، أو آلةً مصنوعة يحكم على الفور بعقله أنَّ للآنية واضعها في مكانها الذي هي موضوعة فيه ، وأنَّ للآلة صانعًا صنعها حتمًا ، ويجعل من المحال أن تكون الآنيةُ قد وُضعت في مكانها بلا واضع وضعها فيه ، وَأَنَّ الآلةَ قد صُنعت بلا صانع صنعها .

ويؤمن الإِنْسَان بهذا إيمانًا راسخًا ، ولا يستطيع أحد أن يقنعه بخلافه أبدًا ، وذلك لأن العَقْل حكم بأن كل آلة لها صانع ، وأن كل مُتَغَيِّر من الأشياء من صفة إلى صفة ، أو من مكان إلى مكان لا بد له من عِلَّة تغيَّر بسببها . وهذا القانون أو

(١) اعتمدنا في معظم هذه الأدلة على كتاب « عقيدة المؤمن » لأبي بكر الجزائري ـ طيب الله ثراه ـ

الحكم العقلي يسري على العالم كله بجميع أجزائه من المادة والحركة والتنوعات ـ أي: أنواع المخلوقات ـ في وجوده وتغيره ، فلا بد لوجوده من عِلَّة ، ولا بد لتغيره من سببٍ أَثَّرَ فيه ، فهو يتغير من حال إلى حال لأجله . ولا بد أن تكونَ العِلَّة التي اقتضتْ وجودَه وتغيره عِلَّة كافية ، وإلا لما تَمَّ لها هذا الإيجاد والتغير .

وبالنظر إلى مظاهر الإبداع والقصد والتنظيم والتنسيق ، والإحكام في الخلق والإيجاد ، والتدبير في التصريف أثناء التغيير والتبديل ، فإن العِلَّة التي اقتضت وجود العالم وسائر المخلوقات فيه ـ لا بد وأن تكون ذات قدرة وإرادة وعلم وحكمة ، **إذ لا بد من الكفاية فيها ، وإلا لما تم هذا الخلق ، والإبداع ، والتنظيم ، والإتقان ، والتدبير الحكيم** ، ومحال أن تكون العِلَّة الكافية هي الطبيعة لعدم القصد لها والإرادة والعلم والحكمة ، كما لا تكون الصدفة ؛ لاستحالة ذلك مع وجود الإبداع المدهش للعقل ، والتنظيم المحيِّر له ، والموافقات يستحيل بها تجمُّعُ المادة ، وتوافقها حتى يتم الخلق ، والإبداع والتنظيم . كما لا تكون ـ ولن تكون ـ الضرورة؛ إذ نظرية الضرورة سخر منها كل ذي عقل صحيح ، ومجَّها كل صاحب ذوق سليم .

ولم يبقَ أن تكون **تلك العِلَّة الكافية التي اقتضت وجود العالم وتنوعاته إلا الله سبحانه وتعالى** . وهكذا أصدر العَقْلُ السليمُ حكمَه الصحيح الذي لا ينقض أبدًا بوجود الله ذي الأسماء الحسنى ، والصفات العليا ، فآمن به المؤمنون وعرفوه بواسطة هذا الحكم العقلي السليم الصحيح والذي لا يُنقَض أبدًا(١) .

(٢) قَانُونُ الوجوب :

إنَّ قانونَ الوجوبِ هو أحدُ طرق الاستدلال العقلي على وجود الله تعالى ووجوب الإيمان به ، والتعرُّف إليه ، ووجوب طاعته والتقرب إليه . وحقيقة هذا القانون هو أن يقال : إنَّ الموجودات من هذه الحوادث التي يحويها العالم العلويّ والسلفي من كل الموجودات من جماد ، ونبات وحيوان ، وإنسان ، إما أن يكون

(١) ويؤيد هذا الكلام أنَّ أساطين فيزياء الكم **يرفضون** اعتبار أن نشأة الكون من عَدَم **كانت تلقائية** .

وجودها واجبًا ، أو مستحيلًا أو جائزًا ، ولا يخلو أمرها من واحدٍ من هذه الثلاثة بحال من الأحوال ، لقضاء العَقْل الصحيح بهذا ، وتسليم جميع العقلاء به.

وحقيقة « الواجب » أَنَّهُ ما أوجب عدم تَصَوُّر وقوعه تَناقُضًا عَقْلِيًّا لايقبل . وحقيقة « المستحيل » ـ وهو نقيض الواجب ـ أَنَّهُ ما أوجب تَصَوُّر وقوعه تناقضًا عَقْلِيًّا لا يصح ، وحقيقة « الجائز » ـ ويقال له الممكن أَيْضًا ـ أَنَّهُ ما لا يوجب تَصَوُّر وقوعه تناقضًا عَقْلِيًّا لا يصح أو لا يقبل . وبناء على هذا فهل وجود الكائنات واجبٌ أو مستحيل أو جائز ؟

والجواب : أن وجود الكائنات ليس بواجب ؛ إذ تصور عدم وقوعها لا يوجب تَناقُضًا عَقْلِيًّا ، كما أَنَّهُ ليس مستحيلًا ؛ إذ تَصَوُّر وقوعها لا يوجب تَناقُضًا عَقْلِيًّا ، وكيف وهي موجودة فعلًا ؟ إذًا ، فإذا لم يكن وجود الكائنات واجبًا ، ولا مستحيلًا تعيَّن أن يكون جائزًا ، إذ الأحكام ثلاثة فقط ، وإذا تعين أن يكون وجود الممكنات جائزًا لا غير ، فإننا نقول : ما دامت الكائنات جائزة الوجود ممكنته فقط ـ وقد وجدت فعلًا ـ فما الذي اقتضى وجودها ورجحه على عدمه؟

والجواب أن تقول : إِنَّهُ لا بد من عِلَّة اقتضت الوجود ، إذ تَصَوُّر وجودِ معلول بدون عِلَّة مستحيل ، لإيجابه تَناقُضًا عَقْلِيًّا لا يقبل . وإذا فما هي هذه العِلَّة التي اقتضت وجود الكائنات؟ وكون هذه العِلَّة التي اقتضت وجود الكائنات هي الطبيعة باطل ؛ لأنَّ الترجيح لا يكون إلا عن قصد وإرادة ، والطبيعة لا إرادة لها ، ولا قصد كما يعترف بذلك القائلون بها . وكونها الصدفة باطل ، وذلك لما تقدم من استحالة ذلك لوجود الإبداع ، والتناسق ، والتآلف ، والوزن الدقيق ؛ ولأن الموافقات لا تتم إلا بعقل جبار ، وإرادة عظيمة ، وتدبير وحكمة ، وكونُها الضرورة باطلٌ ، بل من أبطل الباطل ؛ لأن الضرورة ليست إلا وهمًا من أوهام الخيال ، ولا قائل بها ألبته ، وقد بينّا أَنَّها عناية الله ـ تعالى ـ بمخلوقاته ، تلك العناية الإلهية التي أعطت كل مخلوق خلقه ، وهدته إلى ما يكملُ به وجوده ، وتحفظ به حياته إلى أجله الذي حدد له . إذن ، فَإِنَّهُ لم يبقَ من عِلَّة لوجود الكائنات اقتضت وجودَها ، ورجَّحته على خلافه ، إلا أن يكون الله جلَّ جلاله ، هو الذي اقتضى وجودها

ورجحه ، فكان الكون على ما هو عليه من إبداع وتنظيم . ومظاهر القدرة ، والعلم ، والتدبر ، والإحكام ، والإتقان كلها دالة على علم الله ، وقدرته ، وكمال تدبيره ، وعظيم حكمته ؛ بهذا عُرف الله جل جلاله ، وآمن به المؤمنون ، وأحبوه ، وتقرَّبوا إليه[١] .

(٣) قَانُونُ الحدوث :

لقد ثبت اليوم حدوث سائر الكائنات الحية ، ومن أقربها عهدًا بالحدوث الإِنْسَان كما قرَّر هذا علماء الكون وطبقات الأرض . وبهذا ثبت حدوث العالم بأسره قطعًا ويقينًا[٢] ؛ لأنَّ الشيء الواحد لا يكون قديمًا وحديثًا في آن واحد ، كما لا يكون بعضه قديمًا ، والبعض الآخر حديثًا ، إذ القول بهذا يوجب تناقضًا عقليًّا لا يصح ، ولا يُقبل في قضايا العقول السليمة .

وإذا سلمنا بحدوث العالم كله ـ وهو مُسَلَّم حتى من الطبيعيين أنفسهم ـ فَإِنَّهُ لا

---

(١) قال تعالى :﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ مريم: ٦٧ ، قال الإمام الزمخشري في تفسير هذه الآية : « ... أيقول ذاك ولا يتذكر حال النشأة الأولى ... فإن تلك (؛ أي : النشأة الأولى) أعجب وأغرب ، وأَدَلُّ على قدرة الخالق ؟! حيث أخرج الجواهر والأعراض من العدم إلى الوجود ، ثم أوقع التأليف ، مشحونًا بضروب الحكم التي تحار الفطن فيها ، من غير حذو مثال ، واقتداء بمؤلف ، ولكن اختراعًا وإبداعًا ، من عند جلت قدرته ، ودقت حكمته» .

(٢) يقول جون غريبين في كتابه المهم « تاريخ العِلْم » ما نصه : « كثيرًا ما يسألني البعض إذا ما كنت أومن حقيقة بحدوث ما نسميه الانفجار العظيم **Big Bang** ، والإجابة المفضلة عندي هي أَنَّ الدليل الذي بين أيدينا يتسق مع الفكرة القائلة إن الكون كما نشاهده اليوم ، تطور من حالة حارة وكثيفة (الانفجار العظيم) منذ حوالي ١٣ بليون سنة . وحسب هذا الفهم فإنني أومن بحدوث الانفجار العظيم ... لكن نموذج الانفجار العظيم هو الوسيلة الأفضل التي أعرفها لتصور كيف كان الكون في الماضي البعيد. هذا علاوة على أن تلك الصورة تتسق مع الملاحظات المتاحة والحسابات الرياضية التي بين أيدينا » . وينقل جون غريبين عن بعض العلماء عمر الأرض ، فيقول ٢/ ١٦٩ : « وكان قد استطاع حتى هذا التَّاريخ أن يؤسس على نحو راسخ التقنية الإشعاعية لقياس أعمار الصخور ، كما توصل إلى أنَّ عمر كوكب الأرض ذاته ٤.٥٠٠ ± ١٠٠ مليون سنة » .

انفكاك حينئذ من التسليم بوجود عِلَّة كافيةٍ لإحداثه ؛ إذ وجود معلول ـ وهو الحدوث ـ بدون عِلَّة يوجب تناقضًا عقليًّا لا يصح ؛ لإطباق العقول السليمة على رفضه ، وعدم قبوله .

هذا ، وما في العالم الحديث من إبداع ، ونظام ، وتدبير يوجب عقلًا أن تكون العِلَّة التي ترتب عليها حدوث العالم عِلَّة كافية ، ذات قدرة وعلم ، وإرادة وقصد ، وحكمة وتدبير ، كما يوجب أن تكون العِلَّة واجبة الوجود لذاتها ، بحيث لا يُتصوّر افتقارها إلى عِلَّة أخرى لئلا يلزم الدور والتسلسل ، وهما محالان في حكم العقول.

وأخيرًا فالعلة الكافية التي وجب عقلًا أن تكون ، ووجب أن تكون واجبة الوجود هي الله الخالق ، المدبر ، الحكيم ، ذو الأسماء الحسنى ، والصفات العليا ، رب العالمين ، وإله الأولين والآخرين .

وبهذا القانون الخاص ـ قانون الحدوث ـ ثبت وجودُ الله تعالى عقلًا ، ووجب الإيمان به ربًّا وإلهًا ، وتعينَتْ عبادته بفعل ما يحب ، وترك ما يكره ، طلبًا لرضاه ، والسعادة في جواره الكريم يوم لقائه بعد فناء هذا العالم الحادث وانقضائه .

(٤) قَانُونُ النظام (١) :

إنَّ التأمُّل في الكون كله ، علويه وسفليه ، يكشف عن حقيقة كبرى ، لا مجال لإنكارها ، أو تجاهلها والإغضاء عنها ، أو الغض من شأنها ، ألا وهي هذا النظام الدقيق العجيب ، الذي رُبِطَتْ به أجزاءُ الكون كله ، من الذرة إلى المجرة ، هذا النظام المدهش المحيِّر للعقول ، الذي يُحيل العَقْل البشريُّ السليمُ أن يكون ناجمًا عن صدفة تلقائية ، أو عن تفاعلات كيمائية ، أو يكون نتيجة للحركة المستمرة للمادة منذ ملايين السنين ، كما يزعم الخياليون ، والمغرورون ، والمخدعون .

إنه لمن أمحل المحال ، وأبطل الباطل أن يصدر هذا النظام الشامل للخلق كله عن غير ذي إرادة ، وقصد ، وعلم وحكمة ، وتدبير (٢) .

---

(١) قد يكون هذا الدليل قريبًا مما يسميه العلماء حاليًا بـ « برهان التصميم الذكي **Fine Tunning** » .

(٢) ينقل المؤرخ ول ديورنت عن القديس أغسطين (ت: ٤٣٠م) : « ... في وسعنا أنْ نعرف الله ـ معرفة أكيدة بمعنى ما ـ عن طريق خلقه ؛ لأن كل شَيْء في العالم أعجوبة من أعظم العجائب في

إنَّ نظرة إلى السَّماء ، إلى خَلْقها ، وتكوينها ، إلى الإحْكام والإتقان فيها ، إلى أبعادها ، إلى سعتها ، إلى عدد نجومها ، ومواقعها ، إلى الأفلاك الدائرة فيها ، إلى ضوء شمسها ، ونور قمرها ـ هذه النظرة الفاحصة الشاملة تُرِي الإِنْسَان العاقل من مظاهر القدرة ، والعلم والإرادة ، والقصد والتصميم ما يجزم معه ببطلان هراء الماديين ، وتُرَّهات الملحدين ، ويسلم بوجود إله عظيم متصف بصفات الربوبية ، ونعوت الألوهية .

وأيَّة نظرة فاحصة دقيقة إلى الأرض ، وإلى خلقها وتكوينها ، إلى محيطاتها وأنهارها إلى جبالها ووهادها ، إلى مرتفعاتها وسهولها ، إلى النباتات والأشجار ، إلى التنوع في الحيوانات ، إلى الاختلاف في أجناس البشر لونًا ولسانًا ، تقف بالناظر عند حقيقة لا يستطيع إنكارها ، وهي أن وراء هذا الخلق والإبداع خالقًا مبدعًا عليمًا حكيمًا هو الله عَزَّ وَجَلَّ . ولو أَنَّ المرء « دخل دارًا ، فوجد بها غرفة مهيأة للطعام ، وأخرى للمنام ، وأخرى للنظافة ، وأخرى للضيافة ... ؛ لجزم المرء بأن هذا الترتيب لم يتم وحده ، وأنَّ هذا الإعداد النافع لا بد قد نشأ عن تقدير وحكمة ، وأشرف عليه فاعل يعرف ما يفعل »[(١)] .

ولأنَّ الكون يخضع لنظام دقيق استطاع العلماءُ ـ خاصة علماء الرياضيات ـ أن يفهموا هذا الكون ، ويفهموا حركته ، ويتنَبَّؤوا بها ، يقول جاليليو (ت:١٦٤٢م) في كلام نفيس له عن الكون :

« ... **لن يفهمه المرء ما لم يتعلم أَوْلًا كيف يفهم اللغة ويفهم الأبجدية المكتوبة بها ، إِنَّهُ مكتوب بلغة الرياضيات ، وأحرفه هي المثلثات والدوائر ، وغير ذلك من أشكال هندسية ، وأَنَّهُ من دونها سيكون من المستحيل بشريًّا**

نظامها ، وفي وظيفتها ، ولا يمكن أن توجد إلا إذا أوجدها عقل خَلَّاق ، وإن ما في الكائنات الحية من نظام ، وتناسب واتزان ليدل على وجود نوع من القدرة الإلهية الأفلاطونية ، يتوحد فيها الجمال والحكمة » . قِصَّة الحَضَارَةِ : م٦ ، ١٢/ ١٤٣

(١) مُحَمَّد الغزالي: عقيدة المسلم ، دار الريان للتراث ، القاهرة ، (بدون بيانات أخرى) ، ص ٢٠

فهم كلمة واحدة منه ؛ ومن دونها سيجول المرء وسط متاهة مظلمة »(١) .

ولأن العلماء فهموا حركة الكون ونظامه استطاعوا أن يتنبؤوا بحركة أجرامه السماوية . ولنأخذ مثالًا على هذه التنبُّؤات من تاريخ العِلْم ، يقول جون غريبين : « ... وظهر ـ كما تنبَّأ هالي ـ للمرة الثانية الجِرمُ السماوي المعروف لنا الآن باسم مذنب هالي ، وشوهد ثانية لأول مرة في ليلة عيد الميلاد ١٧٥٨م ... ويمثل هذا تأكيدًا رائعًا لمصداقية نظرية نيوتن عن الجاذبية ، وقوانين الميكانيكا التي عرضها في كتابه : برينكيبيا ، مثلما يمثل إقرارًا نهائيًّا باعتماد إنجاز نيوتن ، وهو ما سوف يحدث على المنوال نفسه بعد ١٦٠ سنة ؛ إذ سيتم رصد خسوف كامل للشمس ؛ ليكون بمنزلة إقرار نهائي لمصداقية نظرية النسبية العامة لألبرت إينشتين . وفي العامين ١٧٦١م و ١٧٦٩م تمَّ ـ كما تنبَّأ هالي ـ رصد دائرة العبور الأولى لكوكب الزُّهرة من أكثر من ستين محطة أرصاد في مختلف أنحاء العالم »(٢) .

والسؤال الآن : هل لو كان الكون تعمُّه الفوضى ، ولا نظام فيه هل كان في مقدور العلماء فهم هذا الكون ؟! ، وهل كان في مقدورهم أن يتنبؤوا بحركة أجرامه ويضعوا هذه القوانين التي تصفه ؟! الإجابة : قطعًا لا . إذن فالنظام يحكم كل شَيْء في هذا الكون ، والنظام لا بد له من مُنَظِّم ، ذلك هو الله ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ السجدة: ٧ ، يقول دكتور مُحَمَّد عبد الله دراز: « فكما أَنَّ الناظر في جمال أثر فني لا يقدر أن يمنع نفسه من التفكير في ذوق الفنان ؛ والناظر في دقة الآلة المركبة ينتقل فكره توًا إلى مهارة المهندس ؛ كذلك التأمل في عظمة البدائع الكونية ينساق بطبيعته إلى التفكر في عظمة القوة العاقلة التي تدبرها .... ذلك أَنَّ العَقْل الإنساني لا يكاد يتصور أن جمادات لا روح فيها ولا شعور يمكن أن تتحرك بنفسها ، وتتنقل في أوضاع منظمة بين أجرام أخرى متحركة بحركات منظمة مباينة لها على أبعاد محددة وبطريقة مؤدية إلى غايات معقولة ، من غير أن تكون مدفوعة مباشرة أو من طريق

---

(١) جون غريبين : تاريخ العِلْم ، ١/ ١٣٤

(٢) السابق ، ١/ ٢٥٧

غير مباشر بشيء ذي إرادة وشعور ، يحركها وينقلها في تلك الأوضاع على حساب ثابت دقيق »[(١)] .

ومن المؤلفات المهمة الحديثة التي تتحدث عن الدِّقَّة المتناهية في هذا الكون كتاب : « ستة أرقام فقط **Just Six Numbers** » لسير مارتن ريز **Sir Martin Rees** ـ عالم الكونيات الإنجليزي الكبير ـ حيث يحدد « ستة قيم عددية ، مسئولة عن صفات الكون التي تناسب تمامًا نشأة الحياة واستمراريتها . ويوضح ريز أن أدنى تَغَيُّر في هذه القيم يجعل من المستحيل وجود الكون بصفاته الحالية .

- أولا : يُعتبر تمدد الكون عقب الانفجار الأعظم ـ وحتى الآن ـ المحرك الرئيسي لمراحل نشأته ... ؛ فإذا كانت القوى التي تحكم تمدد الكون أضعف من مقدارها الحالي لانهدم الكون على نفسه ، وإذا كانت أقوى لما نشأت المجرات والنجوم ، ويُعرف هذا المقدار بالحد الحرج .
- ثانيًا : نشأت المجرات نتيجة لزيادة كثافة مادة الكون في بعض المناطق عن باقي أماكن الكون الوليد بمقدار ١: ١٠٠٠٠٠ ، مما وفر المادة المطلوبة لتكوين المجرات في هذه المناطق . ولو قلت هذه النسبة عن هذا المقدار ؛ لظل الكون على حالته الغازية ، ولو زادت لصارت مادة الكون أكثر كثافة ؛ ولَتَحَوَّلَت إلى ثقوب سوداء تبتلع مادة الكون كلها .
- ثالثًا : إذا كان مقدار قوة الجاذبية التي تربط بين أجرام الكون أكبر من قدرها الحالي ، لانهدم الكون على نفسه قبل أن تنشأ الحياة ، وإن كان أضعف مما هي عليه الآن ، لما تكونت المجرات والنجوم . وقد تم ضبط قوة الجاذبية بدقة تتجاوز ١: ١٠٠٠٠٠
- رابعًا : **مقدار الطاقة المتاحة للربط بين مكونات نواة ذرات الهليوم داخل النجوم (القوة النووية)** : إنَّ مصدر الطاقة التي تصدرها النجوم (كالشمس) هو الاندماج النووي بين ذرات الهيدروجين . ويتم استغلال ٠.٠٧٪ من هذه الطاقة

(١) الدِّيْن ، ص ١١٦

للربط بين مكونات نواة ذرة الهليوم الناتجة عن هذا الاندماج . وإذا كان المتاح من كتلة ذرات الهيدروجين لإنتاج هذه الطاقة هو ٠.٠٦٪ أو أقل ، لما أمكن للشمس أن تشع حرارتها وضوءها . وإذا بلغت النسبة ٠.٠٨٪ أو أكثر ؛ لنفد الهيدروجين الموجود في الكون والذي هو مصدر طاقته ...

- تبلغ الروابط الكهربائية **Electrical Bonds** (الرابطة الأيونية والرابطة التساهمية) التي تمسك الذرات بعضها ببعض لتكوين الجزيئات مقدارًا أكبر كثيرًا من قوى الجاذبية بينها **Gravitational Force** . إنَّ أي خلل في النسبة بين القوتين ، يقلل بشكل كبير من عمر الكون ، ويُقلص حجم أكبر الكائنات الحية إلى حجم الحشرات ، أو يجعلها تتضخم وتنتفخ إلى حد الانفجار .
- سادسًا : إن بنية الكون الفراغية ثلاثية الأبعاد هي الملائمة لنشأة الحياة إذ إنَّ كونًا ثنائي الأبعاد أو رباعي الأبعاد ما كان يسمح بأن تنشأ الحياة فيه »[(١)] .

ومن العبث وضيق العَطَن أن يقول قائل إِنَّ الكون جاء صدفة ، فهذا قول لا يقبله عقل ، و « إحالة الأمور على المصادفات ضربٌ من الدَّجل العِلْمِيّ يرفضه أولو الألباب .. لنفرض أَنَّ الآلة الكاتبة في أحد الدواوين وُجدت بجوارها ورقة مكتوب عليها اسم : عمر ، ماذا يعني هذا ؟!! أحد أمرين : أقربهما إلى البداهة وهو أنَّ خبيرًا بالكتابة طبع الاسم على الورقة . والأمر الثاني : أن حروف الاسم تجمعت وترتبت وتلاقت هكذا جزافًا . إن الفرض الأخير من الناحية العِلْمِيَّة ما يأتي : الابتداء بكتابة العين ، أو سقوط حرفها وحده على الورقة دون وعي يجوز بنسبة ١ إلى ٢٨ ـ وهو عدد حروف الهجاء ـ وسقوط حرفي العين والميم يجوز بنسبة ١ إلى ٢٨×٢٨ ، ونزول الحروف الثلاثة بعوامل الصدفة يجوز بنسبة ١ إلى ٢٨×٢٨×٢٨ أي بنسبة ١ إلى ٢١٩٥٢ ، وليس أغبى فكرًا ممن يترك الفرض الوحيد المعقول ويؤثر عليه فرضًا آخر لا يتصور وقوعه إلا مرة بين اثنتين وعشرين ألف مرة »[(٢)] .

---

(١) د.عمرو الشريف: رحلة عقل ، مكتبة الشروق الدولية ، ط٤ ، (٢٠١١م)، ص ١٤١
(٢) مُحَمَّد الغزالي: عقيدة المسلم ، ص ٢٥

(٥) قَانُونُ العناية الإلهية :

قانون العناية الإلهية هذا يتألف من حقيقتين :

- خلو الكون كله من أَيَّة ظاهرة للعبث ، والباطل فيه .
- أَنَّ الكون كله ، وبجميع أجزائه مسخَّر لخدمة نوع واحدٍ من بين سائر أنواعه ، فمن أعظم كائن فيه ، إلى أصغر كائن وأحقره ، الكل يخدم ذلك النوع .

وهي حقيقة مدهشة للغاية ، أن يكون هذا الكون الفخم الهائل بكل ما فيه من أجرامه السماوية ، ومخلوقاته الأرضية ، الجميع مسخر تسخيرًا خاصًّا لخدمة نوع واحد من بين سائر المخلوقات التي حواها الكون ، وانتظمها هذا الوجود المادي القائم على أساس الحق والعدل ، والخالي من جنس اللعب والعبث . وهذا النوع المسخر له الكون كله هو الإِنْسَان وحده .

ويرى المؤمنون بمفهوم « التصميم الذكي » أنَّ ما في « بنية الكون من توافق مذهل مع احتياجات الإِنْسَان ، دليل على الغائية **Teleology** ، التي تعني أَنَّ الإله قد صمَّم الكون على هذه الهيئة ليكون مناسبًا لنشأة الحياة بصفة عامة ، ونشأة الإِنْسَان بصفة خاصة . ويُعرف هذا المفهوم بالمبدأ البشري **Anthropic Principle** . وقد عَبَّر كلٌّ من جون غريبين **John Gribbin** ومارتن ريز **Martin Rees** عن هذا المعنى بشكل دقيق بقولهما : يبدو أَنَّ الكون قد تم تفصيله على مقاس الإِنْسَان **Tailor-made for man**. كما عَبَّر فريمان ديسون **Freeman Dyson** عن المعنى نفسه بقوله : يبدو أَنَّ الكون كان يعلم أننا قادمون . وكلما زادت معارفنا عن نشأة الكون وبنيته تَكَشَّفَ لنا بشكل أكبر مدى مواءمة هذه النشأة والبنية ، وكذلك قوانين الكون الفيزيائية ، لبزوغ الحياة »(١) .

ب- دليل الفِطرة وفكرة الإلهية :

من الأَدِلَّة التي نودُّ أن نقدمها هنا لإثبات وجود الله « دليل الفطرة وفكرة الإلهية » ، فالفطرة التي فُطِرَ الناسُ عليها تهتفُ من أعماق قلوبهم بوجود الله عَزَّ

(١) د. عمرو شريف: رحلة عقل ، ص ١٣٩ ، ١٤٠

وَجَلَّ ، وتُنبئُ بقدرته وجلاله ، وفكرة الإلهية هي صدًى لهذه الفطرة وانعكاس لها .

وأول ما نثبته هنا أن نبين أنَّ مؤرخي الأديان أجمعوا على أَنَّهُ ليست هناك جماعة ، بله أمة كبيرة ، ظهرت وعاشت ثم مضت دون أن تفكر في مبدأ الإِنْسَان ومصيره ، وفي تعليل ظواهر الكون وأحداثه ، ودون أن تتخذ لها في هذه المسائل رأيًا معينًا ، حقًّا أو باطلًا ، يقينًا أو ظنًا ، تصور به القوة التي تخضع لها هذه الظواهر في نشأتها ، والمآل الذي تصير إليه الكائنات بعد تحولها .

ولقد تطابقت كلماتُ الباحثين في « نفسيَّات المتدينين على أَنَّهُ ليس هناك دِيْن أَيًّا كانت منزلته من الضلال والخرافة ، وقف عند ظاهر الحس ، واتخذ المادة المشاهدة معبودة لذاتها ، وأَنَّهُ ليس أحد من عُبَّاد الأصنام والأوثان كان هدف عبادته في الحقيقة هياكلها الملموسة ، ولا رأى في مادتها من العظمة الذاتية ما يستوجب لها منه هذا التبجيل والتكريم . **وكل أمرهم هو أَنَّهُمْ كانوا يزعمون هذه الأشياء مهبطًا لقوة غيبية ، أو رمزًا لسر غامض** ، يستوجب منهم هذا التقديس البليغ ، فهي في نظرهم أشبه شَيْء بالتمائم والتعويذات التي يتفاءل أو يتبرك بها ، أو يستدفع بها شَيْء من الحسد أو السحر ، لا على أنَّ لها خاصية ثابتة كامنة فيها كمون النار في الرماد ، أو أن لها قوة طبيعية كقوة المغناطيس ، بل على أن وراءها أو حولها روحًا عاقلًا »(١) .

لقد كانت فكرة الإلهية فكرة مشاعة ، لم تخل عنها أمة من الأمم في القديم والحديث رغم تفاوتهم في مدارج الرُّقي ودركات الهمجية .

ففي الأمم التي بلغت مكانة متقدمة في الفكر نجد الأمة اليونانية تهتدي إلى هذه الفكرة فكرة الإلهية ؛ فلقد « بدأت الفلسفة اليونانية كفلسفة أَحَدِيَّة **Monism** تقول بأن كل شَيْء في العالم هو شكل أو آخر لشيء واحد ... ومهما كان هذا الشيء فَإِنَّهُ كان مبدعًا أو مقدسًا ، وهذا محل اتفاق الفلاسفة اليونانيين عند بداية الفلسفة اليونانية . ويؤكد الفيلسوف زِنوفيونييز **Xenophanes** (٥٧٠ ـ ٤٧٥ ق م)(٢)

---

(١) د. محمد عبد الله دراز: الدِّيْن بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ، ص ٤٢

(٢) كان **Xenophanes** شاعرًا وفيلسوفًا دينيًّا ، هاجم النظرية الدينية عند الشعراء اليونانيين التي تصور الآلهة في الشكل البشري ، وفي صفات بشرية . وأنكر عليهم إسباغ الشكل الإنساني

أنَّ تلك القوة المبدِعة (في الأصل) هي إله واحدٌ ، وهو الأعظم من بين كل الآلهة والبشر ، لا يشبه البشر لا في الشكل ولا العَقْل . إِنَّهُ يرى الجميع ، ويسمع الجميع ، ويدير أمر الجميع ، ولكن الإِنْسَان يُصر على رؤيته مشابهًا له ؛ لذلك وقع في فكرة مغالطة التجسم **Anthropomorphic Fallacy** (تصوره في شكل بشري أو صفات بشرية) »[١] .

ونجد عند الفراعنة فكرة الإلهية ، ونجد تعدد الآلهة ، بل نجد فكرة الإله الواحد ، ففي « صحائف الفكر المصري القديم الدعوة إلى التوحيد ، متمثلة في أفكار إخناتون **Akhnaton** (ت: ١٣٣٤ أو ١٣٣٦ق . م) الذي أمر بعبادة إله واحدٍ ، وإله واحد فقط ، خالق كل شَيْء ، يمد بأسباب الحياة كل المخلوقات سماه **Aton** »[٢] .

وقد كانت براعة البابليين « في علم التنجيم **Astrology** وما خَلَّفوه من معلومات قيمة في هذا مصدره **إيمانهم بوجود آلهة** ، ورغبة منهم في معرفة مراد هذه الآلهة ، من خلال قراءة مواقع النجوم ، والأجرام السماوية ؛ لذلك احتفظ الكهنة ، والعرَّافون البابليون بسجلات دقيقة ومفصلة ، لحركة الأجرام السماوية ، وهذا مهَّدَ الطريق إلى الدراسة العِلْمِيَّة لعلم الفلك في أيامنا هذه »[٣] . ونجد في الحضارة البابلية أَنَّهُ ـ مع الارتقاء السياسي القوي لهذه الحضارة ـ ارتقى معها إلهها مردوك **Marduk** الذي تلقى من البابليين أقصى آيات التعظيم[٤] .

والحياة الاجتماعية والضعف الأخلاقي الذي أعطوه للآلهة . وادعى أنَّ كل أمة تخلق آلهة من تصورها الخاص . **ونادى أَنَّهُ من الأجدر والأحق أن يكون الإله واحدًا ، غير قابل للتغيير ، لا يتسم بصفات البشر ، يحكم كل شَيْء بفكره** . يُنْظَرُ :

Lexicon Universal Encyclopedia, Lexicon Publications, Inc. New York, N.Y., 1984, vol. 20, p. 312

(١) **John B. Noss, Man's Religions,The McMillan Company, New York, 7Th Printing, p. 77**

(٢) **Ibid, p. 50**

(٣) **Ibid, p. 61**

(٤) **Ibid, p. 54**

وكان الغاليون ـ الفرنسيون ـ « يؤمنون بآلهة كثيرة ، نسي الناس كل أمرها ... وكان اعتقادهم بحياة سعيدة في الدار الآخرة قويًّا ، إلى حد حمل قيصر على الحكم بأنَّ هذا الإيمان ، كان له أكبر الأثر في شجاعة الغاليين ، ويقول فاليريوس مكسمس: إن قوّة هذه العقيدة كانت تدفع رجالهم إلى أن يُقرِضوا المال على أن يُرَدَّ إليهم في الديار الآخرة، ويقول ليسدونيوس: إِنَّهُ رأى الغاليين في إحدى الجنازات يكتبون الرسائل إلى أصدقائهم المتوفين ، ويلقون بها على كومة الحريق حتى يحملها الميت إلى المرسَلة إليهم »(١) .

وآمنَ السومريون « بعدد كبير من الآلهة ، لكل جانب من جوانب الطبيعة ، وفي نهاية المطاف أصبحت ستة فقط من تلك الآلهة محل الاهتمام ، أهم هذه الستة ورئيسها الأصلي والمحتفظ بصفائه ونقائه الإله آنو Anu إله السَّماء »(٢) .

وعلى مستوى الأمم البدائية فقد اتفق الموثوق بهم من مؤرخي الأديان « على أنَّ أشد الشعوب همجية ووثنية لم تنفك عن الاعتقاد بإله خالق هو رب الأرباب »(٣) . فهذه القبائل البدائية ـ التي لم تصلها الحضارة ـ كان لديها تصورٌ عن هذا الإله « أَنَّهُ إله سام غير مخلوق موجود منذ البدء »(٤) .

وانتصر جمهور من علماء الأجناس وعلماء الإِنْسَان وعلماء النفس لنظرية « **فطرية التوحيد وأصالته** » ، ومن أشهر هؤلاء العلماء « لانج **Lang** الذي أثبت وجود عقيدة الإله الأعلى عند القبائل الهمجية في أوستراليا ، وإفريقيا وأمريكا. ومنهم شريدر **Sehroeder** الذي أثبتها عند الأجناس الآرية القديمة ، وبروكلمان **Brockelman** الذي وجدها عند الساميين قبل الإِسْلام ، ولرواه **La Roy** وكاترفاج **Quatrefages**

(١) ول ديورنت : قِصَّة الحَضَارَةِ ، م٦، ١١/ ٤٦

(٢) **John B. Noss, Man's Religions, p. 53**

(٣) د. عبد دراز: الدِّيْن بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ، ص ١١٣

(٤) **John B. Noss, Man's Religions, p. 20**

عند أقزام أواسط إفريقيا ، وشميدت **Schmidt** عند الأقزام ، وعند سكان أوستراليا الجنوبية الشرقية . وقد انتهى بحث شميدت هذا إلى فكرة الإله الأعظم **توجد عند جميع الشعوب الذي يعدون من أقدم الأجناس الإنسانية** »[(١)] .

يقول الباحث جون . ب . نوس **John B. Noss** : « من الشائع أن نجد بين التجمعات البدائية **اعترافًا بوجود إله ، يوجد بعيدًا في السَّماء ،** وهو ينظر بلا ملل إلى ما يحدث بين البشر . وعلى الرغم أَنَّهُ أحيانًا لا يستحسن ما يراه إلا إِنَّهُ غالبًا لا يتدخل » . ويحاول هذا الباحث تفسير وجود هذا الاعتقاد عند هذه التجمعات البدائية قائلا : « ... ومن المحتمل أن فكرة المُنشئ الأعظم **A Great Originator** الذي يملك القليل ليفعله في مجرى الحياة الاعتيادية للبشر نبعت بصورة طبيعية عند محاولة تقديم إجابة على سؤال مثل : من الذي خلق كل شَيْء ؟ أو: من هو الأب الأول ؟ ولأنَّ من القوى التي تقع في محيطه ، والتي تعامل معها يوميًّا ليس في مقدورها أن توضح : كيف حدثت كل الأشياء ؟ أو: من منشؤها ؟ فقد عثر مصادفة على تفسير تأليهي ، أو بالأحرى تفسير توحيدي **monotheistic explanation** يقدم له الإجابة عن هذه الأَسْئِلَة »[(٢)] .

وكأمثلة على إيمان القبائل البدائية بفكرة الإلهية ، بل بفكرة إله واحد نجد قبيلة تدعى قبيلة الـ **Bavenda** ـ في جنوب إفريقيا ـ تؤمن بـ « إله واحد ، مرتبطٌ بخلق الكون ، ويُعتقد أَنَّهُ يعيش في مكان ما في السَّماء ، يدعونه **Raluvhimba** ، هذا الإله بالنسبة إليهم غامض وبعيد ، مثلما تعتقد شعوب **Bantu** التي تنتمي إليها قبيلة البافِندا . وتعطى قبيلة الـ **Bavenda** كثيرًا من الاحترام ، والتقدير لهذا الإله دونًا عن غيرها ، خاصة رؤوساءهم . أَنَّهُمْ يدعونه بصانع الأمطار **rain-maker** ، ويبحثون عن أفضاله خاصة في أوقات الجفاف »[(٣)] .

---

(١) د. محمد عبد الله دراز : الدِّيْن ، دار القلم ، ص ١٠٧

(٢) **John B. Noss, Man's Religions, p. 20, 21**

(٣) **Ibid, p. 35**

ونجد عددًا من القبائل البدائية في أستراليا وصلت إلى فكرة الإله الأعلى أو الإله الأحد

إذن ، فالبشرية ـ كما يقول الشيخ مُحَمَّد الغزالي ـ في أغلب العصور بحثت عن ربها وفكرت فيه ، وربما أخطأت الطريق إليه ؛ فقد تعبد اسمًا لا حقيقة له ، وقد تعبد حجرًا موهوم الصدق والنفع ، وقد تعبد عِجلًا ، أو تقدس بقرة ، أو تؤله نهرًا ، وقد يجئ من يرفض هذه الآلهة المزعومة كلها ، وينكر أن يكون للوجود سيد[1] .

إيمان العقول الجبارة بالله :

من البراهين التي أرى أَنَّها تدل على وجود الله عَزَّ وَجَلَّ وترشدنا إليه ـ وترتبط في نفس الوقت بالفطرة الإنسانية بوجه من الوجوه ـ إيمان العقول الجَبَّارة به على مَرِّ التَّاريخ ، فالباحث في تاريخ الفكر والثقافة والفلسفة يجد عقولًا جبارةً ، لها وزنها العِلْمِيّ والفكري آمنت بالله عَزَّ وَجَلَّ ، وهَدَتهم فِطَرُهم السليمة إليه ، وقدمت الأَدِلَّة على وجوده سبحانه .

ونقدم فيما يلي طائفة من هؤلاء العلماء والمفكرين ، ولكن قبل ذكر هذه الطائفة نُثبتُ ما قاله الشيخ مُحَمَّد الغزالي رَحِمَهُ اللهُ في أحد مؤلفاته حيث يقول : « **وقد تابعتُ استطلاعَ الآراء بين جماعات عِلمِيَّة في أوربا وأميركا ؛ فرأيت الكثرة تؤمن بالله ، ووجدت قلة متوقفة حائرة ، ووجدت ندرة تافهة زائغة القلب لا عقيدة لها ... فالزَّعم بأنَّ جمهور العلماء لا دِيْن له كذب ، أو شائعة لغرض خسيس**»[2] .

فجُلُّ العلماء والمفكرين الأثبات والثقات ذوي الفِطَر السليمة يؤمنون بالله ، ويعتقدون وجوده كقوة خالقة مبدعة لهذا الكون ، وإنِ اختلفوا فيما بينهم في دور هذا الإله في هذا الكون ، أو تباينوا في طبيعته وصفاته ، فهم جميعًا يجمعُهم قاسمٌ مشتركٌ هو الإيمان بوجوده .

---

(١) وقبل أن ننتقل إلى النقطة التالية أشير إلى أن العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز يطرح أنواعًا أخرى من الأدلة على وجود الله ، أو ـ على حد تعبيره ـ أَدِلَّة توصل إلى العقيدة الإلهية ، منها ما يمكن أن نسمِّيه بـ « الدليل النفسي والدليل الاجتماعي » فمن أراد الاستزادة يمكنه الرجوع إليها. ينظر : الدِّيْن ، ص ١٣٥ ، و ١٤٠

(٢) مائة سؤال عن الإِسْلام ، ١/ ١٤٥

١ـ أفلوطرخس Plutarch (١٢٠ ـ ٤٦ ق .م)[(١)] :

كتب رِسالَة عن العبادات الرُّومَانِيَّة والمصرية ، ومما قاله في هذه الرِّسالَة « إنَّ الأرباب كلها مظاهر لكائن واحد أعلى ، لا يحدّه زمان ، يجلّ عن كل وصف ، بعيد عن الشؤون الدنيوية والزمنية، بُعدًا يترك للأرواح الوسطى **Daimones** أن تخلق العالم وتنظِّم شؤونه. وكان يقول أَيْضًا بوجود أرواح خبيثة ، يسيطر عليها ويرأسها شيطانٌ ، هو مصدر الفوضى جميعها وروحها، وأصل كل الخبائث ، وجميع ما لا ينطبق على العَقْل في الطبيعة وفي بني الإنسان.

ويرى أفلوطرخس أنَّ مِنَ الخير أن يؤمن الإِنْسَان بخلود الأشخاص بجنة ينعم فيها الأخيار ، ومطْهَر ، وجحيم يعذّب فيه الأشرار. وكان من أسباب سلواه أَنَّ الإقامة في المطهر قد تطهّر أيَّ إنسان مهما خبُث حتى نيرون نفسه، وأَنَّهُ قلما يوجد في الناس من يعذبون عذابًا سرمديًا »[(٢)] .

٢ـ أرسطو Aristotale (ت : ٣٢٢ ق .م) :

من الذين آمنوا بالله الفيلسوف اليوناني الشهير أرسطو الذي لقب بالمعلم الأول ، بغض النظر عن تصوره واعتقاده فيه ؛ حيث صور الله مُنَزَّهًا عن كل شَيْء ، وقد بالغ أرسطو في هذا التنزيه حتى نزَّهه عن الصفات التي يعلم بها ، ويقدر بها ، فهو عالم بذاته ، وبالغ في التجريد حتى كان الله معنى لا ذات ، وَأَنَّ الله أوجد هذا الكون ثم لم يعد يهتم به ؛ لأنَّ الله أرقى من أن يفكر فيما هو دونه .

٣ـ أَفْلاطون Plato (ت : ٣٤٨ ق .م) :

كان أفلاطون لا يُنكر وجود آلهة يوجد فوقها جميعًا ، وخلف كل الكائنات والأشياء

---

(١) أفلوطرخس ـ أو بلوترك ـ أكثر كتاب اليونان أهمية في فترة العصر الروماني المبكر ، زار مصر وإيطاليا وأثينا ، وحاضر فيها ، من أهم مؤلفاته : حيوات متوازية **Parallel Lives** ، عن القادة السياسيين والعسكريين اليونانيين والرومانيين ، ويعتبر أعظم كاتب للسير والتراجم في العالم القديم . يُنْظَرُ : المَوْسُوعَة العَرَبِيَّة الميسرة ، ص ٤٠٢

(٢) ول ديورنت : قِصَّة الحَضَارَة ، م ٦ ، ١١/ ٧١ ـ ٧٢

الأخرى خالقٌ **Creater** أو صانعٌ ماهر **Artisan** ، الذي عَرَّف عن نفسه بأَنَّه الأعلى . وكان من مذهبه ومذهب معلمه أرسطو أَنَّ السبب الأول الأزلي بإطلاق المبدأ لكل حركة وتغيير ـ ليس هو المادة ، بل روحٌ عاقلٌ مُدَبِّر متصرف في المواد.

ومن العجيب أن نجد أن هذا الفيلسوف اليوناني كان **ضد الإلحاد** ، وكان يرى أَنَّ الإلحاد أمرٌ خطير على المجتمع ، هذا ما ينقله عنه البروفسور **John B. Noss** إذ يقول : « وكان أفلاطون ـ في العصور القديمة ـ يؤكد ويقول : إنَّ الإلحاد ـ أو أي تأكيد ، أو جزم أَنَّ الإله غير مختلف عن الإِنْسَان أو أَنَّهُ من الممكن أن يُرشى بالهدايا أو بالعروض ـ **يجب أن يُعامَلَ كخطر على المجتمع** »(١) .

٤ـ عَمانويل كَانت Emmanuel Kant (١٧٢٧م ـ ١٨٠٤م) :

كان هذا الفيلسوف يقول بوجود الله ، ويجعل قانون الأخلاق هو المقدمة الأولى في الاستدلال على وجوده ، وذهب الفيلسوف الألماني عمانويل كانت في نقده للعقل العملي « إلى أنَّ وجود الذات الإلهية ليس موضوع علم ومعرفة ، بحيث يثبت بالبرهان أو بالتجربة ؛ **بل هو موضوع إيمان عقلي** ، بمعنى أَنَّهُ مقدمة مسلمة ، لا مناص للعقل من أن يعتمدها لتصحيح الفكرة الأخلاقية الراسخة في النفوس »(٢) .

٥ـ رينيه ديكارت Rene Descartes (١٥٩٦م ـ ١٦٥٠م) :

من كبار الفلاسفة الذين قالوا بوجود الله الفيلسوف الفرنسي الشهير ديكارت ، صاحب أحد أهم المؤلفات الفكرية على مر العصور « مقال في المنهج **Discourse on Method** » .

وكانت طريقة هذا الفيلسوف في إثبات وجود الله مثيرة للدهشة ؛ لقد أهمل ديكارت في الواقع البراهين المعروفة على وجود الله إهمالا تامًّا ؛ أي البراهين التي

---

(١) **Man's Religions, p. 78** والعبارة التي ذكرها هذا الباحث هي :

« **Plato in old age contended that atheism, or any assertion that God is indifferent to man, or that He can bought off by gifts or offerings, should be treated as dangerous to society.** »

(٢) د. محمد عبد الله دراز: الدِّيْن بحوث ممهدة لتاريخ الأديان ، ص ١٤٦

تستند إلى حدوث العالم والعلل الغائية ، واعتقد أنَّ لديه ثلاثة براهين قاطعة ، يرى أَنَّها يقوي بعضها بعضًا ، وكل هذه البراهين الثلاثة مستمدة من ملاحظات تتعلق بفكرة رئيسية ، نجدها في أنفسنا ، وتلك هي « فكرة الكمال المطلق »(١) ، تعتمد على تجربة نفسية ، « فالذي يُغمض عينيه ، ويَسدُّ أذنيه ، ويقطع علاقته بالكون وبالناس ، ثم ينطوي على نفسه ، ويتحسَّس أفكاره وتصوراته يجد مفتاح هذه العقيدة حاضرًا فيها بين طيات نفسه ، كلما شعر بالفرق بين الشك واليقين ، أو بين الجهل والعلم ، وبالجملة كلما قرأ في لوحة نقصه عنوان الكمال الذي ليس له .

ليست فكرة الكمال هذه في نظر ديكارت فكرة مستنبطة من فكرة أخرى ، وإنما هي حقيقة أولية فطرية ، بل هي أسبق في العَقْل من فكرة النقص ، فإن من لا يعرف الشيء لا يتفقده ، ولا يحس بحرمانه حين يفقده ؛ **إذ كيف أعرف أنني ناقص لو لم تكن عندي فكرة كائن أكمل مني أجعله مقياسًا أعرف به مواضع نقصي؟** فالرغبة في الكمال وحدها دليل على أسبقية وجود هدفها في التصور العقلي ، ثم ليست هذه الفكرة معنى سلبيًّا بل هي جماع الحقائق الإيجابية ، ونظام ضروب الكمالات كلها »(٢) .

ويزيدُ أندريه كرسون بعض أَدِلَّة ديكارت على وجود الله إيضاحًا جليًّا ، فيقول : « إنني موجود ؛ ولدي فكرة الكمال وأنا ناقص ، تلك هي نقطة البدء في البرهان الثاني ، فلو أنني خَلَقْتُ نفسي لخلِقتُ كاملًا ؛ لأنَّ لدي فكرة الكمال ، ولأنَّ خلق الإنْسَان لنفسه في صورة كاملة أقل قطعًا في صعوبته من خلقها من العدم ، فإذا كنت ناقصًا ؛ فذلك إذن لأنني لم أخلق نفسي بنفسي ، وإذ يصل ديكارت ببرهانه إلى هذه النقطة يعود إلى برهانه الأول ، **ولكن لما كانت لدى فكرة الكمال ، فلا بد أن كائنًا قادرًا على منحها لي قد خلقني ، ولا بد إذن أن كائنًا كاملا قد خلقني ، وهذا الكائن**

---

(١) أندريه كرسون : ديكارت ، تَرْجَمَة : حسن شحاتة سعفان ، مكتبة الأنجلو المصرية ـ سلسلة الألف كتاب (٣٦٩) ، القاهرة ، ط ، (١٩٦١م) ، ص ٢٦

(٢) د. محمد عبد الله دراز: الدِّين بحوث ممهدة لتاريخ الأديان ، ص ١٤٣ ، ١٤٤

إله ، والبرهان الثاني ليس مستقلا عن البرهان الأول ، فهو يكمله ويؤكده »[(١)] .

٦ـ إسحاق نيوتن Isaac Newton (١٦٤٢م ـ ١٧٢٧م) :

كان السير إسحاق نيوتن من القائلين بوجود الله ، ومن المعلومات المثيرة للاهتمام التي ذُكِرت عن إسحاق نيوتن أَنَّهُ كان أريوسيًّا[(٢)] ، ينقل هذه المعلومة المهمة عنه الباحث والمؤرخ « جون غريبين » أثناء سرده لبعض التفاصيل التاريخية عنه ، فيذكر أنَّ إسحاق نيوتن في عام ١٦٦٧م انتخب « زميلًا مبتدئًا بجامعة ترينتي ، وهي درجة تحولت تلقائيًّا ليصبح زميلا رئيسيًّا ، بعد حصوله على الماجستير العام ١٦٦٨م ، أتاح له هذا فرصة تمتد سبع سنوات ليعمل بحرية كل ما يحلو له ، ولكن تضمن التزامًا بالعقيدة الدينية الصحيحة ـ تحديدًا ـ أن كل من حصل على الزمالة من المستجدين ملزم بأن يقسم يمينًا نصه : **إنَّني إما أن أتخذ فقه الإلهيات موضوعًا لدراستي ، وأجري طقوس تنصيبي كنسيًّا عندما يحين الوقت المحدد في المرسوم ، أو أن أستقيل من الكلية** . وكانت العقبة غير المتوقعة أن نيوتن يؤمن بمذهب أريوس ، ولم يكن مستعدًا ليلقى مصير برونو حيث وضع على الخازوق بسبب معتقداته . وكذلك لم يكن مستعدًا للمساومة على معتقداته بأن يقسم اليمين بأنه يؤمن بالثالوث المقدس ، وهو قسم لا مناص منه عند رسمه قسيسًا ، وجدير بالذكر أن إيمان المرء بالمذهب الآرياني لم يكن في إنجلترا في القرن السابع عشر جريمة تستحق حرق صاحبها ، ولكن تعني استبعاد نيوتن عن أي وظيفة عامة ، خصوصًا إذا كانت

---

(١) أندريه كرسون : ديكارت ، ص ٢٧

(٢) آريوس **Arius** (ت : ٣٣٦م) ، قس من مدينة الإسكندرية ، هاجم عام ٣١٨م تعاليم الكَنِيسَة المسيحية المتعلقة بالطبيعة الواحدة للأب والابن ، قائلًا بأنَّ المسيح الابن أقل درجة من الآب الله ، فيما يتعلق بالقدرات الإلهية والجوهر والمجد ؛ إذ أَنَّ الله الآب هو الدائم ، بينما المسيح مخلوق من الله ، وقد أدين أريوس من الكَنِيسَة ، وطرد من الإسكندرية ، لكن تعاليمه الأريوسية وجدت أتباعًا كثيرين ، كما انتشرت على نطاق واسع خارج حدود مصر وخاصة في أوربا الغربية. يُنْظَر : المُعْجَم العِلْمِيّ للمعتقدات الدينية ، تعريب وتحرير : سعد الفيشاوي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط١ ، (٢٠٠٧م) ، ص ٣٨

الوظيفة في كلية تحمل اسم الثالوث المقدس ترينتي » [(١)] .

هذا العالم الفذ ـ الذي كانت له يدٌ بيضاءُ على البشرية جمعاء ، والذي وضعه مايكل هارت في كتابه : العظماء مائة أعظمهم مُحَمَّد ﷺ الشخصية الثانية ـ كان يؤمن بالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ، ويؤمن بالمنهج الأريوسي الذي يخالف التصور الذي عليه الكاثوليك والبروتستانت والأرثوذكس .

وهناك الكثير والكثير من العلماء والفلاسفة الذين آمنوا بوجود الإله ، منهم جيمس ماكسويل ، ومنهم أيضًا أينشتين الذي يؤمن بأن مَن « يَفهَم » يعرف « الإله » ؛ وذلك لأن ما في الطبيعة من قوانين يشير إلى عقل جبار يقف وراءها [(٢)] .

وفي القارة الأوربية نجد تيارًا من الفلاسفة آمن بالله ، من أمثال : هوبز **Hobbes** (١٥٨٨م ـ ١٦٧٩م) ، ولوك **Loke** (١٦٣٢م ـ ١٧١٦م) ، وليبيتز **Leibniz** (١٦٤٦م ـ ١٧١٦م) ، ورسو **Rousseau** (١٧١٢م ـ ١٧٧٨م) ، وليسنج **Lessinc** (١٧٢٩ ـ ١٨٧١م) [(٣)] .

وما يهمنا في هذا المقام إثبات أن تلك العقول الكبيرة كانت تؤمن بوجود الله، ولا يهمنا كيفية تصورهم لله ـ سبحانه ـ في حد ذاته.

- **وحدانية الله** :

أعتقد أننا بفضل الله قد وفينا الكلام في قضية إثبات وجود الله ، وأننا قدمنا من الأَدِلَّة ما لا قبل لأحدٍ بدفعها ولا ردها ، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ موجود ، وهو خالق هذا الكون وهذا الوجود بكل ما فيه.

وبعد عرض هذه الأَدِلَّة قد يقول قائلٌ إنَّك في الأسطر السالفة أَثْبَتَّ وجودَ إله وخالق لهذا الكون ، ولكنك لم تُثبت عقلًا أَنَّهُ إلهٌ واحدٌ وليس عدة آلهة ؟

(١) تاريخ العِلْم ، ١/ ٢٣٤

(٢) د. عمرو شريف : رحلة عقل ، ص ٩٦

(٣) د. محمد عمارة : العلمانية بين الغرب والإسلام ، ص٧

والرَّدُّ على هذا جِدُّ يسير ، ولنوضح الإجابة بالمثل الآتي .

ماذا يحدث لو أنَّ لدينا جيشًا له قائدان ؟!! لا نتوقع أن يُصدر القائدان نفس الأوامر ونفس التعليمات لمن هم تحت إمرتهما ؛ فهذا مستحيل لا يتصوره عقل ، بل المؤكد والمتيقن منه أنَّ كلا منهما سيصدر أوامر تخالف الآخر ، مما يترتب عليه ضياع الجيش وهلاكه . والأمر كذلك في حالة أي أمر يتطلب قيادة .

ونفس هذا المنطق ينسحب على الكون والوجود ؛ فلو كان لهذا الكون إلهان لفسد وانتهى . قال تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ الأنبياء: ٢٢ ، وفي تفسير هذه الآية :

⇦ يقول الإمام الطبري : « لو كان في السماوات والأرض آلهة تصلح لهم العبادة سوى الله الذي هو خالق الأشياء ، وله العبادة والألوهة التي لا تصلح إلا له لفسدتا ... ؛ [أي] : لفسد أهل السماوات والأرض »[(١)] .

⇦ ويقول الإمام الزمخشري : « فيه دلالة على أمرين : أحدهما وجوب ألا يكون مُدَبِّرهما إلا واحدًا ، والثاني : ألا يكون ذلك الواحد إلا إياه وحده ، لقوله إلا الله . فإن قلتَ : لم وجبَ الأمران ؟ قُلْتُ : لعلمنا أَنَّ الرعيَّةَ تَفْسُدُ بتدبير المَلِكين ؛ لما يحدث بينهما من التغالب والتناكر والاختلاف »[(٢)] .

وقال تعالى : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ المؤمنون: ٩١ : وفي تفسير هذه الآية يشير الطبري : « يقول تعالى ذكره: ما لله من ولد ، ولا كان معه في القديم ، ولا حين ابتدع الأشياء من تصلح عبادته ، ولو كان معه في القديم أو عند خلقه الأشياء من تصلح عبادته . « مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ » يقول: إذن لاعتزل كل إله منهم «بِمَا خَلَقَ » من شَيْء ، فانفرد به ، ولتغالبوا ، فلعلا بعضهم على بعض ، **وغلب القويّ منهم الضعيف ؛ لأنَّ**

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، ٧/ ٥٦٨

(٢) الكَشَّاف ، ٣/ ١٨٣

القويّ لا يرضى أن يعلوه ضعيفٌ ، والضعيف لا يصلح أن يكون إلها ، فسبحان الله ما أبلغها من حجة وأوجزها، لمن عقل وتدبر » [(١)] .

ويذكر الزمخشري : « ... لانفرد كل واحد من الآلهة بخلقه الذي خلقه واستبدَّ به ولرأيتم مُلكَ كل واحدٍ منهم متميزًا من مُلك الآخرين ؛ ولغلب بعضهم بعضًا ، كما ترون حال ملوك الدُّنْيا : ممالكهم متمايزة ، وهم متغالبون ، وحين لم تروا أثرًا لتمايز الممالك وللتغالب فاعلموا أَنَّهُ إله واحدٌ بيده ملكوت كل شَيْء » [(٢)] .

وفي الأمم والديانات التي تؤمن بتعدد الآلهة يتصور معتنقوها تصورًا بشريًّا أسطوريًّا ما يحدث بينها من صراعات ، ومشاحنات وحروب ، بل يتصورون كونها ذكورًا وإناثًا ، ويتصورن ما يحدث بينها من تزواج جنسي يحدث عنه الولد ـ عياذًا بالله ـ ، ومن أراد فليرجع تصور اليونانيين للآلهة ، وما بينها من صراع ، وما في تصور الفراعنة والزرادشتية وغيرها.

*****

في نهاية هذا الفَصْل لا أريدُ أن أُريمَ قبل أن أعبر عن أمر تنكره النفس أشد الإنكار ، ويأخذ العَجبُ منها منتهاه .

بعد الذي قدمناه من الأَدِلَّة على وجود الله سبحانه يعجب المرء أشد العجب من ممن ينكرون وجود الله عَزَّ وَجَلَّ ، ولا يؤمنون بخالق لهذا الكون وهذا الوجود ، إذ يتسائل المرءُ: كيف بلغ الانحطاط العقلي بهؤلاء للدرجة التي ينكرون فيها وجود الله عز وجل؟!!

فأين عقول هؤلاء عما في الكون من آيات متعددة تدل على وجوده سبحانه؟! أين هؤلاء المأفونون مِن العلماء الأفذاذ الذين آمنوا بوجود الله سبحانه؟! ، أين هؤلاء من أهم العقول البشرية على مدار التَّاريخ ؟! ، أين هم من أرسطو ، وديكارت

(١) جامع البيان ، ٧/ ٥٩٥٣

(٢) الكَشَّاف ، ٣/ ٢٦٠ ، ٢٦١

ونيوتن وغيرهم وغيرهم؟! .

إنَّ هؤلاء الملحدون لا شَيْء ، ولا قيمة لهم أمام هؤلاء ، ولو أخرج هؤلاء الملحدون ما لديهم من علم أو فكر ما بلغ أحدهم عشر معشار قيمة من ذكرنا أسماءهم من أفذاذ التَّاريخ .

ولست أدري حقًّا ما مشكلة هؤلاء الملحدين من قضية الإيمان بالله ، ما الذي يَضِيرهم في هذا الإيمان !! ولو فرضنا فرضًا مستحيلًا وقلنا : « ليس لهذا الكون إله!» ـ والعياذ بالله ـ فما الذي سيخسره المؤمن ، وما الذي سيخسره الملحد؟!!

ما سيخسره المؤمن أَنَّهُ تعب في الدُّنْيا قليلًا ، وقام بأعمال الخير لنفسه وللناس ، ثم ستكون النتيجة بعد الموت لا شَيْء . وسيكون ما كسبه الملحد أَنَّهُ تَمَتَّعَ في الدُّنْيا بملذاتها .

ولكن ما العمل لو كانت هناك بعد الموت جنة ونار ؟!!

في هذه الحالة سيفوز المؤمن فوزًا عظيمة ، وسيخسر الملحد خسرانًا مبينًا ؛ لأنَّه لا محالة في النار .

من وجهة نظري : إن الملحد إنسان غَبِيٌّ مأفون ، فما الضرر الذي سيقع عليه لو آمن ؟!

ويا ليت الأمر وقف عند بعضهم عند حد إنكار وجود الله واكتفوا بذلك ، بل تطاول بعضهم بالسخرية والاستهزاء .

من هؤلاء شخص يُدعَى سيِّد القمني ـ قاتله الله ـ إذ سمعت له مقطع فيديو يسخر من وجود الله عَزَّ وَجَلَّ قائلًا : « ألم يكن في مقدور الله أن يكتب في صفحة السَّماء بعدد من النجوم : أنا يا أولاد ..... ربكم فاعبدوني » .

وبلغ من تأثير هذا الهالك أن تأثَّر به بعض الشباب ، وارتدوا عن الدِّيْن ، ونذكر منهم فتاة تُدعى « سارة حجازي » التي ارتدت ثم سافرت ثم فَكَّرت وقدَّرت ثم نظرت ، ثم اكتأبت ثم انتحرت . ومنهم مهدي لمغاري ، ونعيمة البزاز، وغيرهم وغيرهم .

ومِن هؤلاء « ما » تسمى بـ « نوال السعداوي » التي كتبت المؤلفات التي سخرت فيها من الذات الإلهية ، وأتت من الأقوال ما لا نستطيع أن نذكره هنا.

إن قضية الإيمان أمر جلل ، وجد خطير ، يستحق من الإِنْسَان البحث والتنقيب فالمصير إما جنة أبدًا ، وإما نارٌ أبدًا . وغياب الدِّيْن لا يعود ضرره على الفرد فقط ، بل يعود بالضرر على الفرد والمجتمع ، كما سبق وأن بينت.

الفصل الثالث

القرآن كلام الله

- **الحالة الاجتماعية والسياسية والعلمية التي كان عليها العرب قبل الإسلام :**
- **أُمِّيَّةُ** النَّبِيّ ﷺ .
- **إعجازات القُرْآن الكريم :**

(١) الإعجاز العِلْمِيّ .

(٢) الإعجاز التارِيخِيّ .

(٣) الإعجاز البَلاغِيّ .

(٤) الإعجاز النزولي .

(٥) الإعجاز النَفسي .

(٦) الإعجاز الاجتماعي .

(٧) الإعجاز التشريعي .

(٨) الإعجاز التفسيري .

الفَصْلُ الثَّالِثُ
القرآنُ كلامُ الله

كان لا بد من حديثٍ عن أَدِلَّة وجود الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ، فإثبات وجود الله نقطة ارتكاز نرتكز عليها لبقية فصول الكتاب ، فالله الذي نؤمن بوجوده أمرنا أن نكون من « **المسلمين** » ، وأن نَبْتَغِي « **الإِسْلام دِيْنًا** » .

والسؤال الآن : أين أمرنا الله بهذا ؟

نقول : أمرنا بذلك في رِسالَة أنزلها على رسوله مُحَمَّد ﷺ ، وهذه الرِّسالَة بين أيدينا .

وهذه الإجابة تقود إلى السؤال الآتي : ما الأَدِلَّة على أن هذه الرِّسالَة (القرآن) من عند الله ؟ ولماذا لا تكون من صنع مُحَمَّد ﷺ أو أي شخص آخر غيره ؟

للإجابة عن هذا السؤال سنخصص هذا الفَصْل للحديث عن : إثبات أَنَّ القُرْآن كلام الله ، وليس كلام البشر .

وقبل الُمضِي قُدُمًا في تقديم الأَدِلَّة التي تُثبِتُ أَنَّ القُرْآن كلام الله نمهِّد بين يدي هذه الأَدِلَّة بحديث عن الحالة العِلْمِيَّة والاجتماعِية التي كان عليها العرب قبل الإِسْلام ، والجانب العِلْمِيّ الذي كان عليه النبي ﷺ .

الحالة الاجتماعية والسياسية والعِلْمِيَّة التي كان عليها العرب قبل الإِسْلام :

لماذا نُمَهِّدُ بالحديث عن الحالة الاجتماعِيَّة والسياسية والعلمِيَّة التي كان عليها العرب قبل الإِسْلام ، ولماذا نتكلم عن الجانب العِلْمِيّ للرسول قبل تقديم الأَدِلَّة

التي تثبت أَنَّ القُرْآن كلام الله؟

أقول : إِنَّ جانِبًا من جوانب الأَدِلَّة التي تَدُلُّ على أَنَّ القُرْآن كلام الله ـ **الإِعْجاز العِلْمِيّ والتاريخي والسياسي والاجتماعي فيه** ، وحتى لا يعترض معترضٌ ، مأفونُ العَقْل ضيِّق العَطَن ويقول : إنَّ العربَ ومحمدًا كانوا على عِلمٍ بهذه الجوانب ـ فلا بد من بيان الحالة العِلْمِيَّة والاجتماعية والسياسية عند العرب ...

وبذلك نمحو أية شبهة ، ونغلق باب أي اعتراض على جوانب هذا الإِعْجَاز في القُرْآن ، التي تُثبتُ على وجه اليقين أَنَّ القُرْآن كلام الله .

نبدأ حديثنا في هذه الجزئية بالحديث عن « العرب » ، مَن هم وما حدود أرضهم ؟

يقول شيخ الإِسْلام ابْن تَيْمِيَّة مجيبًا عن هذا السؤال : « اسم العرب في الأصل كان اسمًا لقوم جمعوا ثلاثة أوصاف :

- أحدها : أنَّ لسانهم كان اللغة العَرَبِيَّة .
- الثاني : أَنَّهُمْ كانوا من أولاد العرب .
- الثالث : أن مساكنهم كانت أرض العرب .

وهي جزيرة العرب التي هي من بحر القلزم إلى بحر البصرة ، ومن أقصى حجر باليمن إلى أوائل الشام ، بحيث كانت تدخل اليمن في دارهم ، **ولا تدخل فيها الشام** وفي هذه الأرض كانت العرب حين البعث وقبله »[(١)] .

ومناخ الجزيرة العَرَبِيَّة ـ على العموم ـ حارٌّ شديدُ الحرارة ، فهي بقعةٌ صحراويةٌ ، تصهرها الشمس ، ويقِلُّ فيها الماء ، ويجِفُّ الهواء ؛ وهي أمور لم تسمح للنبات أن يكثر ، ولا للمزروعات أن تنمو ، إلا كَلَأً مبعثرًا هنا وهناك ، وأنواعًا من الأشجار والنباتات مفرقة ؛ استطاعت أنْ تتحمَّل الصيف القائظ والجو الجاف ؛ فهزُلَتْ حيواناتهم ، ونحلت أجسامهم ، وفي هذه الأرض يعتدل الليل في أراضيها المرتفعة صيفًا ، ويتجمد ماؤها شتاءً .

وأثرت هذه الظروف الطبيعية على الحالة الاقتصادية لأهل الجزيرة ؛ فكانت

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ، ص ١٦٦

بلادهم **مُجدِبة قليلة الإنتاج** ؛ فكان لا بد لهم من الاتصال بأهل الشام والعراق واليمن يستعينون بها يكتسبون على جدب أرضهم ، وقسوة إقليمهم.

ويؤكد هذا الواقع المستشرقان « هـ. أ. ر. جب » و« ج. هـ. كالمرز » إذ يذكران: « كان إنتاج الأرض في بلاد العرب **يقصر دائمًا عن أن يعول أهلها** . أما حيث الظروف أفضل كما في اليمن ، وكذلك في الواحات ، فقد كانوا يحصلون على الغذاء بوفرة . وكان المكِّيُّون يعيشون على رحلات القوافل بين اليمن والشام، وذلك بالإضافة إلى الربح الذي كانوا يحققونه من الحجاج الذين يهرعون إلى بلدتهم كل عام . **ولكن أهل البادية كانوا دائمًا في حالة من التضور المزمن جوعًا** . ولهذا السبب اضطروا إلى وأد البنات عندما يولدون . وكانوا يكملون ما توفره لهم إبلهم من لحم ولبن ، بشن الغارات باستمرار على القبائل المجاورة .هذه الغارات لم تكن تزيد مجموع المؤن المتاحة، ولكنها ساعدت على خفض عدد الأفواه التي يتعين إطعامها »[(١)] .

وبسبب هذه الطبيعة القاسية لجزيرة العرب ضُربت عليها العزلة ؛ فـ « صعب على المدنِيَّات المجاورة من فرس وروم أن تستعمر الجزيرة ، وتفيض عليها من ثقافتها »[(٢)] . وبسبب هذه الطبيعة أَيْضًا أصبحت الجزيرة في مأمن من غزوات الغزاة على مر التَّاريخ ، فقد « عجز الفراعنة والأكمينيون والسلوقيون والبطالمة والرومان عن فتح تلك الجزيرة الغامضة العجيبة ؛ **ولذلك ظلَّت صحراءُ العرب لا تعرف إلا العرب البدو** »[(٣)] . ويذكر التَّاريخ أن بعض أباطرة الرُّومَان حاول في عام ٢٥ ق .م ضم مملكة سبأ « إلى الإمبراطورية الرُّومَانِيَّة ، ولكن فيالقه عجزت عن الاستيلاء على مأرب ، وعادت إلى مصر بعد أن قضت الأوبئة وشدة الحرارة على عدد كبير من

---

(١) المَوْسُوعَة الإسلامية الميسرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مكتبة الأسرة ، القاهرة ، (٢٠١٣م) ، ١/ ٢٢٠

(٢) د. أحمد أمين : فجر الإِسْلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مكتبة الأسرة ، القاهرة ، ط ١، (١٩٩٦م) ، ص ٧٣

(٣) ول ديورنت : قِصَّة الحَضَارَةِ ، م٦ ، ١١/ ١١٦

رجالها ، وحينئذ اكتفى أغسطس بتدمير مرفأ أدانا (عدن) العربي ، فأمن بذلك التجارة بين مصر والهند »[(١)] .

وفي ظل هذه الظروف البيئية والجغرافية ، وحصار الجبال والبحار ؛ غلبت على **العرب البداوة** ؛ وتأخروا حضاريًّا عمن حولهم ؛ « وعاش أكثرهم عيشة قبائل رُحَّل ؛ لا يقرون في مكان ، ولا يتصلون بالأرض التي يسكنونها اتصالًا وثيقًا كما يفعل الزراع بل يتربصون مواسم الغيث ؛ فيخرجون بكل ما لهم من نساء وإبل يتطلبون المرعى ، لا يبذلون جُهدًا عقليًّا في تنظيم بيئتهم الطبيعية كما يفعل أهل الحضر ، إنما يعتمدون على ما تفعل الأرض والسماء ؛ فإن أمطروا رعوا ، وإلا ارتقبوا القدر ، **وليس هذا النوع من المعيشة بالذي يرقى قومُهُ ، ويسلمهم إلى الحضارة ، إنما يسلم إلى الحضارة عيشة القرار ، واستخدام العَقْل في تنظيم شئون الحياة** ، هذه العيشة البدوية هي التي كانت سائدة في جزيرة العرب ، وإن كان هناك أصقاع ممدنة كصقع اليمن »[(٢)] .

شكلت الحياة البدوية حياة أغلب سكان شبة الجزيرة العَرَبِيَّة ، ولكن هذا لم يمنع أن هناك قسمًا منهم عاش حياة الحضر ، ولكنهم كانوا قلة بالنسبة لمن عاش حياة البدو .
يقول المستشرق لامنس : « كان البدو في الجاهلية يؤلفون الأكثرية الساحقة من السكان كما لا يزالون حتى عصرنا على التقريب ، فيعادلون ٨٣٪ من المجموع العام »[(٣)] .

ويقول ابن خلدون في فصل له بعنوان : « فصل في أَنَّ العرب أبعد الناس عن الصنائع » ، يشير فيه :« والسّبب في ذلك أَنَّهُمْ أعرق في البدو وأبعد عن العمران الحضريّ، وما يدعو إليه من الصّنائع وغيرها »[(٤)] .

---

(١) السابق ، م٦ ، ١١/ ١١٦

(٢) أحمد أمين : فجر الإِسْلام ، ص ١١

(٣) نقلا عن : عمر رضا كحالة : العرب : من هم ، وما قيل عنهم ؟ مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٣، (١٩٨٣م) ، ص ١٠٣

(٤) مقدمة ابن خلدون ، تحقيق : علي عبد الواحد وافي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مكتبة الأسرة ، القاهرة ، ط١ ، (٢٠٠٦م) ، ٢/ ٨٦٢

هذه الحياة الخشنة في الجزيرة العَرَبِيَّة وقلة خيرها وجدبها ، وغلبة البداوة عليها ، وَلَّدَ عند معظم أهلها بعض الصفات ، منها : أَنَّ البدويَّ لا هم له إلا النهب والسلب وقطع الطريق ، ويعد هذا العمل من مفاخر البادية، والويل للضعيف بينهم .

والبدوي في الصحراء لا يهمه إلا المطر والمرعى ، فأزمته الحقيقية انحباس المطر وقلة المرعى ، ولا يبالي بما يصيب العالم في الخارج ما دامت أرضه مخضرة وبعيره سمينًا .

ولندرة الموارد كثرت الحروب بينهم ، وإغارتهم بعضهم على بعض ، وإن تحالف بعضهم مع بعض فإنَّ هذا التحالف عارضٌ إلى حين ؛ إذ سرعان ما يُنتقَض وينقلب المتحالفون بعضهم على بعض .

والعرب ـ كما يقول ابن خلدون ـ هم أصعب الأمم انقيادًا بعضهم لبعض ، للغلظة والأنفة وبُعد الهمة والمنافسة في الرياسة ، فقلما تجتمع أهواؤهم ، من أجل ذلك لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية ، من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدِّيْن على الجملة.

لذلك فإن من محاسن الإِسْلام الكبرى ـ وإن شئت فقل أحد ألوان الإِعْجَاز الاجتماعي للإسلام كما سنفصل لاحقا ـ **أَنَّهُ استطاع أن يحول هذه القبائل المتناحرة والمتباغضة التي يعادي بعضها بعضًا إلى أمة ذات كيان** ؛ استطاعت أن تنتصر على إمبراطورية الروم والفرس . هذه الأعجوبة التاريخية استرعت انتباه أحد المؤرخين غير المسلمين توماس كارليل (Thomas Carlyle ، ت : ١٨٨١م) ، فكتب يقول : « فحبذا مُحَمَّد من رجل خشن اللباس ، خشن الطعام ، مجتهد في الله ، قائم النهار ، ساهر الليل ، دائب في نشر دِيْن الله ، غير طامح إلى ما يطمحُ إليه أصاغر الرجال من رتبة أو دولة أو سلطان ، غير متطلع إلى ذكر أو شهرة كيفما كانت . رجل عظيم وربكم ، وإلا فما كان ملاقيًا من أولئك العرب الغلاظ توقيرًا واحترامًا وإكبارًا وإعظامًا ، وما كان يمكنه أن يقودهم ويعاشرهم معظم أوقاته ثلاثًا وعشرين حجة ، وهم ملتفون به يقاتلون بين يديه ويجاهدون حوله . **لقد كان في**

هؤلاء العرب جفاء وغلظة وبادرة وعجرفية ، وكانوا حماة الأنوف ، أباة الضيم ، وعر المقادة ، صعاب الشكيمة ، فمن قدر على رياضتهم وتذليل جانبهم حتى رضخوا له واستقادوا ؛ فذلكم ـ وايم الله ـ بطل كبير ، ولو ما أبصروا فيه من آيات النبل والفضل لما خضعوا له ولا أذعنوا . كيف وقد كانوا أطوع له من بنانه ؟ وظني أَنَّهُ لو كان أتيح لهم بدل مُحَمَّد قيصر من القياصرة بتاجه وصولجانه **لما كان مصيبًا من طاعتهم مقدار ما ناله مُحَمَّدٌ في ثوبه المرقَّع بيده ، فكذلك تكون العظمة ، وهكذا تكون الأبطال** »(١) .

وكانت جزيرة العرب تقع بين أعظم مدنيتين في العالم : فارس شرقًا ، والرومان غربًا ، وحاول الروم والفرس أن يخضعوا العرب لحكمهم اتقاء لغزوهم وسلبهم ، ولكنهم كانوا يعدلون عن ذلك لما يستلزمه فتح جزيرة صحراوية من ضحايا في الأنفس والأموال ، « من هذا رأى الفرس والروم أن خير وسيلة لدفع شَرِّ العرب أن يساعدوا بعض القبائل المجاورة على أن يقروا على التخوم ، يزرعون ويتحضرون ، ثم يكونوا رِدْءًا لهم ، يصدون غارة البدو الذين يغزون وينهبون ؛ فتكونت إمارة الحِيرة على تخوم الفرس ، وإمارة الغساسنة على تخوم الرُّومَان »(٢) .

كان عرب الحِيرة إذ ذاك في رخاء يحسدهم عليه غيرهم من العرب لخصب أرضهم ، وغنى إقليمهم ، وكانوا هم الصِّلَة بين الفرس وعرب الجزيرة ، يحملون إليهم التجارة الفارسية ، ويبيعونها في أسواقهم ، ويبشرون بالفرس ومدنيتهم.

وأهم أمراء الغسانيين وأول من يثق محققو المؤرخين بإمارتهم الحارث بن جَبَلَة ، وقد عينة الإمبراطور جوستنيان سنة ٥٢٩م أميرًا على جميع قبائل العرب في سوريا ، ومنحه لقب « فيلارْكْ وبِطريق » ، وهو أعلى لقب بعد الإمبراطور ، وكان الحارث نصرانيًّا على مذهب اليعاقبة ، وكان يُعد حاميًا من حماة كنيستها ، وقد سافر الحارث

---

(١) الأبطال ، تَرْجَمَة : مُحَمَّد السباعي ، دار الهلال ـ كتاب الهلال ، القاهرة ، العدد ٣٢٦ ، (١٩٧٨م) ، ص ٩١، ٩٢

(٢) أحمد أمين : فجر الإِسْلام ، ص٢٨

هذا سنة ٥٦٣ م إلى القسطنطينية ليفاوض الإمبراطور في شئون الحرب التي بينه وبين الحيرة ، وفي من يخلفه على كرسيه ، ومات سنة ٥٦٩ أو ٥٧٠م .

وفي الجانب العِلْمِيّ لم يكن لعرب الجاهلية علمٌ ولا فلسفة ، ولم يكن من بينهم من يصح أن يسمى عالمًا إلا القليل ، وعلى تجوز في إطلاق كلمة عالم. وكان الجهل فاشيًا فيهم ، والأمية شائعة بينهم ـ خصوصًا في الأقطار البدوية . وكان الحجازيون والمصريون أشد بداوة وأكثر أمية .

ويشير ابن خلدون في مقدمته تحت عنوان « **فصل في أن حملة العِلْم في الإسلام أكثرهم العجم** » : « وقد كنّا قدّمنا أَنَّ الصّنائع من منتحل الحضر وَأَنَّ العرب أبعد النّاس عنها ؛ **فصارت العلوم لذلك حضريّة وبَعُدَ عنها العرب وعن سوقها** » [(١)] .

أي أَنَّ العرب هم أبعد الناس عن العلوم ؛ لأن العلوم ذات ملكات ، محتاجة إلى التعليم ؛ فاندرجت في جملة الصنائع ، والعرب أبعد الناس ؛ فصارت العلوم لذلك حضرية ، وبَعُدَ العرب عنها وعن سوقها .

وكان لدى العرب معرفة بالأنساب ، ومعرفة بالأنواء والسماء ، ومعرفة بشيء من الأخبار ، ومعرفة بشيء من الطب ، ولكن الخطأ البين أن تسمى هذه الأشياء علمًا ، فما كان عندهم من هذا القبيل لا يتعدى معلومات أولية ، وملاحظات بسيطة لا يصح أن تسمى علمًا ولا شبه علم ، أما القواعد والبحث المنظم الذي يسمى علمًا ؛ فلا عهد للعرب الجاهليين به .

وعلى الجانب العقلي والفلسفي ، لم يكن العرب في جاهليتهم يحسنون تعليل الحوادث ، ولا يربطون المسببات بأسبابها ربطًا محكمًا ، ولم يكن هذا شأن العرب وحدهم ، بل شاركهم فيه غيرهم من الأمم في طور مثل طورهم كاليونان ، وأصبحت هذه الأشياء وغيرها موضوعًا لما يسمى علم الميثولوجيا .

ولم يكن للعرب في الجاهلية أية مذاهب فلسفية ؛ لأن المذهب الفلسفي « نتيجة البحث المنظم ، وهو يتطلب توضيحًا للرأي ، وبرهنة عليه ، ونقضًا للمخالفين ،

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، ٣/ ١١٢٣

وهكذا ، وهذه منزلة لم تصل إليها العرب في الجاهلية »[(١)] .

من خلال الأسطر السابقة نضع أيدينا على النقاط المهمة الآتية :

(١) كانت بيئة شبه الجزيرة العَرَبِيَّة قاسية شديدة الحرارة ، نادرة الماء ، قليلة الغذاء .

(٢) فرضت هذه البيئة عزلة تاريخية على أهلها ، ومنعت انتقال الثقافة والحضارة بين العرب ومن جاورهم من الأمم .

(٣) فرضت هذه البيئة على سكانها التنقل المستمر ، طلبًا للماء والغذاء ؛ لذلك فأغلب سكانها من البدو.

(٤) لم تُثمر هذه البيئة حضارة ولا نِتاجًا فلسفيًّا أو علميًّا .

- **أمية النَبيّ ﷺ :**

مما ينبغي تسليط الضوء عليه ، ونخصه بمزيد إيضاح ، ونؤكد عليه « أُمِّيَّة النَّبِيّ » ﷺ ، وهذه نقطة يجب أن تكون واضحة في ذهن القارئ ، لما سيترتب عليها من نتائج ؛ إذ كيف يتسنى لرجل أُمِّيّ ، في أمة أمية ، أغلب سكانها من البدو الرُّحَّل أن يأتي بكلام من عند نفسه في كتاب يحتوي على معلومات علمية ونفسية وتاريخية واجتماعية ... لم يقف عليها العلماء إلا في العصور التي تلت وجوده بقرون عديدة .

ومما تجدر الإشارة إليه أَنَّ الغموض يلف حياة مؤسسي الديانات ، ولا يظهر بجلاء العصور والملابسات التي ظهرت فيها كتبهم ، والاستثناء الوحيد من هذه القاعدة هو نبي الإسلام ﷺ وكتابه ، « فهذا تاريخ الإسلام ونبيه وكتابه غض طري ، **كأنه ولد أمس ، وعلماء أوروبا** يعترفون بذلك ، ويعلنونه في إنصاف وصراحة ، غير أَنَّهُمْ يعدونه استثناء من قاعدة الأديان »[(٢)] . وقد قال كثير من المستشرقين : لم يولد أحد على ضوء الشمس إلا محمد ﷺ .

---

(١) أحمد أمين : فجر الإِسْلام ، ص ٦٦، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٢٢٢

(٢) محمد عبد الله دراز : الدِّيْن ، ص ٦٧

ونبدأ ببيان هذا الأمر بأن نشير إلى أَنَّ القُرْآن الكريمُ في أكثر من موضع أشار صراحةً لهذه الأمية ، ونبه عليها ، وسنسرد فيما يلي هذه المواضع ونعقب كل موضع بتفسيره.

١ـ قال تعالى :﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ ﴾ الجمعة: ٢ ، يقول المفسرون : « الأمى: منسوب إلى أمّة العرب ؛ **لأنهم كانوا لا يكتبون ولا يقرءون من بين الأمم**. وقيل: بدأت الكتابة بالطائف، أخذوها من أهل الحيرة، وأهل الحيرة من أهل الأنبار ... **بعث رجلًا أميًّا في قوم أميين** ..وقيل « منهم » كقوله تعالى : « من أنفسكم » يعلمون نسبه وأحواله ... « يتلو عليهم آياته » ، يقرؤها عليهم مع كونه أميًّا مثلهم، لم تُعهَد منه قراءة ، ولم يُعرَف بتعلُّم ، **وقراءة أُمِّيّ بغير تعلم آية بينة** »[(١)] .

٢ـ قال تعالى :﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ العنكبوت: ٤٨

قال المفسرون :

⇦ « ..يقول: ولم تكن تكتب بيمينك، ولكنك كنت أمِّيًّا إذًا ﴿ لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ يقول : **ولو كنت من قبل أن يُوحَى إليك تقرأ الكتاب، أو تخطه بيمينك**، إذًا ﴿ لَّٱرْتَابَ ﴾ يقول: **إذن لشكّ ـ بسبب ذلك في أمرك، وما جئتهم به من عند ربك من هذا الكتاب الذي تتلوه عليهم** ـ المبطلون القائلون إِنَّهُ سجع وكهانة، وإنه أساطير الأوّلين »[(٢)] .

⇦ « وأنت أميّ **ما عرفك أحدٌ قط بتلاوة كتابٍ ولا خط** ؛ إِذًا لو كان شَيْء من ذلك ؛ أي: من التلاوة والخط ﴿ لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ من أهل الكتاب وقالوا: الذي نجده في كتبنا أمى لا يكتب ولا يقرأ وليس به. أو لارتاب مشركو مكة وقالوا: لعله تعلمه أو كتبه بيده.... فإن قلت: ما فائدة قوله

(١) الكَشَّاف ، ٤/ ٣٩١

(٢) جامع البيان ، ٨/ ٦٤٨٧

بيمينك؟ قلت: ذكر اليمين ـ وهي الجارحة التي يزاول بها الخط ـ **زيادة تصوير لما نفى عنه من كونه كاتبًا**. ألا ترى أنك إذا قلت في الإثبات، رأيت الأمير يخط هذا الكتاب بيمينه، كان أشد لإثباتك أَنَّهُ تولى كتبته »(١) .

٣ـ قال تعالى :﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ﴾ يونس: ١٦ ؛ يعني:« أن تلاوته ليست إلا بمشيئة الله وإحداثه أمرًا عجيبًا خارجًا عن العادات **وهو أن يخرج رجلٌ أُمىّ لم يتعلم ولم يستمع ولم يشاهد العلماء ساعة من عمره، ولا نشأ في بلد فيه علماء فيقرأ عليهم كتابًا فصيحًا**، يبهَرُ كل كلام فصيح، ويعلو على كل منثور ومنظوم، مشحونًا بعلوم من علوم الأصول والفروع ، وأخبار مما كان وما يكون، ناطقًا بالغيوب التي لا يعلمها إلا الله، وقد بلغ بين ظهرانيكم أربعين سنة تطلعون على أحواله ، ولا يخفى عليكم شَيْء من أسراره، وما سمعتم منه حرفًا من ذلك، ولا عرفه به أحدٌ من أقرب الناس منه وألصقهم به ». ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ يونس: ١٦ ، أي : « فقد أقمت فيها بينكم يافعًا وكهلًا، فلم تعرفوني متعاطيًا شَيْئًا من نحوه ولا قدرت عليه، ولا كنت متواصفًا بعلم وبيان فتتهموني باختراعه أَفَلا تَعْقِلُونَ فتعلموا أَنَّهُ ليس إلا من الله لا من مثلي »(٢) .

٤ـ قال تعالى :﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ يس: ٦٩ ؛ أي : « جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يتأت له ولم يتسهل، **كما جعلناه أمّيا لا يتهدّى للخط ولا يحسنه، لتكون الحجة أثبت والشبهة أدحض** »(٣) .

وفي إشارة القُرْآن لأمية النبي ﷺ في أكثر من موضع دليل على « عدم معرفته للقراءة والكتابة » من جهة أخرى ، وهي: أَنَّ القُرْآن يدعي أَنَّ النبي أُمِّيّ ، فلو كان

(١) الكَشَّاف ، ٣/ ٤٩٠

(٢) السابق ، ٢/ ٣٥٣

(٣) السابق ، ٣/ ٦٦٣

القُرْآن كاذبًا ـ حاشا لله ـ **لما سكت أعداؤه عن ذلك ، ولشَنَّعوا عليه ، وعملوا على إظهار الكذب ، ونشره بين الناس ، ولأوضحوا أنَّ محمدًا عالمٌ ، وأن من دلائل علمه كذا وكذا ، وأَنَّهُ تَلَقَّى العِلْم عن كذا وكذا ، وكتب كذا وكذا .**

وكما أشار القُرْآن لهذه الأمية ، فقد أشارت إليها بعض أحداث السيرة النبوية ضمنيًّا في أكثر من موضع ، منها :

أ- عندما ظهر جبريلُ عليه السلام للنبي ﷺ في غار حراء ، وعاد مرتجفًا إلى بيته وزوجه ، أخذته السيدة خديجة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، وقالت له : « يا ابن عم ، اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رَسُول الله ﷺ خبر ما رأى؛ فقال له ورقة: هذا الناموس الذي كان ينزل على موسى ، يا ليتني فيها جذعًا، ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومُك. فقال رَسُول الله ﷺ : **أو مخرجِيَّ هم؟** ؛ فقال: نعم ، لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عُودي ، وإن يدركني يومُك أنصرك نصرًا مؤزرًا » [(١)] .

فالشاهد في هذه الحادثة قوله ﷺ « أو مخرجِيَّ هم؟ » ، فسؤال النَّبِيّ ﷺ الصادق الأمين هذا السؤال يدل على أَنَّهُ لم يكن يعلم ما هو مكتوب وموجودٌ عند النصارى في كتبهم .

ب- ومن أكبر الأَدِلَّة على أمية النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُ كان يتخذ كُتَّابًا للوحي ، فقد كان هو ﷺ الأولى بالكتابة إن كان يعرفها .

ت- عندما طلب اليهود من قريش أن يسألوا النبي ﷺ عن أصحاب الكهف والرقيم وذي القرنين ؛ فقال لهم النبي ﷺ نعم ، ولم يقل : إن شاء الله ؛ فمكث الوحي فلم ينزل ، وخاض الناس في عرضه ؛ فلو كان القرآن من عند محمد ﷺ ومن علمه ما تأخر في الإجابة ، وقال العلماء : ولو قدر على ذلك ما تركهم يتكلمون في عرضه بما الموت أسهل منه ؛ لما علم منه من الشهامة والأنفة والبعد عما يقارب الشَّين .

---

(١) الألباني ، صحيح السيرة النبوية ، ص ٨٥

ث- تكليف زيد بن ثابت تعلم لغة يهود حتى يقرأ له كُتُبها ، فتعلم زيد العبرية في خمسة عشر يومًا .

ونختم كلامنا عن أمية النَّبِيّ ﷺ والبيئة التي ظهر فيها بكلام كل من المؤرخ توماس كارليل(١٨٨١م) ، والعالم مايكل هارت :

- يقول توماس كارليل: « ثم لا ننسى شَيْئًا آخر وهو أَنَّهُ (؛ أي : النَّبِيّ ﷺ) **لم يتلق دروسًا على أستاذ أبدًا ، وكانت صناعة الخط حديثة العهد إذ ذاك في بلاد العرب** . ويظهر لي أَنَّ الحقيقة هي أَنَّ **محمدًا لم يكن يعرف الخط والقراءة** ، وكل ما تعلم هو عيشة الصحراء وأحوالها ، وكل ما وفق إلى معرفته هو ما أمكنه أن يشاهد بعينيه ، ويتلقى بفؤاده من هذا الكون العديم النهاية ، **وعجيبة ـ وايم الله ـ أُمِّيَّة مُحَمَّد ، نعم إِنَّهُ لم يعرف من العالم ولا من علومه إلا ما تيسر له أن يبصره بنفسه أو يصل إلى سمعه في ظلمات صحراء العرب ، ولم يضره ، ولم يزر به أَنَّهُ لم يعرف علوم العالم ، لا قديمها ولا حديثها** ؛ لأنه كان بنفسه غنيًّا عن كل ذلك. **ولم يقتبس مُحَمَّد من نور أي إنسان آخر ، ولم يغترف من مناهل غيره** ، ولم يكُ في جميع أشباهه من الأنبياء والعظماء ـ أولئك الذين أشبههم بالمصابيح الهادية في ظلمات الدهور ـ من كان بين مُحَمَّد وبينه أدنى صلة، **وإنما نشأ وعاش وحده في أحشاء الصحراء ، ونما هنالك وحده بين الطبيعة وبين أفكاره** »[(١)] .

- ويشير مايكل هارت في كتابه الشهير « العظماء مائة أعظمهم محمد ﷺ » : « وأكثر هؤلاء الذين اخترتهم قد ولدوا ونشأوا في مراكز حضارية ، ومن شعوب متحضرة سياسيًّا وفكريًّا. **إلا محمدًا ﷺ فهو قد ولد سنة ٥٧٠ ميلادية في مدينة مكة ، جنوب شبه الجزيرة العربية في منطقة مَتَخَلِّفة من العالم القديم ، بعيدة عن مراكز التجارة والحضارة والثقافة والفن** »[(٢)] .

فأمية النبي ﷺ لا خلاف عليها ، فهي أمرٌ واضحٌ وبَيِّنٌ بأدلة القُرْآن الكريم ،

(١) الأبطال ، ص ٧٠

(٢) تَرْجَمَة أنيس منصور ، المكتب المصري ، القاهرة ، (بدون تاريخ للطبعة) ، ص ١٣ ، ١٤

وبشهادة من لا يَمُتُّ بقريب أو بعيدٍ للثقافة الإسلامية.

الأدلة على أنَّ القُرْآن الكريم كلام الله :

ما الأَدِلَّة على أَنَّ القُرْآن كلام الله ، وليس كلام أحدٍ من البشر أيًّا كان ؟

حقيقة إن الأَدِلَّة التي يمكن أن نقدمها على أَنَّ القُرْآن كلام الله هي « **الإعجازات المختلفة** » الموجودة فيه ، وأقصد بالإعجازات المختلفة : الإِعْجاز العِلْمِيّ ، الإِعْجَاز التَّارِيخِيّ ، الإِعْجَاز التشريعي ..... فَالقُرْآن تتعدد فيه ألوان الإِعْجَاز وأنواعه ، وكل لون وكل نوع يشهد أَنَّ القُرْآن كلام الله .

وعندما نستخدم كلمة « إعجاز » نقصد بها : « ما ليس في طوق أحدٍ من البشر ، ولا طاقته ، ولا في وسعه ، ولا في قدرته أن يأتي بمثله » .

وسنبدأ الآن بعون الله في سرد بعضٍ من هذه الإعجازات .

أ- أولا الإِعْجاز العِلْمِيّ :

من ألوان الإِعْجَاز في القُرْآن التي مَلَكَت عليَّ نفسي ، وشُغِفْتُ بها أيَّما شَغَفٍ « الإِعْجاز العِلْمِيّ » في القُرْآن ، وكُنتُ أُتابعُ باهتمام بالغ مقالات الأستاذ الدكتور زغلول النجار ، على صفحات جَرِيدَة الأهرام ، في الفترة ما بين ٢٠٠١م ـ ٢٠٠٣م في الصفحة ١٢، وكُنتُ أنتظر بشوقٍ هذا المقال الأسبوعي ، وبمجرد أن يقع في يدي ألتهمه التهامًا ، ولا أتركه إلا وقد فرغتُ منهُ ، جملةً جملة ، وكلمةً كلمةً ، وحرفًا حرفًا . وبلغت عنايتي بتلك المقالات أن كنتُ أحتفظُ بها ، وأضعُ المقال جوار المقال ، إلى أن صنعتُ مجلدًا ضخمًا ، ضم معظم هذه المقالات .

لقد كان لهذه المقالات وقع السحر على نفسي ، وزادت إيماني ويقيني بأن القُرْآن كلام الله سبحانه .

والإعجاز العِلْمِيّ ـ بحق ـ من أقوى الأَدِلَّة والشواهد على أَنَّ القُرْآن كلام الله ، ومن أنجع الوسائل للدعوة للإسلام ، يقول العلامة مُحَمَّد فريد وجدي :

« إنَّ كل خطوة يخطوها البشر في سبيل الرقي العِلْمِيّ هي تقرب إلى ديننا الفطري ، حتى ينتهي الأمر إلى الإقرار الإجماعي بأنه الدِّيْن الحق ... إنَّ العالم بفضل تحرره من الوراثات والتقاليد ، وإمعانه في النقد والتمحيص ، يتمشى على

غير قصد منه نحو الإِسْلام ، بخطوات متزنة ثابتة ، [و] لا توجد قوة في الأرض ترده عنه إلا إذا انحل عصام المَدَنِيَّة ، وارتكست الجماعات الإنسانية عن وجهتها العِلْمِيَّة »(١) .

والحقيقة المذهلة التي تستوقفنا طويلا أَنَّهُ « بالرغم من أَنَّ القُرْآن ليس أصلًا كتاب طب أو طبيعة أو فلك أو جغرافيا ، وبالرغم من أَنَّهُ بين الناس منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا بصورته الموحدة الثابتة الخالدة ، وبالرغم من أنَّ وحيه قد نزل على مُحَمَّد بن عبد الله الذي كان ـ في حد ذاته ، وبصرف النظر عن الوحي ـ **رجلًا عربيًّا محدود المعرفة التجريبية ، حتى بالنسبة لمعارف عصره العِلْمِيَّة البدائية** ـ بالرغم من ذلك كله فقد تضمنت آيات القُرْآن معارف علمية لا تزيدها الاكتشافات التجريبية ـ في مجالات متعددة ـ **إلا تصديقًا وداعيًا إلى اليقين** ، دون أن تناقض هذه المعرفة البشرية المتجددة آية من القُرْآن ، أيمكن بعد هذا كله أن يكون النَّصّ القرآني صادرًا عن بشر، أي بشر؟! بصرف النظر عن رجل عربي أُمِّيّ عاش في القرن السابع الميلادي ، وأقصى ما يمكن أن يقال في معرفته أَنَّهُ بلغ الغاية في علوم عصره وتجاربه »(٢) .

وقد احتوى القُرْآن على أكثر من ١٠٠٠ إشارة علمية ،« مَرَّ عليها المفسرون على مدار العصور ، كلٌّ يفسرها بما تجمع لديه من علم وثقافة ، وتتقبل هذه الإشارات هذه التفاسير؛ وذلك لأنَّ تلكَ الإشارات قد تم سردها بصورة مجملة ، وهذا « بحق إحدى صور الإِعْجاز العِلْمِيّ والبياني في القُرْآن الكريم ، وذلك لأن كل إشارة علمية وردت فيه قد صيغت صياغة فيها من إعجاز الإيجاز والدقة في التعبير والإحكام في الدلالة ، والشمول في المعنى ما يمكن الناس على اختلاف ثقافاتهم وتباين مستويات إدراكهم ، وتتابع أجيالهم وأزمانهم أن يدركوا لها من المعاني ما

(١) من كتاب « المستقبل للإسلام » ، نقلا عن مقال: « موقف المفسرين من الآيات الكونية في القُرْآن الكريم ٢ » ، د. زغلول النجار ، جَرِيدَة الأهرام ، ٧ مايو ٢٠٠١م ، ص ١٢

(٢) د. مُحَمَّد بلتاجي : مدخل إلى علم التفسير ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، ط١ ، (٢٠٠٠م) ، ص ١٩، ٢٠

يتناسب وهذه الخلفيات كلها ، بحيث تبقى المعاني المستخلصة من الآية الواحدة يكمل بعضها بعضًا في تناسق عجيب، وتكامل أعجب ؛ لأنه تكامل لا يعرف التضاد ، وهذا عندي من أروع صور الإِعْجَاز في كتاب الله ، فالإجمال في تلك الإشارات مع وضوح الحقيقة العِلْمِيَّة للأجيال المتلاحقة ، كل على قدر حظه من المعرفة بالكون وعلومه هي بالقطع أمر فوق طاقة البشر ، وصورة من صور الإِعْجَاز لم تتوافر ولا يمكن أن تتوافر لغير كلام الله الخالق » [1] .

وقبل أن أعرض الأمثلة على الإعجاز العِلْمِيّ يجب أن نقرر أَنَّ الجوانب العلمية التي تتعرض لها الأديان يعد معيارًا لصحة أي دِيْن أو فساده ، وهذا بطبيعة الحال « على قدر اتفاقه مع مقررات العِلْم الصحيح وقضايا العَقْل السليم ، أو اختلافه معها ؛ فَإِنَّهُ **إذا كان الدِّيْن حقًّا والعلم حقًّا وجب أن يتصادقا ويتناصرا . أما إذا تكاذبا وتخاذلا ؛ فإن أحدهما لا محالة يكون باطلًا وضلالًا** » [2] .

وسوف أقدم هنا ست آيات احتوت على إشاراتٍ علمية نَدُلُّ بها على هذا اللون من الإعجاز .

(١) **الآية الأولى قوله تعالى** : ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ الحديد: ٢٥:

فَسَّر مفسرو القُرْآن لفظة « وأنزلنا » بمعنى الخلق والإيجاد والتقدير والتسخير ، مثل تفسير الصابوني إذ يقول: « ... ؛ أي : وخلقنا وأوجدنا الحديد فيه بأس شديد ؛ لأن آلات الحرب تُتَّخَذُ منه : كالدروع ، والرماح ، والتروس ، والدبابات » [3] .

ولم يُفسر أحدٌ منهم الإنزال في الآية بمعنى « الهبوط من علو » ؛ على الرغم من أنَّ هذا المعنى هو المعنى الأساسي للفظ « نزل » ، واستبعاد قُدامى المفسرين لهذا المعنى بسبب أَنَّهُمْ لم يتصوروا أَنَّ الحديد يمكن أن يكون « **هبط** » من خارج الأرض ـ

---

(١) مقال :« موقف المفسرين من الآيات الكونية في القُرْآن الكريم ١ » ، د. زغلول النجار ، جَرِيدَة الأهرام ، ٣٠ أبريل ٢٠٠١م ، ص ١٢

(٢) د. محمد عبد دراز : الدِّيْن ، ص ٧٨

(٣) صفوة التفاسير ، دار القُرْآن الكريم ، بيروت ، ط٤ ، (١٩٨١م) ، ٣/ ٣٢٩

السَّماء ـ إلى الأرض .

أما الآن ، وبفضل التطور المذهل في العلوم الكونية والفيزيائية والكميائية أصبح مقبولًا القول بهذا التفسير ؛ أي : تفسير لفظة « أنزلنا » في الآية بمعنى الهبوط من الأعلى (السَّماء) إلى الأرض . ولندع أهل الاختصاص ، وعلماء العلوم الكونية والفيزيائية والكيمائية يحدثوننا عن هذا الهبوط .

يقول د. زغلول النجار : « ثبت لعلماء الفلك والفيزياء الفلكية أَنَّ الحديد لا يتكون في الجزء المُدرك من الكون إلا في مراحل محدَّدة من حياة النجوم تسمى بالعماليق الحُمر والعماليق العظام ، والتي بعد أن يتحول لُبُّها بالكامل إلى حديد تنفجر على هيئة المستعرات العظام ، وبانفجارها تتناثر مكوناتها بما فيها الحديد في صفحة الكون ؛ فيدخل هذا الحديد بتقدير من الله في مجال جاذبية أجرام سماوية تحتاج إليه مثل أرضنا الابتدائية التي وصلها الحديد الكوني ، وهي كومة من الرماد ؛ فاندفع إلى قلب تلك الكومة بحكم كثافته العالية ، وسرعته المندفع بها ، فانصهر بحرارة الاستقرار في قلب الأرض وصهرها ، ومايزها إلى سبع أرضين ! **وبهذا ثبت أَنَّ الحديد في أرضنا ، بل في مجموعتنا الشمسية بالكامل قد أنزل إليها إنزالا حقيقيًّا**» [(١)] .

لماذا لا يمكن أن يكون الحديد قد تكون في الأرض ؟

يقول العلماء إن الحديد لا يمكن أن يتكون في الأرض ، بل إِنَّهُ حتى لا يمكن أن يتكون في الشمس ، وتعليل ذلك أن « نسبة الحديد في شمسنا لا تتعدَّى ٠.٠٠٣٧٪ من كتلتها ، وهي أقل بكثير من نسبة الحديد في كل من الأرض والنيازك الحديدية التي تصل إليها من فسحة الكون ، ولما كانت درجة الحرارة لب الشمس لم تصل بعد إلى الحد الذي يمكنها من إنتاج السيليكون ، أو المغنيسيوم ، فضلًا عن الحديد ـ كان من البديهي **استنتاج أن كلا من الأرض والشمس قد استمد ما به من حديد من**

(١) الإشارات الكونية في القُرْآن الكريم ومغزى دلالتها العِلْمِيَّة ، مقال د. زغلول النجار ، جَرِيدَة الأهرام ، القاهرة ، ٢٢ أكتوبر ٢٠٠١م ، مقال رقم ٢٣ ، ص ١٢

مصدر خارجي عنه في فسحة الكون »[1] .

من هنا ساد الاعتقاد بأن الحديد الموجود في الأرض والذي يشكل ٣٥.٩٪ من كتلتها لا بد وأَنَّهُ قد تَكَوَّنَ في داخل عدد من النجوم المستعرة ، من مثل العماليق الحمر ، والعماليق العظام ، والتي انفجرت على هيئة المستعرات العظام ؛ فتناثرت أشلاؤها في صفحة الكون ، ونزلت إلى الأرض على هيئة وابل من النيازك الحديدية ؛ وبذلك أصبح من **الثابت علميًّا أن حديد الأرض قد أنزل إليها من السَّماء ، وَأَنَّ الحديد في مجموعتنا الشمسية كلها قد أنزل كذلك إليها من السَّماء ، وهي حقيقة لم يتوصل إليها العلماء إلى فهمها إلا في أواخر الخمسينيات من القرن العشرين ، وقد جاء ذكرها في سورة الحديد** ، ولا يمكن لعاقل أن **يتصور ورودها في القُرْآن الكريم الذي أنزل منذ أربعة عشر قرنًا على نبيٍّ أُمِّيّ ﷺ وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين ، ولا يمكن أن يكون له من مصدر غير الله الخالق الذي أنزل هذا القُرْآن بعلمه ، وأورد فيه مثل هذه الحقائق الكونية ؛ لتكون شاهدة إلى قيام الساعة بأَنَّ القُرْآن الكريم كلام الله الخالق ، وأنَّ سيدنا محمدًا ﷺ ما كان ينطق عن الهوى .**

ومن الملحوظات المثيرة للاهتمام أن « للحديد ثلاثة نظائر ، يُقدر وزنها الذري بحوالي ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ولكن أكثرها انتشارًا هو النظير الذي يحمل الوزن الذري ٥٦ (٥٥.٨٤٧)[2] .

ومن الغريب أن رقم سورة الحديد في المصحف الشريف هو ٥٧ ، وهو يتفق مع الوزن الذري لأحد نظائر الحديد ، ولكن القُرْآن الكريم يخاطب المصطفى ﷺ في سورة

---

(١) السابق ، ص ١٢

(٢) المقصود بالعدد الذري **Atomic number** هو عدد الألكترونات السيارة الموجودة في كل ذرة من ذرات العنصر . وعنصر الحديد رقمه ٢٦ في الجدول الدوري . يُنْظَرُ : د. أنور محمود، المُعْجَم الهندسي ، دار الشروق ، ط١ ، ١٩٧٣م ، ص ١٤٠ ، ٢٥٥والمقصود بالوزن الذري **Atomic weight** : هو وزن الذرة الفعلي ، ويمكن حساب الوزن الذري من خلال معرفة عدد الذرات في كتلة معينة ، ومن ثم يمكن من خلال الوزن والقسمة إيجاد وزن كل ذرة . المُعْجَم الهندسي ، ص ٤٥٢

الحِجْر بقول الحَقِّ ـ تبارك وتعالى ـ :﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ الحجر: ٨٧ ، وواضحٌ من هذه الآية الكريمة أَنَّ القُرْآن الكريم بنصه يفصل فاتحة الكتاب عن بقية القُرْآن الكريم ، وبذلك يصبح رقم سورة الحديد ٥٦ ، وهو الوزن الذري لأكثر نظائر الحديد شيوعًا في الأرض ، كذلك وصف سورة الفاتحة بالسبع المثاني ، وآياتها ست ، يؤكد أَنَّ البسملة آية منها ، ومن كل سورة من سور القُرْآن الكريم ذكرت في مقدمتها ، وقد ذكرت في مقدمة كل سور القُرْآن الكريم ما عدا سورة « التوبة » ، وعلى ذلك فإذا أضفنا البسملة في مطلع سورة الحديد إلى رقم آية الحديد وهو ٢٥ أصبح رقم الآية ٢٦ ، وهو نفس العدد الذري للحديد ، ولا يمكن أن يكون هذا التوافق الدقيق قد جاء بمحض المصادفة ؛ لأنها لا يمكن أن تؤدي إلى هذا التوافق المبهر في دقته »[(١)] .

(٢) **الآية الثانية قوله تعالى** ﴿ وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴾ الطور: ١ – ٦

ما المقصود بالآية السادسة هنا (البحر المسجور)؟

لكلمة « مسجور » عدة معانٍ لغوية ، منها :

أ- السَّجْرُ : تهييج النار ، ويُقالُ : سَجَرَ التنورَ ؛ أي : أوقد عليه حتى أحماه .

ب- وسَجَرَ الإناء ؛ ملأه .

ت- وسَجَرَ الرجلُ الكلبَ ؛ وضع السَّاجورَ (الطوق الذي يوضع في عنق الكلب) في عُنُقِه (ولذلك لتقييده ، ومنعه عن إيذاء الناس) .

من خلال هذه المعاني اللغوية فإنَّ « البحر المسجور هو المملوء بالماء ، والمكفوف عن اليابسة ، وهو معنى صحيح من الناحية العِلْمِيَّة صحة كاملة ؛ كما أثبتته الدراسات العِلْمِيَّة في القرن العشرين ، ومن المعاني اللغوية لهذا القسم المبهر أَيْضًا أَنَّ البحر قد أوقِدَ عليه حتى حمي قاعُه ؛ فأصبح مسجورًا ؛ وهو كذلك من الحقائق العِلْمِيَّة التي اكتشفها الإِنْسَان في العقود المتأخِّرة من القرن العشرين ، والتي

(١) الإشارات الكونية في القُرْآن الكريم ومغزى دلالتها العِلْمِيَّة ، مقال د. زغلول النجار ، جَرِيدَة الأهرام ، القاهرة ، ٢٢ أكتوبر ٢٠٠١م ، ، مقال رقم ٢٣ ، ص ١٢

لم يكن لبشر إلمام بها قبل ذلك أبدًا »[(١)] .

ولنبسط القول في هذين المعنيين قليلًا [(٢)] :

- المعنى الأَوَّلُ ـ معنى المِلْء والكف ـ يُفهم بأَنَّ الله ـ تعالى ـ ملأ منخفضات الأرض بماء البحار والمحيطات ، وحجز هذا الماء عن مزيد من الطغيان على اليابسة منذ خلق الإِنْسَان ؛ وذلك بحبس كميات من هذا الماء في هيئات متعددة أهمُّها ذلك السُّمْكُ الهائلُ من الجليد المتجمِّع فوق قطبي الأرض ، وعلى قمم الجبال ، والذي يصل إلى **أربعة كيلو مترات** في قطب الأرض الجنوبي ، وإلى ثلاثة آلاف وثمانمائة من الأمتار في القطب الشمالي ، **ولولا ذلك لغطى ماء الأرض أغلب سطحها ، ولما بقيت مساحة كافية من اليابسة للحياة بمختلف أشكالها : الإنسانِيَّة ، والحيوانية ، والنباتية** .
- المعنى الثاني ـ معنى إحماء قاع البحر ـ يُفهَم كما يأتي :

في العقود المتأخرة من القرن العشرين تم اكتشاف حقيقة تمزق الغلاف الصخري للأرض بشبكة هائلة من الصدوع العملاقة المزدوجة ، والتي تُكَوِّنُ فيما بينها ما يُعرف باسم « أودية الخسف » أو « الأغوار » ، وأن هذه « الأغوار » العميقة تحيط بالكرة الأرضية إحاطة كاملة ، ويُشَبِّهُها العلماءُ باللحام على كرة التنس ، وتمتد هذه الأغوار في كافة الاتجاهات لعشرات الآلاف من الكيلو مترات ، ولكنها تنتشر أكثر ما تنتشر في قيعان محيطات الأرض ، وفي قيعان عدد من بحارها ، ويتراوح عمق الصدوع المُشَكِّلة لتلك الأغوار بين ٦٥ كيلو مترًا ، و٧٠ كيلو مترًا تحت قيعان البحار والمحيطات ، وبين ١٠٠ و١٥٠ كيلو مترًا على اليابسة ؛ أي : في صخور القارات ، وتعمل على تمزيق الغلاف الصخري للأرض بالكامل ، وتقطيعه إلى عدد من الألواح الصخرية التي تطفو فوق نطاق من الصخور شبه المنصهرة يسميه العلماء باسم « نطاق الضعف الأرضي » ، وهو نطاق لَدِن ، عالي الكثافة واللزوجة ، تتحرك بداخله تيارات الحمل

---

(١) الإشارات الكونية في القُرْآن الكريم ومغزى دلالتها العِلْمِيَّة ، مقال د. زغلول النجار ، جَرِيدَة الأهرام ، القاهرة ، ٢٤ ديسمبر ٢٠٠١م ، ، مقال رقم ٢٧ ، ص ١٢

(٢) يُنْظَرُ ما سيُقال في هذين المعنيين المقال السابق ، ص ١٢

من أسفل إلى أعلى حيث تتبرد وتعاود النزول إلى أسفل ، وهي بتلك الحركة الدائبة تدفع بكل لوح من ألواح الغلاف الصخري للأرض إلى التباعد عن اللوح المجاور في أحد جوانبه (في ظاهرة تسمى ظاهرة اتساع قيعان البحار والمحيطات) ومصطدمًا في الجانب المقابل باللوح الصخري المجاور ؛ ليكون سلسلة من السلاسل الجبلية ، ومنزلقًا عن الألواح المجاورة في الجانبين الآخرين .

وباستمرار تحرك ألواح الغلاف الصخري **للأرض تتسع قيعان البحار والمحيطات باستمرار عند خطوط التباعد بينها ؛ وتندفع الصهارة الصخرية بملايين الأطنان في درجات حرارة تتعدى الألف درجة مئوية ؛ لتساعد على دفع جانبي المحيط يمنة ويسرة ، وتملأ المسافات الناتجة بالصهارة الصخرية المندفعة من باطن الأرض على هيئة ثورات بركانية عارمة ، تحت الماء ، تسجر قيعان جميع محيطات الأرض ، وقيعان أعداد من بحارها ، وتجدد مادتها الصخرية باستمرار .**

بذلك ثبت لكل من علماء الأرض والبحار ـ بالأدلة الملموسة ـ أن كل محيطات الأرض ... قيعانها مسجرة بالصُّهارة الصَّخرية المندفعة بملايين الأطنان من داخل الأرض عبر شبكة الصدوع العملاقة التي تمزق الغلاف الصخري للأرض بالكامل ، وتصل إلى نطاق الضعف الأرضي ، وتتركز هذه الشبكة من الصدوع العملاقة أساسًا في قيعان البحار والمحيطات ، وأن كم المياه في تلك الأحواض العملاقة ـ على ضخامته ـ لا يستطيع أن يُطفئ جذوة الصُّهارة الصخرية المندفعة من داخل الأرض كاملًا ، وأنَّ هذه الجذوة على شدة حرارتها (أكثر من ألف درجة مئوية) لا تستطيع أن تبخر هذا الماء بالكامل ، **وأن هذا الاتزان الدقيق بين الأضداد من الماء والحرارة العالية هو من أكثر ظواهر الأرض إبهارًا للعلماء في زمننا ، وهي حقيقة لم يتمكن الإِنْسَان من اكتشافها إلا في أواخر الستينات وأوائل السبعينات من القرن العشرين .**

(٣) **الآية الثالثة قوله تعالى :** ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي

﴿ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖ﴾ الزمر: ٦ [(١)] :

في وقت ساد الاعتقاد بأنَّ الجنين البشري يتخلق من دم الحيض وحده ، أو من ماء الرجل وحده نزل القُرْآنُ الكريمُ بالتأكيد على اشتراك خلايا التكاثر الذكرية والأنثوية في تكوين الجنين ، وذلك في العديد من الآيات ، نختار منها قول ربنا ـ تبارك وتعالى :

١ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ الحج: ٥

٢ـ ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ المؤمنون: ١٢ — ١٤

٣ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ﴾ غافر: ٦٧

٤ـ ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ﴾ النجم: ٤٥ — ٤٦

٥ـ ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ القيامة: ٣٦ — ٣٩

٦ـ ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ الإنسان: ٢

٧ـ ﴿مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ عبس: ١٩

وتنزل القُرْآن الكريم بهذا الحق المبين ، وبهذا الوصف الدقيق الكامل الشامل لأطوار الجنين في الإِنْسَان ، وهي أطوار لا تتعدى في معظمها أجزاء من المليمتر إلى ملليمترات قليلة في الطول ، وذلك من قبل ألف وأربعمائة سنة ، وفي زمن لم يكن متوافرًا آية وسيلة من وسائل التكبير أو التصوير أو الكشف ، **مما يشهد للقرآن**

---

(١) يُنْظَرُ ما كُتب في هذه الآية :الإشارات الكونية في القُرْآن الكريم ومغزى دلالتها العِلْمِيَّة ، مقال زغلول النجار، جَرِيدَة الأهرام، القاهرة، ٢٧ سبتمبر ٢٠٠٤م ، مقال رقم ١٥٢، ص ١٣

الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية ، بل كلام الله الخالق .

ومع تطور الأجهزة العِلْمِيَّة خلال القرن العشرين وأوائل القرن الحادي والعشرين تطور علم الأجنة تطورًا مذهلًا ، وكان في كل خطوة يخطوها يثبت صدق كل ما جاء في كتاب الله ، وفي سنة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ من أنَّ جنين الإِنْسَان ينتج من اتحاد واندماج النطفتين الذكرية والأنثوية لِيُكَوِّنَا معًا النطفة الأمشاج (المختلطة) التي يقدر فيها خلق الجنين بتقدير من الله ـ تعالى ـ ، وأنَّ هذه النطفة الأمشاج تتخلق منها الأجنة في بطون الأمهات عبر عدد من الأطوار المتتالية التي عجز العِلْم المكتسب عن تسميتها ، واكتفى بالتعبير عنها بعدد الأيام من أعمارها .

وَفَصَّلَ القُرْآن هذه المراحلَ في سبع مراحل متتالية ، أثبتتها الدراسات العِلْمِيَّة في العقود القليلة الماضية ، وسماها القُرْآن بأسمائها المحددة الآتية :

١) **طَوْر النطفة** : واستخدمها القُرْآن الكريم للتعبير عن خلية التكاثر **Gamete** ، سواء كانت مذكرة **Sperm** ، أو مؤنثة **Ovum** .

٢) **طَوْر النطفة الأمشاج** : وأمشاج جمع مشيج ، واستخدم الجمع للتعبير عن خلط أكثر من شيئين ؛ لأن الذي يختلط فيها ليس مجرد خليتي التكاثر الذكرية والأنثوية ، ولكن ما بداخل كل واحدة منهما من مكونات ، وأهمها الشفرة الوراثية التي تشمل في الخلية العادية الواحدة من الخلايا البشرية ١٨.٦ بليون جزئ كيميائي من القواعد النيتروجينية والسكر والفوسفات ، وتحمل نصف هذا العدد كل خلية من خلايا التكاثر....

٣) **طَوْر العَلَقَة** : بمجرد إتمام تعليق الكيسة الأرومية بجدار الرحم بواسطة المشيمة البدائية التي تتحول فيما بعد إلى الحبل السري ، يبدأ طور العلقة ، من اليوم الخامس عشر إلى الخامس والعشرين ، وذلك باطراد النمو ، وتعدد الخلايا ، وبدء تكوين الأجهزة ، واستطالة الجنين ؛ ليأخذ شكل دودة العلق **Leech** .

٤) **طَوْر المُضغَة** : في بدايات الأسبوع الخامس تنتقل العلقة إلى طور المضغة ؛ لأن الجنين يبدو فيها كأنه قطعة صغيرة من اللحم المضوغ الذي بقيت عليه طبعات أسنان الماضغ كما تبقى مطبوعة على قطعة من العلك الممضوغ . ومن هنا كان

السبق القرآني بوصف هذه المرحلة التي لا يتعدى طولها في نهاية عمرها واحد سنتيمتر ، باسم المضغة ـ وهذا إِعجازٌ ما بعده إعجاز ، حيث لم يكن لأحد من الخلق إدراك لذلك في زمن الوحي ، ولا لأكثر من اثني عشر قرنًا من بعده .

٥) **طَوْر العظام** : في خلال الأسبوع السابع من عمر الجنين يبدأ انتشار الهيكل العظمي في جسم الجنين ؛ وذلك بالتكلس التدريجي للغضاريف التي تم تكونها في مرحلة المضغة .

٦) **طَوْر كسوة العظام باللحم** : في خلال الأسبوع الثامن من عمر الجنين تبدأ عملية كسوة العظام باللحم .

٧) **طَوْر التنشئة** : بدءًا من الأسبوع التاسع من عمر الجنين إلى نهاية فترة الحمل تأخذ صفاته الجسدية في التمايز بتكامل خلق كل أعضاء وأجهزة الجسم التي تنشط للعمل مع بعضها البعض في تناسق عجيب .

وهذه المراحل السبع المتتالية في خلق الجنين تؤكدها الدراسات الحديثة ، ولا تميزها إلا بأيام العمر ، مع عجزها عن إعطائها مسمياتها الدقيقة ، وسبق القُرْآن الكريم بوصف هذه المراحل وترتيبها بهذه الدِّقَّة الفائقة في غيبة كل وسائل التكبير والتصوير والكشف ، من قبل أربعة عشر قرنًا ؛ مما يقطع بأن القُرْآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله .

(٤) الآية الرابعة قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾ النساء: ٥٦ [(١)] :

في هذه الآية الكريمة تأكيدٌ على أنَّ إحساس الإِنْسَان بالألم يتركز في الجلد ، وأَنَّهُ إذا انتزع الجلد فَقَدَ الإِنْسَان الإحساس بالألم ... وهذه الحقيقة العِلْمِيَّة لم يدركها الأطباء إلا في أثناء الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩م ـ ١٩٤٥م) ، حين لاحظوا أَنَّ الجنود الذين قد أصيبوا بإصابات بالغة أثناء القتال أدت إلى تهتك الجلد لم يشعروا

---

(١) يُنْظَرُ ما كُتب في هذه الآية :الإشارات الكونية في القُرْآن الكريم ومغزى دلالتها العِلْمِيَّة ، مقال د. زغلول النجار ، جَرِيدَة الأهرام ، القاهرة ، الإثنين ٢٥ أبريل ٢٠٠٥م ، ، مقال رقم ١٧٨ ص ١٣

بالآلام إلا لحظة الإصابة ، ولكن بعد تهتك أنسجة الجلد زال الألم فعلًا ، واستنتجوا أنَّ ذلك لا بد وأَنَّهُ قد تم بموت الأعصاب المتمركزة في الجلد ، حيث تتركز جسيمات الإحساس بالألم فيه ، ولا توجد في غيره من أجزاء الجسم . وقد سبق القُرْآن الكريم بالإشارة إلى ذلك ؛ فقال ربنا ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ النساء: ٥٦

ثم يأتي العِلْم في أواخر القرن العشرين ؛ ليؤكد وجود ملايين المستقبلات الحسية الموزعة في جلد الإِنْسَان ، وإن تميَّزت بتركيز خاص في بعض أجزائه من مثل الشفاة والأنامل ، وأنَّ عددًا من هذه المستقبلات مخصَّص للمس ، أو للشعور بالضغوط الخفيفة والثقيلة ، وأن عددًا مخصَّص للشعور بالألم ، ومجموعة ثالثة مخصصة للشعور بالاختلاف في درجات الحرارة هبوطًا أو صعودًا عن درجة حرارة الجسم ٣٧ درجة مئوية .

(٥) **الآية الخامسة قوله** : ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ الشمس: ٣ – ٤ [(١)] :

وردت هاتان الآيتان في سياق الآيات الآتية ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ الشمس: ١ – ٤

ومن الواضح أَنَّ الضمائر في الآيات الأربع تعود إلى « الشمس » ، لكن لصعوبة فهم كيفية « تجلية النهار للشمس ، وكيفية غشيان الليل لها » ؛ دفع هذا بعدد من المفسرين إلى نسبة « ضمير الغائب » في الآيتين الثالثة والرابعة إلى الأرض أو إلى السَّماء أو إلى الكون ؛ وذلك لأنَّ الناس منذ الأزل يؤمنون بأنَّ الشمسَ هي التي تُجَلِّي النهار ، **ولم يكن أحدٌ من الخلق يتصور إمكانية أنْ يكون النهار هو الذي يجلي الشمس ، وَأَنَّ الظلام يغشى الشمس.**

لقد ثبت أَنَّ الأصل في الكون هو الإظلام ، وأنَّ نور النهار هو نعمة من الله الخالق مَنَّ بها على عباده وخلقه من أهل الأرض ، وأن فترة النهار على الأرض ـ

(١) يُنْظَرُ ما كُتب في هذه الآية :الإشارات الكونية في القُرْآن الكريم ومغزى دلالتها العِلْمِيَّة ، مقال د. زغلول النجار ، جَرِيدَة الأهرام ، القاهرة ، ١٩ أغسطس ٢٠٠٢ م ، ، مقال رقم ٦١ ، ص ١٢

وهي فترة المواجهة مع الشمس ـ هي التي تجلى لنا **الشمس بما تحدثه من تردد انعكاس ضوء الشمس وتشتيته على ما بها من بلايين الجسيمات الصُّلبة والسائلة والغازية في الجزء السفلى من الغلاف الغازي للأرض** ، ولولا ذلك ما كان نور النهار وما أمكن للإنسان أن يرى الشمس التي لا يجليها لنا بأمر ربها إلا طبقة النهار من الغلاف الغازي للأرض ، وهذه حقائق لم يمكن إدراكها إلا بعد رحلات الفضاء التي ابتدأت منذ منتصف الستينات من القرن العشرين .

والليل في الآية هو « ليل السَّماء » ، وليل السَّماء هو إظلام دائم ، يبدو فيه موقع الشمس قرصًا باهت الزرقة في صفحة سوداء حالكة السواد ، وكذلك تبدو مواقع النجوم على هيئة نقاط متباعدة باهتة الزرقة في صفحة سوداء ، والسبب في ذلك هو التناقض الشديد في كثافة المادة بين الكواكب ، وفيما بينها وبين الشمس. والمادةُ بيننا وبين الشمس عبارة عن خليط من الغازات الخفيفة من مثل غاز الإيدروجين المتأين ، وكذلك نوى بعض ذرات الهيليوم ، وبعض الجسيمات الصلبة من الغبار المتناهي الدِّقَّة .

من هنا يغشى ليل السَّماء الشمس كما يغشى ليل الأرض ويلتحم به ، ومن هنا كانت هذه الإشارة المعجزة في سورة الشمس ، وهذه الحقائق لم تتوصل إليها العلوم المكتسبة إلا بعد ريادة الفضاء في منتصف الستينات من القرن العشرين ، وورودها في القُرْآن الكريم الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة بهذه الدِّقَّة والإحاطة التي تؤكد ظلمة الكون في عدد غير قليل من الآيات . كل ذلك آيات بينات لكل ذي بصيرة على أَنَّ القُرْآن الكريم هو كلام الله الخالق .

(٦) **الآية السادسة قوله تعالى** : ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ النحل: ١٥ (١) :

من دلائل الإِعْجَاز في هذه الآية استخدام لفظة « رواسي » ؛ أي : جبال ،

(١) يُنْظَرُ ما كُتب في هذه الآية :الإشارات الكونية في القُرْآن الكريم ومغزى دلالتها العِلْمِيَّة ، مقال د. زغلول النجار، جَرِيدَة الأهرام، القاهرة، ٩ ديسمبر ٢٠٠٢ م ، مقال رقم ٧٣ ، ص ١٢

ووجه الإِعْجاز العِلْمِيّ في استخدام هذه اللفظة أَنَّ الغلافَ الصَّخْرِيَّ للأرض يُقَسَّمُ إلى نحو اثني عشر لوحًا كبيرًا ، بالإضافة إلى عدد من الألواح الصغيرة ، وذلك بواسطة شبكة من الصدوع الخسيفة ، وهي خسوف تتراوح أعماقها بين ٦٥ كم و ١٥٠كم ، وتطفو ألواح الغلاف الصخري للأرض فوق نطاق من الصخور شبه المنصهرة يُعرف باسم « نطاق الضعف الأرضي » ؛ ولذلك فإن هذه الألواح الصخرية تنزلق فوق نطاق الضعف الأرضي مع دوران الأرض حول محورها ، وباندفاع الصهارة الصخرية بملايين الأطنان عبر الصدوع والخسوف الفاصلة بينها خاصة تلك الخسوف الموجودة في ألواح الغلاف الصخري المكون لقيعان كل محيطات الأرض ، وأعداد من بحارها ، والتي تتسع باستمرار في ظاهرة تعرف باسم ظاهرة اتساع قيعان المحيطات ؛ وبذلك تنتقل ألواح الغلاف الصخري للأرض باستمرار في حركة لا يبطئ من عنفها إلا تكون السلاسل الجبلية التي تثبت القارات في قيعان البحار والمحيطات بواسطة أوتاد الجبال ، كما يمكن بواسطتها تثبيت قارة في قارة أخرى .

فالجزء البارز من الجبال فوق سطح الأرض هو في الحقيقة ليس إلا القمم البارزة لكتل هائلة من الصخور التي تطفو في نطاق الضعف الأرضي ، كما تطفو جبال الجليد في ماء البحر المحيط ، **ومن هنا كان وصف القُرْآن الكريم للجبال بالرواسي وصفًا معجزًا** ؛ لأن الجبال ترسو بأوتادها في نطاق الضعف الأرضي كما ترسو السفينة في ماء البحر على مرساتها ، والرواسي من الجبال الثوابت الرواسخ.

ووجود الجبال بكتلها الغائرة في الغلاف الصخري للأرض ، والطافية في نطاق الضعف الأرضي يقلِّلُ من شدة ترنُّح الأرض في دورانها حول محورها ، ويجعل حركتها أكثر انتظامًا وسلاسة ، كما تفعل قطع الرصاص التي توضع حول إطار السيارة للتقليل من رجرجتها ، وانتظام حركتها ، وبذلك أصبحت الأرض مؤهلة للعمران بمختلف صور الحياة .

ومن أوجه الإِعْجَاز في الآية أَيْضًا ـ بالإضافة إلى ما سبق ـ ربط « تكون كل من الأنهار والسبل بتكون الجبال » ، وذلك بأنَّ النهر يُعَرَّفُ بأنه ماء يتدفق في مجري

محدد ، من مناطق مرتفعة في اتجاه البحر ، أو في اتجاه بحيرة داخلية ، أو حوض صحراوي ، أو نهر أكبر .

وتغذَّى الأنهار بماء المطر الذي يسقط فوق مرتفعات الأرض من مثل الجبال ، كما يمكن أن تغذَّي الأنهارُ من ماء العيون ، أو من تسربات الماء المخزون في طبقات تحت سطح الأرض ، ومن ذوبان الجليد من أماكن تجمعه في قمم الجبال ، ومن أطراف حقول الجليد .

كذلك يمكن أن يفقد جزء من ماء النهر بالبخر أو بالتسرب إلى الخزانات المائية تحت سطح الأرض ، والفرق بين كم الماء الذي يغذي النهر والفاقد منه هو الذي يتحكم في استمرارية أو انقطاع تدفق الماء في مجري النهر .

من هنا رَبَطَ القُرْآنُ الكريمُ بين تَكَوُّن الجبال وتدفق الأنهار في الآية الكريمة التي معنا .

هذه الحقائق العِلْمِيَّة عن كل من الجبال والأنهار والسبل بدأ الإِنْسَان في جمع أطرافها في بطء شديد عبر القرون المتعاقبة ، ولم يبدأ في بلورة تصور صحيح لها إلا في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي ، ولم يكتمل هذا التصور إلا في منتصف الستينات من القرن العشرين .

وورود هذه الحقائق في الآية الكريمة التي نحن بصددها وفي غيرها من آيات القُرْآنِ العظيمِ مما يقطع بأنَّ القُرْآنَ هو كلام الله الخالق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه .

في ختام هذه الآيات الست التي تحدثت عن الإِعْجاز العِلْمِيّ في القُرْآن نقول: هل كان النَّبِيّ **الأمِّيُّ مُحَمَّد** ﷺ الذي كان يجهل القراءة والكتابة عالمًا مُتَخصِّصًا شديد التخصص في العلوم الطبية والفلكية والكيميائية والبحرية حتى يأتي لنا بتلك كل الحقائق التي لم تكتشف إلا من مائة أو مائتي عام ؟!!

إن الإجابة بكل اطمئنان : لا ، فإن هذا محال.

هل كان للعرب من العلوم والمعارف ما يمكن للنبي ﷺ أن ينهل منها ، ويؤلف منها القُرْآن ؟!!

إن الإجابة بكل اطمئنان : لا ، فإن هذا محال؛ لأن العرب كانت أمة أمية ، معظمها من البدو ، لا هَمَّ لها إلا البحث عن الماء والمرعى ، فضلا عن أَنَّ الجوانب العِلْمِيَّة التي تحدثت عنها الآيات لم يكتشفها الإِنْسَان إلا في عصور حديثة !

لم يبق إذن إلا أن نقول **إنَّ الذي خلقَ الكونَ والإنسانَ هو الذي أنزل القرآنَ.**

*****

ب- ثانيًا الإعْجَاز التَّاريخِيّ :

من أنواع الإِعْجَاز التي تشهد بأن القُرْآن كلامُ الله وأَنَّهُ يستحيل عقلًا أن يكون كلام مُحَمَّد ﷺ أو كلام غيره ـ الإِعْجَاز التَّارِيخِيّ . فهذا لون من الإِعْجَاز يشهد لقضيتنا التي نحن بصددها .

وسوف أفرد المساحة الآتية للحديث عن هذا النوع من الإِعْجَاز ، من خلال جملة من الآيات القرآنية :

- **الآية الأولى** : قوله تعالى : ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ الروم: ٢ – ٤

تحمل هذه الآية في طياتها إعجازًا تاريخيًّا يثبت أَنَّ القُرْآنَ كلامُ الله الخالق العليم بما سيكون . ولنبدأ بتفصيل هذا الإِعْجَاز بأن نبدأ أَوْلًا ببيان معنى الآية .

قال الإمام الطَّبَرِيّ رَحِمَهُ اللَّهُ عند تفسيره لهذه الآية : « ... وتأويل الكلام : غَلَبَتْ فارس الرومَ ﴿ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ من أرض الشام إلى أرض فارس ، ﴿ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ ﴾ يقول : والروم من بعد غلبة فارس إياهم ﴿ سَيَغۡلِبُونَ ﴾ فارس ، ﴿ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ ﴾ غلبتهم فارس ﴿ وَمِنۢ بَعۡدُۚ ﴾ غلبتهم إياها ؛ يقضي في خلقه ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، ويظهر من شاء منهم على من أحبَّ إظهاره عليه »[(١)] .

وقال الإمام الصابوني رَحِمَهُ اللَّهُ : « ... ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ ؛ أي :

(١) جامع البيان عن تأويل آي القُرْآن ، ت: أحمد عبد الرزاق وآخرون ، دار السلام ، القاهرة ، ط ١ ، (٢٠٠٥م) ، ٨/ ٦٤٩٩

هُزِمَ جيش الروم في أقرب أرضهم إلى فارس ﴿ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ ؛ أي: وهم من بعد انهزامهم وغلبة فارس لهم سيغلبون الفرس وينتصرون عليهم . ﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ ؛ أي : في فترة لا تتجاوز بضعة أعوام ، والبِضعُ : ما بين الثلاث إلى التسع ... وقد التقى الجيشان في السنة **السابعة من الحرب** ، وغلبت الرومُ فارس وهزمتهم ، وفرح المسلمون بذلك . قال أبو السعود : وهذه الآيات من البينات الباهرة ، الشاهدة بصحة النبوة ، وكون القُرْآن من عند الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ، حيث أخبر عن الغيب الذي لا يعلمه إلا العليم الخبير ، ووقع كما أخبر ، وقال البيضاوي : والآية من دلائل النبوة ؛ لأنَّها إخبار عن الغيب » [(١)] .

من خلال هذا التفسير فإنَّ معنى الآية يتلخص في أنَّ حربًا شبت بين فارس والروم ؛ فانتصرت فارس على الروم في بداية هذه الحرب ، وبعد « بضع سنين » انتصرت الروم على فارس .

ويجب أن نأخذ في الاعتبار الدلالات المهمة الآتية التي أغفلها المفسرون :

⇦ استخدمت الآية الفعل « غُلِبَ » الذي لم يُسَمَّ فاعله (المبني للمجهول) ، فبدلًا من أن تقول الآية : « غَلَبَتْ الفرس الرومَ » ، قالت : « غُلِبتْ الرومُ » ، وذلك لسبب مثير ، سنكشف عنه لاحقًا .

⇦ أنَّ حرف السين في قوله ـ تعالى ـ « سيغلبون » يُفيدُ حتمية وجود الفعل الذي يدخل عليه وتحقيقه وتوكيده [(٢)] . فَالقُرْآن ـ باستخدام هذه الأداة ـ « **يجزم** » بغلبة الروم على الفرس في بضع سنين .

⇦ توجد قراءة قرآنية لقوله تعالى « غُلِبَتْ .... سَيَغْلِبُون » هو : « غَلَبَتْ ... سَيُغْلَبُون » [(٣)] ، قرأ بها عددٌ كبيرٌ من القُرَّاء . وبهذه القراءة يكون للآية وجه إعجازي آخر .

---

(١) صفوة التفاسير ، ٢/ ٤٧١

(٢) د. إيهاب عبد الحميد : إعانة الأنام على فهم بلاغة القُرْآن ، مكتبة زهران ، القاهرة ، ط١ ، (٢٠٢٣م) ، ص ٣٠١

(٣) يُنْظَرُ : أحمد مختار عمر : مُعْجَم القراءات القرآنية، الكويت ، ط٢ ، (١٩٨٨م) ، ٥/ ٦٣

⇦ اختار القُرْآن لفظة « غلب » من بين ألفاظ مجال دلالي يضم عددًا من الألفاظ الدالة على « الانتصار » ، منها : « انتصر ، ظفر ، فاز ، قهر » ، فَلِمَ اختارت الآيةُ هذا اللفظ ؟ إذا عدنا إلى معجم « الفروق الدلالية » ـ لأبي هلال العسكري ـ للوقوف على بعض الخصائص الدلالية لـ « الغلبة » ، سنجد أَنَّها تتميز بـ « أَنَّ الغلبة من فعل الغالب ، **والغَلَبَةُ تكون بفضل العِلْم والقدرة ، والفــطنة والذكاء** » [(١)] ؛ أي أَنَّ الغالب ـ عند غلبه ـ يتمتع بالعلم والقدرة والفطنة والذكاء ، وهذه الملامح الدلالية لا توجد في باقي الألفاظ . وسنرى لاحقًا جانب الإِعْجَاز في ذلك .

⇦ لماذا استخدمت الآية « بِضع سنين » ، ولم يكن يُعْجِز الله سبحانه أن يحدِّد تاريخًا معيَّنًا ، فلماذا تركت الآية التحديد ؟ لهذا أَيْضًا سِرٌّ إعجازيٌّ آخر ، سنقف عليه لاحقًا .

وتحديد تاريخ المعارك التي وقعت بين الفرس والروم أمر جِد مهم لبيان الإِعْجَاز في الآيات التي بين أيدينا ، فلنحاول استنتاج هذه التواريخ من خلال المعطيات الآتية :

م	الحدث	تاريخه
١ـ	مولد النَّبِيّ ﷺ	٥٧١م
٢ـ	تاريخ بدء التكليف بالبعثة النبوية	٥٧١ + ٤٠ [(٢)] = ٦١١م
٣ـ	الفترة المكية امتدت ١٣ سنة	من ٦١١م إلى ١٣/ ٩/ ٦٢٢م [(٣)]
٤ـ	الفترة المدنية	من ٦٢٢م إلى ٦٣٣م
٥ـ	صلح الحديبية	٦هـ = ٦٢٨م [(١)]

(١) يُنْظَرُ : مُعْجَم الفروق اللغوية ، مؤسسة النشر الإسلامي ، ط٦ ، (١٤٣٣هـ) ، ص ٣٨٩ ـ الفرق رقْم ١٥٦٤

(٢) بُعِثَ النَّبِيّ ﷺ وسنه أربعين سنة ، بدليل ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس قَالَ: « بُعِثَ رَسُولُ الله ﷺ أو أنزل عليه القُرْآن – وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة، وبالمدينة عشر سنين، قال: فمات رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو ابن ثلاث وستين » .

(٣) يُنْظَرُ : صفي الرحمن المباركفوري : الرحيق المختوم ، القاهرة ، ط١ ، (١٩٩١م) ، ص ١٧٥

٦ـ	غزوة تبوك	٩هـ = ٦٣١م
٧ـ	وفاة النَّبِيّ ﷺ	٦٣٣م(٢)

من خلال هذه المعطيات نقول :

- الانتصار الأول للفرس على الروم وقع في الفترة المكية ؛ **لأن سورة الروم مكية ؛ أي ما بين ٦١١م إلى ٦٢٢م** .
- انتصار الروم على الفرس قبل ٦٢٨م .
- إذن الفترة التي وقع فيها الانتصار الأول والثاني تمتد تقريبًا ١٧ عامًا من ٦١١م إلى ٦٢٨م ، واحتمال أن يكون الانتصار الثاني في ٦٢٤م أو ٦٢٥ أو ٦٢٦ أو ٦٢٧م .

والسؤال الآن : هل تثبت المراجع التاريخية ذلك ؟ أي : هل تثبت المراجع أَنَّ الفرس انتصروا على الروم أَوْلًا ، ثم انتصرت الروم على الفرس ثانيًا في غضون ٩ سنوات في الفترة ما بين ٦١١م إلى ٦٢٨م ، كما جزم القُرْآن ؟

فلنراجع المصادر التاريخية في ذلك ، وحتى نبتعد عن شبهة التحيز ؛ فلن نعتمد على المصادر الإسلامية ، وسيكون الاعتماد على مصدر غير عربي ، موثوق فيه ويقبله الجميع ، هذا المصدر هو : **كتاب قِصَّة الحَضَارَةِ ؛ لول ديورنت** .

في المجلد السادس(٣) ، الجزء الثاني عشر نجد حديثًا عن الفترة التي نحن بصددها . وقبل أن أنقل كلام ول ديورنت عن هذه الفترة أمهِّد لها بالتمهيد المختصر الآتي :

كان من الذين تولوا حكم بلاد الفرس خسروا الأول **Khosru I** (٥٣١م ـ

---

(١) تحديد وقت صلح الحديبية مهم ؛ لأنه الوقت الذي وصل فيه خبر انتصار الروم على الفرس يُنْظَرُ : تفسير الإمام الطبري ، ٨/ ٦٥٠٣

(٢) يُنْظَرُ : خير الدِّيْن الزركلي : الأعلام ، ٦/ ٢١٨

(٣) طبعة مكتبة الأسرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠١م ، عنوان المجلد : ج ١١: قيصر والمسيح ، ج١٢ : عصر الإيمان ، تَرْجَمَة : مُحَمَّد بدران . ويمكن مراجعة النسخة الإنجليزية للكتاب : **The Story of Civilization, IV, The Age of Faith, Will Durant, Simon And Schuster, New York, 1950, p. 142**

٥٧٩م) ، وكان يُلَقَّبُ عند العرب باسم **Kisra** ، ومن أعماله أَنَّهُ نظم حكومة بلاده واستبدل بجنود الإقطاع غير المدربين جيشًا نظامِيًّا دائمًا ، حسن النظام ، كامل العدة وأنشأ نظامًا عادلًا للضرائب ...

وبعد وقائع وأحداث متعددة مع الروم وافته المنية عام ٥٧٩م ، بعد حكم ٤٨ عامًا ، جعل بلاد الفرس أقوى منها في أي عهد آخر .

و بعد خسرو الأول تولى ابنه هرمز الرابع (٥٧٩م ـ ٥٨٩م) **Hormizd IV** ، ولكن قائده بهرام **Bahram Cobin** خلعه ، وأعلن نفسه وصِيًّا على ابن هرمز خسرو الثاني (٥٨٩م) **Khosru II** .

وبعد أحداث كثيرة ومثيرة تولى خسرو الثاني **Khosru Parvez** (كسرى الثاني أو كسرى أبرويز) عرش فارس ، وفي عهده تجدد النزاع بين فارس والروم .

بعد هذا التَّمهِيد أترك القلم للمؤرخ الثقة ول ديورنت يحدِّثنا عن الأحداث التاريخية التي تلت ذلك ، وأرجو أن يُعِيرَ القارئ انتباهه لكلام ديورنت ، وألا يهمل التفاصيل فيه ؛ لأننا سنحتاج إليها بعد ذلك . يقول ول ديورنت :

« ... الواقع أَنَّ الحرب لم تكن إلا تجديدًا للنزاع القديم . وكانت الدولة البيزنطية مزقها الشقاق والتحزب ، فلم تجد جيوش الفرس صعوبة في الاستيلاء على دارا ، وأميدا ، والرها ، وهيرابوليس ، وحلب ، وأباميا ، ودمشق (٦٠٥م ـ ٦١٣م) .

وزاد هذا النصر من حماسة أبرويز ؛ فأعلن الحرب الدينية على المسيحيين ، **وانضم ٢٦.٠٠٠ من اليهود إلى جيشه** ، ونهبت جيوشه المتحدة في عام ٦١٤م **أورشليم** ، وقتلت ٩٠.٠٠٠ من المسيحيين ، وأحرقت كثيرًا من كنائسها ، ومن بينها كنيسة الضريح المقدس ، وأخذ الصليب الحق ، وهو أعز أثر على المسيحيين ، إلى بلاد الفرس . وأرسل أبرويز إلى هرقل **Heraclius** الإمبراطور الجديد رِسالَة دينية ، قال فيها : من كسرى ، أعظم الآلهة ، وسيد الأرض كلها ، إلى هرقل ، عبده الغبي الذليل ، إنك تقول إنك تعتمد على إلهك ، فلم إذن لم ينقذ أورشليم من يدي ؟

واستولى جيش فارس على الإسكندرية في عام ٦١٦م ، ولم يحل عام ٦١٩م ، حتى دخلت مصر كلها في حوزة ملك الملوك ، وهو ما لم يحدث لها منذ أيام دارا

الثاني . وفي هذه الأثناء كان جيش فارسي آخر يجتاح آسية الصغرى ، ويستولي على خلقيدون ٦١٧م ؛ ولبثت تلك المدينة في أيدي الفرس عشر سنين ، وهي التي لم يكن يفصلها عن القسطنطينية إلا مضيق البسفور . وكان أبرويز في هذه السنين العشر يدمر الكنائس ، وينقل ما فيها من الآثار الفنية ، والكنوز إلى بلاد الفرس ، ويفرض على آسية الغربية من الضرائب الفادحة ما نضب منه معينها ، وما أعجزها عن مقاومة غزو العرب الذي لم يكن بينها وبينه وقتئذ إلا نحو جيل من الزمان .

وترك كسرى تصريف الحرب لقواده ، وعاد لينقلب في اللهو والترف في قصره بدستجرد ... وقضى وقته بين الفن والحب . وجمع المهندسين ، والمثالين ، والمصورين ؛ ليجعل عاصمته الجديدة أعظم شأنًا من عاصمته القديمة ؛ لينحت صورًا مشابهة لشيرين ، أجمل زوجاته الثلاثة آلاف ، وأحبهن إلى قلبه .

وشكا الفرس قائلين إنها امرأة مسيحية ، وادعى بعضهم أَنَّهَا قد أدخلت الملك في دينها ، وسواء كان هذا أو لم يكن ، فقد سمح لها ـ والحرب دائرة رحاها ـ أن تُنشئ كثيرًا من الكنائس والأديرة ، ولكن بلاد الفرس التي عمها الرخاء ؛ لكثرة ما أفاء عليها من الأسلاب والأرقاء ، كان في وسعها أن تغفر لمليكها لهوه ، وترفه وفنه وتسامحه الديني ، وترحب بفتوحه ، وترى فيها النصر النهائي على بلاد اليونان والرومان ، ولأهورا مزدا على المسيح ، لقد جوزي الإسكندر أخيرًا على فعلته ، وانتقم الفرس من اليونان لهزائمهم في مرثون ، وسلاميس ، وبلانية ، وأربيلا .

ولم يكن باقِيًّا للإمبراطورية البيزنطية عدد قليل من الثغور الأسيوية ، وقليل من أرض إيطاليا ، وأفريقية ، وبلاد اليونان ، وأسطول لم يهزم بعد ، وعاصمة محاصرة جن جنونها من الرعب واليأس . ولبث هرقل عشر سنين يُنشئ جيشًا جديدًا ، ودولة جديدة من أنقاض الجيش القديم والدولة القديمة . فلما تم له ذلك لم يحاول عبور البسفور إلى خلقيدون ، بل تجنب ذلك العمل الكثير النفقة والمشقة ، وأبحر بأسطولة إلى البحر الأسود ، ثم اخترق أرمينية ، وهاجم بلاد الفرس من خلفها ، ودمر كلورمية **Clorumia** مسقط رأس زرادشت كما ضرب كسرى من قبل مدينة أورشليم ، وأطفأ نارها المقدسة الخالدة ٦٢٤م . وسير إليه كسرى الجيوش

يتلو بعضها بعضًا ، ولكن هرقل هزمها جميعًا ، ولما تقدَّم اليونان فرَّ كسرى إلى طيسفون . وآلم قواده ما كان يوجهه إليهم من إهانات ؛ فانضموا إلى النبلاء ؛ وخلعوه ، ثم سجنوه ، ولم يطعموه إلا الخبز القفار والماء ، وذبحوا ثمانية عشر من أبنائه أمام عينيه ، وانتهى أمره بأن قتله ابنُ آخر أبنائه ؛ يُدعى شيروى ٦٢٨م »[١] .

من هذا النَّصّ المهم لول ديورنت نخرج بالحقائق التاريخية الآتية :

١) فى الانتصار الأول لم يكن الفرس وحدهم هم الذين انتصروا على الروم ، بل اشترك مع الفرسِ اليهودُ ، حيث اشتركوا بـ « ٢٦.٠٠٠ محاربًا » ، وكونوا جيشًا « **متحدًا** » ؛ لذلك قال القُرْآن « **غُلِبَتْ الروم** » ، حيث بنى الفعل الماضي للمجهول ، ليشمل الفاعلُ ـ غير المذكور ـ **الفرسَ واليهودَ** ، وهذا جانب إعجازي تاريخي في الآية القرآنية .

٢) وقع انتصار الفرس على الروم عام ٦١٤م في أورشليم ، وقتلت ٩٠.٠٠٠ من المسيحيين ، وانتصر هرقل على الفرس عام ٦٢٤م ، عندما دمر مدينة كلورومية مسقط رأس زرادشت وأطفأ نارها المقدسة ، والفترة الزمنية بين الانتصار الأول والثاني لا تتعدى العشر سنوات ، **كما أخبر القُرْآن الكريم** .

الانتصار الأول وقع في الفترة المكية ، بعد بدء التكليف النبوي للنبي ﷺ بأربع سنوات تقريبًا ، ووقع الانتصار الثاني والنبي في المدينة ، بعد عودته من صلح الحديبية . وللمرء أن يتخيل : ما الذي كان سيحدث إذا لم يَصْدُقْ القُرْآن في غلبة الروم على الفرس في بضع سنين ، إن أبسط النتائج هي : إطلاق الكفار والمشركين ألسنتهم في أمر الدعوة والوحي والنبي ﷺ ، ورمي كل ذلك بالكذب ، ولا يخفى ما لكل هذه العواقب من آثار سلبية على المسلمين أنفسهم ، فلو لم يكن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ هو مصرف الكون وأسبابه، ويعلم الغيب ، وبيده ملكوت كل شَيْء ما حدث هذا الانتصار .

٣) ومن خلال نص ديورنت نجد أن هرقل مكث عشر سنين يُنشئُ جيشًا جديدًا ، وبعد أن أتمَّ إعداد جيشه ، كان من الذكاء والفطنة أَنَّهُ ـ كما قال ديورنت ـ « لم يحاول عبور البسفور إلى خلقيدون ، بل تجنب ذلك العمل الكثير النفقة والمشقة،

(١)السابق ، ١٢/ ٢٩٥ـ٢٩٦ ، ويُنظَر النسخة الإنجليزية ، (**Vol.IV , p. 147: 148**) .

وأبحر بأسطوله إلى البحر الأسود ، ثم اخترق أرمينية ، وهاجم بلاد فارس من خلفها » ، ومن أوجه الإِعْجَاز في الآية استخدام لفظ « غلب » ، الذي يدل على أَنَّ الغلبة من فعل الغالب ، **والغلبة تكون بفضل العِلْم والقدرة ، والفطنة والذكاء** ، وهذا ما نجده من فعل هرقل ، فلم يكن انتصاره عن فعل قوة خارجية ـ عوامل طبيعية مثلًا ، أو موت قائد الفرس أو ثورات اجتماعية أو انقلاب عسكري ... ـ بل كان الانتصار بفضل عزيمته وجلده ، وذكائه وفطنته وحسن تدبيره وبراعة قيادته .

٤) وذكر ديورنت أن هزيمة الروم كانت في « **أورشليم** » ـ بيت المقدس ـ ، ويقول العِلْم الحديث إنَّ أورشليم وما حولها تقع جُغرافِيًّا في أكثر بقاع الأرض انخفاضًا ، وقد وصف القُرْآنُ هذا الانخفاض بـ « أدنى الأرض » ، وهذا من أوجه الإِعْجاز العِلْمِيّ في القُرْآن الكريم (١) .

٥) استخدمت الآية لفظ « بضع سنين » ، وفي هذا الاستخدام جانب إعجازي آخر وهو أَنَّ السجال بين هرقل وخسرو الثاني لم ينته في يوم محدد من عام ٦٢٤م ، بل تعددت الوقائع والمعارك على مدار العام كله أو قبله بقليل ؛ لذلك لم يحدد القُرْآن تاريخًا محددًا حاسمًا ؛ ليشمل هذه المعارك في أوقاتها المختلفة ، بعد فتح هرقل مدينة كلورومية ، بل استمرت الحرب بينهما بعد هذا التَّاريخ ؛ إذ سَيَّرَ كسرى الجيوش يتلو بعضها بعضًا ؛ ولكن هرقل هزمها جميعًا ؛ لذلك لم يحدد القُرْآن عامًا محددًا لامتداد الفترة الزمنية .

٦) توجد قراءة قرآنية لقوله تعالى « غُلِبَتْ .... سَيَغْلِبُون » هو : « غَلَبَتْ ... سَيُغْلَبُون » ، قرأ بها عددٌ كبيرٌ من القُرَّاء ، كما أشرنا من قبل ، والمعنى كما قال

---

(١) يُنْظَرُ : الإشارات الكونية في القُرْآن الكريم ومغزى دلالتها العِلْمِيَّة ، مقال د. زغلول النجار، جَرِيدَة الأهرام ، القاهرة ، الأثنين ٢٨ يناير ٢٠٠٢م ، مقال رقم ٣٢ ص ١٢ ، ومن الإشارات الضمنية الإعجازية في هذه الآية أَنَّ أدنى الأرض يقتضي ويستلزم عقلًا وجود مستوى ثابت قياسي يكون كالمعيار الذي نقيس به أدنى الأرض وأعلى الأرض ، وهذا المقياس يجب أن يشمل الأرض كلها ، هذا المقياس الثابت هو : **مستوى سطح البحر**.

الإمام الطَّبَرِيّ : « وهم من بعد غلبتهم فارس سيغلبهم المسلمون ؛ حتى يَصِحَّ معنى الكلام » [(١)] .

والسؤال : هل كانت هناك مواجهة أصلًا بين الروم والمسلمين بعد عام ٦٢٤م ؟ وهل انتصر المسلمون على الروم في هذا اللقاء ؟

الإجابة : نعم ، كان هناك لقاء ومواجهة بين الروم وأتباعهم وبين المسلمين ، وهذا اللقاء يُعرَف عند المؤرخين وكتاب السير باسم « غزوة تبوك » ، عام ٩هـ ، ٦٣١م قال صفي الرحمن المباركفوري : « كانت الأنباء تترامى إلى المدينة بإعداد الرُّومَان للقيام بغزوة حاسمة ضد المسلمين ؛ حتى كان الخوف يتسورهم كل حين ... كانت هذه هي الأحوال والأخبار التي يواجهها ويتلقاها المسلمون ؛ إذ بلغهم من الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة أنَّ هرقل قد هيَّأ جيشًا عرمرمًا قوامه أربعون ألف مقاتل ، وأعطى قيادته لعظيم من عظماء الروم ، وأَنَّهُ أجلب معهم قبائل لخم وجذام وغيرهما من متنصرة العرب . وأن مقدمتهم بلغت إلى البلقاء » [(٢)] .

كيف كان اللقاء بين المسلمين والروم ؟

عندما وصل المسلمون إلى تبوك « لم يجدوا هناك كيدًا ولا قتالًا ، فقد اختفى وتفرق أولئك الذين كانوا تجمعوا للقتال » [(٣)] .

هل انسحب الروم من هذا اللقاء ؟

الراجح أَنَّ الأمر كذلك ؛ أي أَنَّ الروم قد انسحبوا من أمام المسلمين ، والدليل :

أ- أن عيون الروم ـ من العرب أنفسهم ـ في كل مكان تنقل لهم الأخبار ، فإذا كان الروم علموا بتخلف كعب بن مالك عن الغزوة ، وعلموا بما فعله النَّبِيّ ﷺ معه وأصحابه ، فأرسلوا إليه عن طريق ملك غسان يطلبون إليه أن يلحق بهم ، أقول: إذا وصلوا إلى هذا الحد في معرفة الأخبار ، فمن باب

---

(١) جامع البيان ، ٨/ ٦٥٠٥

(٢) الرحيق المختوم ، دار البشير ، القاهرة ، ط١ ، (١٩٩١م) ، ص٤٥٩

(٣) مُحَمَّد سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة، دار الفكر، القاهرة ،(بدون تاريخ للطبعة) ، ص ٢٩٧

أولى أن يعلموا بقدوم النَّبِيّ ﷺ إليهم .

ب- أن الله قذف الرعب في قلب هرقل ؛ لأنه يعرف أن محمدًا ﷺ نبي من عند الله ، بدليل الحوار الذي دار بينه وبين أبي سفيان ، والذي رواه الإمام البخاري في صحيحه ، وعلم أَنَّهُ لا قبل له به ؛ فآثر الانسحاب .

ت- القراءة التي بين أيدينا نفسها ، التي تشير إلى هذا الانتصار .

ث- أننا لم نجد أية اعتداءات رومانية على العرب بعد هذا التَّاريخ .

إذن فهذا انتصار ، انتصار للمسلمين على الروم ، وبهذا يتحقق وجه آخر من أوجه إعجاز القُرْآن .

ولننتقل إلى إعجاز تاريخي في آية أخرى .

- **الآية الثانية** : ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ آل عمران: ١٢

في هذه الآية إخبار بهزيمة المخاطبين بها ، وقد وقع الأمر كما أخبر القُرْآن ، فمن المخاطبون ؟ وماذا وقع لهم ؟

قال الإمام الطَّبَرِيّ : « قل يا مُحَمَّد للذين كفروا من يهود بني إسرائيل الذين يتبعون ما تشابه من آي الكتاب الذي أنزلته إليك ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، ستغلبون ، وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد »[(١)] . فالمخاطبون في الآية هم اليهود ، وينقل الإمام ابن جرير من الأخبار والآثار ما يدل على صحة هذا التفسير ، منها : عن ابن عباس قال: لَمَّا أَصَابَ رَسُول الله ﷺ قريشًا يوم بدْر فقدم المدينة، جمع يهودَ في سوق بني قَيْنُقاع. فقال: يا معشر يهود ، أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشًا (يوم بدر) ! فقالوا: يَا مُحَمَّد ، لَا يَغُرَّنَّكَ مِنْ نَفْسِكَ أَنَّكَ قَتَلْتَ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ كَانُوا أَغْمَارًا، لَا يَعْرِفُونَ الْقِتَالَ، إِنَّكَ لَوْ قَاتَلْتَنَا لَعَرَفْتَ أَنَّا نَحْنُ النَّاسُ ، وأنك لم تأت مثلنا!! فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ في ذلك من قولهم:﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ آل عمران: ١٢ ، ويؤكد القُرْآن هذا المعنى في قوله

(١) جامع البيان ، ٣/ ١٧٠٠

تعالى : ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ آل عمران: ١١١

والسؤال الآن : هل تم الأمر كما أخبر القُرْآن ؟

نعم ، تم الأمر كما أخبر القُرْآن ، يقول الإمام الزمخشري في تعقيبه على الآية رقم ١١١ من سورة آل عمران : « ... فإن قلت : هلا جُزِمَ المعطوف في قوله : (ثم لا يُنصرون) ؟ قلتُ : لو جزم لكان نفي النصر مقيدًا بمقاتلتهم ، كتولية الأدبار ، وحين رُفِعَ كان نفي النصر وعدًا مطلقًا ، كأنه قال : ثم شأنهم وقصتهم التي أخبركم عنها ، وأبشركم بها بعد التولية أَنَّهُمْ مخذولون ، منتفٍ عنهم النصر والقوة ، لا ينهضون بعدها بجناح ، ولا يستقيم لهم أمر ، **وكان كما أخبر من حال بني قريظة والنضير ، وبني قينقاع ، ويهود خيبر** »[(١)] .

لقد جزم القُرْآن بعدم النصر ، وكان كما أخبر ربنا سبحانه وتعالى .

- **الآية الثالثة** :قوله تعالى﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾ يوسف: ٤٣

من مواطن الإِعْجَاز في هذه الآية استخدامها للفظة « المَلِك » للدلالة على حاكم مصر في وقت نبي الله يوسف عليه السلام .

مع العِلْم أَنَّ الكتاب المقدس عند النصارى تحدث عن قصة يوسف ـ عليه السلام ـ واستخدم لفظ « فرعون » في أطواء حديثه في أكثر من موضع ، منها مثلًا :

- « ... فحدث في اليوم الثالث ـ يوم ميلاد فرعون ـ أَنَّهُ صنع وليمة لجميع عبده... » . سِفْر التكوين : الإصحاح ٤٠، عدد ٢٠(نسخة فانديك) .
- « وحدث من بعد سنتين من الزمان أنَّ فرعون رأى حلمًا ... » . سِفْر التكوين : الإصحاح ٤١، عدد ١(نسخة فانديك) .
- « ... فقال فرعون ليوسف : إني كنتُ في حلمي واقفًا على شاطئ النهر... » سِفْر التكوين : الإصحاح ٤١، عدد ١٧(نسخة فانديك) .

(١) الكَشَّاف ، ١/ ٣٥٣

وفي نسخة الملك جيمس باللغة الإنجليزية يستخدم اللفظ المترجم « **Pharaoh** » ! (ينظر : **Genesis,ch.40. verse20 ....**) .

والقرآن الكريم في سياق قصة نبي الله يوسف ـ عليه السلام ـ لم يستخدم هذا اللقب ، بل استخدم لقب الملك فقط :

- ✓ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ﴾ يوسف: ٥٠
- ✓ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ﴾ يوسف: ٥٤
- ✓ ﴿قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ يوسف: ٧٢
- ✓ ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ يوسف: ٧٦

فهل استخدام هذا اللفظ هو الصواب أم استخدام لفظ « فرعون » الذي استخدمه « الكتاب المقدس » عند النصارى ؟

نقول : إن القُرْآن الكريم كان دقيقًا جدًا في استخدامه للقب « الملك » ، وعدم استخدام لقب « فرعون » ، على الرغم من استخدامه لهذا اللقب في مواطن أخرى . ولبيان ذلك نقول : ولد نبي الله يوسف عليه السلام عام ١٧٠٠ ق . م ، وتوفي ١٦٣٥ ق .م(١) . وفيما يتعلق بلقب « فرعون » تشير المصادر إلى أنَّ :

* « فرعون لم يُستعمل هذا اللقب ـ الذي يوحي إلينا بشخصية ذات عظمة ومجد من غابر الأزمنة ـ إلا في الألف سنة الأولى ق.م ، كلقب للملك »(٢) .
* « فرعون : ... كانت نعتًا للقصر الملكي منذ أيام الدولة القديمة ، ثم أصبحت علمًا على ملوك مصر منذ الألف الأولى ق .م »(٣) .
* ويؤكد معجم « **The British Museum Dictionary of Ancient Egypt** » تأليف **Ian Shaw and Paul Nicholson** ، ص **٢٢٢** هذه

---

(١) سامي بن عبد الله المغلوث : أطلس تاريخ الأنبياء ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، ط٦ ، (٢٠٠٥م) ، ص ٣٠٨

(٢) جورج بوزنر : مُعْجَم الحضارة المصرية القديمة ، تَرْجَمَة : أمين سلامة ، مكتبة الأسرة ـ الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ، ط١ ، (٢٠٠١م) ، ص ٢٥٤

(٣) المَوْسُوعَة العَرَبِيَّة الميسرة ، دار الشعب ، القاهرة ، (بدون تاريخ) ، ص١٢٩٠

الحقيقة ؛ إذ يقول : « هذه الكلمة (فرعون) هي الشكل اليوناني للعبارة المصرية القديمة بر ـ آ (المنزل العظيم) التي كانت في الأساس تستعمل للإشارة إلى القصر الملكي لا الملك . والمنزل العظيم كان مسئولًا عن فرض الضرائب على المنازل الأقل مثل أراضي المعابد و الممتلكات الخاصة . ومع بداية الدولة الجديدة (١٥٥٠ ـ ١٠٦٩ ق .م) فصاعدًا أصبح المصطلح يُشير إلى الملك نفسه . **… from the New Kingdom (1550- 1069 BC) on wards, the term was often used to refer to the king himself.** » .

من خلال هذه الاقتباسات نلاحظ أن هذا اللقب لم يستخدم إلا قبل ١٠٠٠ إلى ١٥٥٠ سنة قبل الميلاد على أقصى تقدير ، وقبل هذا التَّاريخ لم يكن هذا اللقب مستخدمًا !! **لذلك لم يستخدمه القُرْآن ، واستخدم لقب الملك .**

ونجد القُرْآن في سياق سرده لقصة نبي الله موسى ـ عليه السلام ـ يستخدم **لقب فرعون ولا يستخدم لقب ملك** ، مثال ذلك :

- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ غافر: ٢٦
- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ الإسراء: ١٠١ - ١٠٢

والفترة التاريخية التي ظهر فيها نبي الله موسى ـ عليه السلام ـ هي ١٥٢٧ ق .م إلى ١٤٠٧ ق .م ، وبعثته التقريبية ١٤٥٠ ق.م(١) ، أي الفترة التي كان هذا اللقب مستخدمًا فيها .

فهل كان نبينا المصطفى ﷺ الأميُّ ، الذي كان لا يقرأ ولا يكتب ، عالمًا بهذه التفاصيل التاريخية الدقيقة ؟

الإجابة : **قطعًا لا** ، إذن : لا يبقى إلا أن يكون هذا كلام الله عَزَّ وَجَلَّ . يقول الإمام الزمخشري عقب قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ يوسف: ١٠٢ : « وهذا تهكم بقريشٍ وبمن كذبه ؛ لأنه لم يخفَ على أحدٍ من المكذبين أَنَّهُ لم يكن من

(١) أطلس تاريخ الأنبياء ، ص ٥٣

حَمَلة هذا الحديث وأشباهه ، ولا لقي أحدًا ، ولا سمع منه ، ولم يكن من علم قومه ؛ فإذا أَخبَرَ به ، وقَصَّ هذا القَصص العجيب الذي أعجز حملته ورواته ؛ لم تقع شبهة في أَنَّهُ ليس منه ، وأَنَّهُ من جهة الوحي ؛ فإذا أنكروه تهكم بهم ، وقيل لهم : قد علمتم يا مكابرةُ ، أَنَّهُ لم يكن مشاهدًا لمن مضى من القرون الخالية »[١] .

- **الآية الرابعة** :قوله تعالى﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ الأنبياء: ١٠٥

قال الصابوني في تفسير هذه الآية : « ... ؛ أي سجلنا وسطرنا في الزبور المنزل على داود « من بعد الذكر » ؛ أي : من بعد ما سطرنا في اللوح المحفوظ أزلا ، « أَنَّ الأرض يرثها عبادي الصالحون » ؛ أي أَنَّ الجنة يرثها المؤمنون الصالحون »[٢] .

والزبور المقصود بها « مزامير داود » عند اليهود والمسيحيين ، تقول المصادر العِلْمِيَّة :« زبور : كتاب الله المنزل على داود ، عُرفت الكلمة في الشعر الجاهلي ، ورد ذكره في القُرْآن غير مرة ، يطلق عليه المفسرون أَيْضًا اسم : مزامير داود ، المعروفة لدى اليهود والمسيحيين . عُرفت له تَرْجَمَة عربية في تاريخ مبكر ـ القرن ٦ ـ »[٣] .

أين موضع الإِعْجَاز ؟

موضع الإِعْجَاز التَّارِيخِيّ في الآية أن هذا النَّصّ « الأرض يرثها عبادي الصالحون » موجود في النسخة التي بين أيدينا من الكتاب المقدس ، جاء في مزامير داود : المزمور ٣٧ ، العدد ٢٨، ٢٩ (نسخة فانديك) : « ... **أما نسل الأشرار فينقطع ، الصديقون يرثون الأرض ، ويسكنونها إلى الأبد** » .

فهل قرأ النَّبِيّ الأمي ﷺ زبور داود ، واقتبس منه هذا الكلام ؟! أم هذا إخبار العليم العلام ؟!

---

(١) الكَشَّاف ، ٤٩٩ـ ٥٠٠

(٢) صفوة التفاسير ، ٢/ ٢٧٦

(٣) المَوْسُوعَة العَرَبِيَّة الميسرة ، ص ٩١٩

أشهد أن هذا كلام الله عَزَّ وَجَلَّ [(١)] .

والواقع فإنَّ الآيات التي تشير إلى الإِعجاز التَّارِيخِيّ في القُرْآن عديدة ، يضيق المقام عن الوقوف عندها جميعها ، ولذلك سنحاول إيجاز بعضها في الجدول الآتي :

م	الآية	وجه الإِعْجَاز التَّارِيخِيّ فيها
(١)	﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ الفتح: ١	هو فتح مكة ، وقد نزلت مرجع رَسُول الله ﷺ عن مكة عام الحديبية ، عِدَةً له بالفتح .
(٢)	﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ الفتح: ٢٨	ـ في هذه الآية تأكيد لما وُعِدَ من الفتح ، وتوطين لنفوس المؤمنين على أَنَّ الله ـ تعالى ـ سيفتح لهم من البلاد ، ويقيض لهم من الغلبة على الأقاليم ما يستقلون إليه فتح مكة . ـ ومعنى الآية : ليعليه على الدِّيْن كله ، على جميع الأديان المخالفة ، ولعمري لقد فعل ، فما بَقِيَ دِيْن من الأديان إلا وهو مغلوبٌ مقهور بدين الإسلام.
(٣)	﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ القمر: ٤٥	هزيمة المشركين يوم بدر ، وكان نزول هذه الآية قبل غزوة بدر .
(٤)	﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ الضحى: ٥	موعدٌ شاملٌ لما أعطاه في الدُّنْيا من الفَلَج والظَّفَر بأعدائه يوم بدر ، ويوم فتح مكة ، ودخول الناس في الدِّيْن أفواجًا ، والغَلَبة على قريظة والنضير وإجلائهم وبث عساكره وسراياه في بلاد العرب ، وما فتح على خلفائه الراشدين في أقطار الأرض من المدائن ، وهدم بأيديهم من ممالك الجبابرة ، وأنهبهم من كنوز الأكاسرة ، وما قذف في قلوب أهل الشرق والغرب من الرعب ، وتهيب الإِسْلام ، وفشو الدعوة ..

(١) ولولا ضيق المقام لتحدثنا عن الإعجاز التاريخي في السنة ، فالسنة ملأى بهذا اللون من الإعجاز ، ويكفي أن نذكر :

⇦ إشارة النبي ﷺ وقت غزوة الخندق إلى فتح بلاد فارس، واغتنام المسلمين لمغانم كثيرة.

⇦ فتح رومية .

(٥)	﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾ الإسراء: ١٦	ويؤيد ذلك حوادث التَّاريخ ، على سبيل : • هلاك مدينة بومباي ، ينظر : قِصَّة الحَضَارَةِ المجلد ٦ ، ١١/ ١٦ـ١٧ • انهيار الحضارة الرُّومَانيَّة ، ينظر : قِصَّة الحَضَارَةِ المجلد ٦ ، ١١/ ٤٠٨
(٦)	﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞ﴾ الصف: ١٣	؛ أي : عاجل ، وهو فتح مكة ، وقال الحسن : فتح فارس والروم . [الكَشَّاف ، ٤/ ٣٩١]
(٧)	﴿ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ المائدة: ٦٤	كلما أرادوا محاربة أحدٍ غُلبوا وقهروا ، ولم يقم نصر من الله على أحد قط (الكلام عن اليهود) [الكَشَّاف ، ٢/ ٤٦]
(٨)	﴿ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ البقرة: ٨٥	الخزي : قتل بني قريظة وأسرهم وإجلاء بني النضير. [الكَشَّاف ، ١/ ١٤٩]
(٩)	﴿ أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾ الصافات: ١٢٥	قال ول ديورنت م٦ ، ١١/ ٢٩٦ : وظل السوريون يعبدون بعل ، وإن أسموه بأسماء يونانية .
(١٠)	﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٤ وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا﴾ البقرة: ٩٤ – ٩٥	هذه الآية من المعجزات ؛ لأنه إخبار بالغيب ، وكان كما أخبر ، فإن قلت : ما أدراك أَنَّهُمْ لم يتمنوا ؟ قلت : لأنهم لو تمنوا لنقل ذلك ، كما نُقل سائر الحوادث ، ولكان ناقلوه من أهل الكتاب وغيرهم من أولي المطاعن في الإسلام أكثر من الذر [الكشاف ، ١/ ١٥٤]
(١١)	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ التوبة: ٣	يراجع ما كتبناه عن المسيحية تحت عنوان المَسِيْحِيَّة والثراء الفاحش. في الفصل السادس.
(١٢)	﴿ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَا﴾ الفتح: ١٨ – ١٩	وهو فتح خيبر غب انصرافهم من مكة ، ومغانم كثيرة : هي خيبر ... [الكشاف ٤/ ٢٣٣]

(١٣)	﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ١٥ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا﴾ المدثر: ١٥ – ١٦	لم يزدد من تتحدث عنه الآيات ولدًا ولا مالًا ومات كافرًا .
(١٤)	﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ﴾ البقرة: ٧٩	تقول التَّرْجَمَة الرهبانية اليسوعية للكتاب المقدس في مقدمتها ص٢٩ ، ص٣٠ عن ما هو الكتاب المقدس؟: « ... تكفي نظرة نلقيها على الفهرس لنرى أَنَّهُ مكتبة ، بل مجموعة كتب مختلفة جدًا ، وإن رجعنا إلى مداخل هذه الكتب تأكد هذا الانطباع ، **ذلك أَنَّها تمتد على أكثر من عشرة قرون ، وتُنسَب إلى عشرات من المؤلفين المختلفين** ... أسفار الكتب المقد س هي عمل مؤلفين ومحررين » . استخدام الفعل المضارع في الآية دال على إعجاز ، فهم حرفوا وما زالوا !

****

ت- ثالثًا الإعْجَاز البَلاغِيّ :

من ألوان الإِعْجَاز في القُرْآن الإِعْجَاز البَلاغِيّ .

وأنا في هذا المقام لا أستطيع أن أوضح جانب الإِعْجَاز البَلاغِيّ في القُرْآن الكريم ، فالمقام لا يسمح بهذا ويضيق عنه ؛ فتفصيل الكلام في هذا الجانب يحتاج إلى عشرات الأوراق [(١)] ، وحتى لو تمكَّنا من هذا التفصيل في عشرات الأوراق ، فليس في وُسْع أيِّ إنسانٍ أنْ يقف على هذه البَلاغَة ، فالوقوف عليها يحتاج إلى مُؤَهِّلات خاصَّة لغوية وأدبية .

إذن : كيف السبيل إلى بيان هذا الإِعْجَاز البَلاغِيّ ؟

أقول : لنبين هذا الإِعْجَاز من خلال أثره !

ماذا تعني من خلال أثره ؟!

(١) أحيل القارئ الكريم إلى كتابي في هذا الموضوع : إعانة الأنام على فهم بلاغة القُرْآن ، خطوات منهجية للوقوف على بلاغة القُرْآن ، دار زهران ، القاهرة ، ط٢ ، ٢٠٢٣م

أعني بيان أثره على أهل الفصاحة والأدب والبَلاغَة المشهود لهم بذلك ، فلنأخذ شهادتهم على هذه البَلاغَة ، وتلك الفصاحة ، ونحن في ذلك أشبه بمن يعرف وجود « الكهرباء » من خلال أثرها ، فنحن لا نرى الكهرباء ، ولا نشاهد تحركها ، ولكننا على يقين من وجودها من أثرها : إنارة مصباح ، عمل جهاز ...

وحتى نتفادَى شبهة التَّحَيُّز سيكون بيان أثر البَلاغَة القرآني على شخصيات أدبية ذات حس بلاغي لا تدين بالإسلام .

* **شهادة الوليد بن المغيرة** :

أول هذه الشهادات شهادة الوليد بن المغيرة (٩٥ ق هـ - ١ هـ = ٥٣٠ - ٦٢٢ م) .

مَنْ الوليد بن المغيرة صاحب هذه الشهادة ؟

هو أحد الذين عاصروا نزول القُرْآن ، وأحد الذين عادوا النَّبِيّ ﷺ ، وهو أحد فصحاء قريش وبلغائها ، كان « من قضاة العرب في الجاهلية ، ومن زعماء قريش، ومن زنادقتها. يقال له « العدل » ؛ لأنه كان عدل قريش كلها ؛ كانت قريش تكسو البيتَ جميعُها ، والوليد يكسوه وحده. وكان ممن حرم الخمر في الجاهلية، وضرب ابنه هشامًا على شربها. وأدرك الإِسْلام وهو شيخ هَرِم ، فعاداه وقاوم دعوته. قال ابن الأثير: وهو الّذي جمع قريشًا وقال: « إنَّ الناس يأتونكم أيام الحج فيسألونكم عن محمد، فتختلف أقوالكم فيه، فيقول هذا: كاهن، ويقول هذا: شاعر، ويقول هذا: مجنون، وليس يشبه واحدًا مما يقولون، ولكن أصلح ما قيل فيه ساحر ؛ لأنه يفرِّق بين المرء وأخيه والزوج وزوجته! » . وهلك بعد الهجرة بثلاثة أشهر، ودفن بالحجون. وهو والد سيف الله خالد بن الوليد »(١) .

وشهادته لبلاغة القُرْآن نقرؤها في الرواية الآتية . والرواية تقول : « روى إسحاق بن راهويه بسنده عن ابن عَبَّاس : أَنَّ الوليدَ بن المغيرة جاء إلى رَسُول الله ﷺ فقرأ عليه القُرْآن ، فكأنه رقَّ له ، فبلغ ذلك أبا جهل ؛ فأتاه ، فقال : يا عم ، إنَّ

---

(١) خير الدِّيْن الزركلي : الأعلام ، ٨/ ١٢٢

قومك يريدون أن يجمعوا لك مالًا. قال: لمَ؟ قال : ليُعطُوكَهُ ؛ فإنَّك أتيت محمدًا لتعرض ما قبله .

قال : قَدْ علمت قريشٌ أنِّي من أكثرها مالًا .

قال: فقل فيه قولًا يبلغ قومك أنك منكرٌ له .

قال : وماذا أقول؟ فوالله ، ما منكم رجل أعرف بالأشعار مني ، ولا أعلم برَجَزِهِ ، ولا بقَصِيدِهِ مني ، ولا بأشعار الجن ، والله ، ما يشبه الذي يقول شَيْئًا من هذا ، ووالله ، إنَّ لقوله الذي يقوله حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يُعْلَى ، وإنه ليحطم ما تحته.

قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه . قال: فدعني حتى أفكر فيه . فلمَّا فكر قال : إن هذا إلا سحر يؤثر، يأثره عن غيره . فنزلت : ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ١١ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ١٢ وَبَنِينَ شُهُودٗا﴾ [المدثر: ١١ - ١٣] الآيات »[١] .

لقد أتى الوليدُ بنُ المغيرة إلى النَّبِيّ ﷺ ، وسمع القُرْآن منه وعرف على الفورِ أنَّ هذا « الكلام » الذي يقولُهُ مُحَمَّد ﷺ « لا يُشبهُ » الكلامَ الذي سمعه من الشعراء والخطباء ، فهو يفوقُ كلامهم « حلاوةً وطَلاوةً ، وإثمارًا ، وإغداقًا » . لقد اكتشف الوليدُ هذا الفارقَ ؛ لأنَّه كان يملك « الذائقة الأدبية والحس اللغوي » الذي تراكم لديه وتكوَّنَ من « علمه بالشعر : رجزه وقصيده » ؛ فمَكَّنه هذا الحسُّ اللغوي ، وأَقدَرَتْهُ تلك الذائقة على أنْ يكتشف أنَّ للقرآن مَذَبًّا يُبَاينُ ما يقوله الشعراءُ والخطباءُ . وممّا سهَّلَ على الوليد بن المغيرة اكتشاف هذا الفارق بسهولة أَنَّهُ كان « أعلمَ قريشٍ » بالشعر والشعراءِ.

❊ **شهادة السموأل بن يحيى بن عباس المغربي** :

مَنْ صاحب هذه الشهادة ؟

صاحب الشهادة هو السَّموأل بن يحيى بن عباس المغربي(ت: ٥٧٠ هـ) ، مهندس رياضي، عالم بالطب والحكمة. أصله من المغرب. سكن بغداد مدة ، وانتقل

(١) الألباني : صحيح السيرة النبوية ، المكتبة الإسلامية ، عَمَّان ، الأردن ، ط١ ، (١٤٢١هـ) ، ص ١٥٨ ، ١٥٩

إلى فارس. ومات في المراغة بأذربيجان ، كان من أعاظم أحبار اليهود قبل إسلامه ، له « المفيد الأوسط » في الطب، و« رِسالَة إلى ابن خدود » في مسائل حسابية، و« إعجاز المهندسين » فرغ من تصنيفه في صفر سنة ٥٧٠ هـ و« القوامي » في الحساب الهندي و« المثلّث القائم الزاوية » ، و« المنبر » في مساحة أجسام الجواهر المختلطة لاستخراج مقدار مجهولها، و « نزهة الأحباب في معاشرة الأصحاب » ، و « بذل المجهود في إفحام اليهود » ، و« الباهر » في الرياضيات [(١)] .

وشهادة هذا العالم الرياضي الذي كان يهوديًّا وأسلم أَثْبَتَها في كتابه المهم « بذل المجهود في إفحام اليهود » ، وهو كتاب يدلُّ على « واسع علمه وكثرة خبرته؛ فقد أظهر في أثناء مناقشاته لعقائد اليهود ، **وتحليله لنصوص التوراة أوهام الأحبار وضلالاتهم والأسرار التي تنطوي عليها نفوسهم ، وكشف أخطاءهم ومغالطاتهم ، وفضح طرقهم الملتوية وحيلهم الماكرة**. ولا عجب في ذلك ، فقد كان قبل إسلامه من أعاظم أحبار اليهود ؛ ولذلك استطاع بما وصل إليه من علم بالتوراة وسعة اطلاع على الكتب ـ متونًا وشروحًا ـ أن يفحم علماء عصره من اليهود ، ولا يزال هذا الإفحام يتحدى أحبارهم حتى يومنا هذا » [(٢)] .

تقول هذه الشهادة :

« كنت لِكَثْرَة شغفي بأخبار الوزراء وَالْكتاب قد اكتسبت بِكَثْرَة مطالعتي لحكاياتهم وأخبارهم وَكَلَامهم قُوَّة فِي البَلاغَة وَمَعْرِفَة بالفصاحة ـ وَكَانَ لي فِي ذَلِك طبع يحمده الفصحاء ، ويُعجب بِهِ البلغاء ـ فشاهدت المعجزة الَّتِي لاتباريها الفصاحة الْآدَمِيَّة فِي القُرْآن العظيم ؛ فَعلمت صِحَة إعجازه .

ثمَّ إِنِّي لما هذَّبت خاطري بالعلوم الرياضية ، ولاسيما الهندسية وبراهينها ، راجعت نَفسِي فِي اخْتِلَاف النَّاس فِي الْأَدْيَان والمذاهب ، وَكَانَ أبر المحركات لي فِي الْبَحْث عَن ذَلِك مطالعتي كتاب برذويه الطّيب من كتاب

(١) الزركلي : الأعلام ، ٣/ ١٤٠

(٢) السموأل بن يحيى بن عباس المغربي : بذل المجهود في إفحام اليهود ، ت : عبد الوهاب طويلة دار القلم ، دمشق ، ط١ ، (١٩٨٩م) ، مقدمة المحقق ، ص ١٠

كليلة ودمنة ، **وَمَا وجدت فِيهِ ؛ فَعلمت أَنَّ العَقْل حَاكم يجب تحكيمه على كليات أُمُور عالمنا** ، هَذَا إِذ لَوْلَا أَنَّ العَقْل أرشدنا إِلَى اتِّبَاع الْأَنْبِيَاء وَالرسل وتصديق الْمَشَايِخ وَالسَّلَف ، لما صدقناهم فِي سَائِر مَا تلقيناه عَنْهُم وَعلمت أَنَّهُ إِذا كَانَ أصل التَّمَسُّك بالمذاهب الموروثة عَن السّلف ، وأصل اتِّبَاع الْأَنْبِيَاء مِمَّا أدّى إِلَيْهِ العَقْل فَإِن تحكيم العَقْل على كليات جَمِيع ذَلِك وَاجِب »[١] .

وهذه شهادة عزيزة ، ذات قيمة كبيرة ، لكونها أَوْلًا خرجت من يهودي ، وثانيًا لكونها من عالم لغوي ورياضي ، فيالها من شهادة .

❋ **شهادة إبراهيم اليازجي وخليل مَطْران وجبر ضومط** :

بداية نُعَرِّفُ بهؤلاء الأدباء ، لأننا إذا عرفنا ثِقَلهم الأدبي ، عرفنا قيمة شهادتهم للقُرآن .

⇦ إبراهيم اليازجي (١٢٦٣ – ١٣٢٤ هـ = ١٨٤٧ – ١٩٠٦ م) .

هو إبراهيم بن ناصيف بن عبد الله بن ناصيف بن جنبلاط ، عالم بالأدب واللغة ولد ونشأ في بيروت ، وقرأ الأدب على أبيه ، انتدبه المرسلون اليسوعيون للاشتغال في إصلاح تَرْجَمَة الأسفار المقدسة ، وكتب أخرى لهم ، فقضى في هذا العمل نحو تسعة أعوام .

وتعلم العِبْرية والسريانية والفرنسية ، وتبحَّر في علم الفلك وله فيه مباحث ، وكان من الطراز الأول في كُتَّاب عصره . وخدم العَرَبِيَّة باصطناع حروف الطباعة فيها ببيروت ، وانتقى كثيرًا من الكلمات العَرَبِيَّة لما حدث من المخترعات . نظم الشعر الجيد ثم تركه ، مات بالقاهرة ثم نقل رفاته إلى بيروت[٢] .

⇦ خليل مَطْران (١٢٨٨ – ١٣٦٨ هـ = ١٨٧١ – ١٩٤٩ م) ، هو :

خليل بن عبده بن يوسف مطران : شاعر، غوّاص على المعاني، من كبار الكتاب،

(١) السابق ، ص ١٣

(٢) كامل سلمان الجبوري: مُعْجَم الأدباء من العصر الجاهلي ٢٠٠٢م ، دار الكتب العِلْمِيَّة ، بيروت ، ط١ ، (٢٠٠٢م) ، ١/ ٨٤

له اشتغال بالتأريخ والترجمة. ولد في بعلبكّ بلبنان ، وتعلم بالمدرسة البطريركية ببيروت. وسكن مصر، فتولى تحرير جَرِيدَة الأهرام بضع سنين ، ثم أنشأ المجلة المصرية ، وبعدها جَرِيدَة الجوائب المصرية اليومية، ناصر بها مصطفى كامل باشا في حركته الوطنية ، واستمرّت أربع سنوات.

وصنّف : مرآة الأيام في ملخص التَّاريخ العام ، واشترك مع الشاعر حافظ إبراهيم في تَرْجَمَة : الموجز في علم الاقتصاد ، خمسة أجزاء، عن الفرنسية، وترجم عدة روايات من تأليف شكسبير وكورناي وراسين وهيجو وبول بورجيه. وعلت شهرته، ولقب بشاعر القطرين، وكان يشبَّه بالأخطل، بين حافظ وشوقي .

وشبهه المنفلوطي بابن الرومي في تقديمه العناية بالمعاني على العناية بالألفاظ. وكان غزير العِلْم بالأدبين العربيّ والفرنسي، رقيق الطبع، ودودًا، مسالمًا، قلّ أن ذكر أحدًا بغير الخير. توفي بالقاهرة (١) .

⇦ جبر ضُومِط (١٢٧٦ ـ ١٣٤٨هـ/ ١٨٥٩ ـ ١٩٣٠م) :

هو جبر ميخائيل ضومط ، أديب ، خدم العَرَبِيَّة تدريسًا وتأليفًا ، وفاته ببيروت ، سافر إلى الإسكندرية سنة ١٨٨٤م ، فعمل في تحرير جَرِيدَة المحروسة ، ثم عُيِّنَ ترجمانًا في حملة غوردن إلى السودان ، وعاد إلى لبنان فتولى تعليم العَرَبِيَّة في الكلية الأمريكية ببيروت سنة ١٨٨٩ ـ ١٩٢٣م ، وكان مع علمه بالعربية والإنكليزية قد ألمَّ بالعبرية والسريانية ، ووضع كتبًا للتعليم على أسلوب جديد ، منها : خواطر في اللغة ، الخواطر العراب في النحو والإعراب ، الخواطر الحسان في المعاني والبيان ، فلسفة البَلاغَة ، وفلسفة اللغة العَرَبِيَّة وتطورها (٢) .

وقد نقل لنا شهادة هؤلاء على إعجاز القُرْآن البَلاغِيّ كتاب « إعجاز القُرْآن » للرافعي (ت: ١٩٣٧م) ، نقل الرافعي شهادة اليازجي ومطران ، ونقل شهادة جبر ضومط الشيخ مُحَمَّد رشيد رضا ، الذي قدم لكتاب الرافعي .

(١) الزركلي : الأعلام ، ٢/ ٣٢٠

(٢) كامل سلمان الجبوري: مُعْجَم الأدباء من العصر الجاهلي ٢٠٠٢م ، ٢/ ١٣

وسياق الاستشهاد أَنَّ الشيخ رشيد رضا في مقدمته لكتاب إعجاز القُرْآن للرافعي كتب يقول : « إن من أوتي حظًّا من بيان هذه اللغة ، وفاز بسهم رابح من آدابها **حتى استحكمت له ملكة الذوق فيها ، لا يملك أن يدفع عن نفسه عقيدة إعجاز القُرْآن ببلاغته وفصاحته** ، وبأسلوبه في نظم عبارته ، وقد صرح بهذا من أدباء النصرانية المتأخرين الأستاذ جبر ضومط مدرس علوم البَلاغَة بالجامعة الأمريكانية ، في كتابه الخواطر الحسان » .

وعلق الأستاذ الرافعي على كلام الشيخ رشيد بهذا التعليق المهم في الهامش الأول من صفحة الاقتباس :« نقول : وصرح لنا بذلك أديب هذه الملة وبليغها الشيخ إبراهيم اليازجي الشهير ، وهو أبلغ كاتب أخرجته المَسِيْحِيَّة ، وقد أشار إلى رأيه ذاك في مقدمة كتابه : نجعة الرائد ، وكذلك سألنا شاعر التَّاريخ المسيحي الأستاذ خليل مطران ، ولا نعرف من شعراء القوم من يجاريه ، **فأقر لنا ... بمثل ما أقر به اليازجي** » .

وقد عدت لكتاب « الخواطر الحسان » فوجدت الأمر كما قال الشيخ رشيد ، إذ يقول المؤلف في المقدمة « ... إن الكتب الموضوعة قديمًا في هذين الفنين ، ولا سيما المعاني على جلالة قدرها ونفاسة ما حوته ، إنما وضعها أولئك الفضلاء ليستعين بها غيرهم من العلماء على **فهم ما في القُرْآن من مواقع الفصاحة والبَلاغَة التي بلغت الإِعْجَاز** ، فكانت من ثم مؤلفاتهم خاصة موضوعة للخواص »[(١)] .

ومثلما فعلت مع اقتباس الشيخ رشيد فعلت مع اقتباس الرافعي ، فعدت إلى كتاب نجعة الرائد لمراجعة كلام الأديب إبراهيم اليازجي عن إعجاز القُرْآن ، فلم أجد حديثًا عن هذا الشأن وما وجدته الحديث الآتي :« ... من اطلع على المأثور من كلام العرب ، واستقرى ما جاء بعدهم من كلام المترسلين من فحول علماء الأدب ، وتدبَّر ما لهم في أساليب اللغة من الاتساع والإبداع والتلاعب بقوالب اللفظ لإبراز صور المعاني حاسرة دون قناع ، أيقن أنَّ هذه اللغة قد انفردت عن سائر اللغات

(١) جبر ضومط: الخواطر الحسان في المعاني والبيان، مطبعة الوفاء، بيروت، ط٢، (١٩٣٠م) ، ص ١

فصاحةً وبيانًا كما انفرد أربابها في مذاهب البَلاغَة تبسُّطًا وافتتانًا ، وحسبُ الناظر أن يُسرِّح طرفه في بليغ منقولها ويتأمل ما جاء من البدائع في محكم فصولها ، من مثل مقالة النعمان لكسرى في النضح عن أحساب العرب ، ما ورد عن الإمام عليٍّ من نوابغ الأمثال ، وروائع الخُطب ، وما جاء بعد ذلك من أقوال مصاقع الخطباء في صدر الإِسْلام من مثل زياد والحجاج وسواهما من أمراء الكلام... »[1] .

لا يوجد في النَّصّ ـ ولا في المقدمة كلها ـ إشارة اليازجي إلى إعجاز القُرْآن ، ونحن لا نتهم الأديب مصطفى صادق الرافعي بالغفلة ، وأغلب الظن أَنَّ الإشارة حذفت من المقدمة في الطبعة الثانية ١٩٧٠م ، أو الثالثة ١٩٨٥م ، فليس من المعقول أن يتم الاستشهاد على فصاحة اللغة من خلال فحول علماء الأدب ويهمل ذكر القُرْآن ، كتاب العَرَبِيَّة الأول ، الذي يمثل ذروة الفصاحة فيها .

* **شهادة أمين نخلة** :

أمين نخلة (١٩٠١م ـ ١٩٧٦م) هو أمين بن رشيد نخلة ، حقوقي ، شاعر ابن شاعر ، لبناني ، يقال إنَّ أمير الشعراء أحمد شوقي أقره على إمارة الشعر بعده ، تقلب في مناصب سياسية ، وعمل في الصحافة والمحاماة ، وانتخب عضوًا بمجمع اللغة العَرَبِيَّة بدمشق ، كان اتباعيًّا في شعره ، إبداعِيًّا في نثره ، يميل إلى الشعر الغزلي والوجداني ، وفي شعره حلاوة وطلاوة ، وكان ماهرًا بالخط ، عارفًا بأحكام تجويد القُرْآن الكريم ، من شعره : دفتر الغزل ، الديوان الجديد ، ليالي الرقمتين ، وكتب : كتاب المنفى لرشيد نخلة ، في الهواء الطلق ـ تذكارات ونجاوى ...[2] .

وشهادة هذا الأديب على بَلاغَة القُرْآن سجَّلها بقلمه في أكثر من موضع من مؤلفاته ، منها : « إنَّما القُرْآن هو المعجز في بلاغته ، وأسلوبه ، ولفظه ، وحلاوة فواصله ، وسَوق معانيه ، لا كلام في هذه العَرَبِيَّة يبلغ مبالغه في ذلك كله ، وهذا في

(١) الشيخ إبراهيم اليازجي: نجعة الرائد وشِرعَة الوَارد في المُترادِف والمُتوارد ، مكتبة لبنان ، القاهرة ، ط٣ ، (١٩٨٥م) ، المقدمة ب

(٢) كامل سلمان الجبوري: مُعْجَم الأدباء من العصر الجاهلي ٢٠٠٢م ، ١/ ٤٠٩

رأينا هو سبب إعجازه ، لا شرف الأغراض ، كما في رأي جماعة ، ولا الإخبار بالغيب ، كما في رأي جماعة آخرين »[١] .

وفي كتابه « الهواء الطلق » تحت عنوان : الكتاب المعجز ، كتب يقول : « ما قرأتُ في القُرْآن قط ، وتلقتني تلك الفصاحة من كل جهة ، وشهدتُ ذلك الإِعْجَاز الذي يطبِّق العَقْل ، إلا صحتُ بنفسي : انجي ، ويحكِ ، فإنني على دِيْن النصرانية »[٢] .

ونقرأ له في نفس الكتاب هذا الكلام ، تحت عنوان : تلاوة قرآنية :

« أصبحتُ ـ بعد أن قضى الشيخُ مُحَمَّد رفعت أجله ، وانطوت بانطواء أيامه إجادات التنزيل ـ هيهات أن تنشط نفسي لسماع تلاوة قرآنية ... فقال لي أحد الأصدقاء ذات يوم : تالله تفتأ تذكر الشيخ محمدًا ، ولسوف تسمع في منزل فلان الليلة قارئًا يملأ نفسك سرورًا وخشوعًا .

فلما غدونا في ذلك المنزل ، والحضور بين يدي القارئ في حلقة حاشدة ، عرفتُ صاحبنا معرفة وجه . وعهدي به في المدينة يعمل في أحد المتاجر ، لم أعهده من الذين أوتوا أسرار الطرب في حناجرهم ...

وقد كان أول ما تيسر له في الجلسة قراءة آيات من سورة هود ، منعطفًا في التلاوة إلى وصف الطوفان ، كأن إليه كان القصد ، مراسلًا بصوته مقامات القول ، يصاحبها بين التَّحدر والارتفاع والبسط والقبض ، متمهلًا ، متهودًا ، قبل أن يندفع في المفاجأة . حتى إذا بلغت التلاوة في خبر الفلك إلى لفظتي « موج كالجبال » تألقت أعلى براعات الصوت أعلى براعات الكلام ! إذ جمع طرفي صوته ونهض بهما من أقرب مآتي اللحن في الدرجات العالية إلى ما يشبه في جلجلته عظيمة الأواذيّ ، تهضب في اصطفاق وصخب ، وتلتطم ، وتترشش من شدة الوقع على كل جانب ... ذلك كلُّه ممثَّلا في لفظتين اثنتين !!!

ولما قال نوحٌ في القصة لابنه ، وكان ابنه في معزل عنه : ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن

(١) أمين نخلة، المؤلفات النثرية ـ الأدب واللغة، دار صادر ، بيروت ، ط١ ، (٢٠١٤م) ، ٣/ ١٥

(٢) السابق ، ٢/ ٢٢٩

مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ هود: ٤٢ ؛ إذا بالصوت قد طفق ينحدر من تلك الطَّبَقَة المهيبة إلى القرار ، منسابًا في رفق وحنان ورقة ، تمثيلًا لإشفاق الأبوة ، والتلطُّف بالنصيحة .

وما راعنا بعد ذلك المشهد الصوتي الهادئ الناعم إلا وصول التلاوة إلى وصف الغرق في آية ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ هود: ٤٣ ، فإنَّ الصوت تماسك بالنغم قليلًا ، ثم تَقبَّض ، ثم دار مدارًا هائلًا ، وانصب عند القرار في مثل اللجُّة العميقة ...

أما ما كان من تَدبُّر القارئ لهذا الموضع المطرد الإِعْجَاز من القصة : ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ هود: ٤٤ ، وما وفق له من تمثيل في النَّبر لفعلي الأمر المتلاحقين في الآية ، ومن تمثيل في الإرسال للجمل الإخبارية الآخذ بعضها ببعض في أبلغ واوات عرفها هذا اللسان العربي ، وما سهل عليه في تلاعب النغم بالخفوت والتراخي ... من مماثلة لما قرَّ بعد الحادث الجلل من سيول وأمطار وأواذي وأعاصير وسحائب ورعود وبروق وصياح وجلبة وهولٍ عميم ، أقول إنَّ ذلك من عجب الفن الذي لا يتعلق به وصف! ... »[(١)] .

تلك أمثلة على تأثير بلاغة القرآن على كبار الأدباء غير المسلمين ، والواقع فالأمثلة كثيرة ، تدل على اعتراف غير المسلمين ببلاغة القرآن[(٢)] .

- **التحدي البَلاغِيّ :**

ومن الأمور التي تدل على الإِعْجَاز البَلاغِيّ للقرآن « طلبه » التحدي في أكثر من آية ، من مثل قوله تعالى :﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ هود: ١٣ ، ففي هذه الآية « لما قالوا: افتريت

---

(١) السابق ، ٢/ ١٠٠، ١٠١

(٢) أحيل القارئ هنا إلى كتاب ماتع وشائق ، يروي فيه مؤلفه قصة تحديه لزميله القبطي أن يؤلف مثل القرآن، وبعد محاولات مستميتة من هذا القبطي يفشل ويعلن إسلامه ، الكتاب بعنوان : لماذا أسلم صديقي ؟ ورأي الفاتيكان في تحديات القُرْآن ، د. إبراهيم خليل ، مكتبة التراث الإسلامي، (بدون بيانات أخرى) ، ص ٦٧ وما بعدها .

القُرْآن ، واختلقته من عند نفسك ،وليس من عند الله، قاودَهم (؛ أي : ماشاهم وسايرهم) على دعواهم ، وأرخى معهم العنان ، وقال: هبُوا أنى اختلقته من عند نفسي ، ولم يوح إليّ ، وَأَنَّ الأمر كما قلتم ، فأتوا أنتم أَيْضًا بكلام مثله مختلق من عند أنفسكم ، فأنتم عرب فصحاء مثلي ، لا تعجزون عن مثل ما أقدر عليه من الكلام »[(١)] .

فلو كان العرب يقدرون على الإتيان بمثل القُرْآن لما تأخروا عن ذلك لحظة ولفعلوه في التو ، خاصة أَنَّهُمْ أهل فصاحة وبلاغة وبيان ، وإذ لم يفعلوا دلَّ ذلك على عجزهم ، وأن بَلاغَة القُرْآن سماء لا تطاولها سماء ، وما أجمل ما خطه يراع الإمام الزمخشري عند قوله تعالى :﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ البقرة: ٢٣ – ٢٤ ، « وفيه دليلان على إثبات النبوّة: **صحة كون المتحدى به معجزًا** ، والإخبار بأنهم لن يفعلوا ، وهو غيب لا يعلمه إلا اللهّ .... فإن قلت : من أين لك أَنَّهُ إخبار بالغيب على ما هو به حتى يكون معجزة؟ قلت : لأنَّهم لو عارضوه بشيء لم يمتنع أن يتواصفه الناس ويتناقلوه، إذ خفاء مثله فيما عليه مبنى العادة محال، لا سيما والطاعنون فيه أكثف عددًا من الذَّابين عنه، فحين لم ينقل ؛ علم أَنَّهُ إخبار بالغيب على ما هو به فكان معجزة »[(٢)] .

****

ث- رابعا الإعْجَاز النزولي :

هذا الإِعْجَاز يرتبط بنوعي الإِعْجَاز اللذين هما قبله : الإِعْجَاز التَّارِيخِيّ والبلاغي .

ما المقصود بهذا الإِعْجَاز ؟

قبل بيان هذا الإِعْجَاز وما المقصود به أحبُّ أن أبين نقطة مهمة ، تتعلق

(١) الزمخشري :الكشاف ، ٢/ ٣٩٣

(٢) السابق ، ١/ ٩٥ ـ ٩٦

بكيفية نزول القُرْآن .

هل نزل القُرْآن كله على النَّبِيّ ﷺ دفعة واحدة ؟

الإجابة : لا .

إذن : كيف نزل ؟

نزل مُنَجَّمًا ؛ أي : نزل مُفرقًا مُبَعَّضًا ، ولم ينزل جملة واحدةً . والمثير للانتباه أننا نجد أن آيات سورة معينة لم تنزل كلها دفعة واحدة ، بل تنزل على فترات متباعدة ، وخلال هذه الفترات تنزل آيات أخرى لسور أخرى ، وذلك في معظم سور القُرْآن ، وفي بيان ذلك يقول الإمام ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) : « قد تقدم في تفسير اقرأ باسم ربك أَنَّها أول سورة نزلت ، ومع ذلك فنزل من أولها أَوْلًا خمس آيات ، ثم نزل باقيها بعد ذلك ، وكذلك سورة المدثر التي نزلت بعدها ، نزل أولها أولًا، ثم نزل سائرها بعد ، وأوضح من ذلك ما أخرجه أصحاب السنن الثلاثة وصحَّحه الحاكم وغيره من حديث ابن عباس عن عثمان قال : كان النَّبِيّ ﷺ ينزل عليه الآيات فيقول : ضعوها في السورة التي يذكر فيها كذا إلى غير ذلك »[١] .

فالنبي ﷺ الذي نُزِّلَ عليه الذِّكرُ « لم يتربص بترتيب نجومه حتى كملت نزولًا ، بل لم يتريث بتأليف سورة واحدة منه حتى تمت فصولًا ، بل كان كلما ألقيت آية أو آيات أَمَرَ بوضعها من فوره في مكان مرتب من سورة معينة. على حين أن هذه الآيات والسور لم تتخذ في ورودها التنزيلي سبيلها الذي اتبعته في وضعها الترتيبي ؛ فكم من سورة نزلت جميعًا أو أشتاتًا في الفترات بين النجوم من سورة أخرى ، وكم من آية في السورة الواحدة تقدمت فيها نزولًا وتأخرت ترتيبًا ، وكم من آية على عكس ذلك »[٢] .

إذن : ما وجه الإِعْجَاز هنا ؟

وجه الإِعْجَاز هنا : أَنَّ السور التي نزلت آياتها على فترات متباعدة كما أشرنا

(١) فتح الباري ، المكتبة السلفية ، القاهرة ، (بدون بيانات أخرى) ، ٨/٩

(٢) د. مُحَمَّد عبد الله دراز : النبأ العظيم ، ص١٢٥

بينها من **التماسك والترابط والالتحام والانسجام** ما لا نجده في كلام البشر ، فمن المحال أن يقول أديب أو شاعر كلامًا في موضوع واحد على الأقل ثم بعد ذلك بأعوام أو أشهر أو بل حتى أيام فيقول كلامًا آخر في نفس الموضوع ، ويجئ كلامُه في الموضعين مترابطًا متماسكًا على ماء واحد .

ويشهد لهذا اللون من الإِعْجَاز علمٌ من العلوم المهمة هو « **علم المناسبة** »[(١)] ، فهذا العِلْم يُظهرُ جانبًا من جوانب الإِعْجَاز القُرْآنِيّ ، هو جانب « تناسُب الآيات » يقولُ الإمام الرَّازِيُّ رَحِمَهُ اللهُ عند تفسير الآية رقم ٢٨٥ من سورة البقرة : « ومَنْ تأمَّلَ في لطائفِ نظمِ هذه السورة وفي بدائع ترتيبها علم أَنَّ القُرْآن كما أَنَّهُ معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه ، فهو أَيْضًا معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته ، ولعل الذين قالوا : إِنَّهُ معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك ، إلا أني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف ، غير منتبهين لهذه الأمور »[(٢)] .

وهذا ما يؤكده الإمام البِقاعِيّ ، إذ يشير إلى أنَّ للقرآن طريقين للإعجاز « أحدهما : نظم كل جُمْلَة على حيالها ، بحسب التركيب ، والثاني نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب »[(٣)] ، وَيُنْقَلُ عن بعض العلماء قولهم : « في كل آية معنى تنتظم به بما قبلها ، ومعنى تَتَهَيَّأَ به للانتظام بما بعدها ؛ وبذلك كان انتظام الآي داخلًا في معنى الإِعْجَاز الذي لا يأتي الخلق بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا »[(٤)] .

****

(١) لمزيد من المعلومات عن هذا العِلْم وأهميته وفوائده ومؤلفاته وأعلامه يُرجى العودة إلى كتاب: إعانة الأنام على فهم بلاغة القُرْآن ، د. إيهاب عبد الحميد ، ص ٧٩ وما بعدها .

(٢) مفاتيح الغيب ، دار الفكر للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط١ ، (١٩٨١م) ، ٧/ ١٣٩

(٣) البِقَاعِيّ : نظم الدُّرَر ، ١/ ١١ ، ولمزيد من التفصيلات المهمة عن الإمام البِقاعي ، وتفسيره وعلم المناسبة ، يرجى مراجعة كتاب : إعانة الأنام على فهم بلاغة القرآن ، د. إيهاب عبد الحميد ، الطبعة الثانية ، دار زهران.

(٤) السابق ، ١/ ٢٣٤ـ ٢٣٥

ج- خامسًا الإِعْجَاز النفسي :

هذا الجانب من جوانب الإِعْجَاز المهمة في القُرْآن ، فهو من أقوى الدلائل على أَنَّ القُرْآن ليس بشريًّا ، بل أنزله خالق البشر .

وما في القُرْآن ويدل على هذا الجانب كثير ، نختار منه ما يأتي :

» **المثال الأول** : قوله تعالى :﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ البقرة: ٢٥٦

في هذه الآية إشارة نفسية مهمة ، وهي أَنَّ الإيمان لا يجوز فيه قهر ولا إجبار وأنَّ كل إيمان يلجأ لذلك فمصيره الفشل ، وانصراف الناس عنه .

يقول صاحبُ الظِّلال رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه الآية : « إن قضية العقيدة ـ كما جاء بها هذا الدِّيْن ـ قضية اقتناع بعد البيان والإدراك ؛ وليست قضية إكراه وغصب وإجبار ، ولقد جاء هذا الدِّيْن يخاطب الإدراك البشري بكل قواه وطاقاته . يُخاطب العَقْل المفكر ، والبداهة الناطقة ، ويخاطب الوجدان المنفعل ، كما يخاطب الفطرة المسكنة ، يخاطب الكيان البشري كله ، والإدراك البشري بكل جوانبه .....

وكانت المَسِيْحِيَّة ـ آخر الديانات قبل الإِسْلام ـ قد فُرِضَت فرضًا بالحديد والنار ، ووسائل التعذيب والقمع التي زاولتها الدولة الرُّومَانِيَّة بمجرد دخول الإمبراطور قسطنطين في المَسِيْحِيَّة ، بنفس الوحشية والقسوة التي زاولتها الدولة الرُّومَانِيَّة من قبل ضد المسيحيين القلائل من رعاياها الذين اعتنقوا المَسِيْحِيَّة اقتناعًا وحبًّا ! ولم تقتصر وسائل القمع والقهر على الذين لم يدخلوا في المَسِيْحِيَّة ؛ بل إنها ظلت تتناول في ضراوة المسحيين أنفسهم الذين لم يدخلوا في مذهب الدولة ، وخالفوها في بعض الاعتقاد بطبيعة المسيح ! فلما جاء الإِسْلام عقب ذلك جاء يعلن ـ في أول ما يعلن ـ هذا المبدأ العظيم الكبير : ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ البقرة: ٢٥٦ ، **وفي هذا المبدأ يتجلى تكريم الله للإنسان ، واحترام إرادته وفكره ومشاعره وترك أمره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال في الاعتقاد ، وتحميله تبعة عمله وحساب نفسه ، وهذه هي أخص خصائص التحرر الإنساني** »[1] .

---

(١) في ظلال القُرْآن ، ١/ ٢٩١

فرب البشر أعلم بخصائص خلقه ، يعلم أَنَّ الإكراه لا يولد حبًّا ؛ بل العكس هو الواقع ، فمع كل إكراه يتولد البغضُ والمقتُ الشديدان ؛ لذلك نجد أَنَّ التعبير في الآية ـ كما يقول صاحب الظلال ـ يرد في صورة النفي المطلق : (لا إكراه في الدين) ، نفي الجنس كما يقول النحويون ؛ أي : نفي جنس الإكراه ، نفي كونه ابتداء فهو يستبعده من عالم الوجود والوقوع ، وليس مجرد نهي عن مزاولته ، والنهي في صورة النفي ـ والنفي للجنس ـ أعمق إيقاعًا وآكد دلالة .

ونجد البشر ـ ملوكًا أو أباطرة أو ساسة أو دولًا ـ يلجئون إلى القوة والحديد والنار لفرض معتقداتهم وآرائهم ، ولو اقتضى الأمر قتلًا أو حرقًا ، ومثال ذلك ما أشار إليه صاحب الظلال ، من لجوء الأباطرة الرُّومَان من فرض المَسِيْحِيَّة بالقوة ، ومثال محاكم التفتيش **Inquisition** التي يَقُفُّ شعرُ الرأس من سماع أخبارها وقراءة تاريخها ، ومثال ثالث الشيوعية الماركسية وتاريخها الأسود(لينين ، ستالين).

لقد اجتمعت كلمة العقلاء على « أَنَّ الإكراه سلاح كل فقير في براهينه ، فاشل في إقناعه ، أعوزه المنطق ؛ فأسعفته العصا »[(١)] ، وعلى أَنَّ « التكليف مبني على الاختيار دون الإجبار »[(٢)] .

والتاريخ خير شاهد على أَنَّ « الرفق والرحمة » لهما من جميل العواقب ما ليس لغيرهما ، يحدثنا ول ديورنت قائلًا :

- « ... ولعل مما يجدر ذكره في هذا المقام أن أعظم القواد ـ كالإسكندر وقيصر ، وبليساريوس ، وصلاح الدِّيْن ، ونابليون ـ <u>قد وجدوا أَنَّ الرَّحْمَة من أقوى أسلحة الحروب</u> ... »[(٣)] .
- « ... وأحل ولدا جراكس ، وقيصر ، وأغسطس سياسة المجاملة والاحترام محل

---

(١) مُحَمَّد الغزالي : مائة سؤال عن الإِسْلام ، ١/ ١٢٥

(٢) الزمخشري : الكَشَّاف ، ٤/ ٥٥

(٣) قِصَّة الحَضَارَةِ ، م٦، ١٢/ ٢١٨

سياسة القسوة التي كانت تجري عليها الجمهورية ، وأثمرت السياسة الجديدة أحسن الثمرات وأدومها ، فأخذت البلاد تصطبغ اصطباغًا سريعًا بالصبغة الرُّومَانِيَّة ، واتخذ الأهلون اللاتينية لغة لهم ، بعد أن كيفوها بما يلائم طبيعتهم، ونمت اقتصاديات البلاد واتسعت ، وأخذت تمد روما بالشعراء، والفلاسفة، وأعضاء مجلس الشيوخ والأباطرة »(١) .

» **المثال الثاني على الإعجاز النفسي** : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ سبأ: ٤٦

من الآيات التي أجد فيها إعجازًا نفسيًّا هذه الآية .

في هذه الآية يطلب الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إلى النَّبِيّ ﷺ أن ينصح المشركين ويوصيهم بخصلة واحدة وهي « أن يقوموا لله **اثنين اثنين ، وفرادى فرادى** ... وقيل: إنما قيل: إنما أعظكم بواحدة ، وتلك الواحدة أن تقوموا لله بالنصيحة وترك الهوى . (مَثْنَى) يقول : يقوم الرجل منكم مع آخر ؛ فيتصادقان على المناظرة : هل علمتم بمحمد ﷺ جنونًا قطُّ؟ ثم ينفرد كل واحد منكم ؛ فيتفكر ويعتبر فردًا هل كان ذلك به؟ فتعلموا حينئذٍ أَنَّهُ نذير لكم »(٢) .

ويقول صاحب الظلال : « مثنى ليراجع أحدهما الآخر ، ويأخذ معه ويعطي في غير تأثير بعقلية الجماهير التي تتبع الانفعال الطارئ ، ولا تتلبث لتتبع الحُجَّةَ في هدوء ، وفرادى مع النفس وجهًا لوجه في تمحيص هادئ عميق »(٣) .

لماذا أمرت الآية بأن يكون التفكير فُرَادَى أو مثنى ؟

الذي فهمناه من الآية وكلام المفسرين :

⇦ أن « التفكير الجماعي » قد يكون وسيلة خاطئة للوصول للحق .

---

(١) السابق ، ١١/ ٤٠ ـ ٤١

(٢) الطبري ، جامع البيان ، ٨/ ٦٧٦٦ ـ ٦٧٦٧

(٣) ٥/ ٢٩١٤

⇦ وأنَّ « التفكير الجماعي » يؤثر على التفكير الفردي ، بل يكاد يمحوه تمامًا .

⇦ وأن « التفكير الجماعي » ليست له معايير موضوعية يحتكم إليها للوصول للحق في المسألة .

هل ما فهمناه من هذه الآية يتوافق مع معطيات علم النفس والاجتماع؟

يكاد هذا الفهم هو عينه ما قَرَّرَهُ عالِمُ الاجتماع النفسي الشهير غوستاف لوبون **Gustave Le Bon** (ت ١٩٣١م) [(١)] في كتابه الأشهر « **The Crowd : A Study of the Popular Mind** سيكولوجية الجماهير ـ أو : الحشد » ، وأنا أقتبس منه عدة اقتباسات تؤيد ما فهمناه من الآية :

❋ « ... ولكن مصطلح الجمهور يتخذ معنى آخر مختلفًا تمامًا من وجهة النظر النفسية . ففي بعض الظروف المعينة ، وفي هذه الظروف فقط ، يمكن لتكتل ما من البشر أن يمتلك خصائص جديدة مختلفة جدًا عن خصائص كل فرد يشكله ؛ **فعندئذ تنطمس الشخصية الواعية للفرد ، وتصبح عواطف وأفكار الوحدات المصغرة المشكلة للجمهور موجهة في نفس الاتجاه** . وعندئذٍ تتشكل روح جماعية عابرة ومؤقتة بدون شك ، ولكنها تتمتع بخصائص محددة ومتبلورة تمامًا » [(٢)] .

❋ « إن ذوبان الشخصية الواعية للأفراد وتوجيه المشاعر والأفكار في اتجاه واحد **يشكل الخصيصة الأولى للجمهور الذي هو في طور التشكل** . ولكن ذلك لا

---

(١) جوستاف لوبون (١٨٤١ ـ ١٩٣١م) ، عالم نفس واجتماع فرنسي ، ألف عددًا من الكتب في علم النفس الاجتماعي، منها : روح الجماعات ، والسنن النفسية لتطور الأمم ، وفلسفة التَّاريخ اشتهر بكتابه الحشد ، أو دراسة العَقْل الجمعي ١٨٩٥ م ، ويرى أن سلوك الحشد يظهر خواص جديدة مختلفة عن سلوك الأفراد الذين يتكون منهم الحشد عندما يكونون فرادى؛ إذ يختفي شعور الفرد بذاته ... ولوبون من كتاب الغرب الذين أنصفوا الحضارة العربية، وأشادوا بفضلها على الحضارة الغربية، في كتابه: حضارة العرب. يُنظَر: المَوْسُوعَة العَرَبِيَّة الميسرة، ص ١٥٦٩

(٢) غوستاف لوبون : سيكولوجية الجماهير ، ، القاهرة ، تَرْجَمَة : هاشم صالح ، دار الساقي ، بيروت ، ط١، (١٩٩١م) ، ص ٥٣

يتطلب بالضرورة الحضور المتزامن للعديد من الأفراد في نقطة واحدة ، ذلك أَنَّهُ يمكن لآلاف الأفراد المنفصلين عن بعضهم البعض أن يكتسبوا صفة الجمهور النفسي في لحظة ما ، وذلك تحت تأثير بعض الانفعالات العنيفة ، أو تحت تأثير حدث قومي عظيم مثلًا . وإذا ما جمعتهم صدفة ما كانت كافية لكي يتخذ سلوكهم فورًا الهيئة الخاصة بأعمال الجماهير ، ويمكن لنصف دزينة من البشر أن يشكلوا في ساعات معينة من التَّاريخ جمهورًا نفسيًّا » (١) .

* « والظاهرة التي تدهشنا أكثر في الجمهور النفسي هي التالية : أَيًّا تكن نوعية الأفراد الذين يشكلونه ، وأَيًّا يكن نمط حياتهم متشابهًا أو مختلفًا ، وكذلك اهتماماتهم ومزاجهم أو ذكاؤهم ، فإن مجرد تحولهم إلى جمهور يزودهم بنوع من الروح الجماعية . وهذه الروح تجعلهم يحسون ويفكرون ويتحركون بطريقة مختلفة تمامًا عن الطريقة التي كان سيحس بها ويفكر ويتحرك كل فرد منهم لو كان معزولًا ، وبعض الأفكار والعواطف لا تنبثق أو لا تتحولُ إلى فعل إلا لدى الأفراد المنطوين في صفوف الجمهور ، **إن الجمهور النفسي هو عبارة عن كائن مؤقت مؤلف من عناصر متنافرة** ، ولكنهم متراصو الصفوف للحظة من الزمن » (٢) .

بعد هذه الاقتباسات التي تؤكد مضامين الآية السابقة نعود لغرضنا الأساسي هو : هل كان النَّبِيّ الأمي ﷺ ـ وبأبي هو وأمي ـ عالِمًا اجتماعِيًّا ونفسيًّا حتى يصل إلى هذه الحقائق النفسية والاجتماعية ؟!!

أترك للقارئ الإجابة .

» **المثال الثالث على الإعجاز النفسي : التدرج في نزول التشريع ونزول القُرْآن طبقًا للأحداث :**

من الجوانب التي نلمح فيها إعجازًا نفسيًّا مسألة تدرج القُرْآن في الأحكام

(١) السابق ، ص ٥٤

(٢) السابق ، ص ٥٦

التشريعية ، وعدم نزوله جملة واحدة ، وقد استفاض العلماءُ في بيان فوائد هذا التدرج وحكمه ، يهمنا منها في هذا المقام الجوانب النفسية ، ومنها :

١ـ تثبيت فؤاد النَّبِيّ ﷺ ، فقد كان هذا التدرُّج وهذا التنجيم من أهم العوامل في تثبيت قلبه الشريف ؛ لأن تجدد الوحي وتكرار نزول الملك به على قلبه يشرح صدره ، ويملأ قلبه سرورًا وغبطة ، ويشعره الفينة بعد الفينة بأنه في كنف الله وعنايته وحفظه وكلاءته ؛ لأن الوحي يحمل في كل مرة من دلائل صدقه في دعوى الرِّسالَة ما يفحم المعاند ، ويقطع ألسنة المكذبين .

٢ـ تيسير حفظه وفهمه على المسلمين ، « فلو نزل القُرْآن جملة واحدة لعجزوا عن حفظ ألفاظه ، فضلًا عن فهم معانيه ؛ فاقتضت الحكمة العليا أن تنزل الآيات متفرقة حتى يسهل عليهم حفظها ، ويتهيأ لهم استظهارها ، وحتى يستطيعوا فهم معانيها ، وإدراك دقائقها ، ويتمكنوا من العمل بما فيها »[(١)] .

٣ـ أن تنجيمه أبلغ في التحدي ، وأظهر في بيان الإِعْجَاز .

٤ـ مسايرة الحوادث التي حدثت وقت التشريع ، وهذه الحوادث متنوعة ، منها : الأقضية والوقائع ، والأسئلة التي كانت توجه إلى الرَّسُوْل ﷺ من المسلمين أو من غيرهم ، والشُّبَه التي كانت تختلج في صدور المشركين وأعداء الإِسْلام ، ولفت نظر المسلمين إلى ما قد يقعون فيه من خطأ ، وكشف حال أعداء الله المنافقين ، وما كانت تقتضيه حال المسلمين في أوقات السلم والحرب . وطبيعي أن هذه الأحداث « لم تحدث دفعة واحدة في وقت واحد حتى تنزل الآيات المتعلقة بها جملة ، بل كانت في أزمنة متفاوتة ، وأوقات متعددة ؛ فكانت الضرورة الحتمية التي لا مفر منها ولا محيص عنها تقتضي بأن يكون نزول **الآيات عند الحاجة إليها أوقع في النفوس ؛ وأشد جريًا على مقتضى الحكمة ؛** إذ ليس من المعقول أن تنزل آيات في وقائع لم تحدث بعدُ ، أو أجوبة عن أسئلة لم تخطر على فكر أحد ، ولا يتصور خلاف هذا إلا مصاب في تفكيره ، مطموس

---

(١) عبد الفتاح القاضي : المصحف الشريف أبحاث في تاريخه وأحكامه ، وزارة الأوقاف ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، ط٢ ، (٢٠١٠م) ، ص ٢٩

على بصيرته » (١) .

٥ـ التدرج في تربية الأمة العَرَبِيَّة دينيًّا وخُلُقيًّا واجتماعيًّا ، فلو أَنَّ القُرْآن نزل جملة واحدة على رَسُول ﷺ « بتلك التعاليم التي هدمت صروح معتقدات العرب الباطلة ، وقوضت مبادئهم الخلقية والاجتماعية ، وقام الرَّسُوْل ﷺ يحاول أن يحولهم طفرة عما كانوا فيه من فساد إلى ما جاء به القُرْآن من مبادئ الإصلاح ـ لكان من ذلك رد فعل شديد ؛ يأتي بعكس النتيجة المطلوبة من إنزاله ، ولما كان استعداد الأمة يهيئها لقبول تعاليمه الحكيمة ، فكان من حكمة الله الذي يعلم طبائع الشعوب أن يأخذهم بسياسة التهذيب التدريجي ؛ ليكون تحولهم عما كانوا عليه أشبه ما يكون بالسنة الطبيعية في تدرج الكائنات الحية ... وكذلك الشأن في المحظورات التي لم يحرمها عليهم دفعة واحدة، بل حظرها عليهم تدريجيًّا، حتى أَنَّهُ لم يحرم عليهم الخمر إلا بعد مضي ستة عشر عامًا من البعثة المحمدية » (٢) .

» الإعجاز النفسي في السُّنَّة :

السنة النبوية جزء من الوحي ، بدليل قوله تعالى ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ النجم: ٣ – ٤، فهي ـ كما قال الإمام القرطبي ـ كالوَحْيِ المُنَزَّلِ فِي العَمَل.

والسُّنَّةُ تحتوى على جوانب إعجازية نفسية كثيرة ، أذكر منها ما يأتي :

*** أهمية الابتسامة :**

عن أبي ذر، قال : قال رَسُول الله ﷺ : « تَبَسُّمُكَ فِي وجه أخيك صَدَقَةٌ لك ، وَأَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَنَهْيُكَ عن المنكر لك صدقة ، وَإِرْشَادُكَ الرَّجُلَ فِي أرض الضلالة لك صدقة، وَبَصَرُكَ لِلرَّجُلِ الرَّدِيءِ الْبَصَرِ لك صدقة ، وَإِمَاطَتُكَ الْحَجَرَ وَالشَّوْكَةَ وَالْعَظْمَ عن الطريق لك صدقة، وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دَلْوِكَ فِي دَلْوِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ » (١) .

---

(١) السابق ، ص ٣٥

(٢) السابق ، ص ٥٤ ـ ٥٦ ، ولمزيد من الحكم يُنْظَرُ : فتح الباري ، المكتبة السلفية ، القاهرة ، (بدون بيانات أخرى) ، ٩/ ٨

(١) حديث صحيح ، يُنْظَرُ : الإحسان في تقريب ابن حِبان ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، ط١ ، (١٩٨٨م) ، ٢/ ٢٨٧ ، حديث رقْم : ٥٢٩

في هذا الحديث الصحيح يحُثُّ النَّبِيّ ﷺ على أعمال من الخير منها « التَّبَسُّم في وجوه الناس » ، فهذا التَّبَسُّم صدقةٌ يُجازَى المسلمُ عليها ، فهو من وجوه الخير والنفع ، فهل لهذا الفعل أثر نفسي إيجابي ؟

في كتاب آلان وبربارا بيس **Allan, Barbara Pease** بعنوان : « المرجع الأكيد في لغة الجسد » ، ـ وهو من الكتب الأشهر والأكثر مبيعًا على مستوى العالم ـ يقول المؤلفان : « أثبت العِلْم أَنَّهُ كلما زاد تبسمك ، **زادت ردود أفعال الآخرين الإيجابية نحوك** **Science has proved that the more you smile, the more positive reactions others will give you** » (١) .

ويقولان في موضعين آخرين :

- « الضحك يُزيدُ كمية الأكسجين في الدم ، مما يساعد في القدرة على الشفاء وعلى تحسين الدورة الدموية، ويساعد على تمدد الأوعية القريبة من سطح الجلد » (٢) .
- « تُظهر الأبحاث أَنَّ الناس الذين يضحكون أو يبتسمون ـ حتى لو كانوا لا يشعرون بالسعادة على وجه خاص ـ يصنعون جزءًا في الجانب الأيسر من طبقة المخ يُدعى : منطقة السعادة ، يموج بالنشاط الكهربي » (٣) .

❋ **الجلوس على تَكْرِمَة صاحب البيت :**

روى الإمام مسلم في صحيحه : « ... سمعت أبا مسعود يقول : قال لنا رَسُول ﷺ : يَؤُمُّ الْقَوْمَ أقرؤهم لكتاب الله ، وَأَقْدَمُهُمْ قِرَاءَةً ، فإن كانت قراءتهم سواء فَلْيَؤُمَّهُمْ أَقْدَمُهُمْ هجرة ، فإن كانوا في الهجرة سَوَاءً فَلْيَؤُمَّهُمْ أَكْبَرُهُمْ سِنًّا ، وَلَا تَؤُمَّنَّ الرَّجُلَ في أهله ولا في سلطانه ، ولا تجلس على تَكْرِمَتِهِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا أَنْ يَأْذَنَ لَكَ – أَوْ بِإِذْنِهِ » .

قال العلماء : التَّكرمة : الفراش ونحوه ، مما يبسط لصاحب المنزل ، ويُخَصُّ به ، وقال ابن الأثير : الموضع الخاص لجلوس الرجل من فراشٍ وسريرٍ مما يُعدّ لإكرامه .

---

(١) **The Definitive Book Of Body Language, p. 71**
(٢) **Ibid, p. 79**
(٣) **Ibid, p. 80**

في هذا الأدب النبوي ، ينهى النَّبِيّ ﷺ عن أن يجلس المرءُ على فراش أو ما يخص صاحب البيت . فهل في هذا جانب نفسي مراعٍ ومعتبر؟

سأنقل هنا ما قاله **Allan, Barbara Pease** ، في كتابهما « لغة الجسد » عن مثل هذا الموقف ، ثم أتبعه بالترجمة :

« **If the boss of the house asks a visitor to be seated and the person innocently sits in the wrong chair, the boss can become agitated about this invasion of his territory and be put on the defensive . A simple question such as, 'Which chair is yours?' can avoid the negative results of making such a territorial error** »[1] .

« لو أن صاحب البيت طلب إلى زائر الجلوس ، وجلس هذا الزائر ـ دون قصد ـ على الكرسي الخطأ ، فقد يُثير هذا صاحب المنزل ؛ بسبب اقتحام مكان يخصه ويجعله هذا يتخذ موقفًا دفاعيًّا (وكأن الجالس أصبح عدوًّا له) . ويمكن لسؤال بسيط مثل : (أي كرسي يخصك ؟) أن يُجنب النتائج السلبية الناجمة عن هذا الاقتحام » .

ما رأي القارئ في هذا الأدب النبوي الراقي ؟! وأين يمكن أن نضع هذا السلوك الاجتماعي الراقي في قواعد « الإتيكيت **Etiquette** » ؟!!

ح- سادسًا الإعْجَاز الاجتماعي :

بداية فأنا أقصد بهذا العنوان سرعة انتشار الإِسْلام ، ودخوله مجتمعات جديدة ، واكتسابه أراضٍ شاسعة في وقت يُعَدُّ في التَّاريخ الإنساني لحظات معدودات . وإن أردت أن تسميه إعجازًا عسكريًّا أو سياسيًّا فلا مجال للاعتراض .

ومقصد كلامي هنا أَنَّهُ لولا أَنَّ القُرْآن والسنة من عند الله لما وجدنا لهما هذا التأثير الاجتماعي المذهل ، فهذا الإِعْجَاز دليل صدق ، وشاهد عدل على أَنَّ القُرْآن من عند الله الذي خلق البشر ، ويعلم ما يصلحهم .

(١) **Ibid, p. 206**

وإليك تفصيل هذا الإِعْجَاز .

أمة العرب قبل الإِسْلام كانت أمة متناحرة ، أعداء ، يُغير بعضها على بعض ، وينهب القويُّ منها الضعيف ، قال فيهم ربنا : ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ آل عمران: ١٠٣ ، وكان معظمهم ـ كما قال ول ديورنت ـ **بدْوًا فقراء** ـ يخضع معظمهم للدولة الرُّومَانِيَّة والفارسية ، ويذكر التَّاريخ ما قاله يزدجرد الثالث (٦٥١م) ـ ملك الفرس ـ للنُّعْمَان بْن مُقَرِّنٍ المُزَنِيُّ (ت : ٢١هـ) : « إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عددًا ولا أسوأ ذات بَيَن منكم ، قد كنا نوكِلُ بكم قرى الضواحي ليكفوناكم، لا تغزوكم فارس ولا تطمعون أن تقوموا لهم ... »[1] .

هؤلاء القوم البدو الفقراء الأعداء المتناحرون بعد ظهور نبي الإِسْلام ﷺ ونزول القُرْآن عليهم تحولوا في خَفقة برقٍ إلى كيانٍ متلاحم متماسك ، يشد بعضه بعضًا ، وإذا بهذا الكيان يُطيح بالإمبراطورية الفارسية والرومانية .

إن السرعة التي انتشر بها الإِسْلام في بيئات لا تعرف العَرَبِيَّة قد حَيَّرت مؤرخي العالم الغربي ، وهو حدث في حد ذاته يوجب الحيرة ، لم يدون التَّاريخ له نظيرًا في حياة العالم كله ، إنَّ « العبقريات التي تَمَّ لها توحيد الأمم ، أو إيتاؤها بدين جديد ، أو بدستور ـ إنما سلكت طريق السُّنَّة التدريجية للانتقالات الاجتماعية ؛ فأوجدت ما أوجدته من التجديد بواسطة أنقاض من الحالات السابقة ـ لا تقوى على البقاء إلا زمنا محدودًا ، ريثما تتهيأ الأسباب للأمة إلى الدخول في دور انتقال جديد ، تمر به إلى حالة أرقى من التي كانت فيها ، **ولكن الرِّسالَة المحمدية لم تسلك طريق تلك السُّنَّة الطبيعية** ، ولم تستخدم أنقاض الحالات السابقة لبناء الحالات التي أوجدتها ، ولكنها جاءت بالمثل العليا التي ليس وراءها مذهب ، وأقامت صروحها في بيئات طهرتها أَوْلًا من جميع البقايا الأثرية ، **فجاءت أبنيتها قائمة على أسس لا تتزعزع** ،

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، تحقيق : عبد الله بن عبد المحسن ، دار عالم الكتب ، الرياض ، ط١ ، (٢٠٠٣م) ، ٩/ ٦٢٦

حافظة لجدتها ورونقها ما بقي الدهر »[(١)] .

وإذا قارنا سرعة انتشاره باليهودية والنصرانية نجد أنَّ « الدِّيْن الموسوي لم يجاوز في انتشاره أسرة إسرائيل ، ولا يزال في الحدود التي كان عليها من لدن وجوده ، والدِّيْن المسيحي بقي نحو ثلاثة قرون محصورًا في طوائف مبعثرة ، لم تقم لها دولة ، إلى أن تولى الإمبراطورية الرُّومَانِيَّة كونستانتين الأول ، وكانت أمُّه قد ربته على الدِّيانَة المَسِيْحِيَّة ؛ فحمل قومه على النصرانية ، وأمر بتحطيم الهياكل والمعابد الوثنية واعتبر النصرانية الدِّيانَة الرسمية للإمبراطورية الرُّومَانِيَّة (٢٧٤ ـ ٣٣٧ م) »[(٢)] .

قارن ذلك بانتشار الإِسْلام في مدة هي في عمر الزمن لحظات.

ويسجِّل المؤرخون والسياسيون غير المسلمين الرُّقعة الشاسعة التي دخلها الإِسْلام ، فيقولون :

- يقول إيرنست باركر **E. Barker** أستاذ علم السياسة بجامعة كمبردج :

- « ... وفي هذا الجزء الشرقي من بحر الروم قام الإِسْلام في القرن السابع . ولم يكد **ينتشر من معقله في مكة بسرعة التيار الكهربائي حتى غمر سورية كالبرق واجتاز شمالي إفريقيا كله** . ثم تخطى بوغاز جبل طارق إلى حيث جبال البرانس »[(١)] .

- « وفي سنة ١٣١٦م اعتنق الإِسْلام خانات المغول في فارس ، وفي منتصف القرن الرابع عشر عَمَّ الإِسْلام وسط آسيا ، وبين سنتي ١٣٦٨م و١٣٧٠م أقفلت أسرة منج الوطنية أبواب الصين في وجه الأجانب ، فكانت الخاتمة أن قطع السبيل على المَسِيْحِيَّة ، ومهَّد الطريق للإسلام الذي بلغ شأوًا بعيدًا

---

(١) مُحَمَّد فريد وجدي : السيرة المحمدية تحت ضوء العِلْم والفلسفة ، مكتبة الأسرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط١ ، (١٩٩٩م) ، ص ٤٢ ـ ٤٣

(٢) السابق ، ص ٧٧

(١) تراث الإِسْلام ، الحروب الصليبية ، علي أحمد عيسى، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة (١٩٣٦م) ، ١/ ٨٥ ، ٨٦

من الاتساع ، وترامت أطرافه بفضل الأتراك العثمانيين »[(١)] .

- « ... ولكننا يجب أن نذكر وأن نعيد قائلين إن قَدَمَ الإِسْلام كانت قد رسخت في أسبانيا وصقلية ، حيث كان يمكنه أن يؤثر في الغرب »[(٢)] .

- ويقول ول ديورنت عن هذا التوسع :

- « ... ولاح أنَّ أسبانيا ستظل رومانية آمنة من الغزو وراء جبالها المنيعة وبحارها التي لا يستطيع المغيرون اجتيازها ؛ ولم يكن أحدٌ يظن أَنَّها ستصبح في هذا القرن الرابع ألمانية ، **وفي القرن الثامن بلادًا إسلامية** »[(٣)] .

- « ... فمع أَنَّ العالم الإسلامي كان قد فقد سطوته الحربية منذ رد سويبسكي الترك عن فيينا عام ١٦٨٣م ، إلا أَنَّهُ ظل مسيطرًا على المغرب والجزائر وتونس وليبيا ومصر وشبه جزيرة العرب وفلسطين وسوريا وفارس وآسيا الصغرى والقِرم وجنوبي روسيا وبسارابيا وملدافيا وولاشيا (رومانيا) وبلغاريا والصرب (يوغسلافيا) والجبل الأسود والبوسنة ودلماشيا واليونان وكريت وجزر الأرخبيل وتركيا. وهذه الأقطار كلها ـ باستثناء فارس ـ كانت جزءًا من إمبراطورية الأتراك العثمانيين المترامية الأطراف »[(١)] .

وكان من البلاد التي دخلها العرب المسلمون « **بلاد فارس** » ، وهذا الدخول « **حدث تاريخي** » له قيمته ووزنه ، وهو حدث ـ لو يعلم الناس ـ عظيم ، ولهو دليل ناصعٌ على أَنَّ الإِسْلام دِيْن الله الحق .

ولكي نقف على قيمة هذا الحدث التَّارِيخِيّ العظيم الذي حققه العرب المسلمون على الفرس يجب أَوْلًا أن أبين لك : بلاد فارس ما هي ؟ وما مدى ثراؤها وغِناها وقوتها وعلمها ؟ فكلما وقفنا على قوة هذه البلاد أدركت قيمة ما فعله العرب

---

(١) السابق ، ١/ ١٤٥

(٢) السابق ، ١/ ١٠٥

(٣) قِصَّة الحَضَارَةِ ، م٦ ، ١٢/ ٤٦ ـ ٤٧

(١) السابق ، م١٠ ، ٤/ ٥ ، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٦م

المسلمون بفتح هذه البلاد .

في الأزمان الغابرة ، قبل بعثة النَّبِيّ ﷺ كانت لمصر إمبراطورية كبيرة ، دخلت بلاد فارس في صراع معها ؛ أدى إلى سقوط « مصر ، وتم خلع الفرعون . كانت تلك نهاية الإمبراطورية المصرية ، والتي استمرت لما يقرب من ثلاثة آلاف عام ! ومع نهايتها أصبحت هذه القبيلة الفارسية الصغيرة سيدة العالم الذي كان يعرفه الناس تقريبًا. .. **حكم داريوش إمبراطورية الفرس الواسعة، التي امتدت حينها من مصر إلى حدود الهند، إلى درجة أَنَّهُ لم يكن لشيء أن يحدث في أي مكان في العالم إلا بأمر منه** » (١) .

ويخبرنا ول ديورنت عن الثراء الفاحش لملوك الفرس ، فيذكر :

⇦ « ولقد كان في خزائن كسرى أبرويز في عام ٦٢٦م ما قيمته ٤٦٠.٠٠٠.٠٠٠ دولار أمريكي ، وكان دخله السنوي يقدر بنحو ١٧٠.٠٠٠.٠٠٠ دولار وهما مبلغان ضخمان إذا ذكرنا ما كان للفضة والذهب من قوة الشراء في العصور الوسطى » (٢) .

⇦ « وكانت حياة الملك مثقلة بالواجبات والتبعات التي لا آخر لها. فقد كان ينتظر منه أن يخرج للصيد والقنص بلا خوف ، وكان يخرج إليه في هودج مزركش ، تجره عشرةٌ من الجمال ، وعليه ثيابه الملكية. وكانت سبعة جمال تحمل عرشه ، ومائة جمل تحمل الشعراء المنشدين. وقد يكون في ركابه عشرة آلاف من الفرسان ؛ ولكن إذا صدقنا ما كتب من النقوش الساسانية على الصخور قلنا : إِنَّهُ كان ينبغي له آخر الأمر أن يمتطي صهوة جواد، ويواجه بنفسه وعلاً، أو غزالًا، أو رئمًا، أو جاموسًا بريًّا، أو نمرًا ، أو أسدًا ، أو غيرها من الوحوش التي جمعت في حديقة حيوان الملك أو جنته . فإذا عاد من الصيد إلى قصره واجه مهام الحكم الشاقة، وسط ألف من الحشم ، وفي حفلات لا آخر لها . **وكان عليه أن يرتدي ثيابًا مثقلة بالجواهر ، وأن يجلس على عرش من الذهب ، ويضع على**

(١) إي إتش غومبريتش : مختصر تاريخ العالم ، تَرْجَمَة د. ابتهال الخطيب ، عالم المعرفة ، الكويت ، ع ٤٠٠ ، مايو ، (٢٠١٣م) ، ص ٧٠

(٢) قِصَّة الحَضَارَةِ ، م٦ ، ١٢/ ٢٨٣

رأسه تاجًا يبلغ من الثقل حدًا لابد معه أن يعلق على مسافة جد صغيرة ، لا يمكن رؤيتها ، من رأسه الذي لا يستطيع تحريكه. وعلى هذا النحو كان يستقبل الشعراء، والأضياف، ويتبع ما لا يحصى من المراسم الشاقة الدقيقة، ويصدر الأحكام، ويستقبل الوافدين الذين حددت لهم المواعيد ويتلقى التقريرات. وكان على الذين يدخلون عليه أن يخروا سجدًا أمامه، ويقبلوا الأرض بين يديه ، وألا يقفوا إلا إذا أمرهم بالوقوف ، **ولا يتحدثوا إليه إلا وفي فمهم منديل،** خشية أن تعدي أنفاسهم الملك أو تدنسه. فإذا جاء الليل دخل على إحدى زوجاته أو محظياته يبذر فيها بذوره العليا »[(١)] .

وفي الوقت الذي ولد فيه النَّبِيّ ﷺ كان ملك الفرس في هذا الوقت خسرو الأول (٥٣١ ـ ٥٧٩م) ـ كسرى أنوشروان ـ ، « وقد امتد حكمه ثمانية وأربعين عامًا كسب فيها كل ما خاضه من الوقائع عدا واقعة واحدة ؛ ووسع حدود إمبراطوريته في جميع جهاتها ، **وجعل بلاد الفرس أقوى منها في أي عهد آخر بعد عهد دارا الأول** ووهبها نظامًا من الحكم بلغ من شأنه أَنَّ العرب حين فتحوا تلك البلاد فيما بعد اتخذوه نظامًا لحكمها دون أن يدخلوا عليه تغييرًا يستحق الذكر. ويكاد كسرى أن يكون معاصرًا لجستنيان؛ **ولكن معاصريهما مجمعون على أَنَّهُ أعظم الملكين،** ويعده من جاء بعده من الفرس أقوى من حكم بلادهم في تاريخها كله وأعظمهم شأنًا »[(١)] .

وبلغت الفرس من العِلْم والفضل والثقافة قَدْرًا لا يُقادَر ، وحدًّا جعلت شيخ الإِسْلام ابْن تَيْمِيَّة نفسه رَحِمَهُ اللهُ يعترف به ؛ أي يعترف بفضلهم على غيرهم من الأعاجم ، فأشار إلى أَنَّ « اسم العجم يعم في اللغة كل من ليس من العرب، **ثم لما كان العِلْم والإيمان في أبناء فارس أكثر منه في غيرهم من العجم؛ كانوا هم أفضل الأعاجم**، فغلب لفظ العجم في عرف العامة المتأخرين عليهم »[(٢)] .

(١) السابق ، م٦ ، ١٢/ ٢٨٥

(١) السابق ، م٦ ، ١٢/ ٢٩٤

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ، ص ١٦٥ ، ١٦٦

وعندما ظهرت حركة الشعوبية[(١)] بين العرب والفرس ، والتي طمح فيها الفرس أن يتفوقوا على العرب ، كانت أحد مبرراتهم أَنَّهُمْ « قد بنوا وأداروا إمبراطوريات قوية مزدهرة ، وأبدعوا ثقافة راقية على مدى قرون ، بينما كان العرب يطاردون الجمال في الصحراء »[(٢)] .

ولك الآن أن تتخيل بعد كل هذه الحقائق أن بلاد فارس تلك سقطت في أيدي العرب المسلمين بعد سلسلة من المعارك : معركة الجسر ، والبويب ، والقادسية ، وفتح الفتوح . سقطت فارس بكل قوتها وثرائها وغناها واتساعها أمام العرب المسلمين البدو الفقراء الأعداء ! وإذا قلنا إنَّ الإِسْلام بدأ بنزول الوحي على النَّبِيّ ﷺ عام ٦١١م ، وأنَّ انتصار سعد بن أبي وقاص على الفرس في القادسية عام ٦٣٦م فإن الفترة الزمنية بين النزول والانتصار ٢٥ عامًا ، وهذا يعني أَنَّ الإِسْلام : قرآنًا وسنة قد استطاع خلال هذه الفترة الموجزة التي لا تساوي في التَّاريخ البشري شَيْئًا أن ينتصر على إحدى أكبر الإمبراطوريات على مر التاريخ.

وأنقل لك دهشة المؤرخ ويل ديورنت عن هذا السقوط ، فيقول : «... وكان الفرس وحدهم مشكلة مستعصية على الحل ؛ فقد كانوا يزدادون قوة لا ضعفًا ؛ ولم يمض إلا قليل من الوقت ؛ حتى استعادوا كل ما كان دارا الأول يبسط عليه سلطانه قبل ألف عام من ذلك الوقت ، إلا قليلاً منه.

وكان في غرب بلادهم العرب ، **ومعظمهم من البدو الفقراء ؛ ولو إن إنسانًا في ذلك الوقت قد قال إن أولئك الأقوام الرحل الواجمين ، قد كتب لهم أن يستولوا على نصف الإمبراطورية الرُّومَانِيَّة ، وعلى بلاد الفرس كلها ، لسخر من قوله هذا أحكم**

(١) الشعوبية : فرقة من الناس ذهبت إلى أَنَّهُ لا فضل لجنس العرب على جنس العجم ، وهؤلاء يسمون الشعوبية لانتصارهم للشعوب التي هي مغايرة للقبائل ، كما قيل : القبائل للعرب ، والشعوب للعجم . يُنْظَرُ : اقتضاء الصراط المستقيم ، ١٤٩

(٢) **Jr. Arthur Goldschmidt, A Concise History of the Middle East, WestviewPress, fifth edition, 1996, p.73**

الساسة وأنفذهم بصيرة »[(١)] .

وبعد أن بسط الإِسْلام نفوذه وسلطانه على تلك البلاد أتي بنظام « **سياسي** » جديد كل الجِدَّة هو نظام « **الخلافة** » التي لم تكن تقليدًا مقصودًا لشكل سبق وجوده من الحضارة والتنظيم السياسي ، بل كانت وليدة زمنها ، فلقد « كانت دولة الخلافة ، بكل المقاييس ومن جهة نظر الأطراف المختلفة ، وفي الفكر والتطبيق نظامًا جديدًا يختلف عن الدول والأنظمة التي عاصرته أو سبقته إلى حد كبير »[(٢)] .

وعلى العكس « من كل أنظمة الحكم هذه ، عربية أو فارسية أو بيزنطية كانت دولة الخلافة ونظامها جديدة جدة الظروف التي ولدتها ، وأحاطت بنشأتها ، ومبتكرًا بفعل الطبيعة الجديدة للدين الجديد والآثار الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي أحدثها في شبه الجزيرة ظهور الإِسْلام . فلم تكن ملكية وراثية ، ولم تكن قبيلة عشائرية ، ولم تكن حكومة حربية يختار فيها الجيش رأس الدولة ، ولم تكن قائمة على نظرية الحق الإلهي ، بل لقد أخرج قادتُها بوعي الخلافةَ من بيت النبوة في البداية ؛ حتى لا تجتمع النبوة والخلافة ، لا في شخص واحد بل ولا في بيت واحد ؛ فتتأبد فيه بفعل عوامل الدِّيْن وقداسته ... ولم يكن النظام الطبقي عمادها ، بل لقد قامت على مناقضة له إلى حد كبير »[(١)] .

والسؤال الآن : ما المكون الذي دخل في نسيج الشخصية العَرَبِيَّة وحولها في برهة من الزمن إلى شخصية لها كيانها المتميز ؟ الإجابة بكل جلاء ووضوح إِنَّهُ الإِسْلام : القُرْآن والسنة . فبفضلهما قامت دولة الإِسْلام وانتشرت وامتدت !

ولم يكن هذا الامتداد والانتشار مقصورًا على فترات القوة في التَّاريخ الإسلامي

---

(١) قِصَّة الحَضَارَةِ ، م ٦، ١٢/ ٤٦

(٢) د. مُحَمَّد عمارة : الخلافة ونشأة الأحزاب الإسلامية ، كتاب الهلال ، القاهرة ، ع ٣٨٩ ، مايو ١٩٨٣م ، ص ٦٠

(١) السابق ، ص ٥٧

بل حتى في فترات الضعف التي مر بها الإِسْلام ، فقد استمر الانتشار ، « وهذا يدل دلالة **لا تقبل النقض على أن قوام [دعوة الإِسْلام] عنصر أدبي ، له وقع عظيم في النفوس ؛ لبقائه مؤديًا مهمته في أثناء دور الفتور الذي أصاب جماعته ، وقد شوهد أَنَّهُ اشتد وازداد سلطانًا على العقول عندما بلغ هذا الفتور أقصى درجاته في القرن الأخير** »[(١)] .

أليس من الممكن أن نعتبر هذا الامتداد إعجازًا اجتماعيًّا يشهد للقرآن أَنَّهُ كلام الله ؟ بلى ، إِنَّهُ كذلك .

خ- سابعًا الإِعْجَاز التشريعي :

بداية ـ قبل أنَ أتحدث عن الإِعْجَاز التشريعي ـ أثبت تلك الكلمات التي قالها العلامة والقانوني الشهير د. عبد الرزاق السنهوري [(١)] (ت : ١٩٧١م) عن الشريعة الإسلامية الغراء ، إذ يقول :

⇦ « الإِسْلام دِيْن ومَدَنِيَّةٌ ، أساسها الشريعة الإسلامية ... وهي أكثر تهذيبًا من المَدنِيَّة الأوربية .. وإن تقليدنا للمدنية الغربية يجعلنا أمة طفيلية ، تُرقِّع لها ثوبًا من فضلات الأقمشة التي يلقيها الخياطون » .

⇦ « الشريعة الإسلامية : هي النور الذي نضيء به جوانب الثقافة العالمية في

---

(١) مُحَمَّد فريد وجدي: السيرة المحمدية تحت ضوء العِلْم والفلسفة، ص ٧٣

(١) د.عبد الرزاق بن أحمد السنهوري ، كبير علماء القانون المدني في عصره ، مصري ، ولد في الإسكندرية ، وتخرج بالحقوق في القاهرة ١٩١٧م ، واختير في بعثة إلى فرنسا ١٩٢١م ؛ فحصل على الدكتوراه في القانون والاقتصاد والسياسة ١٩٢٦، وتولى وزارة المعارف بمصر عدة مرات، واختير عضوا بمجمع اللغة العَرَبِيَّة ١٩٤٦، وعين رئيسا لمجلس الدولة بمصر (١٩٤٩ - ٥٤) واضطهد مدة؛ فصبر. ووضع قوانين مدنية كثيرة لمصر والعراق وسورية وليبيا والكويت. وحصل سنة ١٩٧٠على جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية. وتوفي بالقاهرة. من كتبه المطبوعة: أصول القانون و نظرية العقد في الفقه الإسلامي و الوسيط ، في التشريع الإسلامي، وشرح القانون المدني في العقود، و مصادر الحق في الفقه الإسلامي . ينظر: الزركلي :الأعلام ، ٣/ ٣٥٠

القانون. الفقه الإسلامي : صفحة خالدة في سجل الفقه العالمي ، وإن استعارتنا للقانون الغربي تطفل على فوائد الغير ، وتسقط لفضلات الطعام »[(١)] .

تلك كلمات العَلَّامَة والفقيه القانوني الشهير ، الذي لا يُشَقُّ له غبار في القانون وتشريعاته ، وإذا أتت الشهادة من متخصص كان لها قيمتها فالشهادة من متخصص في مجاله غير شهادة العابر الهاوي، وكما قال القُرْآن ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ فاطر: ١٤ ، فلنصطحب تلك الكلمات عند حديثنا عن الإعجاز التشريعي في القُرْآن والسنة ، ولنكن منه على ذُكْرٍ .

يمكن أن نتناول بالحديث الإِعْجَاز التشريعي من جانبين :

- الإعجاز التشريعي كـ « كِيان كامل » .
- الإعجاز التشريعي في بنوده ومفرداته .

- **الإعجاز التشريعي كـ « كِيان كامل »** :

إذا نظرنا إلى الشريعة الإسلامية الغراء ككيان كامل متكامل نجد فيه مظاهر الإِعْجَاز ظاهرة واضحة ، فهذا الكيان المتكامل الكامل لا يمكن أن يكون صنع بشر بل هو صنع عليم خبير ، والأدلة على ذلك كما يأتي :

١ـ مخالفة السنن الاجتماعية في النمو القانوني :

مما يقرره علم الاجتماع أَنَّ النمو القانوني نتاج نضج ثقافي وحضاري للأمم ، ولكي يظهر قانونٌ متكاملٌ ناضجٌ في أمةٍ يجب أن تكون تلك الأمة قد قطعت شوطًا طويلا في مضمار الحضارة والمدنية والعلم ، **وهذا لا شك يحتاج إلى قرون متطاولة** .

أما من ألزم نفسه « دراسة السيرة النبوية بالجوانب الإنسانية المجردة ، وراح يحللها بعيدًا عن الهوية التي قدَّم النَّبِيّ ﷺ نفسه للناس على أساسها ، لا بد أن يحبس نفسه ضمن ألغاز مغلقة ، لا سبيل إلى الخروج منها بأي تحليل . .. ولا بد مثلًا أن يقف حائرًا كل الحيرة ، أمام لغز القانون الذي تكامل في الجزيرة العَرَبِيَّة قبل أن ينمو

(١) د.محمد عمارة : د. عبد الرزاق السنهوري ، إسلامية الدولة والمدنية والقانون ، دار الرشاد ، القاهرة ، ط ١، (١٩٩٩م) ، غلاف الكتاب.

فيها نبت أيِّ ثقافة ، وقبل أن يمتدَّ عليها رواق أي مدنية أو حضارة ، تشريعٌ متكامل تُوِّجت به الجزيرة العَرَبِيَّة ، وهي لا تزال في مرحلة المهد من سعيها إلى المعرفة والثقافة والحياة الاجتماعية المعقدة ، كيف يتفق ذلك مع ما هو بدهي عند علماء الاجتماع من أنَّ نشأة القانون المتكامل في حياة الأمة ثمرة لنضجها الثقافي والحضاري ، ونتيجة لتركيبها الاجتماعي المتطور؟! »[1] .

٢ـ نجاح هذه الشريعة في رفع أقل الأمم شأنًا في التَّاريخ والرقي بها :

من دلائل إعجاز هذه الشريعة أنها نجحت في « أن ترفع من وَهدَةِ الجاهلية ، وتنزع من براثن الأمية أمةً متناحرة ممزقة شراذم وترفعها إلى مصاف الأمم ذوات الحضارة بل تضعها على قمة هذه الحضارات ، إن من يدرس أمر هذه الجماعة يناله الدهش « للنقلة البعيدة السامقة الرفيعة التي انتهى إليها هذا المنهج العجيب الفريد بالجماعة المسلمة . وقد التقطها من ذلك السفح الهابط ، الذي تمثله تلك الرواسب ؛ فارتقى بها إلى تلك القمة ، رويدًا رويدًا ، في يسر ورفق ، وفي ثبات وصبر ، وفي خطو متناسق موزون ! والذي يدقق النظر في هذه الظاهرة الفريدة في تاريخ البشرية ؛ يتجلى له جانب من حكمة الله في اختيار الأُمِّيين في الجزيرة العَرَبِيَّة ، في ذلك الحين ، لهذه الرِّسالَة العظيمة ، **حيث يمثلون سفح الجاهلية الكاملة ، بكل مقوماتها ، الاعتقادية والتصورية ، والعقلية والفكرية ، والأخلاقية والاجتماعية ، والاقتصادية والسياسية ؛ ليعرف فيهم أثر هذا المنهج ؛ وليتبين فيهم كيف تتم المعجزة الخارقة، التي لا يملك أن يأتي بها منهج آخر** ، في كل ما عرفت الأرض من مناهج ، وليرسم فيهم خط هذا المنهج ، بكل مراحله ـ من السفح إلى القمة ـ وبكل ظواهره ، وبكل تجاربه ؛ ولترى البشرية ـ في عمرها كله ـ أين تجد المنهج الذي يأخذ بيدها إلى القمة السامقة ، أيًّا كان موقفها في المرتقى الصاعد . سواء كانت في درجة من درجاته ، أم كانت في سفحه الذي التقط منه الأميين »[1] .

(١) د. مُحَمَّد سعيد البوطي : فقه السيرة ، ص ٢٨ ـ ٢٩

(١) سيد قطب : في ظلال القُرْآن ، ١/ ٥٥٦

٣ـ مرونة الشريعة الإسلامية وصلاحيتها لكل زمان ومكان :

مما يشير إليه علماء الاجتماع أنَّ « من أهم الخواص التي تمتاز بها نظم الاجتماع الإنساني أَنَّها لا تَجمدُ على حال واحدة ، بل تختلف أوضاعها باختلاف الأمم والشعوب ، وتختلف في المجتمع الواحد باختلاف العصور ، فمن المستحيل أن نجد أمتين تتفقان تمام الاتفاق في نظام اجتماعي ما ، وفي طرائق تطبيقه ، كما أَنَّهُ من المستحيل أن نجد نظامًا اجتماعِيًّا قد ظل على حال واحدة في أمة ما في مختلف مراحل حياتها .

وتصدُقُ هذه الحقيقة على شئون السياسة والاقتصاد والأسرة والقضاء والتربية وسائر أنواع الظواهر الاجتماعية ، حتى ما تعلَّق منها بشئون الأخلاق ومقاييس الخير والشر ، والفضيلة والرذيلة ، فما يكون خيرًا في مجتمع قد يكون شرًّا في مجتمع آخر ، وما تعدُّه أمةٌ فضيلة قد تعده أمة أخرى رذيلة ، وما يراه شعب مباحًا قد يراه شعب غيره محظورًا ، وكثيرًا ما يختلف الحكم من الوجهة الخلقية على الشيء الواحد في أمة ما باختلاف عصورها » (١) .

ويشهد التَّاريخ على ذلك ، أي : يشهد التَّاريخ على استحالة ثبات النظام الاجتماعي ، ويقدم الأمثلة التي تؤيد هذا الأمر ، فعلى سبيل المثال يحدثنا التَّاريخ عن قانون « ثيودوسيوس ٤٠١م ـ ٤٥٠م » (٢) ، وأَنَّهُ بعد مرور قرن من الزمان على وضعه « أضحت كثير من أصوله عتيقة ، لا تُطبق لتغير الظروف التي شرعت فيها ، وسُنَّتْ قوانين جديدة كثيرة اختلطت بعضها ببعض في كتب القوانين ، ووجِدَ تناقضٌ كثير بين بعض القوانين والبعض الآخر عاق أعمال المحاكم والسلطة التنفيذية » (٣) .

---

(١) د. علي عبد الواحد وافي : غرائب النظم والتقاليد والعادات ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، (بدون بيانات أخرى) ، ١/ ٥

(٢) أحد أباطرة الرُّومَان ، إمبراطور الشرق (٤٠٨م ـ ٤٥٠م) ، دعا مجمع أفسوس للانعقاد ٤٣٨ م ، ونشر القانون الثيودوسيوسي ٤٣٨م . يُنْظَرُ : المَوْسُوعَة العَرَبِيَّة الميسرة ، ص ٥٨٩

(٣) ول ديورنت : قِصَّة الحَضَارَةِ ، م٦، ١٢/ ٢٢٤

ومثال آخر يقدِّمُه التَّاريخ عن الكَنِيسَة ، إذ وقعت الكَنِيسَة في شَرَك هذه السنة الاجتماعية ، سنة التطور الاجتماعي ، ووضعت نفسها في مأزق لا فكاك منه ، فالكنيسة لم يخالجها « شكٌّ في أنَّ بقاءها يتطلب تنظيمها ، وفي أنَّ هذا التنظيم يتطلب الاتفاق على مبادئ وعقائد أساسية ، وَأَنَّ **الكثرة الغالبة من أتباعها تتوق إلى أن ترجع إلى عقائد مقرَّرة ثابتة ؛ فحددت من أجل ذلك عقيدتها في قواعد مقررة لا تبديل فيها ، وجعلت الشك في هذه القواعد ذنبًا ، وتورطت في نزاع لا نهاية له مع عقل الإِنْسَان المرن وآرائه المتغيرة** »[(١)] .

والوضع مع الشريعة الإسلامية الرَّبَّانِيَّة يختلف تمامًا ، فقد استطاعت هذه الشريعة الغراء أن تتجنب هذه السنن ، وتتعامل معها ، وتمتصها ؛ فالشريعة الإسلامية تصلح لكل زمان ومكان . قال العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ : « الأحكام نوعان : نوع لا يتغير عن حالة واحدة ، هو عليها. لا بحسب الأزمنة ولا الأمكنة، ولا اجتهاد الأئمة ، كوجوب الواجبات ، وتحريم المحرمات، والحدود المقدرة بالشرع على الجرائم ، ونحو ذلك ، فهذا لا يتطرق إليه تغيير ولا اجتهاد يخالف ما وضع عليه.

والنوع الثانى : ما يتغير بحسب اقتضاء المصلحة له ، زمانًا ومكانًا وحالًا ، كمقادير التعزيرات وأجناسها وصفاتها. فإنَّ الشارع يُنوِّعُ فيها بحسب المصلحة ؛ فشرع التعزير بالقتل لمدمن الخمر فى المرة الرابعة »[(١)] .

فالشريعة الإسلامية تراعي مصالح العباد وعرفهم وبيئتهم ، لذلك تغير من أحكامها الفقهية ـ وليس أصولها الكلية ـ تبعًا لذلك .

ولأن مراعاة المصالح من عُمُد التشريع الإسلامي فإن الشارع « عَلَّلَ الأحكام ؛ ليرشدنا إلى أَنَّ الحكم يتبع عِلته ، ويتغير بتغيرها في الكثير الغالب ،

---

(١) السابق ، م٦ ، ١٢/ ١٥٨

(١) ابن قيم الجوزية : إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ، تحقيق : مُحَمَّد حامد الفقي ، دار المعرفة، بيروت ، ط٢ ، (١٩٧٥م) ، ١/ ٣٣٠ ، ٣٣١

وبخاصة في مسائل المعاملات التي كثيرًا ما تتأثر باختلاف المكان وتغير الزمان ... **ولأجل مراعاة المصالح لم يتناول القُرْآن بالتفصيل أحكام المعاملات المالية الجنائية والدولية والقضائية والدستورية ، وما شابه ذلك مما يتغير بتغير البيئة ويتأثر باختلاف النظم ، وما كان سكوت الشارع عن هذا نسيانًا منه** ... إنما كان رأفة بالناس حتى يكون ولاة الأمر والمجتهدون في كل عصر في سعة من أن يفصلوا قوانينهم فيها حسب ما يحقق مصالح الناس في حدود الأسس العامة للتشريع الإسلامي من غير اصطدام بنص قطعي فيها »[(١)] .

والإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ « قد تأثر في كثير من أحكامه الخاصة بالمعاملات والبيئة والعرف ؛ مما أدى بتلاميذه أن ينقلوا عنه مذهبين : مذهبًا يصور آراءه وهو بالعراق متأثرًا ببيئتها ، وما اعتاده الناس فيها ، ثم مذهبًا يصور آراءه بعد أن رحل إلى مصر ، وتأثر بما عليه الناس فيها ، ونجد الرأي في المذهب الجديد يختلف عنه في المذهب القديم ، وفي كتب الحنفية ما يصور هذا ؛ فيقولون كثيرًا : إن هذا اختلاف عصر وزمان ، لا اختلاف حجة وبرهان »[(٢)] .

ومن القواعد الفقهية التي أقرها الفقهاء قاعدتُهم : « لا يُنكر تغير الأحكام بتغير الأزمان » ، وقالوا في شرحها : « لَا يُنكر تغير الْأَحْكَام بِتَغَيُّر الْأَزْمَان ؛ أَي: بِتَغَيُّر عُرف أَهلهَا وعادتهم ، فَإِذا كَانَ عرفهم وعادتهم يستدعيان حكمًا ثمَّ تغيرا إِلَى عرف وَعَادَة أخرى فَإِنَّ الحكم يتَغَيَّر إِلَى مَا يُوَافق مَا انتقل إِلَيْهِ عرفهم وعادتهم »[(٣)] .

٤ـ معيار الدِّيْن الحَق :

من المعايير التي أرساها العلماء للدِّين الحق اشتماله على مبادئ وقوانين تغطي كل

---

(١) د.محمد سلام مدكور : الإِسْلام والمجتمع المتطور ، كتاب العربي ١٤ ، يناير ١٩٨٧م ، الكويت ، ص ١١٤

(٢) السابق ، ص ١١٧

(٣) أحمد بن الشيخ مُحَمَّد الزرقا : شرح القواعد الفقهية ، دار القلم ، دمشق ، ط٢ ، (١٩٨٩م) ، ص ٢٢٧

جوانب الحياة ، الروحية والعملية ، الفكرية والدنيوية . يقول د. مُحَمَّد عبد الله دراز : « غير أَنَّهُ لما كانت الفضيلة العملية يمكن أن تتناول حياة الإِنْسَان في نفسه ، وفي مختلف علائقه مع الخلق ، ومع الرب ، كان القانون الأخلاقي الكامل هو الذي يرسم طريق المعاملة الإلهية ، كما يرسم طريق المعاملة الإنسانية . وكذلك لما كانت الفكرة الدينية الناضجة هي التي لا تجعل من الألوهية مبدأ تدبير فعَّال فحسب ؛ بل مصدر حكم وتشريع في الوقت نفسه ، **كان القانون الديني الكامل هو الذي لا يقف عند وصف الحقائق العليا النظرية ، وإغراء النفس بحبها وتقديسها ، بل يمتد إلى وجوه النشاط المختلفة في الحياة العَمَلِيَّة** ، فيضع لها المنهاج السَّوِيّ الذي يجب أن يسير عليه الفرد والجماعة »(١) .

فالقانون الديني الكامل هو :

- ✓ الذي لا يقف عند وصف الحقائق العليا النظرية .
- ✓ يمتد إلى وجوه النشاط المختلفة في الحياة العملية .

وهذا الجمع بين الحقائق العليا النظرية والحياة العملية أمر منطقي يوجبه العَقْل ؛ فلا يُتَصور شرع يهتم بالجوانب الروحية ويهمل : المعاملات المالية ، والأمور الاجتماعية (الزواج ـ الطلاق ـ السرقة ـ الاغتصاب ـ الاعتداء ....) ، فالبشر ليسوا ملائكة ، ولكن تحكمهم النوازع البشرية والشهوات الإنسانية (الجنس ـ الطمع ـ حب الظهور ...) ، ويشهد الواقع والتاريخ أنَّ من أمن العقوبة أساء الأدب من بني آدم ، وأن محاولة كبت الشهوات الإنسانية يؤدي إلى كارثة ، إذا لم تُنظم.

إذا طبقنا هذا المعيار على الإِسْلام والمسيحية مثلًا نجد الآتي :

الشريعة الإسلامية لم تترك صغيرة ولا كبيرة في حياة المسلم إلا نظمتها وبينتها له حتى في « آداب قضاء الحاجة » ، فقد عَلَّمَتِ الشريعة الغراء المسلم كيف يَتَطَهَّر ، وكيف يزيل الأذى عن نفسه . روى الإمامُ مسلمٌ رَحِمَهُ اللهُ في صحيحه عن الصحابي الجليل سلمان الفارسي (باب الاستطابة) : « عن عبد الرحمن بن يزيد ، عن سَلْمَانَ قال : قال لنا المشركون : إني أرى صاحبكم يُعَلِّمُكُمْ ؛ حتى يعلمكم الْخِرَاءَةُ ، فقال :

(١) الدِّيْن بحوث ممهدة لتاريخ الأديان ، ص ٥٦

أجل، إِنَّهُ نهانا أن يَسْتَنْجِي أحدنا بيمينه ، أو يستقبل القبلة ، ونهى عن الرَّوْثِ والعظام ، وقال: لا يستنجي أحدكم بدون ثلاثة أحجار ».

أما المَسِيْحِيَّة فلها جانبها الروحي الذي قالت به ، أما الجانب التشريعي ـ الخاص بالحياة العَمَلِيَّة ـ فلا وجود له . فالبلاد المَسِيْحِيَّة لم يكن لها « **قانون يرجع إلى دِيْن** ... بل كان قانونهم الذي يتحاكمون إليه قانونًا وضعيًّا يرجع إلى القانون الروماني ، بل كان مستمدًا منه بوضوح ، إن لم يكن هو نفسه بشيء من التعديل . وظل الأمر كذلك حتى جاء نابليون ، وصار إمبراطورًا لفرنسا ، ورأى إصدار قانون مدني مكتوب يتحاكمون إليه ؛ فلجأ إلى ما كان معروفًا عندهم ومعمولًا به من القانون الروماني ، وإلى الأعراف والعادات القانونية التي تأصلت في البلاد ، وجعل من مجموع هذا وذاك قانونه المعروف باسمه حتى اليوم ، وقد صدر سنة ١٨٠٤م »[(١)] .

بل إن البلاد المَسِيْحِيَّة نفسها أخذت بالشريعة الإسلامية ومبادئها لكي تنظم الحياة العملية لديها ، يقول د. سيد عبد حسين ـ أحد الباحثين الذين درسوا تأثير الشريعة الإسلامية في القانون الفرنسي ـ في مقدمة أحد مؤلفاته : « وقد أجمع المتشرعون الوضعيون إجماعًا سكوتيًّا قاطعًا على عدم ذكر التشريع الإسلامي **كتشريع ملأ طباق الأرض عدلًا وعلمًا** ، وقد كان يُحكم به في بلادهم مئات السنين ، يوم أن كانوا يتخبطون في ظلمات الجهالة ، وقد كنت كلما تقدمت في الدراسة بجامعتهم أجد النصوص هي النصوص ، بل والتعليل للأحكام عندهم هو التعليل في التشريع الإسلامي ، خصوصًا في مذهب الإمام مالك ـ رضي الله عنه ـ . والذي ساعدني على ذلك دراستي للعلوم الشرعية الأزهرية على اختلافها خمسة عشر عامًا ، فقد نلت شهادة الأهلية على مذهب الإمام مالك ، ونلت شهادة العالمية على مذهب الإمام أبي حنيفة ، ودرست الحقوق الفرنسية بجامعة ليون بفرنسا ، وفيها القانون الروماني وتاريخه ، والقوانين الفرنسية وتواريخها ، ونلت الليسانس منها .

---

(١) د.محمد يوسف موسى : التشريع الإسلامي وأثره في الفقه الغربي ، المكتبة الثَّقافِيَّة ١٩ ، دار القلم ، أغسطس ، القاهرة ، (١٩٦٠م) ، ص ٩٦

لهذا رأيت واجبًا عَيْنِيًّا على مثلي أن يقدم هذا الكتاب إلى المسلمين جميعًا عامة ، وإلى المتشرعين خاصة ؛ ليعرفوا موقف التشريع الإسلامي من القوانين الوضعية، وكيف كان منهلًا عذبًا **لكل وارد ، وكيف أنكروا فضله ، وسكتوا حتى عن ذكر اسمه! فترجمت فقه القانون المدني الفرنسي ، وقارنت أصوله وقواعده بما يوافق أو يخالف ذلك من مذهب الإمام مالك ، فكان ذلك دليلًا على ما ادَّعيت من أَنَّ القانون الفرنسي ـ وهو أصل القوانين التشريعية الوضعية ـ مأخوذ من مذهب الإمام مالك ابن أنس ـ رضي الله عنه ـ** »(١) .

ونجد الكَنِيسَة الأرثوذكسية في مصر تأخذ بأحكام الميراث والمواريث في الشريعة الإسلامية ؛ لأنها لا تملك تشريعًا في هذا الأمر ، ولو وجدت أفضل منه ما تردَّدَتْ لحظة واحدة في تركه.

- **الإعجاز التشريعي في بنوده ومفرداته :**

إذا نظرنا في الشريعة الإسلامِية وجدنا جوانب الإِعْجَاز في أحكامها وبنودها ، فكثير من أحكام الشريعة تدل دلالة ظاهرة على مصدرية ربانيتها ، وَأَنَّهَا ليست من صنع البشر .

ولا نستطيع بالطبع أن نغطي كل جوانب الإِعْجَاز التشريعي في الشريعة الإسلامية المباركة ؛ لذلك سنعطي بعض الأمثلة على هذه الإعجازية .

⇦ المثال الأول تحريم أكل المَيْتة والدم ولحم الخنزير :

حرَّمت الشريعة الإسلامية أكل لحم الميتة والدم ولحم الخنزير ، قال ربنا تعالى ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ﴾ المائدة: ٣ ، وقد أثبت العِلْم الحديث مدى حكمة الشريعة الإسلامية ومبلغ صوابها في هذا التحريم :

- **العلم وتحريم أكل الميتة :**

حرمت الشريعة أكل لحم الميتة ، وأوجبت « **تذكية** » الحيوان قبل أكله ، وبدون

(١) المقارنات التشريعية ، دراسة وتحقيق : د. مُحَمَّد أحمد سراج ، على جمعة ، دار السلام ، القاهرة ط١ ، (٢٠٠١م) ، ١/ ٦١ ، ٦٢

هذه التذكية يحرم أكله ، والمقصود بالتذكية : « قتل الحيوان بإسالة دمه ، بقطع الحلقوم ، وأحد الوَدَجَين إن كان مستأنسًا ، وبجرحه في أي مكان من جسمه إن كان متوحشًا» (١) .

والتذكية لفظ عام ، يشمل : الذبح ، والنحر ، والعقر ، والصيد ، وهي سبب لإباحة أكل لحم الحيوان ، وذهب جمهور الفقهاء ـ الحنفية والمالكية والحنابلة ـ على أَنَّهُ تشترط التسمية وقت التذكية .

ويقول العِلْم إن « موت الحيوان قبل تذكيته قد يكون بسبب مرض من الأمراض العضوية أو الفيروسية التي ألمت به ، أو بسبب شيخوخة أصابته ، وهذا سبب كاف لتحريم أكل لحمه ، فإذا أضفنا إلى ذلك ما يؤدي إليه الموت دون تذكية ؛ أي دون إراقة دمه إلى احتباس كل دمه في جسده اتضحت لنا حكمة تحريم أكل لحم الميتة ، وذلك لأن الدم هو حامل فضلات الجسم المختلفة من ثاني أكسيد الكربون واليوريا وحمض اليوريك ، وجراثيم الجسم وطفيلياته ، ونواتج عمليات تمثيل الطعام في جسم الحيوان (عمليات الأيض) والتي تنقل عبر الأوردة وتفرعاتها المختلفة ، في جسم الحيوان ، وأغلبها مواد قابلة للتعفن والتحلل إذا حبست في الجسد الميت للحيوان » (٢) .

○ **العلم وأكل الدم** :

يقول العِلْم : « إن الدم المسفوح بمكوناته الأساسية ، وبما يحمله من نواتج عملية التمثيل الغذائي ، ومن عوادم وفضلات متجمعة فيه إذا حبس بداخل جسم الحيوان الميت ، أي : الذي لم يذك بالذبح الشرعي ، فَإِنَّهُ سرعان ما يبدأ في التجلط على ما فيه من سموم كانت في طريقها إلى الأجهزة المختلفة التي تَخَلَّصَ منها ، ثم في التحلل والتعفن ؛ مما ينتج كمًّا من السموم المعقدة ، والمركبات الكيميائية الأخرى

---

(١) مُحَمَّد رواس قلعه جي: مُعْجَم لغة الفقهاء، دار النفائس، بيروت، ط ٣، (٢٠١م ، ص ١٠٦

(٢) د.زغلول النجار : من آيات الإِعْجاز العِلْمِيّ ـ الحيوان في القُرْآن الكريم ، دار المعرفة ، بيروت ، ط١ ، (٢٠٠٦م) ، ص ٣٥٧

الضارة بصحة الإِنْسَان ؛ فإذا أضفنا إلى ذلك أَنَّ الدم عادة ما يحمل كَمًّا آخر من الفيروسات والجراثيم والطفيليات ، وما تفرزه من سموم ونفايات علمنا أَنَّ الدم هو حامل فضلات الجسم وجراثيمه وطفيلياته ، ومن هنا كانت الحكمة الإلهية في تحريم أكل الدم المسفوح كغذاء »(١) .

○ **العِلمُ ولحم الخنزير** :

الخنزير وصفه القُرْآن الكريم في أكثر من مقام بأنه رجس ، وهذه الكلمة « جامعة لكل معاني القذارة والقبح والنجاسة والإثم ؛ وذلك لأن الخنزير حيوان كسول ، جشع قذر رمَّام ، يأكل النبات والحيوان والجيف والقُمامة ، كما يأكل فضلاتِه هو وفضلات غيره من الحيوان ، وهذا من أسباب قيامه بدور كبير في نقل العديد من الأمراض الخطيرة للإنسان »(٢) .

ونظرًا لطبيعته الرمَّامة وقذارته الواضحة ، وأكله كلًا من النباتات واللحوم والجيف والنفايات وغير ذلك من المستقذرات فإنَّ الخنزير معرَّض للإصابة بالعديد من الأمراض من أمثال : حمرة الخنازير **Swine Erysipelas** التي تتسبب فيها أنواع خاصة من البكتيريا وتنتقل إلى الإِنْسَان ، وحمى الخنازير **Swine Fever** .

هذا بالإضافة إلى العديد من المواد المسببة للسرطان والطفيليات والجراثيم التي تعشش في لحم الخنزير ، وبعضها يتسبب في أمراض معدية للإنسان وقاتلة له في كثير من الأحيان وذلك لعدم وجود طريقة للتخلص منها على الإطلاق . ومن أخطر مسببات الأمراض في الخنزير ما يلي(٣) :

(١) ديدان التريخينا **Trichina Worms** : وهي من الديدان الأسطونية من أمثال الدودة الشعرية الحلزونية ؛ وهي من أخطر الطفيليات على الإِنْسَان ، وتتسبب في أمراض روماتيزمية عديدة ، والتهابات عضلية مؤلمة تؤدي إلى انتفاخ

---

(١) السابق ، ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩

(٢) السابق ، ص ٣٥٩

(٣) السابق ، ص ٣٦١ وما بعدها

الأنسجة العضلية وتصلبها ، وتعرف باسم داء الشعرينات الذي ينتج عن انتشار يرقات هذه الدودة في عضلات الجسم ؛ مما قد يؤدي إلى إقعاد المريض إقعادًا كاملًا ومعاناته من الآلام المبرِّحة حتى وفاته بعد أن يصاب بالتهاب المخ والنخاع الشوكي والسحايا المحيطة بها ، وبالعديد من الأمراض العصبية والعقلية المترتبة على ذلك. ويصاب حاليًا بهذا المرض نحو ٤٧ مليون شخص في الولايات المتحدة الأمريكية وحدها ، ونسبة الوفاة بين المصابين به تبلغ نحو ٣٠٪ ، والخنزير هو المصدر الوحيد لإصابة الإِنْسَان بهذا المرض الخطير .

(٢) الدودة الشريطية الوحيدة للخنزير **Pork Tape Worm** ، وتتسبب في العديد من الأمراض للإنسان من مثل فقر الدم ، واضطرابات الجهاز الهضمي ، والمغص والإسهال والقيء ، والاكتئاب الشديد ، والسوداوية ، وقد يصل ذلك إلى النوبات الصرعية ، والتشنجات العصبية الشديدة ...

(٣) الديدان الحلقية **Round Worms** : تؤدي إلى نزيف دموي حاد ، يعقبه فقر دم وإذا وصلت بويضاتها إلى أيٍّ من المخ أو العمود الفقري ، فَإِنَّهَا تسبب شللًا كاملًا ثم الوفاة ...

(٤) الحيوان الأولى الهدبي المعروف باسم القربية القولونية الذي يسبب مرض الزحار الشديد ، وبعض أمراض عضلة القلب ومصدره الوحيد للإنسان هو الخنزير ، وهو مرض معدي ينتشر بين كل من له علاقة بتربية الخنزير أو ذبحه وسلخه .....

⇦ المثالُ الثاني لإعجاز الشريعة الإسلامية في بنودها تحريم جماع الزوجة في حالة الحيض :

قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ في كتابة العزيز : ﴿ **وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ** ﴾ البقرة: ٢٢٢

في هذه الآية المعجزة يأمرنا الله سبحانه بألا يجامع الرجل زوجته وهي حائض ، لما في ذلك من « الأذى » .

ويحدثنا الأطباء ـ أهل الاختصاص ـ عن أسباب هذا المنع قائلين :

« إن الحيض والوطء أثناءه هو من أهم الأسباب **المهيئة لتعفن الرحم** ، الذي فضلًا عن أَنَّهُ يسبب العُقم ، فهو من أشد الأمراض إيلامًا للمرأة ، حيث تقاسي منه آلامًا في الحوض لا تطاق ، فضلًا عن ارتفاع درجة الحرارة ، والمضاعفات الأخرى الخطرة التي نتيجة ذلك التعفن ، ولعل أهمها إصابة ملحقات الرحم...

والأضرار التي تصيب الرجل ، فمن أهمها : التهابات حادة تصيب أعضاءه التناسلية ؛ إذ تمتد الجراثيم إلى داخل القناة البولية ، بل قد تصيب المثانة والحالبين ، بل تمتد الالتهابات حتى تصيب غدة كوبر والبروستاتا ، والحويصلتين المنويتين والخصيتين والبربخ .

إن الجماع في الحيض ينذر الرجل بخطر داهم ، هو في غنى عنه ، وعن مضاعفاته ... فليست إصابة القناة البولية بالأمر الهين ، أو الخطب اليسير ، بل هذه الإصابة تجرُّ عليه ما لا طاقة له به من الآلام والمضاعفات ، فإذا ما ولجت هذه القناة أحدثت التهابًا شديدًا يتعذر معه التبول الذي يحدث في بعض الأحيان آلامًا لا تطاق ومتاعب لا تحتمل (1) .

⇦ المثال الثالث على إعجاز الشريعة الإسلامية في بنودها : إباحة الإسلام تعدد الزوجات وإباحة الطلاق :

من الأمور التي تشي بعظمة الإسلام وتدل على مدى واقعيته إباحته لتعدد الزوجات وإباحته الطلاق.

ولنبدأ بالإعجاز التشريعي في جانب الطلاق ، ثم نُثني بجانب التعدد .

وصراحة لم يلفت انتباهي لجانب الإعجاز التشريعي في الطلاق سوى المعاناة التي يعانيها غير المسلمين في هذه المسألة ، فقد شاهدنا وسمعنا مرارًا وتكرارًا عن المشاكل الاجتماعية الخطيرة التي نتجت عن عدم إباحة هذا الحق في النصرانية ، ورأينا البرامج التليفزيونية والمقالات الصحفية التي تناشد الكَنِيسَة بإباحة الطلاق لاثنين استحالت بينهما العشرة ، واستحكم بينهما الخلاف ، ووصلا إلى المرحلة التي

---

(1) د. مُحَمَّد وصفي : القُرْآن والطب ، نقلا عن : د. مُحَمَّد بكر إسماعيل : الفقه الواضح ، دار المنار ، القاهرة ، ط2 ، (1997م) ، 1/107

لا يستطيع أحد الطرفين احتمال الآخر .

ونتيجةً لهذا التعنت من الكَنِيسَة وعدم السماح بالطلاق إلا لعلة الزنا أو الموت أننا أصبحنا نسمع عن مشاكل اجتماعية خطيرة تترتب على هذه المشكلة ، مثل ضرب الزوجات ، اتخاذ الأخدان ...

هذا الوضع لا بد أَنَّهُ يجعل الإِنْسَان رغمًا عنه يعقد مقارنة بين الشريعة الإسلامية الغراء ، وبين هذه الدِّيانَة ، ولا يملك إلا أن يقول : الحَمْدُ لله الذي جعلنا مسلمين.

أما جانب تعدد الزوجات (١) فلم أجد مَن أجاد التعبير عنه سوى صاحب الظلال ، فقد أجاد وأفاض في هذا الجانب ، وسأحاول باختصار أن أنقل كلامه ، يقول صاحب الظلال ١/ ٥٧٩ من الطبعة ٣٢ ، دار الشروق :

« إن الإسلام نظامٌ للإنسان ، نظام واقعيٌ إيجابي ، يتوافق مع فطرة الإِنْسَان وتكوينه ، ويتوافق مع واقعه وضروراته ، ويتوافق مع ملابسات حياته المتغيرة في شتى البقاع وشتى الأزمان ، وشتى الأحوال.

إنه نظام واقعي إيجابي ، يلتقط الإِنْسَان من واقعه الذي هو فيه ، ومن موقفه الذي هو عليه ، ليرتفع به في المرتقى الصاعد ، إلى القمة السامقة ، في غير إنكار لفطرته أو تنكر ؛ وفي غير إغفال لواقعه أو إهمال ، وفي غير عنف في دفعه أو اعتساف! ....

فإذا استصحبنا معنا هذه الخصائص الأساسية في النظام الإسلامي ، ونحن ننظر إلى مسألة تعدد الزوجات .. فماذا نرى ؟

نرى .. أَوْلًا .. أن هناك حالات واقعية في مجتمعات كثيرة ـ تاريخية وحاضرة ـ تبدو فيها زيادة عدد النساء الصالحات للزواج ، على عدد الرجال الصالحين للزواج .. والحد الأعلى لهذا الاختلال الذي يعتري بعض المجتمعات لم يُعرف تاريخيًّا أَنَّهُ

(١) نال هذا الجانب الكثير من الهجوم من أدعياء الثقافة والنسوية جهلًا وقلة علم ، وأذكر من بينهم نوال السعداوي ، الملحدة التي رضيت بالإلحاد وماتت عليه ، ولعل فيها سنسطره هنا ردًّا عليها وعلى أمثالها .

تجاوز نسبة أربع إلى واحد. وهو يدور دائمًا في حدودها ..

فكيف نعالج هذا الواقع الذي يقع ويتكرر وقوعه ، بنسب مختلفة .هذا الواقع الذي لا يجدي فيه الإنكار؟ ....

لابد إذن من نظام ، ولا بد إذن من إجراء .. وعندئذ نجد أنفسنا أمام ثلاثة احتمالات:

١- أن يتزوج كل رجل صالح للزواج امرأة من الصالحات للزواج .. ثم تبقى واحدة أو أكثر ـ حسب درجة الاختلال الواقعة ـ بدون زواج ، تقضي حياتها ـ أو حياتهن ـ لا تعرف الرجال !

٢- أن يتزوج كل رجل صالح للزواج واحدة فقط زواجًا شرعِيًّا نظيفًا ، ثم يخادن أو يسافح واحدة أو أكثر ، من هؤلاء اللواتي ليس لهن مقابل في المجتمع من الرجال ؛ فيعرفن الرجل خدينًا أو خليلًا في الحرام والظلام!

٣- أن يتزوج الرجال الصالحون ـ كلهم أو بعضهم ـ أكثر من واحدة ، وأن تعرف المرأة الأخرى الرجل زوجة شريفة ، في وضح النور ، لا خدينة ولا خليلة في الحرام والظلام !

الاحتمال الأول ضد الفطرة ، وضد الطاقة ، بالقياس إلى المرأة التي لا تعرف في حياتها الرجال ، ولا يدفع هذه الحقيقة ما يتشدق به المتشدقون من استغناء المرأة عن الرجل بالعمل والكسب. فالمسألة أعمق بكثير مما يظنه هؤلاء السطحيون المتحذلقون المتطرفون الجهال عن فطرة الإِنْسَان ، وألف عمل ، وألف كسب لا تُغني المرأة عن حاجتها الفطرية إلى الحياة الطبيعية .. سواء في ذلك مطالب الجسد والغريزة ، ومطالب الروح والعقل ، من السكن والأنس بالعشير ...

والاحتمال الثاني ضد اتجاه الإسلام النظيف ، وضد قاعدة المجتمع الإسلامي العفيف ؛ وضد كرامة المرأة الإنسانية ...

والاحتمال الثالث هو الذي يختاره الإسلام ، يختاره رخصة مقيدة ، لمواجهة الواقع الذي لا ينفع فيه هز الكتفين ؛ ولا تنفع فيه الحذلقة والادعاء ...

ثم نرى ثانيًا أن فترة الإخصاب في الرجل تمتد إلى سن السبعين أو ما فوقها ، بينما

هي تقف في المرأة عند الخمسين أو حواليها ، فهناك في المتوسط عشرون سنة من سني الإخصاب في حياة الرجل لا مقابل لها في حياة المرأة ...فليس مما يتفق مع هذه السنة الفطرية العامة أن نكف الحياة عن الانتفاع بفترة الإخصاب الزائد في الرجال ، ولكن مما يتفق مع هذا الواقع الفطري أن يُسَنَّ التشريع ـ الموضوع لكافة البيئات في جميع الأزمان والأحوال ـ هذه الرخصة ـ لا على سبيل الإلزام الفردي ، ولكن على سبيل إيجاد المجال العام الذي يلبي الواقع الفطري ... » .

ونكتفي بذكر هذا العدد من إعجاز الشريعة الإسلامية الغراء في بنودها ، على الرغم من الإغراء الذي يحثنا على مزيد من الحديث فيه .

د- ثامنًا الإعْجَاز التفسيري :

من يُطالع تفاسير الآيات القرآنية الواردة بالنقل الصحيح عن النَّبِيّ ﷺ يقف على الحقيقة الآتية ، وهي : أَنَّ النَّبِيّ ﷺ لم يفسر من آيات القُرْآن **إلا آيات قليلة جدًا** وقد أقر الباحثون « أنَّ رَسُول الله ﷺ لم يفسر آيات القُرْآن كلها على النحو المألوف في التفاسير ... وهذه حقيقة تتآزر على تأكيدها كل الروايات الصحيحة، ولا يعقل أَنَّ الصَّحابَة الذين كانوا يلتقطون كل حرف ينطق به رَسُول الله ﷺ قد أهملوا تفاسير أملاها أو حدث بها في شرح معاني كل آيات القُرْآن ، لقد نقلوا كل ما حدث به »[(١)] .

إذن : فرسول الله ﷺ فسر بعض آيات القُرْآن الكريم للصحابة ، ومن المقطوع به أَنَّهُ لم يفسر آيات القُرْآن كلها ، أو حتى معظمها ، ولم يفسر للصحابة إلا « بعض الآيات التي ثارت في عقولهم أسئلة بشأنها ، أو التي ارتبطت بظروف عملية في تطبيق الأحكام ، **ثم ترك القُرْآن بعد ذلك حقلًا بكرًا يحتمل جهودًا لا تنقضي في تدبر معانيه وحكمه ونظمه ، وما زال برغم الجهود الكثيرة التي بذلت في ذلك خصبًا ثريًّا ، لا تنفد معانيه وعجائبه من كثرة الترديد والتفكر** »[(٢)] .

(١) د.محمد بلتاجي: مدخل إلى علم التفسير، مكتبة الشباب، القاهرة، ط١ ، (٢٠٠٠م) ، ص ٣٨ ، ٣٩

(٢) السابق ، ص ٣٦

ووجه الإِعْجَاز في ذلك يوضحه أديب العَرَبِيَّة الكبير مصطفى صادق الرافعي بقوله : « قد ثبت أنَّ رَسُول الله ﷺ قُبِضَ ولم يُفسر من القُرْآن إلا قليلًا جدًا وهذا وحده يجعل كل منصف يقول : أشهد أنَّ محمدًا رَسُول الله ؛ إذ لو كان ﷺ فَسَّر للعرب بما يحتمله زمنهم وتطيقه أفهامهم لجمد القُرْآن جمودًا تهدمه عليه الأزمنة والعصور بآلاتها ووسائلها ، فإنَّ كلام الرَّسُوْل نصٌّ قاطعٌ ، ولكنه ترك تاريخ الإنسانية يفسر كتاب الإنسانية ؛ فتأمل حكمة ذلك السكوت ، فهي إعجاز لا يكابر فيه إلا من قلع مخه من رأس » (١) .

لو فسر رَسُول الله ﷺ آيات القُرْآن كلها لمعاصريه من العرب لالتزمَ في تفسيره بدائرة معارفهم في شتى نواحي المعرفة البشرية ، وإلا لحدثهم بما لا يفهمونه ولا تدركه عقولهم ، ولا يقع منهم تحت سمع أو بصر أو إدراك ، ونحن نعلم أن حديث رَسُول الله ﷺ هو المصدر الثاني في الإِسْلام بعد القُرْآن ، وهو ـ كما يقول الرافعي ـ نص قاطع لا يجوز لمسلم تجاوزه أو تغييره ، وهنا كان تفسير القُرْآن سيجمد جمودًا ينسحب على النَّصّ القرآني نفسه ، بحيث تفوت أغراض كثيرة غاية في الأهمية والاعتبار من حيث حيوية النَّصّ القرآني وثراؤه.

إن ترك معظم آيات القُرْآن بلا تفسير لدليل قاطع على أَنَّ القُرْآن « لم ينزل ليفهمه العرب في زمن الرِّسالَة ، وحدهم بحسب معارفهم ومدركاتهم وعقولهم ، كما أَنَّهُ لم ينزل ليفسر لهم تفسيرًا واحدًا مرتبطًا بزمان نزوله ومكانه وحده ، وهو شبه الجزيرة العَرَبِيَّة في القرن السابع الميلادي ، إنما هو ـ كما يقول الرافعي بحق ـ كتاب الإنسانية كلها ، أو كتاب العالمين ... ومن هنا ليس لأحد أن يدعي أن كل فهم للقرآن لم يتردد في أذهان الصَّحابَة فهو مرفوض » (٢) .

(١) إعجاز القُرْآن والبَلاغَة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٩، (١٩٧٣م)، ص ١٤، الهامش

(٢) د.محمد بلتاجي: مدخل إلى علم التفسير، ص ٣٥

وبناء على ذلك فإن القُرْآن يحتاج على الدوام وعلى مَرِّ العصور مَنْ يُفسره ، ويستخلص منه المعاني التي تناسب العصر.

*****

بعد هذه الرحلة في أنواع الإعجاز المختلفة في القُرْآن لا يملك مَنْ كان لديه مُسكة عقل إلا الاعتراف بأن القُرْآن كلام الله سبحانه وتعالى ، ولا يمكن أن يكون تأليف نبي أُمِّيّ ، كان يجهل القراءة والكتابة ، وظهر في بيئة لا يُعرَف عنها أي نشاط علمي أو ثقافي أو فلسفي .

لا يبقى أن يكون هذا القُرْآن كلام الله حقًّا وصدقًا .

*****

الفصل الرابع

موثوقية نقل القرآن

- **جوانب حفظ القُرْآن وموثوقية نقله .**
  - ⇦ كفالة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ حفظ القُرْآن .
  - ⇦ ضمان وسيلة نقل القُرْآن من الله إلى النبي .
  - ⇦ صيانة القُرْآن وحفظه في حياة النبي ﷺ.
  - ⇦ صيانة القُرْآن وحفظه في حياة أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ .
  - ⇦ صيانة القُرْآن وحفظه في حياة عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ .
  - ⇦ صيانة القُرْآن وحفظه بعد عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ .
- **علم التجويد ودوره في الحفاظ على القُرْآن الكريم .**

الفَصْل الرابع

مَوثوقية نقل القرآن

إنَّ هدفنا الذي أوضحناه مرارًا وتكرارًا هو : « لماذا نَبْتَغِي الإسلام دينًا ؟ » ، و« لماذا لا نَقْبَل غيره ؟ » ، وكانت أولى خطواتنا في الفصل الأول : بيان معنى الدِّيْن والإسلام ، وبيان أهم خصائصه ، وكانت خطوتنا الثانية في الفصل الثاني هي إثبات وجود الله سبحانه ، وإثبات أَنَّهُ هو خالق هذا الكون ، وكل مَن فيه ، وما فيه ، من إنسان وحيوان وشجر ، فالإنسان خَلْقٌ من خَلق الله الكثيرين ، ومن هذه النقطة فإن كل ما يأمر به الخالق عَزَّ وَجَلَّ يجب الانصياع له .

ربُّ البشر ـ سبحانه وتعالى ـ أمرنا أن « نَبْتَغِي الإسلام دِيْنًا ؟ » و« ألا نَقْبَل غيره؟ » ، وأمره نافذٌ يجب طاعته ، ولا رادَّ له .

أين أمرنا الله خالق كل شَيْء بذلك ؟!

الإجابة : أمرنا بذلك في قرآنه الذي أنزله على رجل أُمِّيّ ﷺ ، لا يَعرفُ القراءة والكتابة .

وحتى لا يقول قائلٌ : وما أدرانا أن هذا القُرْآن كلام الله وليس كلام مُحَمَّد ﷺ ؛ كان فصلنا الثالث هو: **إثبات أَنَّ القُرْآن هو كلام الله** ، وليس كلام مُحَمَّد بن عبد الله ﷺ وبذلك لا مجال لأي شخص أن ينكر صحة هذا الأمر ـ ابتغاء الإسلام دينًا ـ ، وأَنَّهُ صادرٌ من الله سبحانه ، وبناء عليه يجب تنفيذه.

وقد يَعِنُّ لمعترض سؤالٌ أوعدة أسئلة :

⇦ ما الضامن أن هذه الرِّسالَة (القُرْآن) وصلت إلينا سليمة دون تحريف ؟

⇦ هل « القُرْآن » ـ في رحلته التي استغرقت أكثر من ١٤٤٥عامًا حتى وصل إلينا ـ نُقِلَ إلينا نقلا تامًّا كاملًا ؟

⇦ هل نُقِلَ إلينا بلا تحريف وبلا تعديل وبلا نقص أو زيادة ؟!

⇦ هل أصاب القُرْآن ما أصاب « الكُتُب السماوية » السابقة من تعديل وتحريف ؟! أم سَلِمَ من كل هذا ؟!

⇦ ما الذي يجعلنا نثق في هذا النَّصّ بعد مُضِي أكثر من ١٤٤٥عامًا ، ونقطع بأنه بقي على صورته التي نزل بها على قلب النَّبِيّ ﷺ ؟!

⇦ نحن آمنا بالله ، وآمنا بأن القُرْآن كلامه ، وكذلك نؤمن بالتوراة والإنجيل ، ونؤمن بأنَّ الله أنزلها ، ولكننا نؤمن بأن ما بين أيدينا اليوم ليست هي التوراة التي أنزلها الله على موسى ، وليس هو الإنجيل الذي نزل على نبي الله عيسى ؛ لما أصابها من التحريف . فما الذي يمنع أن يحدث للقرآن ما حدث لهما ؟!

أعتقد أن هذه أسئلة منطقية ، قد يتردد في النفس صداها ، ويطلب العَقْل الإجابة عنها ؛ لذلك رأيت أن أخصص هذا الفَصْل للإجابة عن هذه التساؤلات ، وأن أجتهد ـ ما وسعني الجُهْد ـ في تقديم تفسيرات لها .

وحقيقة فإني أرى ـ من وجهة نظري ـ أَنَّ الحديث في هذا الأمر (بيان مَوْثُوقِيَّة النَّصّ القرآني) بالغُ الأهمية ، والوقوف عليه ، وبيانه حق البيان له عدة فوائد أخرى بالإضافة إلى تقديم الإجابات والتفسيرات عن الأَسْئِلَة السابقة ، منها :

- الحديث عن حفظ القُرْآن بلا تحريف على مدار أكثر من ١٤٤٥ عامًا فيه إشارة إلى الإِعْجَاز التَّارِيخِيّ في القُرْآن ؛ لأنَّ الله ذكر قوله ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ الحجر: ٩، فهذا الحفظُ دليلٌ على صدق القُرْآن نفسه .
- لا بد أن تُقام مقارنة بين « حفظ القُرْآن » ، و« حفظ غيره » من الكتب السماوية ، ومن خلال المقارنة بين « **الحفظين** » تظهر قيمةُ النَّصّ القرآني ، وقيمة غيره ؛ فيزداد المسلم ثقة على ثقة في كتابه وفي دينه . وهذا من باب : « وبضدها تتميز

الأشياء » .

لأجل كل ما سبق سنترك هذا الفَصْل ـ الفَصْل الرابع ـ يحدثنا عن مَوْثُوقِيَّة النقل القرآني ، وذلك من خلال الحديث عن عدة مظاهر ، وعدة جوانب تدل على هذه الموثوقية ، وعلى هذا الحفظ .

جوانب حفظ القُرْآن وموثوقية نقله :

جوانب حفظ القُرْآن وموثوقية نقله متعددة ، منها :

(١) **كفالة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بحفظ القُرْآن :**

أول مظهر من مظاهر حفظ القُرْآن أنَّ ربَّ العِزَّةِ ـ سبحانه ـ هو الذي تكفل بنفسه حفظَ القُرْآن وصيانته وحمايته من أيدي العابثين ، ومن أعداء المِلة والدِّيْن ، فقال ـ سبحانه ـ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الحجر: ٩ ، قال إمام المفسرين ابنُ جَرير الطَّبَرِيّ رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير هذه الآية : « وإنَّا للقُرآن لحافظون من أن يُزادَ فيه باطلٌ ما ليس منه ، أو ينقص منه ما هو منه ، من أحكامه وحدوده وفرائضه »(١) .

وقال الإمام الزمخشري ـ إمام اللغة والبيان ـ في تفسير نفس الآية : « ... فأَكَّدَ عليهم أَنَّهُ هو المنزِّل على القطع والبَتَات ، وأَنَّهُ هو الذي بعث جبريلَ إلى مُحَمَّد ﷺ وبين يديه ومن خلفه رَصَدٌ حتى نزل وبُلِّغَ محفوظًا من الشياطين ، وهو حافظه في كل وقتٍ ، من كل زيادة ونقصان وتحريف وتبديل ، بخلاف الكتب المتقدمة ، فَإِنَّهُ لم يتولَّ حفظها ، وإنما استحفظها الربانيين والأحبار ؛ فاختلفوا فيما بينهم بغيًا ، فكان التحريف ، ولم يكلِ القُرْآن لغير حفظه »(٢) .

وقد أثبتت الأيامُ والسنون صدق هذا الوعد الرَّبَّاني ، فقد « صدَّقت القرون المتوالية ـ على رغم ما حَلَّ بالمسلمين فيها من كوارث مروعةٍ ، ونوازل هائلة ـ هذه النبوءة القرآنية ، وبقي القُرْآن كما أنزله الله ، وكما تلاه مُحَمَّد ﷺ ، وكما نقله عنه

(١) جامع البيان ، ٦/ ٤٨٦٨

(٢) الكَشَّاف ، ٢/ ٥٥٣

أصحابه ، وتلقاه عنهم من تبعهم بإحسان . ولم تزل الأجيال تلو الأجيال تتوارثه ، وتتعبَّد بتلاوته وترتيله وحفظه وكتابته . ولا عجب أن ظل ـ كما كان ـ مكتوبًا في المصاحف ، متلوًّا بالألسنة ، محفوظًا في الصدور منقولًا إلينا ـ بالتواتر اليقيني ـ نَقلًا حَرْفِيًّا ، بنفس طريقة كتابته ، منذ عهد الخليفة الثالث عثمان ، رغم تطور طرائق الرسم والإملاء ، وبنفس طريقة تلاوته منذ العهد النبوي ، حتى أصوات الغَنِّ والمد والإظهار والإدغام والإقلاب والإخفاء »[(١)] .

وفي بداية نزول الوحي على النَّبِيّ ﷺ كان يبادر إلى أخذ القُرْآن ، ويسابق المَلَك في قراءته ؛ فأمره الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن يستمع له ، وتكفل له أن يجمعه في صدره وأن يبينه له ويوضحه ؛ فقال تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ القيامة: ١٦ – ١٩ ، فقد تكفل ربُّ العِزَّةِ بجمع القُرْآن في صدر نبيه ثم تلاوته ثم تفسيره .

ومما يرتبط بحديثنا هنا هذا السؤال :

لماذا تكفل الله بحفظ القُرْآن ولم يتكفل بحفظ غيره ؟

وأجتهد في الإجابة عن هذا السؤال لعلي أصيب أجرين فأقول : تكفل الله بحفظ القُرْآن ولم يتكفل بحفظ غيره لبيان قدرة الله على الحفظ مقارنة بحفظ البشر ، فمن يعقد مقارنة بين حفظ القُرْآن وحفظ غيره يجد البون شاسعًا والهُوة عميقة ؛ فلا مقارنة أصلًا بين حفظ الله للقرآن وحفظ الكتب السماوية التي أوكل للبشر حفظها ، ومن يقف على هذا الفارق بين الحفظين يعلم يقينًا قدرة الله جل جلاله[(٢)] .

(٢) ضمان وسيلة نقل القُرْآن من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إلى النَّبِيّ ﷺ :

من جوانب العناية الإلهية بالنص القرآني أَنَّ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ كَلَّفَ « جبريل » ـ رئيس الملائكة والروح القدس والروح الأمين ، وأحد الملائكة المقربين ـ بإنزاله ، فقال ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ

(١) د. يوسف القرضاوي: الخصائص العامة للإسلام ، ص ٣٤ ، ٣٥

(٢) سنتحدث تفصيلًا عن هذه النقطة لاحقًا إن شاء الله .

عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ الشعراء: ١٩٣ ، ١٩٥ ، والمقصود بالروح الأمين ـ كما قال المفسرون ـ جبريل ـ عليه السلام ـ .

إن تكليف جبريل ـ عليه السلام ـ الذي وُصِفَ بالأمانة بإنزال القُرْآن لدليلٌ على أهمية « الشيء المرسَل » ، وعلى عناية « المُرسِل » بما أرسله .

ولم يكن دور رئيس الملائكة مقصورًا على مجرد النقل ، بل تعدى إلى « المعارضة » فقد كان جبريل « يُعارضُ » القُرْآن مع النَّبِيّ ﷺ مرة كل عام ، وفي العام الذي توفي فيه النَّبِيّ ﷺ عارضه القُرْآن مرَّتين .

دليل ذلك ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن عائشة قالت : « كُنَّ أزواج النَّبِيّ ﷺ عنده ، لم يغادر منهن واحدة. فأقبلت فاطمة تمشي ، ما تُخْطِئُ مِشْيَتَهَا من مِشْيَةِ رَسُول الله ﷺ شيئًا، فلما رآها رَحَّبَ بها ، فقال: مَرْحَبًا بِابْنَتِي ، ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم سَارَّهَا ؛ فبكت بكاء شديدًا. فلما رأى جَزَعَهَا سَارَّها الثانية ؛ فضحكت. فقلتُ لها : خَصَّكِ رَسُول الله ﷺ من بين نسائه بالسِّرار. ثم أنت تبكين؟ فلما قام رَسُول الله ﷺ سألتها ما قال لك رَسُول ﷺ ؟ قالت: ما كنت أفشي على رَسُول الله ﷺ سره. قالت : فلما توفي رَسُول الله ﷺ قلت: عزمت عليكِ، بما لي عليك من الحق، لما حدثتني ما قال لك رَسُول الله ﷺ ؟ فقالت: أما الآن، فنعم. أما حين سارني في المرة الأولى ، **فأخبرني أنَّ جبريل كان يُعَارِضُهُ بِالْقُرْآنِ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً ، وَإِنَّهُ عَارَضَهُ الْعَامَ مَرَّتَيْنِ** ... ».

والشاهد هنا أن جبريل كان يعارض القُرْآن مع النَّبِيّ ﷺ كل عام مرة ، وفي العام الذي توفي فيه عارضه مرتين .

والمقصود بالمعارضة « أي كان يُدَارسه جميع ما نزل من القُرْآن ، من المعارضة : المقابلة ، ومنه : عارضت الكتابَ بالكتاب ؛ أي : قابلته به »(١) .

(٣) صيانة القُرْآن وحفظه في حياة النَّبِيّ ﷺ :

ما موقف النَّبِيّ ﷺ والصحابة في عهده من القُرْآن ؟ كيف اعتنى النَّبِيّ ﷺ

(١) ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ت : محمود مُحَمَّد الطناحي ـ طاهر أحمد ، المكتبة الإسلامية ، (بدون بيانات أخرى) ، ٣/ ٢١٢

وأصحابه به ؟

نقول : لقد اهتمَّ النَّبِيّ ﷺ وصحابته بالقرآن أبلغ اهتمام وأشد رعاية وأتم عناية .

والمؤشرات والدلائل على عناية النَّبِيّ ﷺ بالقرآن في حياته متعددة ، منها :

أ- **كتابة القُرْآن بين يديه ﷺ** :

كان القُرْآن ينزل على النَّبِيّ ﷺ ؛ فيحفظه ويبلغه للناس ، « ويأمر كُتَّاب الوحي بكتابته ، ويدُلهم على موضع المكتوب من سورته ، فيقول لهم : ضعوا هذه السورة بجانب تلك السورة ، وضعوا هذه الآية بإزاء تلك الآية ، وكان المكتوب يوضع في بيت رَسُول الله ، بعد أن يَنْسَخَ الكُتَّابُ لأنفسهم منه صورة »[(١)] .

وكان من الصَّحابَة من يكتفي بتلقيه من فِيهِ ﷺ ؛ فيحفظه ، ومنهم من كان يكتب السورة ، أو الآيات ، أو السور ، ومنهم من كتبه كله ، وحفظه جميعه[(٢)] .

وتعاونت نُسَخُ الكُتَّابِ الذين نسخوا القُرْآن لأنفسهم مع « الصُّحف التي في بيت النبيﷺ **مع حافِظة الصَّحابَة الأمين وغير الأمين ، على حفظ القُرْآن وصيانته** »[(٣)] .

والذين اشتهروا بكتابة القُرْآن بين يدي النَّبِيّ ﷺ : الخلفاء الأربعة ، ومعاوية ابن أبي سفيان ، وأبان بن سعيد ، وخالد بن الوليد ، وأُبَيُّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وثابت بن قيس .

وكانت المواد التي يُكتَبُ عليها متعددة ، منها : العُسُب، وَاللِّخَاف ، وَالرِّقَاع ، وقطع الأديم ، وعظام الأكتاف والأضلاع[(٤)] .

ولم ينقض عهده ﷺ إلا والقرآن مكتوب كله ، **بيد أَنَّهُ لم يكن مجموعًا في مصحفٍ واحد** ؛ وسبب ذلك « ما كان يترقَّبُه الرَّسُوْل ﷺ من ورود زيادة ، أو ناسخ

(١) عبد الفتاح القاضي : المصحف الشريف ـ أبحاث في تاريخه وأحكامه ، ص ٥٨

(٢) السابق ، ص ٥٨

(٣) د. صبحي الصالح: مباحث في علوم القُرْآن ، ص ٧٤

(٤) **العُسُب** : جمع عسيب ، وهو جريد النخل ، كانوا يكشطون الخوص ، ويكتبون على الطرف العريض منه . **اللخاف** : جمع لَـخْفَة ، وهي الحجارة . **الرقاع** : جمع رقعة ، وتكون من جلد أو ورق أو غير ذلك . **قطع الأديم** : الجلد . **الأكتاف** : جمع كَتف ، هو عظم عريض في كتف الحيوان

لبعض أحكامه أو تلاوته ، فلما انقضى نزوله بوفاته ﷺ وأمن مجئ زيادة ، أو نسخ ، ألهم الله ـ تعالى ـ الخلفاءَ الراشدين أن يجمعوه في مكان واحد »[١] .

ونؤكد هنا أَيْضًا أَنَّ الأمر الذي « لا رِيبة فيه أَنَّ الآياتِ قد جُمِعَتْ سورًا في عهد رَسُول الله ﷺ وبتوقيفه »[٢] .

ب- تلاوة النَّبِيّ ﷺ للقرآن في الصلوات الجهرية :

لم يكن حفظ القُرْآن مقصورًا على حفظ السطور ، بل تعداه إلى حفظ الصدور ، والتلاوة المستمرة لآي القُرْآن .

فمن جوانب حفظ القُرْآن التي قد لا ينتبه لها البعض التلاوةُ المستمرة له ، آناء الليل وأطراف النهار.

وإذا قمنا بإحصاء عدد مرات تلاوة النَّبِيّ ﷺ في الصلوات الجهرية سنفاجَأ بضخامة هذه العدد . ولكي نقوم بهذا الإحصاء نمهد له بالمعطيات الآتية :

» الوقت الذي فرضت فيه الصلوات الخمس كاملة خلال اليوم : ليلة الإسراء ، قبل الهجرة بعام على أقصى تقدير .
» الفترة المدنية تمتد لـ ١٣ عامًا .
» عدد سور القُرْآن ١١٤ سورة .

بناء على هذه المعطيات نقول :

* عدد السنوات التي صلى فيها المسلمون خمس صلوات كاملة : ١+ ١٣= ١٤ عامًا .
* عدد الأشهر في هذه الأعوام الأربعة عشر : ١٤× ١٢= ١٦٨ شهرًا .
* عدد الأيام في هذه الأشهر : ١٦٨× ٢٩ (متوسط أيام الأشهر القمرية) = ٤٨٧٢ يومًا .
* عدد الصلوت الجهرية (بدون صلوات الجُمَع) : ٤٨٧٢× ٣= ١٤٦١٦ صلاة.
* عدد صلوات الجُمَع في ١٦٨ شهرا : ١٦٨× ٤= ٦٧٢ صلاة .

---

(١) عبد الفتاح القاضي : المصحف الشريف ـ أبحاث في تاريخه وأحكامه ، ص ٥٩

(٢) د. مُحَمَّد حسين هيكل : الصديق أبو بكر ، ص ٢٨٥ ، ومن أقوال الإمام مالك بن أنس ـ رضي الله عنه ـ : إنما أُلف القُرْآن على ما كانوا يسمعونه من رسول الله ﷺ .

* عدد الصلوات الجهرية مع عدد صلوات الجمع : ١٤٦١٦ + ٦٧٢ = ١٥٢٨٨ صلاة

إذا قمنا بتوزيع عدد الصلوات الجهرية على عدد سور القُرْآن يكون نصيب كل سورة من **التلاوة ١٣٤ مرة** .

هذه النتيجة تعني ـ نظرِيًّا ـ أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قرأ على مسامع الصَّحابَة كل سورة من سور القُرْآن ١٣٤ مرة داخل الصلاة المفروضة ، فإذا ضممنا إلى هذا الرقم عدد القراءات العادية في غير الصلاة ، أو في الصلاة غير المفروضة (كصلاة العيدين) لزاد العدد زيادة كبيرة جدًا .

والدليل على قراءة النَّبِيّ ﷺ القُرْآن كاملًا على مسامع الصَّحابَة القراءاتُ القرآنيةُ ؛ فأَنَّى لقُرَّاء القُرْآن وقراءاته أن يعرفوها ، ويقفوا على هذه التنويعات لولا السماع من فِيِّ النَّبِيّ ﷺ .

هذه التلاوة المستمرة للقرآن لا بد أن تُثَبِّتَ القُرْآن تَثْبِيتًا في حوافظ المسلمين وذواكرهم ، ويعترف المؤرخون ـ المسلمون وغير المسلمين ـ **بأن العربَ وهبهم الله ذاكرة لاقطة واعية حافظة** ، يقول المؤرخ آرثر جولدشميدت **Arthur Goldschmidt** : « كان أهل مكة في القرن السابع يملكون ذواكر مدهشة »[(١)] .

ويقول المستشرق الكبير كارل بروكلمان : « لاحظنا **أن ذاكرة العرب الغضة في الزمن القديم كانت أقدر قدرة لا تُحد على الحفظ والاستيعاب من ذاكرة العالم الحديث** »[(١)] .

فإذا جمعنا هذه الموهبة الرَّبَّانِيَّة الطبيعية ، مع التلاوة المستمِرة فإنَّ هذا مما لا شك فيه من أهم عوامل حفظ القُرْآن .

---

(١) يُنْظَرُ : **Arthur Goldschmidt, A Conice History of the Middle East, Westview Press, fifth edition, p. 41** ، ونص كلامه « **Seventh-century Meccans had prodigious memories** » .

(١) تاريخ الأدب العربي ، دار المعارف ، القاهرة ، ١/ ٦٥ ، وينظر كتاب : الباحث العلمي ، صفاته إعداده منهجه ، د. إيهاب عبد الحميد ، ط٢ ، لمعرفة من هو كارل بروكلمان وجهوده العلمية ، ص ٣٧ وما بعدها

ت- حفظ الصَّحابَة للقُرآن وتدارُسهم له في عهد النَّبيّ ﷺ :

مع هذا التكرار المستمر للتلاوة القرآنية ، ومع هذه الذاكرة القوية حَفِظَ عددٌ كبير من المسلمين القُرْآن ، وصاروا قُرّاءً يقرؤون القُرْآن ويُقرِئونه غيرهم ، والشواهد من السنة على ذلك كثيرة ، منها :

⇦ **بعث الرجيع** :

في هذه الحادثة التي وقعت في شهر صفر من السنة الرابعة من الهجرة قدم على النَّبيّ ﷺ قومٌ من قبيلتيعَضَل وقارَة ، وذكروا أن فيهم إسلامًا ، وسألوا أن « يبعث معهم من يعلمهم الدِّيْن ويُقرئهم القُرْآن ، فبعث معهم ، ستة نفر ـ في قول ابن إسحاق ، وفي رواية البخاري أَنَّهُمْ كانوا عشرة ـ وأمر عليهم مرثد بن أبي مرثد »(١) .

فالشاهد في هذا الحادث أن قومًا من ـ عَضَل وقارة ـ جاءوا إلى النَّبيّ ﷺ وطلبوا إليه أن يرسل معهم من يعلمهم الدِّيْن ويقرئهم القُرْآن ، ومن المنطقي والبَدهِي أَنَّ النَّبيّ ﷺ لن يرسل معهم إلا من أتقن الحفظ وأتقن القراءة .

⇦ **مأساة بئر معونة** :

ومن أمر هذه المأساة ما رواه الإمام أحمد ـ رضي الله عنه ـ في مُسْنَدِه ، عن أنس بن مالك، قال: « **كان شبابٌ من الأنصار سبعين رجلًا يُسَمَّوْنَ القُرَّاءَ** ، قال: كانوا يكونون في المسجد ، فإذا أمسُوا انتَحَوْا ناحية من المدينة ؛ فيتدارسون ويصلون يحسب أهلوهم أَنَّهُمْ في المسجد ، ويحسب أهل المسجد أَنَّهُمْ عند أهليهم ، حتى إذا كانوا في وَجه الصبح استعذبوا من الماء ، واحتطبوا من الحطب ، فجاؤُوا به فأسندُوه إلى حُجْرةِ رَسُول ﷺ ، فبعثهم ﷺ جميعًا ، فأُصيبوا يوم بئر مَعُونَةَ ، فدعا النَّبيّ ﷺ على قتلتهم خمسة عشر يومًا في صلاة الغداة »(١) .

وملخص هذه الحادثة أن رجلًا يُدعَى أبا براء عامر بن مالك ، يُلقَّب بـ « ملاعب الأسنة » ، ومن خبره أَنَّهُ قدم على رَسُول الله ﷺ المدينة ؛ فدعاه إلى

(١) صفي الرحمن المباركفوري : الرحيق المختوم ، دار اليقين ، القاهرة ، ط١ ، (١٩٩١م) ، ص ٣١١

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ، ت : شعيب الأرنؤوط ـ عادل مرشد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١ ، (١٩٩٨م) ، ٢١/ ١٢٦ ، قال المحقق : إسناده صحيح .

الإِسْلام فلم يسلم ولم يبعد ، فقال : يا رَسُول الله ، لو بعثت أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى دينك ؛ لرجوت أن يجيبوهم ، فقال : إني أخاف عليهم أهل نجد ، فقال أبو براء : أنا جار لهم . فأرسل معه ـ كما في صحيح البخاري ـ سبعين رجلًا ، وكانوا « من خيار المسلمين وفضلائهم ... يتدارسون القُرْآن ويصلون بالليل »(١) . وانتهى بهم الأمر إلى الاستشهاد في سبيل الله .

والشاهد في هذه الواقعة أن من المسلمين على عهد النَّبِيّ ﷺ من كان يحفظ القُرْآن ويعلمه غيره .

⇦ **معركة اليمامة** :

وهي المعركة التي قُتِلَ فيها مسيلمة الكذاب في عهد أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ ، وقتل فيها أَيْضًا **سبعون من قُرّاء القُرْآن** ، واستشهاد هذا العدد الكبير منهم جعل عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يشجع أبا بكر على جمع القُرْآن .

خلاصة هذه الشواهد أَنَّها تدل على أن حفظ القُرْآن وتدارسه على عهد النَّبِيّ ﷺ كان ثابتًا ، وَأَنَّ المسلمين كانوا يحفظونه ويتدارسونه .

وهنا قد يَعِنُّ لنا سؤالٌ : كم كان عدد الصَّحابَة الذين صحبوا النَّبِيّ ﷺ ويتوقع أن يحفظوا القُرْآن أو بعضًا منه ؟

والإجابة عن هذا السؤال تكفل بها الإمام أبو زُرْعَة الرازي (ت : ٢٦٤ هـ) إذ قال : « توفِّي النَّبِيّ ﷺ ومَن رآه وسمع منه **زيادةٌ على مائةِ ألف إنسانٍ من رجلٍ وامرأة ، كلهم قد روى عنه سماعًا أو رؤية** »(١) . ومما يؤيد قولَ أبي زرعة ما ثبت في الصحيحين عن كعب بن مالك في قصة تبوك : **والناس كثيرٌ لا يُحصيهم ديوانٌ.**

---

(١) الرحيق المختوم ، ص ٣١٣

(١) ابن حجر العسقلاني : الإصابة في تمييز الصَّحابَة ، ت: عبد الله بن عبد المحسن التركي ، دار هجر ، القاهرة ، ط١ ، (٢٠٠٨م) ، ١/ ٩ ـ ١٠ ، وأَبو زُرْعَة الرَّازِي (٢٠٠ – ٢٦٤ هـ = ٨١٥ – ٨٧٨ م) هو : عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد بن فروخ المخزومي بالولاء ، من حفاظ الحديث، الأئمة ، من أهل الرِّي ، زار بغداد، وحدّث بها، وجالس أحمد بن حنبل ، كان يحفظ مئة ألف حديث ، ويقال: **كلُّ حديثٍ لا يعرفه أبو زرعة ليس له أصل**. توفي بالريّ.

وقال الحافظ ابن حجر : « وقرأتُ بخط الحافظ الذهبي من ظهر كتابه التجريد: لعل الجميع ثمانية آلاف ، إن لم يزيدوا لم ينقصوا . ثم رأيتُ بخطه أن جميعَ مَنْ في أُسْد الغَابَة سبعة آلاف وخمسمائة وأربعةٌ وخمسون نفسًا »[(١)] .

إذن كان عدد الصَّحابَة عند وفاة النَّبِيّ ﷺ بالمئات ، بل بالآلاف ، وهذا ـ ولا شك ـ يضمن حفظ القُرْآن حفظًا تامًّا .

وإذا أضفنا إلى هذا الجم الغفير من الصَّحابَة حبهم الجارف[(٢)] الذي لا يُحَدُّ ولا يوصف للنبي ﷺ أدركنا تمامًا أن حفظ ما يأتي به النَّبِيّ ﷺ وما يقوله محل عناية ورعاية واهتمام .

ث- عدم كتابة غير القُرْآن في بداية نزوله :

ومن مظاهر حفظ القُرْآن على عهد النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُ أمر ألا يُكتَب غير القُرْآن عنه ، ودليل ذلك ما رواه الإمام مسلمٌ في صحيحه أن رَسُول الله ﷺ قال: « لا **تكتبوا عني ، ومن كتب عني غير القُرْآن فليمحه**، وحدثوا عني ولا حرج، ومن كذب علي ... مُتَعَمِّدًا فليتبوأ مقعده من النار » .

ج- نزول القُرْآن على سبعة أحرف :

من مظاهر حفظ القُرْآن نزوله على سبعة أحرف . وقبل بيان لماذا نزول القُرْآن على سبعة أحرف من دلائل حفظه نوضح أَوْلًا ما المقصود بالأحرف السبعة؟

ورد ذكر الأحرف السبعة في أحاديث صحيحة ، روى الإمام مسلم في صحيحه قال : قال النَّبِيّ ﷺ : « أقرأني جبريل ـ عليه السلام ـ على حرف، فراجعته. فلم أزل أستزيده فيزيدني ، حتى انتهى إلى **سبعة أحرف** ».

---

(١) السابق ، ١/ ١٠

(٢) ومن أمثلة هذا الحب الشديد للنبي ﷺ ما ذكرته كتب السير عن زَيد بن الدَّثِنَة ، فقد ذكروا أَنَّهُ لما أَخْرجَ أهل مَكَّةَ زَيْدَ بن الدَّثِنَةِ مِنَ الحرم لِيَقْتُلُوهُ قال له أَبُو سُفْيَان بن حَرْبٍ : أَنْشُدُكَ اللهَّ يَا زَيْدُ، أَتُحِبُّ أَنَّ محمدًا الآن عندنا مكانك يضرب عنقه وأنك في أهلك؟ فقال زيد: والله ما أحب أن محمدًا الآن فِي مَكانِهِ الَّذِي هو فِيهِ تُصِيبُهُ شَوْكَةٌ وَأَنِّي جَالِسٌ فِي أَهْلِي . فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ : **مَا رَأَيْتُ مِنَ النَّاسِ أَحَدًا يُحِبُّ أَحَدًا كَحُبِّ أَصْحَاب مُحَمَّد مُحَمَّدًا .**

وللعلماء في تفسير المراد بالأحرف السبعة آراءٌ كثيرة ، سنختار منها تفسير الأستاذ الدكتور صبحي الصالح لوضوحه وشموله ، وهذا التفسير باختصار يقول(١) :

اللفظ القرآني الواحد مهما يتعدَّد أداؤه ، وتتنوَّع قراءته لا يخرج التغاير فيه عن الوجوه السبعة الآتية :

⇦ **الأول** : الاختلاف في وجوه الإعراب ، سواء أتغير المعنى أم لم يتغير .

⇦ **الثاني** : الاختلاف في الحروف إما بتغير المعنى دون الصورة ، وهو ما يعبر عنه أحيانًا بالاختلاف في النقط ، وإما بتغير الصورة دون المعنى .

⇦ **الثالث** : اختلاف الأسماء في إفرادها وتثنيتها وجمعها وتذكيرها وتأنيثها .

⇦ **الرابع** : الاختلاف بإبدال كلمة بكلمة ، يغلب أن تكون إحداهما مرادفة للأخرى ، وإنَّما تتفاوتان بجريان اللسان بإحداهما لدى قبيلة دون أخرى.

⇦ **الخامس** : الاختلاف بالتقديم والتأخير فيما يعرف وجه تقديمه أو تأخيره في لسان العرب العام ، أو في نسق التعبير الخاص .

⇦ **السادس** : الاختلاف بشيء يسير من الزيادة والنقصان جريًا على عادة العرب في حذف أدوات الجر والعطف تارة وإثباتها تارة أخرى .

⇦ **السابع** : اختلاف اللهجات في الفتح والإمالة ، والترقيق والتفخيم ، والهمز والتسهيل ، وكسر حروف المضارعة ، وقلب بعض الحروف وإشمام بعض الحركات .

الوجه الأخير هو أهم الأوجه السبعة ؛ لأنه يبرز الحكمة الكبرى من إنزال القُرْآن على سبعة أحرف ، ففيه تخفيف وتيسير على هذه الأمة التي تعددت قبائلها فاختلفت بذلك لهجاتها ، وتباين أداؤها لبعض الألفاظ ، فكان لا بد أن تراعى لهجاتها وطريقة نطقها ، أما لغاتها نفسها فلا موجب لمراعاتها ؛ لأن القُرْآن اصطفى ما شاء بعد أن صهره في لغة قريش .

---

(١) مباحث في علوم القُرْآن ، ص ١٠٩ وما بعدها .

وأظن أن هذا التخفيف والتيسير على الأمة **ساعد على حفظ القُرْآن** في الصدور والقلوب ، ومن ثم صيانته وحمايته .

(٤) حفظ القُرْآن وصيانته في عهد أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ :

كانت غزوة اليمامة أعظم الغزوات في حروب الرِّدَّة ، كما كانت أجلها خطرًا وأبعدها أثرًا . استشهد من المسلمين يومئذ « مائتان وألف ، بينهم تسعة وثلاثون من كبار الصَّحابَة ، ومن حُفاظ القُرْآن »[(١)] .

وفكر عمر بن الخطاب فيما قد يحدث إذا تلاحقت الغزوات بعد معركة اليمامة فقتل فيها مثل ما قتل في تلك المعركة ، فكر عمر في ذلك وطال تفكيرُه ، فلما استقرَّ به الرأي ذهب إلى أبي بكر ، وهو بمجلسه من المسجد ، فقال له : « إنَّ القتل قد استحَرَّ يوم اليمامة بالناس ، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن ؛ فيذهب كثيرٌ من القُرْآن ، إلا أن تجمعوه ، إني لأرى أن تجمع القُرْآن »[(١)] .

لم يكن أبو بكر قد فكَّر في هذا الأمر ، وعندما كلمه عمر قال : « كيف أفعل شَيْئًا لم يفعلْه رَسُول الله ﷺ ؟!! » ، ثم انتهى الحوار باقتناع أبي بكر بفكرة جمع القُرْآن بعد أن شرح الله صدره لها .

- **تَكليفُ زَيْد بن ثابت بِجَمْعِ القُرْآن :**

بعد الاقتناع بالفكرة كَلَّف أبو بكر زيد بن ثابت بجمع القُرْآن ، ويروي البخاريُّ قصة هذا التكليف على لسان زيد نفسه ، فيذكر : « أرسلَ إِلَيَّ أبو بكر مقتل أَهْلِ الْيَمَامَةِ، وعنده عُمَرُ، فقال أَبُو بَكْرٍ: إِنَّ عُمَرَ أَتَانِي فَقَالَ : إِنَّ الْقَتْلَ قَدِ استحرَّ يوم اليمامة بالناس ، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقُرَّاء في المواطن ؛ فيذهب كثير من القُرْآن ، إلا أن تجمعوه ، وإني لأرى أن تجمع القُرآنَ. قال أبو بكر: قلت لعمر: كَيْفَ أَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُول اللهِ ﷺ؟ فَقَالَ عُمَرُ: هُوَ والله خير، فلم يزل عمر يراجعني

(١) د. مُحَمَّد حسين هيكل: الصديق أبو بكر ، ص ٢٨١

(١) السابق ، ص ٢٨٢

فيه حتى شرح الله لذلك صدري ، ورأيت الذي رأى عمر، قال زيد بن ثابت ، وعمر عنده جالس لا يتكلم ، فقال أبو بكر : إنكَ رجلٌ شابٌّ عاقل ، ولا نتهمك ، كُنْتَ تَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللهِّ ﷺ ، فتتبع القُرْآن فاجمعه. فوالله ، لَوْ كَلَّفَنِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الْجِبَالِ ما كان أثقل عليَّ مما أمرني به من جَمْعِ الْقُرْآنِ. قُلْتُ : كَيْفَ تَفْعَلَانِ شَيْئًا لم يَفْعَلْهُ رَسُول الله ﷺ ؟! فقال أبو بكر: هو والله خير ، فلم أزل أراجعه حَتَّى شَرَحَ الله صَدْرِي لِلَّذِي شَرَحَ الله له صدر أبي بكر وعمر، فقمت فتتبعت القُرْآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب، وصدور الرِّجال »[(١)] .

وكما هو واضح من الرواية فإن اختيار زيد بن ثابت لم يكن اختيارًا « عشوائيًّا » ، بل كان اختيارًا مبنيًّا على أسُسٍ ، وهي أنَّ زيدًا « كان من أشهر الصَّحابَة إتقانًا لحفظ القُرْآن الكريم كله ، ووعيًا لحروفه ، وأداء لقراءاته ، وضبطًا لإعرابه ولغاته[(١)] ، وكان مداومًا لكتابة الوحي للرسول ﷺ ، **وشهد العَرْضَة الأخيرة للقرآن في حياته** ﷺ ، وكان مع ذلك عاقلًا ورعًا ، كامل الدِّيْن والعدالة ، مأمونًا على القُرْآن ، غير متهم في دينه ولا خلقه ؛ فاجتمع فيه من المزايا والخصائص ما لم يجتمع لغيره من أكابر الصَّحابَة »[(٢)] .

- **مَنْهَجُ زيدِ بن ثابت في جَمْعِ القُرْآن :**

سار زيد على منهج محدد عند جمعه للقرآن ، يتمثل في الخطوات الآتية :

١ـ الحرص الشديد ، واليقظة التامَّة ، والانتباه لكل ما يقوم به ، وهذا واضحٌ من قوله الذي أورده الإمام البخاري « فَوَاللهِّ لَوْ كَلَّفَنِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الْجِبَالِ ما كان أثقل علي مما أمرني به مِنْ جَمْعِ الْقُرْآن » .

٢ـ كان يجمع ما كُتِبَ من القُرْآن في اللُّخفِ والعُسُب ... ، ويتحرَّى أن يكون ما

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب : فضائل القُرْآن ، باب : جمع القُرْآن ، ٤/ ١٩٠٧

(١) روى الإمام البخاري في صحيحه عن أَنَسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ : «جَمَعَ الْقُرْآن عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ أَرْبَعَةٌ، كُلُّهُمْ مِنَ الْأَنْصَارِ: أُبَيٌّ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَبُو زَيْدٍ، **وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ**. قُلْتُ لِأَنَسٍ: مَنْ أَبُو زَيْدٍ؟ قَالَ: أَحَدُ عُمُومَتِي» .

(٢) عبد الفتاح القاضي ، المصحف الشريف أبحاث في تاريخه وأحكامه ، ص ٦٣

جمعه مما كُتبَ بين يدي رَسُول ﷺ .

٣ـ لم يكن يقبل شَيْئًا من المكتوب حتى يشهد شاهدان عدلان أن هذا المكتوب مما كتب أمام الرَّسُوْل ﷺ .

٤ـ إثبات ما ثبت في العرضة الأخيرة ، وأَنَّهُ لم تُنسخ تلاوته ، واستبعاد غيره .

ومن البدهي أن زيدًا خلال هذا الجمع كان يَعقد مقارنة تلقائية بين ما يحفظُهُ وما يجمعُهُ ، بين ما مكتوب في اللخف والعسب وبين ما محفور في صدره ، والخطوات المنهجية التي اتبعها زيدٌ ما كانت إلا على سبيل المبالغة في الاحتياط والتَّثَبُّت .

وبعد هذا الجمع ظلت هذه الصحف التي جمع فيها القُرْآن في رعاية الخليفة الأول أبي بكر مدة خلافته ، ثم انتقلت بعده إلى عمر بن الخطاب ، ثم حفصة بنت عمر .

(٥) حفظ القُرْآن وصيانته في عهد عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ :

علمنا مما أثبتناه آنفًا أَنَّ القُرْآن نزل على سبعة أحرف ، وأشرنا إلى المراد بهذه الأحرف السبعة ، وعلمنا أَيْضًا أَنَّ الصَّحابَة الذين رأوا النَّبِيّ ﷺ وسمعوا منه يُعَدُّون بالعشرات ، بل بالمئات بل بالآلاف .

وكان النَّبِيّ ﷺ يقرأ بهذه الأحرف ، ولا يلتزم ﷺ حرفًا واحدًا منها ، وإلا كيف عرف الصَّحابَة هذه الأحرف .

ومن الطبيعي والأمر كذلك أن يسمعَ بعض الصَّحابَة « حرفًا » ويحفظه غير الحرف الذي قد يسمعه صحابيٌّ آخر ويحفظه ، وباتساع الفتوحات في عهد عمر وعثمان تفرق الصَّحابَة في البلاد للجهاد في سبيل الله ، وأخذ كل واحدٍ منهم يُقرئُ الناس بالحرف الذي سمعه من النَّبِيّ ﷺ ، وبمرور الأيام بدأت تظهر بوادر مشكلة خطيرة ـ ظاهريًّا ـ ، هذا المشكلة يلخصها د. هيكل في كتابه « الصديق أبو بكر » ؛ إذ يقول : « اتسعت رُقعة الفتح في عهد عمر وعثمان . وكان أصحاب رَسُول الله يُقرءون القُرْآن ، ويعلِّمونه مَن أسلم من أهل البلاد المفتوحة ؛ فاختلف الناس في القراءة ، وعظم اختلافهم وتشتتهم ؛ حتى إنَّ الرجل ليقول لصاحبه : إنَّ قراءتي خير من قراءتك ، وأفضل من قراءتك . وبلغ الأمر من ذلك حتى كاد يكون فتنة .

اختلفوا وتنازعوا ، وأظهر بعضهم إكفار بعض والبراءة منه وتلاعنوا ، ورأى حُذيفة بن اليمان خلافهم وتلاعنهم ؛ إذ كان يُقاتل مع المسلمين على أرمينية وأذربيجان ؛ ففزع ؛ وكرَّ راجعًا إلى المدينة ، ودخل على عثمان قبل أن يدخل إلى بيته ، فقال له : أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك . قال عثمان : فيماذا؟ قال : في كتاب الله. إني حضرت هذه الغزوة ، وقد جمعت ناسًا من العراق والشام والحجاز ، ثم وصف له ما تقدم من اختلافهم في القراءة ، وأردف : وإني أخشى عليهم أن يختلفوا في كتابهم كما اختلف اليهود والنصارى . ورأى عثمان الخطر ؛ فجمع الناس ؛ فعرض عليهم الأمر ؛ فسألوه رأيه ؛ فقال : الرأي عندي أن يجتمع الناس على قراءة ؛ فإنكم إذا اختلفتم اليوم كان مَن بعدكم أشد اختلافًا ، وأقره أهل الرأي ؛ فأرسل إلى حفصة يسألها أن ترسل إليه مصحف أبي بكر لنسخه في المصاحف . وكان ذلك أول ما حدث في جمع مصحف عثمان وتوحيد قراءة القُرْآن »[(١)] .

من خلال هذا التلخيص الذي قدمه د. هيكل نفهم الآتي :

- بَثَّ النَّبِيّ ﷺ في الأمة القُرْآن بـ « أَحْرُفِه السبعة » .
- تناقل الصَّحابَة من بعده هذه الأحرف وبثُّوها في الناس .
- بدأ الناسُ ـ بجهل وبدون قصد ـ يُفاضلون بين هذه الأحرف السبعة ، وكل يَدَّعي أنَّ قراءته خيرٌ من قراءة الآخر ؛ فبدأت بوادر الخلاف بين الأمة .
- قرَّر عثمان ـ رضي الله عنه ـ حسم بوادر الخلاف بأن يجمع الناسَ على قراءة واحدة.

وبعد الاتفاق على هذا القرار قام عثمان بوضعه موضع التنفيذ ، إذ أرسل إلى حفصة أن « أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ، ثم نردها إليك ؛ فأرسلت به حفصة إلى عثمان ؛ فأمر زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف . وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شَيْء من القُرْآن فاكتبوه بلسان قريش ، فَإِنَّهُ إنما نزل بلسانهم ؛ ففعلوا ، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ، رد

(١) ص ٢٩٤ ، ٢٩٥

عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القُرْآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحرق »[(١)] .

ويشير الإمام ابن حجر العسقلاني أن هذا الأمر ـ استنساخ المصاحف ـ كان في عام ٢٥ هـ[(٢)] .

وأمر عثمان أن ينسخوا من صحف حفصة « مع أَنَّهُمْ كانوا جُمَّاعًا لكتاب الله في صدورهم ؛ لتكون مصاحفه مستنده إلى أصل أبي بكر ، المستند بدوره إلى أصل النَّبِيّ ﷺ المكتوب بين يديه بأمره وتوقيف منه ؛ فسُدَّت بذلك كل ذريعة للتقول والتشكيك »[(١)] .

وقد اختلف في عدة المصاحف التي أرسل بها عثمان إلى الآفاق ، فقيل : أربعة مصاحف ، وقيل خمسة مصاحف ، وقيل سبعة مصاحف ، ويرجح د. صبحي الصالح القول بنسخ سبعة مصاحف ، إذ يميل إلى « الرأي القائل إن اللجنة استنسخت سبعة مصاحف ، فأرسل عثمان بستة منها إلى الآفاق ، واحتفظ لنفسه بواحد منها »[(٢)] .

ونستطيع أن نقول باطمئنان إنَّ مصاحف عثمان جُرِّدت من جميع الزيادات التي لم تتوافر قرآنيتها ، وإنَّما كانت من قبيل التفسير أو تفصيل المجمل أو إثبات المحذوف ، وأهملت منها جميع الروايات الآحادية ، وأضحت سورها وآياتها مرتبة على النحو الذي نجده في مصاحفنا اليوم .

ولكي « يزيد عثمان من إقبال الناس على تلقي القُرْآن من صدور الرجال واعتمادهم على الحفظ وعدم اتكالهم على النسخ والكتابة ، راح يرسل في الأكثر

---

(١) السيوطي : الإتقان في علوم القُرْآن ، ت: مركز الدراسات القرآنية ، وزارة الشئون الإسلامية الرياض ، (بدون تاريخ للطبعة) ، ٢/ ٣٨٨

(٢) السابق ، ٢/ ٣٨٩

(١) د. صبحي الصالح : مباحث في علوم القُرْآن ، ص ٨٣

(٢) السابق ، ص ٨٤

الأغلب مع المصحف الخاص بكل إقليم حافظًا يوافق قراءته ، فكان زيد بن ثابت مقرئ المدني ، وعبد الله بن السائب مقرئ المكي ، والمغيرة بن شهاب مقرئ الشامي وأبو عبد الرحمن السُّلَمي مقرئ الكوفي وعامر بن عبد القيس مقرئ البصري »[(١)] .

ويجب أن ننبه هنا على أن اختيار عثمان ـ رضي الله عنه ـ قراءة معينة أو حرف معين في مصحفه ـ كما أشار هيكل سابقًا ـ لا يعني إهمال بقية الأحرف التي قرأ بها النَّبِيّ ﷺ ، بل هي موجودة ، حفظتها كتب القراءات .

وقد تختلط القراءة التي قرأ بها النَّبِيّ ﷺ بتفسير أو ما شابه قام بوضعه بعض الصَّحابَة على هامش المصحف ؛ لذلك وضع علماء القراءات شروطًا يضمنون بها « قُرْآنِيَّة القُرْآن » ، وألا يختلط بغيره ، من تفسير أو نحوه ، وهي :

١ـ موافقة القراءة لرسم أحد المصاحف العثمانية ولو تقديرًا .

٢ـ موافقة العَرَبِيَّة ولو بوجه .

٣ـ صحة إسنادها[(١)] .

وقسم ابنُ الجَزَرِي أنواع القراءات التي نُقلت إلينا إلى ستة أنواع :

⇦ **النوع الأول المتواتر** : وهو ما رواه جمعٌ عن جمعٍ لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم ، مثاله : ما اتفقت الطرقُ على نقله عن السبعة ، فالجمهور على أنَّ القراءات السبع متواترة .

⇦ **النوع الثاني المشهور** : هو ما صحَّ سنده بأن رواه العدل الضابط عن مثله وهكذا ، ووافق العَرَبِيَّة ، ووافق أحد المصاحف العثمانية ، سواء أكان عن الأئمة السبعة أم للعشرة أم غيرهم من الأئمة المقبولين[(٢)] ، واشتهر عند

---

(١) السابق ، ص ٨٦

(١) د. صبحي الصالح : مباحث في علوم القُرْآن ، ص ٢٥٥

(٢) قام الإمام الكبير أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس المشهور بابن مجاهد (ت:٣٢٤هـ) على رأس الثلاث مئة للهجرة في بغداد بجمع سبع قراءات لسبعة من أئمة الحرمين والعراقين والشام اشتهروا بالثقة والأمانة والضبط وملازمة القراءة ، **وجاء جمعه لها محض مصادفة واتفاق ؛ إذا كان في أئمة القراء من هم أجل منهم قدرًا ، وكان عددهم لا يستهان به** ، وقد حظيت قراءات هؤلاء

القراء ؛ فلم يعدوه من الغلط ولا من الشذوذ ، إلا أَنَّهُ لم يبلغ درجة التواتر .

ومن أشهر ما صُنِّفَ في هذين النوعين ـ المتواتر والمشهور ـ : « التيسير للداني » ، و« الشاطبية » ، و« طيبة النشر في القراءات العشر » . وهذان النوعان هما اللذان يقرأ بهما مع وجوب اعتقادهما ، ولا يجوز إنكار شَيْء منهما.

⇦ **النوع الثالث** : ما صح سنده ، وخالف الرسم أو العَرَبِيَّة أو لم يشتهر الاشتهار المذكور . وهذا النوع لا يقرأ به ، ولا يجب اعتقاده .

⇦ **النوع الرابع الشاذ** : وهو ما لم يصح سنده .

⇦ **النوع الخامس الموضوع** : وهو ما يُنسب إلى قائله من غير أصل .

⇦ **النوع السادس** : ما يشبه المدرج من أنواع الحديث ، وهو ما زيد في القراءات على وجه التفسير[1] .

*****

(٦) حفظ القُرْآن بعد عثمان ـ رضي الله عنه ـ :

بعد الصحابي الجليل سيدنا عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ استمر نقل القُرْآن مشافهة من الصَّحابَة إلى مَنْ بعدهم ، وكان الحرص على أداء القُرْآن وضبطه سمة هذا النقل . يقول الأستاذ الدكتور بشار عواد معروف ، والشيخ شعيب الأرناؤوط في مقدمة تحقيقهما لكتاب « معرفة القُرَّاء الكبار على الطبقات والأعصار » الذي خطه يراع الإمام العِلْم شمس الدِّيْن الذهبي ، إمام التراجم وعلم القراءات : « وكان من أسباب حفظه (؛ أي : القُرْآن) أن هَيَّأَ الله له رجالًا صادقين مخلصين من الصَّحابَة ومَن بعدهم إلى يومنا هذا ، غرس في قلوبهم حُبَّ كتابه الكريم ، **والحِرص**

السبعة ـ من لدن ابن مجاهد ـ بشهرة واسعة ، **وتوهم الكثيرون أنها هي المراد من الأحرف السبعة التي ذكرت في الحديث النبوي** . وهؤلاء القراء السبعة : ابن كثير ، نافع ، أبو عمرو ، ابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي . والقراءات العشر ، فهي تلك السبع المشهورة مضافًا إليها قراءة يعقوب ، وقراءة خلف بن هشام ، يزيد بن القعقاع المشهور بأبي جعفر . يُنظر: د. صبحي الصالح، مباحث في علوم القُرْآن ، ص ٢٤٧ وما بعدها .

(١) السابق ، ص ٢٥٦، ٢٥٧

على تَلَقِّيهِ ، وأَدائِه ، وضَبْطِه ، وحفظِه ، وتلقينهِ لمن بعدَهم ؛ ليصلَ إليهم غَضًّا ، كما أُنزل على رسوله الكريم ﷺ ؛ فأفنوا أعمارهم ، وأجهدوا أنفسهم ، ودأبوا ليل نهار في تحصيل علومه ومستلزماته ، فكان الواحد منهم يفني عمره بين مدارسة كتاب الله العزيز ، وتدريسه وتلقينه وتعليمه ، يعدون ذلك واجبًا ، يمليه عليهم حرصهم على دينهم ، ورغبتهم في انتشاره وتعليمه بين الناس أجمعين ، لا يبتغون من ذلك عَرَض الدُّنْيا ، ولا التزلُّف إلى أحد من الخلق ، فكان منهم نبغة في كل عصر » [(١)] .

وقد أسدى الإمام الذهبي ـ طيب الله ثراه ـ للأمة معروفًا لا يُقَدَّر بثمن ، إذ أحصى في كتابه « **معرفة القُرَّاء الكبار على الطبقات والأعصار** » القُرَّاء الكبار الذين تولوا إقراء القُرْآن وتلاوته . وقد رتب المؤلف هذا الكتاب على « الطبقات » فجعله في ثماني عشرة طبقة حسب اللُّقيا بين القراء الكبار ، بدءًا من الصَّحابَة وانتهاءً بعصره وقد أدرج الطَّبَقَة ١٧ في ١٨ ، وجعلهما طبقة واحدة [(٢)] . وقد خَصَّص هذه التراجم لكبار قُرَّاء القُرْآن في هذه الطبقات .

والإمام الذهبي في علم التراجم « فنان أصيل ، قل نظيره في صياغة التَّرْجَمَة ، وهضم ما كتب عن المترجم في المؤلفات السابقة ، وتقديم صورة دقيقة مركزة موثقة بقلمه البليغ ، وأسلوبه الواضح ، وديباجته المشرقة ، وما أكثر ما يضمن التَّرْجَمَة نقدات موفقة ، يكاد ينفرد بها بين المؤرخين ، تُبِينُ عن سعة علمه ، ونصاعة حجته وبراعة نقده » [(٣)] .

وقد أفرد الطَّبَقَة الأولى لكبار الصَّحابَة ، وقال : « الطَّبَقَة الأولى : الذين عَرَضُوا على رَسُول الله ﷺ رضي الله عنهم » ، وذكر تحت هذه الطَّبَقَة أسماء الصَّحابَة الآتي

---

(١) شمس الدِّيْن الذهبي : معرفة القُرَّاء الكبار على الطبقات والأعصار ، ت: بشار عَوَّاد معروف ـ شعيب الأرناؤوط ـ صالح مهدي عباس ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٢ ، (١٩٨٨م) ، ١/ ٧، ٨ .

(٢) السابق ، ١/ ١٢

(٣) السابق ، ١/ ١٣

أسماؤهم :

١ـ عثمان بن عفان بن أبي العاص القرشي الأموي .

٢ـ على بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي .

٣ـ أُبَيُّ بن كعب بن قيس بن عبيد الأنصاري .

٤ـ عبد الله بن مسعود الهُذليُّ المكيُّ .

٥ـ زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصاريُّ الخزرجيُّ .

٦ـ عبد الله بن قيس ، أبو موسى الأشعريُّ .

٧ـ عُويمر بن زيد الأنصاريُّ الخزرجيُّ ، أبو الدرداء .

والطبقة الثانية ذكر معها قوله : « وهم الذين عرضوا على بعض المذكورين قبلهم » ، وذكر تحتها الأسماء الآتية :

١ـ عبد الرحمان [كذا] بن صخر الدَّوسي ، أبو هُرَيرة .

٢ـ عبد الله بن عَبَّاس بن عبد المطلب الهاشميُّ .

٣ـ عبد الله بن السائب بن أبي السائب المخزوميُّ .

٤ـ المغيرة بن أبي شهاب عبد الله المخزوميُّ .

٥ـ حِطان بن عبد الله الرَّقاشيُّ السدوسيُّ .

٦ـ الأسود بن يزيد النخعيُّ ، أبو عَمرو .

٧ـ علقمة بن قيس بن عبد الله النَّخعيُّ .

٨ـ عبد الله بن حبيب السُّلميُّ ـ أبو عبد الرحمان .

٩ـ عبد الله بن عَيَّاش بن أبي ربيعة المخزوميُّ المكيُّ .

١٠ـ عمران بن تيم البصريُّ ، أبو رجاء العطارديُّ .

١١ـ ظالم بن عمرو ، أبو الأسود الدُّؤَليُّ .

١٢ـ رُفيع بن مِهران البصريُّ ، أبو العالية الرِّياحيُّ .

ثم تأتي الطَّبَقَة الثالثة ، طبقة التابعين ، ثم تتوالى الطبقات حتى زمن الإمام الذهبي المتوفَّى عام ٧٤٨ هـ . .

ويمكن أن نلخص **عدد القراء الكبار** في كل طبقة[1] كما يلي:

م	ترتيب الطبقة	عدد القراء بها
١-	الثالثة (من التابعين)	١٩ قارئًا
٢-	الرابعة	١٦ قارئًا
٣-	الخامسة	٢١ قارئًا
٤-	السادسة	٥٠ قارئًا
٥-	السابعة	٥٨ قارئًا
٦-	الثامنة	٦٦ قارئًا
٧-	التاسعة	٦٠ قارئًا
٨-	العاشرة	٥٠ قارئًا
٩-	الحادية عشرة	٤٤ قارئًا
١٠-	الثانية عشرة	٥٧ قارئًا
١١-	الثالثة عشرة	٧٠ قارئًا
١٢-	الرابعة عشرة	٦٥ قارئًا
١٣-	الخامسة عشرة	٤٠ قارئًا
١٤-	السادسة عشرة	٨٣ قارئًا
١٥-	السابعة عشرة والثامنة عشرة	١٩ قارئًا

وآخر تَرْجَمَة ترجمها الإمام الذهبيُّ كانت تَرْجَمَة مُحَمَّد بن إبراهيم ، وكان رقمها ٧٣٤ ، أي أَنَّ الإمام الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ **قدم ٧٣٤ تَرْجَمَة لكبار القراء** ، من عهد النَّبِيّ ﷺ إلى عصره ، منتصف القرن الثامن الهجري تقريبًا .

والسؤال الآن : هل يمكن مع هذا العدد الضخم من الرواة من لدن الصَّحابَة إلى الآن أن يقع أيُّ تحريف في القُرْآن ؟! حتى ولو كان مجرد تغيير حركة واحدة ؟! وهل نال كتاب غير القُرْآن مثل هذه العناية التي لا تستطيع ألفاظ اللغة قاطبة حقًّا

(١) استعنا في هذا الإحصاء بفهرس المحققين للكتاب ، ٢/ ٧٥٩

وصدقًا التعبير عنها ؟!!

الإجابة : لا .

- **علم التجويد ودوره في الحفاظ على القُرْآن الكريم** :

أدَّى علم التجويد دورًا في الحفاظ على القُرْآن الكريم وصيانته ، والزود عن حياضه . وتمثل هذا الدور في اتجاهين :

⇦ الاتجاه الأول : رَصْدِ قواعد هذا العِلْم .

⇦ الاتجاه الثاني : تعليم قواعد هذا العِلْم .

وفيما يتعلق بالاتجاه الأول ـ اتجاه رصد قواعد هذا العِلْم ـ فقد قام علماء هذا العِلْم برصد قواعده من خلال القراءات المتواترة عن النَّبِيّ ﷺ ، فعلم التجويد لم يبتكر قواعده من عنده ، ولم يأت بمبادئ تخصه ، بل هو علم « استقرائي استنباطي » على غرار علمي النحو والصرف ، يقوم على استقراء المادة العِلْمِيَّة ثم استنباط القاعدة منها .

وقد سار علماء التجويد عند وضع قواعدهم على منهج دقيق جدًا ، قائمٍ على الملاحظة الدقيقة المستقصية للمادة المسموعة من القراءات القرآنية .

وسأحاول هنا تقديم بعض الأمثلة التي تدل على شدة عناية علماء التجويد برصد هذه القواعد ، وكل القواعد التي استنبطها علماء التجويد تدل على هذه الدِّقَّة ولكني سأختار من هذه القواعد ما أراه أَنَّهُ يتطلب ملاحظة شديدة الدِّقَّة ، وليست ملاحظة عابرة .

ويجب ألا ننسى هنا أننا في معرض الاستدلال ـ مجرد الاستدلال ـ على حفظ القُرْآن وصيانته ، ولسنا بصدد سرد مباحث علم التجويد ودراسته .

١) **المدود** :

مما رصده علماءُ التجويد في هذا الباب وعبروا عنه بمصطلحاتهم التي وضعوها أَنَّ المد هو : إطالة الصوت ، بحرف من حروف المد الثلاثة : الألف ، الواو ، الياء.

وقسموا هذا المد إلى أصلي وفرعي ، واصطلحوا على الأصلي بأَنَّه : هو الذي لا تتحقق ذات الحرف إلا به . ولا يتوقف على سبب من همز أو سكون ، وحددوا

مقدار مَدِّه بناء على استقرائهم بحركتين ، والحركة زمن قبض الإصبع أوبسطه .

أما المد الفرعي فيكون بمد حرف المد الذي بعده همز أو سكون ، أو يوجد قبله همز فقط وليس بعده همز أو سكون (١) .

ولخص علماء التجويد هذا المد إلى فروع عديدة ، وحددوا مقدار حركات كل نوع منه ويمكن تلخيص هذه الأنواع بمصطلحاتها ومقادير مدودها في الجدول الأتي :

م	اسم المد	تعريفه	مقدار حركاته
(١)	الواجب المتصل	هو أن يوجد بعد حرف المد همز ، في نفس الكلمة.	يُمَدُّ بمقدار ٤ ، ٥ حركات وجوبًا
(٢)	المنفصل	هو ما كان حرف المد فيه في آخر الكلمة الأولى ، والهمزة في أول الكلمة الثانية.	يُمَدُّ عند حفص ٤ أو ٥ حركات.
(٣)	العارض للسكون	هو أن يأتي بعد حرف المد حرف متحرك ، ثم يُسكَّن هذا الحرف عند الوقف ، وحينئذ يجوز في حرف المد الواقع قبل هذا الحرف: القصر ، التوسط ، المد .	القصر بحركتين ، التوسط ٤ حركات ، المد ٦ حركات .
(٤)	البدل	هو أنْ يوجد حرف المد وقبله همز، ولا يوجد بعده همز أو سكون .	القصر بحركتين (عند حفص فقط) ، التوسط ٤ حركات ، المد ٦ حركات (عند ورش عن نافع) .
(٥)	اللازم	هو أن يوجد حرف المد وبعده **سكون لازم** في كلمة أو في حرف وصلا ووقفًا .	يُمَدُّ ٦ حركات لا يزيد عليها أو ينقص عنها في كل أنواع اللازم .

وإذا كان لنا تعليقٌ على هذا الجدول فهو كالآتي :

(١) مُحَمَّد أحمد معبد : الملخص المفيد في علم التجويد ، دار السلام ، القاهرة ، ط١٢ ، (٢٠٠٧م) ص ٤٤

أ- إذا لجأنا إلى المقاييس والآلات الحديثة التي استطاعت أن تقيس الفترة الزمنية للحركة نجد أَنَّها تساوي بقياس تلك الآلات ٨٠ مللي ثانية (؛ أي ٨٠ جزء من الثانية الواحدة) ، وقياس حركتين متتاليتين يساوي ١٦٠ مللي ثانية ، وعندما يقول علماء التجويد مثلًا أَنَّ المد الواجب المتصل ، أو الجائز المنفصل يُمَدّان بمقدار ٤ أو ٥ حركات ؛ فهذا يعني أن علماء التجويد بلغ بهم الانتباه والتركيز والإحساس بالفارق الزمني بين المدود بلغ ٨٠ جزءًا من الثانية .

ب- مما يبوح به هذا الجدول من طرف خفي أن علماء التجويد درسوا كل الألفاظ التي ورد بها أي نوع من المد ، كل لفظة على حدة ، ولم يقوموا بتعميم القاعدة مكتفين بأنها تنطبق على عدد كبير من أفرادها ، فهذا لم يحدث ، ودليل ذلك وآيته أَنَّهُ في المد اللازم الحرفي المخفف يُمَدُّ ست حركات مع : الكاف ، الميم ، العين ، السين ، اللام ، النون ، القاف ، الصاد . ومع حرف العين خاصة في فاتحتي سورة مريم والشورى أشار علماء التجويد إلى أن فيه وجهين : التوسط بمقدار أربع حركات ، والمد بمقدار ٦ حركات .

٢) **هاء الكناية** :

- هي الهاء الزائدة الدالة على الواحد المذكر الغائب ، وهذه الهاء إذا وقعت بين حرفين متحركين وليس الحرف الثاني همزة تمد بمقدار حركتين ، مثل قوله تعالى ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ سبأ: ١
- و إذا وقعت هذه الهاء بين حرفين متحركين والحرف الثاني همزة ، تُمَدُّ أربع أو خمس حركات ، مثل قوله تعالى ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ الواقعة: ٧٩

وقد وجد علماء التجويد أن هذه القاعدة مطردة في كل القُرْآن إلا في موضوعين :

- الأول قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ الزمر: ٧
- الثاني : ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴾ العلق: ١٥

ولا أقوى من هذا دليلًا على دقة ملاحظة علماء التجويد ، وبينة واضحة على ما قلناه آنفًا على وقوفهم أمام كل لفظة قرآنية على حدة دراسة وتحليلًا .

- وإذا وقعت بعد حرف ساكن وقبل حرف متحرك فحكمها عدم الصلة عند حفص ؛ أي : عدم المد مطلقًا في حالة الوصل ، مثل قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ البقرة: ٢

وهذه القاعدة سارية في كل القُرْآن إلا **في كلمة واحدة** في قوله تعالى : ﴿ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾ الفرقان: ٦٩ ، فلحفص فيها المدُّ حركتان **فقط في هذا الموضع دون سواه** .

٣) **تفخيم حرف الراء وترقيقه** : لتفخيم الراء ثلاث حالات :

- تُفَخَّمُ الرَّاءُ في ثمانية مواضع .
- تُرَقَّقُ في أربعة مواضع .
- يجوز التفخيم والترقيق في موضعين .

(أ) **المَواضع التي تُفَخَّمُ فيها الرَّاءُ** :

١ـ إذا أتت الرَّاءُ مفتوحة : ﴿ رَبَّنَا ﴾ ، ﴿ رَمَضَانَ ﴾

٢ـ إذا أتت الرَّاءُ ساكنة وقبلها مفتوح : ﴿ مَرْيَمَ ﴾

٣ـ إذا الرَّاءُ ساكنة وقبلها ساكن (غير ياء) وقبله مفتوح : ﴿ والعَصْرْ ﴾ ، ﴿ القَدْرْ ﴾ .

٤ـ إذا أتت الرَّاءُ مضمومة : ﴿ كَفَرُواْ ﴾

٥ـ إذا أتت الرَّاءُ ساكنة وقبلها مضموم : ﴿ ٱلْقُرْءَانُ ﴾

٦ـ إذا أتت الرَّاءُ ساكنة وقبلها ساكن وقبله مضموم : ﴿ خُسْرْ ﴾

٧ـ إذا أتت الرَّاءُ ساكنة وقبلها مكسور وبعدها حرف استعلاء غير مكسور (في الكلمة نفسها) : ﴿ قِرْطَاسٍ ﴾ ، ﴿ فِرْقَةٍ ﴾ ، ﴿ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ ، ﴿ وَإِرْصَادًا ﴾

(لا توجد هذه الحالة إلا في الكلمات السابقة فقط)

٨ـ إذا أتت الرَّاءُ ساكنة وقبلها كسرة عارضة (ملفوظة أو مقدَّرة) : ﴿ ٱرْجِعُوٓاْ ﴾ ، ﴿ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾

(ب) **المواضع التي تُرَقَّقُ فيها الرَّاءُ** :

١ـ إذا أتت الرَّاءُ مكسورة : ﴿ كَرِيمٌ ﴾ ، ﴿ رِيحَ ﴾.

٢ـ إذا أتت الرَّاءُ ساكنة وقبلها كسرة أصلية ، وليس بعدها حرف استعلاء: ﴿ فِرْعَوْنَ ﴾
٣ـ إذا أتت الرَّاءُ ساكنة وقبلها ساكن غير مستعلٍ وقبله مكسور : ﴿ حِجْرْ ﴾ ، ﴿ السِّحْرْ ﴾ ، ﴿ قَدِيْرْ ﴾
٤ـ إذا أتت الرَّاءُ ساكنة وقبلها ياء لين (ياء اللين: ياء ساكنة قبلها مفتوح) ﴿ خَيْرْ ﴾ ، ﴿ ضَيْرْ ﴾ ، ﴿ غَيْرْ ﴾

(ج) **المَواضِع التي يَجُوزُ فيها الترقيق والتفخيم**:

١ـ **إذا أتت الرَّاءُ ساكنة وقبلها كسرة وبعدها حرف استعلاء مكسور(في حال الوصل) :** ﴿ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ ﴾.

٢ـ **إذا أتت الرَّاءُ ساكنة وقبلها حرف استعلاء ساكن وقبله مكسور (عند الوقف بالسكون) :** ﴿مِصْرْ﴾ ، ﴿القِطْرْ﴾

من خلال العرض السابق نقف على الحقيقة الآتية ، وهي أن علماءنا الأكارم علماء التجويد ـ طيب الله ثراهم ورحمهم رحمة واسعة ـ لم يقفوا عند اللفظة القرآنية فقط دراسة وتحليلًا ، بل وقفوا أمام كل صوت من أصوات حروفه ، بل أمام كل حركة من حركاته ، ولم يتفلت منهم حرف واحد ، وللمرء أن يقف إعظامًا وإجلالًا لهذا الجُهد المضني الذي بذلوه .

أكتفي بهذه الشواهد الثلاث كأدلة دامغة على بيان مدى الدور بالغ الأهمية الذي أدَّاه علم التجويد في حفظ القُرْآن وصيانته ، ولكن قبل أن أبرح هذا المكان وأنتقل بقلمي لبيان نقطة أخرى يجب أن أبين نقطة مهمة ، وهي : أن علماء التجويد لم يكن دورهم مقصورًا فقط على جانب التقعيد وجانب التعليم ، بل امتد اهتمامهم إلى جانب ثالث ، حظي ببعض اهتمامهم ، وهو الجانب « الإحصائي » ، فقد قام هؤلاء العلماء بصبر لا ينفد بإحصاء :

(١) عدد آيات القُرْآن (٦٢٣٦ آية) .
(٢) عدد كلماته (٧٧٤٣٧ كلمة) .
(٣) عدد حروفه (٣٢٣٦٧١ حرفًا) .
(٤) عدد نقاطه (١٥٠٦٨١ نقطة) .

(٥) عدد المرات التي ذُكرَ فيها كل حرف (على سبيل المثال : حرف التاء تكرر ذكره ١٠١٩٩ مرة ، حرف الجيم : ٣٢٧٣ مرة ، حرف الفاء : ٨٤٩٩ مرة ....) .

(٦) الكلمات التي ورد بها مد لازم كلمي مثقل (١٠٠ موضعٍ) .

(٧) تقسيم الحروف من حيث الشدة والرخاوة ، الاستعلاء والإطباق والاستفال ، المجهورة والمهموسة ...

(٨) المواضع التي وقعت فيها لفظة « بلى وكلَّا » .

(٩) المواضع التي وقعت فيها كلمة « رحمة ، ونعمة ، وامرأة ، وسنة ، ولعنة ، ومعصية ، وكلمة ، وبقية ... » مفتوحة التاء .

إلى غير ذلك من الإحصاءات العديدة .

في نهاية حديثنا عن علم التجويد ودوره في صيانة وحماية القُرْآن أصل إلى ختام هذا الفَصْل مَوْثُوقِيَّة نقل القُرْآن ، وأختم هذه الفَصْل بهذه الكلمات .

أظن ـ بعد كل ما سردناه من حقائق من بداية هذا الفَصْل إلى خاتمته ـ أَنَّهُ لا مجال للشك مطلقًا أَنَّ القُرْآن العظيم قد نقل إلينا نقلًا تامًّا ، وحفظ حفظًا لا نظير له مع أي كتاب آخر في دنيا الناس هذه ، وأنا أعترف هنا أنني لو حاولت أن أجمع كل ألفاظ العَرَبِيَّة لتعبر عن روعة هذا الحفظ ومتانته فلن أستطيع ، وأنني مهما أوتيت من بَلاغَة وفصاحة وبيان فإني لن أوفي القُرْآن حقه في هذا الجانب ، فموثوقية النقل القرآني بلغت الذروة ، وبلغت الغاية التي ليست بعدها غاية ، وهذا في حد ذاته دليل على إعجازه ومصداقًا لقول ربنا : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ **الحجر: ٩**

الفصل الخامس
لماذا نَبْتَغِي الإِسْلام دِيْنًا ؟

- لماذا نبتغي الإسلام دِينًا ؟
- دعوة الإسلام لمكارم الأخلاق.
- المردود الحضاري للإسلام .
- شهادة كبار الكتاب الغربيين للإسلام.

الفَصْلُ الخامِسُ

لماذا نَبْتَغِي الإِسْلام دينًا؟

بعد مرورنا على الفصول الأربعة السابقة :

١ـ بيان معنى الدِّيْن والإسلام .

٢ـ الأدلة على وجود الله .

٣ـ بيان أَنَّ القرآن كلام الله .

٤ـ موثوقية نقل القرآن .

نأتي للإجابة عن السؤال الأساسي الأول :

- لماذا نَبْتَغِي الإِسْلام دِيْنًا ؟

وقد أجبت عن هذا السؤل إجابة مختصرة في ثنايا الفصول السابقة ، وسنحاول هنا في هذا الفصل الإجابة عن هذا السؤال بشكل أكثر تفصيلًا.

وقبل الإجابة أحب أن أضع أَوَّلًا القواعد العامة الآتية ، التي يمكن استخلاصها من الفصول السابقة.

(١) كل دِيْن أو معتقد لا يؤمن بوجود الله نرفضه .

(٢) كل دِيْن لا يؤمن بوحدانية الله نرفضه ولا نقبله .

(٣) القرآن كلام الله أنزله على رسوله مُحَمَّد ﷺ .

(٤) كل ما حواه القُرْآن وقال به هو صِدْقٌ لا رَيْبَ فيه .

(٥) كل ما أمر به القُرْآن ، أو نَهَى عنه هو واجبُ التنفيذ .

بعد هذه القواعد أُجيب عن السؤال السابق ، وأسأل الله أن أصيب أجرين في ذلك .

أقولُ : نبتغي الإِسْلام دِيْنًا ؛ لأنَّ لهذا الكون إلهًا واحدًا ، هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، هذا الإله العظيم ـ سبحانه ـ دلَّت عليه أَدِلَّة العَقْل والمنطقِ ، ودَلَّتْ عليه الفِطرةُ التي رُكِّبَت في نفوس البشر ، ودَلَّ عليه إيمانُ أذكى عقول البشرية وأنبهها وأصفاها .

هذا الإله العظيم ـ سبحانه ـ أنزل كتابًا على شخصٍ أُمِّيّ ﷺ وبأبي هو وأمي ـ لا يَقرأ ولا يكتب ، **وأشارت الأَدِلَّة القاطعة على أنَّ هذا الكتاب لا يمكن أن يكون من تأليف هذا الشخص ، ولا يمكن أن يكون هذا الكتاب من بنات أفكاره** ؛ فالبيئة التي ظهر فيها بيئة صحراوية مُغلَقَةٌ ، لا يعرف أغلبُ أهلها القراءةَ أو الكتابة ، والكتاب الذي نزل عليه يحوي ألوانًا من المعارف والعلوم لم تكن معروفة وقتئذٍ ؛ فأَنَّى لمحمد ﷺ أن يعرف مراحل تطور الجنين في بطن أمه ، أو يعرف أدنى الأرض من أعلاها ، أو يعرف أن بين الماء العذب والمالح برزخًا لا يبغي أحدهما على الآخر ، أو يعرف أَنَّ الصعود خارج الأرض لا بد أن يكون عروجًا وليس خطًّا مستقيمًا ، أو أن تحت البحر نارًا ، أو أَنَّ الظلام يغشى الشمس ، أو أَنَّ الحديد نزل من السَّماء ؟!!

إن كل هذه المعارف لم يقف عليها الإِنْسَان إلا في فترة متأخرة من حياته على الأرض ؛ ولا يبقى للعقل البشري إلا أن يُسَلِّم بأن هذا الكتاب أنزله الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ خالق هذا الكون ، وخالق كل من فيه .

في هذا الكتاب أمرنا الله ـ سبحانه ـ **أن نتخذ الإِسْلام دِيْنًا ، وألا نعتنق سواه ،** فقال تعالى :

⇦ ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾ آل عمران: ١٩

⇦ ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ آل عمران: ٨٥

⇦ ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾ المائدة: ٣

فالدين عند الله هو الإِسْلام ، ومن يبتغِ غيره فهو من الخاسرين في الآخرة ، وهو في

الواقع دِيْن كل الأنبياء ، من لدن آدم إلى خاتم النبيين ﷺ .

بناء على هذه الحيثيات وتلك المقدمات التي أفضنا الحديث فيها فأنا أبتغي الإِسْلام دِيْنًا .

وبناء على هذه الأسباب أَيْضًا أعتبر الإسلام هو الدِّيْن الحق ، وما سواه الباطل ، وَأَنَّ القرآن هو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا خلفه.

وهناك أسباب أخرى غير ما سبق تجعلنا نَبْتَغِي الإِسْلام دِيْنًا برغبة أشد ، وميل لا يُحد ، منها :

- ⇦ دعوة الإِسْلام لمكارم الأخلاق.
- ⇦ والمردود الحضاري للإسلام.
- ⇦ وشهادة كبار العلماء والأدباء الغربيين للإسلام .

- **دعوة الإِسْلام لمكارم الأخلاق** :

مما يُطَمئنُ النفس أكثر وأكثر إلى كونها مسلمة دعوةُ الإِسْلام إلى مكارم الأخلاق ، تلك المكارم التي يتفق عليها القاصي والداني ، المؤمن وغير المؤمن . فلا يختلف اثنان على فضيلة العِلْم والشجاعة والعدل والعفة (١) و الصدق والأمانة والنظافة والرحمة والوفاء والإخلاص والصبر والحياء ....

وكل تلك الفضائل والأخلاق أَسَّسَها الإِسْلام وأرساها ، وبين أتباعه حثَّ عليها وأفشاها .

وما من خُلُقٍ كريم نادى به فيلسوف أو مُصلح إلا ونجده في قرآن رب العالمين ، وشريعة وسُنَّة خاتم النبيين ، يقولُ الشيخ مُحَمَّد الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ في مقدمة كتابه الماتع « خُلُق المسلم » : « وقد درسنا في مراحل ثقافتنا فلسفة الأخلاق ، ومناهج الفلاسفة ومقاييسهم لضبط سلوك البشر ، وأعجبنا بما فيها من فكر عميق ، وتَلَمُّس للحقيقة ، واستشراف للمثل العليا ، ولسنا نغمط فضل أحد نَشَدَ الخير للناس ، واجتهد في إنارة السبل أمامهم ...

---

(١) نحب أن نشير إلى أن هناك علمًا يسمى علم الأخلاق ، وأنَّ هذا العِلْم يشير إلى أنَّ أمهات الفضائل أربعة : العِلْم والشجاعة والعدل والعِفَّة ، وهي كلها بفضل الله مما نادى به الإسلام.

بيد أننا نلفت أنظار المُنصفين إلى أساليب التربية الناجعة ، والأخلاق الرائعة التي جاء بها صاحب الرِّسالَة الخاتمة ، ونقل بها العالم من الغي إلى الرَّشاد؛ وسوف يرون أنَّ في الإِسْلام كنوزًا حافلة بالنفائس ، دونها ما ورث الناس من فلسفة اليونان والرومان ...

لقد قرأنا أدب النفس لأرسطو ولأمثاله من الفلاسفة ، وقرأنا أدب النفس لمحمد بن عبد الله ﷺ **فوجدنا ما تخيله الأولون واصطنعوا له بعد العناء صورًا بعضها كامل وبعضها منقوص.** وجدناه قد تحول إلى حقائق حية تجسد فيها الكمال ، وأضحى سيرة رجل ، وأدب أمّة ، وشعائر دِيْن ضخم ، ذلكم هو أدب النفس لمحمد بن عبد الله ﷺ » [(١)] .

ويكفينا ثقة في هذا الدِّيْن أنَّ رسوله الصادق الأمين حدد غايته الأولى من بعثته والمنهاج المبين من دعوته بقوله :« إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ » [(٢)] ، فرسالة الإِسْلام وصاحبها لا تنشد أكثر من تدعيم فضائل الناس ، وإنارة آفاق الكمال أمام أعينهم .

وفي الإِسْلام توجد علاقة وثيقة ، ووشائج متينة ، بين الإيمان القوي والخلق القوي ، فـ « قد وضح صاحب الرِّسالَة أَنَّ الإيمان القوي يلد الخلق القوي حتمًا ، وأنَّ انهيار الأخلاق مردُّه إلى ضعف الإيمان ، أو فقدانه ، بحسب تفاقم الشر أو

---

(١) خلق المسلم ، دار دعوة ، القاهرة ، ط٣ ، (١٩٩٠م) ، ص٨

(٢) هذا الحديث رواه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة ، حديث رقم ٤٥

وتتظاهر عدة أحاديث أخرى على تأكيد أهمية حسن الخلق ، منها :

- « أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ » . [السلسلة الصحيحة ، رقم : ٢٨٤] .
- « إنّ أكْمَلَ المُؤْمِنِينَ إيْماناً أحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وإنّ حُسْنَ الخُلُقِ لَيَبْلُغُ دَرَجَةَ الصّوْمِ والصّلاةِ» [السلسلة الصحيحة ، رقم : ١٥٩٠] .
- « إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ أَحْسَنَكُمْ خُلُقًا» [السلسلة الصحيحة ، رقم : ٧٩٢] .
- « أَثْقَلُ شَيْءٍ فِي الْمِيزَانِ الْخُلُقُ الْحَسَنُ» [السلسلة الصحيحة ، رقم : ٨٧٦] .

تفاهته »[1] .

فليست الأخلاق من مواد الترف التي يمكن الاستغناء عنها ، بل هي أصول الحياة التي يرتضيها الإِسْلام . ويُقرر الإِسْلام « أنَّ بقاء الأمم وازدهار حضارتها ، واستدامة مَنعتها ، إنَّما يُكفل لها ؛ إذا ضُمنَت حياة الأخلاق فيها ، فإذا سقط الخلق سقطت الدولة معه ...

إِنَّـــمَا الْأُمَـــمُ الْأَخْـــلَاقُ مَـــا بَقِيَـــتْ   فَـــإِنْ هُمُـــو ذَهَبَـــتْ أَخْلَاقُهُـــمْ ذَهَبُـــوا

ويؤكِّد هذه الحقيقة حديثُ الرَّسُوْل لقومه وعشيرته »[2] .

وقد مدح الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مَن كُلِّفَ بتبليغ هذه الرِّسالَة في قرآنه بقوله :﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ القلم: ٤ ، وكان النَّبِيّ ﷺ في تبليغه ﴿ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ الأحزاب: ٢١.

وأنا هنا أسرد « بعض » هذه الأخلاق والفضائل، بما تسمح به هذه المساحة ، أُدَعِّمُ بها الأسباب التي تجعلني أبتغي الإِسْلام دِيْنًا[3] .

خلق الرَّحْمَة :

الرَّحْمَةُ خلق يجعل المرء يرقُّ لآلام الخَلق ، ويسعى لإزالتها ، ويأسى لأخطائهم فيتمنَّى لهم الهدى ؛ لأن تبلد الحِس يهوي بالإنسان إلى منزلة الحيوان ، ويسلبه أفضل ما فيه ، وهو العاطفة الحية النابضة بالحب والرأفة ، بل إن الحيوان قد تجيش فيه مشاعر مبهمة تعطفه على ذراريه ، ومن ثَمَّ كانت القسوة ارتكاسًا بالفطرة إلى منزلة البهائم ، بل إلى منازل الجماد الذي لا يعي ولا يهتز.

---

(١) مُحَمَّد الغزالي: خلق المسلم، ص ١٤

(٢) السابق ، ص ٣٧

(٣) أعتمد في جُلِّ حديثي عن الأخلاق هنا على كتاب « خلق المسلم » للشيخ مُحَمَّد الغزالي ، وهو كتاب أنصح للقارئ اقتناءه وقراءته لعظيم فائدته .

والرَّحمة في أفقها الأعلى ، وامتدادها المطلق صفة المولى تباركت أسماؤه ، فإنَّ رحمته شملت الوجود وعمت الملكوت . ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ غافر: ٧

ولقد أراد الله أن يمتن على العالم برجل يمسح آلامه ، ويخفف أحزانه ، ويرثى لخطاياه ، ويستميت في هدايته ، ويأخذ بناصر الضعيف ، ويقاتل دونه قتال الأم عن صغارها ، ويخضِّد شوكة القوي حتى يرده إنسانًا سليم الفِطرة ، لا يضرى ولا يطغى؛ فأرسل « محمدًا » ﷺ ، وسكب في قلبه من العِلْم والحلم، وفي خلقه من الإيناس والبر ، وفي طبعه من السهولة والرفق ، وفي يده من السخاوة والندى ، ما جعله أزكى عباد الله رحمة ، وأوسعهم عاطفة ، وأرحبهم صدرًا ؛ ولذلك قال فيه : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ آل عمران: ١٥٩

وقد أمر الإِسْلام بالتراحم العام ، وجعله من دلائل الإيمان الكامل ، فالمسلم يلقى الناس قاطبةً ، وفي قلبه لهم عطف مذخور ، وبر مكنون ، فهو يوسع لهم ويخفف عنهم جهد ما يستطيع .

وقد جاءت الأحاديث تترى حاثَّةً على هذه الرَّحْمَة الشاملة ، فقال رَسُول الله ﷺ :

- « مَنْ لَا يَرْحَمِ النَّاسَ لَا يَرْحَمْهُ اللهُ » (١) .
- « لنْ تُؤمِنوا حتَّى تَراحَموا ، قالوا: يا رَسُول الله! كلُّنا رحيمٌ. قال: إنَّهُ ليسَ برحْمَةِ أحدِكُم صاحِبَهُ، ولكنَّها رحمَةُ العامَّةِ » (٢) .
- وعن جريرٍ رضي الله عنه قال: سمعت رَسُول الله ﷺ يقول : « مَن لا يرحَمْ مَنْ في الأرضِ؛ لا يرحَمْهُ مَنْ في السَّماء » (٣) .

---

(١) حديث صحيح ، رواه البخاري ، كتاب التوحيد ، رقم : ٦٩٤١

(٢) حديث حسن لغيره ، يُنْظَرُ : الألباني : صحيح الترغيب والترهيب ، رقم : ٢٢٥٣

(٣) حديث صحيح لغيره ، يُنْظَرُ : الألباني : صحيح الترغيب والترهيب ، رقم : ٢٢٥٥ ، وانظر أَيْضًا الأحاديث رقم : ٢٢٥٦ ، ٢٢٥٧ ، ٢٢٥٨

الإسلام رِسالَة خير وسلام وعطف على البشر كلهم ، وقد قال الله لرسوله : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ الأنبياء: ١٠٧، وسور القُرْآن الكريم مفتحة كلها بـ « بسم الله الرحمن الرحيم »

وقد خصَّ الإِسْلام أقارب المسلم بمزيد رحمة ، وفضل منة ، فلا يجوز للمسلم أن يوصد قلبه وبيته دون أقاربه ، فيحيا بعيدًا عنهم ، لا يواسيهم في ألم ولا يسدي إليهم عونًا ؛ **فهذه القطيعة تحرم الإِنْسَان من بركة الله وتعرضه لسخطه** .

وممن تجب الرَّحْمَة بهم اليتامى ، فإنَّ الإحسان إليهم والبر بهم وكفالة عيشهم ، وصيانة مستقبلهم من أزكى القربات . عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رجُلاً شكا إلى رَسُول الله ﷺ قسْوةَ قلْبِه. فقال : « امْسَحْ رأْسَ اليَتيمِ، وأَطْعِمِ المسكينَ » (١) .

ومن مواطن الرَّحْمَة أن نحسن معاملة الخدم ، وأن نرفق معهم فيما نكلِّفُهم من أعمال، وأن نتجاوز عن هفواتهم، وألا نحس سطوة التصرف فيهم فنعبث بتسخيرهم . قال أبو مسعود البدري: « كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي بِالسَّوْطِ ، فسمعت صوتًا من خلفي: اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ. فلم أفهم الصوت من الغضب، قال: فلما دنا مني إذا هو رَسُول الله ﷺ فإذا هو يقول: اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ ، اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ. قال: فألقيت السوط من يدي، فقال: اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ ؛ فألقيت السوط من يدي ، وَقُلْتُ: لَا أَضْرِبُ غُلَامًا بَعْدَ الْيَوْمِ أَبَدًا » (٢) .

ولا أستطيع في هذا المقام أن أمنع نفسي من المقارنة ، بين ما نعلمه عن الإسلام وما يحكيه لنا التَّاريخ وما يقصُّه علينا ، ومما يقصُّه أَنَّ الرُّومَان ـ على سبيل المثال ـ عندما فتحوا أسبانيا أخذوا يستغلون مناجم ومعادن هذه البلاد ، « وكان الأَرِقَّاء والأسرى يعملون في هذه المناجم يومًا بعد يوم ، **وكثيرًا ما كانوا يقضون الشهور الطوال دون أن ترى أعينهم ضوء الشمس** » (٣) .

(١) حديث حسن لغيره ، يُنْظَرُ : الألباني ، صحيح الترغيب والترهيب ، رقم : ٢٥٤٥

(٢) حديث صحيح ، رواه مسلم ، كتاب الأيمان ، باب : صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده ، رقم ١٦٥٩

(٣) قصة الحضارة ، م ٦ ، ١١/ ٤١

ومن الرَّحْمَة المطلوبة الرفق بالحيوان ، والإسلام شديد المؤاخذة لمن تقسو قلوبهم على الحيوان ، ويستهينون بآلامه ، **وقد بَيَّنَ أَنَّ الإِنْسَان على عظم قدره يدخل النار في إساءة يرتكبها مع دابة عجماء .**

عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن النَّبِيّ ﷺ قال : « دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض »(١) .

كما بَيَّنَ أنَّ كبائر المعاصي تمحوها نزعة رحمة تغمر القلب ، ولو بإزاء كلب!

عن أبي هريرة أن رَسُول الله ﷺ قال: بينما رجل يمشي بطريق، إذ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فوجد بئرًا فنزل فيها فشرب، وخرج، فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ ، يأكل الثَّرَى من العطش، فقال الرجل: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ بِي ، فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ ؛ فقالوا: يا رَسُول الله، وإنَّ لنا في البهائم لأجرًا؟ فقال: فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ(٢) .

لئن كانت الرَّحْمَة بكلب تغفر ذنوب البغايا ، فإن الرَّحْمَة بالبشر تصنع العجائب.

خلق الجود والكرم والاقتصاد وعدم التبذير :

الإِسْلامُ دِيْن يقوم على البذل والإنفاق ، ويذم الشُّحَّ والإمساك ؛ ولذلك حبب إلى بنيه أن تكون نفوسهم سَخِيَّة ، وأكفهم ندِيَّة ، ووصاهم بالمسارعة إلى دواعي الإحسان ووجوه البر . وأن يجعلوا تقديم الخير إلى الناس شغلهم الدائم ، لا ينفكون عنه في صباح أو مساء : ﴿ **ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ البقرة: ٢٧٤

ولن يوجد نظام يستغني البشر فيه عن التعاون والمواساة ، بل لا بُدَّ لاستتباب السكينة وضمان السعادة من أن يعطف القويُّ على الضعيف ، وأن يرفُقَ المكثر بالمقلِّ ما دامت طبيعة المجتمع البشري أن تتجاور فيه القوة والضعف والإكثار والإقلال.

ومن الواجب على المسلم أن يقتصد في مطالب نفسه حتى لا تستنفد ماله كله ، فإن عليه أن يشرك غيره فيما آتاه الله من فضله ، وأن يجعل في ثروته متسعًا يسعف به المنكوبين ، ويريح المتعبين .

---

(١) حديث صحيح ، رواه البخاري ، كتاب : بدء الخلق ، رقم : ٣٣١٨

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري ، كتاب : الأدب ، باب : رحمة الناس والبهائم رقم : ٣٣١٨

قال رَسُول الله ﷺ : « يا ابن آدم، إنك إِنْ تَبْذُلِ الفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ ، وَإِنْ تُمْسِكْهُ شَرٌّ لَكَ ، وَلَا تُلَامُ عَلَى كَفَافٍ ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ ، وَاليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى » (١) .

وقد أشار القُرْآن إلى هذا المعنى حين قرن النهي عن التبذير بأمر الإنفاق على القرابة والمساكين. فإنَّ المبذر متلاف سفيه ، يضيع في شهواته الخاصة زُبْدَة ماله؛ فماذا يبقى بعدُ للحقوق الواجبة والعون المفروض؟ قال تعالى : ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ الإسراء: ٢٦ – ٢٧

ودعوة الإِسْلام إلى الجود والإنفاق مستفيضة مطردة ، وحَرْبه على الكزازة والبخل موصولة متقدة. وفي الإِسْلام شرائع محكمة لتحقيق هذه الأهداف النبيلة ، من بينها تنشئة النفوس على فعل الخير وإسداء العون وصنائع المعروف. ونتائج هذه التنشئة السمحة لا يسعد بها الضعاف وحدهم؛ **بل يرتدُّ أمانها واطمئنانها إلى الباذلين أنفسهم ؛ فتقيهم زلازل الأحقاد ، وعواقب الأثرة العمياء**، قال تعالى : ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ محمد: ٣٨

إن الصدقات التي نبذلها على اختلاف صنوفها من زكاة أو هبة أو نفقة أو غير ذلك جليلة الخطر في معاش الإِنْسَان ومعاده ، وعلى أساسها تضعف أو تقوى صلة المسلم بدينه ، ولن يحرم المرء كبخله في الحقوق وسوء ظنه بالله ، ولن يسبق به كجوده وثقته في فضل الله.

خلق الحياء :

وصى الإِسْلام أبناءه بالحياء ، وجعل هذا الخلق السامي أبرز ما يَتَمَيَّز به الإِسْلام من فضائل ، قال رَسُول الله ﷺ : « لكل دِيْن خُلق، وَخُلق الإِسْلام الْحَيَاء، من لَا حَيَاء لَهُ لَا دِيْن لَهُ » (١) .

---

(١) رواه مسلم ، باب : بيان أَنَّ اليد العليا خير من اليد السفلى ، حديث رقم ١٠٣٦ ، ت: مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي .

(١) يُنْظَرُ : الألباني ، السلسلة الصحيحة ، حديث رقم ، ٩٤٠

وقد ربط الإِسْلامُ بين الحياء والإيمان ، قال رَسُول الله ﷺ : « الحياءُ والإيمانُ قُرَناءُ جميعًا، فإذا رُفِعَ أحدُهما رُفِعَ الآخَرُ » (١) . وعن أبي هريرة عن النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم قال: « الإيمان بضع وسبعون شعبة ، والحياء شعبة من الإيمان » (٢) .

وعِلَّةُ ذلك الربط بين الحياء والإيمان أَنَّ المرء حينما يفقد حياءه يتدرج من سيئ إلى أسوأ ، ويهبط من رذيلة إلى أرذل ، ولا يزال يهوي حتى ينحدر إلى الدرك الأسفل . وللحياء مواضع يستحب فيها ، فالحياء في الكلام يتطلب من المسلم أن يُطهر فمه من الفحش ، وأن ينزه لسانه عن العيب ، وأن يخجل من ذكر العورات فإن من سوء الأدب أن تفلت الألفاظ البذيئة من المرء غير عابئ بمواقعها وآثارها. قال رَسُول الله ﷺ : « الْحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ ، وَالْإِيمَانُ فِي الْجَنَّةِ ، وَالْبَذَاءُ مِنَ الْجَفَاءِ ، وَالْجَفَاءُ فِي النَّارِ » (٣) .

ومن حياء الإِنْسَان مع الناس أن يعرف لأصحاب الحقوق منازلهم ، وأن يؤتى كل ذي فضل فضله ، فللغلام مع من يكبرونه ، وللتلميذ مع من يعلمونه مسلكٌ يقوم على التأدب والتقديم ، فلا يسوغ أن يرفع صوته ، ولا أن يجعل أمامهم خطوه.

والحياء في أسمى منازله وأكرمها يكون من الله عَزَّ وَجَلَّ ، فنحن نطعم من خيره ونتنفس في جوه ، وندرج على أرضه ، ونستظل بسمائه.

أدب الحديث :

جعل الشيخ مُحَمَّد الغزالي من خلق المسلم هذا العنوان « أدب الحديث » ، وهو من الآداب التي تجعل المرء يعتزُّ أيما اعتزازٍ بدينه. قال رَحِمَهُ اللهُ:

(١) حديث صحيح ، يُنْظَرُ : الألباني ، صحيح الترغيب والترهيب ، رقم : ٢٦٣٦ ، ونقل المنذري هناك قوله : رواه الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(٢) حديث صحيح ، رواه صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب : شعب الإيمان ، رقم ٥٧

(٣) صحيح ، يُنْظَرُ : الألباني ، صحيح الترغيب والترهيب ، رقم : ٢٦٢٨، ونقل المنذري هناك قوله : رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح، والترمذي، وابن حبان في صحيحه ؛ وقال الترمذي : حديث حسن صحيح.

عُني الإِسْلام عناية كبيرة بموضوع الكلام ، وأسلوب أدائه ؛ لأن الكلام الصادر عن إنسانٍ ما يشير إلى حقيقة عقله ، وطبيعة خلقه ؛ ولأنَّ طرائق الحديث في جماعة ما تحكمُ على مستواها العام ، ومدى تغلغل الفضيلة في بيئتها.

ينبغي أن يسائل المرء نفسه قبل أن يتحدث إلى الآخرين : هل هناك ما يستدعي الكلام؟ فإن وجد داعيًا إليه تكلَّم ؛ وإلا فالصمتُ أولى به . **وإعراضه عن الكلام حيث لا ضرورة له عبادة جزيلة الأجر.**

قال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ : « والذي لا إله غيره ما على ظهر الأرض شَيْء أحوج إلى طول سجن من لسان »[1] .

والمرء حين يريد أن يستجمع أفكاره ويراجع أعماله يجنح إلى الصمت ، بل إِنَّهُ حين يريد أن يبصر نفسه ويرتب ذهنه ؛ يفر من البيئة الصاخبة إلى ريف صامت ، أو ضاحية هادئة ؛ **فلا جرم أَنَّ الإِسْلام يوصي بالصمت ، ويعده وسيلة ناجعة من وسائل التربية المهذبة .**

عن أبي هريرة قال: قال رَسُول الله ﷺ : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أو ليصمت »[2] .

والبعد عن اللغو من أركان الفلاح ، ودلائل الاكتمال ، وقد ذكره القُرْآن الكريم بين فريضتين من فرائض الإِسْلام المحكمة ، هما : الصلاة والزكاة ، ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ② وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ المؤمنون: ١ – ٤

ولو أَنَّ العالم أجمع أحصى ما يشغل فراغه من لغو في القول والعمل ؛ **لراعه أن يجد أكثر القصص المنشورة ، والصحف المشهورة ، والخطب والإذاعات لغوًا مطرودًا ، تعلق به الأعين ، وتميل إليه الآذان ، ولا ترجع بطائل !**

---

(١) ينظر: الألباني ، صحيح الترغيب والترهيب ، ٣/ ٨٥

(٢) رواه البخاري في صحيحه ، رقم : ٥٦٧٢ ، ت : د. مصطفى ديب البغا

وقد كره **الإِسْلام اللغو ؛ لأنَّه يكره التفاهات وسفاسف الأمور ، ثم هو مضيعة للعمر ، في غير ما خلق الإِنْسَان له من جد وإنتاج.**

واللاغي ـ لضعف الصلة بين فكره ونطقه ـ يرسل الكلام على عواهنه ؛ فربما قذف بكلمة سببت بواره ودمرت مستقبله ، وقد قيل : **من كثر لغطه كثر غلطه.**

فإذا تكلم المرء فليقل خيرًا ، وليُعَوِّدْ لسانَه الجميل من القول ، فإن التعبير الحسن عما يجول في النفس أدبٌ عالٍ ، أخذ به أهل الديانات جميعًا.

وحسن الكلام مع الأعداء فهو يطفئ خصومتهم ، ويكسر حدتهم ، أو هو على الأقل يوقف تطور الشر واستطارة شرره .

وللناس مجالس يتجاذبون فيها أطراف الحديث فيها ، والإسلام يكره مجالس القاعدين الذين يقضون أوقاتهم في تَسَقُّط الأخبار وتتبُّع العيوب ؛ لأن لهم فضول أموال يستريحون في ظلها ، وليسوا يجدون شغلًا إلا في التسلي بشئون الآخرين . ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ الهمزة: ١ – ٤

وقد فشا في عصرنا هذا جلوس الجماهير في النوادي والمشارب ، وتلك آفة أصابت المجتمع بعلل شتى ، وقد كثرت في المدائن والقرى لغير ضرورة مشروعة ، وفي الحديث الشريف : « أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال : إِيَّاكُمْ وَالجُلُوسَ فِي الطُّرُقَاتِ ، قالوا : يَا رَسُول اللهَّ! مَا لَنَا بُدٌّ مِنْ مَجَالِسِنَا؛ نَتَحَدَّثُ فِيهَا ، فقال رَسُول الله ﷺ أَمَّا إِذْ أَبَيْتُمْ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ . قَالُوا : وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ يَا رَسُول الله؟ قَالَ : غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الْأَذَى وَالْأَمْرُ بالمعروف ، والنهي عن المنكر» .

خلق النظافة والتجميل والصحة :

إنَّ صحة الأجسام وجمالها ونضرتها من الأمور التي وَجَّهَ الإِسْلام إليها عناية فائقة، واعتبرها من صميم رسالته ، ولن يكون الشخص راجحًا في ميزان الإِسْلام محترم الجانب إلا إذا تعهَّد جسمَه بالتنظيف والتهذيب ، وكان في مطعمه ومشربه وهيئته الخاصة بعيدًا عن الأدران المكدِّرة والأحوال المنفِّرة .

وليست صحة الجسد وطهارته صلاحًا ماديًّا فقط ؛ بل إن أثرها عميق في تزكية النفس ، وتمكين الإِنْسَان من النهوض بأعباء الحياة ، وما أحوج أعباء الحياة إلى الجسم الجلد والبدن القوي الصبور.

كرم الإِسْلام البدن ، فجعل طهارته التامَّة أساسًا لا بد منه لكل صلاة ، وجعل الصلاة واجبة خمس مرات في اليوم ، وكلَّف المسلمَ أن يغسل جسمه غسلًا جيدًا في أحيانٍ كثيرة تلابسه غالبًا ، وتلك هي الطهارة الكاملة ، وفي الأحوال المعتادة اكتفى بغسل الأعضاء والأطراف التي تتعرض لغبار الجو ، ومعالجة شتى الأشغال ، أو التي يكثر الجسم إفرازاته منها :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْ﴾ المائدة: ٦

وعناية الدِّيْن بتطهير الفم ، وتجلية الأسنان ، وتنقية ما بينها لا نظير لها في وصايا الصحة القديمة والحديثة . قال رَسُول الله ﷺ : « لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صلاة » (١) .

ومن احترام الإِسْلام للفرد والمجتمع تحريمه على من أكل ثومًا أو بصلًا أو فُجلًا أن يحضر المجتمعات ؛ ذاك أنَّ نَتَنَ الأفواه من هذه الأطعمة يؤذي المخاطَبين وينفر ممن أكلها . وقد أسقط الإِسْلام سُنَّة الجماعة في المسجد عمن تناول هذه المواد ، كما أسقط سُنَّة الجماعة عن الذين أصيبوا بعلل تجعل روائح فمهم أو جسمهم كريهة ، وهذا الأدب الكريم صيانة محمودة للمرضى والأصحاء.

ويوصي الإِسْلام بأن يكون المرء حسن المنظر كريم الهيئة ، وقد ألحق هذا الخلق بآداب الصلاة . ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾ الأعراف: ٣١

إنَّ الأناقة في غير سرف ، والتجمُّل في غير صناعة وتزويق ، وإحسان الشكل بعد إحسان الموضوع من تعاليم الإِسْلام ، الذي ينشد لبنيه علو المنزلة وجمال الهيئة، قال رَسُول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مِثْقَالُ ذَرَّةٍ من كبر ، قال رجل: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حسنة. قال: إنَّ الله جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ ، وغمط الناس » (١) .

---

(١) حديث صحيح ، أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ، كتاب الطهارة ، باب السواك ، حديث رقم :٢٥٢

(١) حديث صحيح ، أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب تحريم الكبر وبيانه ، حديث رقم :١٤٧ ، ت : مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي.

إنَّ عناية الإِسْلام بالنظافة والصحة جزء من عنايته بقوة المسلمين المادية والأدبية ؛ فهو يتطلب أجسامًا تجري في عروقها دماء العافية ، ويمتلئ أصحابها فتوة ونشاطًا ؛ فإن الأجسام المهزولة لا تطيق عبئًا ، والأيدي المرتعشة لا تقدم خيرًا.

وللجسم الصحيح أثر ، لا في سلامة التفكير فحسب ، بل في تفاؤل الإِنْسَان مع الحياة والناس ، ورسالة الإِسْلام أوسع في أهدافها وأصلب في كيانها من أن تحيا في أمة مرهقة ، موبوءة عاجزة.

وقد وضع الإِسْلام قواعد الحجر الصحي ؛ فإذا ظهر مرض مُعدٍ في بلد ما ؛ ضرب حوله حصارًا شديدًا ؛ فمنع الدخول فيه والخروج منه ؛ وذلك حتى تنكمش رقعة الداء في أضيق نطاق . قال رَسُول الله ﷺ : « إِذَا سَمِعْتُمْ بِالطَّاعُونِ بِأَرْضٍ فَلَا تَدْخُلُوهَا، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا »[1] .

خلق العِلْم والعقل :

طبيعة الإِسْلام تفرض على الأمة التي تعتنقه أن تكون أمة مُتعَلِّمَة ترتفع فيها نسبة المثقفين ، وتهبط أو تنعدم نسبة الجاهلين؛ ذلك لأنَّ حقائق هذا الدِّيْن ـ من أصول أو فروع ـ ليست طقوسًا تنقل بالوراثة ، أو تعاويذ تشيع بالإيحاء ، وتنتشر بالإيهام ، كلا ، إنَّها حقائق تستخرج من كتاب حكيم ، ومن سنة واعية! وسبيل استخراجها لا يتوقف على القراءة المجردة ، بل لا بد من أمة تتوفر فيها الأفهام الذكية والأساليب العالية ، والآداب الكريمة .

وهناك بعد ذلك التفكير في الكون ، اطَّرَدَ الأمرُ به في سور القُرْآن ، واعتبر الأساس الأول لإقامة إيمان ثابت وطيد. إنَّ هذا التفكير هو الذي فتق الأذهان عن روائع الحضارة الحديثة ، ويسَّر للدنيا هذه الكشوف الجليلة لأسرار الوجود ، وسخر للناس ما لم يكونوا يحلمون به.

ثم هناك أَيْضًا التوصية باتباع الحق وحده ، والبحث عنه مهما خفي ، واستنكار الظنون العائمة ، والنهي عن الجري وراءها ، ووضع رقابة محكمة على السمع والبصر والفؤاد ، إن هذا كفيل بإيجاد مجتمع بعيد عن الخرافات منزه عن الأوهام .

---

(١) حديث صحيح ، أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ، كتاب الطب ، باب ما يذكر في الطاعون ، حديث رقم : ٥٧٢٨

إن العِلْم للإسلام كالحياة للإنسان ، ولن يجد هذا الدِّيْن مستقرًا له إلا عند أصحاب المعارف الناضجة والألباب الحصيفة.

إن الله شرف الحياة بالإسلام بعد ما بلغت رشدها ونمت قواها ، واستعدت لأن تتلقى منه أزكى التعاليم وأرقاها فكان جميعه ملائمًا لتطور الحياة نحو الكمال ، بل كان هو شوطًا واسعًا في الخطو بها نحو الرقي المادي والأدبي.

إنَّ أول ما نزل من آيات القُرْآن قول الله لنبيه : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ العلق: ١ – ٥ وهذه أول صيحة تسمو بقدر القلم ، وتنوه بقيمة العِلْم ، وتعلن الحرب على الأمية الغافلة ، وتجعل اللَّبِنَة الأولى في بناء كل رجل عظيم أن يقرأ وأن يتعلم ، وسما الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بدرجات العلماء حتى قرنهم بنفسه وملائكته في الشهادة بوحدانيته ، والإقرار بعدالته : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ آل عمران: ١٨

والعلم الذي يقبل المسلم عليه ، ويستفتح أبوابه بقوة ، ويرحل لطلبه من أقصى المشارق والمغارب ، ليس علمًا معينًا محدود البداية والنهاية ، **فكل ما يوسع منادح النظر ، ويزيح السدود أمام العَقْل النهم إلى المزيد من العرفان ، وكل ما يوثق صلة الإِنْسَان بالوجود ، ويفتح له آمادًا أبعد من الكشف والإدراك ، وكل ما يتيح له السيادة في العالم ، والتحكم في قواه ، والإفادة من زخائره المكنونة ، ذلك كله ينبغي التطلع له والتضلع فيه** ، ويجب على المسلم أن يأخذ بسهم منه ، وهذا الشمول دلت عليه الآيات والسنن.

والأحاديث المشيرة إلى التزود من المعارف أيًّا كانت كثيرة ، منها :

- « عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال : سمعتُ رَسُول الله ﷺ يقول: من سلك طريقًا يلتمِسُ فيه علمًا سهّلَ الله له طريقًا إلى الجنّةِ، وإنَّ الملائكةَ لتضَعُ أجنحتها لِطالبِ العِلْم رِضًا بما يصنع ، وإن العالِمَ ليَسْتَغْفِرُ له من في السمواتِ ومَن في الأرضِ ، حتى الحيتانُ في الماءِ ، وفضلُ العالم على العابد كفضل القمرِ على سائر

الكواكب ، وإنّ العلماء ورثة الأنبياء، إنّ الأنبياء لم يُورِّثُوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورَّثُوا العلمَ، فمن أخذه أخذ بحظٍ وافرٍ » (١) .

- « عن ابن مَسْعُودٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت النَّبِيّ ﷺ يقول : لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا، فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة ، فهو يقضي بها ويعلِّمها » (٢) .

وارتفع الإِسْلام بمنازل العلماء وقدَّر جهودهم ، وكرم ثمارهم إلى حد بعيد .
﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ المجادلة: ١١

وتعلم اللغات الأخرى من سنن الإِسْلام ، وقد سبق رَسُول الله ﷺ إلى الانتفاع بهذا العِلْم ؛ فأمر كاتبه « زيد بن ثابت » بإجادة السريانية ، قال زيدُ بنُ ثابت : أمرني رَسُول الله ﷺ ؛ فتعلمتُ له كتابَ يهودَ، وقال: إني والله ما آمَنُ يهودَ على كتابي ؛ فتعلمتُه ، فلم يَمُرَّ بي إلا نصفُ شَهرٍ حتَّى حَذِقْتُه ، فكُنتُ أكتبُ له إذا كَتَب ، وأقرأُ له إذا كُتِبَ إليه (٣) .

تلك بعضٌ من أخلاق الإِسْلام ، وكم كنتُ أرجو أن يتسع المقام لذكر المزيد منها ، ولكن نكتفي بما ذكرناه دليلًا ناصعًا ، نضُمه إلى الأَدِلَّة الأخرى التي تجعلنا نَبْتَغِي الإِسْلام دِيْنًا .

- **المردود الحضاري للإسلام** :

من الأسباب التي تجعلنا نتمسك بأهداب الإِسْلام ومبادئه ، واعتناق سننه وشرائعه مردوده الحضاري ، الذي فاض به على البشرية ، هذا المردود ، يجعلنا نرفع رءوسنا إلى نجوم الجوزاء ، ونصل بفخرنا به عنان السماء.

وبالطبع لن يكون حديثنا هنا حديثًا مستفيضًا ، فهذا أمر ليس في طوقنا ،

---

(١) حديث حسن لغيره ، ينظر: الألباني ، صحيح الترغيب والترهيب ، رقم ٧٠

(٢) حديث صحيح ، رواه البخاري ، كتاب: الزكاة ، باب: إنفاق المال في حقه ، رقم: ١٣٤٣

(٣) حديث صحيح ، رواه أبو داوود ، ت : شعيب الأرنؤوط ، ٣٦٤٥

ويحتاج إلى عشرات الصفحات بل المئات ، ولكننا سنكتفي بما يدعم هدفنا هنا ، وسنعمل بالمثل العربي : كفى من القِلادة ما أحاط بالعنق .

وأول ما نبدأ به هنا نقل شهادات كبار المستشرقين والمؤرخين غير المسلمين لهذه الحضارة .

(١)يقول جورج سارتون (**G. Sarton** ت : ١٩٥٦م) [(١)] : « حقَّق اليونان عباقرة الغرب أعظم المآثر في العصور القديمة ، وحقق المسلمون عباقرة الشرق أعظم المآثر في القرون الوسطى ، ومن الطبيعي ألا ننسى أن عددًا من العلماء قد كرسوا أنفسهم لدراسة الفكر الشرقي وبخاصة الفكر الإسلامي ... والحق أن عددًا من الأعمال الهامة قد ألف باللاتينية ، ولكن أعمالًا كثيرة أخرى جديرة بالاعتبار قد كتبت باللغات اليونانية أو السريانية أو الفارسية أو السنسكريتية أو حتى اليابانية ، أما أعظم هذه الأعمال قيمةً ، وأكثرها أصالةً ، وأغزرها مادةً ، فقد كتبت باللغة العَرَبِيَّة ، وكانت اللغة العَرَبِيَّة من منتصف القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادي عشر لغة العِلْم الارتقائية للجنس البشري ، **حتى لقد كان ينبغي لأي كان إذا أراد أن يلم بثقافة عصره ، وبأحدث صورها أن يتعلم اللغة العَرَبِيَّة** وقد فعل ذلك كثيرون من غير المتكلمين بها ، وكذلك واقع الأمر في عصرنا هذا؛ فإن أي شخص يريد أن يتتبع التقدم الفكري ، ينبغي عليه أن يلم إلمامًا تامًّا بإحدى اللغات الغربية الكبرى ...

ويكفينا هنا أن نذكر قليلا من الأسماء المجيدة التي لم يطاولها في الغرب أي

(١) جورج سارتون (١٨٨٤م ـ ١٩٥٦م) ، مؤسس علم « **تاريخ العِلْم** » الذي ساهم في إعطاء تاريخ العِلْم مكانته في كلٍ من تاريخ الثقافة ، والتاريخ الاجتماعي ، وفلسفة العِلْم ؛ كما أتاح لتاريخ العِلْم بوصفه علمًا جديدًا أن يكون جزءًا أساسيًّا من أي دراسة أو منهج أكاديميين في العلوم الإنسانية . ومنذ عام ١٩٢٧م بدأ نشر مشروعه الضخم تحت عنوان : « مقدمة في تاريخ العِلْم » الذي أصدر منه ثلاثة مجلدات ، وقد ترك سارتون كمية ضخمة من الكتابات المنشورة على رأسها ٧٩ سيرة لحياة علماء بارزين ، و١٥ كتابًا ، وأكثر من ٣٠٠ مقال. يُنْظَرُ : سامي خشبة: مفكرون من عصرنا، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مكتبة الأسرة، القاهرة، (٢٠٠٨م)، ص ٤٦٠

من الأسماء المعاصرة لها: جابر بن حيان ، الكندي ، الخوارزمي ، الفرجاني ، الرازي ، ثابت بن قرة ، البتاني ، حنين بن إسحق ، الفارابي ، إبراهيم بن سنان ، المسعودي ، الطَّبَرِيّ ، أبو الوفاء ، علي بن عباس، أبو القاسم ، ابن الجزار ، البيروني ، ابن سينا ، ابن يونس ، ابن الهيثم ، علي بن عيسى ، الغزالي ، الزركلي ، عمر الخيام ؛... تلك [الأسماء] التي ازدهرت في فترة قصيرة نسبيًّا تمتد ما بين سنتي ٧٥٠م و١١٠٠م »(١) .

(٢) ويذكر جوستاف لوبون (**G. Le Bon**) في كتابه **La Civilization des Arabes** ، ص ٢٨١ : « وفي أسبانيا ، نرى أَنَّ العرب لم يلبثوا بعد أن تم لهم فتحها أن بدءوا يقومون بنشر رِسالَة الحضارة فيها؛ **فاستطاعوا في أقل من قرن من الزمان أن يخصبوا أرضها ، ويعمروا مدنها المخربة ، ويُقيموا بها أفخم المباني ويوطدوا أوثق الصلات التجارية بالأمم الأخرى ، ثم اتجهوا إلى دراسة الآداب والعلوم ، وبدءوا يترجمون كتب اليونان ، وينشئون الجامعات التي ظلت وحدها المنهل الوحيد للثقافة في أوربا زمنًا طويلًا** ، وأخذت حضارة العرب في النهوض منذ اعتلاء عبد الرحمن الأول العرش وتأسيسه خلافة قرطبة سنة ٧٥٦م ، حيث صارت قرطبة أرقى مدن العالم القديم قاطبة زهاء ثلاثة قرون ، وأنشأ العرب مدارس ومكتبات ومعامل في جميع أنحاء البلاد ، ودرسوا العلوم والرياضة والفلك والطبيعة والكيمياء والطب بنجاح ، وكانت قرطبة عاصمة الخلافة مركزًا للعلم والفن والصناعة والتجارة ، ولا يجدر بنا أن نقارنها إلا بالعواصم الحديثة لأعظم دول أوربا ؛ أما قرطبة العصر الحديث ؛ فكأنها مدينة الأموات »(١) .

---

(١) **Introduction to the History of Science,1927, Vol.I, p. 16:17** ، وقد أخذنا الترجمة من : جلال مظهر : مآثر العرب على الحضارة الأوربية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط١، ١٩٦٠م ، ص ٣٧ ـ ٣٨

(١) يُنْظَرُ تَرْجَمَة : جلال مظهر : مآثر العرب على الحضارة الأوربية ، ص ٤٨

ويقول جوستاف لوبون أَيْضًا في نفس المصدر ص ٢٨٤ ، ٢٨٦ : « واستطاع العرب أن ينهضوا بأسبانيا ماديًّا وثقافيًا في عدة قرون ، وأن يجعلوها على رأس الممالك الأوربية جميعًا ، ولم تقتصر نهضة العرب بأسبانيا على الأمور المادية والثقافية فقط ، بل أثروا في أخلاق الناس أَيْضًا ، **فإِنَّ العرب هم الذين علموا الشعوب النصرانية ، بل إن شئت فقل حاولوا أن يعلموها آداب التسمح التي هي أثمن الصفات الإنسانية** ، حتى لقد بلغ حلم العرب الفاتحين إزاء الشعب الأسباني المغلوب على أمره أَنَّهُمْ كانوا يسمحون لأساقفة النصارى أن يعقدوا مؤتمراتهم الدينية ، ومن شواهدنا على ذلك مؤتمر إشبيلية النصراني الذي عقد في سنة ٧٨٢م ، ومؤتمر قرطبة النصراني الذي عقد في سنة ٨٥٢م ، **أما كثرة الكنائس التي شُيدت أثناء الحكم العربي في أسبانيا فمن الأَدِلَّة البينة على احترام العرب لمعتقدات الأمم التي خضعت لسلطانهم** »(١) .

وفي ص ٦١٤ يذكر : « كان تأثير العرب في الغرب عظيمًا للغاية ، فأوربا **مَدِينةٌ للعرب بحضارتها** ، والحق أن تأثير العرب في الشرق لم يكن أقل أثرًا منه في الغرب ، وبمعنى أصح بدأ تأثيرهم في الشرق كبيرًا إزاء الدِّيْن واللغة والفنون ، وهذا لم يتأثر منها الغرب كثيرًا ؛ أما تأثيرهم العِلْمِيّ والخلقي والأدبي في الغرب فكان بالغًا ، ونحن لا نستطيع أن ندرك تأثير العرب في الغرب إلا إذا تصورنا حالة أوربا عندما أدخل العرب الحضارة إليها ، ولنا أن نلقي نظرة على القرنين التاسع والعاشر ، حين كانت الحضارة في أسبانيا ساطعة وضاءة ، في حين كانت مراكز الثقافة في الغرب أبراجًا يسكنها نبلاء متوحشون، يفخرون بأنهم لا يعرفون القراءة والكتابة ، ودامت هذه الهمجية في أوروبا زمنًا طويلًا من غير أن تشعر بوطأتها ، لم يبد في أوربا بعض الميل إلى العِلْم إلا في القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، عندما ظهر في أوربا رجال صمموا على أن يرفعوا عن كواهلهم أكفان الجهل والجهالة ؛

(١) السابق ، ص ٤٨

فيمموا شطر العرب الذين كانوا أئمة العِلْم ، لا منازع لهم فيه »[(١)] .

وفي ص ٦١٧ ، ٦١٨ يشير إلى : « وكانت ترجمات كتب العرب على الأخص ، ولا سيما العِلْمِيَّة منها ، المصدر الوحيد للتدريس في جامعات أوربا زهاء خمسة أو ستة قرون ، ونستطيع القول بأن تأثير العرب في بعض العلوم ، كعلم الطب مثلا ، قد دام إلى أيامنا هذه ، ذلك بأن كتب ابن سينا الطبية كانت تدرس في جامعة مونبلييه حتى أواخر القرن الماضي (؛ أي : الثامن عشر) ، وكان ابن رشد الحجة العظمى في الفلسفة في جامعات أوربا منذ أوائل القرن الثالث عشر ، ولما أخذ لويس الحادي عشر على عاتقه تنظيم التعليم في سنة ١٤٧٣م ، أمر بتدريس مذهب هذا الفيلسوف العربي ومذهب أرسطو ».

(٣) وفي كتاب « تكوين العَقْل الحديث **Making of the Modern Mind** » يقول « جون هرمان راندل **J. H. Randel** » ص ٢٠٨ عن مآثر العرب والمسلمين :

« ومن الأندلس جاءت أول معرفة بمؤلفات أرسطو الكبيرة ، ولكن المسلمين قد استخلصوا من العالم القديم شَيْئًا كان أرسطو بالرغم من عبقريته يفتقده تمامًا، **ذلك هو العِلْم الرياضي والآلي** ، ويبدو أنَّ عظمة العرب قد انحصرت في **قدراتهم على استيعاب أفضل ما في التراث الفكري للشعوب التي اتصلوا بها ، أكثر مما كان في أي إبداع أصيل** ؛ فقد تناولوا من العالم الهليني المعرفة الرياضية والطبية ، تلك التي نبذها الرُّومَان وأنكرتها المَسِيْحِيَّة ، ومضوا يعملون بصبر وجهد على تنمية نمط التطور والتكييف العملي ، ذلك المنهج الذي احتقره الأغارقة في أزهى عصورهم ، واكتسبوا من الهند الترقيم العربي الذي لا غنى عنه ، وصيغ التفكير الجبري الذي لولاه لما استطاع المحدثون قط أن يقيموا الأسس التي أسسها الأغارقة ؛ وأنشأوا في القرن العاشر في أسبانيا حضارة لم يصبح العِلْم فيها مجرد زخرف ، بل كان علمًا طبق على الفنون والصناعات

(١) السابق ، ص ٦٤

الضرورية للحياة العِلْمِيَّة . وعلى الجملة كان العرب في القرون الوسطى يمثلون الطراز الفكري العِلْمِيّ ، والحياة العملية الصناعية التي نضفي مثلها الآن على ألمانيا الحديثة ؛ على العكس من الإغريق لم ينصرفوا عن الاختبار المعملي والصبر عليه ، وفي الطب وفي علم الآليات ، وتحقيقًا في كل الفنون ، يلوح أَنَّهُمْ أخضعوا العِلْم لخدمة الحياة الإنسانية مباشرة بدلا من اعتباره غرضًا مطلوبًا لذاته فقط ، ولقد ورثت أوربا عنهم ما يحلو لنا أن نسميه بروح باكون التي ترمي إلى مد سلطة الإِنْسَان على الطبيعة »[(١)] .

وفيما يخص علاقة المسلمين بالمنهج العِلْمِيّ والعلوم الطبيعية يقول العالم سيديو **Louis-Pierre-Eugène Sédillot** (ت: ١٨٧٥م) في كتابه « تاريخ العرب العام **Histoire Générale des Arabes** » ص (٦٧ إلى ٧٠) : « اكتسبت العلوم الطبيعية في هذا العصر تطورًا كبيرًا ، شأنها في ذلك شأن العلوم الرياضية ، ويقول همبولدت : إِنَّهُ ينبغي علينا أن ننظر إلى العرب باعتبارهم المؤسسين الحقيقيين للعلوم الطبيعية آخذين هذه التسمية من مفهومنا للعلوم الطبيعية في يومنا هذا.

بعد تأمل سطحي للطبيعة ، وبعد ملاحظة الظاهرات التي تحدث مصادفة في فضاء السَّماء والأرض ، يأتي دور البحث والتحليل لهذه الظاهرات ؛ ولقد استعملت طريقة البحث هذه لأول مرة في عصر أرسطو ، غير أَنَّها ظلت مقصورة في أغلب الأحيان على الطبيعة العضوية ، وهنالك في درجات التقدم للمعارف المتعلقة بالحقائق الطبيعية درجة ثالثة ، أكثر رقيًّا من الدرجتين السابقتين ، هي الدراسة العميقة التحليلية لقوى الطبيعة ، وللتغيرات التي تسير عليها هذه القوى ... أما طريقة هذا التحليل فهو استحداث الظاهرة من صنعة الإِنْسَان ، وهذا هو معنى التجربة ... **وكان العرب هم أول من نهض للقيام بهذه الدرجة الثالثة التي كانت على وجه التقريب مجهولة تمامًا عند القدماء** »[(١)] .

---

(١) السابق ، ص ٦٦

(١) السابق ، ص ١١١

وانتصرت هذه الطريقة ـ كما يقول درابر في كتابه « تطور أوربا الفكري » (ج١/ ٤١٢) ـ على « الشعوذة والرجم بالغيب ، وأدَّى هذا النصر إلى نشوء الحياة الصناعية في أوربا ... [و] كان العرب يعملون على تهذيب العلوم وترقيتها بل كانوا يخترعونها ؛ **إن انتصاراتهم في الفلسفة والرياضيات والفلك والكيمياء والطب أثبتت أَنَّها أبقى وأعظم من انتصاراتهم الحربية ، ومن ثمة أهم منها** »(١) .

وفي مجال الكيمياء كان للعرب يدٌ بيضاءُ على هذا العِلْم ، وفي هذا يقول ول ديورنت : « ويكاد المسلمون يكونون هم الذين ابتدعوا الكيمياء بوصفها علمًا من العلوم؛ ذلك أَنَّ المسلمين أدخلوا الملاحظة الدقيقة ، والتجارب العلمية، والعناية برصد نتائجها في الميدان الذي اقتصر فيه اليونان ـ على ما نعلم ـ على الخبرة الصناعية الفروض الغامضة. فقد اخترعوا الأنبيق وسموه بهذا الاسم، وحللوا عددًا لا يحصى من المواد تحليلاً كيميائيًا، ووضعوا مؤلفات في الحجارة، وميزوا بين القلويات والأحماض، وفحصوا عن المواد التي تميل إليها، ودرسوا مئات من العقاقير الطبية، وركبوا مئات منها. وكان علم تحول المعادن إلى ذهب، الذي أخذه المسلمون من مصر هو الذي أوصلهم إلى علم الكيمياء الحق، عن طريق مئات الكشوف التي يبينونها مصادفة، **وبفضل الطريقة التي جَرَوا عليها في اشتغالهم بهذا العِلْم وهي أكثر طرق العصور الوسطى انطباقًا على الوسائل العِلْمِيَّة الصحيحة** »(١) .

وتذكر حقائق التَّاريخ أَنَّ الفضل يرجع إلى العالم العربي المسلم الرازي في « الوصف الأول في تركيب وخصائص حامض الكبريتيك ؛ إذ حصل عليه بنفس الطريقة التي يحصل بها عليه إلى الآن ، بطريقة نورد هاوزن ، وذلك بتقطير الزاج الجاف الأخضر »(٢) .

---

(١)السابق ، ص ١١٢

(١) قِصَّة الحَضَارَةِ ، ١٣/ ١٨٧

(٢) جلال مظر :مآثر العرب على الحضارة الأوربية ، ص ١١٤ ، نقلا عن : جون درابر ، تطور أوربا الفكري ، ص ٤١٠

والمصطلحات الكيميائية العَرَبِيَّة التي دخلت إلى اللغات الأوربية من الكثرة بمكان ، وقد سجلتها المعاجم الإنجليزية ، ومنها معجم أكسفورد « A New English Dictionary on Historical Principles » ، حيث يذكر هذا المُعْجَم المصطلح الكيميائي وجواره الأصل العربي ، ومن الأمثلة على ذلك :

الكيميا	**Alchemy**
القطران	**Alkitran**
الكحل	**Alcohol**
كيمياء	**Chemistry**

الأنبيق	**Alembic**
القلي ، القلوي	**Alkali**
التنور	**Athanor**
عطر	**Attar**

وغيرها كثير .

أما علم الصيدلة « **فاختراع عربي أصيل** »[1] . ولقد بدأ العرب تطبيق الكيمياء على الطب نظريًّا وعمليًّا ، من ناحية شرح وظائف الجسم الإنساني وعلاج أمراضه[2] . ولقد مكنتهم المعرفة التي اكتسبوها من عالم النبات أن يضيفوا شروحًا كثيرة إلى الألفي نبات الموجودة في كتاب النبات لديسقوريدوس ، وأن يُضَمِّنوا كتبهم في العقاقير كثيرًا من النباتات الطبية التي كان يجهلها اليونان تمامًا[1] .

ووضع العرب أساس الصيدلة الكيماوية ، وعنهم وصلت الوصفات الجوهرية التي انتشرت فيما بعد عن طريق مدرسة سالرنو إلى أوربا الوسطى[2] .

وكتب العرب مباحث كثيرة في العقاقير ، ومن مشاهير المؤلفين في هذا الموضوع : ماسويه المارديني البغدادي القاهري (المتوفى سنة ١٠١٥م) ، وابن وافد بأسبانيا (توفي سنة ١٠٧٤م) ، وكلاهما معروف في أوربا جيد المعرفة عن طريق

---

(١) **G. Le Bon; La Civilization des Arabes; p: 513**

(٢) **J. Draper: The Intellectual Development of Europe, vol II, p.93**

(١) **Sédillot, Histoire Générale des Arabes, Vol. II, P. 72**

(٢) Ibid, , **Vol. II, P. 21**

تَرْجَمَة مؤلفاتها إلى اللاتينية ، التي طبعت معًا حوالي خمسين طبعة [(١)] .

وتدين المادة الطبية للعرب بكثير من العقاقير ، مثل: السليخة ، والسنا المكي، والرواند ، والتمر هندي، والجوز المقيئ ، والقرمز ، والكافور ، والكحول إلخ ... ولقد كان العرب بحق المبتكرين الحقيقيين لعلم الصيدلة ، ذلك بأن أغلب المستحضرات التي لا تزال تستعمل حتى اليوم (أي ١٨٨٤م) ، كالأشربة واللعوق، واللزقات ، والمراهم ، والدهانات ، والمياه المقطرة ... هي جميعًا من مبتكرات [(٢)] .

وكان العرب رواد العالم في فن الطب والتطبيب وتنظيم المستشفيات ، والإشراف الفني الدقيق على كل ما يتعلق بالصحة العامة ؛ فدام أثرهم الطبي في أوربا حتى القرن الحادي عشر عند بداية الحركة العَرَبِيَّة في أوربا حتى القرن التاسع عشر ، وتربعت في هذه الحقبة الطويلة كتبهم الطبية على عرش الطب في أوربا ، وكانت أسماء أطبائهم على كل لسان ، وكتبهم الطبية منار كل طبيب ، ومأثورات حكمهم في كل بيت ، واعتمدت مناهج الدراسة في جامعات أوربا الطبية الاعتماد الأكبر على مؤلفاتهم [(١)] .

يقول المفكر الفرنسي المعاصر روجيه جارودي: « ونحن مدينون للعرب بأول كليات الطب ، وأولها كلية الطب في مونبليه الفرنسية . وحتى القرن التاسع عشر كانوا يدرسون في جامعات فرنسا وإنجلترا بإسهاب علوم الطب العَرَبِيَّة ، ومؤلفات الرازي » [(٢)] .

---

(١) جلال مظهر : مآثر العرب على الحضارة الأوربية ، ص ١٢٣ ، نقلا عن : **Meyerhof: The Legacy of Islam, P.331**

(٢) السابق ، ص ١٢٤ ، نقلا عن: جوستاف لوبون : حضارة العرب ، ص ٥٣٢

(١) السابق ، ص ١٢٩

(٢) يُنْظَرُ مقال بعنوا ن : « استعمار التَّاريخ والحوار بين الحضارات » ، بقلم: أحمد بهاء الدِّيْن ، مجلة العربي الكويتية ، العدد ٢٤٣، فبراير ١٩٧٩م ، ص ١٨ ، وسيكون لنا حديث خاص مع هذا المفكر في الفَصْل الأخير .

وإذا دخلت كلية الطب في جامعة باريس وجدت صورة أبي بكر مُحَمَّد الرازي (٨٤٤ ـ ٩٢٤م) معلقة هناك[(١)] . ومن أشهر كتبه كتاب الحاوي وهو كتاب في عشرين مجلدًا ، يبحث في كل فرع من فروع الطب. وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية وسمي **Liber cntinens**، وأغلب الظن أَنَّهُ ظل عدة قرون أعظم الكتب الطبية مكانة، وأهم مرجع لهذا العِلْم في بلاد الرجل الأبيض، وكان من الكتب التسعة التي تتألف منها مكتبة الكلية الطبية في جامعة باريس عام ١٣٩٤. وكانت رسالته في الجدري والحصبة آية في الملاحظة المباشرة والتحليل الدقيق، كما كانت أولى الدراسات العِلْمِيَّة الصحيحة للأمراض المعدية، وأول مجهود يبذل للتفرقة بين هذين المرضين. وفي وسعنا أن نحكم على ما كان لهذه الرِّسالَة من بالغ الأثر واتساع الشهرة إذا عرفنا أَنَّها طبعت باللغة الإنجليزية أربعين مرة بين عامي ١٤٩٨، ١٨٦٦. وأشهر كتب الرازي كلها كتاب طبي في عشر مجلدات يسمى كتاب المنصوري ، أهداه إلى أحد أمراء خرسان. وقد ترجمه جرار الكريمو إلى اللغة اللاتينية. وظل المجلد التاسع من هذا الكتاب وهو المعروف عند الغربيين باسم **Nonus Almansoris** متداولًا في أيدي طلاب الطب في أوربا حتى القرن السادس عشر[(١)] .

وفي الرياضيات وعلم الفلك أنجز العرب في الحقيقة أعمالًا علمية عظيمة ، **جعلوا من الجبر علمًا قائمًا بذاته ، وطوروه تطويرًا كبيرًا ، ووضعوا أسس الهندسة التحليلية ، وكانوا بغير منازع مؤسسي حساب المثلثات الكروية والمسطحة ، الذي لم يكن معروفًا قبلهم** ؛ وحافظ العرب على إبقاء الحياة الفكرية الراقية ، وعلى دراسة العلوم ، في عصر كان الغرب المسيحي يحارب فيه الهمجية بيأس ؛ أما أوج نشاطهم الفكري ، فقد نعتبره القرنين التاسع والعاشر ، لكنه استمر حتى القرن الخامس عشر، ذلك بأنه ابتداء من القرن الثاني عشر ، كان أي شخص في الغرب ، ممن

(١) جلال مظهر : مآثر العرب على الحضارة الأوربية ، ص ١٣٠

(١) ول ديورنت : قِصَّة الحَضَارَةِ ، ١٣/ ١٩١

يتذوقون العِلْم ، أو يميلون إلى نور المعرفة ، يتجه إلى الشرق أو إلى الغرب العربي (؛ أي: إلى إسبانيا) ؛ ولما بدأ الفكر الإنساني في عصر النهضة ينشغل من جديد بالحماس نحو المعرفة ، وأثارته شرارة التوقد وسمو الإدراك ، وإذا كان هذا الفكر قد تمكن حينئذ من البدء فورًا في العمل والإنتاج والاختراع ؛ **فذلك لأن العرب قد حفظوا وحسنوا فروعًا مختلفة من فروع المعرفة ، وأبقوا روح البحث حية متحفزة ، واحتفظوا بها مستعدة لاستكشاف المستقبل.**

ويدين علم الجبر، الذي نجد أصوله في مؤلفات ديوفانتوس **Diophantus** اليوناني من رجال القرن الثالث، باسمه إلى العرب، الذين ارتقوا بهذا العِلْم الكاشف للخبايا ، الحلال للمعضلات. وأبرز الشخصيات في هذا الميدان العِلْمِيّ هي شخصية مُحَمَّد بن موسى (٧٨٠ – ٨٥٠) المعروف بالخوارزمي ، نسبة إلى مسقط رأسه في خوارزم (خيوة الحديثة) ، الواقعة شرقي بحر الخرز ، وقد كتب الخوارزمي رسائل قيمة في علوم خمسة: كتب عن الأرقام الهندية، وجمع أزياجًا فلكية، ظلت قرونًا كثيرة ـ بعد أن روجعت في بلاد الأندلس الإسلامية ـ هي المعمول بها في جميع البلاد الممتدة من قرطبة إلى شنغان في الصين؛ وهو الذي وضع أقدم الجداول المعروفة في حساب المثلثات، واشترك مع تسعة وثلاثين من العلماء في وضع موسوعة جغرافية للخليفة المأمون، وأورد في كتابه حساب الجبر والمقابلة حلولًا تحليلية وهندسية لمعادلات الدرجة الثانية. ولقد ضاع الأصل العربي لهذا الكتاب، لكن جرارد الكريموناني **Gerard of Cremona** ترجمه في القرن الثاني عشر، وظلت ترجمته تدرس في الجامعات الأوربية حتى القرن السادس عشر، ومنه أخذ الغرب كلمة الجبر ، وسموا بها ذلك العِلْم المعروف. واشتهر ثابت بن قرة (٨٢٦ – ٩٠١) ـ فضلًا عما ترجمه من الكتب الكثيرة ـ بمؤلفاته في الفلك والطب، وأصبح أعظم علماء الهندسة المسلمين ، وارتقى أبو عبد الله البتاني (٨٥٠ – ٩٢٩) ـ وهو رجل صابئي من الرقة يعرف عند الأوربيين باسم البتجنس **Albategnus** ـ بعلم حساب المثلثات إلى أبعد من مبادئه التي كان عليها في أيام هبارخوسن وبطليموس، وذلك حين استبدل المثلثات بالمربعات في حل المسائل، واستبدل جيب الزاوية بالقوس كما كان يفعل هبارخوس. وهو الذي صاغ في حساب المثلثات

النسب بالصورة التي نستخدمها الآن في جوهرها ... وكتب أحدهم ـ الفرغاني من أهل فرغانة وهي ولاية وراء جيحون (حوالي عام ٨٦٠) ـ كتابًا في الفلك ظل مرجعًا تعتمد عليه أوربا وغربي آسية سبعمائة عام [(١)] .

- **المسلمون والجانب الأدبي والفكري :**

ولم يكن المردود الحضاري للإسلام مقصورًا على الجانب العِلْمِيّ ومنهجه ، بل امتد إلى الجانب الأدبي والفكري :

١ـ يقول سير هـ . أ . ر . جب **Sir H. A. R. Gibb** في كتاب « تراث الإِسْلام **The Legacy of Islam** » : « وفي مصر ألف مبشر بن فاتك في القرن الحادي عشر كتابًا هو عبارة عن مجموعة من أقوال الفلاسفة القدماء ، وهذا الكتاب ترجم إلى الأسبانية تحت عنوان **Bocados des oro** بينما ترجمت النسخ الأوربية الأخرى عن اللاتينية المسماة **Liber Philosophorum moralium** التي ترجم عنها الفرنسية جيوم دي تينيو نفيل **Les ditz moraux des philosophes** ، وهذه ترجمها إلى الإنجليزية إيرل ريفرز تحت عنوان : **The dictes and sayings of philosophers**، وطبعها كاكستون ، **فكان أول كتاب طُبع في تاريخ إنجلترا كما سبق ذكره** » [(١)] .

ويقول أَيْضًا في نفس المصدر ص ١٩٧ : « وهكذا نجد أن تشرب العصور الوسطى بموضوعات الأدب العربي كان في الحقيقة يؤلف مظهرًا من مظاهر حركة فكرية عامة شملت تلك العصور، فلقد كانت النظم الدينية الضيقة التي اتصفت بها العصور الوسطى لا تتسع للحضارة اللاتينية ، وبات الناس يتشوفون إلى معرفة مسائل كانت إلى هذا الحين تمليها عليهم السلطات العليا ؛ فيقبلونها في غير مشقة.

---

(١) ول ديورنت : قِصَّة الحَضَارَة ، ١٣/ ١٨١، وأحب أن أحيل القارئ إلى مقالٍ مهم في الموسوعة العَرَبِيَّة العالمية ، ١٦/ ٤٢٢ ، تحت عنوان : « **العلوم عند العرب والمسلمين** » ، فسيجد هناك ما يسُرُّه ، وسيجد كشوفًا بأسماء المسلمين الأوائل في كافة العلوم .

(١) يُنْظَرُ تَرْجَمَة : جلال مظهر : مآثر العرب على الحضارة الأوربية ، ص ٩٢

ولما لم يجدوا مقنعًا فيما لديهم من الآداب اللاتينية على ضيقها وجدبها وافتقارها إلى قوة الإبداع ، كان لا بد لهم من أن يولوا وجوهم شطر جهة أخرى لعلهم أن يظفروا بما كانوا يرغبون فيه. ولقد كانوا إلى ذلك الحين يعترفون على مضض **بتفوق العالم الإسلامي في الناحية الحربية فحسب ، ولكنهم لم يلبثوا يومئذ أن لاحظوا في شَيْء من الخجل أَنَّهُ يبزهم في الحياة العَقْلِيَّة أَيْضًا** »[1] .

ومن الآثار الأدبية الخالدة التي يعتز بها الغربيون أيما اعتزاز « الكوميديا الإلهية » لدانتي ، الذي يوصف بأنه أعظم شعراء إيطاليا . هذا الأثر الخالد لم يخلُ من تأثيرات إسلامية. وقد أثبت هذه التأثيرات العلامة « ميجيل آسين بالاتشيوس » في كتابه « الإِسْلام والكوميدية الإلهية **Islam and the Divine Comedy** » ، فذكر « أن هذه الكوميدية التي مثلت ثقافة أوربا المَسِيْحِيَّة برمتها في القرون الوسطى إنَّما استمدت من أصول عربية إسلامية ، استقاها دانتي من قصة الإسراء والمعراج ، ومن تعليقات وتفسيرات المفكرين العرب ومن مذاهب الصوفية ، ولم يتحرر دانتي عن التأثير بالنماذج الإسلامية في فصل واحد من فصول كوميديته ، فهي إذن **إسلامية عربية شرقية نصًّا وروحًا** ؛ ظهر هذا الكتاب باللغة الأسبانية في مدريد سنة ١٩١٩، وظهر باللغة الإنجليزية في سنة ١٩٢٦ تَرْجَمَة هارولد ساندرلاند تحت رعاية دوق برويك وألبا وكتب دوق ألبا مقدمته »[1] .

وقد ترجم الأستاذ جلال مظهر كتاب « **Islam and the Divine Comedy**» للعلامة ميجيل آسين تحت عنوان « أثر الإِسْلام في الكوميديا الإلهية » وترجم الأستاذ جلال مظهر المقدمة المهمة للدوق ألبا عن الطبعة الإنجليزية التي قدَّم بها هذا الكتاب المهم ، ومما جاء في تَرْجَمَة هذه المقدمة للدوق ألبا : « مؤلف هذا الكتاب القس الكاثوليكي ميجيل آسين أستاذ اللغة العَرَبِيَّة في جامعة مدريد ...

---

(١) تراث الإِسْلام ، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ، ط١ ، (١٩٣٦م) ، ١/ ١٨٩

(١) جلال مظهر : مآثر العرب على الحضارة الأوربية ، ص ١٠٢

ولقد **كرس آسين أكثر من خمس وعشرين سنة من حياته لبحث ودراسة الفكر الديني والفلسفي الإسلامي في القرون الوسطى** ، سواء في الشرق أو في الأندلس أو في الغرب ، ثم أن خبرته بفقه اللغة العَرَبِيَّة وتضلعه في الفلسفة الأوربية في القرون الوسطى ، قد مكناه من أن يقوم باكتشافات هامة منذ بضع سنين ، تتعلق بتأثير ابن رشد في لاهوتيات القديس توما الأكويني ، وابن عربي في ريموندلال ، وإخوان الصفا في أنسيلمو دي تورميدا. أما أهم اكتشافاته على أية حال وهو الاكتشاف الذي بنيت عليه شهرته ، **فاكتشافه تأثير النماذج الإسلامية في الكوميديا الإلهية** .

والحق أن هذا الكتاب قد أثار منذ أن ظهر باللغة الإسبانية فضولًا عميقًا في الأوساط العامة ، وأحدث هزة عنيفة بين نقاد الأدب. أما الدانتيون الإيطاليون على الأخص ، فلم يعترفوا إلا على مضض بأن الأصول الإسلامية كانت الأساس الذي بنى عليه دانتي الكوميديا الإلهية ، تلك القصيدة التي تمثل ثقافة أوربا المَسِيْحِيَّة في القرون الوسطى فيما يتعلق بالحياة الأخرى. ولقد أصبح الكتاب بمجرد ظهوره موضوعًا لجدل شائق حامي الوطيس؛ فكتبت عنه أكثر من مائة مقالة ونشره، وألقيت حوله محاضرات كثيرة ، إما لتعضيد البحث الذي قدمه ميجيل آسين، وأما لمعارضته. ونشرت المجلات الجدية المخصصة للأدب وتاريخه ، الخاصة منها والعامة ، مقالات كتبها دانتيون وجهابذة من علماء المستشرقين والكتاب الرومانتيكيين في كل من أوربا وأمريكا ، في تفسير البحث والتعليق عليه أو في نقده. وتدخل ميجيل آسين في هذا الصراع الجدلي ، وانبرى للنقاد ، يستخلص آراءهم في الحكم على بحثه، سواء المعاضد له منها أو المعارض ، أو التي يلابسها شك. وأخيرًا انتصر على خصومه وأثبت خطأهم، وكان ميزان الفكر العالمي مؤيدًا له كل التأييد ، ولقد أطرى كلا الفريقين المتنازعين الكتاب وامتدحوه على أية حال...

وقررت مجلة **Analecta Bollandiana** أن مؤلف هذا الكتاب معروف في العالم أجمع ، وأَنَّهُ لم يحدث أن اجتذب كتاب من قبل مثل هذا الاهتمام. وأن خطورة هذا الموضوع وأهميته لا يمكن أن تخفقا في إثارة أقصى ما يمكن من الاهتمام عند جميع المشتغلين بمشاكل تاريخ الأدب. وَأَنَّ المشابهات القائمة بين الكوميديا الإلهية

والإسلام التي ذكرها المؤلف كثيرة جدًا »[(١)] .

ذلك هو المردود الحضاري للإسلام ، ذلك المردود الذي قام به العرب بعد أن آمنوا بالإسلام ، العرب البدو الرُّحَّل الذين كانوا قبل الإسلام لا قيمة لهم ، ولا يُؤبه بهم ، ولا يُلتَفتُ إليهم ، ولا يُعارون أدنى اهتمام ، أصبحوا في خفقة من خفقات البرق سادة الدُّنْيا وأئمتها ، يتعلم منهم الأوربيون وغيرهم .

وأنا هنا أضع هذه الحقائق التاريخية والاجتماعية بين أيدي العِلمانِيين الذين ما فتئوا ليل نهار يطالبون بتنحية الدِّيْن جانبًا ، وقصره على المسجد ، وأقول لهم: إن الإسلام كان سببًا في سيادة هذه الأمة أَوْلًا ، وسيكون سببًا في سيادتها ثانيًا وثالثًا وإلى قيام الساعة ؛ فموتوا بغيظكم ، وما أنتم إلا كما قال الشاعر :

وإِذَا أَرَادَ اللــــهُ نَشــــْرَ فَضــــيلَةٍ ... طُوِيــتْ أَتَــاحَ لَهَــا لِسَــانَ حَسُــودِ

لَــوْلَا اشْــتِعالُ النَّــارِ فــيما جَــاوَرتْ ... مَا كَـانَ يُعْـرفُ طِيـبُ عَـرْفِ العُـودِ

*****

- **شهادة كبار العلماء والأدباء الغربيين للإسلام** :

من الأقوال التي يتناقلها العلماء والأدباء : لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذوو الفضل . وهو قول صائب ، وهذا الفضل المعترف به من أهل الفضل لذوي الفضل قيمة كبيرة . وتزداد قيمة هذا الاعتراف إذا جاءت ممن يعارضون صاحب الفضل ، ولا يلتقون معه في آرائه ومعتقداته ، وتزداد أكثر وأكثر إذا أتت من أعدائه؛ ولذلك قالوا قديمًا : والفضل ما شهدت به الأعداء .

وأنا أثبت هنا بعض شهادات كبار الأدباء والكتاب الغربيين المنصفين عن الإِسْلام .

- شهادة جوته[(١)] (**Johann Wolfgang Goethe**):

جوته أديب ألمانيا الأشهر ، الذي طبقت شهرته الآفاق ، وخلدت اسمه أعماله

(١) ميجيل آسين : أثر الإِسْلام في الكوميديا الإلهية ، ت: جلال مظهر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ط١ ، (١٩٨٠م) ، ص ٧

(١) سبقت ترجمته.

الأدبية الشهيرة . وفي علاقته مع الإسلام تحدثنا الدكتورة « درية فهمي » ـ أستاذة الأدب الفرنسي بجامعة الإسكندرية ـ قائلة [1] : إن علاقة جوته بالإسلام ترجع إلى عهد شبابه ، حوالي سنة ١٧٧٣ ، حيث كان يقوم بأبحاثه العلمية ومحاولاته في الشعر ، وتشير د. درية أَنَّهُ وجد ضالته البلاغية والشعرية في القرآن الكريم ، فأخذ في قراءته ، وفي مطالعة رحلات المسافرين الذين عرفوا الحضارة الإسلامية .

وتذكر د. درية أن جوته درس اللغة العَرَبِيَّة وهو في سن الرابعة والستين من عمره ، وأَنَّهُ كان سعيدًا عندما نقل بيده مخطوطًا عربيًّا ، ومراسلته مع المستشرقين المشهورين في وقته : سلفستر دي ساسي ، وفون هاميز وغيرهم .

ومما ذكرته د. درية أن جوته كان يرى النبي مُحَمَّد ﷺ نبيًّا حقيقيًّا ، أوحى الله له من روحه ، وألهمه قداسة رسالته وجلالتها الإلهية . وفي مراسلاته مع بعض أصدقائه ما يدل على رغبته في فهم الإسلام ، وإعجابه بالتربية الدينية التي تُعطى للشباب المسلم. وذكرت د. درية أَنَّهُ شرع في تأليف قصيدة روائية بطلها مُحَمَّد ﷺ .

○ **شهادة توماس كارليل** [1] :

يقول هذا الأديب الكبير : « ولقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور ، وأحيا به من العرب أمة هامدة ، وأرضًا هامدة ، وهل كانت إلا فئة من جوالة الأعراب ، خاملة فقيرة ، تجوب الفلاة منذ بدء العالم ، لا يسمع لها صوت ، ولا تحس منها حركة ، فأرسل الله لهم نبيًّا ، بكلمة من لدنه ، ورسالة من قبله ؛ فإذا الخمول قد استحال شهرة ، والغموض نباهة ، والضعة رفعة ، والضعف قوة ، والشرارة حريقًا ، وسع نوره الأنحاء ، وعم ضوءه الأرجاء ، وعقد شعاعه الشمال

---

(١) مقال : « جوته والإسلام » ، مجلة العربي الكويتية، العدد ١٥٦ ، نوفمبر ١٩٧١م، ص٧٤

(١) توماس كارليل (**Thomas Carlyle** ١٧٩٥م ـ ١٨٨١م) ، كاتب ومؤرخ إنجليزي ، درس اللاهوت في جامعة أدنبرة ، ثم تحول إلى دراسة القانون في نفس الجامعة ، ثم تفرغ للبحث في الأدب والفلسفة الألمانية ، تأثر بكتابات جوته وشيللر ، **كان من أبرز شخصيات عصره** ، له مؤلف ضخم عن الثورة الفرنسية ، آمن بالبطولات وبالقيادة السياسية الفردية الداعية لإصلاح المجتمع . يُنْظَرُ : المَوْسُوعَة العَرَبِيَّة الميسرة ، ص ١٤٢٢

بالجنوب ، والمشرق بالمغرب ، وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث حتى أصبح لدولة العرب رجل في الهند ، ورجل في الأندلس ، وأشرقت دولة الإِسْلام حقبًا عديدة ، ودهورًا مديدة بنور الفضل والنبل والمروءة ، والبأس والنجدة ، ورونق الحق والهدى ، على نصف المعمورة . وكذلك الإيمان العظيم ، وهو مبعث الحياة ومنبع القوة ، وما زال للأمة رقي في درج الفضل ، وتعريج إلى ذرى المجد ، ما دام مذهبها اليقين ، ومنهاجها الإيمان . ألستم ترون في حالة أولئك الأعراب ومحمدهم وعصرهم كأنما قد وقعت من السَّماء شرارة على تلك الرمال التي كان لا يبصر بها فضل ، ولا يرجى فيها خير ؛ فإذا هي بارود سريع الانفجار ، وما هي برمل ميت ، وإذا هي قد تأججت واشتعلت ، واتصلت نارها بين غرناطة ودلهي. ولطالما قلت : إن الرجل العظيم كالشهاب من السَّماء ، وسائر الناس في انتظاره ، كالحطب ، فما هو إلا أن يسقط حتى يتأججوا ويلتهبوا »[(١)] .

○ <u>شهادة برنارد شو</u>[(١)] (**George Bernard Shaw**):

والشهادة التي أنقلها هنا عن الأديب الشهير برنارد شو ، وقد قال شهادته عن الإسلام ضمن حوار دار بينه وبين د. صفاء خلوصي على صفحات مجلة العربي الكويتية ، ودار جزء من الحوار عن الإِسْلام ، وهو كما يأتي :

« ـ سيعم الإِسْلام أوربا ، وستصبح إنكلترا مسلمة في نهاية هذا القرن!

- فضحكت !
- فقال : ما يضحكك؟
- قلتُ : أليست هذه إحدى نوادرك؟!

---

(١) الأبطال ، تَرْجَمَة : مُحَمَّد السباعي ، ص ٩٧

(١) جورج برنارد شو (١٨٥٦م ـ ١٩٥٠م) ، كاتب مسرحي بريطاني ، ولد في دبلن ، رحل إلى لندن ١٨٧٦م حيث كتب خمس روايات ، **<u>وقضى تسعة أعوام لم يحالفه فيها الحظ أو الشهرة</u>** ، إلى أن ازدهرت قدرته الفنية ، واشتهر بصراحته ولذاعة قلمه ولسانه في كتاباته وفي أحاديثه ومجالسه من أعماله الخالدة : القديسة جان دارك ١٩٢٤م ، ظهرت طبعة كاملة بمؤلفاته في ٣٠ مجلدًا ، حصل على جائزة نوبل للآداب ١٩٢٥م . يُنْظَرُ : المَوْسُوعَة العَرَبِيَّة الميسرة ، ص ١٠٩٩

- قال : بل أنا جاد فيما أقول ، إننا اليوم أكثر إسلامًا من المسلمين أنفسهم ، ولا يعوزنا سوى الاسم، لقد انتقلت فضائلكم إلينا ، ومساوئنا إليكم !

ثم بدا لي فرفعتُ بصري إلى صور العظماء الذين أعجب بهم معلقة أمامه ، وقبل أن أعلق بشيء عاجلني بقوله :

- لو كانت لمحمد صورة لوضعتها فوق هذه جميعًا ، فقد كان بطلًا ، وقد كان أول زعيم اشتراكي حقيقي في العالم » [(١)] .

(١) مقال ، مجلة العربي الكويتية ، العدد ٢٠٣ ، أكتوبر ١٩٧٥م ، ص ١٣٨

الفصل السادس

لماذا لا نَقْبَل غير الإِسْلام دِيْنًا ؟

- لماذا لا نقبل الديانات السماوية غير الإسلام دينًا ؟
- لماذا لا نقبل أيًّا من الديانات الوثنية دينًا ؟
- لماذا لا نقبل العلمانية ؟

الفَصلُ السَّادِسُ

لماذا لا نقبّل غير الإِسْلام دِيْنًا ؟

ذكرنا في الفَصْل السابق حيثيات قبول الإِسْلام دِيْنًا ، والأسباب التي تجعلنا يقينًا لا نَقْبَل غيره ، ولا نَبْتَغِي سواه ، وَأَنَّ الحق كل الحق فيه ، وَأَنَّ الباطل كل الباطل فيما عداه .

ويحق لأي قارئ بعد أن ينتهي من قراءة الفَصْل الخامس ، ويطلع على هذه الحيثيات أن يقولَ :

⇦ « لماذا قطعت بشكل يقيني أَنَّ الحق في الإِسْلام وحده ؟!! » .

⇦ لماذا لا يكون الحق في اليَهُودِيَّة أو المَسِيْحِيَّة أو البُوذِيَّة .... ؟!! » .

⇦ لماذا لا يكون الحقُّ في « العلمانية أو الماركسية ... ؟!! »

وأُقرُّ أن هذا السؤال أو هذه الأَسْئِلَة مهمة ، وأقر أَنَّ من حق كل سائل أن يسأله ، بل أنا أحضُّ كلَّ مسلمٍ على أن يسأل هذا السؤال ، وأن يعقد المقارنات بين الإسلام وغيره من المذاهب. وأعترف هنا أَنَّ هذا السؤال أو هذه الأَسْئِلَة وردت على ذهني مرات ومرات ، وأن صداها كان يتردد في عقلي دومًا ، خاصة فيما يتعلق بالمسيحية .

إن الإجابة على هذا السؤال مهمة ، بل لا تكتمل إجابة سؤال « لماذا نَبْتَغِي الإِسْلام دِيْنًا ؟ » إلا به ؛ لذلك سنحاول في هذا الفَصْل أن نجعله للإجابة عن :

⇦ لماذا لا نَقْبَل اليَهُودِيَّة دِيْنًا ؟

⇦ لماذا لا نَقْبَل المَسِيْحِيَّة دِيْنًا ؟

⇦ لماذا لا نَقْبَل أيَّ دِيْن من الأديان الأخرى دِيْنًا ؟

وأول خطوة نخطوها لتحقيق هذا الهدف هي أن نضع ثَبْتًا بأسماء الديانات الرئيسية في دنيا الناس التي تصلح أن تكون نِدًّا وقِرنًا للإسلامِ ، فليس في الوُسْع ولا في الطاقة أن نستقصي كل أديان العالم ، ونعقد بينها وبين الإسلام المقارنات المختلفة. فليكن الأمر هنا إذن مقصورًا على الأديان الرئيسية . وأعود فأنبه القارئ إلى أَنَّهُ يجب أن يتسلح بالقواعد التي أثبتناها في بداية الفصل الخامس.

إذا عدنا إلى الدوائر والموسوعات العلمية العالمية للبحث عن الأديان الأساسية والرئيسية في العالم نجد أن دائرة المعارف الأمريكية **Lexicon Universal Encyclopedia** ، المجلد ١٦ ، ص ١٤٠ـ تحدد هذه الأديان كما يأتي :

(١)	الكاثوليكة الرومانية	**Roman Catholicism**
(٢)	البروتستانتية	**Protestantism**
(٣)	الأرثوذكسية	**Orthodox**
(٤)	الإسلام	**Islam**
(٥)	البوذية	**Buddhism**
(٦)	الهندوسية	**Hinduism**
(٧)	الكنفوشيوسية	**Confucianism**
(٨)	الطاوية	**Taoism**
(٩)	الشِّنْتَوِيَّة	**Shinto**
(١٠)	اليهودية	**Judaism**
(١١)	اليانِية (١) .	**Jainism**
(١٢)	السيخية	**Sikhism**
(١٣)	الزرادشتية	**Zoroastrianism**

ونلاحظ على هذا الجدول الملحوظتين الآتيتين :

---

(١) قاموس المورد ، ص ٦١٦

(١) أن دائرة المعارف الأمريكية وضعت هذه الديانات تحت عنوان : « **Principal religions of the world** **الأديان الرئيسية في العالم** » .

(٢) أن دائرة المعارف لم تعتبر المَسِيْحِيَّة دِيْنًا واحدًا متجانسًا ، بل اعتبرتها ثلاث ديانات .

وفي موسوعة أخرى هي « الموسوعة العَرَبِيَّة العالمية » ، نجدها في مادة « الدِّيْن » ١٠/ ٥٩٠ قامت بتقسيم الأديان الرئيسية في العالم إلى قسمين رئيسيين وجعلت لكل قسم عنوانًا خاصًّا :

أ- الأديان السماوية ، ويضم : الإِسْلام ، اليَهُودِيَّة ، المَسِيْحِيَّة .

ب- الأديان الوثنية ، ويضم : ١ـ الهُنْدُوسِيَّة ، ٢ـ البُوذِيَّة ، ٣ـ الزَّرادَشْتِيَّة ، ٤ ـ الطاوية ، ٥ ـ الكنفوشية ، ٦ـ الشنتو .

وتتفق الموسوعتان على أنَّ : الإسلامَ واليهودية والمسيحية والهندوسية والبوذية والزرادشتية والطاوية والكنفوشية والشنتو على أَنَّها من الأديان الأساسية ، وتزيد دائرة المعارف الأمريكية السِّيخِيَّة واليانية.

*****

ولنبدأ مهمتنا بالديانات السماوية ، ثم نتلوها بالديانات الوثنية .

١) لماذا لا نقْبَل اليَهُودِيَّة دِيْنًا ؟:

هناك جملة من الأسباب والمُعَوِّقات التي تمنعنا من الإيمان باليهودية الحالية ، وتصدنا عن أن نقبلها دِيْنًا . وسوف أقوم بتصنيف هذه المعوقات كما يأتي:

(أ) مُعَوِّقات تتعلق بالتوراة اليَهُودِيَّة الحالية.

(ب) مُعَوِّقات تتعلق بالشخصية اليَهُودِيَّة نفسها .

(ت) المردود الحضاري لليهودية .

(ث) شهادة كبار أدباء اليهود على اليَهُودِيَّة .

(أ) مُعَوِّقات تتعلق بالتوراة اليَهُودِيَّة الحالية :

نحن ـ المسلمين ـ نؤمن بالتوراة التي أنزلها الله على نبيه موسى ـ عليه السلام ـ

أحد أولي العزم من الرُّسل ، ونؤمن بأنَّ التوراة التي أنزلها الله عليه بها هدى ونور .

ولكن هذا الإيمان لا ينسحب على التوراة الحالية التي بين أيدينا ، وحتى نفهم أسباب رفضنا لهذه التوراة نقدم بين يدي هذه الأسباب نُبْذَة تاريخية عن هذه التوراة ومكوناتها .

○ نُبذة تاريخية عن التوراة الحالية ومكوناتها :

اعتمد اليهود من أسفارهم تسعة وثلاثين سِفْرًا ، أطلق عليها في العصور المَسِيْحِيَّة اسم « العهد القديم **The Old Testament or Covenant** » للتفرقة بينها وبين ما اعتمده المسيحيون من أسفارهم التي أطلقوا عليها اسم « العهد الجديد **The New Testament** » ، واعتبروا هذه الأسفار التسعة والثلاثين أسفارًا مقدسة ؛ أي : موحى بها [(١)] .

ويمكن تلخيص مكونات العهد القديم في الجدول الآتي :

مكونات العهد القديم (٣٩سفرًا)	ملحوظات
أ- أسفار موسى الخمسة (٥أسفار) **The Pentateuch**: التكوين **Genesis**، الخروج **Exodus** ، اللاويين [(٢)] **Leviticus**، العدد **Numbers**، التثنية [(٣)]	نلاحظ أن هناك أسفارًا هي : ○ **Tobit** ○ **Judith** ○ **1Maccabees,** ○ **2Maccabees,** ○ **Wisdom,** ○ **Sirach,** ○ **Baruch**
ب- الأسفار التاريخية (١٢سفرًا) **The Historical Books** : يشوع **Joshua** ، القضاة **Judges** ، راعوث **Ruth** ، صموئيل الأول **1Samuel** ، صموئيل الثاني **2Samuel** الملوك الأول **1Kings** ، الملوك الثاني	يضمها الروم الكاثوليك إلى

(١) د. علي عبد الواحد وافي : اليَهُودِيَّة واليهود ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، (بدون بيانات أخرى) ، ص ٩ ، وينظر أَيْضًا : **Hutchinson's TWENTIETH CENTURY ENCYCLOPAEDIA, Bible, p. 149**

(٢) وتسمى بعض المصادر هذا السِّفْر سِفْر الأخبار. المَوْسُوعَة العَرَبِيَّة الميسرة ، ص ١٢٤٥

(٣) تشير المَوْسُوعَة العَرَبِيَّة الميسرة ، ص ١٢٤٥ ، أن هذا السِّفْر سِفْر التثنية يشتمل على خبر وفاة موسى . وتضمن هذا السِّفْر على خبر هذه الوفاة دليل مؤقت على أنَّ موسى لم يكتب هذا السفر.

2Kings ، أخبار الأيام الأول **1Chronicles** ، أخبار الأيام الثاني **2Chronicles** ، عزرا **Ezra** ، نحميا **Nehemiah**، إستير **Esther**.	أسفارهم القانونية ، ويشيرون إليها كأسفار قانونية ثانوية **deuterocanonical** .
ت- الأسفار الشعرية أو أسفار الحكمة (٥ أسفار) **The Poetical or Wisdom Books** : أيوب **Job** ، المزامير **Psalms**، الأمثال **Proverbs** ، الجامعة **Ecclesiastes** ، نشيد الإنشاد **Song of Solomon** .	ويضعها البروتستنت في ملحق مع الأسفار الأبوكريفية .
ث- أسفار الأنبياء (١٧ سِفْرًا) **The Prophetical** : أشعياء **Isaiah**، أرمياء **Jeremiah**، مراثي أرمياء **Lamentations** ، حزقيال **Ezekiel** ، دانيال **Daniel** ، هوشع **Hosea**، يوئيل **Joel**، عاموس **Amos** ، عوبديا **Obadiah** ، يونان **Jonah**، ميخا **Micah** ، ناحوم **Nahum**، حبقوق **Habakkuk** ، صفنيا **Zephaniah** ، حجي **Haggai** ، زكريا **Zechariah** ، ملاخي **Malachi**.	- تعرض الأسفار التاريخية لتاريخ بني إسرائيل بعد استيلائهم على بلاد الكنعانيين ، وبعد استقرارهم في فلسطين ، وتفصل تاريخ قضاتهم وملوكهم وأيامهم.

○ **لغة العهد القديم والترجمات التي تُرجم إليها :**

دُوِّنت أسفار العهد القديم بلغة واحدة ، **وهي اللغة العبرية** ، وكان هذا التدوين على مدار أكثر من ٥٠٠ عام[(١)] ، ونلاحظ أَنَّ التراكيب والأساليب ووجهات النظر، وبعض المفردات تختلف باختلاف هذه الأسفار ، وتنم عن العصور التي ألف فيها كل سِفْر منها ، ولا يستثني من ذلك إلا أجزاء يسيرة ألفت من أول الأمر باللغة الآرامية .

والترجمات التي ترجم إليها العهد القديم :

١- الترجمة اليونانية (التَّرْجَمَة السَّبْعِينِيَّة **Septuagint**) ، وهي أقدم تَرْجَمَة للعهد القديم ، وتمت في سنتي ٢٨٢ ، ٢٨٣ قبل الميلاد ، على يد اثنين وسبعين فقيهًا من يهود مصر بأمر ملك مصر حينئذ بطليموس فيلادلف . **وتشتمل التَّرْجَمَة**

---

(١) **Lexicon Universal Encyclopedia, vol.III, p.237**

السَّبْعِينِيَّة على أربعة عشر سِفْرًا لا توجد في الأصل العبري الذي وصل إلينا .

وهذه الأسفار هي : سِفْر طوبيا ، سِفْر الحكمة لسليمان ، أسفار المكابيين (أربعة أسفار) ، سِفْر يهوديت ، سِفْر الكهنوت (أو سِفْر الحكمة ليسوع بن سيراخ) ، وتسبيحة الفتية الثلاثة ، سِفْر سوزان (سوزنة أو سوسنة) ، سِفْر بل والتنين ، ثلاثة أسفار منسوبة لعزرا زيادة على السِّفْر المثبت في الأصل العبري ، وبعض زيادات في سِفْر دانيال .

٢ـ الترجمة اللاتينية **Vulgate** (١) ، وترجمت عن التَّرْجَمَة السَّبْعِينِيَّة وأصبحت الفولجاتا اللاتينية التي قام بها جيروم هي نسخة الكتاب المقدس المقبولة في الكَنِيسَة الرومانية(٢) ، ولم تأت مطابقة للترجمة السَّبْعِينِيَّة كل المطابقة ، فقد اشتملت سفرين اثنين فقط للمكابين ، وحذف منها أسفار عزرا الثلاثة التي زيدت في السَّبْعِينِيَّة على الأصل العبري ، وزادت عليها بسفر باروخ .

والترجمتان السَّبْعِينِيَّة واللاتينية لا تنطبقان على هذا الأصل العبري تمام الانطباق(٣) .

(تلخيص لترجمات العهد القديم):

الترجمة	مصدر لغة الترجمة	عدد أسفارها	ملحوظات
السبعينية اليونانية	العبرية	٣٩ + ١٤	أقدم ترجمة
اللاتينية	الترجمة السبعينية	٣٩ + ١٠ (٤)	لا تنطبق التَّرْجَمَة السَّبْعِينِيَّة واللاتينية على الأصل العبري تمام الانطباق

إيمان الطوائف المختلفة بعدد أسفار العهد القديم :

---

(١) قام بترجمتها القديس جيروم في القرن الرابع الميلادي .

(٢) دائرة المعارف الكتابية ، ١/ ٣٥٠

(٣) د.علي عبد الواحد وافي : اليهود واليهودية ، ص ٢١

(٤) هي : طوبيا ، الحكمة لسليمان ، سفران من المكابيين ، يهوديت ، سِفْر الحكمة ليسوع بن سراخ ، تسبيحة الفتية الثلاثة ، سوزانة ، بل والتنين ، باروخ.

الطائفة	عدد أسفار العهد القديم	ملحوظات
اليهود	٣٩	لا يؤمنون بما زاد على ٣٩
الكاثوليك	٣٩ + ١٤	
البروتستانت	٣٩	

ونلاحظ أَنَّ الكَنِيسَة الكاثوليكية المَسِيْحِيَّة تُقِرُّ بجميع الأسفار والأجزاء التي تزيد بها التَّرْجَمَة اللاتينية عن الأصل العبري ، واعتبرتها كلها أسفارًا وأجزاء مقدسة واعتبرتها من أسفار العهد القديم وأجزائه ، ولكن معظم البروتستانت من المسيحيين لا يعتبرون هذه الزيادات مقدسة ولا يعتبرونها من العهد القديم.

واليهود أنفسهم يُدْخِلُون في القسم الذي يسمونه « الأسفار الخفية Apocrypha » **جميع ما تزيد به الترجمتان عن الأصل العبري من أسفار وأجزاء** ، والأسفار الخفية الأبوكريفية عندهم لا يدخل شَيْء منها في العهد القديم ، ولكن بعضها يمكن أن يكون مقدسًا في نظرهم .

وينبغي أن نؤكد هنا على : أنَّ « الكتاب المقدس هو مجموع أسفار العهدين القديم والجديد **التي تؤمن الكَنِيسَة المَسِيْحِيَّة بأنَّها موحًى بها من الله ، إعلانًا عن نفسه وعن مقاصده من نحو البشر** »[(١)] . فالمسيحية تعتبر العهد القديم جزءًا من كتابها المقدس وتؤمن بذلك .

بعد هذا التلخيص يمكن أن نوجه سهام النقد للتوراة الحالية والعهد القديم ، ونبين الأسباب التي تجعلنا نرفض هذا الدِّيْن كما يلي :

- **موسى لم يكتب التوراة الحالية أو أيًا من أسفار العهد القديم :**

أهم أسفار العهد القديم هي أسفار القسم الأول أسفار موسى الخمسة **The Pentateuch** التي ينسبها اليهود إلى موسى ، ويعتقدون أَنَّها بوحي من الله ، وَأَنَّها تتضمن التوراة ، ولكن الباحثين والمحققين من العلماء ينفون هذه النسبة ، وينفون أن يكون موسى ـ عليه السلام ـ هو من كتب هذه التوراة ، أو أي سِفْر من أسفار

(١) دائرة المعارف الكتابية ، ٦/ ٣١٣

العهد القديم :

⇦ يقول الدكتور علي عبد الواحد وافي: « ظهر للمُحْدَثِين من الباحثين من ملاحظة اللغات والأساليب التي كُتبت بها هذه الأسفار ، وما تشتمل عليه من موضوعات وأحكام وتشاريع ، والبيئات الاجتماعية والسياسية التي تنعكس فيها ، ظهر لهم من ملاحظة هذا كله أَنَّها ألفت في عصور لاحقة لعصر موسى بأمد غير قصير (يقع عصر موسى على الأرجح حوالي القرن الرابع عشر أو الثالث عشر قبل الميلاد) ، وأن معظم سفري التكوين والخروج قد ألف حوالي القرن التاسع قبل الميلاد (؛ أي : بعد موسى بنحو خمسة قرون أو ستة قرون) ، وأن سِفْر التثنية قد ألف في أواخر القرن السابع قبل الميلاد ، وأن سفري العدد واللاويين قد ألفا في القرن الخامس والرابع قبل الميلاد ؛ أي : بعد النفي البابلي (وهو إجلاء بني إسرائيل إلى بابل سنة ٥٨٧ قبل الميلاد) ، وَأَنَّهَا **جميعها مكتوبة بأقلام اليهود** ، وتتمثل فيها عقائد وشرائع مختلفة تعكس الأفكار والنظم المتعددة التي كانت سائدة لديهم في مختلف أدوار تاريخهم الطويل ... فهي إذن تختلف كل الاختلاف عن التوراة التي يذكر القُرْآن أَنَّها كتاب سماوي مقدس ، أنزله على موسى ، وإلى هذا يشير القُرْآن إذ يقول : ﴿**فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ**﴾ البقرة: ٧٩... ؛ **أي إنَّ هذه التوراة المزعومة ملطخة بسواد التحريف والتغيير** »[(١)] .

⇦ ويقول د. وافي أَيْضًا : « وعلى أساس هذه التحقيقات الحديثة نفسها يرجح الباحثون أنَّ قسمًا من الأسفار الأخرى للعهد القديم قد ألف في الفترة الواقعة بين النصف الأخير من القرن التاسع وأوائل السادس قبل الميلاد ، ويشمل هذا القسم أسفار يوشع والقضاة وصموئيل والملوك والأمثال ونشيد الأناشيد ومعظم أسفار الأنبياء ، وأنَّ قسمًا آخر منها قد ألف في الفترة الواقعة بين أوائل

---

(١) اليهود واليهودية ، ص ١٤ ، ١٥

القرن السادس وأواخر القرن الرابع قبل الميلاد ، ويشمل هذا القسم أسفار يونس وزكريا وقسمًا من سفردانيال »[(١)] .

- وينقل الأستاذ عبد الرحمن صدقي عن المحقق الألماني جوهان جود فريد هردر **Johann Gottfried Herder** ـ أستاذ الشاعر الألماني جوتة ـ قوله في صحة نسبة سِفْر « أيوب » إلى موسى فيقول : « إنَّ موسى عندي شاعر عظيم ، ولكن القول بأنه مؤلف سِفْر أيوب كالقول بأن سليمان مؤلف الإلياذة ، ويمكنني القول دون مفاخرة أني درست في إمعان طابع الأشعار العبرانية كلها ، وأدخلت في حسابي الأحوال المتغيرة والسنين المتعاقبة ، ومع ذلك ظل الفارق بين أسفار موسى وسفر أيوب كالمسافة بين المغرب والمشرق ؛ وذلك أَنَّ الشعر الموسوي حتى في رفيع المقطوعات لا يخلو من ليونة ونعومة ، بخلاف الشعر في سِفْر أيوب ، فهو جامع في إيجازه البليغ ، زاخر بمعناه العميق ، فيه قوة وبطولة ، منيف على الذروة العليا من العبارة والخيال ، تشهد أفكاره في حدود جملته وفي تقاطيع تفصيله على أَنَّهُ نسيج وحده ، فلم تكرر قوالبه ومعانيه في غيره من أسفار العبرانيين كما هو الشأن في هذه الأسفار ؛ مما يقطع بأنَّ صاحبه عربي من مشايخ القبائل ذوي الثراء ، وأنَّه من الأدوميين في الحدود بين العبرانيين والعرب الجاهليين »[(٢)] .

- وفي مقال مهم للأستاذ طارق الحجي نشر في مجلة العربي الكويتية ، العدد ٤١٤ بعنوان « اليهودية في ضوء العِلْم » ، ص ٨٤ ، قال فيه : « تَجدر الإشارة إلى أَنَّ الأَدِلَّة العِلْمِيَّة اليوم تكشف لنا أَنَّ اليهودية ظهرت في بابل خلال القرن السادس قبل الميلاد على يد جماعة من كهنة اليهود الذين لا علاقة لهم بالأنبياء الموحدين ، سواء إبراهيم أو أحد من ذريته ، أو موسى وأتباعه ، لا من ناحية

(١) السابق ، ص ١٧

(٢) الشرق والإسلام في أدب جوته ، المكتبة الثَّقافِيَّة (١٠) ، دار القلم ، القاهرة ، (بدون تاريخ للطبعة) ، ص١٢

العرق والأصل ، ولا من ناحية العقيدة والدِّيْن ، والحقيقة هي أن أولئك الكهنة قاموا بأكبر عملية تزوير في التَّاريخ عند تدوين توراتهم المزيفة ، التي هي مصدر العقيدة اليهودية ، والتي لا علاقة لسيدنا موسى بها ، وبأباطيلها المضللة » .

⇦ ويذكر ستيفن ميلر : « وظل الاعتقاد على مدى قرون أن موسى هو الذي كتب الأسفار الخمسة ، وكثيرًا ما كان يشار إليها باسم : أسفار موسى الخمسة . غير أَنَّ العلماء يعتقدون الآن أَنَّ الأسفار الخمسة لم يتم كتابتها إلا بعد زمن موسى بفترة طويلة ، وَأَنَّهَا عمل العديد من الكتبة . وهذه الفكرة ليست جديدة تمامًا ، فمنذ عصور مبكرة كان الظن أَنَّهُ وإن كان موسى هو بالتأكيد الروح الملهم وراء هذه النصوص ، إلا أَنَّهُ لم يكتبها هو شخصيًّا » (١) .

⇦ ويشير ول ديورنت عن « سِفْر دانيال » : « ... وكان كتاب دانيال الذي كتب في عام ١٦٥ ق . م ليشجع إسرائيل على الوقوف في وجه أنتيخس إبفانيس ، لا يزال ذائعًا بين اليهود الذين لم يكونوا يعتقدون أن يهوه سيتركهم طويلًا تحت سيطرة الوثنيين ، واتخذ كتاب أخنوخ ، وهو في أكبر الظن من عمل عدة مؤلفين بين عامي ١٧٠ ، ٦٦ ق .م صورة رؤى نزلت على الأب الأكبر » (٢) .

- **عدم دقة التَّرْجَمَة السَّبْعينيَّة :**

من الأمور التي تطعن في العهد القديم الحقيقة التي تُقِرُّ بأن التَّرْجَمَة السَّبْعِينِيَّة التي ترجمت عن العبرية **كانت تَرْجَمَة غير دقيقة** ، والمصدر الذي يشير إلى عدم هذه الدِّقَّة هو « **دائرة المعارف الكِتابِيَّة** » نفسها ، إذ تقول في ٢/ ٣٥٠ تحت مادة (التَّرْجَمَة السَّبْعِينِيَّة): «..أما **الأسفار التاريخية ففيها الكثير من عدم الدِّقَّة والالتزام بالنصوص** وبخاصة في الملوك الثاني ، كما لا تظهر روعة الشعر العِبري في التَّرْجَمَة السَّبْعِينِيَّة، لا

(١) ستيفن م. ميلر ، وروبرت ف. هوبر: تاريخ الكتاب المقدس منذ التكوين وحتى اليوم ، ترجمة: وليم وهبة ، دار الثقافة ، القاهرة ، ط١ ، (٢٠٠٨م) ، ص ٢٩

(٢) قِصَّة الحَضَارَةِ ، المجلد ٦، ١١/ ١٨٠

لنقص في الدِّقَّة فحسب ، بل أَيْضًا لمحاولة التَّرْجَمَة الحرفية. كل ذلك يدل على **أنَّ مَن قاموا بالترجمة لم يكونوا متمكنين من ناصية العِبرية ، أو أَنَّهُمْ لم يراعوا الدِّقَّة ، أو لم يبذلوا الجهد الكافي في تحري المعاني ، وهكذا لا تسير التَّرْجَمَة في سائر الأسفار على وتيرة واحدة ، ففيها الكثير من الأخطاء الناتجة عن التهاون أو الملل أو الجهل** » .

وتقول دائرة المعارف الكتابية ٢/ ٣٥١ أَيْضًا : « عندما أصبحت التَّرْجَمَة السَّبْعِينِيَّة عنصرًا من عناصر الجدل بين المَسِيْحِيَّة واليهود ، **وظهرت بعض الاختلافات بين التَّرْجَمَة السَّبْعِينِيَّة والنصوص العبرية التي كانت متداولة بين اليهود كان لا بد من محاولة تزويد اليهود المتكلمين باليونانية بترجمة دقيقة** » .

ويترتب على هذا الاعتراف الخطير أَيْضًا عدم **دقة تَرْجَمَة الفولجاتا اللاتينية** ؛ إذا إنها معتمدة على التَّرْجَمَة السَّبْعِينِيَّة .

- **عدم الاتفاق على أسفار العهد القديم** :

من خلال النبذة التاريخية التي قدمناها نجد أَنَّهُ لا يوجد اتفاق بين ترجمات العهد القديم على أسفار العهد القديم :

- فالترجمة اليونانية (السَّبْعِينِيَّة) تزيد على الأصل العبري الذي وصل إلينا بأربعةَ عشرَ سِفْرًا .
- والترجمة اللاتينية تختلف عن اليونانية في اشتمالها على سفرين اثنين فقط للمكابين ، وحذف منها أسفار عزرا الثلاثة التي زيدت في السَّبْعِينِيَّة على الأصل العبري ، وزادت عليها بسفر باروخ .
- والترجمتان لا تنطبقان على الأصل العبري تمام الانطباق .
- الكنيسة الكاثوليكية تقر أن جميع الأسفار التي تزيد بها التَّرْجَمَة اللاتينية عن الأصل العبري كلها مقدسة ومن أجزاء العهد القديم .
- والكنيسة البروتستانتية لا تعتبر هذه الزيادات مقدسة ولا تعتبرها من العهد القديم .
- واليهود يعتبرون ما تزيد به التَّرْجَمَة اليونانية واللاتينية لا يدخل في العهد

القديم ، ويدخلونها تحت اسم الأسفار الخفية ، وبعض هذه الزيادات يمكن أن يكون مقدسًا في نظرهم .

- **تحريفات وتناقضات في التوراة والعهد القديم :**

بالإضافة إلى عدم دِقَّة ترجمات العهد القديم ومجهوليَّة كُتَّابه ، وعدم الاتفاق على عدد معين لأسفاره ، نجد تحريفات وتناقضات تطال هذا العهد.

فقد امتلأ العهد القديم بكثير من التحريفات والمتناقضات ، تبدو لكل عين باصرة ذات بصيرة ، وقد أشار إلى ذلك كثير من الباحثين ، منهم الدكتور الفرنسي موريس بوكاي ، إذ يؤكد في كتابه المهم « القُرْآن والتوراة والإنجيل والعلم » : « أَنَّ التوراة اليهودية تناقض الحقائق العِلْمِيَّة والتاريخية ، وتتعارض معها ، فهو يقول بكل صراحة : إنَّ التوراة تحتوي على أخطاء ذات طابع تاريخي . ثم يُضيف في موضع آخر أَنَّهُ لاحظ في الأسفار اليهودية أخطاء تاريخية ، وأمورًا متناقضة غير معقولة ، أو يستحيل أن تتفق مع المعطيات العِلْمِيَّة الثابتة . ويشير إلى أَنَّهُ وجد في نصوصها تناقضًا حتى في الموضوع الواحد ، ويؤكد مثلا أَنَّ المعلومات الواردة سِفْر التكوين عن بداية خلق الكون والإنسان تتنافى مع الحقائق العِلْمِيَّة وتناقضها »[(١)] .

ومن أمثلة هذه التحريفات والتناقضات :

(١) قِصَّة سوزانة ـ أو سوسنة :

من أمثلة التحريفات (التحريف بالزيادة) هذه القصة ، وعنها يقول ول ديورنت: « وخلاصة هذه القصة أنَّ كبيرين تنقصهما المعرفة التامَّة اتهما زورًا فتاة يهودية جميلة بسوء السيرة ، وَأَنَّهَا بُرِّئَت بفضل براعة شاب يُدعى دانيال في مناقشة الشهود ، **وقد وجدت هذه القصة طريقها إلى بعض طبعات سِفْر دانيال** »[(١)] .

وجملة ديورنت الأخيرة في هذا الاقتباس تدل على أَنَّ القصة ليست في

---

(١) نقلا عن مقال : اليهودية في ضوء العِلْم ، مجلة العربي الكويتية ، العدد ٤١٤، مايو ١٩٩٣م ، ص ٨٨

(١) السابق ، المجلد ٦، ١١/ ١٧٩

المخطوطات الأصلية للتوراة ، وَأَنَّهَا أضيفت في بعض الطبعات لاحقًا .

وجاء في قاموس الكتاب المقدس تحت عنوان (سُوسَنَّة) : « وقد أُطلِقَ هذا الاسم على أحد كتب الأبوكريفا ، وهو الجزء الذي أضيف إلى سِفْر دانيال »[(١)] .

(٢) ميكال بنت شاول :

ومن أمثلة التناقضات في العهد القديم حديثه عن « ميكال بنت شاول » ، حيث يذكر سِفْر صموئيل الثاني ، الإصحاح ٦ ، فقرة ٢٣ قوله : « ولم يكن لميكال بنت شاول ولدٌ إلى يوم موتها » ، ثم نجد في نفس السِّفْر صموئيل الثاني ، الإصحاح ٢١ ، الفقرة ٨ أن لها أولادًا ، يقول : « فأخذ المَلِك ابني رِصفةَ ابنة أيَّةَ الذين ولدتهما لشاول أرموني ومفيبوشث وبني ميكال ابنة شاول الخمسة الذين ولدتهم لعدرئيل ابن برزلاي المحولي وسلمهم إلى يد الجبعونيين ؛ فصلبوهم على الجبل أمام الرب ».

وتعترف دائرة المعارف الكتابية ضمنيًّا بهذا الخطأ ، فتقول تحت عنوان « ميرب » : « اسم عبري قد يعني : يربو ؛ أي : يزيد ، وهو اسم ابنة شاول الملك الكبرى ... ولكن عوضًا عن يعطيها شاول لداود ، أعطاها زوجةً لعدرئيل المحولي (١صم ١٨:١٩) ؛ فولدت خمسة أبناء ، أسلمهم داود ـ فيما بعد ـ ليد الجبعونيين »[(٢)] .

فالتي أنجبت الأولاد الخمسة هي ميرب زوجة عدرئيل المحولي وليست ميكال فميكال لم تنجب مطلقًا كما أكدت دائرة المعارف الكتابية فيما كتبته تحت اسمها.

- **المشاكل الأخلاقية في العهد القديم :**

مما يقدح في العهد القديم وفيما يحتويه اشتماله على ما يوجب القدح ، وهو اشتماله على مشاكل أخلاقية ما ينبغي له أن يحتويها ، ومما يزيد في فداحة هذه المشاكل أَنَّهَا تأتي ممن هم منوط بهم أن يكونوا مصدر الأخلاق الأنبياء ؛ إذ نجد التوراة تنسب لهم الزنا والكبائر وعظائم الأمور .

(١) قاموس الكتاب المقدس ، دار الثقافة ، القاهرة ، ط ١٠ ، (بدون تاريخ للطبعة) ، ص ٤٩٣

(٢) دائرة المعارف الكتابية ، دار الثقافة ، (بدون بيانات أخرى) ، ٧/ ٢٧٢

وأنا هنا أكتفي بمثال واحد مشهور ، هو زنا لوط ـ أحد أنبياء الله المكرمين ـ بابنتيه .

جاء في سفر التكوين ، الإصحاح ١٩ ، عدد ٣٠ : « وخافَ لُوطٌ أن يسكن في صُوغَر ؛ فصعدَ إلى الجبلِ ، وأقامَ بالمغارةِ هو وابنتاه.

فقالت الكُبرى للصغرى : شاخ أبونا ، **وما في الأرض رجلُ يتزوجنا على عادة أهل الأرض كلهم.** تعالي نسقي أبانا خمرًا ، **ونضاجعه ونقيمُ من أبينا نسلًا** . فسقتا أباهما خمرًا تلك الليلة ، وجاءت الكُبرى **وضاجعت أباها** ، وهو لا يَعلم بنيامها ولا قيامها.

وفي الغد قالت الكبرى للصغرى : ضاجعتُ البارحةَ أبي ، فلنسقه خمرًا الليلة أيضًا ، **وضاجعيه أنت لِنقيمَ من أبينا نسلًا** ؛ فسقتا أباهما خمرًا تلك الليلة أيضًا ، وقامت الصُّغرى وضاجعته ، وهو لا يعلمُ بنيامها ولا قيامها ؛ فحملت ابنتا لُوطٍ من أبيهما » .

وهذه القصة يُغني فسادُها عن إفسادها ، وتحمل في أطوائها ما يدل على كذبها ، ولنا مع ذلك عدة أسئلة :

١ـ الأنبياء صفوة البشر عقلًا وبدنًا وخبرة ، فهل يُعقَل أنَّ لوطًا لم يستطع أن يُميِّزَ بين مذاق الخمر ومذاق غيره ؟! وهل سَكِرَ بعد الجَرْعَة الأولى أم الثانية أم ...؟!

٢ـ فإنْ قلنا إِنَّهُ لم يُميِّز مذاق الخمر في المرة الأولى ، فكيف شربها في المرة الثانية ؟

٣ـ **هل يستطيع المخمور ـ طِبيًّا وعصبيًّا وفسيولوجيًّا ـ أن يقوم بعملية الجماع والمضاجعة ؟!**

٤ـ ماذا فعل لوط عندما علم بحمل بناته منه؟!

٥ـ كيف وصلت الخمر إلى ابنتي لوط ؟ وهما في مغارة الجبل ، ولا يوجد رجل واحد حولهما ؟

٦ـ كيف عرفت ابنة لوط الكبرى أَنَّهُ **ما في الأرض كلها رجلٌ يمكن أن**

يتزوجها ؟!

٧ـ كيف بلغ بالابنة الكبرى الجرأة أن تنزع عن أبيها ملابسه ثم ......؟!

- **علم الآثار الكتابي لا يدعم ما سجل العهد القديم :**

علم الآثار الكتابي **Biblical Archaeology** هو علمٌ يشير إلى **الفحص الأثري الذي يخدم ويضيء ويدعم ما سُجِّلَ في الكتاب المقدس** . ومنذ نشأته ونموه في القرن ١٩ ارتبط بدرجة كبيرة بتاريخ البحث والتنقيب في الأماكن التاريخية في فلسطين.

وقد أدَّى إدورد روبنسون **Edward Robinson** ـ عالم اللاهوت الأمريكي ذو الباع الكبير في الكتاب المقدس ـ دورًا مهمًا وأساسيًّا في بيان أَنَّ المعرفة بالأرض المقدسة ضروريةٌ لفهم أدب الكتاب المقدس **Biblical literature** .

ومن الأمور أو الملحوظات التي توصل إليها هذا العِلْم أَنَّهُ « في **بعض الأحيان يبدو الدليل الأثري مناقضًا لما هو مسجل في الكتاب المقدس** »[(١)] .

(ب) مُعَوِّقات تتعلق بالشخصية اليَهُودِيَّة نفسها :

إذا قلنا إن شخصية المُتَدَيِّن هي انعكاس للدين الذي يعتنقه أصبح لدينا معيارٌ نقيس إليه « جودة » هذا الدِّيْن ، ومدى صلاحيته لدنيا الناس ، فالشخص المُتَدَيِّن المتفائل المبتسم ، الذي يتعاون مع الناس ، ويحب الخير لهم ، ويُلقي عليهم السلام في كل وقت ، ويتصدق عليهم ... يدل بكل هذه السلوكيات على ما يتمتع به دينه بكل هذه الصفات والعكس بالعكس .

وإذا طبقنا هذا المعيار على اليَهُودِيَّة نجد مدى السلبية السلوكية ـ إن جاز هذا التعبير ـ التي تكمن في هذه الدِّيانَة المنغلقة على نفسها . وحتى لا أتجنى على القوم أنقل ما كتبه المؤرخ ول ديورنت عنهم ، إذ يقول : « ... وقد أثاروا بكثرة عددهم، ولباسهم، وطعامهم، وختانهم، وفقرهم، وطمعهم، ورخائهم، وعزلتهم، وذكائهم،

---

(١) **Lexicon Universal Encyclopedia, Lexicon Publications, Inc., New York, vol. 3,p.242** ونص المَوْسُوعَة في هذا الموضع : « **Sometimes the archacological evidence seems to contradict the biblical record** »

ونفورهم من الصور ، وتشددهم في مراعاة السبت رغم ما يسببه ذلك من العنت لهم، أثاروا بهذا كله حركة عداء للسامية تختلف من المزاح في الملاهي ، والسخرية بهم في أقوال جوفنال وتاستس ، إلى ذبحهم فرادى في الشوارع، وقتلهم زرافات في المذابح المدبَّرة »[١] .

تُرى : ما الذي يجعل أمةً من الناس تتعرض للذبح الفردي أو الجماعي ؟!! وتعرضهم لهذا الاضطهاد غير المسبوق في التَّاريخ ؟!!

لا بد أن هذا ناتجٌ عما يعتقدونه من معتقدات تحركهم من داخلهم .

ويحدثنا التَّاريخ عن أمر عجب عجاب ، يدل على مدى « الخبل العقلي » لهذه الدِّيانَة وأتباعها ؛ إذ نقرأ في صفحات التَّاريخ ما يقصه علينا ول ديورنت ؛ إذ يذكر أَنَّهُ بين عامي (١٤٢ ق .م ـ ٧٠ م) قامت لليهود دولة ثانية ، وبحلول عام ٧٨ ق.م ضمت هذه الدولة : السامرة وإدوم ومؤاب والجليل وإدوميا وما وراء نهر الأردن ... ووصل إلى حكم هذه الدولة ملكة تسمى « شالوم إسكندرة » ، عقدت الصلح مع الفريسيين ، لكنْ وَلَدَاها هركانس الثاني، وأرستبولس الثاني أخذا يتنازعان العرش قبل موتها، وعرضت الطائفتان أمرهما على بمبي ، وكان وقتئذ واقفًا على رأس فيالقه المنتصرة في دمشق (٦٣ ق. م)، فلما انتصر بمبي لهركانس تحصّن أرستبولس وجيشه في بيت المقدس ؛ فحاصر بمبي تلك العاصمة ، واستولى على أجزائها السفلى ؛ ولكن أتباع أرستبولس احتموا بأفنية الهيكل المسورة، وظلوا يقاومون بمبي ثلاثة أشهر. ويقول المؤرخون إنَّ تقواهم أعانت بمبي على هزيمتهم، فقد شاهد أَنَّهُمْ لا يحاربون في يوم سبتهم ؛ فأمر رجاله بأن يُعدوا في كل سبت الربا والكباش الهدّامة التي سيستخدمها في اليوم التالي ، ولم يكونوا يلقون مقاومة من اليهود في ذلك الاستعداد ، بل كان الكهنة يقضون يومهم في الهيكل يبتهلون ويُقربون القرابين كعادتهم في كل الأوقات. فلما أن تهدّمت الأسوار ذبح من اليهود اثني عشر ألفًا ، ولم يقاوم منهم إلا عدد قليل ، ولم ينجُ منهم أحد ، وقفز الكثيرون من فوق الأسوار فلاقوا حتفهم . وأمر بمبي رجاله بألا يمسّوا ما في الهيكل من

(١) قِصَّة الحَضَارَةِ ، المجلد ٦ ، ١١/ ١٩١

كنوز، ولكنه فرض على الأمّة اليَهُودِيَّة غرامة قدرها عشرة آلاف وزنة (٣.٦٠٠.٠٠٠ ريال أمريكي)، ونقلت المُدن التي كان الهسمونيون قد فتحوها من حكم اليهود إلى حكم الرومان ، ونصب سركانس الثاني حاخامًا أعظم ، وحاكمًا بالاسم على بلاد اليهود ، ولكنه كان في حراسة أنتباتر الإيدوميني الذي أعان روما في هذه الحرب. وهكذا قضى على المملكة المستقلة وأصبحت بلاد اليهود جزءًا من ولاية سوريا الرُّومَانِيَّة (١) .

لقد ترك اليهود القتال ، وتركوا العدو يجهز الأسلحة التي يفتكهم بها ؛ فكانت النتيجة ذبحَ اثني عشر ألفًا منهم . فأي دِيْن يسمح بهذا ؟ بل أي عقل وأي منطق؟!(٢) .

ولم يكن تسجيل الجوانب السلبية لليهود واليهودية مقصورًا فقط على المؤرخين بل تعدى هذا التسجيل للأدباء والشعراء ، فنجد أديب الإنجليزية الأشهر وليم شكسبير يُصدِّق على سلبيات هذه الشخصية من خلال رسمه لشخصية « شيلوك » المرابي الحاقد ، في مسرحيته الخالدة « تاجر البندقية » ، وفي مقدمة ضافية ينقل لنا د. مُحَمَّد عناني في مقدمة ترجمته لهذه المسرحية آراء النقاد في هذه الشخصية ، فينقل رأي الناقد « كريستوفر باري » الذي يقول : « وكانت شرور اليهود مألوفة لجمهور شيكسبير ، مع أَنَّهُ لم يكن يعيش في انجلترا وقت كتابة المسرحية ـ بين منتصف عام ١٥٩٦م ومنتصف عام ١٥٩٨م ـ إلا عدد جد قليل من اليهود ؛ إذ إن الملك إدوارد الأول كان قد طردهم رسميًّا من البلاد عام ١١٩٠م ، ولكن بضع مئات من اليهود (من أصل أسباني أو برتغالي) كانوا يعيشون في لندن ويعتنقون الدِّيْن المسيحي اعتناقًا اسميًّا لتفادي الوقوع تحت طائلة قوانين الإقامة »(١) .

---

(١) السابق ، المجلد ٦ ، ١١/ ١٦٢

(٢) مما هو شبيه بهذا في وقتنا الحالي رفض طائفة « **الحريديم** » القتال في غزة ، بعد أن أباد إخواننا في حماس وكتائب القسام وسرايا القدس معظم الجيش الإسرائيلي ، ودمروا معظم آلياته.

(١) وليم شكسبير : تاجر البندقية ، تَرْجَمَة : مُحَمَّد عناني ، مكتبة الأسرة ـ الهيئة العامة المصرية للكتاب ، القاهرة ، ط١ ، (٢٠٠٢م) ، ص ٦٢

وقد حاول بعض اليهود ترك اليهودية والدخول في المَسِيْحِيَّة ، لكنْ الأوربيون لم يثقوا فيمن فعلوا ذلك ، « وقد صدرت في أوربا كتب كثيرة ، وهي قوائم بأسماء اليهود المتنصرين في كل بلد ، وظهور هذه الكتب دليل على أَنَّ الأوربيين لا يثقون كثيرًا في تنصر اليهود ، ولذلك فهم يصرون على ألا يختفوا عن أعينهم ، وأشهر هذه الكتب ـ أو أَدِلَّة اليهود ـ هو الدليل المعروف بالسيمي جو **Semi-Gotha** ، وهو دليل بأسماء اليهود المتنصرين ، نشر في مدينة جوتا في ألمانيا في القرن السادس عشر ثم أعيد نشره مرارًا »(١) .

(ت) المردود الحضاري لليهودية :

من أَدِلَّة عظمة الدِّيْن ـ أي دِيْن ـ المردود الحضاري الذي يُخلفه على الحضارة والمدنية والمجتمعات المختلفة ، والتقدم العِلْمِيّ الذي يدفع تلك المجتمعات إلى الأمام .

إذا قمنا بتطبيق هذا المعيار على اليَهُودِيَّة نجد أَنَّها لم تُخلف وراءها أي شَيْء يُفيدُ البشرية ، أو ينفعها ، بل تركت شَرًّا مستطيرًا ، وأذًى طال الجميع ، يقول ول ديورنت : « ولاذ كثير من اليهود ، لا سيما في بولندة ، بأسباب العزاء فوق الطبيعي هربًا من معاناتهم الأرضية. وأتلف بعضهم بصرهم بإدمان قراءة التلمود ، وفقدَ بعضُهم عقولهم في القبلانية ، وظل بعض « الصبطائيين » يؤمنون بألوهية صبطاي زيفي رغم ارتداد هذا المسيح الكاذب وموته ، وانصرفوا عن اليهودية التلمودية إلى الآمال والطقوس المهرطقة ... وما كان لحياة مطاردة على الأرض على هذا النحو، ونفوس مثبتة في السَّماء إلى هذا الحد ، **أن تسهم بقسط كبير في الأدب الدنيوي أو العِلْم أو الفلسفة** . وكان اليهود في كل بلد تقريبًا ممنوعين من الالتحاق بالجامعات بحكم القسم بالولاء للعقيدة المَسِيْحِيَّة المشترط على جميع الطلاب. **ثم أن ناموس موسى حرم عليهم ممارسة فن التصوير وبَلَّدَ تذوقَهم الفني**. وإذ كانوا يكتبون

(١) حسين مؤنس : كيف نفهم اليهود؟ ، دار المعارف ـ سلسلة كتابك ، القاهرة ، ص ٢١، ٢٢

بالعِبرية التي لا تفهمها غير قلة قليلة، أو باليدية التي لم تكن بعد قد أصبحت لغة أدبية، **فقد افتقدوا الحافز لإنتاج أي أدب خلاف الشروح الدينية أو السفاسف الشعبية**. وثمة إسهام بارز واحد أسهموا به في الفنون العملية في هذا العصر: فقد اخترع يعقوب رودريج بيرير، وهو أحد يهود بوردو، لغة إشارات للصم والبكم ، فأثنى عليه ديدرو ودالامبير وروسو وبوفون. ثم شاعر يهودي واحد أنار هذه الظلمة »[(١)] .

(ث) شهادة كبار أدباء اليهود على اليَهُودِيَّة :

تمثل شهادة كبار الأدباء على اليَهُودِيَّة شهادة معتبرة ، تُؤخَذ بعين الاعتبار ، ومن هؤلاء الأديب مندلسون ، فقد نال هذا الأديب الثناء العاطر من المسيحيين على اختلاف مذاهبهم ، فقد « أشاد المسيحيون على اختلاف مذاهبهم باليهودي البليغ، والتمس منه راهبان بندكتيان النصيحة الروحية. ولكن في ١٧٦٩ آثار لافاتر، الذي كان لاهوتيًا غيورًا كما كان عالمًا في الفراسة ، ضجة بتوجيهه نداءًا علنيًا لمندلسون أن يدخل في المسيحية. ورد مندلسون في (١٧٧٠) **فسَلَّمَ بعيوب الدِّيانَة اليَهُودِيَّة والحياة اليهودية**. ولكنه ذكر أن عيوبًا كهذه تنشأ في كل دِيانَة في أثناء تاريخها ، وطلب إلى لافاتر أن يفكر في الشدائد التي عاناها اليهود في الأقطار المسيحية، ثم أضاف : إن الذي يلم بها نحن عليه الآن من حال، إن كان له قلب رحيم، سيفهم أكثر مما في وسعي التعبير عنه. واختتم بهذه العبارة : إنني لوطيد الثقة بالعناصر الأساسية في إيماني ... بحيث أشهد الله على أنني سأثبت على عقيدتي الأصلية ما لم تتخذ روحي طبيعة أخرى . وتأثر لافاتر، واعتذر بتواضع عن توجيهه هذا النداء . ولكن نفرًا كبيرًا من المعلقين شهروا **بمندلسون متهمينه بالكفر، وأدانه بعض اليهود السنين لتسليمه بأن هناك نقائض تسلك إلى الشعائر اليَهُودِيَّة »**[(١)] .

*****

(١) قِصَّة الحَضَارَةِ ، ٤١/ ٣٧٧

(١) السابق ، ٤١/ ٣٨١

٢) لماذا لا نقْبَل المَسِيْحِيَّة دِيْنًا ؟

المسيحية من أكثر الأديان أتباعًا على وجه المعمورة ، ومن يؤمنون بها أكثر المؤمنين دعوة لدينهم ، فهم يسعون جاهدين لنشر دينهم ، وتنصير غيرهم ، وتشهد حملاتُ التنصير التي تُرسَل لكافة بقاع الأرض على ذلك.

والمنصرون لهم أساليبهم التي يُغرون بها الفقراء والجهلاء لاتباع دينهم ، بل بلغت بهم الجرأة ببعضهم إلى أن خرج على وسائل الإعلام والقنوات الفضائية يسب الإِسْلامَ ، ونبيَّ الإِسْلام ﷺ ، والمسلمين جَهارًا نهارًا .

والمرء مع هذه الحملات والدعايات قد يَظُن أنَّ في هذا الدِّيْن بعض الحق ، وأن فيه شَيْئًا يمتاز به عن الإِسْلام ، وذلك غير صحيح ، فهذا الدِّيْن باطل كل البطلان ، ولا يقوم إلا على الأوهام ، يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شَيْئًا .

وحتى لا يكون الكلام عاطفيًّا مرسلًا بلا أَدِلَّة سنقدم الأَدِلَّة والأسباب التي تجعلنا نرفض هذا الدِّيْن .

وقبل سرد هذه الأَدِلَّة نقدم جدولًا بمحتويات الكتاب المقدس ؛ حتى يَسْهُلَ علينا متابعة ما نقوله.

الكتاب المقدس (**Christian Bible**) الذي يؤمن به المسيحيون ينقسم إلى قسمين :

أ- العهد القديم ، وقد قدمنا جدولًا بمحتويات هذا العهد سابقًا ، في بداية الحديث عن اليهودية.

ب- العهد الجديد ، وأهم محتوياته يمثلها الجدول الآتي [١] :

---

(١) نعتمد في ذلك على دائرة المعارف الأمريكية (**Lexicon Universal Encyclopedia**) المجلد٣ ، ص ٢٤٠ ، تحت مادة (**Bible**)

أسفار العهد الجديد	
(١) إنجيل متى Mattew .	(١٥) الرسالة الأولى أهل إلى تيموثاوس 1Timothy .
(٢) إنجيل مرقس Mark .	(١٦) الرسالة الثانية أهل إلى تيموثاوس 2Timothy
(٣) إنجيل لوقا Luke .	(١٧) رسالة إلى تيطس Titus .
(٤) إنجيل يوحنا John .	(١٨) رسالة إلى فليمون Philemon .
(٥) أعمال الرسل The Acts .	(١٩) رسالة إلى العبرانيين Hebrews .
(٦) رسالة إلى أهل رومية Romans .	(٢٠) رسالة يعقوب James .
(٧) الرسالة الأولى أهل كورنثوس 1 Corinthians .	(٢١) رسالة بطرس الأولى 1Peter .
(٨) الرسالة الثانية أهل كورنثوس 2Corinthians	(٢٢) رسالة بطرس الثانية 2Peter
(٩) رسالة إلى أهل غلاطية Galatians .	(٢٣) رسالة يوحنا الأولى 1John .
(١٠) رسالة إلى أهل أفسس Ephesians .	(٢٤) رسالة يوحنا الثانية 2John
(١١) رسالة إلى أهل فيلبي Philippians .	(٢٥) رسالة يوحنا الثالثة 3John
(١٢) رسالة إلى أهل كولوسي Colossians .	(٢٦) رسالة يهوذا Juda .
(١٣) الرسالة الأولى إلى أهل تسالونيكي 1Thessalonians	(٢٧) رؤيا يوحنا Revelation
(١٤) الرسالة الثانية إلى أهل تسالونيكي 2Thessalonians	
ملحوظة : على الرغم من أن تدوين الأناجيل محل جدال ومناقشات ، فإن الرأي الشائع يُرجِع تاريخ كتابة إنجيل مرقس إلى الفترة ما بين ٦٨ ـ ٧٢م ، وإنجيل متى ولوقا إلى ٨٥ م ، وإنجيل يوحنا إلى ٩٥ ـ ١٠٠ م	

ومجموع ما يضمه الجدولان (جدول العهد القديم و جدول العهد الجديد) ٣٩+ ٢٧ = ٦٦ سِفرًا.

ونلاحظ أن هذا العدد ليس هو ما تؤمن به الطوائف المَسِيْحِيَّة ، كما تشير إلى ذلك دائرة المعارف الكتابية .

والجدول الآتي يلخص هذه الأعداد :

م	اسم الطائفة	عدد أسفار الكتاب المقدس عندها
(١)	الأرثوذكس	٧٣ سفرًا
(٢)	الكاثوليك	٧٣ سفرًا
(٣)	البروتستنت	٦٦ سفرًا
(٤)	الكنيسة الحبشية الأرثوذكسية	٨١ سِفرًا (٤٦ عهد قديم٣٥ عهد جديد).

بعد هذا التقديم نبدأ بعرض الأسباب التي تجعلنا نرفض المَسِيْحِيَّة دينًا.

(١) الكتاب المقدس وعدد أسفاره ومجهولية كُتَّابه :

من خلال الجدولين السابقين نلاحظ أَنَّ الطوائف المَسِيْحِيَّة لم تتفق على عدد أسفار الكتاب المقدس ، وهذا ما تذكره دائرة المعارف الكتابية (٦/ ٣١٤) ، إذ تنص على الآتي : « وَتَضُمُّ الكَنِيسَةُ الكاثوليكية وبعضُ الكنائس التقليدية الأخرى إلى هذه الأسفار في العهد القديم معظم الأسفار الأبوكريفية ، وهي : طوبيا ، يهوديت ، الحكمة ، حكمة يشوع بن سيراخ ، باروخ ، والمكابيين الأول والثاني ، وبعض إضافات لسفري أستير ودانيال ، وهي الأسفار التي ألحقتها التَّرْجَمَة السَّبْعِينِيَّة بالعهد القديم ، أما كنيسة إنجلترا فمثلها مثل الكَنِيسَة اللوثرية تتبع جيروم (في الفولجاتا اللاتينية) في اعتبار هذه الأسفار الأبوكريفية أسفارًا يمكن أن تُقرَأَ باعتبارها نماذج للسلوك في الحياة ، ولكن يجب ألا تكون أساسًا لأي تعليم مسيحي ، ويضم الكتاب المقدس الأثيوبي أَيْضًا السفرين الأبوكريفيين: أخنوخ الأول، وسفر اليوبيلات » .

وهذا الاختلاف يثير الأَسْئِلَة الآتية : أيًّا من هذه الطوائف هو الصواب ؟ وأيًّا منها هو الخطأ ؟ وكيف ينظر البروتستانتي الذي يؤمن بـ ٦٦ سِفْرًا للكاثوليكي والأرثوزكسي اللذين يؤمنان بـ ٧٣ سِفْرًا ؟ أو كيف ينظر الأرثوذكسي والكاثوليكي والبروتستانتي للمسيحي الحبشي الأرثوذكسي الذي يؤمن بـ ٨١ سِفْرًا؟ وإذا أراد شخصٌ أن يعتنق هذا الدِّيْن فبأي هذه الطوائف يؤمن؟!!

ومن المفاجآت التي تزيد الأمور تعقيدًا من حيث عدد أسفار الكتاب المقدس ، ويطرح مزيدًا من الأَسْئِلَة ما يذكره علماء المَسِيْحِيَّة أنفسهم من أَنَّ هناك أَسْفارًا أخرى ورد أسماؤها في العهد القديم والجديد ؛ إذ يؤكد العلماء أَنَّهُ يوجد ٣٩ سِفْرًا في العهد القديم الحالي ، « كما يوجد ٢٣ سِفْرًا آخرين ، كلها وردت أسماؤها في العهد القديم ، **ولكنها غير موجودة ، نستطيع أن نقرأ مقتطفات من سفرين من هذه الأسفار ؛ لأن الكتاب المقدس يقتبسها منها ، ولكننا لا نستطيع أن نقرأ هذه الأسفار نفسها لأنها لم**

تبق » [1] .

والحال كذلك ينطبق على أسفار العهد الجديد الحالية ، فهي تدل على أَنَّهُ « **ليست جميع الأسفار التي تنتمي للعهد الجديد موجودة به** ، على الأقل حسبما كان يرى بعضُ قادة الكَنِيسَة في العصر الأول . ومع أن كتابات مسيحية كثيرة لم ترد في العهد الجديد فإن البعض دافعوا عنها دفاعًا شديدًا ، **وبعض قادة الكَنِيسَة المشهورين مثل إيريناوس وترتليان وأريجانوس أصروا على أن بعض الأسفار المفقودة كانت تستحق الاحترام والطاعة ، مثل سائر أسفار الكتاب المقدس** » [2] .

هذا الاعتراف الخطير جدًا يثير أسئلة أخرى :

(١) أين هذه الأسفار ؟

(٢) هل حذفت عن عمد ؟! أم سقطت سهوًا ؟!

(٣) وإذا حذفت عمدًا ، فلماذا حذفت ؟ ومَنْ الذي يملك حق الحذف ؟

(٤) وهل الذي حذفها حذفها بوحي من الروح القدس ؟!

(٥) وكيف تم هذا الحذف ؟!

هذا الحذف الذي لا نعلم سببه لهو صفعة قوية لمن يدعي أن كتبة هذا الكلام إنما يكتبونه بتأييد من الروح القدس .

- **عدد الأناجيل ومجهولية من كتبها ومجهولية من كتب بقية أجزاء العهد الجديد** :

ذكرنا في الجدول السابق أن مكونات العهد الجديد تشمل أربعة أناجيل . فهل كانت هذه الأناجيل هي الوحيدة الموجودة أم وجدت غيرها ؟

من الإشارات التاريخية المهمة التي يشير إليها المؤرخون الثقات أن « الأربعة الأناجيل التي وصلت إلينا **هي البقية الباقية من عدد أكبر منها كثيرًا ، كانت في وقت**

(١) ستيفن م. ميلر ـ روبرت ف هوبر : تاريخ الكتاب المقدس ، تَرْجَمَة وليم وهبة ، القاهرة ، ط١ (٢٠٠٨م) ، ص ٤٢ ، ومن الأمثلة التي ذكرها هذا المصدر تحت عنوان : الأسفار المفقودة من الكتاب المقدس سِفْر ياشر .

(٢) السابق ، ص ٩٨ ، ومن الأمثلة التي ذكرها هذا المصدر راعي هرماس .

ما منتشرة بين المسحيين في القرنين الأول والثاني »(١) .

وتحدثنا المصادر التاريخية عما يسمى بـ « العهد الجديد الأبوكريفي **Apocryphal New Testament** » ، الذي هو « عبارة عن مجموعة غير محددة من الكتابات المَسِيْحِيَّة المبكرة ، والتي تشبه بوجه عام شكل أسفار الكتاب المقدس ، ولكنها لم تُضَمَّ إليه ، وبعض هذه الأناجيل (مثل الإنجيل المنسوب للعبرانيين ، والناصريين والمصريين) كانت ذات يوم مستعملة في كنائس معينة ككتاب مقدس . ومن هذه الأناجيل إنجيل الطفولة **Infancy Gospel** الذي كان له تأثير بالغ في التقليد والفن الكنسيين »(٢) .

ولا شك أن هذه الحقائق تطرح السؤال المنطقي الذي يأتي في ذهن أي شخص:

- ✓ لماذا حذفت بقية الأناجيل التي كانت موجودة ولم تبق إلا هذه الأناجيل فقط؟!
- ✓ لماذا اختفى إنجيل الطفولة **Infancy Gospel** الذي كان له تأثير على التقليد والفن الكنسيين ؟!

ومن النقاط المهمة التي تطعن في مصداقية الكتاب المقدس ومكوناته « **مجهولية كتبته** » ، فعلماء المَسِيْحِيَّة أنفسهم يشيرون إلى هذه المجهولية . ولا يظنن أحد أن هذا بالأمر الهين الذي يمكن أن يمر دون نقاش وتساؤل ، خاصة مع كتاب يدعي أصحابه أَنَّهُ إلهي المصدر .

ومن يقومون بتحقيق المخطوطات البشرية التي كتبها الأقدمون يسعون جاهدين أول ما يسعون لتحقيق نسبة المخطوط لمؤلفه ؛ لأن هذه النسبة تضيف قيمة إلى المخطوطة نفسها. فإذا كان هذا على مستوى المخطوطات البشرية فما بالنا بالمخطوطات الإلهية .

---

(١) ول ديونت : قِصَّة الحَضَارَةِ ، م٦ ، ١١/ ٢٠٦

(٢) **Lexicon Universal Encyclopedia, Lexicon Publications, Inc., New York, vol. 2, p.79**

إنَّ الأناجيل الموجودة بين أيدينا الآن مجهولة الكاتب ، ولا نعلم كُتَّابَها على وجه اليقين . يقول البابا تواضروس في كتابه « مفتاح العهد الجديد » : « هناك عناوين مختلفة تُعطَى للبشائر (الأناجيل)، وإن كان يبدو أن هذه العناوين **وضعها النساخ ، ولم تكن منذ البداية** ، ومن هذه العناوين : حسب متى ، الإنجيل حسب متى ، إنجيل حسب متى . **ولكن عبارة حسب متى أُسِيء فهمها وترجمتها** ؛ إذ تُترجَم : إنجيل متى »(١) .

وطبقًا لكلام البابا تواضروس في الطبعة الثانية من كتابه « مفتاح العهد الجديد » فإن النساخ هم الذين وضعوا عناوين الأناجيل وأسماءها ، وأن تلك العناوين لم تكن موجودة منذ البداية .

ويشير القِس فهيم عزيز في حديثه عن « كاتب إنجيل متى » : « ... وهنا يواجهنا السؤال : من هو الكاتب إذن ؟ **لا نستطيع أن نعطيه اسمًا ، قد يكون متى الرَّسُوْل ، وقد يكون غيره** ، ولكنه بدون شك هو شخص يَتَمَيَّز بالأمور التالية : أَنَّهُ **كان يهوديًّا يعيش خارج فلسطين** »(٢) .

وتذكر التَّرْجَمَة اليسوعية للكتاب المقدس في مقدمة إنجيل مَتَّى أن صاحب الإنجيل غير معروف ، وكل ما يُعرف عنه مجموعة صفات مستخلصة من الإنجيل نفسه : « **أما المؤلف فالإنجيل لا يذكر عنه شَيْئًا** ... فلما كُنَّا لا نعرف اسم المؤلِّف معرفة دقيقة ، يَحسنُ بنا أن نكتفي ببعض الملامح المرسومة في الإنجيل نفسه ، فالمؤلف يُعرَف من عمله ، فهو طويل الباع في علم الكتاب المقدس والتقاليد اليَهُودِيَّة ، ويعرف رؤساء شعبه الدينيين ويوقرهم ...فجميع هذه الصفات توافق صفات يهودي مثقف أصبح مسيحيًّا »(١) .

---

(١) مفتاح العهد الجديد ، بطريركية الأقباط الأرثوذكس ، القاهرة ، ط٢ ، (٢٠١٣م) ، ١/ ٦٧

(٢) المدخل إلى العهد الجديد ، دار الثقافة المَسِيْحِيَّة ، القاهرة ، ص ٢٤٥

(١) دار المشرق ، بيروت ، ط٣ ، (١٩٩٤م) ، العهد الجديد ، ص ٣٥

وفي « التفسير الحديث للكتاب المقدس » ـ تفسير إنجيل متى ـ تحت عنوان : « كاتب إنجيل متى » تجد قوله : « فما هو إذًا الدليل المستمد من الإنجيل ذاته ؟ إِنَّهُ لا شك **كسائر الأناجيل عمل غير معروف كاتبه من حيث أَنَّهُ لم يأت في النَّصّ ذكر كاتبه ، والدليل المستمد من الإنجيل سيعتمد بالأحرى على أسلوب وسمات الشخص الذي من المرجح أن يكون قد كتب مثل هذا العمل** »(١) .

وتقول التَّرْجَمَة اليسوعية عن إنجيل يوحنا : « من الراجح أَنَّ الإنجيل ـ كما هو بين أيدينا ـ **أصدره بعض تلاميذ المؤلف ؛ فأضافوا عليه الفَصْل ٢١ ، ولا شك أَنَّهُمْ أضافوا أَيْضًا بعض التعليق** ... أما رواية المرأة الزانية فهناك إجماع على أَنَّها من مرجع مجهول ؛ فأدخلت في زمن لاحق ، وهي مع ذلك جزء من قانون الكتاب المقدس » .

وقام المؤرخ المحقق ول ديورنت بتتبع من قاموا بكتابة الكتاب المقدس ، وذكر أقوال العلماء فيهم . وهذه اقتباسات من تلك التحقيقات :

⇦ « ... وننزع كذلك إلى القول بأن صاحب رسالات يوحنا هو نفسه صاحب الإنجيل الرابع الذي لا يزال مؤلفه مثارًا للنزاع »(٢) .

⇦ « ... وتقول الرواية المأخوذ بها إنَّ إنجيل مَتَّى أقدم الأناجيل كلها ، ويعتقد إيروينوس أَنَّهُ كُتبَ في الأصل باللغة العبرية ؛ أي : الآرامية ، ولكنه لم يصل إلينا إلا باللغة اليونانية ... [و] النقاد يميلون إلى القول بأنه من تأليف أتباع متى ، وليس من أقوال العشار نفسه . وحتى أكثر العلماء يرجعون به إلى تلك الفترة البعيدة المحصورة بين عامي ٨٥ ـ ٩٠م »(٣) .

⇦ «... ولا يدعي الإنجيل الرابع أَنَّهُ تَرْجَمَة ليسوع ، بل هو عرض للمسيح من وجهة النظر اللاهوتية بوصفه كلمة الله ، وخالق العالم ومنقذ البشرية ، وهو يناقض الأناجيل الأخرى في كثير من التفاصيل ، وفي الصورة العامة التي يرسمها للمسيح ... وما فيه من تأكيد للآراء الميتافيزيقية قد جعل الكثيرين من الباحثين في الدِّيْن

---

(١) ر. ت . فرانس ، دار الثقافة ، القاهرة ، ط١ ، (١٩٩٠م) ، ص ٢٣

(٢) قِصَّة الحَضَارَةِ ، م٦ ، ١١/ ٢٤١ الهامش .

(٣) السابق ، م٦ ، ١١/ ٢٠٨

المسيحي يشكون في صدق القول بأن واضعه هو الرَّسُوْل يوحنا ... وتنزع الدراسات الحديثة إلى تحديد تاريخ الإنجيل الرابع بأواخر القرن الأول »[1] .

⇦ « ... وكان لوقا رجلًا طيب القلب ، كبير العَقْل ، **وهو في أكبر الظن** صاحب الإنجيل الثالث ، وسفر أعمال الرسل »[2] .

وليست بقية أجزاء العهد الجديد من حيث مجهولية كتابها بأحسن حالًا من الأناجيل نفسها ؛ إذ تلاحقها تهمة مجهولية الكاتب أَيْضًا .

⇦ « ... لا يبعد أن تكون خطب اصطفانوس ، وبطرس ، وبولس وغيرهم كما وردت في سِفْر أعمال الرسل من اختراع مؤلف هذا السِّفْر ، كما جرت بذلك عادة المؤرخين الأقدمين »[3] .

⇦ « ... ويحاول النقاد أن يرجعوا سِفْر الرؤيا إلى عام ٦٩ ـ ٧٠م ، ويعزوه إلى يوحنا آخر هو يوحنا اللاهوتي ، الذي ذكره ببياس (١٣٥م) ، أما جستن مارتين فيعزو هذا السِّفْر القوي إلى الرَّسُوْل المحبوب . ولكن يوزبيوس ذكر من عهد بعيد يرجع إلى القرن الرابع أن بعض العلماء يشكون في صحة نسبته إليه »[4] .

وتتوجه كثير من سهام النقد إلى رسائل بولس ، ومنها هذه السهام ، يقول ديورنت:

⇦ « ..وكان يجد بعض السلوى فيما يبعث به من رسائل طويلة رقيقة إلى أتباعه البعيدين عنه ، وكان قد قضى عشر سنين يكتب مثل هذه الرسائل ، وما من شك في أن مجموعها يزيد على العشر التي وصلتنا منسوبة إليه »[1] .

أي أنَّ ول ديورنت يشير من طرف خفي إلى أنَّ هناك كثيرًا من رسائل بولس لم تصل إلينا.

---

(١) السابق ، م٦ ، ١١/ ٢٠٩ ، ٢١٠

(٢) السابق ، م٦ ، ١١/ ٢٥٦

(٣) السابق ، م٦ ، ١١/ ٢٤٤

(٤) السابق ، م٦ ، ١١/ ٢٧١

(١) السابق ، م٦ ، ١١/ ٢٦٢

⇦ و« الأَدِلَّة المَسِيْحِيَّة على وجود المسيح تبدأ بالرسائل المعزوة إلى القديس بولس ، **وبعض هذه الرسائل لا يُعرَف كاتبها معرفة أكيدة** ، ومنها عدة رسائل تؤرخ بعام ٦٤م ، ولكنها كتبت في الحقيقة بعد ذلك التَّاريخ »(١) .

⇦ « ... هاجم فرديناند كرستيان بور رسائل بولس ، وقال : **إنها كلها مدسوسة عليه** عدا رسائله إلى أهل غلاطية ، وكورنثوس (كورنثه) ورمية (رومه) »(٢) .

⇦ « تقول الرِّسالَة الثانية **المشكوك فيها** (رسائل بولس) والموجهة إلى تيموساوس .... »(٣) .

ويقول البابا تواضروس عن رِسالَة العبرانيين : « الكاتب : اقترحت أسماء كثيرة مثل : بولس ، لوقا ، برنابا ، أبلوس سيلا ، فيلبس ، بريسيكلا وآخرون ... وذلك بسبب عدم وجود اسم الكاتب في المخطوطات الأصلية ، ولكن الأرجح أَنَّهُ بولس الرَّسُوْل الذي كتبها ، وقد حذف اسمه منها بسبب حساسية الموضوع الذي تعالجه عند اليهود »(٤) .

(٢) اعتراف علماء المَسِيْحِيَّة بوقوع التحريف والتناقض فيها :

يعترف كبار علماء المَسِيْحِيَّة وأكابر مؤرخيها بوقوع التحريف والتناقض فيها ، يعترفون بوقوع التحريف بكافة أنواعه : تحريف نُسَّاخ ، تحريف بالزيادة وتحريف بالحذف. وسنعرض لهذه الأنواع تباعًا .

فيما يتعلق بتحريف النساخ ، يقول المؤرخون : « وترجع أقدم النسخ التي لدينا من الأناجيل الأربعة إلى القرن الثالث. أما النسخ الأصلية فيبدو أَنَّها كتبت بين عامي ٦٠، ١٢٠ م ، **ثم تعرضت بعد كتابتها مدى قرنين من الزمان لأخطاء في**

(١) السابق ، م٦ ، ١١/ ٢٠٦
(٢) السابق ، م٦ ، ١١/ ٢٠٤
(٣) السابق ، م٦ ، ١١/ ٢٦٧
(٤) السابق ، ٢/ ١٧٠

النقل، ولعلها تعرضت أَيْضًا لتحريف مقصود يراد به التوفيق بينها وبين الطائفة التي ينتمي إليها الناسخ أو أغراضها »(١) .

ويؤكد يوسف رياض على هذا الأمر ـ أمر تحريف النساخ ـ فيذكر أَنَّ الكِتَاب كان « يُنسَخُ نسخ اليد في بداية العصر المسيحي ، وكانوا ينسخون بأدوات كتابية بدائية ، عن نسخ منسوخة ، **ولقد أدخل النساخ الكثير من التبديل والتعديل على النصوص** ، وتراكم بعضه على بعضه الآخر ؛ فكان النَّصّ الذي وصل آخر الأمر **مثقلًا بألوان التبديل التي ظهرت في عدد كبير من القراءات** ؛ فما إن يصدر كتاب جديد حتى تنشر له نسخات مشحونة بالأغلاط »(٢) .

وتؤكد دائرة المعارف الكتابية هذا المعنى معنى التحريف النَّسخي الذي وقع في الكتاب المقدس ، بل قامت بتصنيف هذه الأخطاء النسخية تحت عنوان « أنماط من الاختلافات » في مادة « مخطوطات العهد الجديد » ، فذكرت المعلومات **الخطيرة** الآتية :

« كان الناسخون سببًا في وقوع أنواع من الاختلافات في مخطوطات العهد الجديد يمكن تصنيفها كالآتي :

(١) **اختلافات عفوية** : (أو عن غير عمد) أو أقل تكرارًا ، وتشمل هذه الاختلافات العفوية أخطاء النظر والسمع والذاكرة والكتابة والاجتهاد...

---

(١)السابق ، م٦ ، ٢٠٧/١١ ، وفي محاضرة للدكتور سامي عامري ـ حفظه الله ـ بعنوان : شهادات صادمة لأكبر مدافع عن النصرانية ، على اليوتيوب ، ينقل سيادته عن أكبر عالمين مدافعين عن النصرانية دانيال والاس ، و بارت إرمان الحقائق الآتية :

- يذكر دانيال والاس عدد القراءات أو الاختلافات النصية المختلف فيها بين المخطوطات ما بين ٤٠٠.٠٠٠ إلى ٥٠٠.٠٠٠ (ويعلق د. سامي على هذا الرقم بقوله : وهذا الرقم أقل بكثير ، بل هي بالملايين) .
- توجد اختلافات في كل كلمة في العهد الجديد ، ولها ما يقابلها ، بمعدل قراءتين ونصف .
- ويذكر بارت إرمان : عدد القراءات المختلف فيها أكبر من عدد كلمات العهد الجديد . ولا توجد مخطوطتان متطابقتان للكتاب المقدس .
- ويقر علماء النقد النصي استحالة استعادة النَّصّ الأصلي للكتاب المقدس .

(٢) مدخل إلى النقد الكتابي ، موسوعة المعرفة المَسِيْحِيَّة ـ الكتاب المقدس ٩ ، دار المشرق ، بيروت ، ط١ ، (١٩٩٧م) ، ص ٢٣

(٢) **اختلافات مقصودة** : وقعت هذه الاختلافات المقصودة نتيجة لمحاولة النساخ تصويب ما حسبوه خطأ ، أو لزيادة إيضاح النَّصّ أو لتدعيم رأي لاهوتي »[(١)] .

ولم يقتصر أمر تحريف الكتاب المقدس على مجرد « التحريف النسخي » ، بل وصل إلى أنواع أخرى من التحريف ، منها التحريف بالإضافة أو الزيادة ، وإليك شهادات علماء المَسِيْحِيَّة أنفسهم على ذلك :

» رفض الأب « مَتَّى المسكين » ـ عند تفسيره لإنجيل مرقس ـ تفسير الأعداد من (٩ إلى ٢٠) من الإصحاح ١٦ ، واعترف قائلًا تحت عنوان **القيامة** : « نجد في إنجيل ق . مرقس الآيات (١٦ : ١ ـ ٨) مسجلة بقلمه وروحه ، وقد شرحناها أما الآيات الاثنتا عشرة الباقية (١٦:٩ـ٢٠) **فقد أثبتت أبحاث العلماء المدققين أَنَّها فُقِدَت من الإنجيل ، وقد أعيد كتابتها بواسطة أحد التلاميذ السبعين المسمى بأرستون** ، وهذا التلميذ عاش في القرن الأول ، وهذه الآيات الاثنتا عشرة جمعها أريستون من إنجيل ق. يوحنا ، وإنجيل ق. لوقا ؛ ليكتمل بها القيامة . **هذه الآيات لم نتعرض لها ، ولم نشرحها** ، ولكن أعطينا عوضًا عنها شرحًا مفصّلًا لمعنى القيامة ، وحقيقتها الروحية ، بل وسرها أَيْضًا »[(١)] .

» وعند شرح الأب متى المسكين لإنجيل لوقا ، عند الأصحاح ٩ ، عدد ٥٥ « فالتفتَ وانتهرهما وقال : لستُما تعلمان من أي روح أنتما » ، يقول : « اتفق العلماء وبلا استثناء أن هذه الآية أضيفت مبكرًا جدًا بواسطة أحد النساخ ؛ لأن النَّصّ الأقدم لم يحتوها . على كل حال هي توافق الموقف والمعنى ، والكلام ينتهي في المخطوطات القديمة عند : وانتهرهما »[(٢)] .

---

(١) دائرة المعارف الكتابية ، دار الثقافة ، (بدون بيانات أخرى) ، ٣/ ٢٩٤

(١) الإنجيل بحسب القديس مرقس دراسة وتفسير وشرح ، دير الأنبا مقار ، القاهرة ، ط١ ، (١٩٩٦م) ، ص ٦٩٠

(٢) الإنجيل بحسب القديس لوقا دراسة وتفسير وشرح ، دير الأنبا مقار ، القاهرة ، ط١ ، (١٩٩٨م) ، ص ٤٢٧

» ويقول القس فهيم عزيز عن نهاية إنجيل مرقس : « في النسخة العَرَبِيَّة التي بين أيدينا ينتهي الإنجيل عند ١٦ : ٢٠ ، ولكن هناك مشكلة كبيرة بخصوص الأعداد ٩ـ ٢٠ من هذا الإصحاح وتتلخص في أمرين :

- هل هذه الأعداد (٩ـ٢٠) أصيلة في الإنجيل ، بمعنى هل كتبها مرقس في نهاية إنجيله ليختتمه؟ ظهر هذا السؤال نتيجة لعاملين مهمين جدًا : الأول هو أن أهم مخطوطتين قديمتين وهما الفاتيكانية ، والسينائية لا توجد بهما هذه الأعداد ، وكذلك مخطوطات أخرى أقل أهمية منهما إلى جانب ذلك عدد كبير من الترجمات القديمة المعتمدة مثل السريانية والأرامية . ويتصل بذلك أن بعض المخطوطات والترجمات تتضمن نهايتين إحداهما كبيرة (٩ـ٢٠) والأخرى صغيرة ، ومنها التَّرْجَمَة القبطية الصعيدية والبُحَيرية ، وفي مخطوطة واحدة لاتينية قديمة لا توجد سوى النهاية الصغيرة ، ولكنها لا تحتوي على الأعداد ٩ـ٢٠
- وإلى جانب هذه النهايات المختلفة يظهر ـ وخاصة في اللغة اليونانية ـ اختلاف واضح في الأسلوب بين الأعداد (٩ـ٢٠) وبقية الإنجيل والكلمات المستعملة فيه . وكذلك فإن من يدقق الدراسة فَإِنَّهُ يدهش لما يبديه (ع ٩) بخصوص مريم المجدلية ، كأنها ذكرت للمرة الأولى في الإصحاح ؛ لأنه يحاول التعريف بها ، في نفس الوقت الذي يذكرها في العدد الأول على أَنَّهَا شخصية معروفة ، ولا تقل في ذلك عن مريم أم يعقوب وسالومة .

على أساس هذين الاعتبارين **فقد اعتقدت الغالبية العظمى من الدارسين أن هذه النهاية ليست من وضع البشير نفسه ، وَأَنَّهَا قد أضيفت إلى الإنجيل بعد ذلك** »[١] .

وفي اعتراف خطير لدائرة المعارف الكتابية بإضافة نصوص « تدعم فكر لاهوتي ! » ، تقول دائرة المعارف : « وقد حدثت أحيانًا بعض الإضافات **لتدعيم فكر لاهوتي** ، كما حدث في إضافة عبارة : والذين يشهدون في السَّماء هم ثلاثة (١ يو ٥:٧) ، **حيث أن هذه العبارة لا توجد في أي مخطوطة يونانية ترجع إلى ما قبل القرن**

(١) المدخل إلى الإنجيل ، دار الثقافة المَسِيْحِيَّة ، القاهرة ، (بدون بيانات أخرى) ، ص ٢٣٠

الخامس عشر ، ولعل هذه العبارة جاءت أصلًا في تعليق هامشي في مخطوطة لاتينية ، وليس كإضافة مقصودة إلى نص الكتاب المقدس ، ثم أدخلها النساخ في صلب النَّصّ . ورغم وجود الاختلافات بين آلاف المخطوطات ، إلا أَنَّها اختلافات تافهة جدًا إذا قيست بضخامة ما تحويه المخطوطة من كلمات » (١) .

ولم يكن التحريفُ مقصورًا على أخطاء النساخ أو الإضافة ، بل نجد أَيْضًا التحريف بالحذف ، والمثال على ذلك قصة « المرأة الزانية » ، يقول الأب متى المسكين في شرحه لإنجيل يوحنا ، تحت عنوان « الإصحاح الثامن : المرأة الخاطئة (٨:٢-١١) » : « يفتتح ق. يوحنا الإصحاح الثامن بحادثة المرأة التي أمسكت وهي تخطئ ، ويبدو أَنَّ القصة في ظاهرها لا تتمشى مع سياق أحاديث المسيح في الهيكل ، ويعترض العلماء على وضع هذه القصة هنا ، في هذا الموضع من إنجيل يوحنا ، كما يعترض البعض الآخر على خروج هذه القصة ـ من حيث صياغة الكلمات اليونانية والظروف المحيطة بالحديث ـ عن أسلوب ق. يوحنا ، وخاصة لورود اسم الكتبة مع الفريسيين ، وهو لقب لم يستخدمه ق. يوحنا في إنجيله قط .... ويلاحظ الباحث أَنَّ الآباء الشرقيين كانوا هم الأكثر تحفظًا وامتناعًا ، بل وحضًّا للامتناع عن الخوض في شرح هذه القصة أو الرجوع إليها ، أو حتى ذكرها بالمرة ، بل وقد لجأ البعض إلى جحد صحة هذه القصة برُمتها ، سواء بسبب اعتراضات خارجية في القصة ، أو اعتراضات جوهرية أخلاقية ... ومعروف أن أوريجانوس كان محاربًا جنسيًّا إلى الدرجة التي خصى نفسه بنفسه ؛ لذلك فإنَّ حذفها من شرحه لإنجيل يوحنا له ما يبرره من ظروفه الخاصة » (١) .

ويذكر ول ديورنت عن هذه القصة : « قد وردت القصة في نسخ خطية قديمة من إنجيل مرقس ولوقا ؛ ولكنها حُذفت من نصيها المتأخرين ، وليس سبب حذفها خوف الناشرين من أَنَّها قد تساعد على فساد الأخلاق » (٢) .

---

(١) دائرة المعارف الكتابية ، ٣/ ٢٩٥

(١) شرح إنجيل القديس يوحنا ، دير الأنبا مقار ، القاهرة ، ط١ ، (١٩٩٠م) ، ١/ ٥٠٩

(٢) قِصَّة الحَضَارَةِ ، م٦ ، ١١/ ٢٢٠ ، الهامش .

وبين يدي نسخة نقدِيَّة من الكتاب المقدس ، طبعة « جمعيات الكتاب المقدس » تعود إلى عام ١٩٤٨م ، تمت طباعتها في بيروت (المطبعة الأميركانية) ، بإشراف : جمعية الكتاب المقدس الأمريكية ، وجمعية الكتاب المقدس البريطانية والأجنبية ببيروت والقاهرة ولندن ونيويورك .

وفي مقدمة هذه الطبعة خُصِّصَتْ صفحةٌ للرموز المستخدمة في هذه الطبعة ، وصُدِّرت الصفحة بعنوان « تنبيه » . ويعنينا من هذه التنبيهات والرموز ما يدل على وجود زيادات ومحذوفات في بعض النسخ ولا توجد في البعض الآخر .

تقول هذه التنبيهات : « اعلم ... أن ما طبع من الكلمات في المتن بحرف صغير ليس له وجود في العبراني واليوناني ، وقد زِيدَ في التَّرْجَمَة لأجل الإيضاح !! كما في تك ص ١:٢١ ... والهلالان يدلان على أَنَّ الكلمات التي بينهما ليس لها وجود في **أقدم المخطوطات *وأصحها*** ، وأما الحاشية السفلية ، فالعين فيها مقطوعة من لفظة عبراني ، وهي تدل على ما في العبراني ، والياء فيها مقطوعة من لفظة يوناني ، وهي تدل على ما في اليوناني ... وكلمة « أو » للتخيير بين معنيين تحتملهما اللغة الأصلية أحدهما في المتن ، والآخر في الحاشية . والتاء مقطوعة من لفظة تُرِكَ ، وهي تدل على أَنَّ الكلمات التي تتبعها قد تُركت من بعض النسخ العبرانية واليونانية . والقاف مقطوعة من لفظة قُرِئَ ، وهي تدل على أَنَّ الكلمات التي تتبعها قد قرئت في بعض النسخ ، والزاي مقطوعة من لفظ زِيد ، وهي تدل على أَنَّ الكلمات التي تتبعها قد زيدت في بعض النسخ » .

إن هذه التنبيهات في هذه المقدمة لهي اعترافٌ ضمنيٌ على وجود تحريفات بالنقص أو الزيادة طالت مخطوطات الكتاب المقدس ، وقد امتلكت هذه الطبعة النقدية الجرأة أن تقول ذلك وتشير إليه .

فإذا جئنا إلى التناقض أو التناقضات في الكتاب المقدس وجدنا اعترافات علماء المَسِيْحِيَّة أنفسهم بها ، فنجدهم يقولون :

« وملاك القول أن ثمة تناقضًا كثيرًا بين بعض الأناجيل والبعض الآخر ، وأنَّ فيها نقطًا تاريخية مشكوكًا في صحتها ، وكثيرًا من القصص الباعثة على الريبة والشبيهة بما يروى عن آلهة الوثنيين ، وكثيرًا من الحوادث التي يبدو أَنَّها وضعت عن قصد لإثبات وقوع كثير من النبوءات الواردة في العهد القديم ، وفقرات كثيرة ربما كان المقصود منها تقدير أساس تاريخي لعقيدة متأخرة عن عقائد الكَنِيسَة أو طقس متأخر من طقوسها . لقد كان المبشرون بالإنجيل يرون كما يرى شيشرون وسالت وتاستس أَنَّ التَّاريخ وسيلة لنشر المبادئ الخلقية السامية ، **ويبدو أن ما تنقله الأناجيل من أحاديث وخطب قد تعرضت لما تتعرض له ذاكرة الأمين من ضعف وعيوب ، ولما يرتكبه النساخ من أخطاء أو تصحيح** »[(١)] .

ويحدثنا التَّاريخ عن الإمبراطور يوليان ، الذي دخل المَسِيْحِيَّة ثم ارتدَّ عنها ، وقد شرح هذا الإمبراطور « عقيدته الوثنية الجديدة في « ترنيمة لابن ملك » ؛ وأوضح في مقاله « ضد أهل الجليل » الأسباب التي من أجلها ارتد عن المَسِيْحِيَّة ، وكتب في مقال له من النقد العالي يقول إن الأناجيل يتناقض بعضها بعضًا ، وإنَّ أهم ما تتفق فيه هو أَنَّها أبعد ما تكون عن العَقْل ، فإنجيل يوحنا يختلف كل الاختلاف عن الثلاثة الأناجيل الأخرى في روايتها ، وفيما تحتويه من أصول الدِّيْن .

ومن المؤلفات التي ظهرت حديثًا في هذا الباب كتاب « **Myths and Mistakes in Newtestament Textual Criticism** أساطير وأخطاء في النقد النصي للعهد الجديد » ، والكتاب من تأليف عدد من تلاميذ دانيال والاس ، وقدم له دانيال والاس . في هذا الكتاب يثبت مؤلفوه ـ كما يقول د. سامي عامري في محاضرة له على اليوتيوب ـ :

١ـ إثبات تحريف العهد الجديد .

٢ـ أهم عقائد النصارى ليست مأخوذة من العهد الجديد كما يقول د. بارت إيرمان **Bart D. Ehrman**.

(١) السابق ، م٦ ، ١١/ ٢١٠

(٣) عدم الاتفاق على العقائد الأساسية في المَسِيْحِيَّة وغموض تلك العقائد :

مما ينبغي أن يكون معلومًا للقارئ أَنَّ العقائد الأساسية في المَسِيْحِيَّة لم تكن محل اتفاق بين العلماء وبين رجال الدِّيْن وبين الشعوب التي اعتنقتها ، وأن بعضًا من هذه العقائد رفضته العقول ، ولم تستسغه مطلقًا ، وبعضها لا توجد عليه نصوص واضحة تدل عليه . وتحفظ لنا ذاكرة التَّاريخ كثيرًا من النماذج والشواهد والاعترافات التي تدعم ما نقول :

o عقيدة التَّثْلِيْث :

عقيدة غامضة لا يمكن أن يقبلها العَقْل والمنطق ، ووجود من يعتنق هذه العقيدة من البشر يدل على انتحار المنطق والعقل لديهم ، بالإضافة إلى أَنَّهُ لا يوجد نص في الأناجيل الثلاثة (متى ، مرقص ، لوقا) ينص صراحة على أَنَّ المسيح والآب إله واحد ؛ فلم يقل المسيح في هذه الأناجيل المتشابهة « إِنَّهُ هو والآب إله واحد ، أو يسوى نفسه به ، فقد سأل أتباعه : لماذا تدعوني صالحًا ؟! ليس أحد صالحًا إلا واحدًا وهو الله . وقال وهو يصلي في جتسماني: ليكن لا ما أريد أنا ، بل ما تريد أنت »(١) .

ويسجل التَّاريخ لنا أسماء كثيرة اعترضت على « عقيدة التَّثْلِيْث » ، يشير ول ديورنت إلى كثير منها ، ومن تلك الأسماء :

- برنارد أوشينو **Bernard Ochina** (١٤٨٧م ـ ١٥٦٥م) « الذي عَبَرَ سويسرا ، واتجه إلى لندن ، وكان **يحارب فكرة التَّثْلِيْث بكل قواه** »(٢) .
- و منهم سيرفيتوس **Migel Servetus** الذي كان أكثر أفراد الحركة

(١) السابق ، م٦ ، ١١/ ٢٣٢

(٢) السابق ، ٤٣/ ١٢ ، (طبعة دار الجيل) . ويذكر ديورنت ـ في نفس الموضع ـ أَنَّهُ ظهر من كان يدعو للتوحيد الخالص ، فيذكر أَنَّهُ في عام ١٥٣٩م تم إحراق كاترين فوجيل **Catherine Vogel** وكانت زوجة جواهري، وكانت في الثمانين من عمرها ، وذلك لاعتقادها كما جاء في قرار الاتهام: بوجود إله واحد لا شريك له ، خالق كل شيء ، ما نراه وما لا نراه ولا يمكن للعقل لبشري أن يحيط به ! .

المناهضة للتثليث صخبًا[(١)] .

- ومنهم « كلبريك » الذي حكم جزءًا من بلاد فرنسا بعد موت أبيه كلوتار (٥٦١م) ، حيث « إن كلبريك كان يسخر من فكرة وجود ثلاثة أشخاص في إله واحد ، وبتصوير الله كأنه إنسان ، وكان يعقد مع اليهود مناقشات مزرية ، ويحتج على ثروة الكَنِيسَة الطائلة »[(٢)] .
- واعترف أثناسيوس **Athanasius** وسلم بها في تصوير أشخاص ثلاثة في صورة إله واحد من صعوبة ، ولكنه قال بأن العَقْل يجب أن يخضع لما في الثالوث من خفاء وغموض[(٣)] .
- ويذكر التَّاريخ أَنَّ القديس أوغسطين « قد بذل غاية جهده فيما أصدره من الرسائل التي كان بعضها يأخذ برقاب بعض في أن يوفق بين العَقْل وبين العقائد عقائد الكَنِيسَة ... وكان يدرك أَنَّ التَّثْلِيْث هو العقبة الكؤود في سبيل هذا التوفيق ، ولهذا قضى خمسة عشر عامًا يعمل في أدق كتبه وأحسنها تنظيمًا وهو كتاب التَّثْلِيْث **De Trinitate** الذي حاول فيه أن يجد في التجارب الإنسانية نظائر لثلاثة أشخاص في إله واحد »[(١)] .
- وحفظ لنا التَّاريخ اسم جماعة لُقِّبَت بـ « معارضي التَّثْلِيْث **Antitrinitarians** » وأن هذه الجماعة ظهرت في بداية القرن الثالث « عندما أخذت المذاهب الرئيسية للمسيحية في التشكل في ظل جو الصراع بين مختلف التيارات والطوائف. ولا تتفق معتقدات نزعة معارضة التَّثْلِيْث مع التفسير السائد بوجه عام لمبادئ العقيدة المَسِيْحِيَّة . فقد قبلوا فقط الله الأب بوصفه الإله المطلق ، وفي الوقت ذاته

---

(١) السابق ، ١٢/٤٣

(٢) السابق ، م ٦، ١٢/ ١٨٧

(٣) السابق ، م٦، ١١/ ٣٩٥

(١) السابق ، م٦ ، ١٢/ ١٣٩

أعلنوا أَنَّ الأقنومين الآخرين في الثالوث الأقدس ليسا سوى قوتين مختلفتين نوعيًا ، خاضعين لله الأب . واحتدم جدال عنيف حول الطبيعة الواحدية ليسوع المسيح ، بينما أصر بعض اللاهوتيين على القول بطبيعته الإلهية ، أصر آخرون على طبيعته البشرية ... ولهذا السبب تعرض خصوم مذهب التَّثْلِيْث لاضطهاد رهيب ، ثم ظهر معارضو التَّثْلِيْث مرة أخرى خلال فترة الإصلاح الديني في إيطاليا وسويسرا وألمانيا والبلدان الأوربية الأخرى ... وقد وجدوا أنفسهم في موقف معارض لكل من الكاثوليكية الرُّومَانِيَّة واللوثرية والكالفينية عن تأييدهم للتفسير الحر للكتاب المقدس ، ورفضوا الخطيئة الأولى ، وتخليص البشرية من الخطيئة على يد يسوع المسيح »[(١)] .

o طبيعة المسيح :

وحول « طبيعة المسيح » رفضت كثرة المسيحين « في سوريا ومصر عقيدة الطبيعتين في شخص المسيح المفرد ، وظل رهبان سوريا يعلِّمون الناس عقائد اليعقوبيين ، ولما أن عين أسقف لكرسي الإسكندرية من أتباع الدِّيْن القويم قتل ومزق جسمه أربًا في كنيسته في يوم الجمعة الحزينة . وأصبحت اليعقوبية من ذلك الحين الدِّيْن القومي لمصر وأثيوبيا المسيحيتين ، ولم يَحِلّ القرن السادس حتى كانت لها الغلبة في غربي سوريا ، وأرمينيا ، بينما انتشرت النسطورية فيما بين النهرين وشرقي سوريا »[(١)] .

وكان من الشيع المارقة في تاريخ المَسِيْحِيَّة ، وكان لها عظيم الأثر في تاريخها ، تلك الشيعة التي « أنشأها أوتيكس **Eutyches** رئيس دير قريب من القسطنطينية ، وكان أوتيكس هذا يقول إن المسيح ليست له طبيعتان : بشرية وإلهية ، بل إن له طبيعة واحدة هي الطبيعة الإلهية »[(٢)] .

---

(١) سعد الفيشاوي : المُعْجَم العِلْمِيّ للمعتقدات الدينية ، ص ٣١ ، ٣٢

(١) قصة الحضارة ، م٦ ، ١٢/ ١٠٢ ـ ١٠٣

(٢) السابق ، م٦ ، ١٢/ ١٠٢

○ **الخطيئة الأولى وأمومة مريم للإله :**

وظهر مَن يعترض على من يقول بـ « الخطيئة الأولى » ، وأن « مريم » أم الله ، ومن هؤلاء بلاجيوس **Pelagius** الذي أثار ثلاث قارات « **بهجومه على عقيدة الخطيئة الأولى**... وكان نسطوريوس في بدء حياته من تلاميذ ثيودور المبسوستيائي **Theodore Of Mopsuestia** (٣٥٠؟ -٤٢٨؟) الذي كاد أن يبتدع النقد الأعلى للكتاب المقدس. وكان من أقوال ثيودور هذا أن سِفْر أيوب إن هو إلا قصيدة مأخوذة من مصادر وثنية، وأن نشيد الأناشيد إن هو إلا إحدى أغاني الفرس ذات معنى شهواني صريح، وَأَنَّ الكثير من نبوءات العهد القديم التي يزعم الزاعمون أَنَّها تشير إلى يسوع، لا تشير إلا إلى حوادث وقعت قبل المسيحية؛ وأن مريم ليست أم الله ، بل هي أم الطبيعة البشرية في يسوع »(١) .

○ **الأريوسية :**

وإذا كنا في مَعرِض الحديث عن عدم اتفاق الطوائف المَسِيْحِيَّة على عقيدة التثليث وإلهية المسيح ، فلا بد أن يكون لنا حديث عن الأريوسية.

تُعَدُّ الأريوسية **من أقوى الشواهد وأنصع البراهين التاريخية على أنَّ عقيدة التَّثْلِيْث وألوهية المسيح لم تكونا محل اتفاق بين أتباع المَسِيْحِيَّة في بدايتها ، وأن عقيدة** التَّثْلِيْث وألوهية المسيح تم فرضها فرضًا بالقوة على الناس .

وسيدهش القارئ عندما يعلم أَنَّ الأريوسية كانت منتشرة على نطاق واسع بين كثير من الأمم ، وأن مِن بين ممن اعتنقها مَنْ وَصَل إلى مناصب إدارية عليا ، وَأَنَّهَا كانت معتنَق كثيرٍ من رجال الدِّيْن المسيحي ، بل الأعجب من ذلك كله أَنَّها كانت معتنَق وعقيدة كثير من القادة والأباطرة .

بدايةً : ما الأريوسية ؟ ومن مؤسسها ؟

الأريوسية **Arianism** هي « حركة داخل الكَنِيسَة المَسِيْحِيَّة في القرن الرابع والخامس والسادس ، أسسها القس آريوس ، وقد مثلت الآريوسية محاولة لحل

(١) السابق ، م ٦ ، ١٢/ ١٠٠

التناقض بين التوحيد في الكتاب المقدس ، والمبدأ القائل بألوهية يسوع ؛ إذ لم يقبل أتباع هذه الحركة أحد المعتقدات الأساسية للكنيسة المَسِيْحِيَّة الرسمية ، وهو المعتقد القائل بأن الآب والله الابن (المسيح) من طبيعة واحدة ، واعتبروا هذا المبدأ معادلًا للقول بوجود إلهين للكون . وقد ذهب أريوس إلى أن هناك إلهًا واحدًا هو الدائم والمنزة عن الصفات ، بينما ابن الله تم خلقه لا من الجوهر المقدس بل من العدم . وقد اختلف عن غيره من بني الإِنْسَان فقط من حيث تحليه بالفضائل العليا . لقد أصبح ابن الله مقدسًا بفضل مشاركة الله الآب في خلقه وبفضل طموحه الخاص إلى الصلاح »[(١)] .

وأريوس **Arius** ، توفي عام ٣٣٦م ، هو قس من مدينة الإسكندرية ، هاجم عام ٣١٨م تعاليم الكَنِيسَة المَسِيْحِيَّة المتعلقة بالطبيعة الواحدة للآب ، والابن ، قائلًا بأن المسيح (الابن) أقل درجة من الآب (الله) فيما يتعلق بالقدرات الإلهية والجوهر والمجد ، إذ أَنَّ الله (الأب) هو الدائم ، بينما المسيح مخلوق ... وقد أدين أريوس من الكَنِيسَة ، وطرد من الإسكندرية ، لكن تعاليمه الأريوسية وجدت أتباعًا كثيرين ، وخاصة في صفوف الحرفيين والتجار من المدن كما انتشرت على نطاق واسع خارج حدود مصر ، وخاصة في أوروبا الغربية[(١)] .

ومن أقوال أريوس التي سجلها التَّاريخ ما نقله ول ديورنت : « **إن المسيح لم يكن هو والخالق شَيْئًا واحدًا ، بل كان هو الكلمة أول الكائنات التي خلقها الله وأسماها**. واحتج الأسقف ألكسندر على هذا القول، ولكن أريوس أصر عليه، وقال: إِنَّهُ إذا كان الابن من نسل الأب ، فلابد أن تكون ولادته قد حدثت في زمن، وعلى هذا لا يمكن أن يكون الابن متفقًا مع وجود الأب في الزمن. يضاف إلى هذا أَنَّهُ إذا كان المسيح قد خلق فلابد أن يكون خلقه من لا شيء، أي من غير مادة الأب؛

(١) المُعْجَم العِلْمِيّ للمعتقدات الدينية ، ص ٣٧ ، وينظر أَيْضًا :

Arthur Goldschmidt, A Conice History of the Middle East, p. 18

(١) السابق ، ص ٣٨

لأن المسيح والأب ليسا من مادة واحدة. وقد ولد الروح القدس من الكلمة، وهو أقل ألوهية من الكلمة نفسها »[(١)] .

ومن الأقوال شديدة الأهمية عن مذهب أريوس قول الأب متى مسكين ، فقد ذكر : « فلولا **مجمع نيقية الذي مثل الكَنِيسَة الحية ، ودفاع القديس البابا أثناسيوس الرسولي ، لصار العالم كله آريوسيًّا ؛ ولتحطمت قيمة الفداء ، وتلاشى رجاء الإِنْسَان في الحياة مع الله** »[(٢)] .

والأدلة والشواهد التاريخية على انتشار هذا المذهب مبثوثة في المراجع التاريخية ، ومن هذه الشواهد والأدلة ما سطره يراع المؤرخ ول ديورنت في كتابه قِصَّة الحَضَارَةِ ومنها :

- « ... وأحرزت الأريوسية نصرًا مؤزرًا بين البرابرة ، بعد أن غلبت على أمرها في داخل الإمبراطورية »[(١)] .
- « ... ووثق القوط بحكمة ألفلاس واستقامته لشدة إخلاصه وتمسكه بأهداب الفضيلة ثقةً حملتهم على أن يقبلوا مبادئه المَسِيْحِيَّة الأريوسية دون مناقشة ، وإذا كان غير هؤلاء من البرابرة قد تلقوا أصول المَسِيْحِيَّة في القرنين الرابع والخامس عن القوط أنفسهم، **فقد كان جميع من غزوا الإمبراطورية، إلا قليلًا منهم من الأريوسيين، كما كانت الممالك الجديدة، التي أقامها في البلقان، وغالة وأسبانيا، وإيطاليا، وأفريقية أريوسية من الناحية الرسمية**، ولم يكن الفرق بين دِيْن الغالبين والمغلوبين إلا فرقًا ضئيلًا: ذلك أن أتباع الدِّيْن القويم كانوا يعتقدون أَنَّ المسيح مطابق في كينونته (**Homommusios**) لله الآب ، أما الأريوسيون فكانوا

(١) قِصَّة الحَضَارَةِ ، م٦ ، ١١/ ٣٩٢

(٢) الأب متى المسكين : التقليد وأهميته في الإيمان المسيحي ، دير أنبا مقار ، القاهرة ، ط٤ ، (٢٠٠٨م) ، ص ٤٦

(١) قِصَّة الحَضَارَةِ ، م٦ ، ١٢/ ٩٦

يعتقدون أَنَّهُ مشابه ـ لا أكثر ـ في كينونته (**Homroousios**) لله الآب »[(١)] .

- « ... أما القسطنطينية فلم يكد يبقى فيها أثر للعبادة الوثنية ، بيد أَنَّ المَسِيْحِيَّة نفسها قد تفرقت شيعًا بسبب النزاع الدائم بين أهلها ، فقد كانت الأريوسية لا تزال قوية »[(٢)] .
- « ... وتعلم جريجوري نزيانزين مرارة الحقد الطائفي حين قبل دعوة وجهها إليه مسيحيو القسطنطينية لأن يكون أسقفًا عليهم (٣٧٩). وكان فالنز قد مات تَوًّا، **ولكن أتباع أريوس الذين ناصرهم الإمبراطور من قبل ، كانوا لا يزالون يتولون معظم المناصب الكنسية ويقيمون صلواتهم في كنيسة أيا صوفيا**. ولذلك اضطر جريجوري أن يصنع مذبحة ويأوي أتباعه في بيت صديق له »[(١)] .
- « **وطلب الأريوسيون في الشرق إلى ثيودريك أن يحميهم**، فطلب إلى البابا يوحنا الأول أن يسافر إلى القسطنطينية لدى الإمبراطور في أمر الأريوسيين المفصولين من وظائفهم. ورد عليه البابا بأن هذه الرِّسالَة لا تليق برجل أخذ على نفسه أن يقضي على الزيغ والضلال، ولكن ثيودريك أصر على مطلبه »[(٢)] .
- « ... وحدث في عام ٥٨٩ أن غير ريكارد **Recared** **مذهبه ومذهب الكثرة الغالبة من القوط الغربيين في أسبانيا من الأريوسية إلى المَسِيْحِيَّة الأصلية** »[(٣)] .
- « ... وبفضل تتابع الحوادث على هذا النحو ثبتت الأريوسية حتى غلب الفرنجة أتباع الدِّيْن القويم القوط الغربيين في غالة، وفتح بلساريوس **Belisarius** أفريقية الوندالية ، وإيطاليا القوطية ، وغير ريكارد **Recared**

---

(١) السابق ، م٦ ، ١٢/ ٩٧

(٢) السابق ، م٦ ، ١٢/ ١٢٨

(١) السابق ، م٦ ، ١٢/ ١٢٨

(٢) السابق ، م٦ ، ١٢/ ٢٠٤

(٣) السابق، م٦ ، ١٢/ ١٩٢

(٣٨٩) عقيدة القوط الغربيين في أسبانيا »[(١)] .

ومن القادة الذين اعتنقوا هذا المذهب القائد ثيودريك **Theadoric** والقائد أدوكر **Odoacer** . عندما اعتلى الإمبراطور « ليو » عرش الإمبراطورية ، ولى الحاكم ثيودريك حكم القوط الشرقيين ، وتربَّى ثيودريك في القسطنطينية ، وظل فيها أحد عشر عامًا ، ونال إعجاب الإمبراطور ليو الأول ، وعندما تولى الإمبراطور « زينون » عرش الإمبراطورية الشرقية أمر ثيودريك أن يفتح إيطاليا التي كانت في هذا الوقت تحت قيادة أدوكر . يقول ول ديورنت : «وقاد ثيودريك القوط الشرقيين بوصفه وزير زينون ، وكان تحت لوائه عشرون ألف محارب وعبر بهم جبال الألب (٤٨٨). **وعاون أساقفة إيطاليا القائد الأريوسي** ، وإن كانوا هم من أتباع الدِّيْن الصحيح **لأنهم كانوا يكرهون أريوسية أدوكر**، ولأن ثيودريك في رأيهم يمثل إمبراطورًا يكاد يكون من أتباع الدِّيْن القويم »[(١)] . وبسط « ثيودريك حمايته على الكنائس التابعة للمذهب الأصيل من حيث أملاكها وحرية العبادة فيها **وإن كان هو من أتباع المذهب الأريوسي** »[(٢)] . وبلغ ثيودريك عمر التاسعة والستين وأصبح « ضعيف الجسم والعقل لا يدري **كيف ينقل إلى خليفته حكمًا مستقرًا تتولاه أسرة قوطية أريوسية على أمة تسعة أعشارها من الرومان**، وثمانية أعشارها كاثوليك »[(٣)] .

وكان الإمبراطور قسطنطين يؤمن بعقيدة أريوس ، وقد وصل إلى هذا الإيمان **بعد بحث** ، فالتاريخ يذكر أَنَّهُ « عني بشؤون الدِّيْن عناية أكثر جدية من عناية أبيه، **فشرع يبحث بنفسه أبوة المسيح ، وخرج من هذا البحث باعتناق مذهب أريوس**، وشعر بأن واجبه الأدبي يحتم عليه أن يعرض هذه الآراء على جميع العالم المسيحي.

---

(١) السابق ، م٦ ، ١٢/ ٩٨

(١) السابق ، م٦، ١٢/ ١٩٨

(٢) السابق ، م٦ ، ١٢/ ١٩٩

(٣) السابق ، م٦ ، ١٢/ ٢٠٢

وطرد أثناسيوس من كرسي الإسكندرية مرة أخرى (٣٣٩)، وكان قد عاد إليه بعد موت قسطنطين. ودعيت مجالس الكنائس تحت إشراف الإمبراطور الجديد، وأيدت تشابه المسيح والأب دون اتحادهما في المادة. **وأخرج الكهنة الذين استمسكوا بعقائد مجمع نيقية من كنائسهم**، وكان الغوغاء في بعض الأحيان هم الذين يخرجونهم منها، **وأتى على المَسِيْحِيَّة نصف قرن من الزمان لاح فيه أَنَّها ستؤمن بالتوحيد وتتخلى عن عقيدة ألوهية المسيح**. وكان أثناسيوس في هذه الأيام العصيبة يقول عن نفسه أَنَّهُ يقف وحده في وجه العالم كله، فقد كانت جميع قوى الدولة تقاومه، بل إن أتباع كنيسة الإسكندرية خرجوا عليه واضطر في خمس مرات مختلفة أن يفر من كرسيه معرضًا حياته في معظمها لأشد الأخطار، وأن يهيم على وجهه في البلاد الأجنبية. وظل خمسين عامًا (٣٢٣ – ٣٧٣) صابرًا يكافح ويدافع عن عقيدته كما حددها مجمع نيقية بزعامته، مستعينًا على ذلك بمهارة الدبلوماسي وعنف الرجل البليغ، ولم تلن له قناة حتى بعد أن ضعف البابا ليبريوس واستسلم. وإليه يرجع معظم الفضل في استمساك الكَنِيسَة بعقيدة الثالوث.

وعرض أثناسيوس قضيته على البابا يوليوس الأول (٣٤٠)، فرده يوليوس إلى كرسيه، ولكن مجمع من أساقفة الشرق عقد في أنطاكية (٣٩١)، وأنكر على البابا حقه في هذا الحكم، **ورشح جريجوري، وهو رجل من أتباع أريوس، أسقفًا لكرسي الإسكندرية**. لكن جريجوري لم يكد يصل إلى تلك المدينة حتى أثارت أحزابها المتنافسة فتنة صماء قتل فيها عدد كبير من الأهلين، واضطر أثناسيوس على أثرها إلى التخلي عن كرسيه حقنًا للدماء (٣٤٢) »[(١)] .

وكانت أم الإمبراطور فلنتنيان الثالث الإمبراطور جستينا **Justina** **أريوسية** ، « حاولت أن تحصل على كنيسة في ميلان لقس أريوسي. ولكن المصلين من أتباع أمبروز ظلوا في الكَنِيسَة المحاصرة ليلاً ونهارًا معتصمين فيها، اعتصامًا مقدسًا يتحدون أمر الإمبراطور بتسليم البناء »[(٢)] .

---

(١) السابق ، م٦ ، ١٢/ ٢٠ ، ٢١

(٢) السابق ، م٦ ، ١٢/ ١١٤

وقد تعرضت الأريوسية للاضطهاد ، وأثارت معتقدات أريوس الخلاف والجدال ، واشتعلت نيران الخلاف في بلاد الشرق اليوناني ، وعند ذلك « اعتزم قسطنطين أن يقضي عليه بدعوة أول مجلس عام للكنيسة ؛ ولهذا عقد مجلسًا من الأساقفة عام ٣٢٥ في نيقية »(١) .

ولكن مجمع نيقية لم يضع حدًّا للنقاش الحاد « الذي احتدم أواره بين أثناسيوس وأريوس، **بل ظل كثير من الأساقفة ـ كانوا هم الكثرة الغالبة في الشرق ـ** يناصرون أريوس، سرًا أو جهرًا ؛ أي أَنَّهُمْ كانوا يرون أَنَّ المسيح ابن الله، ولكنه لا يشترك مع الأب في مادته ولا في خلوده. ولم يستنكف قسطنطين نفسه، بعد أن قبل قرار المجمع، وطرد أريوس من البلاد ، أن يدعوه إلى اجتماع شخصي معه (٣٣١)؛ فلما أجتمع به لم يجد في أقواله ما يستطيع أن يعده خروجًا على الدين، وأوصى بأن ترد إلى أريوس وأتباعه كنائسهم. واحتجَّ أثناسيوس على ذلك، فاجتمع في صور مجلس من أساقفة الشرق وقرر خلعه من كرسي الإسكندرية الديني (٣٣٥)، وظل عامين طريدًا في غاله. أما أريوس فقد زار قسطنطين مرة أخرى، وأعلن قبوله للعقيدة التي قررها مؤتمر نيقية بعد أن أضاف إليها تحفظات دقيقة لا ينتظر من إمبراطور أن يفهمها. وآمن قسطنطين بأقواله ، وأمر الإسكندر بطريق القسطنطينية أن يقبله في العشاء الرباني. وفي هذا يقص سقراط المؤرخ الكنسي هذه القصة المحزنة المؤلمة: كان ذلك يوم السبت، وكان أريوس يتوقع أن يجتمع بالمصلين في اليوم الذي يليه، ولكن القصاص الإلهي عاجله فأحبط عمله الإجرامي الجريء. ذلك أَنَّهُ لما خرج من القصر الإمبراطوري ... واقترب من العمود السماقي المقام في سوق قسطنطين، تملكه الرعب، وأصيب بإسهال شديد ... خرجت فيه أمعاؤه من بطنه ، وأعقبه نزيف حاد ، ونزلت أمعاؤه الدقاق. ومما زاد الطين بلة أن طحاله وكبده قد انفصلا من شِدة النزيف ومات لساعته !!

ولما بلغ هذا التطهير العاجل مسامع قسطنطين بدأ يسأل نفسه: ألم يكن أريوس في واقع الأمر كافرًا زنديقًا؟ لكنه لما مات في السنة التالية تلقى مراسيم

(١) السابق ، م٦ ، ١١/ ٣٩٤

التعميد على يد صديقه ومشيره يوسبيوس أسقف نقوميديا، وهو من أتباع أريوس نفسه »[(١)] .

إن مذهب الأريوسية وما كانت تقول به يدحض مبدأ ألوهية المسيح ، ويبطل قول النصارى أَنَّ المسيح من نفس جوهر الآب ، فالمذهب يقول إِنَّهُ « مخلوق » ، وإنه لا يختلف عن بني الإِنْسَان إلا في تحليه بالفضائل العليا.

هل بعد كل هذه الأحداث التاريخية والجليلة والخطيرة يمكن أن يُقال إنَّ التثليث وألوهية المسيح كانت موضع اتفاق؟!!

(٤) المَسِيْحِيَّة والمشاكل الأخلاقية :

نأتي إلى أحد الأسباب المهمة التي تجعلنا نرفض هذا الدِّيْن ، وهو السبب أو الأسباب الأخلاقية .

ويجب أن نكون على ذُكْرٍ أَنَّ الجانب الأخلاقي معيار أساسي نقيس به الدِّيْن الحق من الدِّيْن الباطل ، ولا تجد مصلحًا اجتماعيًّا يتجنب إحياء الأخلاق ونشرها كوسيلة ناجعة من عدة وسائل للإصلاح ، ولا تجد مصلحًا يبث بين أتباعه مشروعية الكذب وإباحة الزنا ... ولكن للمسيحية رأي آخر !!

من الأمور التي تعوق الإيمان بهذا الدِّيْن المشاكل الأخلاقية التي توجد بين دفتي الكتاب المقدس ، ومنها :

- ✓ **إباحة الكذب** :

من الأشياء التي نقرؤها في الكتاب المقدس ونجد أَنَّهُ يقررها ويُؤكدها إباحة الكذب ، ودليل ذلك ما ورد في رِسالَة بولس لأهل رومية (الإصحاح ٣ ، العدد ٧ ـ نسخة الفانديك) : « **فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ صِدْقُ الله قَدِ ازْدَادَ بِكَذِبِي لِمَجْدِهِ ، فَلِمَاذَا أُدَانُ أَنَا بَعْدُ كَخَاطِئٍ** »[(١)] .

---

(١)السابق ، م٦ ، ١٢/ ١٩

(١) قارن هذا بما ورد في كتاب ربنا ـ عزوجل ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ التوبة: ١١٩ ، وقول نبينا المصطفى ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام مسلم عن النَّبِيّ ﷺ

ولا أعلم حضًا على الكذب من رجل دِيْن أبلغ من هذا ، وإذا كان رب البيت بالدف ضاربًا فشيمة أهل البيت الرقص.

✓ **وساخات الزنا في سِفْر حزقيال** :

هذا العنوان ليس من قولي ، ولكنه من قول الأب متى المسكين إذ يقول في كتابه المهم « النبوة والأنبياء في العهد القديم » ما نصه : « وسوف يُصدم القارئ المتحفظ باستخدام اللغة القبيحة الفاحشة في أحط معناها وصورها في مخاطبة أهل إسرائيل .... أربعة وعشرون أصحاحًا يفتتح بهم حزقيال نبوته عليهم ، فيها **كل وساخة الزنا وفحشاء الإِنْسَان** ، هذا من جهة الإِنْسَان ، وكل غضب وعقاب بكل أنواع العذابات المعروفة من جهة الله »(١) .

✓ **سفر نشيد الإنشاد** :

هذا السِّفْر دليل من أقوى الأَدِلَّة على بطلان الكتاب المقدس ، وأَنَّهُ ما هو إلا محض افتراء على الله عَزَّ وَجَلَّ ؛ وذلك لما فيه من أمور « جنسية » ، لا أقول تخدش الحياء ، بل تقتله وتُجْهِزُ عليه ، ويندى لها الجبين .

ونسبة هذا السِّفْر لسليمان عليه السلام محل شك وعدم اتفاق، تصرح بهذا الشك دائرة المعارف الكتابية في مادة « نشيد الإنشاد » ، إذ تقول تحت عنوان (الكاتب) ٨ / ٦١: « هناك تقليدٌ عند اليهود ـ كما عند المسحيين أَيْضًا ـ أن كاتب هذا السِّفْر هو الملك سليمان بن داود (نحو ٩٧٠ ـ ٩٣٠ق.م) . وهذا الرأي يستند

إذ يقول : « إنَّ الصدق بر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن العبد ليتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صِدِّيقًا ، وإن الكذب فجور، وإن الفُجُور يهدي إلى النار، وإن العبد ليتحرى الكذب حتى يكتب كَذَّابًا» . وما رواه الإمام البخاري : عن النَّبِيّ ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا اؤتمن خان، وإذا وعد أخلف» . وقال الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود : « لا يصلح الكذبُ في جِدٍّ ولا هزلٍ ، ولا أن يَعِد أحدكم صبيَّه ثم لا ينجزه ، اقرءوا إن شئتم : وكونوا مع الصادقين » .

(١) دير الأنبا مقار ـ دار مجلة مرقس ، القاهرة ، ط٣ ، (٢٠١٤م) ، ص ٢٢٧ ، ومن أمثلة هذه « الوسخات » ـ كما قال الأب متى المسكين ـ قول حزقيال ١٦:٢٥ : « فِي رَأْسِ كُلِّ طَرِيق بَنَيْتِ مُرْتَفَعَتَكِ ، وَرَجَّسْتِ جَمَالَكِ، وَفَرَّجْتِ رِجْلَيْكِ لِكُلِّ عَابِرٍ ، وَأَكْثَرْتِ زِناكِ » .

إلى ما جاء في العدد الأول منه ... ويمكن أن يكون هذا الرأي صحيحًا ، **ولكن لا يمكن الجزم به** » .

ومما قاله علماء النصرانِيَّة عن هذه السِّفْر :

- قال الأب تادرس يعقوب ملطي في تفسيره للكتاب المقدس ، في مقدمة تفسير نشيد الإنشاد : « ... ونصيحتي لكل إنسانٍ ما زال في ظلمة الجسد ، وتتحكم فيه الطبائع البشرية ، **أن يبتعدَ عن قراءة هذا السِّفْر** » .

- ويقول الأب إنطونيوس فكري عن هذا السِّفْر : « هو سِفْر البالغين أو الناضجين روحيًّا ، وكان اليهود يمنعون قراءته لمن هم أقل من سن الثلاثين سنة ؛ حتى لا تشوه أفكارُهم الجسدية معاني السِّفْر . هو سِفْر البالغين إيمانيًّا » .

- ويذكر الأب يوحنا قمير : « يتألف السِّفْر من ثمانية فصول تحتوى حوارات بين حبيب وحبيبة ، بتعابير غرامية جريئة للغاية . فالحبيب يعبِّر عن تَوقه إلى الحبيبة ، وعن حبِّه الولهان لها ، ويتغزَّلُ بجسدها عضوًا عضوًا ، وكذلك الحبيبة . ولا يتوقفان إلا على جمال جسديهما ، وسعادة لقائهما في حبٍّ عنيفٍ مُتبادَل »(١) .

ونذكر هنا بعض المواضع من هذا السِّفْر (وأنا أعتذر مقدمًا للقارئ الكريم عما سأكتبه هنا) :

- جاء في الإصحاح السابع ، العدد ٣ (نسخة الفانديك) : « **سُرَّتُكِ** كَأْسٌ مُدَوَّرَةٌ، لاَ يُعْوِزُهَا شَرَابٌ مَمْزُوجٌ .**بَطْنُكِ** صُبْرَةُ حِنْطَةٍ مُسَيَّجَةٌ بِالسَّوْسَنِ » .

ويقدم التفسير الحديث للكتاب المقدس الصادر عن دار الثقافة بالقاهرة ، والذي يضم في مجلس تحريره القس د.منيس عبد النور، والقس: مكرم نجيب والقس: باقي صدقة ، وهم من صفوة العلماء الإنجيليين التفسير الآتي للفظتين (سرتك وبطنك) :

---

(١) نشيد الإنشاد أجمل نشيد في الكون ، لبنان ،(١٩٩٤م) ، ص ١٠

- « سرتك : أو جسمك ... والأغلب أَنَّ الكلمة يجب ترجمتها : **الفتحة التناسلية للمرأة** » .
- « بطنك أو الخصر : ... تشير للجزء السفلي من البطن أسفل الصرة ، وتستعمل على وجه التحديد للحديث عن الرحم والجنين بداخله ... ومن الواضح أَنَّهُ ليس المقصود هنا الإشارة للأعضاء الداخلية ؛ **بل الأجزاء المستديرة السفلى ذات البشرة القمحية اللون اللامعة** » **!!!** .

- وجاء في الإصحاح الخامس العدد ٤: « حَبِيبِي مَدَّ يَدَهُ مِنَ الْكَوَّةِ فَأَنَّتْ عَلَيْهِ أَحْشَائِي » . وفي تَرْجَمَة أخرى لنفس العبارة السابقة : « ومدَّ حبيبي **يدَه من الثَّقب** ؛ فاهتزَّت له أحشائي »[(١)] .

يقول الأب يوحنا قمير في تفسير هذا الكلام : « أحشائي : تعني الأحشاء ـ في المفهوم الشرقي ـ موقع الإخصاب أو الإنجاب ... وهي كذلك عند الرجل ... وتعني الأحشاء حنان الأم وشفقتها . وتعني الأحشاء في هذه الآية ما تعنيه في أشعيا الشهوة والهوى ، يديَّ وأصابعي : يستعمل هاتين الكلمتين كمترادفين ... ويكثر استعمالهما ـ كما في النصوص الأوغاريتية ـ **رمزًا إلى الأعضاء الجنسية** »[(٢)] .

وأكتفي بهذه الاقتباسات . وإن كان لي من كلمة فهي : لا يعقل أَنَّ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قد عدم الكلمات والألفاظ التي يريد أن يضمنها معان روحية فلم يجد إلا هذا الكلام . فهذا رأي لا مسوغ له ، فما المعاني الروحية التي يمكن أن يتضمنها قول السِّفْر : « حَبِيبِي مَدَّ يَدَهُ مِنَ الْكَوَّةِ، فَأَنَّتْ عَلَيْهِ أَحْشَائِي » **!!** وحاول أيها القارئ أن تضع كلمة « الثقب » بدل كلمة « الكوة » ، وأخبرني عندئذ ما المعاني الروحية التي قد « يقف » عندها عقلك **!!**

(٥) رأي كبار العلماء والأدباء في المَسِيْحِيَّة وموقفهم منها :

يقول المثل العربي : « أهل مكة أدرى بشعابها » ، أي أن أهل المكان هم أدرى

(١)السابق ، ص ٥٥

(٢) السابق ، ص ٥٥

الناس به ، فماذا قال كبار العلماء والأدباء عن المَسِيْحِيَّة :

١ـ رأي الأديب الألماني جوتة(١) :

يقول ول ديورنت عن هذا الأديب : « كان جوته يكره على الأخص تأكيد المَسِيْحِيَّة على الخطيئة والندم ، ويؤثر أن يأثم دون ندم ، كتب إلى هردر (حوالي ١٧٧٤م) يقول : ليت تعليم المسيح كله لم يكن هذا الهراء الذي يثير سخطي بصفتي بشرًا مخلوقًا مسكينًا محدودًا ذا رغبات وحاجات »(١) . ولم يشعر أَنَّهُ بحاجة إلى إله يموت كفارة عنه ، **وأنكر كل حديث عن الصلب** ، **وذهب إلى أَنَّ الدِّيْن المسيحي ثورة سياسية جهيضة انقلبت أخلاقية** ، وقد أعجب بلوثر ، وامتدح حركة الإصلاح البروتستنتي لتخطيها أغلال التقاليد ، ولكنه أسف على انتكاسها إلى العقائد المتزمتة.

٢ـ رأي أديب الألمانية الشهير شيلر (١٨٦٤م ـ ١٨٠٥م):

في قصيدة لهذا الشاعر بعنوان « آلهة اليونان ١٧٨٨م » امتدح اليونان على حساسيتهم الجمالية وإبداعاتهم الفنية ، وزعم ـ في إبهام حذر ـ أَنَّ العالم بات كئيبًا منذ **حلت** المَسِيْحِيَّة محل الهيلينية (٢) .

وكان شيلر ينتمي إلى حركة التنوير ، شأنه في ذلك شأن جوته ؛ وقد قبل إيمان القرن الثامن بالخلاص عن طريق العَقْل البشري لا النعمة الإلهية ، ورفض الكنائس كلها ، البروتستنتية منها والكاثوليكية (٣) .

٣ـ رأي فولتير :

كان فولتير يرى أن ما يمكن قبوله في الديانات غير المَسِيْحِيَّة كثير ، وبخاصة في الكونفوشيه (وهي ليست ديانة)، ولكن لم يسره إلا النزر اليسير في اللاهوت المسيحي. وكان يقول : إن لدي مائتي مجلد في هذا الموضوع، **الأدهى من ذلك أني**

---

(١) سبقت ترجمته.

(١) قِصَّة الحَضَارَةِ ، ٤١/ ٢٥٩، ٣٤٩ (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) .

(٢) السابق ، ٤١/ ٣٠٩ (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) .

(٣) السابق ، ٤١/ ٣٠٩

قرأتها ، وكأني أقوم بجولة في مستشفى للأمراض العَقْلِيَّة . ولم يضفْ إلا القليل لما سبق أن ظهر من نقد للكتاب المقدس. وإنما كانت مهمته أن ينشر هذا النقد على نطاق واسع. ولا يزال أثر هذا علينا واضحًا. وفي جرأة واندفاع أكثر ممن جاءوا بعده، أكد مرارًا سخف طوفان نوح ، وعبور البحر الأحمر، وذبح الأبرياء وغير ذلك. **ولم يكل ولم يمل قط من شجب قصة الخطيئة الأولى ونظرتها**. واقتبس في سخط وغضب قول سانت أوغسطين : إن المذهب الكاثوليكي يعلمنا أن كل الناس يولدون مذنبين إلى حد أَنَّ الأطفال أنفسهم ملعونون بالتأكيد إذا ماتوا دون أن ينفخ فيهم المسيح روحًا جديدة أفضل [(١)] .

٤ـ موقف الأديب الكبير تولستوي (ت ١٩١٠م) [(٢)] :

كان الأديب الروسي الشهير تولستوي أديبًا وروائيًا ومفكرًا ، وفي نفس الوقت مصلحًا دينيًّا ، مال إلى الزهد رغم ثرائه ، وفي عام ١٨٧٦ بدأ يشعر « بالضيق من ثرائه وحياته عمومًا ، وجعل إحساسه باقتراب الموت يتعاظم ، واستحوذت عليه فكرة أن يجعل لحياته مبررًا دينيًّا ، لو صح التعبير ، **فحاول أَوْلًا أن يجد الملاذ في الأرثوذكسية ، دِيْن الملايين الذين يجدون فيه العزاء ، لكن عقلانيته لم تصطبر على طقوسها وتقاليدها ؛ فهجر الكَنِيسَة** ... وفي عام ١٩٠١م أعلنت السلطات الدينية في روسيا **حرمان تولستوي** ، ولم يكن هذا جديدًا على تولستوي ، فقد أعلنته مرارًا

---

(١) السابق ، ٣٨/ ٢٠٥

(٢) تولستوي الأديب والكاتب والشاعر والروائي والمصلح الاجتماعي الروسي ، ولد عام ١٨٢٨م ، من عائلة عريقة ذات أصل روسي خالص ، في سن العاشرة أصبح تولستوي قارئًا نهمًا والتهم المؤلفات التي كانت موجودة في مكتبة البلدية التهامًا ، من أهم أعماله الأدبية « الحرب والسلام » و« آنا كارنينا » ، ويعتبرهما النقاد أعظم قصتين في القرن التاسع عشر ، أظهر اهتمامًا كبيرًا بألف ليلة وكليلة ودمنة ، وترجم **بعض سور القرآن الكريم ، مظهرًا إعجابًا شديدًا بالأدب العربي ، والحكمة العربية الإسلامية**. ولأمير الشعراء أحمد شوقي وحافظ إبراهيم قصيدتان في رثاء هذا الأديب . ينظر مجلة العربي الكويتية ، العدد ٢١٥ ، مقال : تولستوي والإصلاح الاجتماعي ، بقلم د. محمد جليل مصطفى ، ص ٤٨ وما بعدها .

... وقد دفن تولستوي في ضيعته باسنايا بوليانا ، **دون طقوس الدِّيْن المَسِيْحِيَّة** »[1] .

٥ـ توماس كارليل :

يقول هذا الأديب عن النصرانية : « ... نحنُ سمينا الإِسْلام ضربًا من النصرانية ، ولو نظرنا إلى ما كان من سرعته إلى القلوب ، وشدة امتزاجه بالنفوس واختلاطه بالدماء في العروق لأيقنا أَنَّهُ **كان خيرًا من تلك النصرانية التي كانت إذ ذاك في الشام واليونان وسائر تلك الأقطار والبلدان ، تلك النصرانية التي كانت تصدع الرأس بضوضائها الكاذبة ، وتترك القلب ببطلانها قفرًا ميتًا** . على أَنَّهُ قد يكون فيها عنصر من الحق ، ولكنه ضئيل جدًا ، وبفضله فقط آمن الناس بها . **وحقًا إنها كانت ضربًا كاذبًا من النصرانية** ، كالدعي بين الأصلاء »[1] .

٦ـ يوهان سملر :

ذكر ول ديورنت عن هذا العالم أَنَّهُ كان أستاذًا للفلسفة ، وطبق ما يُعرف بـ « النقد الأعلى » على الكتاب المقدس ، فزعم أَنَّ العهد القديم لا يمكن أن يكون موحى به من الله ؛ لأنه ـ إلا في مرحلته الأخيرة ـ تجاهل الخلود . وألمع إلى أَنَّ المَسِيْحِيَّة قد حرفها عن تعاليم المسيح لاهوت القديس بولس الذي لم ير المسيح قط ، ثم نصح اللاهوتيين بأن ينظروا إلى المَسِيْحِيَّة على أَنَّها صورة عابرة من صور جهد الإِنْسَان في بلوغ حياة فاضلة[2] .

٧ـ رأي الدكتور نظمي لوقا :

للدكتور نظمي لوقا سلسلة من المؤلفات عن عدد من أعلام الإسلام ، على رأسهم النبي ﷺ ، في كتاب له بعنوان « مُحَمَّد الرسول والرسالة » ، في هذا الكتاب (ص ٧٥) طرح د. نظمي لوقا نقدًا للمسيحية ، في إحدى عقائدها ، وهي عقيدة الخطيئة الأولى وهو لم يذكر النقد صراحة ، ولكن كل لبيب بالإشارة يفهم ، يقول :

---

(١) السابق ، ص ٥٣

(١) الأبطال تَرْجَمَة : مُحَمَّد السباعي ، كتاب الهلال ـ ع ٣٢٦ ، فبراير ١٩٧٨م ، القاهرة ، ص ٨٤

(٢) قِصَّة الحَضَارَةِ ، ٤١/ ١٦٦ ، (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) .

« وإنْ أنس لا أنس ما ركبني صغيرًا من الفزع والهول من جراء تلك الخطيئة الأولى ، وما سيقت فيه من سياق مروع ، يقترن بوصف جهنم ذلك الوصف المثير مخيلة الأطفال ، وكيف تتجدد فيها الجلود كلما أكلتها النيران ، جزاء وفاقًا على خطيئة آدم بإيعاز من حواء ، وأَنَّهُ لولا النجاة على يد المسيح ، الذي فدى البشر بدمه الطهور لكان مصير البشرية كلها الهلاك المبين.

وإن أنس لا أنس القلق الذي ساورني وشغل خاطري عن **ملايين البشر قبل المسيح ، أين هم؟ وما ذنبهم حتى يهلكوا بغير فرصة للنجاة؟!!** فكان لا بد من عقيدة ترفع عن كاهل البشر هذه اللعنة ، وتطمئنهم إلى العدالة التي لا تأخذ البرئ بالمجرم ، أو تزر الولد بوزر الوالد، وتجعل للبشرية كرامة مصونة ، ويحسم القرآن هذا الأمر ، حين يتعرض لقصة آدم ... ويقول في أكثر من سورة ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ الأنعام: ١٦٤ » .

(٦) **تصادم الكَنِيسَة وكتابها المقدس مع العِلْم والعلماء** :

من المُعَوِّقات التي تمنع الإِنْسَان من الإيمان بهذا الدِّيْن تصادمه ومضادته للعلم ؛ فالكتاب المقدس به من الأخطاء العِلْمِيَّة ما يدل على أَنَّهُ من تأليف البشر ؛ إذ لو كان من عند الله ما وجدنا فيه مثل هذه الأخطاء ؛ لأن أحقَّ مَن يكتب عن الشيء المصنوع من صنعه .

وقبل أن نقدم أمثلة على هذه الأخطاء أثبت هنا المقولة الخطيرة التي ذكرها ول ديورنت عن المَسِيْحِيَّة وعلاقتها بالعلم؛ إذ يقول : « وإذا كانت المَسِيْحِيَّة قد حولت اهتمام الناس من الدار الدُّنْيا إلى الدار الآخرة ، فقد عرضت عليهم تفسيرات سماوية للحادثات التاريخية ؛ **فقاومت بذلك مقاومة سلبية البحث عن العلل الطبيعية ،** وضَحَّت بكل ما أنتجه العَقْل اليوناني من تقدم خلال سبعمائة عام في سبيل علم نظام الكون وأصل الحياة كما وصفهما سِفْر التكوين »[(١)] .

(١) السابق، م٦ ، ١٢/ ١٥٨ ، وهذا الرأي دليل على أَنَّ المسيحية لم يكن لها أي مردود حضاري يعود بالنفع على البشرية.

ومن الأخطاء التي نجدها في هذا الكتاب :

١ـ نظرية كوبرنيكوس :

من العلماء أصحاب البصمات العِلْمِيَّة في تاريخ الإنسانية العالم نيقولاس كوبرنيكوس **Nicolaus Copernicus** (١٤٧٣ ـ ١٥٤٣م) ، والإسهام العِلْمِيّ الذي قدمه يتمثل في تقديم نموذج ذهني لـ « كيفية عمل الكون وتفسير نمط سلوك الأجرام السماوية » ، وكان هذا النموذج أفضل من النموذج الذي قدمه بطليموس ، وأقل تعقيدًا وأكثر ضبطًا .

والجديد الذي قدَّمه كوبرنيكوس في أنموذجه أَنَّ **الأرض تتحرك حول الشمس مخالفًا بذلك الفكرة الشائعة أَنَّ الشمس تدور حول الأرض** .

ونشر كوبرنيكوس هذه النظرية في عام ١٥٤٠م قبل وفاته بثلاثة أعوام في كُتيب أولي صغير بعنوان **Narratio Prima de Libtus Revolutionum** ، وتم بصورة نهائية بعنوان **De Revolutionibus** .

وعند صدور الكتاب في صورته الأولية اعترض عليه مارتن لوثر (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦م) ؛ إذ أرغد وأزبد مؤكدًا أَنَّ الكتاب المقدس يخبرنا أن يوشع أمر الشمس **دون الأرض أن تظل ساكنة ، وأدانت الحركة البروتستانتية الكتاب على طول الخط ،** في الوقت الذي لم تُحدِثْ الكَنِيسَة الكاثوليكية أي لغط أو تذمر طوال حقبة القرن السادس عشر [(١)] .

ولكن ما لبث أن تحول موقف الكَنِيسَة الكاثوليكية ضد نموذج كوبرنيكوس عن الكون بسبب تبني الزنديق جيوردانو برونو لهذا النموذج ، الذي كان متورطًا في محاكمة طويلة سوف تنتهي بحرقه فوق خازوق في العام ١٦٠٠م [(٢)] .

وفي عام ١٦١٦م أدرجت الكَنِيسَة كتاب **De Revolutionibus** ضمن قائمة الكتب المحظورة ، ولم تخرجه من القائمة إلا في سنة ١٨٣٥م ، وظلت

---

(١) جون غريبين : تاريخ العِلْم ، تَرْجَمَة : شوقي جلال ، عالم المعرفة ، ع ٣٨٩ ، يونيو ٢٠١٢م ، ط ١ ، ١/ ٣٥ ، ٣٦

(٢) السابق ، ١/ ٤٠

الكوبرنيكية بعد العام ١٦٠٠م موضع سخط واضح من قبل الكَنِيسَة ؛ وأدى هذا إلى تثبيط همة أي إنسان آخر ، مثل غاليليو ، الذي عاش في إيطاليا في مطلع القرن السادس عشر ، وأبدى اهتمامًا واضحًا بفهم الكيفية التي يسير بها العالم.

وصادف نموذج كوبرنيكوس قبولا عند غاليليو ، وتجمعت لديه أَدِلَّة علمية على صحتها ، غير أَنَّهُ « حرص أشد الحرص على ألا يُعلن صراحة تأييده لنموذج كوبرنيكوس ؛ وذلك لأنه يعي جيدًا مصير برونو ، وآثر عرض دليله فقط ليدع المشاهدات وحدها تتكلم عن نفسها ، على اقتناع تام بأن كنيسة روما ستضطر إن آجلا أم عاجلًا إلى قبول الآثار المترتبة »[1] .

وفي عهد البابا بول الخامس شكلت لجنة بابوية لكي يقرر ما إذا كانت أفكار كوبرنيكوس هرطقة أم لا ، وانتهت اللجنة إلى قرار رسمي يقضي بأنَّ فكرة أَنَّ الشمس مركز الكون رأي سخيف باطل ، ويعتبر رسميًّا هرطقة ، واستطردت اللجنة بالقول : إن الفكرة الزاعمة **بأن كوكب الأرض يدور في الفضاء أقل ما توصف به أَنَّهَا خطيئة في حق الإيمان**[2] .

وتم توجيه تحذير من البابا بول الخامس إلى غاليليو بأنه إذا استمر في تأييد رأي كوبرنيكوس يتعين تحذيره رسميًّا من محاكم التفتيش ، الذراع القضائية سيئة السمعة للبابوية والمسؤولة عن مكافحة الهرطقة .

وبذلت جهود مكثفة لإقناع غاليليو العجوز بأن يقدر الأمور ، ويدرك أَنَّهُ مرغم على الاعتراف بخطأ نظرية كوبرنيكوس ، فإما هذا وإما تبدأ أعمال التعذيب ، وفهم غاليليو أخيرًا حقيقة وضعه ، وقال عبارته المشهورة التي ادعى فيها أَنَّهُ لا يؤمن بمنظومة كوبرنيكوس .

كان آنذاك في التاسعة والستين من عمره ، يعذبه ألم المفاصل المزمن ، **ومرعوب من التعذيب** ، وليس من دليل على الإطلاق أَنَّهُ تمتم قائلا عبارته الشهيرة:

(١) السابق ، ١/ ١٢٧

(٢) السابق ، ١/ ١٣١

« Eppur, Si muove ولكنها تدور » ؛ إذ إِنَّهُ لو كان قد قالها ، وسمعه من حوله لتم مط جسمه يقينًا على آلة التعذيب المسماة « المخلعة » ، أو وضعوه فوق الخازوق ، وربما الاثنان معًا [(١)] .

٢ـ عمر الأرض والخلق :

ادعت الكَنِيسَة أَنَّها قد وجدت عن طريق الوحي الإلهي جوابًا لكل مسألة « من المسائل القديمة المتعلقة بأصل الخلق وطبيعتهم ومصيرهم ، وفي ذلك كتب لكتنيوس (٣٠٧م) يقول : نحن الذين أخذنا عن الكتاب المقدس علم الحقيقة ، نعرف بداية العالم ونهايته . وكان ترتليان قد قال هذا القول نفسه قبل ذلك الوقت بقرن من الزمان ، وأراد أن يُغلق باب الفلسفة أمام الناس » [(١)] .

ولكن يبدو أن معلومات الكتاب المقدس لم تكن دقيقة ، فمن الأخطاء العِلْمِيَّة التي صرحت بها الكَنِيسَة تحديد عمر الخلق ، حيث حددت عمر الخلق وقدَّرته أَنَّهُ عام « ٤٠٠٤ ق . م » ، هذا التَّاريخ توصل إليه الأسقف أوشر في العام ١٦٢٠م بناء على حسابه لسنوات جميع الأجيال في الكتاب المقدس عائدًا إلى البداية الأولى [(٢)] .

وممن شكوا في هذا التَّاريخ العالم إدموند هالي (Edmund Halley ١٦٥٦م ـ ١٧٤٢م) ، وكان سبب شكه دراسته للأسباب المحتملة للطوفان المذكور في الكتاب المقدس ، وقارن بين ذلك وبين تغير مظاهر سطح الكرة الأرضية التي تحدث اليوم بفعل التحات ، ورأى تأسيسًا على هذه المقارنة أَنَّ الواقعة المذكورة (الطوفان) في الكتاب المقدس لا بد أَنَّها وقعت قبل ٦ آلاف سنة بكثير جدًا .

ونتيجة لهذه الأفكار بدأت المرجعيات الكنسية تنظر إليه باعتباره صاحب

---

(١) السابق ، ١/ ١٤١

(١) ول ديورنت : قِصَّة الحَضَارَةِ ، م٦ ، ١٢/ ١٥٨

(٢) جون غريبين : تاريخ العِلْم ، ١/ ٢٤٧ ، والرأي العِلْمِيّ المعاصر يقول بأن عمر الخلق ١٣.٧ بليون سنة .

أفكار تنزع إلى الزندقة (الهرطقة) ، وهذا يعني في ذلك الوقت صعوبة حصوله على منصب أكاديمي ؛ لاحتمال أن تؤدي أفكاره إلى الحرق فوق خازوق [(١)] .

وثاني مَن شك من العلماء في عمر الأرض والخلق المأخوذ من الكتاب المقدَّس العالم كارل لينايوس (**Carl Linnaeus** ١٧٠٧م ـ ١٧٧٨م) ، طبيب وعالم نباتات من أوائل من قبلوا وطبقوا فكرة التكاثر الجنسي للنباتات ، وله أفكار عن تصنيفها ، قدم في مؤلفاته العِلْمِيَّة أوصافًا لنحو ٧٧٠٠ نوع من النبات و٤٤٠٠ نوع من الحيوانات ، وأعطاها جميعًا أسماء وفقًا لمنظومة الأسماء المزدوجة .

وعلاقته بالكتاب المقدس أَنَّهُ كان يقبل روايته للطوفان ، غير أَنَّهُ مع زيادة خبرته وعلمه وجد أن « مثل هذا الحدث الذي دام فترة زمنية قصيرة (طوفان استمر لأقل من ٢٠٠ يوم) لا يمكنه أن يجرف الأحياء بعيدًا في أعماق الأرض ويغطيها برواسب خلال هذه الفترة ، وقال : إنَّ من يعزو كل هذا إلى طوفان حدث فجأة وانتهى فجأة إنما هو إنسان غريب تمامًا عن العِلْم ، وأَنَّهُ بذلك مثل الأعمى الذي يرى بأعين الآخرين ، إن لم نقل إِنَّهُ لا يرى شَيْئًا على الإطلاق . وأكد على العكس من ذلك أن كوكب الأرض كله كانت تغطيه المياه في البدء ، والتي أخذت في الانحسار منذ ذلك الزمن لتتحول تدريجيًّا إلى يابسة ، مخلفة وراءها أحفوريات لتكون دليلًا على أَنَّ المياه غطت وجه البسيطة ، وواضح تمامًا أن هذا كله استلزم زمنًا أطول بكثير من ٦ آلاف سنة من التَّاريخ الذي يذكره علماء الكتاب المقدس ؛ لكن لينايوس لم يشأ أن يورط نفسه في أكثر من ذلك .

وتوافرت في القرن الثامن عشر أسباب قوية للشك في تاريخ الـ ٤٠٠٤ ق . م الذي حسبه الأسقف جيمس أوشر العام ١٦٢٠م ، وحدده تاريخًا لبداية الخلق ، ولم تكن هذه الأسباب عملية فقط بل وتاريخية . وبدأت في هذه الفترة تتسرب معلومات إلى أوروبا عن الصين ، والتي جاءت أساسًا نتيجة عمل إرساليات اليسوعيين التبشيرية الفرنسية ، وأصبح معروفًا على نحو يقيني أَنَّ أول إمبراطور

---

(١) يُنْظَرُ السابق ، ١/ ٢٤٧ ، ٢٤٨

سجله التَّاريخ جلس على عرش الصين كان منذ ٣ آلاف سنة قبل ميلاد المسيح ، مع دلائل تفيد بأن التَّاريخ الصيني أقدم من ذلك بكثير ... ولم يشأ لينايوس أن يورط نفسه في التصريح بوضوح من خلال عباراته المستفيضة أَنَّ التأويل التقليدي للإلهيات في الكتاب المقدس خاطئ »[(١)] .

وجدير بالذكر أن لينايوس كان متدينًا ، **ويؤمن عن يقين بالله** ، ولكن هذا لم يحل دون استمرار شكوكه فيما يخص معايير القرن الثامن عشر في تأويل الكتاب المقدس ، خصوصًا ما يتعلق منه بمسألة عمر الأرض .

ومن العلماء الذين أثبتوا خطأ الكتاب المقدس في تقدير عمر الأرض الكونت دي بوفون ، صاحب أهم الأعمال تأثيرًا وروعة في تاريخ العِلْم ، كتاب « التَّاريخ الطبيعي **Histoire Naturelle** » الذي صدر في ٤٤ مجلدًا خلال الفترة من ١٧٤٩م و ١٨٠٤م .

وأهم إسهام غير تقليدي قدمه بوفون للعلم هو فكرته أَنَّ الأرض تشكلت من مادة لفظتها الشمس نتيجة تأثير مذنب ما ، وتفيد هذه الفكرة أَنَّ الأرض تشكلت في البدء في صورة مادة منصهرة ، ثم بردت تدريجيًّا إلى الدرجة التي تسمح ببقاء الحياة على سطحها ، لكن بدا واضحًا أن هذا استغرق بالضرورة زمنًا أطول من ٦ آلاف سنة ، أو نحو ذلك ، وهي المدة التي يذهب فقهاء اللاهوت إلى أَنَّها الفترة الزمنية التي انقضت منذ بداية الخلق.

واستخدم بوفون بعد ذلك تقنية جاهزة وأكثر صعوبة لاستقراء مدى الفترة الزمنية اللازمة لكي تبرد كرة مماثلة لحجم الأرض . لم تكن التجربة دقيقة تمامًا في الحقيقة ، ولكنها محاولة علمية جادة لتقدير عمر الأرض في استقلال تام عن الكتاب المقدس ، واعتمادًا على القياسات الفعلية فقط . يقول بوفون في كتابه « التَّاريخ » : بدلا من ٥٠ ألف سنة التي حددها نيوتن زمنًا لازمًا لكي تبرد الأرض وتصل إلى درجة حرارتها المعهودة ، الآن أعتقد أن ذلك يستلزم ٤٢.٩٦٤ سنة و ٢١١ يومًا

(١) السابق ، ١/ ٢٧٨

لكي تبرد فقط إلى الحد الذي تكف فيه عن الحرق .

ولنغفل الدِّقَّة الزائفة للرقم المذكور استطرد بوفون ليحسب أن عمر الأرض لا يقل عن ٧٥ ألف سنة . وأرجو ألا يخدعك أن هذا الرقم أقل بكثير من أفضل التقديرات المعاصرة لنا ، **وهو ٤.٥ مليار سنة** ، لكن المهم في هذا السياق أَنَّ الرقم أكثر من عشرة أضعاف عمر الأرض الذي يقول به فقهاء الإلهيات في تفسيرهم للكتاب المقدس ، وهنا وضع التقدير الجديد العِلْم في صراع مباشر مع فقه الإلهيات خلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر[(١)] .

وحتى لا أطيل في هذه المسألة أكثر من ذلك أنقل مباشرة كلام المؤرخ العِلْمِيّ جون غريبين عن آراء علماء آخرين في هذه المسألة ـ عمر الأرض ـ .

- يقول عن العالم جون راي : « ... وعلى الرغم من أن راي كان متدينًا عميق التدين ، فَإِنَّهُ وجد صعوبة في التوفيق بين رواية الكتاب المقدس عن بداية التكوين ، وبين الدليل الذي يراه بعينيه ، وليست الصعوبة ماثلة فقط في تنوع عالم الأحياء ... بل وماثلة أَيْضًا في دراساته عن الأحفوريات ، وكان هو أول من رأى فيها بقايا لكائنات حيوانية ونباتية كانت يومًا ما على قيد الحياة »[(٢)] .

- وينقل عن العالم جورج كوفيير : « وعلى أي حال رأي كوفيير أَنَّ تاريخ الحياة على الأرض ممتد إلى ما لا يقل عن مئات الآلاف من السنين ، وهو أبعد كثيرًا من تقدير الأسقف أوشير »[(٣)] .

- ويذكر عن العالم جيمس هاتون : « ... ولكن أفضل ما يذكره به التَّاريخ هو اقتراحه بأن عمر الأرض أطول كثيرًا جدًا مما ذهب إليه رجال اللاهوت ، وربما أبدية »[(٤)] .

---

(١) السابق ، ١/ ٢٨٤ ، ٢٨٥

(٢) السابق ، ١/ ٢٦٩

(٣) السابق ، ١/ ٢٩٥ ،٢٩٦

(٤) السابق ، ١/ ٣٨٦

٣ـ العلاج بالتراب المقدس :

يذكر ول ديورنت أن جريجوري (ت : ٥٩٤م) ، أسقف تور ، ندد بمن يستخدمون الأدوية بدل الصلوات في علاج المرضى ، وقال : إن هذا « إثم يعذبهم عليه الله » ، ولما مرض هو أرسل يدعو طبيبًا ، ولكن سرعان ما صرفه ؛ لأنه لم ينفعه بشيء ، **ثم شرب قدَحًا من الماء ممزوجًا بتراب جيء به من قبر القديس مارتن ؛ شفي على أثره شفاءً تامًّا** [(١)] .

٤ـ طير بأربعة أرجل :

جاء في سِفْر اللاويين ، الإصحاح ١١ ، العدد ان ٢٠ ، ٢١ ، نسخة الفانديك : « **وكل دبيب الطير الماشي على أربع** فهو مكروه لكم ، إلا هذا تأكلونه من جميع دبيب الطير الماشي على أربع » .

هل يوجد طير يمشي على أربعة أرجل ؟! فما نعلمه أن للطير جناحين يطير بهما ، وقدمين اثنتين يسير عليهما !

وفي تَرْجَمَة الحياة (إحدى ترجمات الكتاب المقدس) التي اعتمد عليها التفسير التطبيقي للكتاب المقدس نجد هذا النَّصّ كالآتي : « وكذلك تُحظَر عليكم **كلُّ حشرةٍ مجنحة ذات أربع أرجل** ، ولكن كلوا من بين الكائنات المُجَنَّحة التي تمشي على أربع ما له ساقان أطول من يديه يقفز بهما على الأرض » .

فهل الكلام في العدد ٢٠ عن الطير أم الحشرات ؟ وهل للحشرات أربعة أرجل أم ستة أرجل ؟! والقاصي والداني يعلم أن أرجل الحشرات « هي ست أرجل أو ثلاثة أزواج ، وهذا العدد يفرق بينها وبين العناكب والعقارب ، فلهذه ثماني أرجل ، فهي ليست حشرات ... وللحشرات ، بل لبعضها ، أجنحة ، يحملها صدرها ، ذلك الذي حمل الأرجل » [(٢)] .

---

(١) قِصَّة الحَضَارَةِ ، المجلد٦ ، ١٢/ ١٩٠

(٢) د.أحمد زكي: الحشرات أكثر مخلوقات الأرض أنواعًا، مجلة العربي الكويتية، ع ١٦٥، ص١٠٠

٥- زراعة الملح :

جاء في سِفْر القضاة ، الإصحاح ٩ ، العدد ٤٥ نسخة الفانديك : « وحارب أبيها لك المدينة كل ذلك اليوم ، وأخذ المدينة ، **وقتل الشعب الذي بها** ، وهدم المدينة **وزرعها ملحًا** » .

وأوردت الطبعة اليسوعية النَّصّ السابق ، وعلقت في الهامش رقم ١١ بالتعليق الآتي : « **حركة رمزية يراد بها تعقيم الأرض** » . وهذا التعليق يثير التساؤلات الآتية : هل ورد في التَّاريخ أَنَّ الملوك كانوا يعقمون المدن التي دمروها ؟ ولماذا يعقمونها ؟ وكيف كان هذا التعقيم ؟ وهل كان التعقيم مثلا لكثرة الجثث التي قتلت ؟! ولماذا نحمل الكلام في النص السابق على المجاز ؟ ولماذا لا نأخذه على الحقيقة.

٦- شرب الماء وحده مضر :

جاء في سِفْر المكابيين الثاني ، الإصحاح ١٥ ، العدد ٣٩ في النسخة اليسوعية : « **وكما أنَّ شرب الخمر وحدها أو شرب الماء وحده مضر** ، وإنما تطيب الخمر ممزوجة بالماء ، وتعطي لذة وطربًا ، كذلك تنميق الكلام يُطربُ مسامع مطالعي السِّفْر » .

فهل شرب الماء وحده مضر ؟!!

٧- من الأخطاء الجغرافية :

جاء في إنجيل متى ، الإصحاح٨ ، العدد ٢٨ (الطبعة اليسوعية ، تحت عنوان: طرد الشياطين وغرق الخنازير) قوله : « ولما بلغَ الشَّاطِئ الآخر في ناحية **الجَدريين** ، تلقاه رجلان ممسوسان خرجا من القبور ... » . وفي هامش رقْم ٢٢ ، ص ٥٩ قالت الطبعة اليسوعية ما نصه : « الجَدْريون ، جَدَرَة هي مدينة هلِّينية في عبر الأردن ، على بعد ١٠ كلم في الجنوب الشرقي من بحيرة طبرية ، في منطقة المدن العشر ، يبدو من هذه الآية أن أرض هذه المدينة كانت تمتدّ إلى البحيرة ، وفي مر (إنجيل مرقص) ١/٥ ، وفي لو (إنجيل لوقا) ترد كلمة الجرَّاسيِّين أو الجَرجسيين » .

ووجه الخطأ كشفه كتاب « التفسير الحديث للكتاب المقدس » ، إذ يقول : « إن كلمة جرجسيين **أدخلت غالبًا بواسطة أوريجانوس** ؛ لأنه **لا جدرا ، ولا المدينة الرُّومَانِيَّة جراسا كانتا على شاطئ البحيرة** » (١) .

(٧) الأخطاء التنبُّئِيَّةُ في المَسِيْحِيَّة :

ثمة عقيدة مشتركة وَحَّدَتْ الجماعات المَسِيْحِيَّة المنتشرة في أنحاء العالم ، تتمثل في « عودة المسيح ابن الله » ، وأَنَّهُ سيعودُ لإقامة مملكته على الأرض ، وأن كل من يؤمن به سينال النعيم المقيم في الدار الآخرة.

ولكن المسيحيين ـ كما يقول ول ديورنت ـ **اختلفوا في وقت عودة المسيح** ؛ « فلما أن مات نيرون ، وخرَّب تيطس الهيكل، ولما أن دمر هدريان أورشليم، رحَّب كثيرون من المسيحيين بهذه الكوارث وعدوها بشائر بعودة المسيح. ولما أن هددت الفوضى الإمبراطوريّة في أواخر القرن الثاني ، ظن ترتليان وغيره أن آخرة العالم قد دنت ؛ **وسار أحد الأساقفة السوريين على رأس قطيعه إلى الصحراء ؛ ليلتقي بالمسيح في منتصف الطريق ، وأفسد أسقف آخر في بنطس نظام أتباعه ، بأن أعلن أَنَّ المسيح سيعود في خلال عام واحد** . ولما لم تصدق كل هذه العلامات، ولم يعد المسيح، رأى عقلاء المسيحيين أن يخففوا من وقع هذه الخيبة بتفسير موعد عودته تفسيرًا جديدًا، فقيل في رِسالَة معزوة إلى برنابا إِنَّهُ سيعود في خلال ألف عام ، وقال أشد هؤلاء حذرًا إن عودته ستكون حين ينقرض جيل اليهود أو شعبهم عن آخره ، أو حين لا يبقى أحد من غير اليهود لم يصل إليه الإنجيل؛ أو كما يقول إنجيل يوحنا: إِنَّهُ سيرسل بدلاً منه الروح القدس أو المقرِّي ؛ ثم نقل الملكوت آخر الأمر من الأرض إلى السَّماء ، ومن حياة الناس في هذه الدُّنْيا إلى الجنة في الدار الآخرة. بل إن الاعتقاد بعودة المسيح بعد ألف عام أصبح لا يلقى تشجيعًا من الكنيسة ، وانتهى الأمر بأن صارت تقاومه وتحكم على القائلين به بالزيغ والضلال.

---

(١) ر. ت . فرانس : التفسير الحديث للكتاب المقدس ، العهد الجديد ، إنجيل متى ، ترجمة: أديه شكري ، دار الثقافة ، القاهرة ، ط١ ، (١٩٩٠م) ، ص ١٧٤

وملاك القول أَنَّ الاعتقاد بعودة المسيح الثانية هي التي أقامت صرح المسيحية، وَأَنَّ الأمل في الدار الآخرة هو الذي أبقى عليها »(١) .

هذه الأخطاء التنبئية التي وقع فيها بعض القساوسة تجعلنا نتساءل : ألا يتصادم هذا الخطأ مع قول الكتاب المقدس : « أَنَّهُ لَمْ تَأْتِ نُبُوَّةٌ قَطُّ بِمَشِيئَةِ إِنْسَانٍ، بَلْ تَكَلَّمَ أُنَاسُ الله الْقِدِّيسُونَ مَسُوقِينَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ » [**رِسالَة بطرس الثانية ، ١/ ٢١**] (١) .

أليس هؤلاء ـ عند تنبئِهم ـ كانوا مسوقين بالروح القدس ؟!! أم أن روح القدس تخلى عنهم في هذا الوقت ؟!!

*****

(٨) المَسِيْحِيَّة دِيْن المحبة كذبًا وبهتانًا :

يدعي أتباع المَسِيْحِيَّة أَنَّها دِيْن المحبة ، ودين السلام ، ولكن تكذب أحداثُ التَّاريخ ووقائعه هذا الادعاء تكذيبًا لا يقبل النقض والدحض ، وإليك الأَدِلَّة :

⇦ إحْراقُ المُخَالِف والمُعَارِض للكَنِيسَة :

تمتلئ المراجع التاريخية بالوقائع التي تعاملت فيها الكَنِيسَة مع مخالفيها ومعارضيها بقسوة بالغة ، وصلت إلى درجة الحرق والإعدام على الخازوق . وقد قمتُ بعمل إحصاء وحصر لبعض الأحداث التاريخية التي لجأت فيها الكَنِيسَة لهذه

(١) قِصَّة الحَضَارَةِ ، م٦ ، ١١/ ٢٩١

(١) يقول الأب أنطونيوس فكري عند تفسيره لهذا الكلام : « مفهوم الوحي لدى المسيحيين واليهود هو ليس أَنَّ الروح القدس يُملي على الكاتب ما يكتب بل :

١ـ هو يعطي الفكرة للكاتب، والكاتب يصوغ ما يكتب بحسب أسلوبه وثقافته وفلسفته وخبراته .

٢ـ **الروح القدس يحمي الكاتب من الوقوع في أخطاء .**

٣ـ **الروح القدس يكشف للكاتب ما هو غامض ومستور** » .

وهذا تفسير مثير للفكر ، ويطرح عدة أسئلة مهمة : لماذا سمح الروح القدس بوقوع أخطاء علمية في الكتاب المقدس كما ذكرنا آنفا ؟ ! ولماذا لم يكشف الروح القدس لهؤلاء موعد قدوم المسيح عليه السلام ؟!!

العقوبة من كتاب قِصَّة الحَضَارَةِ لول ديورنت ، وتجمع لديَّ عدد كبير من الاقتباسات التي تشير إلى « **المحبة المَسِيْحِيَّة** » مع المخالف ، وإليك بعضًا من هذا الإحصاء والحصر .

وأعتذر مقدمًا لقارئي عن كثرة الاقتباسات .

١ـ « ... وفي ١٧ أكتوبر ١٦٨٥ ألغى الملك مرسومًا ثابتًا باعتباره مرسومًا لا لزوم له في فرنسا التي تدين كلها بالكثلكة ، فحظر منذ ذلك التَّاريخ على الهيجونوت(١) إقامة شعائرهم أو فتح مدارسهم ، وصدر الأمر بهدم كل أمكنة العبادة الهيجونوتية وتحويلها كنائس كاثوليكية ، ... وتعرض الهيجونوت المعاندون للنهب والتعذيب ... وقد أكره نحو ٤٠٠٠.٠٠٠ من المهتدين على حضور القداس وتناول القربان، وحكم على الذين **بصقوا قطع القربان المكرسة بعد مغادرتهم الكَنِيسَة بالحرق أحياء** »(٢) .

٢ـ « ... **وظل إحراق الناس بتهمة السحر وصمة عار لا تمحى** من تاريخ البشرية في القرنين التاليين ، في البلاد البروتستنتية والكاثوليكية ، وفي العالم الجديد والعالم القديم على حد سواء »(٣) .

٣ـ « ... يجمع الباحثون في تاريخ الأديان من الأوروبيين أَنَّ الاضطهاد الذي لاقاه **المناهضون للتثليث من قبل الكاثوليك والبروتستنت** على السواء هو الذي بلور المناداة بالتسامح الديني **toleration** ؛ ففي سنة ١٥٥١ م أعلن كاستيلو **Sebastian Castellio** أَنَّهُ لا ينبغي أن ترتكب الجرائم لفرض عقيدة ما فيجب أن تكون حرية الاعتقاد مكفولة. لقد اهتز الضمير الأوروبي نتيجة إحراق سيرفيتوس، وإحراق مسيحيين آخرين لا يدخلون تحت حصر بتهمة الهرطقة التي كانت تعني في المقام الأول إنكار التثليث. فرغم كلمات لوثر التي تنص على أنه: لا يجب استخدام العنف ضد الهراطقة وإنما علينا أن نهديهم

(١) الهيجونوت : هم بروتستانت فرنسا المعتنقون لمذهب كلفن . يُنْظَرُ : المَوْسُوعَة العَرَبِيَّة الميسرة، ص ١٩٢٤

(٢) قِصَّة الحَضَارَةِ ، ١١٦/٣١

(٣) السابق ، ٨/٢١

بكلمات الله، فالهرطقة مسألة معنوية روحية لا يمكن أن نغسلها بنار الأرض ومائها. **ورغم هذه الكلمات فقد تم إحراق ما لا يقل عن عشرة آلاف مسيحي في قرن واحد تحت شعار العقيدة الحقة**. رغم أن لوثر نفسه كان قد اتهم بالهرطقة. ورغم هذا فإن البروتستنت لم يأخذوا العبرة من ذلك فشاركوا في إحراق كثيرين من بينهم نساء ، بل وأسر كاملة حيث كان يساق للحرق كل من الزوج والزوجة والأبناء وأبدى بعض المحرقين تمسكًا وشجاعة فقد ذهبت امرأة للمحرقة كأنما هي : ذاهبة لعرسها ، وأحضروا زوجة رجل وأولاده بالقرب منه قبيل احتراقه ؛ ليعود عن معتقده فرفض حتى ولو جعلوا له « ملء الأرض ذهبًا » على حد قوله. وصرخ رجل وهو يحترق قائلًا : « لقد أخفيتم حقيقة الإنجيل فترة طويلة » ، وقد أورد براندت تفاصيل مذهلة عن حفلات النار هذه استغرقت من كتابه ذي القطع الكبير حوالي ٤٠ صفحة ، وكان يدخل ضمن الهراطقة الذين أحرقوا أولئك الذين يعارضون: سلطة البابا والمناهضون لتعميد الأطفال »[(١)] .

٤- « ... تم إحراق كاترين فوجيل **Catherine Vogel** وكانت زوجة جواهري، وكانت في الثمانين من عمرها وذلك لاعتقادها كما جاء في قرار الاتهام: بوجود إله واحد لا شريك له ، خالق كل شيء ، ما نراه وما لا نراه ولا يمكن للعقل البشري أن يحيط به »[(٢)] .

٥- « ... وفي الخامس من يوليه سيق هس مُكَبَّلًا بعد أن قضى في السجن سبعة أشهر أمام المجلس ...وفي السادس من يوليه عام ١٤١٥م اجتمع المجلس في كاتدرائية كنستانس وأدان كلا من ويكليف وهس ، وأمر بإحراق كتابات هس وسلمه للسلطة الزمنية ، وجرد لتوه من منصبه الديني ، وسيق خارج المدينة إلى موضع أعدت فيه أكداس من الحطب ، وطلب إليه للمرة الأخيرة أن ينقذ نفسه بكلمة تنبئ عن تنازله عن آرائه،

(١) السابق ، ٤٣/ ١٧

(٢) السابق ، ٤٣/ ١٣

ولكنه أبى، وأكلته النار وهو يرتل الأناشيد » [(١)] .

٦- **حرق المجانين** : « ... وتجاوز علاج المجانين شَيْئًا فشيئًا مرحلة احترام الخرافات والأوهام والقسوة الهمجية إلى مرحلة العلاج العملي ، فقد حدث عام ١٣٠٠ أن نُبِشَتْ جثة فتاة ادعت أَنَّها الشبح المقدس ، وأُحْرِقَتْ بأمر من رجال الدين، ولقيت فتاتان عبرتا عن إيمانهما بما ادعته مصرعهما بالجلوس على الخوازيق ، وفي سنة ١٣٥٩ فوَّض كبير أساقفة طليطلة السلطات المدنية في **إحراق إسباني حيًّا** وكان قد ادعى أَنَّهُ أخ ميكائيل كبير الملائكة وأَنَّهُ يتردَّد على السَّماء والجحيم كل يوم » [(١)] .

٧- « ... وكان لوثر يرى أَنَّ الفكرة القديمة التي تذهب إلى أن في وسع الشياطين أن تضاجع النساء ، وأن تنجب منهن أطفالًا فكرة صائبة ، بل إِنَّهُ أشار في مثل هذه الحالة بضرورة إغراق الطفل الذي يولد نتيجة لهذه العلاقة. وقبل السحر والعرافة على أنهما من الحقائق المسلّم بها ، وكان يرى أن إحراق الساحرات على السارية واجب » [(٢)] .

٨- « ... وعرض على كل هرطيق منحه عفوًا كاملًا إذا ارتد عما يقول ، وكثيرًا ما أضاف وعدًا بتقديم مساعدة مالية أو عمل صريح ، ولكن عندما كانت هذه الإغراءات تفشل كان يجيز الحكم بشراسة، وكانت توضع عادة حقيبة ممتلئة بالبارود بين ساقي المحكوم عليه ؛ حتى تؤدي ألسنة اللهب إلى موت سريع، ولكن الخشب احترق ببطء في حالة هوبر، وخاب أثر البارود فلم ينفجر ، وقاسى الأسقف السابق آلامًا استمرت ساعة تقريبًا. وكان معظم الشهداء عمالًا بسطاء تعلموا تلاوة الكتاب المقدس وشجعوا على العمل بالتفسير البروتستانتي له إبان الحكم السابق. ولعل المضطهدين رأوا أن من العدل استدعاء رجال الدِّيْن الذين بذلوا الجهد لتحفيظ مبادئ العقيدة البروتستانتية، ليشهدوا لها بالاستشهاد ، وفي سبتمبر سنة ١٥٥٥ أحضر كرانمر وعمره ستة وستون عامًا ، وريدلي وعمره خمسة وستون عامًا ، ولاتيمر، البالغ من العمر ثمانين عامًا ، من سجن البرج ليقفوا للمحاكمة في

(١) السابق ، ٢٣/ ١١

(١) السابق، ٢٣/ ١٣٩

(٢) السابق ، ٢٤/ ٦٠

أكسفورد. وكان لاتيمر قد لطخ صفحة حياته البليغة بالموافقة على إحراق المنكرين للتعميد والفرنسسكان العنيدين في عهد هنري الثامن » [(١)] .

٩ـ « ... وفي ألمانيا تسابق الكاثوليك والبروتستانت في إعدام السحرة حرقًا. وثمة رواية يمكن الاعتماد عليها ولو أنَّها لا تكاد تصدق، بأن رئيس أساقفة ترير أمر بإحراق ١٢٠ شخصًا في فالزفي ١٥٩٦ بتهمة أَنَّهُمْ أطالوا فترة الجو البارد أكثر من المألوف بطريقة شيطانية . ونسب طاعون الماشية في إقليم سكونو في ١٥٩٨ إلى السحرة. وحث مجلس بافاريا المخصوص في ميونخ المحققين على إظهار مزيد من الجدية والصرامة في الإجراءات ، فكانت النتيجة إحراق ٦٣ ساحرًا ، كما طلب من أقارب الضحايا دفع نفقات المحاكمة . وفي هاينبرج بالنمسا أعدم ثمانون بتهمة الشعوذة في عامي ١٧ – ١٦١٨ وقيل أَنَّهُ في ١٦٢٧ – ١٦٢٩ أعدم أسقف وورنبرج ٩٠٠ من السحرة ، وفي ١٥٨٢ أصدر الناشرون البروتستانت من جديد، وبموافقة منهم : مطرقة السحرة ، التي كان المحقق الدومنكاني جاكوب سبرنجر قد نشرها في ١٤٨٧، وهي عبارة عن توجيهات وإرشادات تفيد في الكشف عن السحرة وفي محاكمتهم. وأصدر أوغسطس ناخب سكسونيا في ١٥٧٢ قرارًا بإحراق السحرة حتى الموت حتى ولو لم يؤذوا أحدًا. وفي اللنجن أحرق ١٥٠٠ من السحرة في ١٥٩٠، وفي اللوانجن ١٦٧ في ١٦١٢، ... وكادت ثمة موجات مماثلة في أوسنابروك ١٥٨٨، ونوردانجن ١٥٩٠، وفي ورتمبرج ١٦١٦. على أن هذه الإحصاءات الأخيرة مأخوذة عن نشرات صحفية معاصرة ومعروفة بعدم الدقة. ويقدر الباحثين الألمان جملة من أعدموا بتهمة السحر بمائة ألف في ألمانيا في القرن السابع عشر » [(١)] .

١٠ـ « ... وأفزعته محاكم التفتيش في أسبانيا والبرتغال، حيث يتسبب الدومنيكان في إحراق الناس كما يحرق القش » [(٢)] .

١١ـ « ... وكانت محاكم التفتيش خلال ذلك ساهرة على نقاء عقيدة الأمة ودمائها. ...

---

(١) السابق ، ٢٥/ ١٨٥

(١) السابق ، ٣٠/ ٢٢٧

(٢) السابق ، ٣٦/ ١٥٢

ومع ذلك كان لهذه المحكمة من النفوذ **والسلطان ما مكنها من إحراق ستة وستين شخصًا في لشبونة على مدى أحد عشر عامًا** (١٧٣٢ - ٤٢) من بينهم أنطونيو خوزيه دا سيلفا كبير كتاب العصر المسرحيين البرتغاليين ، الذي اتهم بأنه يضمر اليهودية. وفي يوم إعدامه (١٩ أكتوبر ١٧٣٩) مثلت إحدى مسرحياته في ملهى لشبونة» (١) .

١٢ـ « ... وبمقتضى مرسوم صدر في ٢٥ مايو ١٧٧٣ أصبح جميع الرعايا البرتغال صالحين الاختيار للمناصب المدنية والعسكرية والكنسية ، ولم تحرق محكمة التفتيش إنسانًا بعد إحراق مالاجريدا عام ١٧٦١ » (١) .

١٣ـ « ... اتهم الكاثوليك لوثر ورفاقه بالخروج على المَسِيْحِيَّة واتهم البروتستنت الكاثوليك بأنهم ليسوا على المَسِيْحِيَّة الصحيحة، ولكن الطرفين ـ الكاثوليك والبروتستنت ـ **تعاونا معا في إحراق جماعة أخرى واضطهادها، هي الجماعة المناهضة للتثليث**. وهي تشكل حركة بكل معاني الكلمة في التَّاريخ الأوروبي، وتشير لها مراجع التَّاريخ الأوروبي العام ، وتاريخ الأديان التي كتبها أوروبيون تحت عنوان شامل، هو الهراطقة والهرطقة » (٢) .

وما زال لدي من المواضع التي بها أمر بالحرق والإحراق الكثير (٣) .

ولا ينبغي أن ننتهي من أمر الحرق دون أن يكون لنا حديث عن حرق العلماء على وجه الخصوص ، ونذكر من بينهم :

⇦ ميشيل سرفتيس **Michael Servetus** ١٥١١ ـ ١٥٥٣م :

---

(١) السابق ، ٤٠/ ٧٩

(١) السابق ، ٤٠/ ٩٢

(٢) السابق ، ٤٣/ ١٠

(٣) لمزيد من الحقائق التاريخية أحيل القارئ إلى المواضع الآتية من كتاب قِصَّة الحَضَارَةِ (طبعة دار الجيل) : ٢٥/ ٥٤ ، ٢٥/ ١٨٣ ، ٢٥/ ١٩٠ ، ٢٦/ ١٤٠ ، ٢٦/ ١٥١ ، ٢٦/ ١٦٧ ، ٢٨/ ١٩٨ ، ٣٠/ ٢٢٠ ، ٣٠/ ٢٢٧ ، ٣٣/ ٥٢ ، ٤١/ ٣٦٨ في هذه المواضع سيجد القارئ محروقين بالعشرات إن لم يكن بالمئات والآلاف ، كما أحيله على طبعة الهيئة المصرية ، الموضع المجلد٦، ١١/ ٢٩٦.

ومن خبر هذه الشخصية ما يلي :

في القرن السادس عشر الميلادي كانت أوروبا تمر بأكبر ثورة دينية عرفتها منذ قيام المَسِيْحِيَّة ، ثورة قسمت الكَنِيسَة الغربية قسمين : بروتستنتي وكاثوليكي ، وكان رافعو أعلام هذه الثورة : لوثر **Luther** في ألمانيا ، وزوينجلي **Zwingli** في سويسرا وكالفن **Calvin** في فرنسا ثم في سويسرا . ونادى أصحاب هذه الثورة بأن فهم الكتب السماوية حق لكل مؤمن ، يستقل به ، ولا يطيع أحدًا فيه .

ومع ذلك فقد وقعت خلال تلك الثورة المتحررة ـ وبأمر من أحد قادتها العظام الأحرار ـ مأساة ميشيل سرفيتس الذي طورد واضطهد ، ثم قتل حرقًا ، لأنَّ له « في طبيعة الذات الإلهية رأيًا حُرًّا يخالف رأي الكَنِيسَة الجديدة المتحررة الثائرة » .

وهذه الظاهرة ـ ظاهرة انقلاب المنادين بالحرية ، إلى منكرين للحرية على من خالفهم ـ كثيرة الحدوث في تاريخ البشرية ، ولعل تفسيرها أَنَّ هؤلاء لفرط إيمانهم بما ينادون به يتوهمون أَنَّهُ وحده هو الحق ، وأَنَّهم دون غيرهم حملة هذا الحق ، وَأَنَّ من خالفهم فيه ضالّ ، إذا تعذرت هدايته فقد وجب ـ لوجه الحق ـ القضاء عليه .

أتت سنة ١٥٣٠م وفي ذلك الجو العاصف الذي كان الجميع فيه مهتمين بتقويم العقيدة ، وإصلاح الكَنِيسَة ، كان لسرفيه في ذلك كله رأي يخالف آراء معاصريه الذين كان يرى أَنَّهُمْ لم يسيروا في تقويم العقيدة إلى الغاية ، فقد كان سرفيه ـ وهو بعد في العشرين من عمره ـ مقتنعًا بأن مجمع نيقية الذي أقر عقيدة التَّثْلِيْث في القرن الرابع ، وجعل منها أساس المَسِيْحِيَّة قد أخطأ جانب الصواب ، وَأَنَّ التوحيد هو وحده العقيدة السليمة . ومن ثم عُرِف بفلسفته التي كانت ضد التَّثْلِيْث **Antitrinitaraian Philosophy** وكان هو أحد معارضيه **Antitrinitaraians**.

ولم يكتف سرفيه بهذا اليقين الذي وصل إليه ، بل حاول جاهدا أَنْ يقنع الآخرين به؛ فاتصل بكبار علماء الإلهيات في كثير من بلاد أوروبا ، محاولا إقناعهم بصحة رأيه وبضرورة بناء العقيدة الجديدة على أساس التوحيد ؛ فلم يستمع إليه منهم أحد ، بل وثارت عليه ثائرتهم . لكن سرفيه لم يأبه لتلك الثائرة ونشر سنة ١٥٣١ م كتابه الأول وعنوانه « في أغلاط التَّثْلِيْث **On the Errors of the Trinity** » ، وأعقبه برسالة أخرى عنوانها « محاورات في التَّثْلِيْث » . بنشر هذا الكتاب

والرسالة هبت زوبعة أثارها رجال الدِّيْن البروتستنت والكاثوليك على السواء ، وتنادوا جميعًا بتكفير صاحبها وبضرورة معاقبته في ذلك الحين بأشد أنواع العقوبة : الموت .

إلا أَنَّ نفس سرفيه التي انطوت على عزيمة حذاء أبت الاستسلام ، وصور له حماسه لما اعتقد أَنَّهُ الحق أَنَّ في مراسلة كبار رجال الدِّيْن ما قد يؤدي إلى اقتناعهم بما يؤمن هو به ، وكان من سوء طالعه أَنَّهُ اختار من بين هؤلاء الذين راسلهم « كالفن » ـ أحد مؤسسي البروتستنتية الذي كان قد غدا الحاكم بأمره في مدينة جنيف ، بعد أَنْ كان هو نفسه ـ أي كالفن ـ قد لجأ إليها هربا من اضطهاد الكاثوليك في فرنسا .

لم تقع رسائل سرفيه موقع الرضا من كالفن ؛ فحاول في أول الأمر أَنْ يقنعه بخطأ رأيه ، ثم نفض يده من أمر سرفيه ، وأحجم عن الرد عليه ، وصار يندد به في أحاديثه ، ويتهمه صراحة بالزندقة والإلحاد .

في هذه الفترة ألف سرفيه كتابه الكبير « استرجاع المسيحية **Restitution of Christianity** » ، وتحت تأثير حسن الظن أرسل إلى كالفن نسخة من مسودة ذلك الكتاب قبل نشره ، مستطلعا رأيه فيه ، فلم يرد عليه كالفن واحتفظ بالنسخة تحت يده دليلا كتابيًا على الزندقة والإلحاد .

مرت على ذلك سنون قبل أَنْ ينشر سرفيه كتابه « استرجاع المَسِيْحِيَّة » الذي كان يعتقد أَنَّهُ يضع به أسس إصلاح ديني يفوق إصلاحات كالفن ولوثر وزوينجلي وغني عن البيان أَنَّهُ نشر ذلك الكتاب الكبير ـ البالغ سبعمائة صفحة ـ سرًا ؛ فلم يظهر في طبعته التي نشرت سنة ١٥٥٣م ما يدل على اسم الناشر ، ولا مكان الطبع .

وما أَنْ نشر الكتاب حَتَّى ثارت ثائرة كالفن الذي اعتبره ردًا مباشرًا على كتابه الذي عنوانه « نظم الدِّيْن المسيحي » الذي كان قد أصبح إنجيل المذهب البروتستنتي الكالفني ؛ فسعى حثيثًا للقبض عليه ، إلى أَنْ تمكن بالفعل من ذلك في « جنيف » التي كانت في ذلك الوقت تحت حكم كالفن ، فقد كان رئيس المدينة الروحي وحاكمها المطلق . وما جرى بعد ذلك كان فظيعًا ، فقد أحيل سرفيه إلى المحاكمة أمام مجلس المدينة ، منعقدًا بهيئة محكمة جنائية ، وصدر حكم المجلس في

السادس والعشرين من أكتوبر سنة ١٥٥٣م قاضيا بإعدام سرفيه حرقًا . وحدد للتنفيذ اليوم التالي على ربوة « شامبل » بجنيف ، ولم يكتف كلفن ـ الحاكم المطلق ـ بهذا النصر ، بل حاول أَنْ يحصل على نصر أكبر بأن ينتزع من سرفيه في ساعة يأس وقنوط اعترافًا بأنه كان على باطل ، ولكن هيهات ، فما كان لرجل مثل سرفيه أَنْ يفعل ذلك .

خرج سرفيه من سجنه مرفوع الرأس ، وسار بين حراسه إلى ساحة مجلس المدينة حيث تُلي الحكم على الجماهير المحتشدة ، ومن ثم سار في موكب حزين إلى ربوة شامبل ، حيث نصب له الزبانية أداة الإعدام ، **فربطوه في سلاسله إلى عمود من الخشب ، وجمعوا من حوله الأحطاب ، ووضعوا عليها مسودة كتابه ـ تلك التي أرسلها إلى كالفن منذ سنوات ـ ثم أوقدوا النار التي ظلت تساور جسد ذلك الشهيد طوال نصف ساعة ، قبل أَنْ يلفظ الروح بعد عذاب لا يحيط به الوصف**(١) .

ويعلق ول ديورنت على إحراق ميشيل سرفتيس تعليقًا غاية في الأهمية ؛ إذ يقول : « ورغم إحراق سيرفيتوس **فإن أفكاره لم تمت**. فسرعان ما دافع عن أفكاره صديقه عالم النبات ليوناردفكس **Leonard Fucks** ، ولعل كون سيرفيتوس من أصل إسباني، بالإضافة لاتهام أعدائه له بأنه تركي أو متأثر بالترك، لا يجعلنا نستبعد **تأثيرات إسلامية على تفكيره كما لا نستبعد بالقدر نفسه أن تكون أفكاره هذه مستقاة من أصول إنجيلية صحيحة ، خاصة وأن وجهة النظر الإسلامية تشير من خلال القُرْآن الكريم إلى أَنَّ المَسِيْحِيَّة في بدايتها كانت من أديان التوحيد الخالص** »(٢) .

⇦ جون ويكليف John Wycliffe ١٣٢٨م ـ ١٣٨٤م :

جون ويكليف مصلح ديني إنجليزي ، درس اللاهوت والفلسفة بجامعة

---

(١) تنظر المصادر الآتية :

⇦ ميشيل سرفيتس، جمال مرسي بدر ، مجلة العربي الكويتية ، العدد ١٩٩ ، يونيو ١٩٧٥م

⇦ د.جون غريبين : تاريخ العِلْم ، عالم المعرفة ، ١/ ٥٣

⇦ **Man's Religions, By JOHN B. NOSS, NEW YORK , P. 677**

⇦ **LEXICON UVIVERSAL ENCYCLOPEDIA, vol.17**

⇦ **Hutchinson's TWENTIETH CENTURY ENCYCLOPAEDIA**

(٢) قِصَّة الحَضَارَةِ ، ٤٣/ ١٦ (طبعة دار الجيل) .

أكسفورد ، عارض سلطان القساوسة ، ونادى بأنَّ الإنجيل هو المرجع الوحيد للعقيدة الدينية ، أنكر تحول القربان إلى لحم ودم المسيح ، وقال عن هذا التحول إِنَّهُ خداع وحماقة كافرة .

هاجم الحقوق المُدَّعاة من قبل الكَنِيسَة مناديًا لمراجعة ثروتها ، وإصلاح فسادها وإهاناتها ، رفض الأساس القائم على الكتاب المقدس الذي يُخَوِّلُ للبابا سلطته ، وأصر على أَنَّ الأولية للكتاب المقدس ، وأيد بشدة الإصلاح اللاهوتي .

قام ويكيلف بدور رئيسي كبير في تَرْجَمَة الإنجيل إلى اللغة الإنجليزية ، وجلب إصراره على تقديم الكتاب المقدس بلغة عامية دارجة (**a vernacular Bible**) للعوام مزيدًا من الصراع مع الكَنِيسَة ، وفقدان الدعم . وقال إنَّ الحصانة الكنسية تسقط عن رجل الدِّيْن الذي لا يُظهر التقوى في معاملاته مع الناس ، وَأَنَّ الكَنِيسَة لا ينبغي أن تملك .

دخل في الخدمة الملكية عام ١٣٧٤م عندما أرسل إلى براغ لكي يتفاوض مع ممثلي البابا حول موضوع دفع الضرائب الباهظة لروما ، وانتشرت مبادئه عن طريق تابعيه ، وأنشأ جماعة القساوسة الفقراء ، واستخدمهم وعاظًا جوالين ، وكانوا سببًا في اندلاع ثورة الفلاحين .

والعجيب أن جون ويكليف لم يُدَن في حياته ، ولكن الأعجب أَنَّهُ بعد موته تمت إدانته من قبل المجلس المسكوني **Council of Constance** (٤ مايو ١٤١٥م) وأمر بـ « **نبش قبره ، وإخراج عظامه وإحراقها** » .

وأثر في المصلح الألماني جون هوس **John Huss** ، ثم في قائد الحركة الدينية البروتستانتية مارتن لوثر ، الذي ثار على البدع في المذهب الكاثوليكي[(١)] .

⇦ **وليم تيندل William Tyndale** (١٤٩٤م ـ ١٥٣٦م):

---

(١) يُنْظَرُ : المَوْسُوعَة العَرَبِيَّة الميسرة ،ص ١٩٧٣ ، ود. عبد المنعم الحفني : المَوْسُوعَة الفلسفية ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، (بدون تاريخ للطبعة) ، ص ٥٣٠ ، وينظر أيضًا: **Lexicon Universal Encyclopedia, Lexicon Publications, Inc., New York, vol. 20, p.298**

من الشخصيات التي لاقت حتفها على يد الكَنِيسَة لا لشيء إلا بسبب جهوده العِلْمِيَّة العالم وليم تندل ، الذي تُعرِّفه كتب التراجم باسم « مترجم الكتاب المقدس » ، حيث نشر ما بين عامي ١٥٢٥م و ١٥٢٦م العهد الجديد باللغة الإنجليزية .

وتبدأ قصة وليم تيندل عندما « فكر مبكرًا في أيام دراسته في تَرْجَمَة الكتاب المقدس ، لا من النسخة اللاتينية له كما فعل ويكلف ، بل من الأصلين العبري واليوناني. وعندما لامه كاثوليكي غيور وقال له: « خير لك أن تعيش بلا شريعة الرب ـ أي: الكتاب المقدس ـ من أن تعيش بشريعة البابا » ، رد تندال بقوله: « إذا مد الله في عمري فلن تمضي بضع سنين حتى أجعل الصبي الذي يدفع المحراث يعرف من الكتاب المقدس أكثر مما تعرف أنت » . ومنحه أحد معاوني بلدية لندن الفراش والمأوى لمدة ستة شهور ، عكف الشاب أثناءها على العمل. وذهب تندال عام ١٥٢٤ إلى فتنبرج ، واستمر في العمل تحت إرشاد لوثر. وبدأ في كولونيا يطبع نسخة العهد الجديد المترجمة من النَّصّ اليوناني كما حققه أرازموس. وأثار وكيل إنجليزي السلطات عليه ؛ ففر تندال من كولونيا الكاثوليكية إلى ورمز البروتستانتية، وهناك طبع٦.٠٠٠ نسخة ، أضاف لكل منها مجلدًا منفصلًا ضمنه تعليقات ومقدمات عدوانية ، اعتمد فيها على مقدمات أرازموس ولوثر. **وهربت كل هذه النسخ إلى إنجلترا ، وكانت بمثابة الوقود ، الذي أشعل نار البروتستانتية الأولى،** وزعم كوثبرت تونستال ، أسقف لندن أنَّ هناك أخطاءً شنيعة في التَّرْجَمَة ، وتحاملًا مغرضًا في التعليقات ، وهرطقات في المقدمات ، وحاول أن يمنع تداول الطبعة بشراء كل النسخ المكتشفة وأحراقها علنًا في ميدان سانت بول كروس، بيد أن نسخًا جديدة ظلت ترد من القارة، وعلق مور على ذلك بقوله: إن تونستال كان يمول مطبعة تندال. وكتب مور نفسه حوارًا مستفيضًا (١٥٢٨)، انتقد فيه النسخة الجديدة فرد عليه تندال ، ورد مور على الرد في « تفنيد » يتألف من ٥٧٨ صفحة من القطع الكبير. ورأى الملك أن يخمد الفتنة بمنع قراءة الكتاب المقدس بالإنجليزية وتداوله، إلى أن تصدر تَرْجَمَة معتمدة من ذوي الشأن (١٥٣٠)، وفي غضون ذلك حرمت

الحكومة كل طبع أو بيع أو استيراد أو حيازة للمؤلفات الهرطقية ، وبعث ولزى بأوامره بالقبض على تندال ، إلا أن فيليب ، حاكم لاندجراف هس أسبغ حمايته على المؤلف ، وتابع في ماربورج ترجمته للأسفار الخمسة (١٥٣٠). وترجم الجانب الأكبر من العهد القديم إلى الإنجليزية في أناة ، بجهده الخاص أو تحت إشرافه.

غير أَنَّهُ سقط في أيدي الموظفين الإمبراطوريين في لحظة لم يتخذ فيها احتياطاته وسجن لمدة ستة عشر شهرًا في فلفورد (قرب بروكسل)، وأعدم في المحرقة (١٥٣٦) على الرغم من تشفع توماس كروموبل وزير هنري الثامن. وتحدثنا الرواية أن آخر كلماته كانت: « رباه، افتح عيني ملك انجلترا » ، وقد عاش ما يكفي لإتمام رسالته ، فالصبي الحارث يستطيع الآن أن يسمع المبشرين الإنجيليين الآن وهم يروون له بإنجليزية ثابتة واضحة قوية قصة المسيح الملهمة. وعندما ظهرت النسخة التاريخية المعتمدة (١٦١١) كان ٩٠ في المائة من أعظم ما كتب في الأدب الكلاسي الإنجليزي وأشدها تأثيراً كانت لتتندال بلا تغيير »(١) .

⇦ نُصُوصٌ تَحُضُّ عَلَى القَتْلِ والذَّبْحِ :

من الأمور التي تُفَنِّدُ المحبة المزعومة في المَسِيْحِيَّة النصوص التي تَحُضُّ على القتل والذبح والتخريب والدمار والهلاك.

ولا جدال ـ عند كل ذي لب وكل صاحب عقل ـ أن عدم قبول المخالف والمعارض للكنيسة ناتج عن إصحاحات الكتاب المقدس ، وما يحتويه من تعاليم ، وفي كلمات خطيرة للغاية يقول الأب العلامة بولس الفغالي في مقال له بعنوان « هل من عنف في الكتاب المقدس ؟ » : « يتضمن العهد القديم أكثر من ست مائة مقطع نرى فيها شعوبًا وملوكًا وأشخاصًا يُدَمِّرون بعضهم بعضًا ويتنازعون . كما أننا نرى إله العبرانيين بالذات يأمر أكثر من مرة بالمجازر ، ويشجع على الحرب ؛ فيسبب غضبه أكثر من ألف مرة الدمار أو الانتقام . إن عدد المصطلحات المرادفة للعنف يبلغ المائة تقريبًا في الكتاب المقدس كله ؛ فنستطيع القول من دون مبالغة بأن

(١) ول ديورنت : قِصَّة الحَضَارَة ، م١٣، ٢٥/ ٧٤

موضوع العنف يشكل أحد المحاور الرئيسية في الكتاب المقدس »[(١)] .

وإليك بعضًا من نصوص المحبة المزعومة :

» « أمَّا أَعْدَائِي، أُولئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِيدُوا أن أَمْلِكَ عَلَيْهِمْ ، فَأْتُوا بِهِمْ إِلَى هُنَا وَاذْبَحُوهُمْ قُدَّامِي » ، لوقا ، الإصحاح ١٩ ، العدد ٢٧

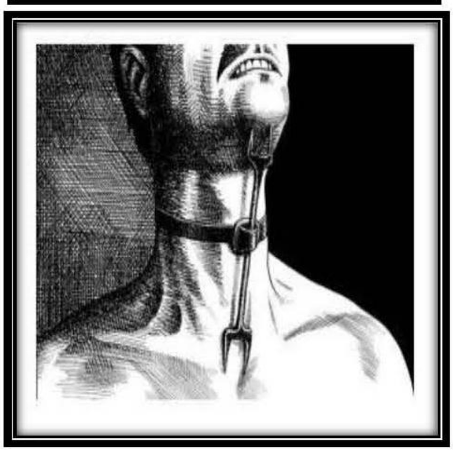
» « فَالآنَ اذْهَبْ وَاضْرِبْ عَمَالِيقَ ، وَحَرِّمُوا كُلَّ مَا لَهُ ، وَلاَ تَعْفُ عَنْهُمْ ، بَلِ اقْتُلْ رَجُلًا وَامْرَأَةً، طِفْلًا وَرَضِيعًا، بَقَرًا وَغَنَمًا، جَمَلًا وَحِمَارًا » ، صموئيل الأول ، الإصحاح ١٥ ، العدد ٣

» « لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا عَلَى الأَرْضِ . مَا جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا بَلْ سَيْفًا ، فَإِنِّي جِئْتُ لأُفَرِّقَ الإِنْسَان ضِدَّ أَبِيهِ، وَالابْنَةَ ضِدَّ أُمِّهَا، وَالْكَنَّةَ ضِدَّ حَمَاتِهَا » ، متى ، الإصحاح ١٠، العدد ٣٤ ، ٣٥

ج- محاكم التفتيش :

ما دمنا في سياق المحبة ، محبة المسيحيين للمعارضين ، فَإِنَّهُ لا يجوز أن نتجاوز أمر محاكم التفتيش. فمن الأمور التي يَندى لها جبين البشرية ، ويجللها بالعار والخزي ما يُعرف في التَّاريخ باسم محاكم التفتيش ، فهي بحق أبشع ما يمكن للإنسان أن يتصوره أو يتخيله . وقد قمت بترجمة ما جاء في الموسوعة الأمريكية **Lexicon Universal Encyclopedia** ، المجلد ١١ ، ص ١٨٣ تحت مادة **Inquisition** ، وإليك ما جاء في هذه المادة بتصرف يسير :

بعض صور آلات التعذيب التي كانت مستخدمة في محاكم التفتيش



(١) يُنْظَرُ : بولس الفغالي : وجه الإِنْسَان وكلام الله ، منشورات الرابطة الكاثوليكية العالمية ، سلسلة محطات كتابية ـ ٢٤ ، (٢٠٠٢م) ، ص ٧٤



كان هدف محاكم التفتيش التي أقامتها الكَنِيسَة في القرون الوسطى البحثَ عن المُهرطقين المنشقين عن عقيدة الكَنِيسَة ، وتنوعت هذه المحاكم ما بين أسقفية **episcopal** ، وبابوية **papal** ، وما بين إقليمية ومحلية.

وقد دافعت الكَنِيسَة في العصور الوسطى ـ من خلال إجراءات عنيفة وقاسية اشتُهرت بها ـ عن تعاليم الكتاب المقدس ، وعن أب الكَنِيسَة القديس أغسطين **Saint Augustine** الذي فسر ما ورد في إنجيل لوقا ١٤: ٢٣[١] ، وصَدَّقَتْ على استخدام القوة ضد المهرطقين .

لقد كانت المشاكل التي أثارتها الطوائف: الألبيُّون **Albigenses (cathari)** والفالديون (فقراء ليون) **Waldenses**[٢] في القرن الثاني عشر الشرارةَ الأولى التي

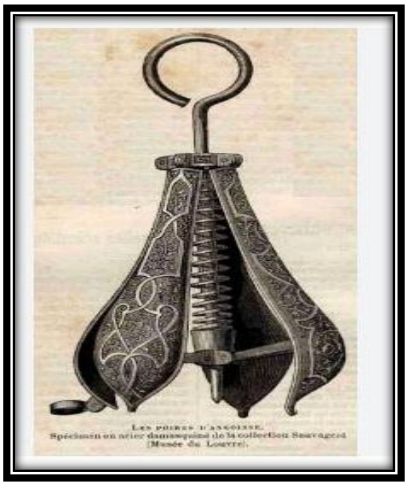
(١) ما ورد في هذا الموضع كما يأتي : « فقال السيد للعبد اخرج إلى الطُّرق والسياجات ، وألزمهم بالدخول حتى يمتلئ بيتي .

And the lord said unto the servant , Go out into the highways and hedges, and compel them to come in, that my house may be filled » .

(٢) **الألبيون** : أتباع حركة دينية منشقة في فرنسا وإيطاليا وألمانيا ، مناهضة للكنيسة الكاثوليكية الرُّومَانِيَّة . **رفضت هذه الطائفة مبدأ التَّثْلِيْث ، والأسرار المقدسة للكنيسة ، وتبجيل الصليب أو الأيقونات ، ولم يعترفوا بسلطة البابا** . وبعد أن أعلن البابا أَنَّهُمْ ملعونون من الكَنِيسَة ، أقاموا كنيستهم الخاصة ، وقد شن البابا إنوسنت الثالث حملة صليبية عليهم عام ١٢٠٩م ، انتهت بهزيمتهم هزيمة نهائية . **والفالديون** : أتباع حركة مهرطقة ، ظهرت في القرن الثاني عشر ، وظهرت في أوساط أقنان الأرض والصناع في جنوب فرنسا . وكانت هذه الحركة في جوهرها حركة اجتماعية سياسية معارضة من قبل الفلاحين ، وعامة الجماهير للنظام **الإقطاعي وللكنيسة الرُّومَانِيَّة الكاثوليكية** . يُنْظَرُ : المُعْجَم العِلْمِيّ للمعتقدات الدينية ، تعريب سعد الفيشاوي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط١ ، (٢٠٠٧م) ، ص ١٤ ، ص ٦٦٨



قادت إلى محاكم التفتيش الأسقفية ، وغالبًا كان تحريض الحُكَّام المدنيين المحليين المحرك الأساسي للآباء لكي يحققوا ويتعاملوا مع هؤلاء الهراطقة ، بحجة أَنَّهُمْ يمثلون تهديدًا لكلا النظامين : النظام الكَنَسي الإكليركي ، والنظام الاجتماعي.



وتأسست محاكم التفتيش بشكل رسمي في عهد البابا جريجوري الرابع **Gregory IX** عام ١٢٣١م ، وتبع هذا التأسيس قانون الإمبراطور الروماني المقدس فريدريك الثاني ، الذي طبق في لومباردي عام ١٢٢٤م ، ثم امتد إلى الإمبراطورية كلها عام ١٢٣٢م .

وقد أمر البابا جريجوري السلطة المدنية بإلقاء القبض على **المهرطقين وإحراقهم** ، وقد فوَّض جريجوري ممثليه بالبحث عن الهراطقة ، وجعلهم يَمثُلون أمام قضاء الكَنِيسَة .

وإذا وقع أحد المشتبهين في أيدي هؤلاء الممثلين تُقامُ محاكمته ، ويتم خلالها استجوابه ، **ومحاولة الحصول على اعتراف منه** ، وكان الحصول علي هذا الاعتراف ضروريًّا للاتهام ، وقد يُلجَأُ في سبيل الحصول على هذه الاعترافات إلى « **التعذيب البدني** »، مثل: تمزيق الأطراف على « المِخلَعَة **The rack** » الحرق بالفحم ، عصر أصابع اليد والقدم، والإستراباد **Strappado** [١] ، والمخلعة الرأسية **vertical rack** .

---

(١) الإستراباد : شكل قديم من أشكال التعذيب أو العقاب ، يُرفع فيه الشخص ، بحبل مشدود إلى مِعْصَمَيه ، إلى عارضة خشبية ، ثم يُترك فجأة ليسقط على الأرض تقريبًا ، أو هي الأداة المستخدمة في هذا التعذيب . يُنْظَرُ : منير البعلبكي : المورد ، ص ١١٥٩



وفي حالة إذا ما أنكر المتهم التُّهَم الموجهة إليه ، بدون دليل يُبطِلُ هذه التهم ، أو كان مصممًا على رفض الاعتراف ، متشبثًا بهرطقته فإنَّ هذا يسوقه إلى أقصى درجات العقاب : السجن مدى الحياة ، تنفيذ حكم الإعدام مصحوبًا بمصادرة ما يملكه.



ولأن الكَنِيسَة في بداية عهدها بمحاكم التفتيش لم يسمح لها بإراقة الدماء ، فإن المهرطق الذي صدرت بحقه أحكامًا يُسَلَّم للسلطات المدينة لإعدامه ، وعادة ما يتم هذا الإعدام على « الخازوق » .

وبعد أن تنتهي محاكمة المتهمين فإنَّهم يُجمعون في مكان يحضره عِليةُ القوم ، والكهنة ، وأهل هذا المكان . وفي هذا المكان يتبرأ التائبون من أخطائهم ، ويتلقون عقوبتهم ، **وأما المُصِرُّون على معتقداتهم يُحرَقون على الفور أمام العامة** .

وكانت لمحاكم التفتيش الإسبانية طابع خاص ، والحقيقة الواضحة أنَّ محاكم التفتيش الإسبانية كانت ـ عمليًّا ـ الأشد عنفًا وقسوة ، وكانت هذه القسوة المُفرطة موجهة في الأساس لـ « الخِنزيريّين **Marranos**» [1] (المتحولون للمسيحية من اليَهُودِيَّة) ، والمغربيين **Moriscos** (المتحولون للمسيحية من الإِسْلام) ، فكثير من هؤلاء كان يُشَكُّ في أَنَّهُمْ يدعمون سرًّا معتقداتهم الأصلية.

وقد استُغلت محاكم التفتيش الإسبانية لتحقيق أغراض سياسية ، **حيث أَدَّت**

(١) الخِنزيريون : اليهودي الأندلسي المتنصر . يُنْظَرُ : المورد ، ص ٧٠٤

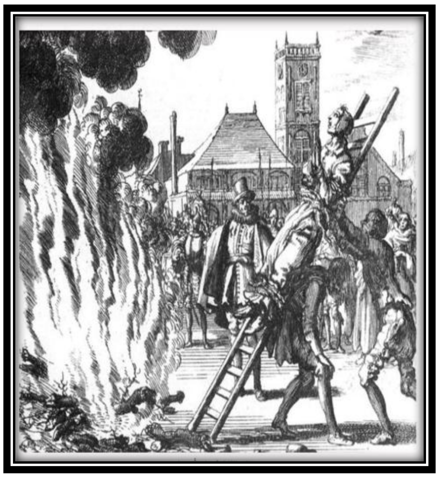
تلك المحاكم أدورًا فظيعة مُرَوّعة بين المتحولين الهنود في المستعمرات الإسبانية في أمريكا.

ولا نستطيع أن ننسى اسم : توماس دي توركيمادا **Tomás de Torquemada** (١٤٢٠م ـ ١٤٩٨م) الاسم الذي حيكت حوله الأساطير كأول رئيس رهيب لمحاكم التفتيش الإسبانية ، الذي كان رمزًا للقسوة اللانهائية ، والتعصب الأعمى ، **والتزمت الديني ، وبسببه مات ألفا شخص ، وعُذِّب الآلاف خلال ترأسه لمحاكم التفتيش الإسبانية** ، وتحت تأثيره نفى الملك فردناند والملكة إيزبيلا أكثر ١٦٠.٠٠٠ يهودي الذين رفضوا التحول للمسيحية من إسبانيا عام ١٤٩٢م .


Circa 1500, A prisoner undergoing torture at the hands of the Spanish Inquisition. Monks in the background wait for his confession with quill and paper.

وقد أصبح كثير من المشاهير والفلاسفة ضحايا لهذه المحاكم ، من أمثال : جوردانو برونو **Giordano Bruno** ، جاليليو **Galileo** ، جون أف أرك **Joan of Arc** .

وقد أصبحت هذه المحاكم وتجاوزاتها وصمة عار ، وموضع خزي وإحراج لكثير من المسيحيين المعاصرين ، ومنذ بداية حركة « ضد الكثلكة » والجدل اللاهوتي ضد الأديان في عصر التنوير **فإنَّ محاكم التفتيش تُقدَّم كأقوى الأمثلة على بربرية القرون الوسطى** .



وعلى الرغم من الجدل الذي ثار لتبرير قيام هذه المحاكم في وقتها ، **فإن المعاصرين اليوم يعترفون بأنَّ محاكم التفتيش تنتمي إلى أشد أوقات تاريخ المَسِيْحِيَّة ظلمة** [1] .

---

(١) انتهي كلام المَوْسُوعَة الأمريكية .

وفي مقال مُهم للمؤرخ الأستاذ الدكتور عبد العظيم رمضان عن محاكم التفتيش ذكر سيادته الحقائق التاريخية الآتية : « ... وسرعان ما هبت الكَنِيسَة لاضطهاد خصومها والتنكيل بهم . فقد عقد مجمع اللاتيران سنة ١١٧٩ برئاسة البابا إسكندر الثالث ، وأصدر ضد هذه الجماعات قرارًا بـ « اللعنة » ، وحرَّض السلطات العلمانية على حمل السلاح ضد هؤلاء الخصوم ، وشن حربًا « صليبية » ضدهم .

وفي مجمع فيرونا المنعقد سنة ١١٨٤ برئاسة لوسيوس الثالث وحضور الإمبراطور الروماني المقدس فردريك بربروسة ، اتخذ قرارًا بمطاردة « الأطهار » ، وتسليم المهرطقين إلى السلطات المدنية للقصاص ، وكلف كبار رجال الدِّيْن بالتفتيش عن أفراد هذه الجماعات بمساعدة الجواسيس للقبض عليهم ، وهدد من يُقصِّر منهم في أداء هذا العمل بقرار لذاته ، وقطع أملاكه .

وفي سنة ١٢٣١ قرر البابا جريجوري التاسع تعيين الرهبان الدومينيكان لمحاربة الهرطقة ، مع عدم حرمان الأساقفة من حق التفتيش عنهم . ومعنى ذلك أَنَّ البابوية قد وضعت محاكم التفتيش كلية تحت سيطرتها المباشرة مستعينة في هذا بأداتها الطيعة من رهبان الفرنسيسكان والدومينيكان .

وفي عهد الملك الفرنسي لويس التاسع تقرَّر أن تقبض السلطات الكنسية للتفتيش على المتهم وتحاكمه ، وإذا تمت إدانته تسلمه إلى السلطات الزمنية « **لإحراقه بالنار** » . وقد عين لويس التاسع «روبرت لي بوجر » مفتشًا كنسيًّا عامًّا على الشمال الفرنسي ؛ فأخذ يمارس أساليب القمع الوحشية باسم الملكية الفرنسية والبابوية معًا.

وسرعان ما انتقلت محاكم التفتيش إلى كل أنحاء أوربا . ففي سنة ١٢٣٨ أصدر الإمبراطور فردريك الثاني قرارًا ملكيًّا بتعميم تحريم الهرطقة على أرجاء إمبراطوريته الرُّومَانِيَّة المقدسة ، وعقاب الهراطقة بالموت . وفي صقلية سيطر فردريك الثاني بنفسه على محاكم التفتيش ، وكان يضم أملاك وأموال من يتم إدانتهم إلى خزانة الملكية. وانتقل النشاط من ألمانيا إلى بوهيميا والمجر والبلاد السلافونية. ثم إلى إسكندناوة وإنجلترا ، بل وصل أَيْضًا إلى بيت المقدس. وفي أسبانيا قرر الملك

جيمس في مايو ١٢٣٢ استدعاء المفتشين الكنسيين إلى بلاده لتطهيرها من الهراطقة.

على أن خطورة هذا الفكر هو أَنَّهُ ظهر في وقت كانت قد ترددت فيه الكَنِيسَة في بيع المناصب الدينية وزواج رجال الدِّيْن ، وافتضحت البابوية وكبار الأساقفة ، وطرحت قضية الإكليروس على بساط الشك من أساسها . وبالتالي أصبح هذا الفكر يهدد مصالح استقرت للكنيسة ، ونظامًا يوفر لرجال الكَنِيسَة كل ألوان الترف والإقبال على الدُّنْيا تحت ستار الدِّيْن ، وبات من الضروري مقاومته بحجة حماية الدين.

.... وقد نجحت أساليب محاكم التفتيش **جر الأب لأن يشهد على ابنه ، والابن على أبويه ، والزوج ضد زوجته ، والزوجة على رجلها.** وقد هنأ البابا جريجوري التاسع في إحدى المرات المفتش الكنسي العالم في شمال فرنسا على « نجاحه المنقطع النظير في إرهاب **الناس حتى شهد الكثيرون ضد ذويهم من لحمهم ودمهم!** ».

.... وقد نظم مجمع فينا المنعقد في سنة ١٣١٢ العلاقة بين الأساقفة ومحاكم التفتيش ؛ فأذن للأساقفة كل في أبروشيته بإقامة سجون خاصة لإيداع من تثبت إدانتهم من الهراطقة.

... وكانت المحكمة تستعين بعدد من المخبرين السريين ، يسافرون متنكرين إلى خارج البلاد لتعقب الهراطقة. وقد ابتدع هؤلاء المخبرون ذلك التقليد الذي سار عليه رجال المخابرات المعاصرون الحاليون من الانضمام إلى الفئات المهرطقة للتحقق من تعاليمهم وأسماء الأعضاء، ثم العودة إلى المحكمة للإدلاء بآرائهم ضد المتهمين. وكان هؤلاء على علم بخفايا هؤلاء الأطهار وبممارساتهم الخفية قبل العلنية ، وكانوا أكثر قسوة ووطأة عليهم.

وكان لمحكمة التفتيش الحقّ في استخدام أساليب الإرهاب والتعذيب لكي تحصل من المتهم على الاعتراف بذنبه. وكانت الذريعة التي تتذرع بها المحكمة في استخدام هذا الأسلوب هو أن « البلاء يفتح الأفواه المغلقة للاعتراف » .

وقد جرت العادة احتجاز المتهم في سجن ضيق خشن يُقيد فيه بالأغلال ، ويُحرم من الطعام والشراب والنوم. وكانت هذه الزنزانات لا تسمح لمن فيها بمجرد الوقوف على القدمين! وإذا فشلت هذه السبل ، تلجأ المحكمة إلى درجات أشد وأقصى من صنوف التعذيب ، منها : تعليق المتهم من يديه ورجليه على الحائط ، ومنها دفع المتهم إلى مكان عال وإلقائه ليهوى إلى الأرض ، ومنها أَيْضًا الكي بشعلة ملتهبة ، وأيضًا طرح المتهم على منصة في وضع مثلث مع ربطه بحبل يلتف على شكل عقد حول جميع أعضاء جسمه، وينتهي برافعة لتمزيق جسده. وعرف من وسائل التعذيب تعريض قدمي المتهم ، بعد أن تطليا بالشحم ، إلى نار ملتهبة ، ثم يظهر المفتش لانتزاع الاعتراف ، وفي كثير من الحالات كان الكثير يموتون قبل الإدلاء بأي اعتراف.

وكانت العقوبات التي تقررها محكمة التفتيش تنحصر في حكمين: أما السجن المؤبد ، أو الموت ، وكان السجن لمن يعترف بإثمه واستعداده للتوبة ، وكان أقسى من الموت نفسه ، فكان المحكوم عليه يُلقى في زنزانة قذرة موثق القدمين لا ينال من الطعام سوى كسرة من الخبز وقدح من الماء » (١) .

ونختم كلامنا عن محاكم التفتيش بهذه الاقتباسات لول ديورنت :

* يقول ديورنت عن الهراطقة المتعصبين عند حديثه عن الثورات الدينية :
« ... وفي الإصحاح الثالث عشر من سِفْر التثنية من هذا الكتاب المنزه عن الخطأ وجد أمرًا صريحًا يزعمون أَنَّهُ صدر من فم الرب ، وهو يقضي بإعدام الهراطقة : « إياك أن تشفق عينك عليه وإياك أن تخفيه » . حتى لو كان « أخاك أو ابنك أو

---

(١) يُنْظَرُ مقال : « محاكم التفتيش ، أسوأ استخدام لاسم الله » ، مجلة العربي الكويتية ، ع ٢٥٨ ، مايو ، ١٩٨٠م ، ص ٤٦ وما بعدها . ومن المراجع المهمة التي أشار إليها د. عبد العظيم رمضان في ثنايا هذا المقال مرجع بعنوان « **محاكم التفتيش نشأتها ونشاطها** » ، للأستاذ الدكتور إسحق عبيد أستاذ تاريخ العصور الوسطى ، بجامعة عين شمس ، وهو أستاذ مسيحيٌّ ، وقد وصف د. عبد العظيم رمضان الكتاب بأنه كتاب علمي جرئ ، وَأَنَّ الكاتب استند في معلوماته على المراجع اللاتينية بكفاءة واقتدار .

زوجتك في حضنك ... ولكنك يجب أن تقتله لا محالة، ويجب أن تكون يدك هي أول يد تنفذ فيه حكم الإعدام » . وعلى أساس تلك الرخصة الرهيبة ، **تصرفت الكَنِيسَة في إبادة طائفة الإلبيجنسن في القرن الثالث عشر، وكانت تلك اللعنة الإلهية بمثابة شهادة معتمدة لماقامت به محاكم التفتيش من إحراق.** وعلى الرغم مما اتسم به حديث لوثر من عنف ، فَإِنَّهُ لم يصل قط إلى درجة القسوة التي عاملت بها الكَنِيسَة مَن يخالفونها في الرأي ، ولكنه سار قدمًا في نطاق وحدود سلطته » [(١)] .

* « ... ولم يكن في أسبانية القرن الثامن عشر يهود سافرون. ففي مطالع حكم البوريون الأسبان استغلت جماعات صغيرة منهم استنارة فليب الخامس المزعومة لاستئناف شعائر العبادة اليَهُودِيَّة سرًّا ، واكتشفت حالات كثيرة ، وأعدم ديوان التفتيش بين عام ١٧٠٠ و١٧٢٠ **ثلاثة يهود في برشلونة ، وخمسة في قرطبة ، وثلاثة وعشرين في طليطلة ، وخمسة في مدريد.** وأحفظت الديوان هذه الاكتشافات فهب ينشط من جديد ، وبلغ عدد الدعاوي التي نظرتها محاكمة بين عامي ١٧٢١ و١٧٢٧ أكثر من ثمانمائة بتهمة اليَهُودِيَّة من بين ٨٦٨ دعوى، **وأحرق خمسة وسبعون ممن أدينوا**... وظلت قوانين أسبانيا تحرم من المناصب المدنية أو الحربية جميع الأشخاص الذين لا يستطيعون إثبات نقاء دمائهم من كل أثر علق به من أسلاف يهود » [(٢)] .

* « ... أما في البرتغال فقد أحرق ديوان التفتيش سبعة وعشرين يهوديًّا لرفضهم الارتداد عن الدِّيانَة اليَهُودِيَّة (١٧١٧) . وقد وفد على لشبونة في ١٧١٢ قادمًا من ريودجانيرو أنطونيو دا سيلفا ، الذي كان في رأي سوذي أفضل كتاب المسرحيات البرتغال ؛ فقبض عليه هو وأمه في ١٧٢٦ لأنهما يهوديان ، وأحرقت الأم ، واستعطف الابن فأطلق سراحه ، ويبدو أَنَّهُ ارتد بعد ذلك ؛ لأنه أحرق في

(١) قِصَّة الحَضَارَة ، ٢٤/ ١٤٥

(٢) السابق ، ٤١/ ٣٦٧

١٧٣٩ ولما يعد الخامسة والثلاثين »[(١)] .

(٩) مضادة تعاليم الكَنِيسَة للفطرة الإنسانية:

من العوائق التي تعوق الإِنْسَان من الإيمان بهذا الدِّيْن مضادته للفطرة الإنسانية فهذا الدِّيْن يصادم الفطرة الإنسانية في بعض مبادئه وتعاليمه ، ويطالب النفس الإنسانية بأمور تأباها طبيعتها ، ولا تقوى على احتمالها ، وإليك بعضًا منها :

- **الحث على العزوبة والتبتل وعدم الزواج** :

بداية نقرر أنَّ ميل الذكر للأنثى أمر طبيعيٌّ ، بل هو أمر لا بد من وجوده ، أمرٌ ينادي به العَقْل والمنطق ؛ إذ إن عدم وجوده يعني ببساطة فناء البشرية وانقراضها.

وتحدثنا مدرسة التحليل النفسي التي يُعد عالم النفس الشهير سيجموند فرويد رائدها وأحد مؤسسيها ، أن « **الغرائز الجنسية جزء من غرائز الحياة ، وافتراض الغريزة الجنسية يقوم على وجود حاجات جنسية عند الإِنْسَان والحيوان** ... وأثبت التحليل النفسي أَنَّ الأطفال **يولدون بالغريزة الجنسية** ، ومن مظاهرها الشبقيةُ الذاتية وَأَنَّ **الغريزة الجنسية تشكل أحد عوامل الصراعات النفسية الرئيسية** ، ويحوي اللاشعور الدوافع الغريزية الجنسية التي لا تلقى مصادقة من المجتمع والدِّيْن ، وتتصادم مع المعايير الأخلاقية ، ويرجع فرويد الجزء الكبير من الميراث الثقافي إلى قمع الغريزة الجنسية ، وكبت الدوافع الجنسية »[(٢)] .

وبمقارنة ما ذكرناه في الكلمات السابقة ، وما تجمع لدينا من معلومات عن وجهة نظر المَسِيْحِيَّة في الزواج نقف على مدى المفارقة الواضحة ، والبون الشاسع بين ما تنادي به الفطرة ، وما تطالب به المَسِيْحِيَّة .

فالمسيحية كانت « توصي بالعزوبة وبقاء البنات أبكارًا ، وتعد ذلك من المثل الأخلاقية العليا ؛ ولم يكن يسمح بالزواج إلا لأنه مانع من الإباحية الجنسية ؛ ولأنه

---

(١) السابق ، ٤١/ ٣٦٧ ، ٣٦٨

(٢) د. عبد المنعم الحفني : المُعْجَم الموسوعي للتحليل النفسي ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، (بدون بيانات أخرى) ، ص ٤٠٧

وسيلة سخيفة لحفظ النسل ، أما الطلاق فلم يكن يسمح به إلا إذا كان أحد الزوجين وثنيًّا ، وأراد أن يلغي زواجه بمن اعتنق المَسِيْحِيَّة . **وكانت الكَنِيسَة تُقاوم زواج الأرامل من النساء والرجال** »[(١)] ، وكانت المَسِيْحِيَّة « تمتدح العزوبة والبكورية والفقر، ولكن لم يكن في وسعها أن تعد الزواج أو الأبوة، أو الملكية من الخطايا»[(٢)] . وكان بولس يرى « أن بقاء البنات عذارى خير من الزواج ... وزواج المُطلقين والمطلقات حرام ، إلا إذا كان المطلق زوجًا لامرأة غير مؤمنة ، أو كانت المطلقة زوجة لغير مؤمن فإن لهما بعد الطلاق أن يتزوجا »[(٣)] ، وكان القديس جيروم « **يمتدح بأقوى الألفاظ عزوبة الرجال وبقاء البنات عذارى** »[(٤)] .

ونجد أبًا من كبار آباء الكَنِيسَة ترتيليان **Tertuilianus** ـ بعد أن تقدمت به السن ـ يصب جام غضبه على المرأة ويخاطبها بـ « أوقح الألفاظ ، ويصفها بأنها : الباب الذي يدخل منه الشيطان ، ويقول لها : من أجلك مات يسوع المسيح »[(٥)] .

وعلى الرغم من هذه الدعوة للتبتل والعزوبة والعزوف عن الزواج إلا أنَّها على أرض الواقع لم تلقَ قبولًا على نطاق واسع من الكهنة أنفسهم فضلًا عن عوام الناس فيحدثنا التَّاريخ أن عند تولي يوحنا كريستوم (يوحنا ذهبي الفم) أقال ثلاثة عشر أسقفًا من الخاضعين لسلطته ، **لفساد أخلاقهم أو متاجرتهم بالدين**[(٦)] .

والقديس أوغسطين نفسه اعترف على نفسه بعد أن بلغ الرابعة والستين من عمره وأصبح أسقفًا فقال : « إن الصور الشهوانية القديمة لا تزال حية في ذاكرتي ،

---

(١) ول ديورنت: قِصَّة الحَضَارَةِ ، م٦ ، ١١/ ٢٨١ ـ ٢٨٢ (طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب).
(٢) السابق ، م٦ ، ١٢/ ١٢٥
(٣) السابق ، م ٦ ، ١١/ ٢٦٦
(٤) السابق ، م ٦ ، ١٢/ ١٠٨
(٥) السابق ، م٦ ، ١١/ ٣٠٨
(٦) السابق ، م٦ ، ١٢/ ١٢٩

تندفع إلى أفكاري ... فهي تساورني في نومي ، لا لتسرني فحسب ، **بل قد يبلغ بي الأمر أن أرضى عنها ، وأحب أن أخرجها من التفكير إلى التنفيذ** . وتلك صراحة وتحليل نفساني لا نجدهما عادة عند الأساقفة » (١) .

وبعد أن عرض المؤرخ ول ديورنت حياة يوحنا ذهبي الفم ومواعظه ضد الأغنياء ، وترفهم ، يعلق بتعليق يتضمن إشارة إلى عدم جدوى محاربة الفطرة ؛ إذ يقول : « وبعد ، فإن جماعة المصلين في الكنائس يحبون أن يؤمنوا ، ولكنهم لا يحبون أن يقوموا ، ومن أجل هذا ظلت النساء يتعطرن ، وظل الأغنياء يقيمون المآدب الفخمة ، وظل **رجال الدِّيْن منهمكين في شئونهم النسائية الخاصة ، ويقيت دور التمثيل تعرض مناظرها المألوفة** » (٢) . ويقول في موضع آخر : « ولم ترض الكَنِيسَة عن هذا الإفراط في التقشف ، ولعلها كانت تحس بشيء من الفخر الوحشي في هذا الإذلال النفسي ، وبشيء من الشراهة الروحية في هذا الإنكار الذاتي ، وبشيء من الشهوانية الخفية في هذا الفرار من النساء ومن العالم كله.

وسجلات أولئك الزهاد **حافلة بالرؤى والأحلام الجنسية** ، وصوامعهم تتردد فيها أصداء أنينهم ، وهم يقاومون المغريات الخيالية والأفكار الغرامية.

وكانوا يعتقدون أَنَّ الهواء الذي يحيط بهم غاص بالشياطين التي لا تنفك تهاجمهم ؛ ويبدو أَنَّ الرهبان قد وجدوا أن حياة الفضيلة في العزلة أشق منها لو أَنَّهُمْ عاشوا بين جميع مغريات المدن. **وكثيرًا ما كان الناسك تختل موازين عقله** ؛ فها هو ذا روفينس يحدثنا عن راهب شاب دخلت عليه في صومعته امرأة جميلة ، فلم يستطع أن يقاوم سحر جمالها ، ثم اختفت من فورها في الهواء كما ظن هو، فما كان من الراهب إلا أن خرج هائمًا على وجهه ، إلى أقرب قرية له ، وقفز في فرن حمام عام ليطفئ النار المستعرة في جسمه. وتروي قصة أخرى عن فتاة استأذنت في الدخول

---

(١) السابق ، م٦ ، ١٢/ ١٤٥

(٢) السابق ، م ٦ ، ١٢/ ١٣٠ ، وما زالت إلى الآن تتواتر الأخبار بتحرش الكهنة بالنساء ، خاصة مع خلوة الاعتراف بين الكاهن والنساء ، وما خبر برسوم المحرقي منا ببعيد ، الكاهن الذي انتهك عِرض ....

إلى صومعة راهب مدعية أَنَّ الوحوش تطاردها فرضي أن يؤويها وقتًا قصيرًا ، ولكن حدث في تلك الساعة أن مست جسمه مصادفة ؛ فاشتعلت نار الشهوة فيه ، كأن سني التقشف الطوال التي مرت به قد انقضت دون أن تحدث فيها أقل أثر. وحاول الراهب أن يمسك بها ، ولكنها اختفت عن ذراعيه وعن عينيه. ويقول الرواة إن جماعة من الشياطين أخذت تغنّي وتهلل طربًا وتضحك من سقطته، ويقول روفينس إنَّ الراهب لم يطق حياة الرهبنة بعد تلك الساعة ؛ فقد عجز كما عجز بفنوس **Paphnuce** في مسرحية تييس **Tuais** لأناتول فرانس عن أن يبعد عنه رؤيا الجمال التي أبصرها أو تخيلها ؛ فغادر صومعته وانغمس في الحياة المدنية ، وسار وراء هذه الرؤيا حتى أوصلته آخر الأمر إلى الجحيم »[(١)] .

○ **الدعوة إلى الزهد في الدُّنْيا :**

كان آباء الكَنِيسَة الأوائل يدفعون أتباعهم ويحضونهم على الزهد في الدُّنْيا ، وترك ملذاتها وشهواتها .

ولم يكن الزهد الذي تتطالب به المَسِيْحِيَّة أتباعها زهدًا معتدلًا ، يتمثل في التوسط في الإنفاق والتوسط بين الإسراف والتقتير ، بل كان زُهدًا « **قاتلًا** » ، لا تتحمله النفس ولا تتطيقه .

من ذلك مثلًا أَنَّ القديس جيروم ترك هو وبعض أصدقائه « مدينة أكويليا تتردَّى ورحلوا إلى الشرق الأدنى ، ودخلوا ديرًا في صحراء خلقيس بالقرب من إنطاكيا (٣٧٤) ، ولكنهم لم يحتملوا حرَّها القاسي غير الصحي ؛ فمات اثنان منهم ، وأوشك جيروم هو أَيْضًا أن يموت ، ولكن هذا لم يثنه عما أراده لنفسه ؛ فغادر الدير ليعيش عيشة النساك في صومعة في الصحراء »[(١)] .

---

(١) السابق ، م٦ ، ١٢/ ١٢٤ ، ولولا خشية الإطالة لذكرنا ما قاله ول ديورنت في ١٦/ ١٤٩ عن الفساد الذي كان في أديرة الراهبات ، واحتراف راهبات القديسة فارا **Fara** **فن الدعارة** وغيرهم وغيرهم .

(١) السابق ، م٦ ، ١٢/ ١٠٧

وبعث ما شاهده القديس أرجينيز آدمانتيوس **Origenes Aadamantius** من استشهاد كثيرين من المسيحيين في نفسه مزيدًا من التقى والإيمان ؛ « فعمد إلى حياة الزهد والتقشف وأكثر من الصوم ، وأقلل من ساعات النوم ، وافترش الأرض ، ومشى حافيًا ، وعرض نفسه للبرد والعري ، وأخيرًا عمد إلى خصي نفسه ، إطاعة للآية الثانية عشرة من الإصحاح التاسع عشر من إنجيل متى ، أن تزمت في تفسيرها أشد التزمت » (١) .

وكان اثناسيوس قد جاء إلى روما براهبين مصريين ، وكتب تَرْجَمَة لحياة أنطونيوس ، وكان روفينوس **Rufinus** قد نشر في الغرب تاريخ الأديرة في الشرق ؛ فتأثرت عقول أتقياء المسيحيين بما ذاع عن تَدَيُّن أنطونيوس وشنوده ، وباخوم ، وأنشأ سكستوس الثالث (**Sextus III** ٤٣٢ -٤٤٠) وليو الأول أديرة ، في روما ، ورضيت كثير من الأسر أن تحيا حياة العفة والفقر التي يحياها الرهبان في الأديرة ؛ وإن ظلت تقيم في منازلها (٢) .

ويكاد مناخ مصر أن يغري الناس بحياة الأديرة ؛ ولهذا غصت بالرهبان النساك الفرادي والمجتمعين في الأديرة ، يعيشون في عزلة كما كان يعيش أنطونيوس ، أو جماعات كما كان يعيش باخوم في تابن **Tabenne**. وأُنْشِئَتْ الأديرة للرجال والنساء على طول ضفتي النيل ، وكان بعضها يحتوي نحو ثلاثمائة من الرهبان والراهبات . وكان أنطونيوس (٢٥١ - ٣٥٦) أشهر النساك الفرادي ، ... **وقلما كان يغتسل** ، ... سافر إلى الإسكندرية في سن التسعين ليؤيد أثناسيوس ضد أتباع أريوس. وكان يليه في شهرته باخوم الذي أنشأ في عام ٣٢٥ تسعة أديرة للرجال وديرًا واحدًا للنساء. ...

ونشأت بين النساك الفرادى منافسة قوية في بطولة النسك يتحدث عنها دوشين **Abbe Duchesne** بقوله إن مكاريوس الإسكندري « **لم يكن يسمع**

(١) السابق ، م٦ ، ١١/ ٣٠٩

(٢) السابق ، م ٦، ١٢/ ١٠٦

بعمل من أعمال الزهد إلا حاول أن يأتي بأعظم منه » ، فإذا امتنع غيره من الرهبان عن أكل الطعام المطبوخ في الصوم الكبير امتنع هو عن أكله سبع سنين ؛ وإذا عاقب بعضهم أنفسهم بالامتناع عن النوم شوهد مكاريوس وهو « يبذل جهد المستميت لكي يظل مستيقظًا عشرين ليلة متتابعة » ، وحدث مرة في صوم كبير أن يظل واقفًا طوال هذا الصوم ليلًا ونهارًا ، لا يذوق الطعام إلا مرة واحدة في الأسبوع ، ولم يكن طعامه هذا أكثر من بعض أوراق الكرنب ، ... **ولبث ستة أشهر ينام في مستنقع ، ويعرض جسمه العريان للذباب السام** .

ومن الرهبان من أوفوا على الغاية من أعمال العزلة ؛ من ذلك سرابيون **Serapion** الذي كان يعيش في كهف في قاع هاوية لم يجرؤ على النزول إليها عدد قليل من الحجاج. **ولما وصل جيروم وبولا إلى صومعته هذه وجدوا فيها رجلاً لا يكاد يزيد جسمه على بضعة عظام ، وليس عليه إلا خرقة تستر حقويه** ، ويغطي الشعر وجهه وكتفيه ، ولا تكاد صومعته تتسع لفراشه المكوّن من لوح من الخشب وبعض أوراق الشجر. ...

ومن النساك من كانوا لا يرقدون قط أثناء نومهم ، ومنهم من كان يداوم على ذلك أربعين عامًا مثل بساريون **Bessarion** أو خمسين عامًا مثل باخوم .

ومنهم من تخصصوا في الصمت ، وظلوا عددًا كبيرًا من السنين لا تنفرج شفاههم عن كلمة واحدة. ومنهم من كانوا يحملون معهم أوزانًا ثقالًا أينما ذهبوا. ومنهم من كانوا يشدون أعضاءهم بأطواق أو قيود أو سلاسل. ومنهم من كانوا يفخرون بعدد السنين التي لم ينظروا فيها إلى وجه امرأة .

وكان النساك المنفردون جميعهم تقريبًا يعيشون على قدر قليل من الطعام ، ومنهم من عمّروا طويلًا. **ويحدثنا جيروم عن رهبان لم يطعموا شَيْئًا غير التين وخبز الشعير**.

ولما مرض مكاريوس جاءه بعضهم بعنب فلم تطاوعه نفسه على التمتع بهذا الترف ، وبعث به إلى ناسك آخر، وأرسله هذا إلى ثالث حتى طاف العنب جميع الصحراء (كما يؤكد لنا روفينس) ، وعاد مرة أخرى كاملًا إلى مكاريوس .

وكان الحُجَّاج ، الذين جاءوا من جميع أنحاء العالم المسيحي ليشاهدوا رهبان الشرق ، يعزون إلى أولئك الرهبان معجزات لا تقل في غرابتها عن معجزات المسيح ، فكانوا ـ كما يقولون ـ يشفون الأمراض ويطردون الشياطين باللمس أو بالنطق بكلمة ؛ وكانوا يروّضون الأفاعي ، أو الآساد بنظرة أو دعوة ، ويعبرون النيل على ظهور التماسيح. وقد أصبحت مخلفات النساك أثمن ما تمتلكه الكنائس المَسِيْحِيَّة ، ولا تزال مدخرة فيها حتى اليوم(١) .

وتأثرت النساء بهذه الدعوات ، حيث « خرجت كثير من السيدات ذوات الثراء مثل مرسلا **Marcella** عن الجزء الأكبر من مالهن للصدقات ... وبلغ من تقشفهن وزهدهن أن مات بعضهن من الحرمان ، وأخذت الدوائر الوثنية في رومة تشكو من أنَّ هذا النوع من المَسِيْحِيَّة ، لا يتفق مع حياة الأسر ، أو مع نظام الزواج ، أو مع القوة التي تحتاجها الدولة »(٢) .

ويحدثنا التَّاريخ عن فتاة تُدعى بليسلا ماتت بسبب المبالغة الشديدة في الزهد ، وبعد موتها ببضعة أشهر « أخذ الكثيرون يُنَدِّدُون بالزهد الصارم الذي علمها إياه جيروم ، وأشار بعض الوثنيين بإلقائه هو وجميع رهبان رومة في نهر التيبر ، لكن جيروم لم يندم على ما فعل ، ووجه إلى أمها الثكلى ـ التي كاد الحزن أن يُذهب بعقلها ـ رِسالَة تعزية وتقريع »(٣) .

هذا الزهد المبالغ فيه جعل أحد آباء الكَنِيسَة يرفض هذا السلوك ، فعندما زار باسيلي العظيم (٣٢٩م ـ ٣٧٩م) النساك في مصر وسوريا لم يوافق « على زهدهم وانطوائهم على أنفسهم ، ثم صار أسقفًا لقيصرية كبدوكيا ، ونظم شئون المَسِيْحِيَّة في بلاده ، فأعاد النظر في شعائرها ، وأدخل فيها نظام رهبنة الأديرة التي تنتج كل ما

(١) السابق ، م٦، ١٢/ ١١٩ وما بعدها.
(٢) السابق ، م٦ ، ١٢/ ١٠٦
(٣) السابق ، م٦ ، ١٢/ ١١١

يحتاجه المقيمون فيها ، ووضع قانونًا للأديرة لا يزال هو المسيطر على جميع أديرة العالم اليوناني الصقلي. **وقد نصح أتباعه بأن يتجنبوا ما يأتيه النساك المصريون من أعمال القسوة المسرحية** ، وأن يستعيضوا عنها بخدمة الله ، وخدمة صحتهم وعقولهم بالعمل النافع ، وهو يرى أن حرث الأرض من خير أنواع العبادة. ولا يزال الشرق المسيحي حتى الآن يعترف بما له في المَسِيْحِيَّة من أثر لا يضارعه أثر أحد غيره »(١) .

واعتراض هذا القديس على هذا السلوك الزهدي يدل على أَنَّهُ غير موجود في أصل المَسِيْحِيَّة ، وأَنَّهُ مبتدع من قبلهم ، ولا يستند على أساس صحيح فيها .

○ **دعوة إلى القذارة :**

لا جدال أن تراجم العظماء مصدرٌ ثَرٌّ ومعين لا ينضب للكثير من القيم والأخلاق التي يتعلمها القارئ لهذه التراجم ، وتزداد أهمية هذه التراجم إذا تعلقت بأمر العقيدة ورجالها .

وتراجم رجال الدِّيْن المسيحي تحفل بأمور أخلاقية كثيرة ، ولكنها للأسف أمور تضاد الفطرة ، منها سلوك الدعوة إلى « القذارة » ، وإليك الأَدِلَّة على ما ندعي :

- « وكان أنطونيوس (٢٥١ – ٣٥٦) أشهر النساك الفرادي ، ... **وقلما كان يغتسل** »(٢) .
- « شوهد مكاريوس وهو « يبذل جهد المستميت لكي يظل مستيقظًا عشرين ليلة متتابعة » ، وحدث مرة في صوم كبير أن يظل واقفًا طوال هذا الصوم ليلاً ونهارًا لا يذوق الطعام إلا مرة واحدة في الأسبوع ، ولم يكن طعامه هذا أكثر من بعض أوراق الكرنب ... **ولبث ستة أشهر ينام في مستنقع ، ويعرض جسمه العريان للذباب السام** »(١) .
- « ... على أن كثيرين من الرهبان المصريين **كانوا أميين يحتقرون العلوم الدنيوية ويرون أَنَّها غرور باطل. ومنهم من كان يرى أَنَّ النظافة لا تتفق مع الإيمان ؛ وقد**

(١) السابق ، م٦ ، ١٢/ ١٢٧

(٢) السابق ، م٦، ١٢/ ١١٩

(١)السابق ، م٦، ١٢/ ١٢٠

أبت العذراء سلفيا أن تغسل أي جزء من جسدها عدا أصابعها ، وكان في أحد الأديرة النسائية ١٣٠ راهبة لم تستحم واحدة منهن قط أو تغسل قدميها. لكن الرهبان أنسوا إلى الماء حوالي آخر القرن الرابع ، **وسخر الأب إسكندر من هذا الانحطاط ؛ فأخذ يحِنُّ إلى تلك الأيام التي لم يكن فيها الرهبان يغسلون وجوههم قط** » [(١)] .

« ويروي لنا المؤرخون أن سمعان العمودي (**Simeon Stylites** ٣٩٠؟ - ٤٥٩) كان لا يذوق الطعام طول الصوم الكبير الذي يدوم أربعين يومًا. وقد أصرَّ في عام من الأعوام أثناء هذا الصوم كله أن يوضع في حظيرة ، وليس معه إلا قليل من الخبز والماء ، وأخرج من بين الجدران في يوم عيد الفصح فوجد أَنَّهُ لم يمس الخبز أو الماء. وبنى سمعان لنفسه في عام ٤٢٢ عمودًا عند قلعة سمعان في شمال سوريا وعاش فوقه. ثم رأى أن هذا اعتدال في الحياة يجلله العار ؛ فأخذ يزيد من ارتفاع العمود التي يعيش فوقها حتى جعل مسكنه الدائم فوق عمود يبلغ ارتفاعه ستين قدمًا ، ولم يكن محيطه في أعلاه يزيد على ثلاث أقدام ، وكان حول قمته سور يمنع القديس من السقوط على الأرض حين ينام. وعاش سمعان على هذه البقعة الصغيرة ثلاثين عامًا متوالية معرضًا للمطر والشمس والبرد ، **وكان أتباعه يصعدون إليه بالطعام وينقلون فضلاته على سلم يصل إلى أعلى العمود. وقد شد نفسه على هذا العمود بحبل حزّ في جسمه ؛ فتعفَّن حوله ، ونتن وكثرت فيه الديدان ، فكان يلتقط الدود الذي يتساقط من جروحه ويعيده إليها ويقول: « كلي مما أعطاك الله! »** » [(١)] .

والسؤال الذي يطرح نفسه : هل كان هذا السلوك بناء على تعليمات الكتاب المقدس أم ماذا ؟ !

وأنا لا أكاد أن أملك على أن أقول : الحمد لله على نعمة الإِسْلام الذي دعانا

---

(١) السابق ، م٦، ١٢/ ١٢٢

(١)السابق ، م٦، ١٢/ ١٢٣

للطهارة والنظافة ، فقال :

* ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ البقرة: ٢٢٢
* ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ﴾ المائدة: ٦
* ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾ الفرقان: ٤٨

وقول نبينا المصطفى ﷺ : « **الطّهُور شطر الْإِيمَان** ، وَالْحَمْد لله تملأ الْمِيزَان ، وَسُبْحَان الله ، وَالْحَمْد لله تملآن أَو تملأ مَا بَين السَّمَاوَات وَالْأَرْض، وَالصَّلَاة نور، وَالصَّدَقَة برهَان ، وَالصَّبْر ضِيَاء ، وَالْقُرْآن حجَّة لَك أَو عَلَيْك ، كل النَّاس يَغْدُو فبائع نَفسه فمعتقها أَو موبقها » رَوَاهُ مُسلم .

ومن نفائس أقوال الشيخ محمد الغزالي في هذه النقطة قوله : « وقد أوجب الإسلام الوضوء ، كما فرض جملة من الأغسال التي تشمل الجسد كله ! **ونستطيع جعل الوضوء رمزًا لفلسفة الإسلام في تكريم الجسم الإنساني وإعزازه** ؛ إذ أن هناك عقائد تعلن حربًا على هذا الجسم وترى الارتقاء في إهماله وإنحافه والجور عليه ، وذلك في زعمها لترقية الروح ... والواقع أَنَّ الإِنْسَان معنى ومبنى ، وقلبٌ وقالب ، وعزل المادة عن الروح صعب ، والمفروض أن يكون المعنى الشريف في مبنى نظيف وأن يكون القلب الطيب في إهاب نفيس »(١) .

فالحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة.

*****

(١٠) **التدين الكاذب والثراء الفاحش** :

مما سجَّله التَّاريخ على رجال الدِّيْن المسيحي أن معظمهم طلاب ثروة وجاه ، وحبٌّ للظهور واستتباع الناس لهم ، قال المؤرخون : « وظل استغلال الأقوياء والمهرة البائسين والسذج يجري مجراه في عهد القوط الغربيين ، كما كان يجري في عهد سائر الحكومات القديمة. فكان **الأمراء والأحبار** يجتمعون في حفلات دينية أو

(١) مائة سؤال عن الإسلام ، دار ثابت ، القاهرة ، ط٣ ، (١٩٨٧م) ، ١/ ٩١

دنيوية فخمة، **ويضعون قواعد للتحليل والتحريم، ويدبرون وسائل للإرهاب والرعب** ؛ **ليتغلبوا بذلك كله على مشاعر الجماهير ويهدئوا أفكارهم. وتركزت الثروة في أيدي عدد قليل من الأفراد ، وكانت الثغرة الواسعة التي تفصل الأغنياء عن الفقراء ، والمسيحيين عن اليهود تقسم الأمة ثلاث دول مختلفة** ؛ فلما أن جاء العرب لم يبال الفقراء واليهود بسقوط **دولة ملكية وكنيسة لم تظهر شَيْئًا من الاهتمام بفقرهم وسامَتْهم كثيرًا من أنواع الاضطهاد الديني** »[(١)] .

وفي دراسة جريئة للدكتور إسحق عبيد (الكاتب المسيحي الأكاديمي أستاذ العصور الوسطى بكلية الآداب ، جامعة عين شمس) ذكر بعض فضائح القساوسة المالية وغيرها ، فقال: « وفي سنة ١١٩٨ فاحت رائحة فضائح كبير أساقفة بيزانسون المدعو جيرارد دي روجيمونت ، وكذلك مخازي ماهي دي لورين أسقف تول الذي كان غارقًا حتى أذنيه في وحل الرشوة ورحلات الصيد ، بل إِنَّهُ قام سنة ١٢١٧ باغتيال خصمه رينوه دي سنليس.

ويحدثنا القديس برنارد دي كليرفوه نفسه بأن الفساد بلغ حدًّا بات الأساقفة معه من زمرة الغلمان الطائشين . وعُرف عن مندوبي البابا (القاصد الرسولي) أنَّ جيوبهم باتت تُحشى بالفضة والذهب في جولاتهم التفتيشية. ولقد شكا رهبان الداوية إلى البابا إسكندر الثالث بأنَّ القاصدين الرسوليين باتوا يعبدون صنم المال.

... ولعل أشد ما أغضب الناس من رجال الدِّيْن حق الغفران الذي وضعه الكنسيون في جيوبهم يمنحونه لمن أرادوا مقابل مادي ، ولقد ظهر الغفران **Indulgence** بشكل مميَّز عندما دعا البابا أوربان الثاني إلى الحركة الصليبية في مجمع كليرمونت سنة ١٠٩٥ معلنًا غفران خطايا كل من يحمل السلاح للقتال في الشرق »[(١)] .

ويقول: « ولقد وصلت البابوية إلى الدرك الأدنى في وحل **الرشوة والدعة والفجور**. وبات الفاتيكان بيت سوء ، ويكفي أن نشير فقط إلى طرف من سيرة

(١) ول ديورنت : قِصَّة الحَضَارَةِ ، م٦ ، ١٢/ ١٩٦

(١) محاكم التفتيش نشأتها ونشاطها ، دار المعارف ، القاهرة ، ط١ ، (١٩٧٨م) ، ص ١٦ ، ١٧

واحد من البابوات هو إسكندر السادس بورجيا الذي تولى العرش البابوي سنة ١٤٩٢ .... عُرِفَ عن بورجيا أَنَّهُ لم يكن يطيق حضور صلوات القداسات ، وإن اضطر إلى الحضور فإنَّ الصلاة تُختصر للغاية فلا تتعدى نصف الساعة. وكان بورجيا مغرمًا بالنساء ، وكان يحيط نفسه بالراقصات ، ويُروى أَنَّهُ لم يكن لينام في فراشة بمفرده.

ولبورجيا أبناء لقطاء كثيرون ، خاصة من السيدة فانوتزا التي رزق منها بكل من قيصر ، وجان ، ولوكريس ، وجوفري. كما رزق من أخرى بكل من جرومين ، وإيزابيل ، وبيارلويس ، ولورا. ومن خليلاته أَيْضًا السيدة جوليا فرانيزي . وقد أورد المعاصر إنفسورا فضائح كثيرة تتصل بالبابا إسكندر السادس وزوجه غير الشرعية جوليا وابنته موكريس ، خاصة يوم زواج ابنته من جان سفورزا.

وكان بورجيا لا يتورع عن مسلك الفجور في العلن، بل في وجود بناته وأفراد حاشيته الفاسدة ؛ **ولذا فقد أشارت إليه بعض الأصابع بالاعتداء على المحارم**.

واشتهر عن بورجيا ـ مثلما قيل عن سلفه سكستوس ـ الولع بالغلمان ، مما أعاد إلى الأذهان غرام الإمبراطور هارديان بغلامه أنتينوس ، وذلك على الطريقة الإغريقية القديمة.

وفي السيمونية وصل الأمر بالبابا بورجيا إلى بيع منصب الكرادلة بالمال ، وقد بلغت الرشوة في هذا الصعيد مبلغ مليون ومائتي ألف مارك من الذهب. ...

وقد اعتاد بورجيا على الاستيلاء على أملاك وأموال الأساقفة الأغنياء عقب وفاتهم ، ويسوق المؤرخ بيركارد أمثلة كثيرة على ذلك ...

ولم يكن بورجيا يتورع عن دس السم لمن يريد التخلص منه من معارفه لكي يرث أملاكه ، ولم يسلم من هذا الجرم علماني أو رجل دِيْن في روما ، وذاع عن سم بورجيا ـ الذي تخصص في إعداده صيادلة مرموقون في روما ـ اسم خاص هو كانتاريللا **Cantarella** .

.... ويُروى أن إسكندر السادس (بورجيا) قد أعد هو وابنه قيصر بورجيا السم للتخلص من الكاردينال هادريان ، ولكن القدر تدخل إذ شرب الكاردينال ـ خطأ ـ من الكأس السليم ، وتجرع البابا وابنه من الكئوس المسمومة ؛ فكانت نهاية

البابا. وإسكندر السادس بعد هذا هو المسئول عن ذبح المصلح الفلورنسي سافونا رولا »[(1)] .

(١١) المسيحية صدًى للبيئات والثقافات التي نشأت فيها :

من العلامات والأمارات الدالة على الدِّيْن الحق تأثيره في البيئة التي يظهر فيها ، لا أن يتأثر هو بالبيئة ، فالدِّيْن ما هو إلا أداة لتغيير الواقع وتحويله . وعندما ظهر الإِسْلام وانتشر تغيرت البيئة التي ظهر فيها ، وقضى على مظاهر الشرك والعادات الاجتماعية والثقافية الجاهلية .

أما المَسِيْحِيَّة فهي على النقيض من ذلك ؛ فالمتتبع لهذا الدِّيْن وتاريخه يجدُه صدًى للبيئة التي ظهر فيها ، وانعكاسٌ لثقافة تلك البيئة . وتتظاهرُ على هذه الحقيقة أقوالُ كثير من العلماء والمؤرخين ، وإليك بعض هذه المؤثرات التي أثرت في هذا الدِّيْن :

أ- التأثر بالأفلاطونية الجديدة Newplatonism :

الأفلاطونية الجديدة هو آخر مذهب في الفلسفة اليونانية ، ظهر في الفترة ما بين القرن الثالث والسادس الميلاديين ، وقام على إعادة صياغة تعاليم أفلاطون بروح انتقائية هيلينية ـ رومانية وتوفيقية بين الفلسفة والدِّيْن ، وقد حاول هذا المذهب أن يبعث حياة جديدة في الوثنية التي كانت في طريقها للزوال[(1)] .

وقد وجد العلماء تأثيرًا لهذا المذهب في المَسِيْحِيَّة ؛ فقالوا : « تشكلت وثنية القرن الرابع بأشكال مختلفة : فكان منها المتراسية ، والأفلاطونية الجديدة ، والكلبية ... ولكن الأفلاطونية الجديدة ظلت ذات قوة وأثر في الدِّيْن والفلسفة ... كان لهذه العقائد والأفكار الصوفية الخفية أثرها في آراء الرسولين : بولس، ويوحنا ، وفي كثير ممن حذوا حذوهما من المسيحيين ، وفي تشكيل كثير من العقائد المَسِيْحِيَّة الخارجة عن الدِّيْن القويم »[(2)] .

---

(١) السابق ، ص ٣٣ إلى ٣٦

(١) يُنْظَرُ : المُعْجَم العِلْمِيّ للمعتقدات الدينية ، ص ٤٢٣

(٢) قِصَّة الحَضَارَةِ ، م٦ ، ١٢/ ٢٣

ويذكر التَّاريخ أَنَّ الأب سينسيوس **Sinesius** أسقف بطوليمايس (ولد : ٣٦٥م) أَنَّهُ « زار أثينة ، وفيها قويت عقيدته الوثنية ، ولكنه تزوج بامرأة مسيحية في عام ٤٠٣م ؛ واعتنق على إثر ذلك الدِّيْن المسيحي ، ووجد أن من المجاملة البسيطة لزوجته أن يحول **ثالوث الأفلاطونية الحديثة المكون من الواحد والفكر والنفس إلى الآب والروح والابن** »(١) .

ب- الوثنية القديمة :

وأيضًا نجد تأثيرًا لعادات وتقاليد الأمم الوثنية القديمة التي سبقت المَسِيْحِيَّة ، يؤكد هذه الحقيقة الباحث **John B. Noss** ، حيث يذكر : « أنَّ كثيرًا مما نقرأ عنه في المَسِيْحِيَّة **دخيل عليها** ، ونجد من التشابه بين طقوسها وطقوس الأمم الوثنية السابقة عليها قبل الميلاد أمورًا متعددة ، مثل : اتخاذ وسيط بين الإله وبين الإِنْسَان (كاهن) ، حيث نجد هذا الوسيط موجود عند البابليين **Babylonians** ، فلكي يحافظوا على النعم التي حصلوا عليها كان البابليون يلجأون إلى كهنتهم لتقديم الأضاحي والقرابين والذبائح للآلهة ، والقيام بالرقى والعزائم والتعاويذ ، والصلوات الشعائرية **ritual prayers** ، وقراءة النجوم .

وكان البابليون يستخدمون الآلات الموسيقية وأغاني السجود والتزلل التي تُغَنَّى وتقدَّم أمام الآلهة . وكانت طقوس القربان المقدس **liturgy** طويلة ، ولكنها كانت ـ كما يعتقدون ـ تُعطي النضارة للآلهة .

ومثلما تعبد بعض الطوائف المَسِيْحِيَّة « السيدة مريم » كان البابليون يدفعون للكهنة لكي يبتهلوا ويتضرعوا ويتوسلوا إلى عشتار **Ishtar** ؛ لكي تحقق أمانيهم ، وتخفف آلامهم . ومن أناشيد البابليون لـ « عشتار » :

انظري إليَّ يا سيدتي ، وتقبلي تضرعي .

---

(١) السابق ، م٦ ، ١٢/١٢٦ ، ويذكر ديورنت عن هذا الأب أَنَّهُ لم يكن يؤمن ببعث الجسم (جسم المسيح) ؛ كما تتطلب ذلك عقائد مؤتمر نيقية ، وكان متزوجًا ، ومع ذلك ولاه توفيلس أسقفية بطوليمايس .

إلى أي مدى سيبقى جسدي ينوحُ ويتألم ومملوء بالهموم والاضطرابات؟
إلى أي مدًى سيبقى قلبي مبتلًى ، مملوء بالأسى والتنهدات ...

ومثلما تعتقد الكَنِيسَة في الزيوت المقدسة التي تمنح البركة ، وتمنع الأرواح الشريرة كان البابليون يضعون الرقى والتمائم والتعاويذ على جسد المتضرع والمتوسل لتمنع الأرواح الشريرة . ومثلما تقوم بعض الطوائف المَسِيْحِيَّة بما يسمى بـ « الاعتراف » كان البابليون **يعترفون بذنوبهم للآلهة من خلال كهنتهم** »[(١)] .

وفي نص مهم وخطير يُثبتُ ول ديورنت بشكل أوضح وأعمق العلاقة الوثقى بين الوثنية وطقوس المَسِيْحِيَّة ؛ فيذكر : « أَنَّ **المَسِيْحِيَّة لم تقضِ على الوثنية ، بل تبنتها، ذلك أَنَّ العَقْل اليوناني المحتضر عاد إلى الحياة في صورة جديدة في لاهوت الكَنِيسَة وطقوسها** ، وأصبحت اللغة اليونانية التي ظلت قرونًا عدة صاحبة السلطان على السياسة ، أداة الآداب ، والطقوس المسيحية ، وانتقلت الطقوس اليونانية الخفية إلى طقوس القداس الخفية الرهيبة ، وساعدت عدة مظاهر أخرى من الثقافة اليونانية على إحداث هذه النتيجة المتناقضة الأطراف. فجاءت من مصر آراء الثالوث المقدس، ويوم الحساب ، وأبدية الثواب والعقاب ، وخلود الإِنْسَان في هذا أو ذاك ، ومنها جاءت عبادة أم الطفل ، والاتصال الصوفي بالله ، ذلك الاتصال الذي أوجد الأفلاطونية الحديثة واللاأدرية ، وطمس معالم العقيدة المسيحية.

ومن مصر أَيْضًا استمدت الأديرة نشأتها والصورة التي نسجت على منوالها. ومن فريجيا جاءت عبادة الأم العظمى، ومن سوريا أخذت تمثيلية بعث أوتيس. ربما كانت تراقيا هي التي بعثت للمسيحية بطقوس ديونيشس، وموت الإله ونجاته.

ومن بلاد الفرس جاءت عقيدة رجوع المسيح وحكمه الأرض ألف عام، وعصور الأرض ، واللهب الأخير الذي سيحرقها ، وثنائية الشيطان والله والظلمة والنور. فمن عهد الإنجيل الرابع يصبح المسيح نورًا يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه . ولقد بلغ التشابه بين الطقوس المتراسية والقربان المقدس في القداس حدًّا

---

(١) **Man's Religions, P. 59, 60**

جعل الآباء المسيحيين يتهمون إبليس بأنه هو الذي ابتدعه ليضل به ضعاف العقول. وقصارى القول إِنَّ المَسِيْحِيَّة كانت آخر شَيْء عظيم ابتدعه العالم الوثني القديم»[(١)] .

ولم يُقصَر تأثير الوثنية على المَسِيْحِيَّة في الجانب الشكلي فقط ـ إن صح التعبير ـ بل تعداه إلى الجانب الفكري الفلسفي ، إذ نجد تأثيرا للمذهب الكلبي [(١)] ،

---

(١) قِصَّة الحَضَارَةِ ، م ٦، ١١/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦ ، ويذكر ديورنت في موضع آخر تأثير المثراسية **Mithras** على المَسِيْحِيَّة بشكل أوضح فيذكر : « وروع الآباء المسيحيين ما وجدوه من أوجه الشبه بين دينهم وبين المثراسية ، وقالوا إن الثانية قد سرقت هذه العبادات عن المسيحية، أو أنها في المثراسية حيل مضللة ، احتال بها عليهم الشيطان (صورة من أهرمان). وليس من السهل أن تعرف أي الدينين أخذ عن الآخر، ولعل الاثنين قد تسربت إليهما أفكار كانت وقتئذ منتشرة في جو بلاد الشرق. وكان في كلا الدينين العظيمين اللذين يسودان إقليم البحر الأبيض المتوسط طقوس خفية ، تتخذ عادة صورة احتفالات تطهير، وتضحية ، وتثبيت ، ووحي ، تدور كلها حول موت الإله وبعثه. وكان الأعضاء الجدد يدخلون في دين سيبيل بوضعهم عراة في حفرة يُذبح فوقها ثور، فيسقط دم الحيوان الذبيح على الطالب الجديد ، ويطهره من خطاياه ويهبه حياة روحية جديدة خالدة إلى أبد الدهر. وكانت أعضاء التذكير في الثور، وهي التي تمثل الخصوبة المقدسة، توضع في إناء خاص، وتُهدى إلى الإلهة » . يُنْظَرُ : قِصَّة الحَضَارَةِ م٦، ١١/ ١٤٩ ـ ١٥١

ويحدثنا المُعْجَم العِلْمِيّ للمعتقدات الدينية ص ٣٩٥ عن الميثراسية **Mithraism** كلامًا مهمًّا فيقول : « دين يرتبط بعبادة الإله ميثراس. وقد ظهر في القرون الأخيرة قبل المسيح في فارس ، وانتشر فيما بعد إلى أراضي الإمبراطورية الرُّومَانِيَّة وآسيا الصغرى ، وقد وجدت عبادة ميثراس (وكان وسيطًا بين الناس والله) في الهند القديمة وفارس قبل ظهور الميثراسية بوقت طويل ... وتتفق الأساطير التي تأسست عليها الميثراسية وعبادة ميثراس في وجوه عديدة مع أساطير وطقوس العبادة في المَسِيْحِيَّة ، بل إن ثمة شبهًا بين تنظيم الجماعات الميثراسية وبين تنظيم الجماعات المَسِيْحِيَّة ، ويمكن تفسير ذلك من ناحية **بتبني المسيحيين لجوانب معينة من الميثراسية ،** ومن ناحية أخرى بالظروف الاجتماعية التاريخية المتماثلة التي كانت قائمة في وقت نمو وانتشار الدينين » .

(١) المذهب الكلبي **Cynism** : الكلبيون أتباع الفيلسوف اليوناني القديم أنتيسثينيس مؤسس المدرسة الكلبية (القرن الرابع قبل الميلاد) ، رأى أتباع هذا المذهب أن بمقدور البشر جني

والمذهب الرواقي (١) ، والمذهب الأورفي (٢) بشكل جلي على المسيحية.

وسجل ديورنت أكثر من إشارة لهذا التأثير ، منها :

⇦ « من حقنا أن نعتقد أن بعض المبادئ الدينية والأخلاقية الرواقية انتقلت من البيئة المدرسية **في طرسوس إلى مسيحية بولس** » (١) .

⇦ « ... وكان في طرسوس كما كان في معظم المُدن اليونانية أتباع للأرفية. وغيرها من العقائد الخفية، **يعتقدون أَنَّ الله الذي يعبدونه قد مات من أجلهم ، ثم قام من قبره** ، وإِنَّه إذا دعي بإيمان حق وصحب الدعاء الطقوس الصحيحة استجاب لهم وأنجاهم من الجحيم ، وأشركهم معه في موهبة الحياة الخالدة المباركة. وهذه الأديان الغامضة الخفية هي التي أعدّت اليونان لاستقبال بولس وأعدّت بولس لدعوة اليونان » (٢) .

السعادة والفضيلة عند رفضهم لمنافع الحضارة والثروة والملاذ الحسية . ورأى أتباع هذه المدرسة أنه يتعين على البشر عدم الالتزام بالقواعد الاجتماعية ورفض كل الشعائر الدينية التي رأوا أنها غير ضرورية . يُنْظَرُ : المُعْجَم العِلْمِيّ للمعتقدات الدينية ، ص ١٥٨

(١) المذهب الرواقي **Stoicism** : إحدى المدارس الفلسفية الهيلينية والرومانية . أسسها زينون ولقد كانت فلسفة الرواقية الكلاسيكية التي ظهرت في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد تمثل إحياء لتعاليم هرقليطس القائلة إنَّ النار هي مصدر نشأة الكون . وفي نظام الفكر الرواقي الذي يمثل خليطًا من الطبيعيات والمنطق والأخلاق ، فإن الأخلاق تشغل في نظامهم الفكري مكانة متميزة . وتتمثل الفكرة الأخلاقية الرئيسية لدى الرواقيين في حث الإِنْسَان على ضرورة العيش بشكل يتناسب مع قوانين الطبيعة . والحكيم الرواقي هو الذي يعلم أن كل شَيْء في الطبيعة إنما يقع بالعقل الكلي أو بالقدر ، ويقبل مفاعيل القدر طوعًا . يُنْظَرُ : المُعْجَم العِلْمِيّ للمعتقدات الدينية ، ص ٦٠٦ ، المُعْجَم الفلسفي ، ص ٣٧١

(٢) المذهب الأورفي **Orphism** : حركة فلسفية دينية نشأت في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد ، وسميت بهذا الاسم نسبة للشخصية الأسطورية أورفيوس ، وتبنى زعماء الحركة أفكار **الافتداء** ، ودافعوا عن مثل **الزهد** ، وتضمنت تعاليمهم أَنَّ الروح تمثل الخير ، بينما الجسد هو **سجن** الروح . يُنْظَرُ : المُعْجَم العِلْمِيّ للمعتقدات الدينية ، ص ٤٥٤

(١) قِصَّة الحَضَارَةِ ، م٦، ١١/ ٢٤٩

(٢) السابق ، م٦ ، ١١ / ٢٤٩ ـ ٢٥٠

⇦ « ... واقتربت نظرية التأديب الأخلاقي الرواقية من الزهد الكلبي حتى أضحت الكلبية في القرن الثاني الميلادي ، وليس بينها وبين الرواقية فارق إلا في ردائها المهلهل على حد قول أحد الكتاب. **ونرى الحركتين كلتيهما تتقدمان نحو المَسِيْحِيَّة على أيدي إبكتتس وماركس أورليوس** »[(١)] .

⇦ « ... ويتحدّث لوشيان بعطف أقل من هذا العطف على برجرينس **Peregrinns** الذي جرّب المَسِيْحِيَّة ثم خرج عليها ، وانضمّ إلى جماعة الكلبيين ، وندد برومة ، وحرّض بلاد اليونان جميعها على الثورة ، وأدهش المجتمعين في أولمبيا بأن جمع محرقته بنفسه ، وأوقد فيها النار ، وقفز إليها ، واحترق في لهيبها (١٦٥م) . وبهذا الاحتقار للثراء وللحياة نفسها كان الكلبيون **يمهّدون السبيل لرهبان الكَنِيسَة المَسِيْحِيَّة** »[(٢)] .

ت- الديانة اليَهُودِيَّة :

كانت اليَهُودِيَّة مصدرًا من مصادر التأثير على المَسِيْحِيَّة ؛ إذ أننا نجد أَنَّها كانت « حسب تعاليم المسيح وبطرس يهودية ، ثم أصبحت في تعاليم بولس نصف يونانية ، وأضحت في المذهب الكاثوليكي نصف رومانية ، **ثم عاد إليها العنصر اليهودي والقوة اليَهُودِيَّة حين دخلها المذهب البروتستنتي** »[(١)] .

وقد أَمَدَّتْ « رومةُ المَسِيْحِيَّةَ بالنظام **كما أمدّتها اليَهُودِيَّة بمبادئها الخلقية** ، وكما أمدّتها بلاد اليونان بفلسفتها الدينية. **وقد دخلت هذه كلها في بناء الدِّيْن المسيحي مع ما دخله وما امتصه من الأديان المعارضة**. ولم يكن كل ما أخذته الكَنِيسَة من روما هو العادات والمراسم الدينية التي كانت سائدة في روما قبل قيام المَسِيْحِيَّة ـ كالبطرشيل وغيره من ثياب الكهنة الوثنيين ، واستعمال البخور والماء المقدس في التطهير ، وإيقاد الشموع ووضع ضوء دائم لا ينطفئ أمام المذبح، وعبادة القديسين،

(١) السابق ، م٦ ، ١١ / ٨٢
(٢) السابق ، م٦ ، ١١ / ٨٢
(١) السابق ، م٦ ، ١١/ ٢٤٨

وهندسة الباسلقا، وقوانين روما التي اتخذتها أساسًا للقانون الكنسي، ولقب الحبر الأعظم **Pontifex Maximus** الذي أُطلق على كبير الأساقفة ، مضافًا إلى اللغة اللاتينية التي أَوضحت في القرن الرابع الأداة الخالدة النبيلة للشعائر الكاثوليكية؛ ـ بل كان أهم من هذا كله نظام الحكم الواسع الذي أمسى بعد عجز السلطة الزمنية صرح الحكم الكنسي ، فلم يلبث الأساقفة ، لا الحكام الرومان ، أن صاروا هم مصدر النظام ومركز القوة والسلطان في مدائن الإمبراطوريّة ؛ وكان المطارنة وكبار الأساقفة أكبر عون لحكام الولايات إن لم يكونوا قد حلوا محلهم »[(١)] .

بعد هذه الحقائق يحق لنا أن نقول إن المَسِيْحِيَّة ما هي إلا « خليط » من عادات وتقاليد شتى من هنا وهناك ، فهي رد فعل ، ولم تكن أبدًا فعلًا مؤثرًا فيما حولها مثل الإِسْلام العظيم.

وأعتقد أننا بحديثنا عن تأثير البيئات والثقافات المختلفة نكون قد قدمنا أسبابًا واضحة جلية تجعلنا نرفض المَسِيْحِيَّة كدين ، وَأَنَّ المَسِيْحِيَّة وأتباعها قد ضلوا الطريق ، وصدق عليهم قول الله تعالى : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ الفاتحة: ٧

ونحن ـ كما رأى القارئ الكريم ـ لم نتقول على القوم ، ولم نستشهد بمصادر إسلامية عليهم ، فما سقناه من اقتباسات وحقائق من أفواه علماء غير المسلمين.

✓ **أشارة أخيرة :**

أوجه نظر القارئ الكريم الذي يريد الاستزادة عن هذه الدِّيانَة الرجوع إلى المصادر الآتية :

- قنوات اليوتيوب الآتية : قناة الأستاذ الدكتور منقذ السقار ، قناة الأستاذ الدكتور سامي عامري ، قناة مكافح الشبهات للأستاذ طارق السيد، قناة الدعوة للأستاذ محمد شاهين التاعب ، قناة البينة للأستاذ أحمد سبيع ، قناة الأستاذين محمود داود ومعاذ عليان .

(١) السابق ، م٦ ، ١١/ ٣١٩

- كتاب « إظهار الحق » لرحمة الله الهندي ، ت: د. محمد أحمد محمد عبد القادر خليل ملكاوي .
- كتاب « محاضرات في النصرانية » ، للشيخ محمد أبو زهرة .

*****

لماذا لا نقْبَل أيَّ دِيْنٍ من الأديان الأخرى دِيْنًا ؟

بحديثنا عن الأسباب التي تعوق الإيمان باليهودية والمسيحية نكون قد انتهينا من الحديث عن أسباب رفضنا لبقية الأديان السماوية غير الإسلام العظيم ، وننتقل الآن إلى القسم الثاني ، وهي الديانات الوثنية ، وهي كما سبق أن ذكرناها :

البُوذِيَّة	**Buddhism**
الهندوسية	**Hinduism**
الكنفوشيوسية	**Confucianism**
الطاوية	**Taoism**
الشِّنْتَوِيَّة	**Shinto**
اليهودية	**Judaism**
اليانِية	**Jainism**
السيخية	**Sikhism**
الزرادشتية	**Zoroastrianism**

١) لماذا لا نَقْبَل البُوذِيَّة Buddhism ؟

البُوذِيَّة دِيانَة عالمية ، يؤمنُ بها ملايين من البشر ، وتذهب بعض الأقوال إلى أن عدد الذين يدينون بها أكبر من عدد أية دِيانَة أخرى في العالم .

وتلقى البُوذِيَّة رعاية كبيرة في معظم تلك البلاد التي تبجل مُنْشِئَها ، وتعدُّه واحدًا من أسبق المعلمين الدينيين الذين طوروا الفكر الإنساني في شرقي آسيا ، وقد أقيمت المعابد الضخمة التي أصبحت فيما بعد جامعات ومدارس دينية تدرس فيها الأسس الأخلاقية والروحية لهذا التعاليم .

وتنسب البُوذِيَّة إلى البوذا وهو لقبٌ يُطلقُ على رجلٍ حقَّقَ الكمال لنفسه والتنور

Enlightenment لعقله ، وهو ضمن مجموعة رجال ـ أو على رأسهم ـ تقودُ تطورًا للنوع البشري وتوجهه .

- **مَنْشَؤُها ومُنشِئُها :**

نشأت هذه الدِّيانَة في الهند في القرن السادس قبل الميلاد .

وتُنسَبُ هذه الدِّيانَة لرجلٍ يُدعَى « جوتاما أو غوتاما **Botama** » ، عاش في شمال الهند ، في الفترة ما بين ٥٦٠ ق.م إلى ٤٨٠ق.م ، مات وله من العمر ثمانون عامًا.

قيل عنه أَنَّهُ كان بسيطًا ، شفقته مطلقة ، وقورًا ، غير متقلب الطباع ، صبورًا إلى أبعد حدود الصبر .

بعد مروره ببعض التجارب الحياتية استشعرَ صيحةً تمتلك عليه نفسه ، وتدعوه لا إلى إنقاذ ذاته فحسب ؛ بل وإنقاذ جميع بني البشر من عالم الآلام الذي يعيشون فيه وأخذ على عاتقه إصلاح الدِّيْن الذي كان سائدًا في زمانه ، والذي أفسده البراهمانيون ، كما أراد أن يضيف إلى الحكمة الإنسانية من حكمته التي لا حدود لها .

لم يتخذ لقب بوذا إلا حين توصل إلى « التنور الأسمى » ، ولقد كان تجسده الأخير على الأرض ـ في رأي أتباعه ـ مجيدًا ، ولم يكن يُعادل جماله الجسدي إلا جماله الرُّوحِي.

ويشير الباحثون إلى أن « تَرْجَمَة حياته لم تكتب إلا بعد بضع مئين من السنين التي مرت على وفاته . ولا شكَّ في أَنَّ المصادر التي تحدثت عنه كانت مزيجًا من التَّاريخ والأسطورة ، مما لا يُرضي المؤرخ الدقيق »(١) .

- **أقسامها** : تنقسم البُوذِيَّة إلى عدة مذاهب ، أو اتجاهات ، منها :
  - ✓ البُوذِيَّة الجنوبية أو ما يُسمى بالثيرافادا **Theravads** .
  - ✓ البُوذِيَّة الشمالية ، أو ما يسمى بالماهايانا **Mahayana**.
  - ✓ بُوذِيَّة التبيت .

---

(١) مقال : « البُوذِيَّة » ، د. فاخر عاقل ، مجلة العربي الكويتية ، ع ٢٠٣ ، أكتوبر ١٩٧٥م ، ص ١١٥

والتعاليم التي نادى بها البوذا جوتاما تبدلت في البلاد المختلفة ، واتخذت في كل بيئة طابعًا خاصًا يخالف غيره في بعض التفاصيل ، وتأثرت بعض المذاهب أو الفرق بغيرها في البلاد التي حلت بها ، وتعدَّدت أنواع المراسم والطقوس ، وإضاءة القناديل وإطلاق البخور.

○ **ماهية البُوذِيَّة وأهم مبادئها :**

البوذية دِيانَة وفلسفة في آن معًا . وهي ككل دِيْن أو فلسفة تعددت فيها الاجتهادات وتنوعت المدارس والنحل .

وهي طريق وسط لتنمية الذات وتنويرها ، وبناء حياة روحية عميقة سامية .

ويشير بعض الباحثين إلى أنَّ « البُوذِيَّة ليست دِيْنًا بالمعنى الدقيق الذي يُفهم من كلمة دِيْن ، وإنما هي رياضة روحية منسقة ومنظمة ، بل هي حقًّا واحدة من أعظم الرياضيات الروحية التي عرفت ، فهي توفر للفرد الوسائل التي يسمو بها عن طريق المعرفة إلى المثل الأعلى. ويعتقد كلُّ بُوذي أَنَّهُ عن طريق التأمل وعمق التفكير ، قادرٌ على أن ينحو سبيل البوذا من خلال المراحل المتتابعة للاستنارة ، حتى يصل في النهاية إلى الحكمة الكاملة »(١) . وفي حقيقة الأمر« لم تنشأ البُوذِيَّة من فراغ ؛ وإنما كانت تمُتُّ بصلات كثيرة إلى ما سبقها من مذاهب مختلفة ، ثم عاشت تتطور مع الزمن »(٢) .

وللبوذية كتبٌ ، لا يدعي البوذيون « أَنَّها منزلة ، ولا ينسبون ما فيها **إلى جانب إلهي** ، بل هي عبارات منسوبة إلى بوذا ، أو حكاية لأفعاله ، أو نقل لما أقروه من أعمال أتباعه »(٣) .

وتشير مصادر أخرى أنَّ بوذا لم يترك « تعاليم محددة للقيام بالشعائر الدينية ، أو

(١) مقال : « معنى البُوذِيَّة القواعد الأساسية لمذهب تِيرافادا » ، أستاذ بهيكهو أوثيتيلا ، تَرْجَمَة : أحمد عفت عفيفي ، مجلة العربي الكويتية ، ع ١٧٧ ، أكتوبر ١٩٧٣م ، ص١٦٤

(٢) ثروت عكاشة: المُعْجَم الموسوعي للمصطلحات الثقافية، مكتبة لبنان ، (١٩٩٠م) ، ص٦١

(٣) المَوْسُوعَة الإسلامية العامة ، وزارة الأوقاف ، مادة : البُوذِيَّة ، ص ٣٠١

لتطبيق التعاليم ، كما لم يحض دعاة بعينهم لنشر التعاليم »[1] .

وأهم مبادئها[2] :

⇦ المهمة العاجلة والمباشرة لأي إنسان هي إنقاذ الذات (الخلاص الذاتي **Self Salvation**) .

⇦ الحقيقة الأولى للوجود هي قانون التغير وعدم الدوام .

⇦ العالم هو التعبير عن القانون ، وكل النتائج لها أسباب ، وما روح الإِنْسَان أو طبعه إلا مجموع أفكاره وأفعاله السابقة . إن الكارما **Karma** ـ ومعناها الفعل ورد الفعل ـ تتحكم في كل أنواع الوجود ، والإنسان هو الخالق الوحيد لظروفه ولاستجاباته إليها .

⇦ الدرب الثماني : هو نظرات ثمان صحيحة وكاملة تقوم على : أهداف صحيحة ، حوافز صحيحة ، أقوال صحيحة ، أفعال صحيحة ، حياة صحيحة ، جهد صحيح ، تركيز ذهني صحيح (نمو نفسي صحيح) ... وبما أَنَّ البُوذِيَّة هي طريقة حياة ، وليست مجرد نظرية في الحياة ، فإنَّ السير على هذا الدرب الثماني ضروري للخلاص الذاتي .

○ **موقف البُوذِيَّة من وجود الله :**

ومن الأمور المهمة التي تشير إليها كثيرٌ من المراجع موقف البُوذِيَّة من « وجود الله » ، حيث تشير هذه المصادر إلى أَنَّ البُوذِيَّة ـ خاصة الصورة الأولى منها ـ « **تُنكِر وجود الله** » ، أو على أقل تقدير « **لم تأخذه في حسبانها** » عند وضع مبادئها . ومن هذه الإشارات :

» يقول الأستاذ بهيكهو أوثيتيلا ، أستاذ الفلسفة البُوذِيَّة بجامعة رانجون عن البُوذِيَّة : « البُوذِيَّة ليست دِيْنًا على الإطلاق ، بالمعنى الذي نعرف به كلمة الدِّيْن

(١) ثروت عكاشة: المُعْجَم الموسوعي للمصطلحات الثقافية، ص ٦١

(٢) يُنْظَرُ المقال « معنى البُوذِيَّة القواعد الأساسية لمذهب تِيرافادا » ، أستاذ بهيكهو أوثيتيلا ، مجلة العربي الكويتية ، ع ١٧٧ ، أكتوبر ١٩٧٣م ، ١٦١

كما أَنَّها ليست طريقة للتعبد والإيمان ، فليس في البُوذِيَّة عقيدة أو مجموعة من العقائد يجب الإيمان بها ، **كالاعتقاد في وجود إله خالق للكون ، أو حقيقة الأرواح الخالدة ، أو منقذ البشرية ، أو الملائكة التي تنفذ أوامر الإله** ، إنما البُوذِيَّة هي : البحث عن الحقيقة . فالبوذا يعلمنا أن لا نعتقد إلا فيما هو حق في ضوء تجاربنا ، ذلك الحق الذي يرمي إلى خير البشرية ورخائها ، وأن على الناس أن يعتمدوا على أنفسهم ، كما يجب عليهم أن لا يظنوا أَنَّ البوذا هو مخلصهم من أوزارهم ، فالبوذا هو هاديهم إلى الطريق ، وعليهم بعد ذلك أن يعرفوا كيف يسلكون الطريق »(١) .

» ويذكر« معجم الفلسفة **A Dictionary of Philosophy** » قوله: « **وينكر البوذا وجود الله الخالق** **Buddha denied the existence of God the Creator** »(١) .

» وتشير الموسوعة الإسلامية العامة : « ... ومن هنا جاء الخلاف بين العلماء حول وضع الإله في تعاليم بوذا ؛ فهناك من يرى أَنَّهُ أنكر وجود إله خالق للكون ، ويقول أنصار هذا الرأي : إِنَّهُ كان يعتقد أن في العالم فقط روحًا عامًا متغلغلًا في كل شَيْء ، ومنهم من يرى أن مذهبه إصلاحي خلقي أكثر منه ديني . وقد أحدث بوذا بإهماله الاتجاه الإلهي ارتباكًا في الفكر بين أتباعه ؛ فلعبت بهم الأهواء ؛ فاتجه بعضهم إلى الاعتقاد بأن بوذا ليس إنسانًا محضًا ، بل إن روح الله قد حلت فيه ، بل تطور الأمر باعتباره كائنًا إلهيا »(٢) .

---

(١) مقال : « معنى البُوذِيَّة القواعد الأساسية لمذهب تِيرافادا » ، أستاذ بهيكهو أوثيتيلا ، تَرْجَمَة : أحمد عفت عفيفي ، مجلة العربي الكويتية ، ع ١٧٧ ، أكتوبر ١٩٧٣م ، ص١٦١ ، ويشير مترجم المقال إلى أَنَّ البُوذِيَّة **في بعض صورها المستحدثة** تتحدث عن **وجود الإله ووحدانيته بأحاديث مبهمة ، بل انحدرت في بعض الفرق إلى أن جعلت من الملوك أو *رؤساء الكهنوت* آلهة أو شبه آلهة يُعبدون أو يقدسون** .

(١) **M. Sosenthal, and P.Yudin, 1967, p. 60**

(٢) وزارة الأوقاف ، القاهرة ، ٢٠٠٣م ، ص ٣٠١

» ويذكر المُعْجَم الموسوعي للمصطلحات الثَّقافِيَّة ص ٦٠ : « ... **ولا تدين البُوذِيَّة الأولى بألوهية ، فليس للإله عندها وجود ولا عدم** ».

○ **لماذا نرفضها ؟**:

يمكن أن نُجمل ردنا لهذه الدِّيانَة وعدم قبولها ، وعدم تفضيلها على الإِسْلام العظيم لعدة أسباب :

أ- السبب الأول والأهم : إنكار وجود الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فوجوده أمرٌ دلَّت عليه الأَدِلَّة العَقْلِيَّة والفِطْرِية ، ودل عليه اتفاق العقول الجبارة على وجوده سبحانه ، وذلك كما فصلنا وأوضحنا سابقًا ، فكون هذه الدِّيانَة تسقط وجود الله ـ سبحانه ـ يدفعنا إلى تركها وإهمالها.

ب- مجهولية من أنشأ هذه الدِّيانَة ، فقد كتبت ترجمته بعد وفاته بمئات السنين.

ت- السبب الثاني : ما التعاليم والمبادئ التي احتوتها هذه الفلسفة وتميزت به عن تعاليم الإِسْلام وآدابه وأخلاقة ؟! لا شيء .

٢) لماذا لا نَقْبَل الكونفوشوسية Confucianism ؟ :

○ **مَنْشَؤُها ومُنشِئُها** :

أكبر من يمثل الفكر الصيني المأثور هو : « كونج فوتسو **Kung-fu-tzu** » ، أو كما يسميه الغربيون « كونفوشيوس **Confucius** » ، الذي عاش بين ٥٥١ و ٤٧٩ ق.م .

وُلِدَ في بلدة كانت تُدْعَى « لو **Lu** » ، وهي ولاية صغيرة ، تُعرَفُ اليوم باسم « شان جتن **Shangtung** » ، عاش فترة طفولته في فقر . وفي فترة مبكرة من حياته عمل كمعلم ، وبمرور الوقت بدأ يجذب عددًا من طلاب العِلْم إليه ، واستطاع العيش بالنَّذر اليسير الذي كان يعطيه هؤلاء الطلاب إليه تطوعًا منهم ، ودون طلب منه .

في عام ٥١٧ اندلعت ثورة في « لو Lu » ؛ فاضطر إلى تركها ، والانتقال إلى بلدة مجاورة تُدعى « تشي **Ch'i** » ، مكث فيها لمدة عام أو عامين . وعند عودته عزل نفسه

عن الحياة العامة ، إلى أن شارف سن ٥٠ عامًا ، وهي السن التي قبل فيها أن يكون حاكمًا لمدينة صغيرة ، وعند توليه هذه المهمة أخذ على عاتقه قمع الجريمة ، وترقية الأخلاق.

وبعد انقضاء فترة حكمه أخذ يتجول لمدة ١٤ عامًا متنقلًا من مكان إلى آخر بصحبة مجموعة صغيرة من طلابه . وفي نهاية المطاف قرر العودة إلى « لو Lu » ، وأن يعكف على « مراجعة » الكتب المقدسة الصينية **Chinese scriptures** ، هذه الكتب عُزِيَ جزءٌ منها إليه هو نفسه ، وهذا العزو لا تؤيده أَدِلَّة قوية. وقد أشار كونفوشيوس إلى أَنَّهُ كان ناقلًا وليس مبدعًا لأي من هذه الكتب ، وإن اقتصر دوره على إعادة صياغة جزء يسير منها[(١)] .

وتقول الموسوعة الإسلامية العامة عنه : « ولم يَدَّعِ كونفوشيوس أَنَّهُ نبي يوحى إليه ، فقد كان مصلحًا أكثر منه رجل دِيْن . احترم الآلهة ، وحرص على إقامة الشعائر والطقوس ، وكانت عنايته متجهة إلى إصلاح النفس الإنسانية ، وتكوين مجتمع سليم قوامه المحبة والإخاء والعدل »[(١)] .

عاش كونفوشيوس حوالي ٨٠ عامًا ، قضاها في نشر الفضائل ، ومحاولة إصلاح المجتمع الصيني ، ولم يكن له في حياته تأثير كبير ؛ إذ كان الناس يعتبرونه مصلحًا اجتماعيًّا ؛ لأنه كان ينادي بالتمسك بحكمة القدماء ، ويدعو إلى إحياء التراث القديم ، والسير على قواعده ومبادئه .

وبعد قرونٍ عدة من وفاته أعلنت الدولة ـ بناء على أسباب سياسية ـ أن تعاليمه مقدسة يجب الالتزام بها ، ثم تطور الأمر بعد ذلك إلى عبادته ، فأعلنت الدولة أَنَّ الكونفوشيوسية هي الدِّيْن الرسمي للدولة ؛ **فانتشرت دور عبادته** في كل المدن والقرى والنجوع الصينية ، وتقدم فيها القرابين له في صورة أضحية ...[(٢)] .

(١) **Hutchinson's Twentieth Century Encyclopadia,** p.297,298

(١) مادة الكونفوشوسية ، ص ١٢٠٩

(٢) المَوْسُوعَة الإسلامية العامة ، ص ١٢١٠

○ **ماهية الكنفوشيوسية وأهم تعاليمها :**

الكنفوشيوسية مذهب فلسفي وأخلاقي ، أسسه كونفوشيوس وأتباعه [(١)] .

- يؤمن كونفوشيوس أن في الإِنْسَان استعدادتٍ طيبة ، بحيث يستطيع إذا هو تعهدها أن يشكل حياته ، وأن يتصرف في العالم المحيط به .
- وكان حكيم الصين يؤمن بأن الفضائل والخيرات أمور بينة بنفسها ، وبأن في قلب الإِنْسَان بفطرته إحساسات نبيلة ، واستعدادات للخير، كما كان مؤمنًا بقيمة المعرفة ، وبأن الإِنْسَان يستطيع بفضل الثقافة أن يهذب نفسه ، ويقهر نوازع الشهوات ؛ فيصل إلى الفضيلة والسعادة ؛ وبذلك ينال رضا السماء. ولم يرد حكيم الصين أن تكون المعرفة مقصورة على أبناء الأشراف والكبراء ؛ لذلك فتح لأبناء الشعب أبواب الثقافة ؛ ليشق أمامهم طريق الرقي الذاتي بفضل الاجتهاد ؛ وليمكنهم من النهوض بخدمة المجتمع.
- وقد اهتم كونفوشيوس بالأخلاق الفردية والاجتماعية ، وبإرساء العلاقات الاجتماعية على أسس المحبة والاحترام ، وهي عنده علاقات خمس : بين الحاكم والرعية ، بين الآباء والأبناء ، الأخ الأكبر والأخ الأصغر ، الزوج والزوجة ، الصديق وصديقه . ويسود هذه العلاقات مبدأ عام ، هو : « لا تعامل غيرك بما لا تحب لنفسك » .
- ورمز الخلق الكريم عند كونفوشيوس شعور إنساني يسميه « جين Jen » ، وهو أشبه بمفهوم لفضيلة كلية ، تشمل فيما تشمل من خصال : كبر القلب والمحبة الصادقة لجميع الناس ، محبة تفيض بسرور من صميم القلب ، ولا يبتغي الإِنْسَان من ورائها جزاء ماديًّا ، والفضائل تنبت من تعهد هذا الشعور على نحو طبيعي .
- وعند حكيم الصين مفهوم « الإِنْسَان الرفيع » ، وهو الإِنْسَان الممتاز الذي يُعظِّمُ أوامر « السَّماء » ، ويجل عظماء الرجال ، ويعي كلمات الحكماء ، ويعمل بها، وهو

(١) المُعْجَم العِلْمِيّ للمعتقدات الدينية ، ص ١٣٩

يسيطر على شهواته ، ويطمح إلى معالي الأمور، ويعتز بنفسه. ومع أَنَّهُ متواضع فَإِنَّهُ لا يرضى أن يكون أداة لأحد ، وهو يجتهد في أن يتحلى بفضائل الوفاء والشجاعة والحكمة ، وإيثار الحق ومحبة العدل ، ويعمل على استحقاق ثقة الناس ، ويعاملهم بما يحب أن يعاملوه به ، وهو يتعهد شعور « الجين » في نفسه ، ويضحي بنفسه في سبيل المحافظة على هذا الإحساس الكريم ، وكل إنسان يستطيع أن يصبح إنسانًا رفيعًا إذا اجتهد.

- والكنفوشيون « يَوَدُّون أن يكون كلُّ فردٍ إنسانًا كاملًا مُتَحليًا بالفضائل ، وهو حين يأخذ نفسه بهذا عليه أن يأخذ بيد الغير ليبلغ مبلغه ، كما كانوا يسعون جاهدين أن يسود الأسرة الوفاق ، ويسود النظام العادل الدولة ، بحيث يأخذ أسلوب الحكم طريق الوسط والاعتدال لا التطرف ، ويرفرف السلام على العالم » [(١)] .
- وإلى جانب العناية ببيان أمهات الفضائل عني كونفوشيوس بآداب الاحتشام والذوق في الحياة اليومية ، وفي ضروب المعاملات ، وكل ذلك يندرج في مفهوم الـ « لي Li » الذي أكسب أهل الصين أدبًا ولطفًا ملحوظًا في معاملاتهم [(٢)] .
- ومع تحول الكونفوشيوسية إلى دِيانَة تم تأليه كونفوشيوس [(٣)] .
- لم يهتم كونفوشيوس بما هو خارج الكون ، ولا ما هو الدِّيْن ، وصب اهتمامه على المجتمع والإنسان ، ويؤكد هذه الحقيقة عدد من المصادر منها :

⇦ يقول د. مُحَمَّد عبد الهادي أبو ريدة ، أستاذ الفلسفة : « ونحن لا نجد عند هذا الحكيم الصيني **بحثًا ميتافيزيقيًّا حول الدِّيْن ، ولا بحثًا عن حقائق الأشياء ، وهو لم يشتغل بالتفكير في الكون وتفسيره ، كما فعل فلاسفة اليونان مثلًا ، وإنَّما**

(١) د. ثروت عكاشة : المُعْجَم الموسوعي للمصطلحات الثَّقافِيَّة ، ص ٩٧

(٢) يُنْظَرُ مقال : « من حكمة الصين » ، بقلم د.محمد عبد الهادي أبو ريدة ، مجلة العربي الكويتية ع ٢٥٨ ، مايو ١٩٨٠م ، ص٥٧

(٣) المُعْجَم العِلْمِيّ للمعتقدات الدينية ، ص ١٣٩

اهتمَّ بالإنسان وفضائله ، وتنظيم أمور حياته ، من غير تشاؤم كما عند البوذيين ، ومن غير تكلف في البحث عن أَدِلَّة عقلية في مسائل نظرية ؛ فوضع فلسفة عملية : أخلاقية ـ اجتماعية ، تقوم على أسس دينية بسيطة ، وعلى أسس في الطبيعة الإنسانية »(١) .

⇦ ويؤكد هذا الأمر ـ أمر عدم اهتمام الكنفوشيوسية بما هو خارج الكون ـ المُعْجَم الفلسفي ؛ إذ يشير إلى أَنَّ الكنفوشيوسية: « فلسفة تدور على مكانة الفرد في المجتمع **ولا تنشغل بالمسائل الميتافزيقية . وقد كان كنفوشيوس مهتما بتشكيل الحياة الاجتماعية ، وتحرير الحكومة من ألوان القهر . أما المسائل الميتافزيقية ؛ فيرى أَنَّها مشتتة ، والحديث عن الآلهة والشياطين والجنة والنار لا ينقذ المجتمع.** وكان ينشد الكمال الخلقي للفرد والنظام الاجتماعي للجماعة. وتحقيق هذه الفضائل لا يستند إلى معجزة آتية من السَّماء أو من الأرواح ، ولكن إلى وسائل طبيعية :

أ- أن تكون أمينًا لطبيعتك.

ب- أن تطبق هذه الفضائل في علاقتك مع الآخرين .

والغاية من ذلك تحقيق الانسجام مع الكون »(١) .

⇦ ويذكر المُعْجَم العِلْمِيّ للمعتقدات الدينية : « وتختلف الكونفوشيوسية عن ديانات كثيرة من **ناحية أَنَّها لا تعرف الكهانة ، أو أية عناصر غيبية ؛ وإنما تقتصر على احترام الطقوس** »(٢) . ونجد أن كونفوشيوس « **لم يولِ في تعاليمه اهتمامًا كبيرًا بقضايا خلق العالم** ، وأولى اهتمامًا ضئيلًا ـ بالمقارنة بالأديان الأخرى ـ بمفاهيم الحياة بعد الموت »(٣) .

---

(١) يُنْظَرُ مقال : « من حكمة الصين » ، بقلم د.محمد عبد الهادي أبو ريدة ، ص٥٧

(١) د. مراد وهبة : المُعْجَم الفلسفي ، ص ٥٨٦ ، ٥٨٧

(٢) مادة الكونفوشيوسية ، ص ١٣٩

(٣) السابق ، ص١٣٩

ومعنى الإشارات السابقة أَنَّ الكونفوشية دِيانَة أرضية ، ولا صلة لها بالسماء.

○ **زوالها** :

بدأ أفول نجم الكونفوشيوسية من الناحية السياسية والدينية في أوائل القرن العشرين ؛ فألغيت دراستها ، ولم تُعد شرطًا للوظائف ـ وإن بقيت أساسًا للحياة الخلقية ـ ، ولا سيما بعد سقوط الإمبراطورية ، وقيام الجمهورية في عام ١٩١٢م ، ومنذ ذلك الحين فإنَّ الشباب التقدمي في الصين يرى في الكونفوشيوسية عقبة في سبيل التقدم لارتباطها بالملكية ، وكذلك لما تدعو إليه من تقديس الأباء والمحافظة على التقليد . هذا ، وقد اختفت الكونفوشيوسية في الصين باستيلاء الشيوعيين على الحكم عام ١٩٤٩م .

○ **موقف الكونفوشيوسية من وجود الله** :

الحكيم كونفوشيوس يؤمن بوجه عام بوجود كائن أعلى يسميه « السَّماء » ، وهذه هي تسمية الإله عند أهل الصين . ويتصور أَنَّهُ مدبر عادل حكيم .

○ **لماذا لا نَقْبَل الكونفوشيوسية دِيْنًا ؟** :

بناء على ما ذكرناه من معلومات عن الكونفوشيوسية يمكن أن نُجمل رفضنا لهذه الفلسفة في النقاط الآتية :

- أولا : نرفض هذه الفلسفة بسبب إنكارها للجانب الغيبي ، والجنة والنار .
- ثانيًا : لم توضح موقفها من خلق العالم ، كيف خُلِقَ ، ومَن خلقه ؟ بل انصب اهتمامها على الإِنْسَان داخل مجتمعه فقط ، ولم تهتم بمصيره بعد الموت.
- ثالثًا : تأليه كونفوشيوس في العصور التالية يشير ضمنيًّا إلى إنكار وجود خالق لهذا العالم ، وعدم اعتباره في الكونفوشيوسية ، أو على أقل تقدير لا يوجد عندها غضاضة في تعدد الآلهة .
- رابعًا : لم يدع كونفوشيوس ولم يقل أَنَّهُ نبي مرسل ، بل هو مجرد مصلح اجتماعي قال بإصلاح المجتمع ، ونادى بما تنادي به الفطرة السليمة.
- خامسًا : كل القيم الأخلاقية التي نادى بها كونفوشيوس نجدها في الإِسْلام وأكثر .

٣) لماذا لا نَقْبَل الهُنْدُوسِيَّة Hinduism؟ :

تُعَدُّ الهُنْدُوسِيَّة أو الهِندوكية من أكبر الديانات في العالم ، إذ تشير بعض المصادر إلى أنَّ عددهم قرابة ستمائة مليون نسمة ، وهم وحدهم يماثلون نفس عدد النصارى غير الكاثوليك ، ويأتي البوذيون في المرتبة الثانية. وفي الوقت الحاضر « ينتمي ٨٣٪ من سكان الهند إلى الهُنْدُوسِيَّة ، وقد انتشرت الدِّيانَة الهُنْدُوسِيَّة أَيْضًا في كل من نيبال وسريلانكا ، وبنجلادش وغيرها »(١) .

- **مصدرها ومنشؤها ونظامها الاجتماعي:**

ليس للهُنْدُوسِيَّة « مؤسس يمكن الرجوع إليه كمصدر لتعاليمها وأحكامها ؛ فهي مجموعة من التقاليد والأوضاع ... وهي مجموعة من العقائد والمعتقدات ، وتاريخها يوضح استيعابها لشتى المعتقدات والسنن ، وليست لها صيغ محددة المعالم ؛ لذا تشمل من العقائد ما يهبط بها إلى عبادة الأحجار والأشجار والحيوان ، وما يرتفع بها إلى التجريدات الفلسفية الدقيقة »(١) .

و« الفيدا » هو كتاب الهُنْدُوسِيَّة المقدس ، ويقال إِنَّهُ أقدم من التوراة بآلاف السنين ، وأَنَّهُ دون في زمن موغل في القدم ، ربما يرجع إلى ثلاثين ألف سنة مضت . وترى فيه مدارج الارتقاء للحياة العَقْلِيَّة من سذاجة البدوي إلى شعور فلسفي(٢) .

ويقوم النظام الاجتماعي للهُنْدُوسِيَّة على النظام الارستقراطي ، ونظام الطبقات وعدم المساواة بين هذه الطبقات(٣) . وهذه الطبقات هي : أ ـ طبقة الكهنة . ب ـ طبقة المحاربين والتجار . ج ـ طبقة الخدم . د ـ المنبوذين(زنوج الهند) .

ولا يجوز « لفرد أن يأكل مع آخر من طبقة أخرى ، أو يزاوجه ، أو يختلط به »(٤) .

---

(١) سعد الفيشاوي: مُعْجَم المُعْتَقَدَات الدينية ، ص ٢٧٧

(١) المَوْسُوعَة الإسلامية العامة ، مادة « الهُنْدُوسِيَّة » ، ص ١٤٢٦

(٢) السابق ، مادة « الهُنْدُوسِيَّة » ، ص ١٤٢٧

(٣) Encyclopadia Britannica, vol.11, p.577

(٤) المَوْسُوعَة الإسلامية العامة ، مادة « الهُنْدُوسِيَّة » ، ص ١٤٢٨

ويتمادى الهندوس مع الطَّبَقَة الرابعة (المنبوذين) ، فقد سلبوا هذه الطَّبَقَة « حقوقهم الإنسانية ، فنزل بهم إلى مستوى أقل ـ أحيانًا ـ من مستوى الحيوان ؛ فيعتقد الهندوسي في أحيان كثيرة أَنَّ الدنس والرجس يلحقه إذا مر به المنبوذ على بعد بضعة أمتار »[(١)] . وقد هاجم غاندي نظام « المنبوذين ... وألغى هذا النظام »[(٢)] .

والهندوكية « أكثر من عقيدة ودين ، فهي مسلك كامل للحياة ، وعندما التقت بالتطورات الحديثة أخذت تتخلَّى عن بعض عقائدها أو تغيرها ، فمنع الإنجليز مثلًا زواج الأطفال ، وعادة « السوتي » التي تقضي على الزوجة بأن تحرق نفسها في جنازة زوجها »[(١)] .

أهم مبادئها ومعتقداتها :

تذكر الموسوعة البريطانية أن كل الهندوسيين يتشاركون عقيدتين أساسيتين :

(١) العقيدة الأولى التي وصفتهم الموسوعة بها أَنَّهُمْ « **Polytheistic pantheism** »[(٢)] .

وتَرْجَمَة كلمة « **Polytheistic** » : المشرك الذي يؤمن بعدة آلهة ، وتَرْجَمَة كلمة « **pantheism** » تعني : وحدة الوجود ؛ أي : القول بأَنَّ الله والطبيعة شَيْء واحد ، وبأن الكون المادي والإنسان ليسا غير مظاهر للذات الإلهية[(٣)] .

(٢) والعقيدة الثانية إيمانهم بما وصفته الموسوعة البريطانية بـ« **Metempsychosis, the transmigration of souls, re-incarnation** »[(٤)] ، وهو ما يمكن ترجمته بـ« التناسخ؛ التقمص، الانتقال » .

أي أن هذه الدِّيانَة تؤمن بـ :

---

(١) السابق ، مادة « الهُنْدُوسِيَّة » ، ص ١٤٢٨

(٢) المَوْسُوعَة العَرَبِيَّة الميسرة ، مادة « الهندوكية » ، ص ١٩٠٦

(١) السابق، مادة « الهندوكية » ، ص ١٩٠٦

(٢) **Encyclopadia Britannica, vol.11, p.577**

(٣) يُنْظَرُ : منير البعلبكي ، المورد .

(٤) **Encyclopadia Britannica, vol.11, p.577**

١ ـ تعدد الآلهة . ٢ ـ وحدة الوجود . ٣ـ تناسخ الأرواح .

وحقيقة أَنَّ الهُنْدُوسِيَّة تؤمن بـ « تعدد الآلهة » تؤكدها عدد من المصادر الأخرى ، منها الموسوعة العَرَبِيَّة الميسرة :

- « وآلهة الهندوكية كثيرة ، منها : فارونا (السَّماء) ، وأجنى (النار) ، وسوريا (الشمس) ، ولاكشمي (إلهة الحظ) »(١) .
- ومحور الهندوكية الحالية الثالوث المكون من « براهما وشيفا وفيشنو ، وبراهما هو إله سام ، لا يقترب منه الإِنْسَان ، خلق العالم واتحد به »(١) .

وتشير بعض المصادر إلى أن « الكونَ ، وكل موجودات وأشكال الحياة هي من خلق براهما »(٢) . أما شيفا فتتم رؤيته كـ « مدمر للعالم قبل كل فترة من فترات الفناء والموت... وهو يُقرَنُ مع « الإلهة الأم **Ambika** » ... ويتمثل وجوده ـ أيقونِيًّا ـ في صورة ثور ، أو صورة **The pillar-shaped lingam** ، أو **a phallic image** !! »(٣) . « ويُعبد شيفا على صورة بظر!! »(٤) ، أو يُمثَّلُ « معبودًا في صورة بظر »(٥) .

بل تشير المصادر إلى ما هو أكثر من ذلك ، حيث تشير إلى الاتصال « الجنسي » بين هذه الآلهة ، ومن هذه المصادر : دائرة المعارف الأمريكية ، إذ تقول : « ومما يؤمن به

(١) مادة « الهندوكية » ، ص ١٩٠٦

(١) مادة « الهندوكية » ، ص ١٩٠٦

(٢) سعد الفيشاوي: مُعْجَم المُعْتَقَدَات الدينية ، ص ٢٧٦

(٣) **Lexicon Universal Encyclopedia, vol.17**, p.278، والمقصود بـ « **lingam** اللنغام » : العضو الذكري ، ويذكر أ . س . ميغوليفسكي أن : « **في الهند نحو الثلاثين مليون تمثال للعضو الذكري ؛ لينغام ، وثمة في محاريب المعابد مئات اللينغام** » . ينظر: أسرار الآلهة والديانات ، تَرْجَمَة د. حسان مخائيل إسحق ، دار علاء الدِّيْن ، سورية ، ط٤ ، (٢٠٠٩م) ، ص ١١٣، والمقصود بـ **phallic image** ، القضيب ، أو عبادة القضيب .

(٤) المَوْسُوعَة العَرَبِيَّة الميسرة ، مادة « الهندوكية » ، ص ١٩٠٦

(٥) د. ثروت عكاشة : المُعْجَم الموسوعي للمصطلحات الثَّقافِيَّة ، ص ٢٠٨

الهندوس أَنَّ الكون مملوء بعدد وافر من « الآلهة » ، التي تتشارك فيما بينها بعض سمات الإله الأعظم « **Goodhead** » غير أن هذه الآلهة يمكن رؤيتها وهي تسلك نفس سلوك البشر ، وَأَنَّهَا تتصل فيما بينها مثلما « **يتصل** » البشر (؛ أي : اتصال جنسي) .

وهذه النظرة ـ في الهُنْدُوسِيَّة ـ يشبه نظرة اليونانيين القدماء للآلهة ، فعلى سبيل المثال فإن صفوة تلك الآلهة ـ براهما **Brahma** ، وفيشنا **Vishnu** ، وشيفا **Shiva** ، وبعضًا من الآلهة الأخرى ـ تتم رؤيتهم وهم « يَنشطون ! » خلال علاقاتهم مع « الإلهات الإناث » ...

وهناك طائفة أخرى من الآلهة المشهورة ، يقال إنها على صلة « قرابة بالإله الأعظم » ، على سبيل المثال : جانيشا **Ganesha** ، الإله ذو وجه الفيل ، ابن شيفا وبرفاتي **Parvati** .

وكالى **Kali** أو دورجا **Durga** ـ رفيق شيفا ـ يُعبَدُ على نطاق واسع خارج الهند في فصل الخريف . وهانومان ـ الإله ذو وجه القرد ـ يتم رسمه في كثير من المزارات والأضرحة . وتُعَد لاكشامى **Lakshmi** ـ زوجة **Vishnu** ، من بين الإلهات الأكثر أهمية المرتبطة بـ **Vaishnavism** (اعتقاد الفيشنو). وهناك مجموعة من الألهة خاصة ببعض الطوائف ومقصورة عليهم »(١) .

وتؤمن الهُنْدُوسِيَّة ـ كما سبق أن أشرنا ـ بالتناسخ ، إذ « يعتقد الهنود أَنَّ الأرواح جائلة متنقلة في أطوار شتى من الوجود ، تنتقل من جسد إلى آخر ، سواء أكان في الإِنْسَان ، أو الحيوان ، حتى تصل إلى هدفها الأخير ، وهو استجلاء طلعة براهما ، التي لا تكتسب إلا بالاندماج فيه كما تندمج قطرة الماء في المحيط »(٢) .

وتشترك « جميع أنواع الهُنْدُوسِيَّة في **الاعتقاد بأزلية الطبيعة** ، وبتقديس الفيدا

---

(١) **Lexicon Universal Encyclopedia, vol.10, p.170**

(٢) المَوْسُوعَة الإسلامية العامة ، مادة « الهُنْدُوسِيَّة » ، ص ١٤٢٧

واعتبارها وحيًا ... والاعتقاد بخلود الروح التي تظل هائمة »[(١)] .

ولا يزال « الهنود يقدسون الحيوانات ، وخاصة البقر ، تطبيقًا لقاعدة « الأهيمسة » (عدم العنف)، وفي بعض الجهات تقدس الآفاعي، بصفتها صورة لـ « كالي » »[(٢)] .

وتحفل « الهِندوكية الحديثة بشعائر دينية **بينها تناقض بَيِّنٌ ، وتنوع كبير ، وهي على الرغم من ذلك لا تقضى إحداها على الأخرى** »[(١)] .

- **لماذا نرفضها ؟:**

من خلال عرض الحقائق السابقة عن الهُنْدُوسِيَّة فإنَّنا نرفضها للأسباب الآتية:

(١) ليس لهذه الدِّيانَة مؤسس معروف ، بل هي مجموعة من الأوضاع والمعتقدات المتوارثة على مر العصور والأزمان ، وليست لها صيغ محددة المعالم ؛ لذا تشمل من العقائد ما يهبط بها إلى عبادة الأحجار والأشجار والحيوان ، وما يرتفع بها إلى التجريدات الفلسفية الدقيقة ، **وبناء على ذلك ، فلا علاقة لها بالسماء** .

(٢) القول بتعدد الآلهة ، ذكورًا وإناثًا ، والاتصال الجنسي بين هذه الآلهة.

(٣) الضلال العقلي والفطري في هذه الدِّيانَة ، حيث نجد أَنَّها :

- تأمر بأن تحرق الزوجة نفسها عند موت زوجها .
- الانحطاط العقلي الذي وصل لعبادة الحيوانات ، مثل : البقر والآفاعي ، بل حتى الفئران .
- تمثيل ما يعبدونه من آلهة على هيئة أعضاء تناسلية أنثوية وذكرية .
- تمثيل صورة بعض الآلهة على صورة الفيل والقرد.

(٤) الطبقية البغيضة التي تقسم الناس إلى سادة وعبيد ، وتحرم الاختلاط والتزاوج بينها ، بل إهدار الحقوق الإنسانية لبعضها ، الأمر الذي دفع بعض معتنقيها ـ

---

(١) سعد الفيشاوي: مُعْجَم المُعْتَقَدَات الدينية ، ص ٢٧٧

(٢) المَوْسُوعَة العَرَبِيَّة الميسرة ، مادة « الهندوكية » ، ص ١٩٠٦ ، ود. ثروت عكاشة : المُعْجَم الموسوعي للمصطلحات الثَّقافِيَّة ، ص ٢٠٨

(١) د. ثروت عكاشة : المُعْجَم الموسوعي للمصطلحات الثَّقافِيَّة ، ص ٢٠٨

المهاتما غاندي ـ إلى مهاجمة هذا النظام وإلغاء بعضه.

(٥) قولها بوحدة الوجود ، وتناسخ الأرواح .

(٦) مجهولية من كتب كتابها المقدس « الفيدا » ، وعدم معرفة وقت كتابته على وجه التحديد .

(٧) امتلاؤها بشعائر دينية يناقض بعضها بعض .

(٨) الاعتقاد بأزلية الطبيعة .

(٩) غياب الرَّحْمَة عن آلهتها ، حيث يُرى بعضها كمدمر للعالم .

*****

٤) لماذا لا نَقْبَل السِّيخِيَّة Sikhism ؟ :

السِّيخِيَّة جماعة دينية من الهنود ، ظهرت في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر ، كانت بداية أصولها في ولاية البنجاب شمال غربي الهند ، بلغ تعدادهم عام ١٩٨٤م ١٤ مليونًا ؛ أي : ما يُقاربُ ١.٨٪ من عدد سكان الهند، وتوجد جاليات منهم في المملكة المتحدة ، وكندا ، والولايات المتحدة ، وماليزيا وشرق أفريقيا [(١)] .

أُسستْ السِّيخِيَّة على يد جورو ناناك **Guru Nanak** ، الذي ادعى أَنَّهُ رأى الرب ، حيث أمره بدعوة البشر ، ثم اختفى أثناء استحمامه في أحد الجداول ، وغاب لمدة ثلاثة أيام ، ظهر بعدها معلنًا : لا هندوس ، لا مسلمين [(٢)] .

وتبعه تسعةُ معلمين ، كان آخرهم جورو جوبند سينغ **Guru Gobind Singh** (١٦٧٥م ـ ١٧٠٨م) [(٣)] . وصار زعماؤهم بعد ذلك يعرفون باسم المهراجا [(٤)] . والمكان المقدس عند هذه الجماعة هو « المعبد الذهبي **The Golden**

---

(١) **Lexicon Universal Encyclopedia, vol.17, p.302**

(٢) المَوْسُوعَة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ، ٢/ ٧٧٤

(٣) **Lexicon Universal Encyclopedia, vol.17, p.302**

(٤) المَوْسُوعَة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ، ٢/ ٧٧٥

Temple » في أمرتسار Amritsar ، الذي أسسه الجورو الرابع راد داس .

والسيخ معروفون بعمائمهم ، وقد أخذوا على أنفسهم العهد بألا يقُصُّوا شعرهم! وألا يدخنون [1] .

ويشير بعضُ الباحثين إلى أن سبب نشأة هذه الجماعة كراهيتها للنظام الاجتماعي الهندوسي وروح الموالاة القبلية ، واحتجاج التجار والصناع الفقراء ضد النظام الاجتماعي الهندوسي المنغلق وضد الاضطهاد الإقطاعي ، ورغبتهم في التخلص من سيطرة الهندوس ، وإقامة وطن خاص بهم [1] .

وقد ناصبوا المسلمين العداء خلال تاريخهم ، وبشكل عنيف ، حيث كونوا قوة عسكرية للدفاع عن أنفسهم ضد المسلمين ، وقاد جورو جوبند سينغ (الجورو العاشر) عام ١٦٩٩م مجموعة من الجنود السيخ في عدة معارك لتحقيق الاستقلال الديني [2] ، ولقد تمثلت المحصلة النهائية لهذا النضال في إقامة دولة السيخ التي تحولت مع مرور الوقت إلى دولة إقطاعية ، ولقد ظلت هذه الدولة ذات سيادة حتى غزاها البريطانيون عام ١٨٤٩م [3] . وقد كان لهم ولاء شديد للبريطانيين خلال فترة استعمار الهند [4] .

معتقداتهم وكتابهم :

- دعا السيخُ إلى دِيْن جديد ، زعموا أن فيه شَيْئًا من الديانتين: الإسلامية والهندوسية ، تحت شعار : لا هندوس ولا مسلمين [5] .

---

(١) **Lexicon Universal Encyclopedia, vol.17, p.302**

(١) سعد الفيشاوي: مُعْجَم المُعْتَقَدَات الدينية ، ص ٥٨٥ ، وينظر أَيْضًا : المَوْسُوعَة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ، دار الندوة العالمية للطباعة ، الرياض ، ط٣ ، (١٤١٨هـ) ، ٢/ ٧٧٤

(٢) المَوْسُوعَة العَرَبِيَّة العالمية ، مؤسسة أعمال ، الرياض ، ط٢ ، (١٩٩٩م) ، ١٣/ ٣٦٧

(٣) سعد الفيشاوي: مُعْجَم المُعْتَقَدَات الدينية ، ص ٥٨٥

(٤) المَوْسُوعَة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ، ٢/ ٧٧٤

(٥) السابق ، ٢/ ٧٧٤

- جمع جورو ناناك في السِّيخِيَّة عناصر من الدِّيْن الإسلامي والديانة الهُنْدُوسِيَّة ، ونادى بتوحيد الله ، وأخوة البشر ، ورفض النظام الطبقي ، وعبث عبادة الأوثان (١) .
- اقتبست شعائر وأساليب النظام الطبقي ، **ومعتقدات تعدد الآلهة التي تنادي بها من الدِّيانَة الهُنْدُوسِيَّة** (١) .
- اعتنقت السِّيخِيَّة **الاعتقاد الهندوسي في التناسخ** ، ووفقًا لهذا الاعتقاد عندما يموت الجسد تعود الروح إلى الحياة من جديد في جسد حيوان أو إنسان آخر ، وتشتمل السِّيخِيَّة كذلك على الاعتقاد الهندوسي بـ « الكرما » التي تنص على أن أعمال الفرد تحدد نوع الحيوان أو الإِنْسَان الذي ستنتقل إليه الروح في الحياة التالية (٢) .
- أباح ناناك الخمر ، وأكل لحم الخنزير ، وقد حرم لحم البقر مجاراة للهنادكة (٣) .
- أعطى الجورو الخامس أرجون **Arjun** (١٥٨١م ـ ١٦٠٦م) للسيخية كتابها المقدس « جرانث ساهب **The Granth Sahib** » التي تحتوي على مواعظ الـ « الجوروات » (٤) ، وعلى تعاليم هؤلاء المعلمين الروحيين (٥) . وسيرة حياة جورو، ويستخدم في ممارسة العبادات (٦) .
- للمعلم درجة دينية تأتي بعد مرحلة الرب ، فهو الذي يدل ـ في نظرهم ـ على الحق والصدق ، كما أَنَّهُمْ يتعبدون الإله بإنشاد الأناشيد الدينية التي نظمها

---

(١) **Lexicon Universal Encyclopedia, vol.17, p.302**

(١) المَوْسُوعَة العَرَبِيَّة الميسرة ، مادة « سيخ » ، ص ١٠٤٧

(٢) المَوْسُوعَة العَرَبِيَّة العالمية ، ١٣/ ٣٦٧

(٣) المَوْسُوعَة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ، ٢/ ٧٧٥

(٤) **Lexicon Universal Encyclopedia, vol.17, p.302**

(٥) المَوْسُوعَة العَرَبِيَّة العالمية ، ١٣/ ٣٦٧

(٦) سعد الفيشاوي: مُعْجَم المُعْتَقَدَات الدينية ، ص ٥٨٥

المعلمون ، ويعتقد السيخيون أن ترديد أسماء الإله الناما يطهر المرء من الذنوب ويقضي على مصادر الشر في النفوس ، ويعتقدون بأن روح كل واحد من المعلمين تنتقل منه إلى المعلم التالي له ، ويتزوجون من زوجة واحدة فقط [(١)] .

لماذا نرفض هذه الدِّيانَة ؟

(١) كما أشارت المصادر السابقة ، فإن السِّيخِيَّة هي مزيج من مكونات إسلامية وهندوسية ، حيث تؤمن بتعدد الآلهة ، وتناسخ الأرواح ، وقد سبق بيان ضلال وبطلان ما تقول به الهندوسية.

(٢) إباحة شرب الخمر ، وأكل لحم الخنزير ، وتحريم أكل لحم البقر .

(٣) غموض حياة مؤسس هذه الجماعة .

(٤) رفع السيخيين مقام معلميهم لمكانة تكاد تقترب من الألوهية.

*****

٥) لماذا لا نَقْبَل الشنتوية Shintoism ؟ :

الشِّنْتَوِيَّة هي الدِّيانَة المحلية في اليابان ، وعلى عكس بعض الديانات الآخرى فإنَّ الشِّنْتَوِيَّة « **ليس لديها مؤسس تاريخي** » [(٢)] .

تشكلت هذه الدِّيانَة في العصر الإقطاعي ؛ أي : في القرنين السادس والسابع من الميلاد [(٣)] ، وظهر مصطلح الشِّنْتَوِيَّة لأوَّل مرة في القرن الثامن عشر الميلادي ؛ لتمييز الشِّنْتَوِيَّة عن البُوذِيَّة [(٤)] .

وعند حدوث ثورة ميجي في عام ١٨٦٨م نُودِي بها كدين للدولة ، وبقيت كذلك بصفة رسمية حتى هزيمة اليابان في الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٤٥م .

ومنذ عام ١٩٤٦م أصبحت الشِّنْتَوِيَّة مستقلة عن الدولة ، وبدأت تفقد

---

(١) المَوْسُوعَة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ، ٢/ ٧٧٦

(٢) **Lexicon Universal Encyclopedia, vol.17, p.262**

(٣) سعد الفيشاوي: مُعْجَم المُعْتَقَدَات الدينية ، ص ٥٨٢

(٤) **M.Rosenthal and P.Yudin, A Dictionary of Philosophy, p.408**

رونقها في نهاية القرن التاسع عشر . وفي القرنين التاسع عشر والعشرين ظهر عدد من الطوائف الشِّنْتَوِيَّة الجديدة التي رفضت البُوذِيَّة ، ومارست كل الطقوس بما يتناسب مع التقاليد الشِّنْتَوِيَّة .

وتعود أصولها « العميقة للممارسات الدينية القبل تاريخية للشعب الياباني »[(١)] ، وإلى « العبادات القَبَلِيَّة ذات النزعة الأحيائية وعلى الشامانية »[(٢)] . وتشير بعض المصادر إلى أَنَّها أخذت عن البُوذِيَّة « **الكثير من شعائرها وتصوراتها** »[(٣)] .

هذا وقد انقسمت الشِّنْتَوِيَّة خلال تاريخها إلى مجموعات دينية مختلفة ، حظيت كل منها بشهرة ، وبلغ مجموع هذه المجموعات ١٣ طائفة ، هذه الطوائف وغيرها من الطوائف البُوذِيَّة والمسيحية انفصلت عن الدولة (عام ١٩٤٦م) ، وأصبحت تعتمد على نفسها في تأمين مواردها[(٤)] .

وفي الوقت الحالي فإن ما يربو على نصف سكان اليابان يؤمنون بالديانتين البُوذِيَّة والشنتوية ، ويحتفلون بطقوس دورة الحياة (المتمثلة في مباركة الوليد والزواج) في معابد الشانتو.

معتقداتها ومبادئها:

- يقول د. ثروت عكاشة : « وتختلف الشنتوية عن البُوذِيَّة التي تسللت إلى اليابان خلال القرن السادس الميلادي **في أَنَّها شعورٌ أكثر منها فكر ، فلا يُعرف للشنتوية مُؤسِّس ، ولا كتب مقدسة رسمية ، ولا تعاليم عقائدية ، ولا نُسُك رهبانية . وليس ثمة جنة ولا نار ، كما ليس ثمة تمييز جَلِي بين ما هو إلهي وما هو إنساني ،**

---

(١) **Lexicon Universal Encyclopedia, vol.17, p.262**

(٢) سعد الفيشاوي: مُعْجَم المُعْتَقَدَات الدينية ، ص ٥٨٢ ، والشامانية **Shamanism**: « دين بدائي من أديان شمالي آسيا وأوربا ، يَتَمَيَّز بالاعتقاد بوجود عالم محجوب ، هو عالم الآلهة والشياطين ، وأرواح السلف ، وبأن هذا العالم لا يستجيب إلا للشامان » ، يُنْظَرُ : مُعْجَم المورد .

(٣) **M.Rosenthal and P.Yudin, A Dictionary of Philosophy, Progress Publisher, Moscow, first printing, 1967, p.408**

(٤) **Lexicon Universal Encyclopedia, vol.17, p.263**

فهي مذهب أبيقوري إذا جاز استخدام المعنى الدارج للأبيقورية على أَنَّها مبدأ اقتناص المتعة ، ولعل مردَّ تعلق اليابانيين بالمال والنجاح دون ندم إلى الشنتوية»[(١)] .

- لا تملك الشِّنْتَوِيَّة أية مبادئ أو قواعد مستقاة من أسفار مقدسة ؛ على الرغم من أن عناصر مهمة من أساطيرها وفلسفتها التي تبحث في أصول الكون ربما تكون موجودة في السجلات التاريخية اليابانية القديمة (**The Kojiki and The Nihonshoki**)[(٢)] . وصلواتها الشعائرية ـ التي تُدعى نوريتو **norito** ـ ألفت وكتبت منذ تاريخ بعيد.
- وكلمة « شنتو » كلمة صينية يابانية معًا ، وهي تقابل في اللغة اليابانية الخالصة « كامي نو ميشي **Kami no michi** » ؛ التي تعني : « طريق الكامي » ، <u>**والكامي هو عدد لا يُعَدُّ ولا يُحصى من الآلهة اليابانية**</u> التي يُعتَقدُ أَنَّها[(٣)] :

⇦ آلهة « مكسوة بالريش تمامًا **Full-fledged gods** » ، مثل إلهة المشمس أماتيراسو **Amaterasu** ، **التي جاءت من نسلها العائلة الإمبراطورية كما يُقال.**

⇦ أو أَنَّها الأرواح الإلهية للشخصيات العظيمة : المحاربون ، القادة ، الشعراء ، العلماء .

⇦ الأسلاف الآلهة من العشائر .

⇦ أرواح أماكن معينة ، تنتمي في الغالب للطبيعة الجميلة : الأخشاب ، الأشجار ، الينابيع ، الصخور ، الجبال .

⇦ وقد تكون الكامي ـ بطريقة أكثر تجريدًا ـ قوى الطبيعة : الخصوبة ، والنمو ، والإثمار؛ لذلك « كان الاحتفال بها يتم بالقرب من الأماكن الطبيعية التي كان من المتصور أن قوى الطبيعة الغامضة تحل فيها »[(٤)] .

---

(١)د. ثروت عكاشة : المُعْجَم الموسوعي للمصطلحات الثَّقافِيَّة ، ص ٤٣١

(٢) **Lexicon Universal Encyclopedia, vol.17, p.262**

(٣) **Ibid, vol.17, p.262**

(٤) سعد الفيشاوي: مُعْجَم المُعْتَقَدَات الدينية ، ص ٥٨٣

- ولقد جُسِّدَ هذا الكامي الذي لا يُحصَى عددًا في صورة « الحيوانات والنباتات والأشياء والظواهر الطبيعية »[١] .
- وطبقًا للديانة الشِّنْتَوِيَّة فإن الاتصال بين الآلهة والناس ، يتحقق خلال الإمبراطور(**Mikado**) ، نسل أماتيراسو **Amaterasu** ـ إلهة الشمس ـ وممثلها على الأرض . ويعتبر الميكادو (الإمبراطور) جد اليابانيين ، **ويتم تعظيمه كإله** (**honoured as a god**) ، وبعد هزيمة اليابان في الحرب العالمية الثانية ، أصبح الأصل الإلهي للإمبراطور محل إنكار وعدم قبول[٢] .
- ويشير معجم المعتقدات الدينية[٣] إلى أَنَّ الشِّنْتَوِيَّة تتكون من عدة فرق :
  - » الفرقة الأولى هي فرقة شنتو السلالة الحاكمة ، وتمارس طقوس هذه الفرقة في داخل إطار العائلة الإمبراطورية التي من المفترض أَنَّها من نسل إلهة الشمس أماتيراسو **Amaterasu**.
  - » والفرقة الثانية هي فرقة التينوية (وكلمة تينو تعني الإمبراطور) ، وتضفي هذه الفرقة **صفات الألوهية على الإمبراطور** .
  - » الفرقة الثالثة هي فرقة أضرحة قديسي الشنتو ، والتي يعبد أتباعها آلهة محلية وقومية متنوعة .
  - » والفرقة الرابعة هي فرقة شنتو الشعبية أو الغجرية ، وأتباع هذه الفرقة يعبدون آلهة محلية وأرواح لا توجد في مجمع آلهة الدولة.
- ويذكر د. مراد وهبة في معجمه الفلسفي أن للشِّنْتَوِيَّة « كتاب مقدس » اسمه كوزيكي **Kojiki** ، لا يسمح بقراءته ككل إلا للفقهاء وكأجزاء للعامة. وهذه الأجزاء مكتوبة بلغة يابانية مقروءة . ويبدأ هذا الكتاب بآلهة في حالة صخب ،

---

(١) **M.Rosenthal and P.Yudin, A Dictionary of Philosophy, p.408**

(٢) **Ibid, p.408**

(٣) سعد الفيشاوي ، ص ٥٨٣

ليست مولودة ولا مخلوقة ، ومن هذا الصخب يولد جنسان : رجل إزاناجي ، والآخر امرأة إزانامي ينجذبان جنسيًّا ؛ **فيلدان آلهة** ، وأخيرًا : الإله النار الذي يحرق أمه إزانامي .

الخلاف بين الشِّنتوية والبوذية :

بتأسيس البُوذِيَّة في اليابان خلال فترة حكم نارا **Nara** ، وهاين **Heian** ـ خلال الفترة ٧١٠م ، ١١٨٥م ـ أصبحت الشِّنْتَوِيَّة سريعًا تحت سيطرة ونفوذ البُوذِيَّة والكنفوشيوسية ، والثقافة الصينية بوجه عام ، وفي تلك الفترة أصبحت الشِّنْتَوِيَّة معقدة التركيب وتتبع القيادة البُوذِيَّة ، ودخلت في الشِّنْتَوِيَّة بتأثير من البُوذِيَّة « كامي » أخرى (؛ أي : آلهة وأرواح أخرى) ، يعتقد أَنَّها مظاهر وتجليات لمتنورين معينين من البوذا **Buddhas** (١) ، أو الـ **Bodhisattvas** (٢) .

وهكذا فقد امتزجت كلتا الدياناتين وتعايشتا مع بعضهما في نفس الوقت . وخلال فترة التوكوجاوا **Tokugawa**(١٦٠٣م ـ ١٨٦٨م) أصبحت الجماعات البُوذِيَّة أدوات للنظام الإقطاعي ، وأصبحت الكنفوشيوسية الجديدة مرشدًا للمعتقدات والأفكار ، وتقلص دور الشِّنْتَوِيَّة وحجبت عن الأمور الدينية والفكرية.

ولكن ورغم ذلك استطاع علماء قوميين بالتدريج أن يقوموا بدور ضد ما اعتبروه « أفكار أجنبية عنهم **foreign ideologies** » ، وأخذوا يتحولون أكثر وأكثر إلى الدِّيانَة الشِّنْتَوِيَّة كمصدر للهوية اليابانية الفريدة .

لماذا نرفض هذه الدِّيانَة ؟

نرفض هذه الدِّيانَة لأَنَّهَا :

- لا تقول هذه الدِّيانَة بإله واحد أو اثنين ، بل تقول ـ كما ذكرت المصادر ـ

(١) الـ **Buddha** هو : البوذا أو المتنور ، وهو من بلغ حالة التنور الروحي الكامل عند البوذيين كما تطلق هذا الكلمة على رسم أو تمثال لغوتاما بوذا ، مؤسس البُوذِيَّة . يُنْظَرُ : مُعْجَم المورد.

(٢) **Lexicon Universal Encyclopedia, vol.17, p.262**

بعدد لا يحصى ولا يعد من الآلهة ، منها الإناث ومنها الذكور ، والتي يحصل بينها التجاذب الجنسي ، ويمكن أن تلد !

- ترفع هذه الدِّيانَة بعض البشر (الإمبراطور) إلى مصاف الآلهة ، وتعبدهم ، ولا أدل من هذا دليلًا على ضلال هذه الدِّيانَة وفسادها.
- لا نعلم لهذه الدِّيْن مُؤسس معين ، ولا كتب مقدسة رسمية ولا تعاليم عقائدية ولا نسك رهبانية ، بل هي دِيانَة تلفيقية ، تشكلت وتطورت على مدار التَّاريخ .
- لم تذكر المصادر التي اطلعت عليها أي حديث للشِّنْتَوِيَّة عن الحياة بعد الموت ، فليس ثمة حديث عن جنة أو نار . وأي دِيْن لا يتحدث عن الحياة بعد الموت لا يلزمنا ، ولا قيمة له.
- أخذت الشِّنْتَوِيَّة بعض أفكارها وتصوراتها من البُوذِيَّة ، وقد تكلمنا من قبل عن البُوذِيَّة وفسادها .

*****

٦) لماذا لا نَقْبَل الطاوية Taoism ؟ :

الطاوية أو التاوية دِيانَة صينية ، واشتقت من « التاو ، وهو العدم ، وهو أم الوجود ، وبالتالي خالق الأشياء ، وهو بلا اسم ؛ لأنَّه أسمى من أن يسمى »(١) .

وتذكر بعض المصادر أن « الطاوية مذهب فلسفي ظهر في الصين ، ربما خلال القرن الرابع ق . م ، والطاوية هي أَيْضًا اسم لديانة ظهرت في القرن الثاني ق . م »(٢) .

مؤسسها :

مؤسس التاوية لاو- تسو ، وحياة هذه الشخصية « موضع جدل ؛ إذ يُعزى مولده إلى الفترة ما بين القرن الثالث عشر والسادس قبل الميلاد ، ويُقال إِنَّهُ مات وعمره مائة سنة ، ويقال إِنَّهُ لم يمت ، ويقال إِنَّهُ ظهر عدة مرات في التَّاريخ .

---

(١) د. مراد وهبة : المُعْجَم الفلسفي ، ص ١٨٤

(٢) المَوْسُوعَة العَرَبِيَّة العالمية ، ١٥/ ٥١٣

عقيدته تعرف باسم : عقيدة الطريق ، ترفض الدُّنْيا ، كما ترفض الملكية ، يسخر من الأفعال؛ لأَنَّهَا بلا جدوى ، ويكره الحضارة ، ويعشق العودة إلى الطبيعة ، والغاية هي التناغم مع التاو ؛ أي مع الطريق » [١] . وينسب لهذه الشخصية كتاب « شريعة العَقْل والفضيلة » ، الذي يُعد مصدر للتعاليم الفلسفية للطاوية [٢] .

أهم مبادئها ومعتقداتها :

- في بداية القرن الخامس تشكلت عقائد وطقوس التاوية التي أصبحت دِيْن الدولة ، « وأصبحت مذهبًا دينيًّا مكتملًا ... **له آلهته الكثيرة** » [٣] ، واشتملت على عناصر من الدِّيانَة البُوذِيَّة والكونفوشية ، وعلى الخرافات وأفكار غيبية أخرى [٤] . وهو مذهب يخاطب عمومًا العواطف أكثر من الكونفوشية ، ويميل إلى التأمل الصوفي ، ويتسم بـ « طابع وحْدِيوُجودي **pantheistic** » [٥] .
- المفهوم الرئيسي للتاوية هو « التاو » الذي « يشكل جوهر العالم ، وعلته الأولى ، ومصدر تنوعه ، وأم كل الأشياء ، ويشكل هذا المفهوم نوعًا من المسار الطبيعي الذي لا بد أن يسلكه العالم وكل البشر » [٦] .
- للتاوية جانبان : جانبٌ فلسفي ، وجانبٌ ديني . والتاوية ـ في جانبها الديني ـ تقيدت تقيدًا حرفيًّا مفرطًا بالقانون ، أو بالشرع الديني والأخلاقي (**legalism**) ، كما ارتبطت بـ « عبادة الإمبراطور الأصفر **The cult of**

---

(١) د. مراد وهبة : الْمُعْجَم الفلسفي ، ص ٦٠٩

(٢) مُعْجَم الْمُعْتَقَدَات الدينية ، ص ٦١٩

(٣) الْمَوْسُوعَة العَرَبِيَّة الميسرة ، ص ١١٤٨ ، وينظر أيضًا : د. ثروت عكاشة : الْمُعْجَم الموسوعي للمصطلحات الثَّقافِيَّة ، ص ٤٦٠

(٤) سعد الفيشاوي : مُعْجَم الْمُعْتَقَدَات الدينية ، ص ٦١٩

(٥) د. منير البعلبكي : المورد ، ص ١٢٠٣

(٦) سعد الفيشاوي : مُعْجَم الْمُعْتَقَدَات الدينية ، ص ٦١٩

the Yellow Emperer » ، وأصبحت شائعة بعد قمع وإخماد الفكر التقليدي خلال القرن الثالث قبل الميلاد [(١)] .

- وفي جانبها الفلسفي ـ كما يقول د. مراد وهبة ـ « تدور على مكانة الفرد في الطبيعة ، ولكنها على الضد من الكنفوشية ، **لا تنشغل بالمجتمع إلا من حيث الفرار منه ، وتنحصر في نسق سحري ينشد شفاء المرضى ، وتجنب الموت** ، وتحاشي الأرواح الشريرة الآتية من العالم الآخر ، وجذبت أولئك الذين ينشغلون بالمسائل الدينية ، وبالحياة الروحية إلى أن حلت محلها البُوذِيَّة » [(٢)] .
- وتؤكد على « الامتناع عن كل عمل إيجابي أكثر من تأكيدها على عمل الصلاح ، دخلت فيها عبادة كثير من الأشياء السماوية ، ثم انحدرت إلى مذهب من السحر الشائع » [(٣)] .
- ويلاحظ في الجانب الفلسفي في التاوية وجود عناصر مادية وجدلية تلقائية ، **وتطرح التاوية تفسيرات غيبية للظواهر الطبيعية ، كما يوجد بها مفهوم « مجمع الآلهة » الذي يقوده ثالوث شانج تي ، ولاوتسو ، ويان كو خالق العالم** [(٤)] .
- الطاوية ـ باعتبارها دِيانَة ـ تأثرت بالديانة الصينية الشعبية ، **ومعظم الآلهة في زعم أتباع الدِّيانَة الصينية هم بشر أظهروا قدرات غير عادية خلال فترات حياتهم** ... وللتاوية نظام كهانة وراثي ؛ إذ يقوم الكهان بأداء الطقوس العامة التي يقدمون **خلالها الصلوات إلى آلهة الدِّيانَة الشعبية ، والكاهن الرئيسي ـ الذي يكون في حالة انجذاب ـ يصلي للآلهة الأخرى بالأصالة عن المتعبدين** [(١)] .

---

(١) **Lexicon Universal Encyclopedia, vol.19, p.29**

(٢) المُعْجَم الفلسفي ، ١٨٤

(٣) ألبرت الريحاني: المَوْسُوعَة العربية، دار ريحاني للطباعة، بيروت، ط١ ، (١٩٥٥م) ، ص ٢٢١

(٤) سعد الفيشاوي : مُعْجَم المُعْتَقَدَات الدينية ، ص ٦١٩

(١) المَوْسُوعَة العَرَبِيَّة العالمية ، ١٥/ ٥١٣

- وحاول أنصار التاوية العناية بالكمياء والبحث عن أكسير الحياة .
- وتحت مظلة التاوية ظهر عدد كبير من الطوائف التي تميزت فيما بينها بطرحها لتفسيرات خاصة بها في قضايا اللاهوت والعقيدة والطقوس ، وتبنت هذه الطوائف وجهات نظر متباينة بشأن واجبات المؤمنين والشعائر المفروضة عليهم(١) .
- وقد فقدت هذه الدِّيانَة منذ أمد بعيد تأثيرها على الديانات الأخرى التي انتشرت في الهند ، وفي الوقت الحالي توجد أعداد ضئيلة للغاية من أتباع هذه الدِّيانَة (٢) .

العلاقة بينها وبين الكنفوشية والبوذية :

- تطورت التاوية جنبًا إلى جنب مع الكونفوشية كفلسفة وكدين أَيْضًا ، وأصبحت عقيدة رئيسية من نظم العقائد في التقاليد الصينية (٣) .
- أصبحت التاوية بمثابة موطأ القدم والتُّكأة والموثِب الذي انطلقت منه البُوذِيَّة ، وأثرت التاوية في البُوذِيَّة ، في شكلها النهائي في الصين ، واختلطت التاوية والبوذية في عقول معظم المؤمنين الصينيين العاديين الذين يُوجَدون بشكل أساسي في هونج كونج وتايوان (٤) .

لماذا نرفض الطاوية ؟

من خلال ما سبق نرفض هذه الدِّيانَة لما يأتي :

(١) تعدد الآلهة التي تؤمن بها هذه الدِّيانَة .

(٢) مجهولية حياة مؤسسها .

(٣) تكونها من عناصر فاسدة من البُوذِيَّة والكنفوشية .

---

(١) سعد الفيشاوي : مُعْجَم المُعْتَقَدَات الدينية ، ص ٦١٩

(٢) مُعْجَم المُعْتَقَدَات الدينية ، ص ٦١٩

(٣) **Lexicon Universal Encyclopedia, vol.19, p.28**

(٤) **Ibid, vol.19, p.29**

(٤) هجر أتباعها أنفسهم لها .
(٥) الابتعاد عن معترك الحياة ، وتعمير الأرض إلى العزلة البغيضة .
(٦) تفاهة غايتها ، إذ انحصر اهتمامها في نسق سحري ينشد شفاء المرضى ، وتجنب الموت ، وتحاشي الأرواح الشريرة الآتية من العالم الآخر.
(٧) لا حديث عن شرائع تنظم الحياة بين الناس ، ولا حديث عن الآخرة وما بعد الموت .

٧) لماذا لا نَقْبَل اليانية Jainism ؟ :

هي مذهب ونظام فلسفي ديني هندي ، نشأ مع البُوذِيَّة في القرن ٦ ق. م. احتجاجًا على الهندوكية. ويمثل اليانيون المجموعة الدينية السادسة في الهند من حيث العدد ؛ إذ إن هناك أكثر من ثلاثة ملايين ياني ، لهم ـ بحكم ثرائهم ومركزهم المالي ـ أثر قوي في شبه القارة الهندية وتاريخها ، كما أن هناك جماعات يانية صغيرة في شرقي إفريقيا (كينيا) ، وأوربا (إنجلترا) والولايات المتحدة وكندا [(١)] .

مؤسس الجانية أو الجينية أو اليانية شخص يُدعى « ماهافيرا » ، وكان يلقب بـ « **Jina** » ؛ أي السيد أو الظافر [(٢)] . وتشير مصادر أخرى أن هناك سلسلة متتابعة من أربعة وعشرين قديسًا ساهموا في تأسيسها ، وآخرهم « فاردمانا » الملقب بـ « ماهافيرا (٥٩٩ ـ ٥٢٧ق .م) » ، البطل العظيم [(٣)] .

انقسمت اليانية بعد موت ماهافيرا إلى فرقتين :

١ـ ديامبرا ، أصحاب الزي السماوي ، أو العراة .

٢ـ إسفتامبرا ، أصحاب الزي الأبيض .

وبدأ ذلك الانقسام عام ٣٦٠ ق . م ، حينما هاجرت جماعة من اليانيين إلى الجنوب بسبب مجاعة أصابتهم ، وعندما عادوا إلى الشمال بدأ الرهبان يسترون

---

(١) المَوْسُوعَة العَرَبِيَّة العالمية ، ٢٧/ ٣٠٣

(٢) د. مراد وهبة : المُعْجَم الفلسفي ، ص ٢٩٠ ، ٢٩١

(٣) المَوْسُوعَة العَرَبِيَّة الميسرة ، ص ٦٠٩

عوراتهم بقماش أبيض ؛ فحدث صراع بين الفريقين : العائدين والمقيمين ؛ أدى إلى انقسام رسمي عام ٧٩ أو ٨٢م ، ومعظم اليانيين في الشمال من أصحاب الزي الأبيض .

أهم مبادئها ومعتقداتها:

- يقول الباحثون إن اليانية : « نِحلةٌ انفصلت عن الفيدية ، أو هي طريق وسط بين العقيدتين البراهمانية والبوذية »[(١)] .
- هذه العقيدة عقيدة **إلحاد وكفر** ؛ لَأَنَّهَا **لا تؤمن بخالق لهذا الكون ، فقد وجد العالم منذ الأزل من غير أن تكون له بداية أو يكون له نهاية**[(٢)] ؛ لذلك « **لا ترى الجانية ضرورة في الاعتراف بكائن أعلى مرتبة من الإِنْسَان الكامل ؛ ولهذا يَعُدُّها علماء الأديان من العقائد التي تذهب إلى الإلحاد** »[(٣)] .
- وأساس اليانية **أن كل ما هو موجود في الكون أزلي ، حتى المادة** ، وَأَنَّ الأرواح تشعر بهويتها دائمًا في التقمصات المتتالية التي تترتب على ثمار السلوك مجتمعة ، ويمكن بعد تسعة تقمصات الوصول إلى النيرفانا ، وهي الخلاص من الجسد والمادة[(٤)] .
- ويعتقد اليانيون أن كل الكائنات والأشياء وحتى الجمادات لها أرواح حية (جيفا) ، ويعتقدون أَنَّ الروح ـ في حالة صفائها ـ على معرفة بكل شَيْء ، ولكن اتصالها بالمادة يدنسها ، وَأَنَّ الكارما (الأعمال التي تُثقِل الروح) كأعمال العنف والجشع والأنانية ، وعدم الأمانة والسلوك الجنسي الفاحش والشراهة تحجب الروح، بينما الأعمال النبيلة والكفارة تخلصها وتحررها[(١)] .
- يُعَدُّ الرهبانُ والراهبات المثل الأعلى في المعتقدات اليانية ، ولا يملك الواحد

---

(١) د. ثروت عكاشة : المعجم الموسوعي للمصطلحات الثَّقافِيَّة ، ص ٢٣٨

(٢) د. مراد وهبة : المُعْجَم الفلسفي ، ص ٢٩١

(٣) د. ثروت عكاشة : المعجم الموسوعي للمصطلحات الثَّقافِيَّة ، ص ٢٣٨

(٤) المَوْسُوعَة العَرَبِيَّة الميسرة ، ص ٦٠٩

(١) المَوْسُوعَة العَرَبِيَّة العالمية ، ٢٧/ ٣٠٣

منهم سوى مكنسة للنظافة ، ورداء متواضع وإناء للطعام وعصا للمشي ، **ويعيش متجولًا يتسول للحصول على طعامه معذبًا نفسه** ، سعيًا إلى تخليص الروح من الكارما (الأعمال التي تثقلها) وإلى تزكية النفس ؛ لتتمكن من بلوغ السلام التام والطهارة . وللوصول إلى هذه الحال ؛ فإنَّ الياني لا بد أن يلتزم بالجواهر الثلاثة : العقيدة اليانية ، والمعرفة بها ، والسلوك الحسن ، الذي يتضمن خمسة نُذُر هي :

١ـ أهيمسا ؛ أي : عدم العنف أو عدم الإيذاء.

٢ـ سانيا ؛ أي : قول الحق .

٣ـ أستيا ؛ أي : عدم أخذ شَيْء لم يعط إليك .

٤ـ براهماشاريا ؛ أي : العفة .

٥ـ أباريجراما ؛ أي : عدم الرغبة في شَيْء إطلاقًا .

- الصوم حتى الموت ، ينظر اليانيون للموت نظرة غريبة ، فالياني المخلص الذي يشعر باستعداده للموت ، يأخذ عهد السالخانة ، ويقابل الموت من خلال صوم مستمر ، وتحت إرشاد الراهب [(١)] .
- ومن غرائب كهنة هذه الدِّيانَة أَنَّهُمْ « كانوا عندما يجوزون الطرق يأخذ كل واحد منهم مِقَشَّة يَقُشُّ بها الطريقَ ؛ ليزيل ما على الأرض أمام خطاه ؛ فلا يدوسون كائنًا حيًّا يموت ظلمًا ، وما نعلم أَنَّهُ ثمَّة دِيانَة أخرى في الوجود بلغت هذا المبلغ زهدًا وتقشفًا » [(٢)] .

لماذا نرفض هذه الدِّيانَة ؟

(١) عدم إيمان هذه الدِّيانَة بخالق لهذا الكون ، فهي ـ كما قال علماء الأديان ـ من العقائد التي تذهب إلى الإلحاد .

(٢) مضادة الفطرة الإنسانية في كثير من أمورها ، النفسية والجنسية.

---

(١) السابق ، ٢٧/ ٣٠٤

(٢) د. ثروت عكاشة : المعجم الموسوعي للمصطلحات الثَّقافِيَّة ، ص ٢٣٩

(٣) صفوة اليانيين الكهنة والكاهنات لا يجدون حرجًا في التسول والعيش على حساب الآخرين .

(٤) لا حديث عن الآخرة واليوم الآخر .

٨) لماذا لا نَقْبَل الزَّرادَشْتِيَّة Zoroastrianism ؟ :

الزَّرادَشْتِيَّة دِيانَة قديمة ، أسسها زرادَشت الفارسي الأصل ، الذي عاش في القرن السادس قبل الميلاد.

لا يُعرَف عن حياة زرادشت إلا القليل ، وتضطرب الروايات وتكثر حول حياته ، فهو إيراني (فارسي أو بارسي) ، ولد في نحو ٦٢٨ ق.م بأذربيجان ، وهاجر منها إلى بختر ، وبعد فترة من التجوال وحياة التأمل في معتقداتهم القديمة ، كما يزعم أتباع هذه الدِّيانَة ، أنزل عليه كتاب هو الأفستا ، ولم تمض سنوات حتى اعتنق معظم أهل إيران الزَّرادَشْتِيَّة ، وقد مات زرادشت مقتولًا حوالي عام ٥٥١ ق . م ، حينما أغار الطورنيون على بلاد فارس .

يتمثل جوهر الزَّرادَشْتِيَّة في فكرة الصراع بين الخير والشر ، وقد نادى زرادشت بالإيمان بـ « أهورا مازدا » زاعمًا أَنَّهُ إله الحكمة الذي هو واحدٌ أزلي حكيم عدل وخيرٌ ، واعتقد أنَّ « أنكرا مينو » روح شريرة حاقدة ، وللقضاء على هذا الشر ، نادى « أهورا مازدا » على « يازاتا » ـ وهي القوى الروحية الخيرة التي هي من جنسه ـ لمساعدته ، كما تساعد « أنكرا مينو » مجموعة من الشياطين.

تزعم هذه الدِّيانَة أنَّ « أهورا مازدا » قد خلق العالم الذي هو خير ، في سبع مراحل ، ولكن « أنكرا مينو » دخل فيه ليفسده ، ومن ثم يتصارع الخير والشر في العالم ، ويعتقد الزرادشتيون بانتصار الخير في النهاية.

ويعتقد الزرادَشتيون أَيْضًا بالحياة الأخرة ، حيث تتحد الأرواح مع الأجساد ويقوم الناس للحساب ، كما يزعمون بأن الجميع سيعبرون نهرًا من الحمم ، وفيه يهلك الأشرار وينتهي الشر من الوجود ، أما المقسطون فينجون ، ويصب النهر

الملتهب في جهنم فيطهرها، وتعود الأرض إلى حالتها الأولى الخيرة، ويؤسس« أهورا مازدا » مملكته الأرضية حيث يعيش الأخيار السعداء حياة سعيدة خالدة [(١)] .

أمر زرادشت أتباعه بالصلاة أمام النار التي هي رمز للنظام والعدل في معتقدهم .

كانوا يتخلصون من الأموات بعرض جثثهم في أماكن خالية أو أبراج حجرية تُسمَّى أبراج الصمت حيث تلتهمها الصقور .

لم تصبح الزَّرادَشْتِيَّة الدِّيانَة الرسمية لإيران إلا في العهد الساساني في القرن الثالث الميلادي ، وحتى في هذه المرحلة لم تكن دِيانَة الإيرانيين عامة ، بل كانت تتصارع معها عقائد شتى كاليهودية والنصرانية والمانوية والمزدكية.

وما تزال طائفة في بومباي تعرف بهذا الاسم ، كما أن هناك فئات قليلة في بعض الولايات الإيرانية لا سيما في جنوبي خراسان ، ثم هاجر كثير منهم من الهند وإيران واقاموا في كندا والولايات المتحدة وأستراليا والمملكة المتحدة [(٢)] .

- **لماذا نرفض هذه الدِّيانَة ؟**

(١) القول بعدد من آلهة ، تتصارع فيما بينها .

(٢) عبادة النار.

(٣) مجهولية مؤسس هذه الدِّيانَة .

(٤) عدم دفن الموتى .

(٥) انقراض هذه الدِّيانَة بشكل شبه تام .

***

ها نحن أولاء وصلنا إلى نهاية بحثنا عن الديانات الوثنية ، وبينا مع كل دِيْن من هذه الأديان ـ بعد دراسته ـ أسباب رفضنا له .

ولا أحبُّ أن أترك هذا المقام دون أن أشير ـ ولو اختصارًا ـ إلى لماذا نرفض

---

(١) المَوْسُوعَة العَرَبِيَّة العالمية ، ١١/ ٥٤٤

(٢) السابق ، ١١/ ٥٤٥

العلمانية التي يُنادِي بها بعض « المثقفين! » ، والأسباب التي من أجلها لا نقبلها.

لماذا لا نَقْبَل العلمانية Secularism ؟ :

بادئ ذي بدء يجب أن نقدم تعريفًا لهذا المصطلح ، حتى يقف القارئ على ما المقصود به .

نقول : تشير المصادر إلى أَنَّ العِلمانية « مفهوم سياسي اجتماعي نشأ إبان عصر التنوير والنهضة في أوربا . عارض ظاهرة سيطرة الكَنِيسَة على الدولة وهيمنتها على المجتمع ، وتنظيمها على أساس الانتماءات الدينية والطائفية ، ورأى أَنَّ من شأن الدِّيْن أن يُعنى بتنظيم العلاقة بين البشر وربهم ، ونادى بفصل الدِّيْن عن الدولة ، وبتنظيم العلاقات الاجتماعية على أسس إنسانية ، تقوم على معاملة الفرد على أَنَّهُ مواطن ذو حقوق وواجبات ، وبالتالي إخضاع المؤسسات والحياة السياسية لإرادة البشر ، وممارستهم لحقوقهم ، وفق ما يرون ، وما يحقق مصالحهم وسعادتهم الإنسانية »[(١)] .

ويذكر د. سَفَر الحوالي أَنَّ « المدلول الصحيح للعلمانية هو إقامة الحياة على غير الدِّيْن ، سواء بالنسبة للأمة أو للفرد »[(٢)] .

ويشير أستاذنا الدكتور مُحَمَّد عمارة ـ رحمه الله ـ إشارة مهمة تتعلق بهذا المذهب وهي أن : « العلمانية كنزعة في تدبير العالم ، وكمذهب في المرجعية الدنيوية لشؤون العمران الإنساني ، لا يمكن فهمها ـ ومن ثَمَّ فهم الموقف الإسلامي منها ـ بمعزل عن الملابسات الأوربية لنشأتها في إطار الحضارة الغربية المَسِيْحِيَّة ، بجذورها الإغريقية الفلسفية ، وتراثها الروماني ، والإضافة المَسِيْحِيَّة لهذه الجذور وذلك التراث »[(١)] .

(١) عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، دار الهدى، بيروت (بدون بيانات أخرى)، ٤/ ١٧٩
(٢) العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها ، دار الهجرة ، (بدون بيانات أخرى) ، ص ٢٤
(١) العلمانية بين الغرب والإسلام، دار الوفاء للطباعة والنشر، القاهرة، ط١ ، (١٩٩٦م) ، ص٥

وكما هو واضح من التعريف فَإِنَّهَا تنادي بفصل الدِّيْن عن السياسية بل والحياة برمتها.

لماذا نرفض هذا المذهب ؟

(١) أرفض هذا المذهب ؛ لأنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ موجود ، وهو خالق هذا الكون ، وأنزل القرآنَ الذي رسم فيه منهج حياتنا بالكامل ، وأمرنا ألا نحتكم إلا إليه فقال :

⇦ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ المائدة: ٤٤

⇦ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المائدة: ٤٥

⇦ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ المائدة: ٤٧

(٢) يُكَذِّبُ التَّاريخ والمردودُ الحضاري للإسلام هؤلاء العلمانيين الذين يرون أَنَّ الإسلام فشل في القيادة سياسِيًّا ، فقد أثبتنا وأوضحنا ذلك فيما سبق ، فالمردود الحضاري للإسلام من الروعة والقوة بمكان يدحض معها أية إشارة إلى أَنَّهُ فشل في القيادة سياسيًّا .

(٣) السياق الثقافي الذي ظهرت فيه العلمانية في نشأتها يخالف تمام السياق الثقافي لدينا ، ومفهوم الدين ـ الذي ثارت عليه العلمانية في أوربا ـ يخالف مفهوم الدين عندنا في ثقافتنا .

نحن نرفض العِلمانية أو العالمانية التي تنادي بفصل الدِّيْن عن السياسية ، وتلحُّ في ذلك من خلال شخصيات تحمل ـ للأسف الشديد ـ أسماء إسلامية.

إن هذه العلمانية تدعو إلى فصل الدِّيْن عن شئون الحكم والسياسة ، ولا مانع عندها أن يكون الدِّيْن في المسجد ، ولا مانع أن يكون هناك متدينون ، يقيمون الصلاة في المسجد ، ويطلقون اللحى ، ويُقصِّرون الثياب . ولكن ما لا ينتبه إليه الكثيرون ، أن هذه العلمانية الخبيثة سيؤدي اقتفاء أثرها إلى القضاء على الدِّيْن بالكلية سواءً في المسجد أو غيره .

فعندما يتحكم السَّاسَة العلمانيون في السلطة ، ويتولون زمام الحكم ؛ سيكون في مقدورهم السيطرة على المناهج الدراسية والتعليمية في كل مراحلها ، والسيطرة على

كل النواحي التربوية والإعلامية التي ستخرج الشاب المسلم الذي لا يفهم دينه ولا يحب إسلامه.

كما أن هذه الدعوة الخبيثة لاتفتأ تحارب الإِسْلام من جهة أخرى ، وهي تشويه صورة الماضي ، وقتل التَّاريخ ، فالرسول ﷺ والصحابة قتله ، والصحابة قاتَلُوا بعضهم بعضًا ، وعثمان بن عفان الصحابي ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، فشل في إدارة الدولة الإسلامية ، وحدثت في وقته فتنة عظيمة ، وصلاح الدِّيْن ما هو إلا إرهابي كبير.

فأنى للشاب المسلم بعد هذا التشويه أن يحب تاريخه ، ويحب سلفه ؟!

لا بد أن ينشأ عن هذا شبابٌ يمقت تاريخه ويمقت دينه ، ويمقت أمته ؛ لذلك فنحن نرفض هذا الاتجاه رفضًا تامًّا ، ونرفض ونبغضُ كل من يدعو إليه.

الفصل السابع

كيف نفهم الإسلام؟

- إتقان اللغة العربية وعلومها.
- علم الحديث.
- تفسير القرآن.
- العلماء الرَّبَّانيون ومؤلفاتهم:

(١) ابنُ تَيْمِيَّة .

(٢) ابنُ قَيِّم الجَوزية .

(٣) الشيخ مُحَمَّد الغزالي .

(٤) د. مُحَمَّد عمارة .

الفَصْل السابع
كيف نفهم الإِسْلام ؟

كان هدفنا كما قررنا قبلُ أن نُبَيِّنَ « لماذا نَبْتَغِي الإِسْلام دِيْنًا ؟ » و« لماذا نرفض غيره ؟ » ، وكان الترتيب المنطقي لفصول هذا الكتاب لكي نصل إلى هذا الهدف أن تتابع الفصول بالطريقة التي أثبتناها ، وقادنا تسلسل الأفكار وترتيبها إلى الفَصْل السادس : « لماذا نرفض غير الإسلام؟ » .

وأعتقد أننا بانتهاء الحديث في الفَصْل السادس السابق نكون نظريًّا قد انتهينا من استيفاء الغرض الذي من أجله بدأنا الكتابة .

ولكني أشعر أَنَّ الأمر غير ذلك ، ويتردد في نفسي أن هناك جانبًا يحتاج إلى إيضاح ، أو أنَّ هناك سؤالًا قد يرد على الذهن وهو : إذا كان الإِسْلام هو الحق : فكيف أفهمه ؟ وكيف أقف على مقاصده ومراميه ؟

أعتقد أَنَّ الإجابة عن هذا السؤال مهمة للغاية ، فلا يكفي أن نعرف أَنَّ الإِسْلام هو الحق ، بل لا بد معه أن نعرف كيف نفهمه . فهناك كثير من المسلمين يدعون أَنَّهُمْ مسلمون ، ولكن الإِسْلام منهم براء! ، وهناك مسلمون يتسمون بأسماء إسلامية ، ولكنهم دعاة على أبواب جهنم ، من أجابهم ؛ قذفوه في النار .

من هنا يجب أن نضع بين يدي القارئ الخطوات التي ـ أرى من وجهة نظري ـ أَنَّها تعينه على فهم الإِسْلام .

إذن : فلنحاول في هذا الفَصْل أن نخصصه للإجابة عن هذا السؤال : « كيف نفهم الإسلام؟ » .

وقد يجول بخاطرك أيها القارئ الآن ، وأنت تقرأ هذا السطور أنني سأقدم على ما لا قبل لي به ، وما لا في طوقي وقدرتي . وأنت يا قارئي على حق ، فالعنوان : « كيف نفهم الإسلام؟ » عنوان عريضٌ ، أَنَّى لي في صفحاتٍ معدوداتٍ أن أجيب عنه إجابة شافية كافية ؟!!

لكن مع ذلك ورغم ضخامة الهدف لا بد لنا من أن نحاول ، وأن نخطو بعض الخطوات بهذا الصدد ، حتى ولو كانت خطوات معدودة . وأسأل الله أن أصيب أجرين .

*****

كيف نفهم الإِسْلام ؟

الإسلام يتمثل في أمرين أو في مصدرين أساسيين هما : « القُرْآن والسنة النبوية الصحيحة » ، وعندما نقول « كيف نفهم الإسلام؟ » ؛ فهذا يعني أَنَّ السؤال : « كيف نفهم القُرْآن والسنة النبوية الصحيحة؟ » . وأعتقد أن فهم القُرْآن والسنة النبوية يكون من خلال الخطوات الآتية :

(١) **<u>إتقان اللغة العَرَبِيَّة وعلومها</u>**(١) :

أعتقد أَنَّ الجميع يتفق على أنَّ أي إنسان لا يستطيع فهم ما هو مكتوب في كتاب ما إلا إذا كان على معرفة باللغة التي كُتِبَ بها هذا الكتاب . فلو فرضنا أن هناك كتابًا قَيِّمًا مكتوبًا باللغة الصينية ، فما قيمة هذا الكتاب عند مَن لا يعرف هذه اللغة ؟! لا شَيْء . وينبغي على من أراد أن يستفيد بما في الكتاب من معلومات وفوائد أن يتعلم

---

(١) أحب أن أُنَبِّه قارئي الكريم أن ما كتبته هنا عن اللغة العَرَبِيَّة وعلم الحديث أخذته من كتابي : الباحث العِلْمِيّ ، صفاته إعداده منهجه ، الصادر عن مكتبة زهران ، الطبعة الثانية (٢٠٢٢م) ، ص ١٣٦ وما بعدها ، مع بعض التصرف اليسير ، فمن أراد الاستزادة فليراجع الموضع هناك . وهذا النقل للتشابه التام بين سياق الكلام هنا وسياق الكلام هناك .

هذه اللغة.

والأمر كذلك مع القُرْآن والسنة النبوية ، فمن أراد أن يقف على أسرارهما يجب أن يتعلم اللغة العَرَبِيَّة ، ويقف على أسرارها .

ولأهمية العَرَبِيَّة ـ دينيًّا ـ اهتمَّ بها أهل السُّنَّة والجماعة ، وجعلوا الاهتمام بها خصيصة من خصائصهم ، يقول الإمام الأسْفَرايِيني[١] (ت: ٤٧١ هـ) في بيان فضائل أهل السُّنَّة والجماعة وبيان ما اختصوا به من مفاخرهم : « اعلم أَنَّهُ لا خَصْلة من الخصال التي تُعَدُّ في المفاخر لأهل الإِسْلام من المعارف والعلوم وأنواع الاجتهادات إلا ولأهل السُّنَّة والجماعة في تزيينها القدح المعلى ، والسهم الأوفر . أمَّا العلوم فأولها الرقي في مدارج الفضل والأدب الذي هو ترجمان جميع العلوم ، ومعرض جميع الفوائد الفاخرة في الدُّنْيا والآخرة ؛ إذ لا سبيل إلى تفسير القُرْآن وأخبار الرَّسُوْل ﷺ إلا بمعرفة الأدب ، وجملة الأئمة في النحو واللغة من أهل البصرة والكوفة في دولة الإِسْلام كانوا من أهل السُّنَّة والجماعة ، وأصحاب الحديث والرأي »[٢] .

وربط بعض العلماء بين العَرَبِيَّة وبين حب الله وحب رسوله ﷺ وحب الإِسْلام؛ فأشار إلى أَنَّ « مَنْ أحبَّ اللهَ ـ تعالى ـ أحبَّ رسوله محمدًا ﷺ ، ومن أحبَّ النَّبِيّ العربيَّ أحبَّ العرب ، ومن أحبَّ العرب أحبَّ اللغة العَرَبِيَّة التي بها نزل أفضلُ الكتب على أفضل العجم والعرب ، ومن أحبَّ العَرَبِيَّة عُنِيَ بها وثابر عليها ، وصرف همَّته إليها ، ومن هداه الله للإسلام ، وشرح صدره للإيمان ، وآتاه حسن سريرةٍ فيه ـ اعتقد أن محمدًا ﷺ خيرُ الرسل ، والإسلامَ خيرُ الملل ، والعربَ خيرُ الأمم ، والعربية خيرُ اللغات والألسنة ، والإقبال على تفهُّمِها من الدِّيانَة ، إذ هي أداة العِلْم ومفتاح التفقُّه في الدِّيْن، وسبب إصلاح المعاش والمعاد، ثم هي لإحراز

---

(١) هو طاهر بن مُحَمَّد الأسْفَرايِيني ، الإمام الأصولي الفقيه المفسر ، وهو من كبار أئمة أصول الدِّيْن يُنْظَرُ : طبقات الشافعية ، ٣/ ١٧٥ ، والأعلام ٣/ ٢٢٣

(٢) التبصير في الدِّيْن ، ت : كمال يوسف الحوت ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط١ ، (١٩٨٣م) ، ص١٨٧

الفضائل والاحتواء على المروءة وسائر أنواع المناقب ـ كالينبوع للماء والزَّنْد للنار »[١] .

وهنا سؤال : لماذا كان اهتمام أهل السُّنَّة والجماعة باللغة وأدبها: شعرها ونثرها ؟

إنَّ الإجابة لا تحتاج إلى كثير جُهد ، وهي من الوضوح بمكان ، فاللغة العَرَبِيَّة لسان الإِسْلام ووعاؤه ، وإجادتها شرط لفهم القُرْآن والسُّنَّة . وكل من تعاطى الشعر الذي يحوي اللُّغَة وكانت لديه القدرة على تذوقه توافرت لديه الأسباب المساعدة على فهم القُرْآن ، والنفاذ إلى إعجازه البَلاغِيّ . كما أَنَّ اللُّغَة ـ بما تحويه من ثقافة وحضارة الأُمَّة ـ تؤثر في عقول أبنائها ، وتطبعهم بطابعها . قال شيخ الإِسْلام ابْن تَيْمِيَّة : « لم يكن سبيل إلى ضبط الدِّيْن ومعرفته إلا بضبط **هذا اللسان ، وصارت معرفته من الدِّيْن ، وصار اعتياد التكلم به أسهل على أهل الدِّيْن في معرفة دِيْن الله ، وأقرب إلى إقامة شعائر الدِّيْن** »[٢] ، وقال : « واعلم أَنَّ اعتياد اللُّغَة يؤثر في العَقْل والخلق والدِّيْن تأثيرا قويًّا بيِّنًا ، ويؤثر أَيْضًا في مشابهة صدر هذه الأُمَّة من الصَّحابَة والتابعين ، ومشابهتهم تزيد العَقْل والدِّيْن والخلق . **وأيضا فَإِنَّ نفس اللُّغَة العَرَبِيَّة من الدِّيْن ومعرفتها فرض واجب ، فَإِنَّ فهم الكتاب والسُّنَّة فرض ، ولا يفهم إلا بفهم اللُّغَة العَرَبِيَّة ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب** »[٣] .

لقد تَنَبَّهَ شيخ الإِسْلام ابْن تَيْمِيَّة من قديم الزمن إلى القيمة الخطيرة للغة على عقل أصحابها ودينهم وأخلاقهم ، ومشابهتهم للصدر الأول ، فكأَنَّ اللُّغَة تنقل فيما تنقل عبر الأجيال ثقافة السابقين وأسلوبهم في الحياة وطريقتهم . لذلك وعى المستعمرون هذه الحقيقة وعملوا على بث لغتهم ونشرها ، ومن يتأمل مثلا على سبيل المثال الكُتَّاب الجزائريين « الذين لم يتعلموا في حقبة الاستعمار الفرنسي للجزائر غير اللُّغَة الفرنسية [يجد أَنَّهُمْ] قد سُجِنُوا بعيدًا عن لغتهم القومية ، وهويتهم العَرَبِيَّة ، حَتَّى فكروا وكتبوا ، بل وصَلُّوا باللغة التي سُجِنُوا فيها ! وذلك

---

(١) أبو منصور الثعالبي : فقه اللغة وسر العَرَبِيَّة ، ت : د. خالد فهمي ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ط١ ، (١٩٩٨م) ، ١/ ٣، ٤

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، مكتبة الرياض،(بدون بيانات أخرى)، ص ١٦٢/ ١٦٣

(٣) السابق ، ص ٢٠٧

دون قيود خشنة أو سياط تلهب الظهور ، فأُكْرِهُوا إكراهًا ناعمًا ورقيقًا على تغيير الهوية والأفكار والاعتقادات »[١] .

وفي الوقت الذي اهتم فيه المستعمر بنشر لغته وجعلها لغة التعليم في البلاد التي احتلها ، عمل من جهة أخرى على نشر اللُّغَة العامية بين أصحاب الأرض المستعمرة وسعى سعيا حثيثا على أَنْ تكون لغة الكلام والعلم ، وليس ما قام به الإنجليز في مصر من جهود حثيثة للقضاء على العَرَبِيَّة ونشر العامية عنا ببعيد ، ودورهم في ذلك معروف للقاصي والداني . ولمعرفة الدور الذي قام به الإنجليز في نشر اللُّغَة العامية في مصر وإلحاحهم على ذلك ننصح القارئ بقراءة كتاب في منتهى الأهمية في هذا الشأن ، وهو كتاب « تاريخ الدعوة إلى اللُّغَة العامية وآثارها في مصر » للدكتورة : نفوسة زكريا[٢] .

إنّ اللُّغَة العَرَبِيَّة أداة الفهم ، فكل من ينظر في نص قرآني أو حديث نبوي ويريد أَنْ يفهمه فهمًا صحيحًا ، أو يفسره تفسيرًا قريبًا من الصحة ـ يجب أَنْ يصل إلى الحد الأدنى من الثقافة في اللُّغَة العَرَبِيَّة ، وإلا كان حاطب ليل ؛ يخطئ أكثر مما يصيب وسيكون تفسيره لكتاب الله أو سنة رَسُول الله أو غيرهما من النصوص متبعًا للهوى ولا يسير على النهج السديد . وكل جهد مبذول لفهم الآية أو الحديث أو استنباط الحكم الفقهي ذاهب سدًى إذا لم يُدْعَمْ بتعمق مماثل في قواعد العَرَبِيَّة وآدابها وغريبها ، وما يستتبع هذا وذاك من علوم البَلاغَة والنقد والشعر .

وفي هذا الصدد يأتي كلام الشيخ أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ دليلا على ما نحاول توضيحه هنا إذ يشير في مقدمة تحقيقه لكتاب « الشعر والشعراء » : « وخير ما ندلّ به على منزلة هذا الكتاب من العِلْم ، وعلى فائدته للعلماء والمتأدبين ، أَنْ نخرجه إليهم إخراجا صحيحا متقنا ، وعلى ما أستطيع بجهدى القاصر، بأنى رجل جلّ اشتغالى بعلوم الحديث والقرآن ، إلا أنى أرى أَنَّ الأدب والشعر هما أكبر عون فى فقه القُرْآن

(١) د. مُحَمَّد عمارة : التفسير الماركسي للإسلام ، ص ١١٨ ، ١١٩

(٢) وهذا الكتاب قرظه ومدحه العلامة محمود شاكر في كتابه الماتع أباطيل وأسمار ، مما يدل على أهمية هذا الكتاب ونفعه البالغ .

والسُّنَّة »(١) .

وكل من يجتهد اجتهادا في استنباط الأحكام الشرعية من القُرْآن والسُّنَّة يجب عليه أَنْ يكون على معرفة « باللغة العَرَبِيَّة وأساليبها معرفة تمكنه من فهم النَّصّ فهمًا صحيحًا بكل أنواع الدلالات التي يتضمنها النَّصّ ، عبارة وإشارة ونصًا ، وهو ما يعرف عند العلماء بالفحوى وكذا ما يدل عليه النَّصّ اقتضاءً ... كما يجب أَنْ يميز بين العام والخاص ، والمطلق والمقيد ، والصريح وغير الصريح ، والظاهر والخفي والمتشابه والمحكم ؛ ليستطيع أَنْ يحمل النَّصّ على ما يجب أَنْ يحمل عليه من المعاني ، وَأَنْ يتجنب التأويلات الفاسدة التي تجافي العرف اللغوي والعرف الشرعي »(٢) .

ولخطورة « عملية فهم » النصوص العَرَبِيَّة من قرآن وسنة وغيرهما وَضَعَ علماءُ أمتنا مجموعةَ قوانين لضمان « سلامة هذا الفهم » ، أو بعبارة أخرى : وضعوا مجموعة من القوانين « **لضمان سلامة تأويل النَّصّ** » ؛ حتى لا نقع في « **التأويل العبثي** » لتلك النصوص ، خاصة إذا كان هذا التأويل لنص شرعي .

ويأتي على رأس هذه القوانين الالتزام باللغة وقوانينها ، فليس كل تأويل ـ خاصة مع النصوص الشرعية ـ « **بجائز ، وإنما لا بد لصرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله أن يكون هذا المعنى مما يحتمله ظاهر اللفظ ، وأن يكون هذا الاحتمال موافقًا للكتاب والسنة** »(٣) . وكان شرط « **تَحَقُّق شروط اللغة في المجاز الذي تُخْرَجُ فيه دلالات الألفاظ من حقيقتها إلى مجازها** » أحد عناصر النظرية الجامعة لقانون التأويل التي وضعها فقيه الفلاسفة ، وفيلسوف الأدباء ابن رشد (ت ٥٩٥ هـ) .

ولم يُقصِر بعض العلماء أهمية اللُّغَة العَرَبِيَّة على فهم دلالات الكتاب والسُّنَّة

---

(١) الشعر والشعراء ، ١/ ٣٧

(٢) المجتهد والعلوم التي يجب عليه تحصيلها ، د. بدر المتولي عبد الباسط ، مجلة العربي الكويتية ، العدد ١٥٥ ، أكتوبر ١٩٧١م ، ص ٢٠

(٣) د. مُحَمَّد عمارة : التأويل العبثي للوحي والنبوة والدِّيْن ، هدية مجلة الأزهر ، عدد شهر جُمادَى الآخرة ، القاهرة ، ط١ ، (١٤٢٢هـ) ، ص ١٣

بل يوسع الدائرة ، ويربط بين الإِسْلام نفسه ـ وجودًا وعدمًا ـ وبين اللُّغَة . ينص على ذلك الشيخ مُحَمَّد رشيد رضا : « إِنَّ القُرْآن هو حجة الله البالغة على دينه الحق ، فلا بقاء للإسلام إلا بفهم القُرْآن فهمًا صحيحًا ، ولا بقاء لفهمه إلا بحياة اللُّغَة العربية » . بل إِنَّ الشيخ يربط بين الضعف الحالي للمسلمين وضعف اللُّغَة ، فيقول : « وإننا نعتقد أَنَّ المسلمين ما ضعفوا وزال ما كان لهم من الملك الواسع إلا بإعراضهم عن هداية القُرْآن ، وأَنَّهُ لا يعود إليهم بشيء مما فقدوا من العز والسيادة والكرامة إلا بالرجوع إلى هدايته والاعتصام بحبله ، كما يرون ذلك مبينًا في تفسير الآيات الكريمة الدالة عليه فلا يتم لهم ذلك إلا بالاتفاق على إحياء لغته ، فالدعاء له دعاء لها »(١) .

وللعربية علوم أساسية ، يجب إتقانها لمن أراد الوقوف على أسرارها ، وأخص من بينها : علم النحو وعلم البَلاغَة وعلم الدلالة . وسأتناول بالبيان الموجز هذه العلوم الثلاث .

○ علم النحو :

يُعَدُّ علم النَّحْو من أهم العلوم اللُّغَوِيَّة في العَرَبِيَّة ، فهو عَصَبُها ، وركنها الرَّكين ، وله في خدمة العَرَبِيَّة القِدْحُ المُعَلَّى ، والقدمُ الأولى ، وهو من الفضل عليها بأعلى مناط العِقدِ . وهو من بين العلوم التي تخدم العَرَبِيَّة مناطَ الثريّا . وَقَدْ ظل علم النَّحْو « منذ ما يقرب من أربعة عشر قرنًا من الزمان سبيلًا نهجة إلى تفسير تراكيبها وتحليلها ، ووسيلة طيعة لغير المجيدين لها أن يتقنوها ويبرعوا فيها ، ولم نعرف أَنَّهُ قصر في تحقيق الغاية التي من أجلها وجد ، ولنيلها طلب »(٢) .

وقد عَبَّرَ أسلافُ أُمَّتِنا عن فضله ، فقالوا :

- قال الخليل : «النَّحْو للسان بمنزلة الطعام للأبدان »(١) .

---

(١) تفسير المنار ، ١/ ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦

(٢) د. مُحَمَّد حماسة : بناء الجُمْلَة العَرَبِيَّة ، ص ٧

(١) أبو حيان التوحيدي :البصائر والذخائر ، ت : وداد القاضي ، دار صادر ، بيروت ، ط١ ، (١٩٨٨م)، ٣/ ١٢٥

• وقال الزُّهْرِيُّ : «ما أحدث الناسُ مروءةً أحبَّ إليَّ من طلب النَّحْو»[(١)] .

• وقال حَمَّادُ بنُ سَلَمَةَ : «من يطلب الحديث ولا يعرف النَّحْو ، مثل الحمار عليه مخلاة ليس فيها شعير»[(٢)] .

• وروي عن الأصمعيِّ أَنَّهُ قال : «أخوف ما أخاف على طالب العِلْم إذا لم يعرف النَّحْو أَنْ يَدخُلَ في جُمْلَة قولِ النَّبِيِّ ﷺ : «منْ كذب عليّ متعمِّدًا فليتبوأ مقعده من النار[(٣)] ؛ لأَنَّه [صلى الله عليه وسلم] لم يكن يلحن ، فمهما رَوَيْتَ عنه ولحنت فقد كذبت عليه»[(٤)] .

• ومن نفائس أقوال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ عن هذا العِلْم الجليل قوله : «من تبحّر في النَّحْو اهتدى إلى جميع العلوم» ، وقوله : «لا أُسْأَلُ عن مسألة في الفقه إلّا أجبت عنها من قواعد النَّحْو»[(٥)] .

• ومَنْ يُطالِع ويدرس تفسير الإمام الطَّبَرِيّ ـ طَيَّبَ الله ثراه ـ (ت : ٣١٠هـ) يجد أن هذا الإمام الجليل يعتمد على هذا العِلْم اعتمادًا أساسيًّا ، فهو يستعين به في كل شَيْء ، «في استخلاص الحكم الفقهي من الآية ، وفي مناقشة القضايا العَقَدية التي تتضمنها الآية أو المسائل التاريخية المتعلقة بها ... بل إِنَّهُ أحيانًا ما يكتفي في تفسير بعض الآيات بما قاله النُّحَاة»[(١)] .

---

(١) أبو حيان التوحيدي : البصائر والذخائر ، ٦/ ١٨٩

(٢) ياقوت الحموي: مُعْجَم الأدباء ، ت : إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط١ (١٩٩٣م)، ٣/ ١١٩٩

(٣) حديث صحيح ، خرجه الإمام الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ، برقم : «١٣٨٣»، يُنظَر : سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها ، مكتبة المعارف للنشر ، الرياض ط١ ، ١٩٩٥م ، ٣/ ٣٧١ ، وفي كتابه «التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان» قال الألباني عن هذا الحديث إِنَّهُ : «صحيح متواتر»، ١/ ١٦١

(٤) ياقوت الحموي : مُعْجَم الأدباء، ١/ ٢٩

(٥) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ت : محمود الأرناؤوط ، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت ط١، (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م) ، ٢/ ٤٠٧

(١) د. إبراهيم عوض : دراسات في مناهج التفسير ومذاهبه ، دار النهضة العَرَبِيَّة ، القاهرة ، ط١ (٢٠١٠م) ، ص ٥٨

ويضيق المقام بتتَبُّع هذه الأقوال أو الاقتباسات التي توضح مكانة هذا العِلْم ومنزلته ، فهي أكثر من تحصى ، أو يأتي عليها العد .

وتكمنُ أَهَمِّيَّة علم النَّحْو في أَنَّهُ يساعدنا على « فهم تحليل بناء الجُمْلَة تحليلا لُغويًّا يكشف عن أجزائها ، ويوضح عناصر تركيبها ، وترابط هذه العناصر بعضها مع البعض الآخر ، بحيث تؤدي معنى مفيدًا ، ويُبَيِّن علائق هذا البناء ، ووسائل الربط بينها ، والعلاقات اللغوية الخاصة بكلٍ وسيلة من هذه الوسائل »[(١)] . وبعبارة أخرى فإن علم النَّحْو هو : « علمٌ بأصولٍ يُعرَف بها صحة الكلام وفساده »[(٢)] ؛ لذلك فَإِنَّ علم النحو « علم من العلوم التصويبية ، وهو يدرس مستوًى محددًا من مستويات النشاط اللغوي هو مستوى الجملة »[(٣)] .

وبهذا العِلْم نفهم بناء الجُمْلَة وتتضح عناصر تركيبها ، وكيف تترابط هذه العناصر ، ووسائل هذا الترابط ، كما أننا نعرف الكلام الصحيح من الفاسد ، فمما هو معلوم أن فساد الكلام واختلاله ينجمان عن مخالفة قواعد النَّحْو وأحكامه ، و« **أَنَّ الالتزام بتلك القواعد في الكلام ، وترتيب الألفاظ وفقًا لها هو مناط المزية والفضل** »[(٤)] .

ولأهمية علم النحو في تفسير النصوص اللغوية وخاصة النَّصّ القرآني ، اشترط العلماء فيمن يطلع بتفسير النصوص أَنْ يكون « ممتلئًا من عُدَّة الإعراب لا يلتبس عليه اختلاف الكلام »[(١)] . وهذا الاشتراط لوجوب الإلمام بعلم النحو واجب ؛ « لأن المعنى يتغير ، ويختلف باختلاف الإعراب »[(٢)] .

---

(١) د. مُحَمَّد حماسة : بناء الجُمْلَة العَرَبِيَّة ، ص ١٩

(٢) الجرجاني : التعريفات ، ص ٣٠٨

(٣) د. علي أبو المكارم : المدخل إلى دراسة النحو العربي ، ط١ ، (١٩٨٠م) ، ١/ ٥٥ ، ٥٦

(٤) د. شفيع السيد : البحث البَلاغِيّ عند العرب تأصيل وتقييم ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، (بدون تاريخ للطبعة) ، ص٥٥

(١) السيوطي : الإتقان في علوم القُرْآن ، ٢/ ٢٢٩

(٢) د. علي أبو المكارم : المدخل إلى دراسة النحو العربي ، ١/ ٧٥

وفي هذا المقام يقول إمام البَلاغَة عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ) : « الألفاظ مغلقة على معانيها حَتَّى يكون الإعراب هو الذي يفتحها وَأَنَّ الأغراض كامنة فيها حَتَّى يكون هو المستخرج لها ، وأَنَّهُ المعيارُ الذي لا يتبيَّن نقصانُ كلامٍ ورجحانُه حَتَّى يعرضَ عليه ، والمقياسُ الذي لا يُعرفُ صحيحٌ من سَقيمٍ حَتَّى يرجع إليه ، لا يُنكِرُ ذلك إلاَّ من يُنكِر حِسَّه ، وإلاَّ مَنْ غالطَ في الحقائقِ نَفْسَه ، وإِذا كان الأَمرُ كذلك ، فليتَ شِعري ما عُذْرُ مَن تَهاونَ به وزَهِدَ فيه ، ولم يَرَ أنْ يستقيه من مصبه ويأخذه من معدنه ، ورضي بالنَّقصِ والكمالُ لها معرضٌ، وآثرَ الغَبينةَ وهو يجد إلى الربح سبيلًا »[١] .

وكثيرًا ما وجدنا الإمام ابن جرير الطَّبَرِيّ (ت : ٣١٠هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره القيم « جامع البيان في تفسير القُرْآن » « يستعين بالنحو في كل شَيْء : في استخلاص الحكم الفقهي من الآية ، وفي مناقشة القضايا العقدية التي تتضمنها الآية ، أو المسائل التاريخية المتعلقة بها »[٢] .

فعلم النحو سبيل من السبل المهمة لفهم المعنى بشكل صحيح والوقوف عليه بدقة ، وعدم إتقانه قد يفوت على الباحث المعنى الصحيح والدقيق لما يقرؤه .

ولنضرب لأهمية النحو في فهم المعنى المثال الآتي :

ما الفرق في الدلالة بين قولنا :

١) فلان له علمٌ علمُ الفقهاء (برفع عِلم الثانية) .

٢) فلان له علمٌ علمَ الفقهاء (بنصب علم الثانية) [١] ؟

---

(١) دلائل الإِعْجَاز ، ت : محمود شاكر ، ص ٢٣ ، ٢٤

(٢) د. إبراهيم عوض : من الطبري إلى سيد قطب ـ دراسات في مناهج التفسير ومذاهبه ، دار النهضة العَرَبِيَّة ، القاهرة ، (٢٠١٠م) ، ص٥٨

(١) يمكن توجيه كلمة « علم » في الجملتين كما يلي : في الجملة الأولى كلمة « علم » خبر لمبتدأ محذوف تقديره : هو ، أي : فلان له علم هو علمُ الفقهاء . وكلمة « علم » في الجملة الثانية : مفعول به ثانٍ لفعل محذوف تقديره أظنه ، أي : فلان له علم أظنه علمَ الفقهاء .

قد تبدو الجملتان للقارئ غير الملم بعلم النحو بمعنى واحد ولا اختلاف بينهما ، وهذا غير صحيح ، فالفرق بين الجملتين في الدلالة كبير ، فعندما أقول عن فلان : له علمٌ علمُ الفقهاء ؛ فهذا يعني أَنَّهُ قد استقرَّ عندي وثبت لديَّ من خلال مرَّات سابقة ومواقف عديدة أَنَّ هذا المخاطب الذي أقول في حقِّه هذا الكلام له فعلا علم الفقهاء . أَمَّا قولنا : له علمٌ علمَ الفقهاء ؛ فهذا الضبط يعني نقيض ما سبق ، وَأَنَّ علم هذا الرجل ظاهري وليس أصيلا ، بل قد يعني هذا الضبط في سياق آخر السخرية والاستهزاء . قال سيبويه : « ... وذلك قولك : له عِلْمٌ عِلْمُ الفُقَهاءِ ، وله رَأْيٌ رأيُ الأُصَلاءِ . وإنَّما كان الرفعُ فى هذا الوجه لأَنَّ هذه خِصالٌ تَذكرها فى الرجل ، كالحِلم والعلم والفضل ، ولم ترد أَنْ تُخبِر بأَنَّك مررت برجل فى حال تعلُّمٍ ولا تفهُّمٍ ، ولكنّك أردت أَنْ تَذكر الرجل بفضلٍ فيه ، وأَنْ تَجعل ذلك خَصلةً قد استكملها... وإن شئت نصبتَ فقلت : له عِلْمٌ علمَ الفقهاءِ ، كأَنَّك مررت به فى حال تعلُّمٍ وتفقُّهٍ ، وكأَنّه لم يَستكمل أَنْ يقال : له عالِمٌ ... وإذا قال : له علمٌ علمُ الفقهاءِ فهو يُخبِر عمَّا قد استقرّ فيه قبل رؤيته وقبل سَمْعِه منه ، أو رَآه يَتعلَّم ؛ فاستدَلّ بحُسْن تعلُّمهِ على ما عنده من العِلْم ، ولم يردْ أَنْ يُخبِر أَنَّهُ إِنَّما بدأَ فى عِلاج العِلْم في حال لُقِيِّه إيّاه ؛ لأَنَّ هذا ليس مما يُثْنَى به ، وإنَّما الثناءَ فى هذا الموضع أَنْ يُخبِر بما استَقَرّ فيه ، ولا يُخبِر أنّ أَمْثَلَ شَيْء كان منه التَّعَلُّم فى حال لقائِه »(١) .

فالبون واسع بين دلالة الجملتين ، ولا يقف عليه من ليست له خبرة بعلم النحو .

ويَحِقُّ لنا بعد هذا المثال أَنْ نردد مع أبي حيان قوله : « والكلام يتغير المراد فيه باختلاف الإعراب ، كما يتغير فيه باختلاف الأسماء »(١) .

(١) سيبويه : الكتاب ، ١/ ٣٦١ ، ٣٦٢

(١) الامتاع والمؤانسة ، ص ٨٦ ، ولمزيد من الأمثلة ينظر د. إيهاب عبد الحميد ، الباحث العِلْمِيّ ط٢ ، ص ١٤٤ وما بعدها . ولمزيد من الأمثلة التي يَتَبَيَّنَ بها أهمية الإعراب وما يترتب عليه من معانٍ في نفس الجملة يُنْظَرُ : فاضل السامرائي : معاني النحو ، على سبيل المثال ٢/ ٢٧٩ ، في باب الحال .

٥ علم البَلاغة :

علم البَلاغَة من العلوم اللازمة لمن يرغب في فهم الإسلام ، والمهمة بالنسبة إليه، وقبل أَنْ نوضح أهمية هذا العِلْم نقول إِنَّ علم البَلاغَة له معنيان أو دلالتان : « إحداهما القدرة الخاصة على التعبير ، حيث يصوغ الشاعر أو الناثر كلامه مشتملا على قيم وعناصر فنية يسمو بها على مستوى الكلام الجاري بين عامة الناس ، ويبلغ بها من التأثير والدلالة على المعنى المراد ما لا يتأتى بهذا النوع الأخير ، وهذه الدلالة يمكن أَنْ نسميها الدلالة الوصفية للكلمة ... الدلالة الأخرى التي تدرس الأصول والقواعد المتعلقة بفن الكلمة على المستوى الجمالي »[١] . وأعتقد أن كلتا الدلالتين مهمتان بالنسبة للباحث .

وتأتي أهمية علم البَلاغَة من أمرين :

ـ الأول : علم البَلاغَة مهم للباحث لكي يفهم الكلام البليغ الذي يقرؤه ، خاصة الباحث في علوم القُرْآن والسنة ، يقول الشيخ مُحَمَّد رشيد رضا في الشروط التي ينبغي أَنْ تتوافر في المفسر : « ... وثانيها : الأساليب ، فينبغي أَنْ يكون عنده من علمها ما يفهم به هذه الأساليب الرفيعة . وذلك يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولته ، مع التفطن لنكته ومحاسنه ، والعناية بالوقوف على مراد المتكلم منه . نعم إننا لا نتسامى إلى فهم مراد الله تعالى كله على وجه الكمال والتمام ، ولكن يمكننا فهم ما نهتدي به بقدر الطاقة . ويحتاج في هذا إلى علم الإعراب وعلم الأساليب (المعاني والبيان) »[١] .

وفي مجال الفقه نجد أَنَّ الفقهاء قد أدركوا منذ وقت مبكر العروة الوثقى بين عملهم وبين فنون البَلاغَة ، « ومن ثَمَّ لا تجد كتابا من كتبهم يخلو من حديث عن مسائل هي من البَلاغَة في الصميم ، ومن يطالع رِسالَة الشَّافِعِيّ ـ وهي أول محاولة في علم أصول الفقه ـ يقع على فصل خاص باللغة يوضح فيه وظيفتها

---

(١) شفيع السيد : البحث البَلاغِيّ عند العرب تأصيل وتقييم ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، (بدون بيانات أخرى) ، ص ١٣

(١) تفسير المنار ، ١/ ٢٠

وأسرارها »[1] . والحق أن استنباط الأحكام الفقهية إنما يتوقف على فقه باللغة عظيم وإدراك لخواصها كبير ، والتداخل بين علم المعاني وعلم الأصول هو من الوضوح بمكان ، حَتَّى إن الفَصْل بينهما يغدو متعسرا بل مستحيلا . ووصل هذا الامتزاج بين العِلْمَيْنِ أنَّ علماء الأصول ناقشوا في علمهم « كَثِيرًا من مسائل المعاني والبيان لبحثهم في دلالات الألفاظ والتراكيب ، وتوسعوا في هذا البحث حَتَّى لتصبح كتبهم من الأصول التي يرجع إليها أصحاب البَلاغَة على نحو ما نرى عند السكاكي »[2] . يقول بهاء الدِّيْن السبكي (ت ٧٧٣ هـ) : « واعلم أن علمى أصول الفقه والمعانى فى غاية التداخل ؛ فَإِنَّ الخبر والإنشاء اللذين يتكلم فيهما علم المعانى هما موضوع غالب الأصول ، وإن كل ما يتكلم عليه الأصولى من كون الأمر للوجوب والنهى للتحريم ومسائل الأخبار، والعموم والخصوص، والإطلاق والتقييد، والإجمال والتفصيل، والتراجيح، كلها ترجع إلى موضوع علم المعانى »[3] .

فإلمام الباحث المهتم بفهم الإسلام قرآنًا وسنة بهذا العِلْم (المعاني ، البيان ، والبديع) وبالأساليب البلاغية المتنوعة ، ووقوفه على الفروق بينها يساعده على فهم الفروق الدلالية بين تلك الأساليب ، بل إِنَّهُ في الأسلوب الواحد قد تتعدد المعاني البلاغية حسب السِّيَاق الذي يرد فيه .

فمثلا أسلوب « الأمر » لا تتوقف دلالته على دلالة الأمر فقط ، بل قد يأتي بدلالات أخرى متعددة ، منها :

١ـ **الدعاء** ، مثل قوله تعالى : ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ ﴾ نوح: ٢٨

٢ـ **التهديد** ، مثل قوله تعالى : ﴿ ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فصلت: ٤٠

٣ـ **الإهانة** ، مثل قوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ الدخان: ٤٩

---

(١) د.عبد الواحد علام: مدخل إلى البَلاغَة العربية، دار الثقافة العَرَبِيَّة ، القاهرة ، (١٩٨٩م) ، ص٤١

(٢) د. شوقي ضيف : البَلاغَة تطور وتاريخ ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ١٤، (بدون تاريخ للطبعة) ، ص ٢٩٤

(٣) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ، ت: عبد الحميد هنداوي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط١ ، (٢٠٠٣م) ، ١/ ٤٧

٤ـ **الاحتقار** ، مثل قوله تعالى : ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾طه: ٧٢
٥ـ **العجب** ، مثل قوله تعالى :﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾الإسراء: ٤٨
٦ـ **التكذيب**، مثل قوله :﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾آل عمران: ٩٣
٧ـ **إظهار القدرة** ، مثل قوله تعالى : ﴿ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾الإسراء: ٥٠
٨ـ **التعجيز** ، مثل قوله تعالى :﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾البقرة: ٢٣
٩ـ **الإباحة** ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ﴾المائدة: ٢

ـ الثاني : أَنَّ علم البَلاغَة مهم لكي يَتَعَلَّمَ الباحث منه حسن الصياغة لما يود أَنْ يقوله ، فلا يكفي أَنْ تكون المعلومة لدي الباحث ، بل لا بد أَنْ يتعلم أَيْضًا كيفية صياغتها بطريقة سليمة شائقة . فالكلام إذا كان بليغًا « عظم وقعه في القلب ، وإذا كان مختصرًا ركيك اللفظ قليل المعنى لم يؤثر ألبتة في القلب »[1] . ومن نفيس ما قاله العلماء : « لكل شَيْء عماد ، والروح عماد البدن ، والعلم عماد الروح ، والبيان (البَلاغَة) عماد العِلْم ، ولا يتَأَتَّى البيانُ إلا لمن قد ألقَى بصحراء الأدب بَعَاعه (ثقله ونفسه) فانقادت إليه أزمَّتُهُ حين مدَّ إليها باعه »[2] .

○ علم الدلالة :

علم الدلالة **Semantics** أحد أفرع علم اللُّغَة **Linguistics** المخصص «لدراسة المعنى في اللُّغَة » . وهذا المصطلح يتقاسمه مع علم اللُّغَة علمان آخران : علم المنطق، والفلسفة . ففي مجال الفلسفة نجد ما يعرف بعلم الفلسفة الدلالي **Philosophical semantics** ، وهو يدرس العلاقات بين التعبيرات اللغوية وظواهر العالم التي تُعَبِّرُ عنه هذه التعبيرات ، ويأخذ في الاعتبار الظروف التي تقال

(١) الرازي : مفاتح الغيب ، ١٠/ ١٢٤

(٢) ضياء الدِّيْن بن الأثير الجزري : كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب ، ت : د. النبوي عبد الواحد شعلان ، القاهرة ، ط ١، (١٩٩٤م) ، ص٣٥

فيها من حيث صدقها وكذبها ، كما يدرس العوامل التي تؤثر في تفسير اللُّغَة المستعملة . وفي مجال المنطق يصادفنا علم الدلالة المنطقي **Formal semantics Logical or pure semantics** وهو عبارة عن دراسة معاني التعبيرات بلغة النظم والتحليلات المنطقية ، وهو بذلك أكثر قربا إلى المنطق الصوري والرياضي منه إلى علم اللغة(١) .

وعلم الدلالة عامة بغض النظر عن مجال العِلْم الذي يبحثه من العلوم المهمة للباحث ، والقواعد والمباحث التي يُرسِيها هذا العِلْم يجب أَنْ تكون ضمن اهتمامات الباحث الجاد المتقن لعمله .

والوقوف على دلالة الألفاظ أو معاني الكلمات أمر جليل وخطير ، فـ « الفهم والتطبيق الخاطئين للفظةٍ يكفي في إثارة نزاعات شرسة لا متناهية ، وأن استخدام اسم مغلوط قد يهيج الرأي العام ، وَأَنَّ السفسطة قد تؤدي إلى أزمات حزبية ، وأن شعارات ماكرة أُلقيَت بين أمور قابلة للاشتعال أزكت حربًا ضروسًا ، وتغيرت مصير إمبراطورية كاملة » (٢) .

ولا يُقْصَر الأمر عند الرغبة في معرفة دلالة كلمة ما أو الوقوف على معناها على مجرد الرجوع إلى المعاجم والقواميس ؛ إذن لهان الأمر . ولكن الأمر أعقد من هذا بكثير . إِنَّ معرفة الجوانب الدلالية للألفاظ بشكل دقيق وواضح أمر معقد ومتشابك ، ولكنه رغم تعقده وتشابكه فَإِنَّ معرفته أمر واجب في كثير من الأحيان ؛ لذلك لم يكن غريبًا أَنْ تشغل هذه المشكلة بال العلماء في القديم والحديث ، وَأَنْ يتناولها بالبحث كثير من الدارسين في مختلف العلوم والفنون ، فبحوث الألفاظ ودلالتها ، أو الألفاظ وعلاقاتها بمعانيها بحوث معروفة في علم النفس والمنطق والفلسفة والاجتماع والأنثروبولوجيا والنقد الأدبي وعلوم البَلاغَة ، وعلم اللُّغَة ، كلٌّ يتناول المشكلة من زاويته الخاصة طبقًا لمبادئه وأسسه .

ومما يدلنا على أهمية الدلالة ، وأهمية تحديدها بدقة أننا في بعض المسائل القانونية على سبيل المثال لا بد أَنْ تكون دلالة الكلمة واضحة لما قد يترتب عليها

---

(١) **David Crystal, A dictionary of linguistics and phonetics, P 428**

(٢) **Peter Mark Roget, Thesaurus of English phrases, New York, p.7**

بعض الأمور القانونية والمالية ، ففي الوثائق القانونية يجب أَنْ « يكون مجال التطبيق للكلمات واجب الوضوح ، فكلمة مثل « القريب » (بدرجات القرب المختلفة) قد تثير جدلا في مجال الالتزام والزواج والميراث والضرائب ... ولذا فَإِنَّ القوانين التي تستعملها تحدد المراد بدقة عن طريق ذكر الأفراد كأن نقول : الأم ، الأب ، الابن ، البنت ، الأخت ... إلخ . ومثل هذا يمكن القيام به كذلك مع المجموعات الصغيرة مثل أيام الأسبوع ، وأسماء الشهور ، والرتب العسكرية ، وألقاب الحكام والرؤساء وألفاظ القياس ، والكيل ، والوزن ، ودرجات الحرارة »[(١)] .

وتكمن إحدى المشاكل الخطيرة في دلالة الألفاظ أَنَّ اللفظة قد تتراكم عليها بمرور الزمن والأعصار « المعاني المختلفة » ، ويصبح هذا اللفظ ذا دلالات متعددة ، ومن البطلان البين أَنْ يظن الباحث أَنَّ ألفاظ اللُّغَة محدودة المعاني حدًا قاطعًا واضحًا في كل لسان وفي كل زمن من أزمنة هذا اللسان . وعدم إلمام الباحث أو القارئ أو المثقف بـ « كل » دلالات هذا اللفظ أو الكلمة أو عدم « التصور الدلالي الجامع النافذ إلى أعماق ودلالات تلك الكلمة » يؤدي به إلى تكوين موقف « فكري » أو « حكم » ناقص أو غير صحيح ، وقد يترتب على هذا الموقف الفكري الناقص أو الحكم غير الكامل إلى نتائج « **عملية** » خطيرة جدًا .

إن عدم الوقوف على « الصورة الجامعة الدلالية » للفظ « منشأ كل اختلاف في اللُّغَة ، وكل اختلاف في الفهم ، وكل اختلاف في التفكير . فإذا بدأ المرء يفكر مستخدمًا لفظًا ينطوي على صورة جامعة ، وعرض له في إدراك هذه الروابط عارض من الوهم ، أو من سوء التقدير ، أو من إساءة فهم الروابط ، أو من تغليب بعض المعاني الحادثة فيه على بعض ، أو مما شئت من وجوه أخرى كثيرة ـ كان تفكيره مهددًا بسلوك طريق غريبة يجره إليها بعض ما بنى عليه تفكيره. وعلى قدر ما يعرض له من الوهم أو سوء التقدير أو إساءة فهم الروابط أو تغليب بعض المعاني الحادثة فيه على بعض ، يحدث له انحياز إلى جانب من الفكر لم يكن لينحاز إليه إذا

(١) د. أحمد مختار عمر : صناعة المُعْجَم الحديث ، عالم الكتب ، القاهرة ،(بدون تاريخ للطبعة) ، ص ١٤٦

هو برِئ من ذلك براءة تامة ، أو برئ من بعضه براءة مشوبة بالنقص . وعلى مثل ذلك يكون شأن الذي يتلو كلامًا ويحاول أَنْ يفهمه ، أو يحاول تفسيره ؛ فهو عرضة للانحياز إلى جانب من الفهم أو التفسير ، يزيد وينقص على قدر مبلغه من كنه الألفاظ التي يحاول أَنْ يفسرها أو يفهمها ولا سيما إذا تضمن الكلام ألفاظًا تنضم على صور جامعة »[(١)] .

وبسبب التعدد الدلالي للألفاظ والكلمات « يرجع أكثر ما تجد من افتراق في الملل التي دان بها الناس ، وأكثر ما نشأ من المذاهب المتباينة مع انتمائها إلى أصل واحد تصدر عنه ، وأكثر ما يعرض لمفسري النصوص من الاختلاف الغريب المتناقض حين يحاولون حل الإشكال بالتأويل . فالإشكال عندهم ينشأ من القصور عن بلوغ كنه الألفاظ ذوات الصور الجامعة ؛ فيحتاجون إلى تأويل هذه الألفاظ تأويلا يناسب ما عند كل منهم من قدر من التصور . فإذا قَلَّ القدر خف التأويل ، وإذا غلا قدر القصور أفضى إلى غلو التأويل »[(٢)] ؛ لذلك فَإِنَّ أوجب ما يكون على الباحث أَنْ يحاول أَوَّلًا قبل المضي في بحثه أو قراءته أَنْ يقف على كل معاني الألفاظ المحورية التي يقوم عليها بحثه أو قراءته ، أو بتعبير آخر يجب عليه تحديد الدلالات الاصطلاحية للألفاظ التي يستخدمها .

ونعطي في هذا المقام مثالا يوضح خطورة عدم إلمام الباحث بالمعاني الدلالية للفظ ، وما قد يترتب عليه من موقف فكري ناقص يترتب عليه بدوره نتائج خطيرة .

هذا المثال نقتبسه من مقال للدكتور زكي نجيب محمود كتبه في مجلة العربي الكويتية ، وهو يَتَحَدَّث عن أهمية الوعي الدلالي لبعض الألفاظ ، وأنا هنا أنقل كلامه على طوله لما فيه من الفائدة ، يقول د. زكي : « إِنَّ من علامات هذا العصر المميِّزة ، أَنَّهُ عصر « العِلْم » المقترن بـ « العمل » حَتَّى لتجد فلاسفة عصرنا منصرفين

(١) محمود شاكر : أباطيل وأسمار ، ص ٤١١ ، ٤١٢

(٢) السابق ، ص ٤١٢

بكثير من عنايتهم وجهدهم نحو تحليل العلاقة بين العِلْم والعمل تحليلا ينتهي ببعضهم إلى القول بأن العِلْم والعمل موصول أحدهما بالآخر ، فإذا وجدت « علمًا » مزعومًا لا يجئ بمثابة الخطة الدقيقة لعمل يؤدَّى ، فقل إِنَّهُ ليس من « العِلْم » في شَيْء إلا باسم زائف ، وإن هذا الفريق من الفلاسفة المعاصرين لينكرون أشد إنكار أَنَّ هناك ما يجوز تسميته « بالعلم النظري » الذي لا صلة له بدنيا التطبيق بل إنهم ليتطلبون من العلماء إذا حددوا مصطلحاتهم العِلْمِيَّة أَنْ يحددوها بما يسمونه « تعريفًا إجرائيًا » ؛ أي أَنْ يحددوها بالجوانب العِلْمِيَّة التي تنطوي عليها تلك المصطلحات ، فإذا وردت في لغتهم ألفاظ رئيسية لا تشير إلى « إجراءات » فعلية معينة رفضوا مشروعيتها من الناحية العِلْمِيَّة ، ... فإذا قال قائل عن عصرنا إِنَّهُ عصر « العِلْم » و« العمل » كان لقوله معنى محدد بمضمونات العصر ومفهوماته ، فـ « العِلْم » ـ من ناحية ـ هو العِلْم الطبيعي ، و« العمل » ـ من ناحية أخرى ـ هو تطبيق العِلْم بالأجهزة التكنية على اختلاف مجالات العلوم وتطبيقاتها ، إِنَّ كلمة « علم » بهذا المعنى المحدد لم تدخل اللُّغَة الإنجليزية نفسها إلا في الثلث الأول من القرن الماضي (وأعني كلمة **Science**) ، مما يدل على أَنَّ ما قد سبق ذلك من « علم » لم تكن به كل المقومات التي تميز علم العصر الراهن ، وإني لأذكر في هذا الصدد ـ وعلى شفتي ابتسامة إشفاق وأسف ـ أَنَّ أحد كتابنا المرموقين قد وقع على هذه الحقيقة الغريبة في بعض ما قرأ ـ وكان ذلك منذ أعوام قلائل ـ فأسرع إلى صحيفته يكتب مفاخرًا : هذا العصر المتعجرف المغرور بتراثنا ، فمنذ كذا قرنًا من الزمان ـ هكذا قال الكاتب ـ وتراثنا ملئ بـ « العِلْم » اسما ومسمًى ، وها هي ذي إنجلترا لم تعرف « العِلْم » إلا منذ أقل من مئة وخمسين عامًا . ولو تريث كاتبنا لحظة ليراجع معنى الكلمة في الحالتين ، لوجد الفرق بين المعنى الذي كان والمعنى الذي استحدث هو ـ كما قلت ـ كالفرق بين القطبين ، فاللفظ واحد ـ في العَرَبِيَّة ـ والمضمون مختلف . وأعود إلى تراثنا العربي ، وبين يدي لفظتا « علم » و« عمل » الدالتان على جانبين يميزان العصر الحاضر وثقافته ، فأجدني مع أبي حامد الغزالي في كتابه « ميزان الاعتدال » وأقرأ ، فإذا هو يبدأ فيضع الأساس الذي يريد أَنْ يقيم عليه البناء ، وهو

أَنَّ السعادة لا تنال إلا بالعلم والعمل ... ولو تَعَجَّلْتُ النتائج كما يتعجل المتعجلون ؛ لقلتُ من فوري : الله أكبر ! ماذا أبقى القرن الحادي عشر للقرن العشرين من علامات ومميزات؟ لكني تريثتُ حَتَّى أرى بأي المعاني استُخدمت كلمة « العِلْم » وكلمة « العمل » ؟ ثم لا ألبث أَنْ أجدني في مجال من القول لا يتصل أدنى صلة بما يراد اليوم حين يقال « علم » و« عمل » ، وحسبي أَنْ ألخص النتيجة التي انتهى إليها الغزالي من بحثه ، وهي : إِنَّ العِلْم المقصود هو العِلْم بالله وصفاته وملائكته وكتبه ورسله وملكوت السموات والأرض وعجائب النفوس الإنسانية والحيوانية ، من حيث إنها مرتبة بقدر الله ، لا من حيث ذواتها ، فالمقصود الأقصى « العِلْم بالله » ، وأما العمل فمقصود به ـ أساسا ـ مجاهدة الهوى ، حَتَّى تزول الحوائل التي ربما أعاقت الإِنْسَان عن العِلْم بالله ... كل ما يعنيني من هذه التفرقة هو أَنْ ورود الألفاظ في سياقها القديم ، ثم ورودها هي نفسها في سياقها الجديد قد لا يدل على أَنَّ الفكر الجديد هو نفسه الفكر القديم إلا إذا حللنا المراد بتلك الألفاظ فإذا هذا المراد واحد في الحالتين ... وأنتقل إلى مثل آخر هو فكرة « الحرية » . ولعلي هذه المرة في غنى عن كثير من الشرح الذي اضطررت إلى ذكره في الفقرة السابقة ؛ لأن التناول طريقته واحدة ، فلا يكفي أَنْ أجد على صفحات التراث كلمة « الحرية » مذكورة لأصرخ في وجه القائلين بأن « الحرية » مطلب يشغل عصرنا ، ساخرًا بهم ، وزاعمًا أَنَّهُمْ يستيقظون الآن لما دعونا إليه نحن منذ كذا قرنًا من الزمان ! فقد تكون اللفظة واحدة ومضمونها مختلف على ألسنة المعاصرين عنه على ألسنة الأولين ... وأعود إلى التراث فأجد « الحرية » قد شغلت بالفعل فريقًا من الفلاسفة والمفكرين ، ولكن بأي معنى ؟ كان المعتزلة أهم من أثاروا البحث في حرية الإِنْسَان ، بحيث حرصوا على أَنْ يجعلوا الإِنْسَان قادرًا خالقًا لأفعاله ، خيرها وشرها على السواء ؛ ليكون مسئولا عما يفعل مسئولية تبرر ثوابه أو عقابه يوم الحساب ، قائلين إِنَّ العدل الإلهي يقتضي ذلك ، ومرجع الإِنْسَان في اختياره لأفعاله هو عقله . فأنت ترى من ذلك أَنَّ المعنى الذي قصدوا إليه بـ« الحرية » هو حرية الإِنْسَان في اختياره لأفعاله ، وهي حرية تحدد علاقة الإِنْسَان بربه ، ولا شأن لها بالروابط التي تصل بين الإِنْسَان والإنسان في هذه الدُّنْيا ، فهي لا تمس علاقة الناس بالحكومة هل هم أحرار في

إقامتها وفي عزلها ، ولا تمس صور التبادل التجاري والاقتصادي ، بل ليست هي بذات شأن في علاقة الوالد بولده ولا الزوج بزوجه ، إلا من جهة أَنَّ الأفعال التي يختارها الإِنْسَان بإرادته الحرة في كل هذه الميادين »(١) .

إذا أنعمنا النظر في هذا المثال نثبت الأمر عن معاينة أَنَّ أمر الدلالة غاية في الأهمية .

وقد يظن بعضنا أَنَّ النتائج المترتبة على عدم الفهم الدلالي لكلمة أو مصطلح ما تنحصر فقط في مجرد « موقف فكري » ، يأخذ فيه بعض المثقفين أو الباحثين طرفًا وبعضهم يأخذ الطرف الآخر المضاد ، بل قد يتطور الأمر إلى « نتائج دموية » ، فالخلاف في فهم بعض معاني الكلمات قد يقودنا إلى « حروب طاحنة تقضي على الإنسانية وحضارتها . فالديمقراطية كنظام سياسي يفهمها الروسي فهمًا مباينًا لفهم الأمريكي لها ، والاشتراكية عند الإنجليز غيرها عند الألمان أيام هتلر ، والحرية لدى هؤلاء وهؤلاء تتخذ مظاهر متباينة ، وليس ببعيد أَنْ يؤدي مثل هذا الخلاف في الفهم إلى حرب ضروس ، كتلك التي قاسينا أهوالها وشرورها في أعوام ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م نتيجة لعدم اتفاق المعسكرين المتحاربين على دلالات هذه الكلمات وأمثالها »(١) .

ولأهمية التحديد الدلالي للألفاظ المستخدمة في العلوم والفنون نشط العلماء قديمًا وحديثًا لتحديد هذه الدلالات . ففي القديم « دُفِع بعض العلماء والباحثين إلى الاهتمام به والتَّخَصُّص فيه . وممن ألفوا في هذا الموضوع الخوارزمي ٣٨٧هـ في كتابه « مفاتيح العلوم » ، والشريف الجرجاني المتوفى ٨١٦هـ في رِسالَة « التعريفات » التي رتبها على الحروف الهجائية ، وأبو البقاء الحسيني المتوفى ١٠٩٤هـ في كتاب « الكليات » . ويأتي « كشاف اصطلاحات الفنون » ليستقصي فيه التهانوي بحث المواضعات العِلْمِيَّة ، متدرجًا من الدلالة اللغوية إلى غيرها من الدلالات في شتى

---

(١) من فكر قديم إلى فكر جديد ، زكي نجيب محمود ، مجلة العربي الكويتية ، العدد ١٤٠ ، يوليو ١٩٧٠ ، ص ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣

(١) د. كمال بشر : علم المعنى ، القاهرة ، (بدون بيانات أخرى) ، ص ٤

العلوم : نقلية كانت أو عقلية . وتوسع في إيراد المسائل التي اقتضاها البحث ، معتمدًا على الكتب الأصلية في العلوم المختلفة ، وعلى آراء الثقات من العلماء والمؤلفين »(١) .

ويقول د. عبد السلام هارون شيخ المحققين في كتابه المهم « تحقيق النصوص ونشرها » عند مناقشته لأهمية المراجع اللغوية في وضوح النَّصّ المُحَقَّق وصحته :

« المراجع اللغوية : وهي المقياس الأول الذي تُسبَر به صحة النَّصّ ، فأحيانًا يحكم المحقق العجلان أن في النَّصّ تحريفًا وما به من بأس ، وهو حين يرجع إلى كتب اللغة تفتيه بصواب ما خاله غير صواب . ولا يكفي لذلك ضرب واحد من المراجع اللغوية .

ويمكن أن نقسم المراجع اللغوية إلى الضروب التالية :

(١) معاجم الألفاظ : وأعلاها لسان العرب لابن منظور ، وتاج العروس للزبيدي .
ومنها معاجم المفردات الطبية ، كالمفردات لابن البيطار ، وتذكرة داود الأنطاكي. ومن المعاجم الحديثة في ذلك معجم الحيوان للمعلوف ، والنبات لأحمد عيسى . ومنها معاجم المصطلحات العِلْمِيَّة كمفاتيح العلوم للخوارزمي، وكليات أبي البقاء ، وأوسعها جميعًا كتاب اصطلاحات الفنون .

وقد وضع بعض فضلاء المستشرقين معاجم استدركوا بها على المعاجم القديمة ، منها معجم دوزي المسمى **Suppliment aux Dictionnaires Arabes** ، ومنها معجمه الخاص بأسماء الملابس **Dictionnaire Detaille noms des Vetements chex les Arabes.** وهذه المعاجم تُفيد في تحقيق النصوص الواردة في الكتب المتأخرة .

(٢) معاجم المعاني ، وأعلاها المُخصص لابن سِيدَه ، وفقه اللغة للثعالبي .
(٣) معاجم الأسلوب ، وأعلاها جواهر الألفاظ لقدامة بن جعفر ، والألفاظ الكتابية للهمذاني .
(٤) كتب المعربات ، ومن أعلاها في القديم المعرب للجواليقي ، وشفاء الغليل للخفاجي ، وفي الحديث كتاب الألفاظ الفارسية المعربة لأدِّي شير .

---

(١) د. سيد حامد النساج : رحلة التراث العربي ، ص ٣٨ ، ٣٩

(٥) معاجم اللغات التي تمت بصلة قوية إلى العَرَبِيَّة كالفارسية والعبرية والسريانية .
(٦) المراجع النحوية ، وهي كثيرة ، وأعلى المتداول منها وأجمعها همع الهوامع للسيوطي ، وحاشية الصبان على الأشموني »(١) .

وفي العصر الحديث أخذ العلماء يدرسون الدلالة دراسة منظمة ، وبدأت ملامح هذا العِلْم تتشكل وتتضح ، وبدأت تتبلور المسائل التي يدرسها هذا العِلْم . وبدأ العلماء يدرسون التغيرات التي تلحق بالمعنى ، ويقسمون هذه التغيرات إلى أنواع أو مجموعات : تعميم المعنى ، تخصيص المعنى ، انتقال المعنى . وبجوار دراسة هذه التغيرات درس العلماء في هذا العِلْم : أنواع المعنى وقياسه ، مناهج دراسة المعنى ، الحقول الدلالية، المشترك اللفظي ، مشكلات الدلالة في الترجمة(٢) .

ومن الأمور التي تُناقش في علم الدلالة ما يعرف بـ « السِّيَاق » ، فقد اهتم العلماء ـ قديما وحديثا ـ به ، وأبانوا عن دوره المهم في تحديد الدلالة . ومن إشارات علمائنا القُدامى في هذا الشأن أقوالهم الآتية :

- يقول الإمام ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللَّهُ : « السِّيَاق يرشد إلى تبيين المُجمل ، وتعيين المحتمل ، والقطع بعدم احتمال غير المراد ... وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المُتَكَلِّم ، فمن أهمله غلط في نظره ، وغالط في مناظرته »(١) .
- ونجد شيخ اللغويّين ابن جني يعقد فصلا في كتابه « الخصائص » بعنوان : « باب مراتب الأشياء وتنزيلها تقديرًا وحكما ، لا زمانا ووقتا »، يَتَحَدَّث فيه عن دور السِّيَاق فيقول في آخر هذا العنوان : « ومن ذلك ما أقيم من الأحوال المشاهدة مقام الأفعال الناصبة ، نحو قولك إذا رأيت قادمًا : خير مقدم ؛ أي قدمت خير مقدم . فنابت الحال المشاهدة مناب الفعل الناصب . وكذلك قولك للرجل

---

(١) الطبعة الرابعة ، ص ٦٢
(٢) يُنْظَرُ : د. أحمد مختار عمر : علم الدلالة ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط٥ ، (١٩٩٨م) .
(١) بدائع الفوائد : دار التقوى للنشر والتوزيع ، القاهرة ، (٢٠٠٦ م) ، ٨/٤ ، وتشير د. نادية رمضان إلى **أَنْ ابن القيم يُعد صاحب نظرية سياق الحال** . يُنْظَرُ : د. نادية رمضان النجار : اللُّغَة وأنظمتها بين القدماء والمحدثين ، دار الوفاء ، الإسكندرية ، (بدون تاريخ للطبعة) ، ص ٢١٣

يُهوي بالسيف ليضرب به : عمرًا وللرامي للهدف إذا أرسل النزع فسمعت صوتًا : القرطاس والله ؛ أي اضرب عمرًا ، وأصاب القرطاس »(١) . وقوله : « فلو كان استماع الأذن مغنيا عن مقابلة العين مجزئا عنه لما تكلَّف القائل ولا كلَّف صاحبه الإقبال عليه والإصغاء إليه »(٢) .

○ وإمام البلاغيين عبد القاهر الجرجاني إمام اللُّغَة في عصره ، والنَّحْوِيّ المفتن في العَرَبيَّة ونحوها الذي تُشَدُّ إليه الرحال طلبًا لِلُّغَة والنحو ، والذي برع في مجال النحو التقليدي ومجال التفسير ـ يرى أَنَّ « التحليل العِلْمِيّ المنصف للبناء اللغويّ لا يتم إلا من خلال مسرح الحدث الذي دار عليه » ، وأَنَّهُ يجب مراعاة أحوال المخلوقين ، وَأَنَّ «التأويلات النحوِيَّة المنبثقة عن التقديرات العَقْلِيَّة فقط تغفل طبيعة اللُّغَة ، وتسيء إلى فهمها إساءة شديدة »(١) . وينبِّه النُّحَاة إلى أَنَّ «بعض التأويلات النحوِيَّة التي تعتمد على الجانب العقلي المحض دون تدخل في اعتبار واقع اللُّغَة وحال المخاطبين قد تقود إلى عظيم وهو الكفر »(٢) .

---

(١) الخصائص : ١/ ٢٦٤

(٢) الخصائص ، ت : مُحَمَّد علي النجار ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة سلسلة الذخائر ، ع ١٤٦، ١/ ٢٤٧ ، ويقول أَيْضًا في موضع آخر : « ... وكذلك إنْ ذممته ووصفته بالضيق قلت : سألناه وكان إنسانًا ! وتزوي وجهك وتقطِّبه ، فيغني ذلك عن قولك : إنسانًا لئيمًا أو لحزًا أو مبخلًا أو نحو ذلك . »٢/ ٣٧١

(١) دلائل الإِعْجَاز ، ت : محمود مُحَمَّد شاكر ، مطبعة المدني، القاهرة ، ط ٣ ، (١٩٩٢ م) ص ٢٤٠ــ ٢٤١ وص ٤١٦ ، وينظر أَيْضًا : « من قضايا اللُّغَة وجوب تحليل البناء اللغويّ من خلال مسرح الحدث الذي دار عليه » : د. بدراوي زهران ، مجلة مجمع اللُّغَة ع ٥٠ ، ص١٠٤

(٢) « من قضايا اللُّغَة وجوب تحليل البناء اللغويّ من خلال مسرح الحدث الذي دار عليه » : د. بدراوي زهران ، مجلة مجمع اللُّغَة ع ٥٠ ، ص ١٠٨ ، يقول عبد القاهر على سبيل المثال ، ص ٣٧٩ ، عند تحليله لقوله تعالى ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا ﴾ [النساء: ١٧١] : « ... وذلك أَنَّهُمْ قد ذَهبوا في رفْع « ثلاثةٍ » إلى أنها خبرُ مبتدأ محذوفٍ ، وقالوا : إنَّ التقديرَ : « ولا تقولوا آلهتُنا ثلاثةٌ » ؛ وليس ذلك بمستقيمٍ . وذلك أَنَّا إذا قلْنا : « ولا تقولوا آلهتُنا ثلاثةٌ » ، كان

- ومن أئمة اللُّغَة والنحو والبَلاغَة والتفسير نجد الإمام الزَّمَخْشَرِيّ يعتبر السِّيَاق ويشير إليه إشارات صريحة في تفسيره ؛ فيقول مثلا : « فإنْ قلت : هل يصحُّ : ربح عبدك وخسرت جاريتك ، على الإسناد المجازى ؟ قلت : نعم ؛ إذا دَلَّت الحال . وكذلك الشرط في صحَّة : رأيت أسدًا ، وأنت تريد المقدام إِنْ لم تقم حال دالة لم يصح »[(١)] .

(٢) **علم الحديث** :

من الأدوات المهمة لفهم الإِسْلام دراسة « علم الحديث » .

كيف ذلك ؟ كيف يكون علم الحديث من وسائلِ فهمِ الإِسْلام ؟

مَن يتابع الطرح الفكري الذي يقدمه العِلمانيون والملاحدة واللادينيون والمتصوفة والرافضة وأئمة المنابر الجهلاء وبعض النصارى يجد أن كثيرًا من هذا الطرح ، وجل هذه التصورات الفكرية قائمة على « روايات » مكذوبة غير صحيحة.

روايات أخذوها من مصادرها بلا تَثَبُّت وبلا تنقيح ، وبنوا على هذه الروايات المكذوبة غير الصحيحة تصورهم الفكري والذهني ، وكانت النتيجة أَنَّهُمْ خرجوا بتصور مشوه غير أصيل ضَلُّوا به وأضلوا كثيرًا من الناس .

وأنا هنا في هذا المقام أحضُّ حضًّا القارئ المسلم على تعلم هذا العِلْم علم الحديث ، ودراسته دراسة متأنية وجادة ، هو وكل فروعه ، وخاصة علم الجرح والتعديل ؛ فهذا العِلْم بمثابة السلاح في يد المثقف المسلم الذي يستطيع به أن يعرف الهادي من الهاذي ، والسقيم من الصحيح من الأفكار والأخبار .

ودعني أحدثك قارئي الكريم عن هذا العِلْم وما مكانته وما أهميته مع ذكر أمثلة على هذه الأهمية .

ذلك ـ والعياذُ بالله ـ شبيه الإثباتِ أنَّ ههنا آلهةً ، من حيثُ إِنَّكَ إذا نفيْتَ ، فَإِنَّما تَنفي المعنى المستفادَ من الخَبرِ عن المبتدأ ، ولا تنفي معنى المبتدأ ، ... [ونكون] قد نفَيْنا أَنْ تكونَ عِدَّةُ الآلهة ثلاثةً ، ولم تنف أَنْ تكونَ آلهةً ».

(١) **الكَشَّاف** : ١/ ٦٩ ، ولمزيد من التوضيح في هذه النقطة يُنْظَرُ : د. إيهاب عبد الحميد ، قرينة السِّيَاق ودورها في التقعيد النَّحْوِيّ ، رِسالَة دكتوراة ، كلية البنات للعلوم والآداب والتربية ، ص ٤٣

علم الحديث من العلوم المهمة ، ويعتبر من الأدوات البحثية المؤثرة والفَعَّالة لكثير من الباحثين، خاصة الباحثين في مجال العلوم الشرعية والتاريخية بل حَتَّى العلوم اللغوية ، وعدم الإلمام به قد يوقع بعضهم في نتائج علمية خطيرة .

وعلم الحديث أو علم مصطلح الحديث هو « علم بأصول وقواعد يُعرَفُ بها أحوال السند والمتن أو الراوي والمروي من حيث القبول والرد »(١) . فعلم الحديث هو العِلْم الذي يضع بين يدي الباحث « الأصول والقواعد » التي من خلالها يُعرف « أحوال السند والمتن » أو « الراوي والمرويّ » من حيث قبولها أو ردها .

وقد أجمع العلماء والباحثون على مر الأيام على أَنَّ علم مصطلح الحديث « ليس له في الدِّقَّة مثيل في التَّاريخ »(١) . وَأَنَّ « ما وضعه المُحدِّثون من قواعد لنقد الراوي والمروي هي أدق وأرقى ما وصل إليه علم النقد في القديم والحديث ، والمتأخرون لم يأتوا في ذلك بأمر جديد ذي خطر ، اللهم إلا في الاستفادة بما جَدَّ من المعارف النفسية والتوسع في التطبيق »(٢) . إِنَّ القواعد « التي أخذ جامعو الأحاديث بها أنفسهم عند تدوينها هي أدق وأرقى ما وصل إليه علم النقد ، في تمييز المقبول من المردود من المرويات، والحق من الباطل ، والخطأ من الصواب »(٣) . والمكان الذي ينبغي أَنْ يتبوأه « مصطلح الحديث في تاريخ العلوم يعلو كل مكان سمت إليه فلسفة المصطلحات في مختلف العصور »(٤) .

والحديث عن « السند » في علم مصطلح الحديث يعني « الحديث عن الخصيصة الأساسية من خصائص العلوم الإسلامية ، فَإِنَّ الحركة العَقْلِيَّة البشرية عند غير المسلمين والتي أشغلت نفسها منذ القدم بنقل الخبر ـ لم تتمكن حَتَّى عصرنا هذا من

---

(١) موسوعة علوم الحديث الشريف : وزارة الأوقاف ، القاهرة ، ط ٤ ، ٢٠١٣م ، ص ٥٥١

(١) د. صبحي الصالح : علوم الحديث ومصطلحه ، دار العِلْم للملايين ، بيروت ، ط ٧ ، (١٩٧٣م) ، ص٢٨٧

(٢) مُحَمَّد أبو شهبة: دفاع عن السُّنَّة، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، ط ١، (١٩٩٩م) ، ٤٧

(٣) السابق ، ص ٧٤

(٤) د. صبحي الصالح : علوم الحديث ومصطلحه ، ص ٢٧٥

تقديم عشر معشار ما قدمه المسلمون في علم السند ، بل إِنَّ السند لا يذكر إلا ويذكر الحديث معه ، فهما لفظتان متلازمتان »(١) .

أسباب أهمية علم الحديث وأهمية علمائه وقواعده :

أوضحنا في السطور الفائتة مكانة علم الحديث ، وَأَنَّ العلماء يضعونه في مكانة مرموقة من بين العلوم الشرعية . ونحاول في السطور القليلة الآتية توضيح أسباب هذه المكانة وهذه الأهمية :

١) يمكن أن نقول إِنَّهُ من خلال هذا العِلْم تمت محاصرة الأسباب التي دعت إلى قيامه ؛ فبهذا العِلْم تم كشف الأحاديث التي وضعها الخصوم السياسيون والمتعصبون ، وعلماء السوء ، والمتعالمون والزهاد والمتصوفة والقصاصون وغيرهم وفضحها ، ومعرفة الصحيح منها من المكذوب ، وذلك عندما انتشر الوضع لحديث رَسُول الله ﷺ وفشى الكذب عليه نصب علماء الحديث أنفسهم وتفرغوا « للذب عن سنة رَسُول الله ﷺ وأفنوا أعمارهم في التمييز بين الحديث الثابت وبين الحديث المكذوب ، وهم أئمة السُّنَّة وأعلام الهدي ، لولا هؤلاء لاختلط الأمر على العلماء والدهماء ولسقطت الثقة بالأحاديث ، [لقد] رسموا قواعد للنقد ، ووضعوا علم الجرح والتعديل ، فكان من عملهم علم مصطلح الحديث ، وهو أدق الطرق التي ظهرت في العِلْم للتحقيق التَّارِيخِيّ ، ومعرفة النقل الصحيح من الباطل »(١) .

والحق الذي يجب أَنْ يسجل بمداد الفخر أَنَّ لعلماء الحديث ـ على اختلاف نزعاتهم وطبقاتهم ـ دَيْنًا في عنق كل مسلم إلى يوم القيامة ، فَإِنَّ الجهد « الذي بذلوه لمعرفة ما زيف على الرَّسُوْل ﷺ جهد لم تعرفه أُمَّة من الأمم لتوثيق ما نقل عن أنبيائها أو عظمائها ، ونظرة واحدة إلى كتب الرجال أو ترجيح حديث على حديث

(١) د. نجم عبد الرحمن خلف : الصناعة الحديثية في السنن الكبرى ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، المنصورة ، ط ١ ، (بدون تاريخ للطبعة) ، ص ١٧٩

(١) أحمد مُحَمَّد شاكر : الباعث الحثيث ، ص ٧٢ الهامش .

تُبَيِّنُ لك مدى الجُهد الذي بذله هؤلاء العلماء في هذا المضمار »[(١)] .

٢) الذي يتعامل مع نص ما ، ويستنبط منه دلالة ما يجب أَنْ يسعى أَوْلًا إلى « إثبات النَّصّ وتوثيقه » ـ من خلال هذا العِلْم ـ قبل استنباط أية دلالة يرتب عليها رأيا ما ، وهذا الإثبات والتوثيق لا يتم بصورة صحيحة إلا من خلال قواعد علم الحديث ، وهنا ينبغي أَنْ ننبه على أَنَّ التوثيق ليس ـ كما يظن بعض الباحثين ـ « أَنْ يسند الحديث أو النَّصّ المنقول إلى كتاب معروف مبينا الجزء والصفحة والطبعة معتبرًا أَنَّ ذلك غاية التوثيق ، ونهاية التحقيق والتدقيق كما يفعل الكثيرون ممن ينقلون عن كتب التفسير أو التصوف أو الفقه أو حَتَّى كتب الحديث التي لم يلتزم مخرجوها الصحة فيما يروونه منها ؛ فلا يكفي هنا لقبول الحديث مجرد نقله من كتاب وصحة نسبته إليه . ومثل هذا يقع فيه الذين يكتبون التَّاريخ ، ومبلغ التحقيق عندهم نسبة ما ينقلون إلى الطَّبَرِيّ أو ابن الأثير أو غيرهما ، مع أَنَّ في هذه الكتب المقبول والمردود والغث والثمين »[(١)] .

٣) هذا العِلْم في الحقيقة « أساس لكل العلوم النقلية » ، فكل العلوم النقلية التي تعتمد على النقل : التَّاريخ ، الشعر ، اللُّغَة ، الأدب ... اعتمدت على قواعد هذا العلم. وما ذاك إلا لأن علماء الحديث قد حرروا « القواعد التي وضعوها لقبول الحديث ، وهي قواعد هذا الفن ، وحققوها بأقصى ما في الوسع الإنساني ؛ احتياطا لدينهم؛ فكانت قواعدهم التي ساروا عليها أصح القواعد للإثبات التَّارِيخِيّ وأعلاها وأدقها وإن أعرض عنها ـ في هذه العصور المتأخرة ـ كثير من الناس ، وتحاموها بغير علم منهم ، ولا بينة »[(٢)] .

إن مدارسة خبر تاريخي واستنباط دلالته يحتاج إلى تمرس أصيل بفنون

(١) المجتهد والعلوم التي يجب عليه تحصيلها : بدر المتولي عبد الباسط ، مجلة العربي ، عدد ١٥٥ أكتوبر ١٩٧١م ، ص ٢٤

(١) د. يوسف القرضاوي : الرسول والعلم ، دار الصحوة ، (بدون بيانات أخرى) ، ص ٧

(٢) أحمد مُحَمَّد شاكر : الباعث الحثيث في اختصار علوم الحديث ، ص ٧

التعامل مع المنقول ، « وهو ما اصطلح على تسميته بعلم مصطلح الحديث . لذلك ليس من المستغرب أَنْ نجد أنَّ أكابر المؤرخين المسلمين معظمهم من رجال الحديث ولا سيما أصحاب التواريخ الكبرى ، فالطبري والذهبي وابن الأثير والمقريزي وابن حجر العسقلاني والسخاوي ، وهم نماذج بارزة من أكابر المؤرخين هم كذلك من أكابر رجال الحديث ، ولمؤلفاتهم التاريخية منزلة خاصة من التقدير فيما يتعلق بالموضوعية وصدق الرواية . وما من شك في أَنَّ صفة المحدث كانت عاملا هامًّا في إبراز هذه المراجع التاريخية الوثيقة ؛ ذلك أَنَّ رجال الحديث يستطيعون بشهر سلاح الجرح والتعديل أَنْ يشقوا لأنفسهم طريق الوصول إلى الحديث « الصالح » أو الحديث « الحسن » ، ويتنكبوا طريق الوقوع في طريق الحديث الضعيف . **ومن ثم كان رجال الحديث هم أصدق الرواة وأوثق المؤرخين** . وقد أصبح لديهم بمرور الزمن تراث عريق من كتب الطبقات ، التي تبدأ بطبقة الصَّحابَة ـ رضي الله عنهم ـ وهم أول كتيبة من الرواة [تروي ما] سمعته أو شهدته من أقوال رَسُول الله ﷺ وأفعاله وتصرفاته . ونقلت رواياتها في القول والفعل إلى الطَّبَقَة التي تليها ، وهي طبقة التابعين ، ثم إلى الطبقات التالية من أتباع التابعين . ومن هذا التراث العريق تستخرج السُّنَّة النبوية مؤيدة بالرواية المباشرة والإسناد المتصل ، عن أشخاص عرفوا بالأمانة وصدق الرواية ، وكانت صفاتهم في ظروف حياتهم تضفي عليهم ما يطمئن إلى تلقي إسنادهم والاعتداد به »(١) .

إن مؤلفات علماء الحديث في مجال التَّاريخ لها قيمتها العِلْمِيَّة ، ومصداقيتها التاريخية بسبب ما كانوا يمتلكونه من أدوات معرفية متمثلة في علم الحديث ، هذه الأداة التي مكنتهم من معرفة صحيح الروايات من سقيمها . وهنا تجدر الإشارة إلى أَنَّ « الأُمَّة إِنَّما تكون أُمَّة بدينها ولغتها وأخلاقها وعاداتها ؛ فإذا لم يحفظْ خَلَفُها عن سلفها هذه المقومات بحفظ تاريخها تكون عرضة للتغير بتأثر حوادث الزمان وتقلبات شئون الاجتماع مع جهل المتأخر بما كان عليه المتقدم ، وبكيفية حدوث

(١) رحلتي من القانون إلى التاريخ: مُحَمَّد عبد الله عنان ، مجلة العربي الكويتية ، عدد ٢٤٦ ص ٣٦

التغيير الضار للجهل بالتاريخ »[1] .

ومن هنا فَإِنَّ لعلم الحديث ولعلمائه يدًا بيضاء على الأُمَّة ؛ إذ حفظوا على الأُمَّة كيانها دينيًّا وتاريخيًّا .

٤) ومن الأدوات التي يُعَلِّمُها علم الحديث لطالبه مهارة « التوفيق بين النصوص المتعارضة ظاهريًّا . وعلم مختلف الحديث ـ وهو فرع من علم الحديث ـ هو العِلْم المختص بذلك ، فهو علم يبحث عن الأحاديث التي ظاهرها التناقض ... قال النووي في التقريب : هذا فن من أهم الأنواع ، ويضطر إلى معرفته جميع العلماء من الطوائف »[1] . فمن خلال هذا العِلْم يتعلم الباحث كيف يوفق بين الظواهر الصحيحة التي قد تبدو متعارضة في ظاهرها ، وهذا بالطبع مهارة مهمة للباحث .

٥) ومن القواعد الجليلة التي خرج بها علماء الحديث بعد الاستقراء والتتبع ما قاله ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) : « فكل حديث رأيته يخالف المعقول ، أو يناقض الأصول فاعلم أَنَّهُ موضوع ؛ فلا تتكلف اعتباره »[2] . وهي قاعدة نقدية جليلة يمكن أن يقيس إليها الباحث كثير من الأخبار .

٦) علم الحديث يقوي حجة الباحث ، وهذا ما يؤكده الإمام الشَّافِعِيّ . إذ يقول : « مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآن عَظُمَتْ قيمتُه ، ومَنْ نظر في الفقه نبُلَ مقدارُهُ ، ومن كتب الحديث قويت حُجَّتُهُ ، ومن نظر في اللُّغَة رقَّ طبعُه ، ومن نظر في الحساب جزل رأيه ، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه »[3] .

(١) مُحَمَّد رشيد رضا : تفسير المنار ، ١/ ٢٥٨

(١) د. صبحي الصالح : علوم الحديث ومصطلحه ، ص ١١١

(٢) الموضوعات ، ت:عبد الرحمن مُحَمَّد عثمان،المكتبة السلفية،المدينة المنورة ، ط١ ، (١٩٦٦م) ، ١/ ١٠٦

(٣) البيهقي : المدخل إلى السنن الكبرى ، ت : د. مُحَمَّد ضياء الرحمن الأعظمي ، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي ، الكويت ، ص ٣٢٤ ، وينظر أَيْضًا مقدمة محقق الرسالة الشيخ أحمد شاكر : الرسالة ، مكتبه الحلبي، مصر ، ط١ ، ١٩٤٠م ، ص ٧١ ، ٧٣

علم الحديث والمنهج الاستردادي :

ومن الجوانب التي تبرز أهمية علم الحديث علاقته بما يُعرف بالمنهج الاستردادي ولتوضيح المراد بهذا العنوان نقول : يحدثنا المناطقة والفلاسفة عن أنواع مختلفة من المنطق ، ويذكرون أنَّ للمنطق عدة أنواع يهمنا منها هنا ما وصفوه بـ « المنطق الحديث » ، هذا المنطق الحديث اهتم بالجانب « التجريبي » للوصول إلى الحقائق في العلوم الطبيعة والعلوم الاجتماعية .

وقد نجح علماء المَنْهَج التجريبي في العلوم الطبيعية في الوصول إلى نتائج باهرة؛ قفزت بالإنسان قفزات حضارية وعلمية كبرى . إلا أَنَّ هذا المَنْهَج واجهته بعض الصعوبات في العلوم الاجتماعية . فـ« في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن ظهر منطق جديد ، أو بمعنى أدق مَنْهَج جديد وصل إليه علماء العلوم الاجتماعية ، من تاريخية واجتماعية ، وعلى الخصوص علماء التَّاريخ . أدرك الفلاسفة الذين فكروا في المَنْهَج التجريبي أَنَّ هناك عقبات تحول بين تطبيق المَنْهَج التجريبي تطبيقا تاما خلال أبحاثهم التاريخية أو في الأبحاث الإنسانية عامة ؛ ذلك لِأَنَّهُ يوجد فارق جوهري بين« الظاهرة الطبيعية » و « الظاهرة التاريخية » ، فالظاهرة الطبيعية تخضع للملاحظة المباشرة والتجربة ، ويسمح إمكان تكرارها وإمكان حدوثها دائما باستمرار باستنتاج حكم كلي منها ؛ أي أَنَّ هذا يعني خضوع الظواهر الطبيعة للقانون العام . أما الظاهرة التاريخية فلا تخضع للملاحظة المباشرة أو للتجريب ، إِنَّما هي حادثة فردية ، حدثت مرة واحدة ولا تحدث بعد ذلك أبدًا ؛ أي لن تتكَرَّر إطلاقا . ذلك أَنَّ التَّاريخ قائم على حالات فردية ، تتحقق في أزمانها ، والأزمان تمضي ولا تعود . فبينما تكون الظواهر الطبيعة خاضعة لقانون ثابت عام ضروري ، لا تخلف فيه ، تخضع الظواهر التاريخية والاجتماعية لفكرة إعادة بناء الماضي في وحدة متناسقة ، ويقوم هذا البناء على تتبع حوادث الماضي ، وجمع الوثائق والأخبار والعمل على ربطها ومحاولة وصلها الواحدة بالأخرى ، وهذا هو المَنْهَج البنائي أو الاستردادي في العلوم الإنسانية ... وينبغي أَنْ نلاحظ أَنَّ علماء المسلمين أَيْضًا كان لهم فضل الكشف عن هذا المَنْهَج الاستردادي قبل أوروبا بقرون طوال ، فقد وصل المسلمون في علم « مصطلح الحديث » ، ونقد الحديث دراية ورواية إلى معرفة أكيدة

بالنقد الداخلي والنقد الخارجي للنصوص ، كما كان لهم الفضل في اكتشاف المَنْهَج الاستردادي »[(١)] .

إِنَّ المَنْهَج الاستردادي يقوم على فكرة إعادة بناء الماضي من خلال تتبع حوادثه، وجمع الوثائق والأخبار ووصلها حَتَّى تتجمع أجزاء الصورة فتبدو واضحة وصادقة وهذا ما يظهر من خلال أعمال علماء الحديث العِلْمِيَّة ، ومؤلفاتهم من خلال قواعد التحديث ، وعلم الجرح والتعديل .

إِنَّ علماء الحديث يشبهون في عملهم هذا « التَّحرِّي » الذي يجمع الأَدِلَّة حول شخص ما أو حول قضية ما للحكم عليها ، أو يشبهون « رجل القانون » أو « المحامي البارع » الذي يجادل عن خصمه . يقول الأستاذ مُحَمَّد عبد الله عنان ـ المؤرخ الشهير ـ : « والذي نود أَنْ نلفت إليه النظر قبل كل شَيْء هو أَنَّهُ قد كان لدى رجال الحديث والمؤرخين المسلمين ما يعد بديلا للقانون أو المحاماة ، مما يحقق نفس الأغراض التي تحققها البحوث القانونية والجدلية ، من تقصي الروايات الراجحة ، وترجيح الروايات المدعمة بالأسانيد المتصلة على الرويات الضعيفة ذات الأسانيد المنقطعة ، ونقد رجال الحديث بما يسمى مبدأ « الجرح والتعديل » ، فَإِنَّ الحديث لا يعتبر صحيحا في نظر علمائه إلا إذا تتابعت سلسلة الإسناد من غير انقطاع ، وكانت هذه السلسلة تتألف من أشخاص عرفوا بصدق الرواية . وهذا التحقيق يرجع إلى حياة الأشخاص أنفسهم ، وإلى الوقت والظروف التي عاشوا فيها . وقد تكفلت بذلك كتب الطبقات العديدة التي أغنت هذه المادة ، وقدمت لنا تاريخ الصَّحابَة أفرادًا ، ثم تاريخ التابعين وتابعيهم ، ورواةُ الحديث الأوائل جُلُّهم من أولئك . وتستطيع على ضوء الروايات الخاصة بالأشخاص أَنْ تقضي بتجريح صاحب السَّنَد الحديثي أو تعديله ؛ أي اعتباره إما مجروحا أو معيبا في روايته أو عدلا صادقا فيها . وهذا المبدأ في ذاته يمكن تطبيقه على الروايات التاريخية ، وذلك بالرجوع إلى حياة صاحب الرواية ومكانته من الصدق والثقة ، ثم إلى الرواية ذاتها ، وما يقترن بها من

---

(١) د. علي سامي النشار : المنطق الصوري منذ أرسطو حَتَّى عصورنا الحاضرة ، دار المعرفة الجامعية ، القاهرة ، ط ٥ ، (٢٠٠٢ م) ، ص ٣٤ ، ٣٥

ظروف العصر الذي تسند فيه ، وظروف غير المعقول وغير ذلك »[١] .

واهتمام علماء الحديث بالسَّنَد جعلهم يهتمون بعلم الجرح والتعديل وهذا بدوره جعلهم يهتمون بتراجم الرواة ، وتفنَّنت الأُمَّة الإسلامية في ذلك تفننا ؛ « فصنَّفت في تاريخ الأشخاص كما صنفت في تاريخ البلاد والشعوب ، ثم نوعت تاريخ الأشخاص فجعلت لكل طبقة تاريخا ؛ فنرى في المكاتب طبقات المفسرين وطبقات المحدثين وطبقات النحويين وطبقات الأطباء وطبقات الشعراء إلى غير ذلك »[١] .

وينبغي ألا نغادر هذه الجزئية دون أَنْ نلقي مزيدا من الضوء على علم « الجرح والتعديل » وأهميته . فنقول إِنَّ علم الجرح والتعديل أو علم « رجال الحديث » هو « علم يعرف به أحوال الرواة من حيث تاريخ ولادة الراوي ، ووفاته ، وشيوخه ، وتاريخ سماعه منهم ، ومن روى عنه ، وبلادهم ، ومواطنهم ، ورحلاته ، وأقوال العلماء عنه »[٢] .

وقد نشأ هذا العِلْم مع نشأة الرواية في الإِسْلام لاحتياج العلماء إليه في معرفة رجال الإسناد وقبول روايتهم أو ردها ، خاصة بعد ظهور الفتن ونشأة الفرق وابتداء الوضع .

وأطلق العلماء على هذا العِلْم مجموعة من الأسماء : علم رجال الحديث ، علم تاريخ رواة الحديث ، علم التواريخ والوفيات .

ومن أهم فوائد هذا العِلْم :

(١) معرفة الثقات الذين جمعوا بين العدالة والضبط ، والذين تقبل روايتهم وفق قواعد علم الحديث .

(٢) التأكد من تلقي الرواة عن بعضهم حَتَّى نطمئن إلى اتصال السند بأخذ كل

---

(١) رحلتي من القانون إلى التَّاريخ : مُحَمَّد عبد الله عنان ، مجلة العربي الكويتية ، عدد ٢٤٦ ، مايو ١٩٧٩م ، ص ٣٥

(١) مُحَمَّد رشيد رضا : تفسير المنار ، ١/ ٢٥٨

(٢) موسوعة علوم الحديث الشريف ، ص ٥٤٥

تلميذ عن شيخه .

(٣) معرفة ما يقبل من أحاديث الثقات الذين اختلطوا ، وما لا يقبل منها ؛ لِأَنَّهُ يوضح زمن الاختلاط ، والآخذين عن الثقة قبل الاختلاط والآخذين عنه بعده ؛ فترد روايتهم .

(٤) معرفة المتقدم والمتأخر من الأحاديث للوقوف على الناسخ والمنسوخ عند تعارض الخبرين مع تعذر الجمع بينهما ، وهذا من أجل الفوائد ؛ لِأَنَّهُ يرفع مظنة التناقض عن الحديث النبوي .

(٥) معرفة العيوب التي تطرأ على اتصال السَّنَد ، مثل : الانقطاع والتدليس والإرسال ، فقد يكذب الراوي ، ويدعي السماع ، أو يرسل ، أو يدلس ولا يقف العالم على حقيقة الأمر إلا بمعرفة التَّاريخ وأحوال الرواة .

وقام علماء الحديث بوضع أنواع كثيرة من المصنفات في تراجم الرواة وتواريخهم وأحوالهم ، وكانت غايتهم الأولى هي خدمة السنة المطهرة ، وذب الكذب والافتراء عنها . وتنوعت مناهجهم وطرقهم في التأليف في هذا العِلْم ، وأخذت أشكالا عديدة :

- منها مصنفات في الرجال عامة ، ومن أفضل ما كُتِبَ بهذه الطريقة : التَّاريخ الكبير للبخاري(٢٥٦هـ) ، الجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي (٢٣٧هـ) تاريخ الإِسْلام وطبقات المشاهير للذهبي (٧٤٨هـ) .
- مصنفات في الثقات فقط ، كـ « الثقات » لابن حبان (٣٥٤هـ) .
- مصنفات في الضعفاء فقط ، مثل : الكامل في معرفة ضعفاء المحدثين وعلل الحديث لابن عدي (٣٦٥هـ) ، والضعفاء الكبير للعقيلي (٣٢٢هـ) .
- مصنفات خاصة بمن تكلم فيهم بحق أو بغير حق ، لبيان وجه الصواب في ذلك الكلام ، مثل : ميزان الاعتدال للذهبي .
- مصنفات في معرفة الأسماء والكنى والألقاب ، ومن أشهرها : نزهة الألباب في الألقاب ، لابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) .

منهج علماء الحديث :

بعد حديثنا عن مكانة علم الحديث وأهميته وأسبابها وتأثيره على غيره من العلوم قد يقفز إلى الذهن سؤال مهم : لماذا استحق علم الحديث هذه المكانة ، واستخرج من أفواه العلماء هذا الثناء العاطر ، وتأثرت به كل العلوم النقلية ؟

تكمن الإجابة عن هذه الأَسْئِلَة في قولنا : إِنَّ سر مكانة علم الحديث وعلمائه تكمن في « المَنْهَج الذي سلكه علماء الحديث » ، والمقصود بكلمة « مَنْهَج » هنا طريقتهم في تناول المرويات. لقد وضع علماء الحديث طريقا واضحا لاحبا في تناول المرويات ، يَتَمَثَّل في : عدم قبول الرواية إلا عن ثقة ، وإذا كانت الرواية يرويها عدد من الرواة ؛ فيجب اتصال السند فيما بينهم ، مع الخلو من الشذوذ والعلل .

يلخص الإمام السيوطي (ت :٩١١هـ) هذه الشروط في ألفيته قائلا[(١)] :

حدُّ الصحيحِ : مسنَدٌ بوصله ... بنقل عدْلٍ ضابط عن مثله
ولم يكن شذًّا ولا مُعَلَّلا ... .

ولقد تشدَّدَ علماء الحديث في نقد الرواة والرواية أَيَّما تشدد : ففي نقد الرواة قرروا « أَنَّ الحديث عن رَسُول الله ﷺ لا يُقبَل إلا عن ثقة »[(٢)] . وصرَّحوا بأَنَّ « الكاذب في غير حديث رَسُول الله ﷺ تُرد روايته ... ويجب أَنْ يُقبل حديثه إذا ثبتت توبته ، فأمّا الكذب على رَسُول الله ﷺ بوضع الحديث ، وادَّعاء السماع فقد ذكر غير واحد من أهل العِلْم أَنَّهُ يجب رد الحديث أبدًا وإنْ تاب فاعله »[(٣)] ، وقرَّروا أَيْضًا أَنَّ « السَّفَهَ يسقط العدالة ويوجب رد الرواية »[(٤)] . يقول الشيخ أحمد شاكر : « اجتهد علماء الحديث في رواية كل ما رواه عنه ﷺ الرواة ، وإن لم يكن صحيحا عندهم . ثم اجتهدوا في التوثق من صحة كل حديث وكل حرف رواه الرواة ، ونقدوا أحوالهم

---

(١) ألفية السيوطي في علم الحديث : مكتبة ابْن تَيْمِيَّة ، القاهرة ، ط ١ ، (١٤١٤هـ) ، ص ٥

(٢) الخطيب البغدادي : الكفاية في علم الرواية ، (بدون أية بيانات أخرى) ، ص ٣١

(٣) السابق ، ١١٧

(٤) السابق ، ١١٥ ، والسَّفه : التصرف بما يناقض الحكمة ، وينظر في هذا الموضع قصة شُعبة مع أبي الزبير فهي قصة دالة على ما نحن فيه .

ورواياتهم ، واحتاطوا أشد الاحتياط في النقل ؛ فكانوا يحكمون بضعف الحديث لأقل شبهة في سيرة الناقل الشخصية ، مما يؤثر في العدالة عند أهل العِلْم . أما إذا اشتبهوا في صدقه، وعلموا أَنَّهُ كَذَب في شَيْء من كلامه : فقد رفضوا روايته ، وسموا حديثه موضوعا أو مكذوبا ، وإن لم يعرف عنه الكذب في رواية الحديث ، مع علمهم بأنه قد يصدق الكذوب »[1] .

ويلخص د. القرضاوي هذا الاهتمام البالغ بما روي عن النَّبِيّ ﷺ بقوله : « ولا يظننَّ ظان غريب عن العِلْم وأهله أَنَّ علماء الأُمَّة كانوا يقبلون كل من هبَّ ودبَّ ، يأتيهم فيقول لهم عن فلان عن فلان عن رَسُول الله ؛ فيقولون له : صدقت ! **فَإِنَّ كل من يأتيهم بحديث لا بد أَنْ يسألوا عنه : في أي حلقة تخرَّج ؟ مَنْ شيوخه ؟ ومَنْ زملاؤه في طلب العِلْم ؟ ومَنْ تلاميذه الذين أخذوا عنه؟ وما حاله وسلوكه في نظر شيوخه ورفقائه وتلاميذه ؟ هل يشهدون له بالصلاح والتقوى ؟ وهل يشهدون له بالحفظ والإتقان ؟ وهل استمر على ذلك طوال عمره** ، أو تغير في آخر عمره ؟ ومن ذا من تلاميذه أخذ عنه في حالة الكبر ؟ ومن أخذ عنه قبل تَغَيُّرِه »[1] .

ولم يهتم علماء الحديث بكثرة الرواة الذين يروون حديثا ما ، فالعبرةُ عندهم « في تصحيح الروايات وتضعيفها ليس « كميًّا » ؛ فيعول على الأرقام والأعداد ، ويقارن بين الجموع والأفراد ، وإنما هو « قيمي » يُعنى بأوصاف الرجال المذكورين في الأسانيد ، أقلةً كانوا أم كثيرين ، ومن هنا رأينا نقادهم لا يبالون في المتواتر نفسه بتعيين عدد الجمع الراوي له ، بل يشترطون أَنْ يُؤْمَن تواطؤ هذا الجمع على الكذب في العرف والعادة »[2] .

فليست الكثرة دليل الصحة ، ولا القلة دليل الكذب ، فالعبرة بـ « بصدق الراوي والثقة فيه » ؛ لذلك نجد الأئمة الأربعة يأخذون بـ « خبر الآحاد » إذا استوفى شروط

(١) الباعث الحثيث ، ص ٧

(١) د. يوسف القرضاوي : كيف نتعامل مع السُّنَّة ؟ ، دار الشروق ، القاهرة ، ط٣ ، ص٤٦

(٢) د. صبحي الصالح : علوم الحديث ومصطلحه ، ص ٢٣١

الرواية الصحيحة ، « ولا يردونه ، ومن رده منهم في بعض الأحوال فلسبب رآه بضعف نسبته إلى الرَّسُوْل ﷺ أو لمعارضته لما هو أقوى منه سندًا في نظره »[1] .

ونَصَّ الإمام الشَّافِعِيّ (ت :٢٠٤هـ) على الشروط التي يجب توفرها في « خبر الآحاد » لكي يُقْبل ، فقال رَحِمَهُ اللهُ : « ولا تقوم الحجة بخبر الخاصة حَتَّى يجمع أمورًا منها : أَنْ يكون من حدّث به ثقةً في دينه ، معروفًا بالصدق في حديثه ، عاقلاً لما يُحَدِّث به ، عالمًا بما يُحِيل معاني الحديث من اللفظ ، وَأَنْ يكون ممن يؤدِّي الحديث بحروفه كما سمعه ، ولا يحدِّث به على المعنى ؛ لِأَنَّهُ إذا حدَّث به على المعنى وهو غير عالم بما يحيل معناه ـ لم يدر لعله يحيل الحلال إلى الحرام ، وإذا أدى بحروفه لم يبق وجه يخاف فيه إحالة الحديث . حافظًا إِنَّ حدّث من حفظه، حافظًا لكتابه إِنَّ حدّث من كتابه ، إذا شرك أهل الحفظ في الحديث وافق حديثهم ، بريئًا من أَنْ يكون مدلِّسًا ... ويكون هكذا مَنْ فوقه ممن حدثه ينتهي بالحديث موصولا إلى النَّبِيّ ﷺ أو إلى من انتهى به إليه دونه ؛ لأن كل واحد منهم مُثْبِتٌ لِمَنْ حدَّثه ومثبتٌ على من حدَّث عنه »[1] .

إذا أحصينا هذه الشروط لقبول خبر الواحد من الإمام الشَّافِعِيّ نجدها على وجه التقريب « تسعة شروط » ، وهي من الكثرة والتشدد بحيث تنبئ عن مدى العناية التي صاحبت الرواية لحديث الآحاد . ومما يسترعي النظر في هذه الشروط الشروط الآتية :

(١) أن يكون الراوي لحديث الآحاد عاقلا لما يحدث به .

(٢) عالما بما يحيل معاني الحديث من اللفظ .

(٣) إذا شرك أهل الحفظ في الحديث وافق حديثهم .

وهذه الشروط تستدعي بعض التأمل ، وقليل من النظر : فما معنى أَنْ يكون الراوي « عاقلا » لما يُحَدِّثُ ؟ ولماذا ؟ وماذا وراء اشتراط الإمام الشَّافِعِيّ « أَنْ يكون

(١) د. حسين سمرة : أصول الفقه الإسلامي ، دار الهاني للطباعة ، القاهرة ، (بدون بيانات أخرى) ، ص٤٤

(١) البيهقي : مناقب الشَّافِعِيّ ، ت : أحمد صقر ، دار التراث ، القاهرة ، ٢/ ٢٦ ــ ٢٧

الراوي عالما بما يحيل معاني الحديث » ؟ وما المقصود بـ « إذا شرك أهل الحفظ في الحديث وافق حديثهم » ؟

معنى أَنْ يكون « عاقلا لما يحدث به » أي يكون « فاهما » لما يقوله ، والسبب في ذلك فيما أظن : أَنَّ هذا سيكون مدعاة لحفظه للرواية ، أو أَنْ فهمه للمعنى يجعله يضعها في حاق موضعها ، فليس كل ما يعرف يقال للغير ، فإذا وضعها في غير موضعها كان هذا دليلا على عدم فهمه لها ، وهذا قد يقدح في سلامة عقله ، ويهز الثقة فيه . أما اشتراطه أَنْ يكون « عالما بما يحيل معاني الحديث من اللفظ » : فهذا يعني أَنَّ الراوي يجب أَنْ يكون ملمًّا بالعلوم اللغوية : النحو والصرف والدلالة والبَلاغَة . أما الشرط الثالث ففيه دليل على صدق هذا الراوي، فإذا فرضنا مثلا أَنَّ لدينا لهذا الراوي عشرين رواية فردية وافق في ثلاث عشرة منها الحفاظ فأَنْ يكون صادقًا في الباقي أمر مقبول جدًا . ويؤكد هذا ما قرره الشيخ أحمد شاكر بقوله : « وكذلك توثقوا من حفظ كل راوٍ ، وقارنوا رواياته بعضها ببعض ، وبروايات غيره فَإِنْ وجدوا منه خطأً كَثِيرًا وحفظا غير جيد ضعفوا روايته ، وإن كان لا مطعن عليه في شخصه ولا في صدقه ، خشية أَنْ تكون روايته مما خانه فيه الحفظ »[١] .

ومما يتصل أَيْضًا بتشدد علماء الحديث في مجال نقد الرواة دراستهم بتوسع لـ « طرق التَّحَمُّل » التي « يتحمَّل » الرواة بها الحديث . والتحمل اصطلاحا يقصد به « تلقي التلميذ الحديث من الشيخ مباشرة ، أو بواسطة طرق التلقي التي ذكرها المحدثون من قراءة وإجازة ، ومناولة، ومكاتبة، وإعلام ، ووصية ، ووجادة »[٢] .

ولا أدل على تيقظ علماء الحديث للرواة وما يروونه من تخصيصهم بابا قائما بذاته عن « التدليس » الذي عرفوه بأنه : « إخفاء عيب في الإسناد وتحسين ظاهره »[٣] . ودرسوا أنواعه وذكروها في مؤلفاتهم ، وقسموا التدليس إلى : تدليس

(١) الباعث الحثيث ، ص ٧

(٢) وزارة الأوقاف : موسوعة علم الحديث ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، ط٤ (٢٠١٣م) ، ص ٢٠٨

(٣) موسوعة الحديث الشريف ، ص ٢٣٠

الإسناد ، تدليس الشيوخ ، تدليس التسوية ، تدليس القطع ، تدليس العطف تدليس السكوت ، تدليس البلاد[(١)] .

وينبغي أَنْ نوجه النظر إلى أنَّ تشدد علماء الحديث لم يكن مقصورا فقط على الرواة وسلسلة السند بل شمل أَيْضًا « المتن » متن الحديث ، فكانت عنايتهم بالغة بألفاظ المتن ومضمونه . فمن حيث الحفاظ على ألفاظ المتن نجد أنَّ « الرعيل الأول من الرواة كانوا يتشددون في الرواية باللفظ والنص ، ولا يتساهلون حَتَّى بالواو والفاء ، وكان أحب إلى أحدهم ـ كما قال الأعمش ـ أَنْ يَخِرَّ من السَّماء من أَنْ يزيد في الحديث واوًا أو ألفًا أو دالًا ... وما أكثر الأمثلة التي تشير إلى تردُّد الراوي بين لفظين حَرِص الراوي نفسه على التصريح بكل منهما مخافة أَنْ يلفظ بغير لفظ النَّبِيّ ﷺ »[(١)] .

أما من حيث المضمون فنجد أَنَّ المحدثين اعتقدوا أنَّ « دراستهم لمتن الحديث وعنايتهم بحفظ كتب الرواية ليستا شَيْئًا ذا بال إِنْ لم تقترنا بعلم الحديث « دراية » الذي هو الدراسة التاريخية التحليلية لأقوال الرسوال العظيم وأفعاله ، ورأيناهم في علم الحديث دراية يبحثون عن أحوال الراوي والمرويّ ، وما كانوا يقصدون بالراوي إلا حلقة في سلسلة السند ولا بالمروي إلا متن الحديث . فعلم مصطلح الحديث ـ بطبيعة تعريفه ـ لا يقتصر على مباحث الإسناد ، بل يجاوزها إلى المسائل المتعلقة بالمتن أَيْضًا . وقد يبدو للباحث ـ إذا وقف عند الظاهر وحده ـ أنَّ علماء الحديث عنوا بالإسناد أكثر من المتن ، **ولكن هذا وهم بعيد ما أسرع تبدده لدى البحث العميق والنظر الدقيق** »[(٢)] .

ومما يتصل أخيرًا بمنهج علماء الحديث أَنْ نشير إلى « الصيغ » التي يستخدمها علماء الحديث ، فهناك صيغة « الجزم » وصيغة « التمريض » ، فـ « صيغة الجزم : قَاْلَ ، وَرَوَي ، وجَاء ، وعَن . وصيغة التمريض نحو : **قيل ، ورُوِيَ عن ،**

---

(١) السابق ، ص ٢٣٢ وما بعدها .

(١) د. صبحي الصالح : علوم الحديث ومصطلحه ، ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠

(٢) السابق ، ص ٢٧٨

ويُروى ، يُذكر ونحوها »[1] ؛ لذلك ينبغي أَنْ يُعلَّم « الناشئ في علم الحديث إذا نقل رواية لا يعلم حالها أصحيحة هي أم ضعيفة ، يجب أَنْ يختار للتعبير عنها صيغة التمريض ؛ فيقول مثلا : رُوِيَ عن رَسُول الله ﷺ كذا ، أو بلغنا كذا . ولا يجوز له أَنْ يذكر بصيغة التمريض هذه حديثا صحيحًا يرويه بدون إسناده؛ لما يُوِهم ذلك من ضعفه ؛ بل يقول جازما : قال رَسُول ﷺ »[1] .

خطورة الجهل بعلم الحديث ومنهج علمائه :

نأتي هنا ـ بعد حديثنا عن علم الحديث ومكانته ـ إلى نقطة غاية في الأهمية ، وأحسب أَنَّ إهمالها لا يجمل بنا هنا ، ونحن في معرض كلامنا عن علم الحديث ، وهذه النقطة هي : ما خطورة الجهل بعلم الحديث ومنهج علمائه ومصطلحاته ؟ ماذا يعنى أن يتصدر باحث ما لبحث مسائل شرعية أو تاريخية أو أدبية أو لغوية أو غيرها دون دراية بعلم الحديث؟ ودون دراسة عميقة ومستفيضة له ولفروعه؟ أعتقد أَنَّ الإجابة عن هذا السؤال من الأهمية بمكان للباحث .

يمكن أن نقول : إِنَّ جهل الباحث بعلم الحديث ـ خاصة إذا كان باحثا في العلوم النقلية ـ يُوقِع الباحث في مآزق خطيرة جدًا ، وقد يأتي بسبب جهله بهذا العِلْم ومنهج علمائه ومصطلحاته بطامات قد يكون لها عواقب وخيمة عليه وعلى بحثه وعلى الناس . وكم من مثقفٍ يدَّعِي العِلْم ، يحمل الدرجات العِلْمِيَّة العليا خرج علينا بآراء فكرية تاهَ بها على الناس ظنًا منه بأنه أتى بما لم تأتِ به الأوائل ، ومستنده لهذه الأفكار « النيرة » والآراء « العبقرية » بعض النصوص الحديثية أو الروايات التاريخية التي لا تثبت على النقد عند التأمل فيها . ولنضرب لذلك المثل الآتي .

هذا المثال نسوقه للأخطاء التي وقع فيها كبار المثقفين ومن يحملون الدرجات العِلْمِيَّة الكبرى بسبب جهلهم بعلم الحديث ، وجهلهم بـ« مَنْهَج علمائه » ـ هو للدكتور حسين مؤنس (ت ١٩٩٦) ، وهو عالم كبير في التَّاريخ الإسلامي!

(١) أحمد شاكر : الباعث الحثيث ، ص ٢٨ ، ١٥

(١) د. صبحي الصالح : علوم الحديث ومصطلحه ، ص ٣١٣ ، ٣١٤

وله مؤلفات قيمة بحق منها : « أطلس تاريخ الإِسْلام » ، وهو كتاب رائع ملون جمع خرائط المعارك التاريخية الإسلامية في مختلف العصور .

وللدكتور حسين مؤنس مؤلف بعنوان : « تنقية أصول التَّاريخ الإسلامي » ، صدر عن سلسلة « مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٥م » . ويبدأ د. حسين مؤنس كتابه بالتعبير عن ضيقه الشديد بما يسمى « الآيات الشيطانية » ؛ مشيرا إلى كتاب أُلِّف في الغرب بهذا الاسم لمؤلِّف اسمه « سلمان رشدي » الذي استغل بعض الروايات التاريخية المكذوبة التي تُعرَف بـ « قصة الغرانيق »[1] ؛ وجعلها تُكَأَة لكتابه . وَيَنْحَى د. حسين مؤنس باللائمة على مؤرخي الإِسْلام وعلى رأسهم الإمام الطَّبَرِيّ رَحِمَهُ اللهُ الذي أورد أصل هذه الحكاية . واتهم د. مؤنس الإمام الطَّبَرِيّ بـ « السذاجة » ؛ بل اتهمه بـ « العَبَط » ـ بنفس هذا اللفظ ـ ، وأنا هنا أنقل ما قاله نصًا د. مؤنس في بعض مواضع الكتاب :

- « وأصل الحكاية موجود عند أبي جعفر الطَّبَرِيّ ؛ وإنها لمصيبة أَنْ تجد معظم كبار مؤرخينا كانت فيهم سذاجة جعلتهم يحكون حكايات تمس الإِسْلام ... وإليك القصة (الغرانيق) كما وردت عند الطَّبَرِيّ ؛ لترى كيف كان هذا المؤرخ « **عبيطًا** » إلى درجة يتصور معها أنَّ مثل هذا الخبر لا يمكن أَنْ يضر الإِسْلام . قال أبو جعفر ... »[2] .
- ويقول في موضع ثانٍ : « ولكن تكرار الطَّبَرِيّ إياها وإصراره عليها أمر يدل على غفلة ... ولم يكن يخطر على بال أبي جعفر الطَّبَرِيّ أَنَّهُ سيجئ اليوم الذي يوجد فيه أعداء للإسلام يقرءون كتابه بكل عناية ، باحثين عن براهين يؤكدون بها ما

(١) صنف الشيخ الألباني كتابا كاملا في الرد على هذه الأكذوبة عنوانه « نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق » فلتنظر هناك .

(٢) تنقية أصول التَّاريخ الإسلامي ، مكتبة الأسرة ـــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، (٢٠٠٥م) ، ص ٧ ، ٨

يزعمون من أَنَّ رَسُول الله قد أَلَّفَ القُرْآن بنفسه ـ والعياذ بالله ـ وَأَنَّ القُرْآن كله ليس من عند الله ، ولم يكونوا ليجدوا على زعمهم هذا دليلا هو أنصع من هذا الذي أتاهم به الطَّبَرِيّ بصورة هي الغاية في الوضوح »[1] .

- « ... إِنَّنا نعيش في عصر خطر يتصارع فيه الإِسْلام مع أعدائه . والقدامى كانت فيهم سذاجة وثقة في النفس تجعلهم يرددون كل ما يصل إليهم من الأخبار دون نظر »[2] .
- « وسآتيك بالخبر كما رواه الطَّبَرِيّ في تفسيره لترى سذاجة الطَّبَرِيّ ، وكيف أَنَّهُ أساء إلينا بالطريقة التي روى بها الخبر والأسلوب الذي حكاه به»[3] .
- ويعرض د. حسين مؤنس لقصة زواج النَّبِيّ ﷺ من السيدة زينب بنت جحش بعد أَنْ طلقها زيد بن حارثة ، فيقول : « ورواية الطَّبَرِيّ للخبر على هذه الصورة تلقي شكا كبيرًا على طبيعة رَسُول الله ﷺ وأعداء الإِسْلام معذورون ؛ إذا هم رأوا هنا قصة حب ؛ لأَنَّ أسلوب الطَّبَرِيّ نفسه مفضوح جدًا »[4] .

ونكتفي بهذه الاقتباسات التي اتهم فيها د. حسين مؤنس الإمام الطَّبَرِيّ بـ « السذاجة والعبط والغفلة والأسلوب المفضوح » ، إلى آخره ، وما ذكرته هنا إِنَّما هو غيض من فيض مما يطفح به الكتاب .

وأقول إِنَّ هذه الاقتباسات تدل على أَنَّ « الدكتور حسين مؤنس » لا علم له من قريب ولا من بعيد بعلم مصطلح الحديث ، ويجهل جهلا مخزيًا مَنْهَج علماء الحديث ـ على الرغم من كونه مؤرخًا ـ في نقلهم للأخبار .

ونجمل ردنا هنا على هذه الاقتباسات في النقطتين الآتيتين :

✓ الأولى : الإمام أبو جعفر مُحَمَّد بن جرير الطَّبَرِيّ (ت : ٣١٠هـ) الذي

(١) السابق ، ص ١١، ١٢

(٢) السابق ، ص ١٤

(٣) السابق ، ١٥

(٤) السابق ، ١٦

اتهمه د. مؤنس بـ « السذاجة والعبط والغفلة » قال فيه الإمام الذهبي إمام الجرح والتعديل : « كان من أفراد الدهر علما وذكاءً وكثرة تصانيف ، قلَّ أَنْ ترى العيون مثله ... وكان من كبار أئمة الاجتهاد ... قال الخطيب : كان أحد العلماء ، يُحكم بقوله ، ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله »[١] . فلقد كان الإمام الطَّبَرِيّ ـ طيب الله ثراه ـ عالما جليلا ، قيمة وقامة ، لا يشق له غبار، ومن المستبعد أن تكون فيه سذاجة أو غفلة .

- ✓ الثانية : من الأمور التي كان يجب أَنْ تكون معلومة عند د. مؤنس أَنَّ الإمام الطَّبَرِيّ في تاريخه كان يجمع كل ما يقع بين يديه من الروايات غَثِّها وثمينها ، ويذكرها بـ « أسانيدها » وقد ذكر ذلك في مقدمة تاريخه ؛ فقال :

« **فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئُه ، أو يستشنعُه سامعُه ، من أجل أَنَّهُ لم يعرف له وجها في الصحة ، ولا معنى في الحقيقة ، فليعلم أَنَّهُ لم يؤتَ في ذلك من قِبلنا، وإنما أتى من قِبل بعض ناقليه إلينا ، وإنا إِنَّما أَدَّينا ذلك على نحو ما أُدِّيَ إلينا** »[٢] .

فالإمام الطَّبَرِيّ سار على مَنْهَج مطرد في كتابه ، يتمثل في ذكر كل الروايات المتعلقة بواقعة معينة أو خبر ما بالأسانيد ، ولا يعلق عليها بصحة أو ضعف . وهذا المَنْهَج الذي لم يرضَ عنه د. مؤنس أشاد به غيره من الباحثين والعلماء المحققين والمدققين ، وجعله من تمام بصيرة الرجل . يقول د. شوقي ضيف: « ولعل في ذلك ما يصور أهمية المَنْهَج الذي اتبعه الطَّبَرِيّ في جمعه بين الروايات المختلفة في كل حادث وكل خبر ، فهو لم يجمع بينها عبثا أو إطالة في كتابه ، **وإنما جمعها ؛ لِأَنَّهُ عرف ببصيرته النافذة أَنَّها مصادر متعددة ، من واجب أمثاله من المؤرخين أَنْ يضعوها تحت أعين الناس ؛ ليتبينوا الصادق منها والكاذب ، والوثيق وغير الوثيق ؛ وليصححوا**

(١) سير أعلام النبلاء ، ت : شعيب الأرناؤط ، مؤسسة الرسالة ، ط٣ ، (١٩٨٥م) ، ١٤/ ٢٦٧

(٢) تاريخ الرسل والملوك ، ١/ ٨

بعض الجوانب في الحادث أو الخبر ، وليقيموا أركانه جَميعًا على أسس وطيدة »[1] .

وقد سار بنفس هذا المَنْهَج في تفسيره من حيث جمع الروايات المتعلقة بالموضوع الواحد ، إلا أَنَّهُ في التفسير كان أكثر نقدًا وتعليقًا على الروايات ، و « لم ينقل من تفسير غير موثوق به ، ولم يستمد شَيْئًا من كتاب مُحَمَّد بن السائب الكلبي ، ولا من كتاب مقاتل بن سليمان ، ولا مُحَمَّد بن عمر الواقدي ؛ لأنهم في رأيه أظِنّاء »[1] .

ولا يظننَّ أحدٌ أَنَّ الإمام الطَّبَرِيّ نسيج وحده في مجال الدراسة التاريخية ، وأَنَّهُ ابتدع هذا المَنْهَج من نفسه ، بل الصحيح أَنَّهُ سار على ما هو مقرر في علم أصول الحديث : « **أنَّ من أسند إليكَ فقد حمَّلَك** » ، قال د. مُحَمَّد حسين الذهبي : « ثم إِنَّ ابن جرير وإن التزم في تفسيره ذكر الروايات بأسانيدها ؛ إلا أَنَّهُ في الأعم الأغلب لا يتعقب الأسانيد بتصحيح ولا تضعيف ؛ لِأَنَّهُ كان يرى ـ كما هو مقرر في أصول الحديث ـ أَنَّ من أسند إليك فقد حمَّلَك البحث عن رجال السند ، ومعرفة مبلغهم من العدالة أو الجرح ، فهو بعمله هذا قد خرج من العهدة »[2] .

ما كان أغنى د. حسين مؤنس عن تلك الشتائم والألفاظ التي رمى بها الإمام الجليل الطَّبَرِيّ ، تلك الشتائم التي لا تصح أَنْ تخرج من إنسان عادي فضلا عن عالم كبير لو أَنَّهُ أَلَمَّ بمنهج المحدثين وطريقتهم .

إِنَّ ما ضربناه من مثل هنا للتدليل على خطورة إهمال علم الحديث يجعلنا نؤكد أهمية هذا العِلْم الجليل لمن يريد أن يفهم الإسلام ، خاصة الباحث الذي يبحث في العلوم النقلية ، ويضع بين يديه الأدوات اللازمة لفحص الرواية ؛ فليس كل رواية تُقرَأ تكون مقبولة ، ولا كل رواية يمكن أَنْ يُبنَى عليها من الآراء الفكرية ما يبنى ؛ فالاستنباط من الرواية والاستدلال بها فرعٌ عن صحتها .

---

(١) البحث الأدبي ، ص ٢٦٠

(١) ياقوت الحموي : مُعْجَم الأدباء ، ٦/ ٢٤٥٤

(٢) التفسير والمفسرون ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، (بدون تاريخ للطبعة) ، ١/ ٢٠٨

إِنَّ هذا العِلْم يجعلنا نردد مع شيخنا الشيخ محمود شاكر قوله : « ولا بد لمن يريد أَنْ ينقد ناقدًا أو يكتب فيها يتناول الروايات والأخبار ، أَنْ يتحقق بدءًا بمعرفة الأصول في علم الرواية ، وَأَنْ يستيقن من قدرته على ضبط الفكرة حَتَّى لا تنتشر عليه وتتفرق ، ويقع فيها الاختلاف والتضارب والمناقضة ... فالأخبار جميعًا تحتمل الصدق والكذب كما يقولون . ومعنى ذلك أَنَّها على حالة من البراءة الأولى لا توصف بصدق ولا بكذب . ولا يستحق الخبر صفة الصدق إلا بالدليل الذي يدل على صدقه ؛ فإذا لم تجد الدليل على صدقه ذهبت عنه صفةُ الصدق وبقي موقوفًا ؛ فإذا اعترضته الشبهات من قِبَل روايته أو من قِبَل درايته ، مالت به الشبهة إلى ترجيح الكذب فيه ؛ فلا يؤخذ به ولا يعتمد عليه ، ويكون عمل الناقد بعد ذلك أَنْ ينظر في هذا الخبر نظرة التدبر ؛ ليستخرج الحقيقة التي من أجلها تكذَّبَهُ راويه ؛ وبذلك يقع على حقائق مدفونة قد سترها الراوي بما كذب ... »[١] .

إِنَّ الباحث الذي يتخذ رواية أو روايات مدارًا لبحثه يجب أَنْ يتأكد من صحة اتصال الرواية لمن قالها ، وذلك بأن تكون سلسلة السند متصلة إلى القائل صاحب الرواية بلا انقطاع أو إعضال وَأَنْ يكون الرواة الذين رووا الرواية ثقات عدولا .

***

(٣) **تفسير القُرْآن** :

بما أننا في معرض حديث يتناول كيفية « فهم » الإِسْلام ؛ فلا بد أن يكون لنا حديثٌ عن « تفاسير القُرْآن الكريم » ؛ فلا جدال ولا مناص أن أي شخص يريد أن يعرف الإِسْلام سيتجه إلى ما « يشرح » له كتاب الإِسْلام الأول : القُرْآن الكريم.

وهنا تكمن الخطورة! لماذا ؟

لأنه إذا أسيئ توجيه الشادي لمعرفة حقائق الإِسْلام وفهمه ؛ فإن ذلك سيترتب عليه « خطأ » في فهم الإِسْلام وتصوره ، أو على أقل تقدير : سَيُكَوِّنُ صورة مشوهة عنه.

---

(١) المتنبي ، طبعة مدني ، القاهرة ، (١٩٨٧ م) ، ص ٥٣٥

ولا جدال أن كل الطوائف والاتجاهات والنزعات الإسلامية أو المنتسبة للإسلام على أيِّ نحو ، أو حتى المتسترة وراء الانتساب إليه تتعرض لتفسير القُرْآن ؛ لأنَّ كل طائفة ، وكلَّ فرقة تريد أن تدعم ما تذهب إليه ، ولا يوجد أقوى من آيات القُرْآن يؤدي هذا الغرض ، فأيُّ مبدأ أو حكم أو رأي تؤيده آيات القُرْآن يحظى على الفور بصفة استحقاق القبول من جماهير المسلمين ، كما أَنَّ الرأي الذي تعارضه آيات القُرْآن مكانه الرفض المطلق من جماهير المسلمين وعلمائهم ، والرأي الذي يعجز أصحابه عن تأييده بآية من آيات القُرْآن ، فإن في عجزهم دلالة أكيدة على بعد هذا الرأي عن روح الإِسْلام ومقرراته ، ومن ثم فإن كل الاتجاهات التي تبحث عن شاهد حاسم ، وتأييد يقيني لا يرد لآرائها ، قد سارعت إلى القُرْآن وآياته تبحث فيها عما يؤيد ما تقول به .

لأجل ذلك يجب أن نضع بين يدي الباحث والقارئ « القواعد » التي من خلالها يقف على التفسير المناسب لآيات القُرْآن .

من هذه القواعد التي نعرف بها التفسير الحق من التفسير المنحرف والضال « **الالتزام باللغة وأساليبها ، والالتزام بأسباب النزول** » ، فتفسير القرآن يجب أن يكون فيه « الالتزام بحدود ما تعطيه الألفاظ القرآنية في استعمالاتها العَرَبِيَّة ، وعدم تحميل الألفاظ فوق ما يمكن أن تتحمل بحسب وضعها اللغوي. وهذا يحتاج إلى معرفة موثقة مستوعبة للألفاظ والأساليب العَرَبِيَّة من حيث وضعها اللغوي واستعمالاتها البلاغية »[(١)] . فَالقُرْآن الكريم « كتاب عربي تجري معانيه على الاستعمالات اللغوية والبيانية العَرَبِيَّة ، وبهذا ينبغي أن يلتزم المفسر ، ومن ثم نرفض تحميل ألفاظه ما لا يمكن أن تتحمله بحكم وضعها اللغوي ، واستعمالاتها البيانية ، ونرفض هذا النوع من التأويل الباطني المدعى »[(٢)] .

(١) د.محمد بلتاجي: مدخل إلى علم التفسير، مكتبة الشباب، القاهرة، ط١ ، (٢٠٠٠م) ، ص٢٦
(٢) السابق ، ص ١٨

لذلك عندما وضع الإمام الزركشي (ت: ٧٩٤هـ) تعريفًا للتفسير ضمنه الإلمام بعلوم اللغة المختلفة ؛ فقال : « التَّفْسِيرُ عِلْمٌ يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه مُحَمَّد ﷺ وَبَيَانُ معانيه وَاسْتِخْرَاجُ أَحْكَامِهِ وَحِكَمِهِ ، وَاسْتِمْدَادُ ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه وَالْقِرَاءَاتِ ، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ وَالْمَنْسُوخِ »[(١)] .

ومن يستعرض « منهج » تفسير كبار الصَّحابَة للقرآن يجده يتضمن الاهتمام باللغة وأساليبها ، فمن ينظر في منهج عمر بن الخطاب عند تفسيره للقرآن يجد أَنَّهُ :

١ـ كان يدعو إلى ضرورة العناية بالشعر الجاهلي ؛ باعتبار أنَّ في ألفاظه واستعمالاته يكمن تفسير كثير من آيات القُرْآن وتراكيبه.

٢ـ رفضه الحاسم لكل محاولة في التفسير تتجاهل سبب النزول ، أو طريقة الأساليب العَرَبِيَّة في التعبير ، أو تقطع جملة عن سياقها العام لتأويلها بما لا يمكن قبوله بالنظر إلى السياق كله[(٢)] .

وها هو حَبْر الأمة وتُرْجُمان القُرْآن « عبد الله بن عباس » ينتهجُ في تفسيره للقرآن منهجًا معينًا يتسم بعدة سمات ، السِّمَة الأولى : « أَنَّهُ كان يُفسِّر آيات القُرْآن وألفاظه تفسيرًا لُغويًّا مُعتَمِدًا على الوضع اللغوي للألفاظ واستعمالاتها العَرَبِيَّة في الشعر وأساليب البيان العَرَبِيَّة ؛ لأن القُرْآن كما يقول ابن خلدون نزل بلغة العرب ، وعلى أساليب بلاغتهم ، فكانوا ـ على وجه العموم ـ يفهمونه ، ويعلمون معانيه في مفرداته

---

(١) البرهان في علوم القُرْآن ، ت: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، ط١ ، (١٩٥٧م) ، ١/ ١٣

(٢) د.محمد البلتاجي : مدخل إلى علم التفسير ، ص ٥٧ ، ومن بنود هذا المنهج أَيْضًا كما يوضحه أستاذنا الدكتور بلتاجي :

- النزعة العملية في تفسير آيات القرآن.
- رفض الجدل في متشابه القرآن.
- رجوعه عن بعض آرائه الاجتهادية لتفسير مستوفٍ للشروط يقتنع به من بعض الصحابة.

وتراكيبه ... ومن الطبيعي أن يلجأ ابن عباس في التعرف على معاني الألفاظ القرآنية إلى الشعر الجاهلي ، وهو ما يبدو واضحًا من كثير من الروايات التفسيرية عنه »[(١)] .

والسمة الثانية : « رجوعه إلى أسباب النزول »[(٢)] .

بناء على ما سبق فإن من يتصدى لتفسير القُرْآن أو فهمه يجب أن يكون على « علم كافٍ باللغة ، وأساليب البيان ، والقراءات ، وأصول الفقه ، وأسباب النزول وأحكام الناسخ والمنسوخ ، وعلوم ومعارف أخرى كثيرة يعرفها المختصون »[(٣)] .

وقبل المضي قُدُمًا في بقية الكلام أحبُّ أن أشير إلى أَنَّ القيد الذي وضعه العلماء لتفسير آيات القُرْآن وهو: « الالتزام بمعاني العَرَبِيَّة وأساليبها » ـ هو قيدٌ مهم جدًا ، يُقره المنطق والعقل ويقولان به ؛ وبيان ذلك أننا لو أطلقنا العنان لأي شخص أن يفسر ألفاظ القُرْآن وتراكيبها بما يشاء ، وبدون قيد ، لصرنا في « **فوضى دلالية** » ، ولأدت بنا هذه الفوضى الدلالية إلى نتائج وخيمة ؛ بل أكاد أقول : إلى كوارث ثقافية واجتماعية وقانونية وعقدية ...

إذن من خلال الضوابط السابقة يمكن للقارئ أن يقف على التفسير القرآني المناسب ، بل إذا توفرت الشروط السابقة فيمن يفسر النَّصّ القُرْآني استطاع أن يستخلص من القُرْآن الكثير من المعاني ؛ فإن « مجال القول في القُرْآن مفتوح ممتد الآفاق إلى غايات تتجاوز الإحاطة بها كل قدرة بشرية مهما بلغت من الفطنة وعمق النظرة وسعتها ، فالنص القرآني دائمًا أعظم وأكبر من أن يستوعبه الجهد البشري مهما عظم ، فمهما قيل فيه ففي آياته دائمًا متسع لقول جديد ، كما قال عنه رَسُول الله ﷺ : لا تنقضي عجائبه ، ولا يخلق عن كثرة الرد . أي لا تبلى معانيه أو تنفد مهما رددت النظر فيه . وهذا وجه آخر من وجوه إعجاز القُرْآن الكريم ، صدق التَّاريخ فيه قول

(١) د.محمد البلتاجي : مدخل إلى علم التفسير ، ص ٦٩

(٢) السابق ، ص ٧٢

(٣) السابق ، ص ٢٤

رَسُول الله ﷺ السابق ، فما من قائل في القُرْآن إلا وقد ترك مجال القول فيه بِكرًا يحتمل المزيد مهما سطر وملأ الصفحات » [١] .

ولعله مما يُفيدُ القارئَ والباحثَ أن يكونَ على ذُكْرٍ أنَّ هناك اتجاهاتٍ ومدارسَ في تفسير القُرْآن منها : اتجاه التفسير بالمأثور ، واتجاه التفسير بالرأي .

واتجاه التفسير بالمأثور نجد فيه أَنَّ المفسرين « اتجهوا إلى جمع المرويات التفسيرية عن السلف ، وضيقوا دائرة الرأي ، وكرهوا كثرة تفريع المسائل وتوليد الأفكار ، وكثرة الاستنباط العقلي من الآيات ، فهم أصحاب اتجاه « محافظ » بالنسبة لأصحاب اتجاه التفسير بالرأي الذين رأوا أنَّ آيات القُرْآن الكريم نزلت ليفهمها الناسُ ، ويستنبطوا منها بعقولهم كل ما تنتهي بهم عقولهم إلى صوابه ، ما داموا مستوفين لشروط التفسير من علم اللغة وأسباب النزول وأساليب العرب في التعبير البليغ وما يتطلبه تفسير القُرْآن من شروط » [٢] .

ويؤكد العلماء المتخصصون أَنَّهُ « ما من مفسر إلا وأخذ بشيء من الرواية ، وشيء من النظر العقلي الخاص ، إن لم يكن في تقديمه لتفاسير جديدة من نتاج نظرته الخاصه وتأمله فهو في اختياره لما يرويه من روايات ، وتوثيقه لصحة نسبتها ، وتوجيهه لصحة تأويلها ، وذلك كله فرع من الجهد والرأي . وأيضًا فإن المفسر بالرأي لا بد أن يأخذ في تفسيره بشيء مما يعتمد على الرواية والمأثور... فالمسألة ـ إذن ـ مسألة اتجاه غالب ، وليس انحيازًا لأحد الاتجاهين ، وتجاهل الاتجاه الآخر بصورة مطلقة » [١] .

والتفاسير القرآنية التي أنصح به القارئ والباحث هي التفاسير التي تُراعي القواعد التي أثبتناها سابقًا ، أو بعبارة أخرى التفاسير التي أنصح بها : **تفاسير أهل**

(١) السابق، ص ١٦١

(٢) السابق ، ص ٩٥

(١) السابق ، ص ٩٦

السنة والجماعة ، التي تراعي بشكل أساسي اللغة وأساليبها وأسباب تزولها .

وخير من يمثل هذا النوع تفسير الإمام مُحَمَّد بن جرير الطَّبَرِيّ « جامع البيان عن تأويل آي القُرْآن » .

لماذا أنصح القارئ بهذا التفسير؟ أنصحه بهذا التفسير لأمرين :

- الأول : أَنَّهُ انتزع ثناء العلماء على مدار العصور والأيام :

✓ قال شيخ الإِسْلام ابن تيمية: «...وتفسير ابن عطية وأمثاله أتبع للسنة والجماعة ... ولو ذكر كلام السلف الموجود في التفاسير المأثورة عنهم على وجهه لكان أحسنَ وأجملَ ، فَإِنَّهُ كثيرًا ما ينقل من تفسير مُحَمَّد بن جرير الطَّبَرِيّ ، **وهو من أَجَلِّ التفاسير وأعظمها قدرًا** »(١) .

✓ قال الإمام السيوطي (٩١١هـ) : « ... وبعدهم ابن جرير الطَّبَرِيّ ، **وكتابه أجل التفاسير وأعظمها** »(٢) .

✓ ونقل الإمام الذهبيُّ عن الشيخ أبو حامد الإسفراييني شيخ الشافعية قوله: « **لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل تفسير مُحَمَّد بن جرير لم يكن كثيرًا**»(٣) .

- ثانيًا : أنصح به لمنهجه الذي يتوافق مع ما أثبتناه آنفًا ، فالإمام الطبري يعتمد في بعض منهجه على :

⇦ ما رُوي عن رَسُول الله ﷺ ، ثم ما روي عن السلف من الصَّحابَة والتابعين والأئمة ، لا يخرج على ما روي في ذلك ، ولا شك أَنَّ القراءات وأسباب النزول من هذا المأثور المروي.

⇦ اعتماده ـ فيما يفسره ، ويستشهد له ـ على الشعر العربي والإلمام بطرق العرب

(١) مقدمة في أصول التفسير ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، (١٩٨٠م) ، ٣٧

(٢) الإتقان في علوم القُرْآن ، ت : مركز الدراسات القرآنية ، المملكة العَرَبِيَّة السعودية (بدون تاريخ للطبعة) ، ٦/ ٢٣٤٢

(٣) تاريخ الإِسْلام ووفيات المشاهير والأعلام ، ت: بشار عواد معروف ، دار الغرب الإسلامي بيروت ، ط١ ، (٢٠٠٣م) ، ٧/ ١٦٢

في البيان ، وأيضًا رجوعه إلى آيات أخرى من القُرْآن في سبيل بيان المراد من اللفظ الذي يفسره ، كنوع من أنواع تفسير القُرْآن بالقرآن [١] .

إذن يمكن أن نلخص منهج الإمام الطبري في تفسيره بأنه يرجع إلى اللغة ولسان العرب ، وإلى الشعر العربي ، وإلى ما يؤثر من الروايات التفسيرية عن السلف من الصَّحابَة والأئمة ، وإلى آيات أخرى من القُرْآن في سبيل بيان المقصود من اللفظ المراد تفسيره ، فهو تفسير للقرآن بالقرآن .

وكان الطبري بالإضافة إلى ذلك « يوازن بين القراءات القرآنية في الآية ؛ مما يدل على علم كبير بقراءات القُرْآن وتوجيهها ، وقد ألف الطبري كتابًا مستقلًا في القراءات ، وقد كان الطبري أَيْضًا يذكر سبب النزول ، إذا كان للآية سبب نزول ويروي الروايات المروية في ذلك ويوازن بينها » [٢] .

ومن التفاسير التي ننصح بها بعد تفسير الإمام الطبري تفسير : عماد الدِّيْن إسماعيل بن عمرو بن كثير الدمشقي الشافعي (ت: ٧٧٤هـ) ، المعروف بـ « تفسير القُرْآن العظيم » ، فهو من أهم كتب التفسير بالمأثور بعد كتاب الطبري.

ومن التفاسير التي نرشدُ إليها تفسير « مفاتيح الغيب » ، للإمام فخر الدِّيْن الرازي (٦٠٦هـ) ، وهو من « **أهل السُّنَّة** ؛ ولذا شن على أهل الزيغ والانحراف في العقيدة حربًا شعواء ، وقد سلك في تفسيره مسلك الحكماء الإلهيين ؛ فصاغ أدلته في مباحث الإلهيات على نمط استدلالاتهم العَقْلِيَّة ، **ولكن مع تهذيبها بما يوافق أصول أهل السنة** ، وكذلك تعرض لشُبَهِهِم بالنقض والتفنيد في كثير من المواضع ... **وهو من أهم كتب التفسير بالرأي ، وهو الرأي المحمود شرعًا** » [١] .

---

(١) د.محمد البلتاجي : مدخل إلى علم التفسير ، ص ١٠٦

(٢) السابق ، ص ١١١

(١) د. مُحَمَّد نبيل غنايم : دراسات في التفسير ، دار الهداية ، القاهرة ، ط٢ ، (١٩٩٢م) ، ص ٤٧ ، هذا وتفاسير الرأي كثيرة ، منها: الجلالين ، والبيضاوي ، وتفسير أبي السعود ، وتفسير النسفي.

وحضنا على اتباع تفاسير أهل السنة والجماعة يضمن لنا السلامة مما وقع فيه غيرهم من الفرق الأخرى ، خاصة في مسألة الأسماء وصفات الله ، فما عليه أئمة المسلمين : الشافعي ، وأحمد بن حنبل وغيرهم إمرار هذه الأسماء والصفات من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل . فلنقتد بالسلف في إيمانهم بالآيات كما وردت دون تأويل لها يخرجها عن ظاهرها ، كما يفعل المعتزلة ، وأيضًا دون محاولة لقياس الأمور فيها على ما يشبه الحوادث كما يفعل المشبهة والمجسمة.

هذا هو منهج السلف ، وهو الذي نقول به وندين ؛ لأن الله تعالى أعلم بما ينبغي تجاه ذاته ، وما دام قد وصف ذاته بالاستواء ، ونسب « اليد » و« العين » إليه ـ سبحانه وتعالى ـ فقد وجب علينا أن نؤمن بذلك ، كما ورد في صريح النصوص ، لكنه إيمان عام لا يتطرق إلى التفكير في الكيف والماهية ؛ لأن ذلك يند عن حدود العَقْل البشري قطعًا ، وأيضًا فإن النَّصّ القرآني الصريح في أَنَّ الله تعالى ليس كمثله شَيْء يحول بين المسلم ، وحمل ما نسب إلى الله من ذلك على ما يشابهه عند الحوادث.

- **خطورة تفاسير غير أهل السنة والجماعة :**

نصحنا القارئ والباحث الذي يريد أن يفهم الإِسْلام أن يتجه لتفاسير أهل السُّنَّة والجماعة ، وعلى رأسها تفسير الطبري ؛ وذلك لصحة المنهج الذي اتبعوه في تفسير القرآن.

وأنا هنا أنبه القارئ إلى خطورة التفاسير التي لا تتقيد بالقيود السابقة ، والتي يطلق عليها المفسرون التفاسير الباطنية ، والتفاسير الشيعية ، والتفاسير العَقْلِيَّة ، والتفاسير الإشارية، فهذه التفاسير مليئةٌ بالانحرافات والضلالات التفسيرية الكثير والكثير.

ومن أمثلة التفسيرات المرفوضة تفسيرات وتأويلات الباطنية التي نجدها عند طوائف من الشيعة الإسماعيلية والإمامية ، من مثل ما يرويه الكليني (ت:٣٢٩هـ) في تأويل قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ

ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ النور: ٣٥ ، حيث يقول : « مثل نوره كمشكاة : يعني فاطمة عليه السلام ، فيها مصباح: يعني الحَسَن ، المصباح في زجاجة : يعني الحُسين ... ويقول في تأويل قوله تعالى : ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ﴾ النور: ٤٠ ، يعني معاوية وبني أمية » [(١)] .

والتفاسير العَقْلِيَّة المقصود بها تفاسير المعتزلة ، الذين حكَّموا أصولهم في تفسير القُرْآن ، « ولقد نفر جمهور المسلمين من المعتزلة ؛ لمخالفتهم للسلف الصالح ، وتهجُّمهم عليهم ، وإيغالهم في تحكيم العَقْل في نصوص الوحي ، ومحاولتهم حمل العلماء بالقوة والسلطة الحاكمة على آرائهم، واستهانة كثير منهم بالأحاديث الصحيحة والمحدثين، وتعسفهم في تأويل آيات القُرْآن بما يتوافق مع معتقداتهم » [(٢)] .

وقد وصف تفاسيرَهم الإمامُ ابنُ قيم الجوزية (ت :٧٥١هـ) بقوله : « إِنَّهُ زُبالة الأذهان ، ونُخالة الأفكار ، وعُفارة الآراء ، ووساوس الصدور؛ فملأوا به الأوراق سَوَادًا ، والقلوب شُكوكًا، والعالم فسادًا. وكل من له مسْكَة من عقل ، يعلم أن فساد العالم وخرابه إنما نشأ من تقديم الرأي على الوحي ، والهوى على العَقْل وما استحكم هذان الأصلان الفاسدان في قلب إلا استحكم هلاكه ، و لا في أمة إلا فسد أمرها أتمَّ الفساد » [(١)] .

ومن التفاسير التي يجب أن نكون منها على حذر التفسير الإشاري ، « وهو تأويل القُرْآن بغير ظاهره ؛ لإشارة خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوف والتفسير الباطني ، وهذا النوع موضع نقد من العلماء » [(٢)] . ومثال تفسيرهم قوله تعالى :

---

(١) الأصول من الكافي ، ١/ ١٩٥ ، نقلا عن: مُحَمَّد البلتاجي ، المدخل إلى علم التفسير ، ص ١٨

(٢) د.محمد البلتاجي : مدخل إلى علم التفسير ، ص ١٥٣

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ، دار ابن الجوزي ، السعودية ، ط١ ، (١٤٢٣هـ) ، ٢/ ١٢٧

(٢) د. مُحَمَّد نبيل غنايم : دراسات في التفسير ، ص ٤٢

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ التوبة: ١٢٣ « المراد النفس »[(١)] .

وقد أشار الإمام الزركشي لهذا النوع من التفسير الصوفي بقوله : « فأما كلام الصوفية في تفسير القُرْآن فقيل: ليس تفسيرًا وإنما هي معان ومواجيد يجدونها عند التلاوة »[(٢)] .

(٤) **العلماءُ الرَّبَّانيون ومؤلفاتهم** :

من الجوانب المهمة في فهم الإِسْلام اللجوء لمن « يمثلونه حق التمثيل » ، ويعلمونه للناس مخلصين ، وأقصد باللجوء إليهم : الجلوس بين أيديهم لتلقى العِلْم عنهم ، أو اللجوء إلى مؤلفاتهم العلمية .

هنا يجب أن نتوقف ونناقش نقطتين مهمتين :

- الأولى : هل يمكن أن أسلك في فهم الإِسْلام منفردًا ، بلا مُعَلِّم ؟
- الثانية : كيف نعرف العلماء « الرَّبَّانِيِّين المُخلصين » من غيرهم؟

أما الإجابة عن السؤال الأول فأقول :

إن السير منفردًا في طريق التعلم ـ أيًّا كان هذا التعلم ـ لا يأمن معه « السالك » أن يسلك الطريق الخطأ ، ولا يعلم بأيها يبدأ وبأيها يترك. فوجود المعلم في حياة المتعلم أمر غاية في الخطورة . قال عبد الله بن مسعود : « لا يزال الناس بخير ما أخذوا العِلْم عن أكابرهم وعن أمنائهم ؛ فإذا أخذوه عن صغارهم وشرارهم هلكوا » .

ويوضح العلامة ابن خلدون(٨٠٨ هـ)هذا الأمر في « مقدمته » توضيحًا شافيًا ، فقد عقد فصلًا فيها بعنوان « فصل في أَنَّ **الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التَّعَلُّم** » ، يقول تحته :

« السبب في ذلك أَنَّ البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلونه من

(١) السابق ، ص ٤٢

(٢) البرهان في علوم القُرْآن ، ٢/ ١٧٠

المذاهب والفضائل تارة علمًا وتعليمًا وإلقاءً ، وتارة محاكاة وتلقينًا بالمباشرة ، إلا أَنَّ حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكامًا وأقوى رسوخًا . فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها ، والاصطلاحات أَيْضًا في تعليم العلوم مخلطة على المُتَعَلِّم ، حَتَّى لقد يظن كثير منهم أَنَّها جزء من العِلْم ، ولا يدفع عنه ذلك إلا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المُعَلِّمين فلقاء أهل العلوم وتعدد المشايخ يفيده تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها ؛ فيجرد العِلْم عنها ، ويَعْلَمُ أَنَّها أنحاء تعليم وطرق توصيل ، وتنهض قواه إلى الرسوخ والاستحكام في الملكات ويصحح معارفه ويميزها عن سواها ، مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتها من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم . وهذا لمن يسر الله عليه طرق العِلْم والهداية . فالرحلة لا بد منها في طلب العِلْم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال »[(١)] .

في هذا النَّصّ قسَّمَ ابن خَلْدُون « وسائل التَّعَلُّم عامة » قسمين :

- قسم يَتَمَثَّل في « العِلْم والتعليم والإلقاء » .
- وقسم يَتَمَثَّل في « المحاكاة والتلقين بالمباشرة » .

ويقرر ابن خَلْدُون أَنَّ « المَلَكَة » المتحَصِّلَة من القسم الثاني « المحاكاة والتلقين بالمباشرة » أشد استحكامًا وأقوى رسوخًا . ويوحي هذا التقسيم أَنَّ ابن خَلْدُون لا ينكر ابتداءً قدرة الإِنْسَان على التَّعَلُّم الذاتي ، ولكن هذا التَّعَلُّم الذاتي دون التَّعَلُّم عن طريق المحاكاة والتلقين المباشر ؛ أي : عن طريق المعلم. فمن خلال « المحاكاة والتلقين » تتكون في النفس « مَلَكَة » تتناسب طرديًا مع عدد « المُلَقِّنين » (الشيوخ) ، فكلما كثر عدد الشيوخ التي « تُلَقِّنُ » العِلْم أو الحرفة أو الصنعة « ثَبَتَتْ» المَلَكَة في النفس ورسخت .

ومن يتأمل تقسيم ابن خَلْدُون هنا يجده منطقيًا ومقبولًا عقلًا ، فالقسم الثاني من

(١) المقدمة ، ت : علي عبد الواحد وافي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٣/ ١١٢٠

التَّعَلُّم القائم على المحاكاة والتلقين « أصح » وأضبط وأوفر لوقت المُتَعَلِّم وجُهْده . فالشيخ ينقل علمه لطالبه ، ومع العِلْم ينقل « خبرته » في هذا العِلْم أو ذلك الفن . تلك الخبرة التي قد تأخذ من الطالب السنوات العديدة ليحَصِّلَها ، تلك الخبرة يأخذها الطالب في أيام معدودة بل ساعات قلائل ؛ وبذلك يوفر لقاء المشايخ على الطالب الوقت والجهد ، وهناك من الفوائد ما قد ينقضي العمر بكامله ولا يتمكن الطالب من تحصيلها .

وليس لقاء المشايخ والعلماء وسيلة لترسيخ العِلْم وإحكامه في نفس طالب العِلْم / الباحث فحسب ، بل فيه من الفوائد أَيْضًا كما قال ابن خَلْدُون :

- ضبط مصطلحات العلوم .
- وتصحيح المعارف .
- والتطبع بخلق العلماء من صبر وهمة وتقوى لله وإخلاص له .

وإشارة ابن خَلْدُون لقضية « المصطلحات » ، وخطورة « فهم » مصطلحات كل فن على وجهها الصحيح ، وتمييزها عن بعضها ، وبيان طرق كل عالم في مصطلحاته أمر غاية في الأهمية ، فقد وضع ابن خَلْدُون أيدينا على ركن ركين ومحوري من أركان التعلم ينبغي للقارئ وعيه والاهتمام به ، وهو ركن تحرير المصطلحات العِلْمِيَّة ، وبيانها ، وتحديد المقصود بها بدقة ، فهذا أمر خطير للتعلم والحقيقة العِلْمِيَّة ، فقد يستخدم عالم مصطلحًا بمعنى معين ، ويستخدمه عالم آخر بمعنى قد يختلف قليلا أو كَثِيرًا عن معنى العالم الأول .

والفائدة التي تترتب على الوقوف الدقيق على دلالة المصطلحات ـ كما يقول ابن خَلْدُون في الاقتباس السابق ـ « تَجَرُّد العِلْم عنها » . ولعله يقصد بهذه العبارة : أن طالب العِلْم إذا فهم مصطلحات العِلْم الذي يتعلمه بشكل دقيق وواضح فَإِنَّ « تصوره لمفردات العِلْم » ، و « تصديقه لمسائله » سيتكون في ذهنه بشكل صحيح صائب ، وهذا التصور الصحيح لمفردات العِلْم ، والتصديق الصائب لمسائله مدعاة لإقبال الطالب على العِلْم والتعمق فيه ، وزيادة تمكنه منه .

وإشارته أن من فوائد اللقاء تصحيح « المعارف» يشير إلى خطورة التعلم الذاتي وما قد يقع فيه طالب العِلْم من أخطاء دون أن يشعر ؛ لذلك قال بعض العلماء في هذا شعرًا:

مَن يأخذ العِلْـم عـن شـيخ مشـافهة — يكن عن الزيغ والتـصحيف في حَـرَم

ومن يكن آخذًا للعـــلم من صـحف — فعلـمه عند أهـل العِلْـم كالـــــعدم

إذا لم يكن للقاء العلماء وجها لوجه إلا فوائد : ضبط مصطلحات العِلْم ، وتصحيح المعارف ، والتطبع بخلق العلماء لكفت ، ولدَلَّ هذا دلالة قاطعة ما بعدها دلالة على أهمية لقاء العلماء وجها لوجه .

ومن خلال فهمنا لكلام ابن خَلْدُون ، وما قلناه قبله ، يَتَبَيَّن لنا فشل ما يسمى في عصرنا هذا بـ « التعليم عن بعد » ، الذي يتم من خلال شبكة المعلومات الدولية ، ويتضح لنا مدى عبث هذا الأمر ، فالتعلم عبر شاشة الحاسوب شَيْء ، ولقاء العلماء وجها لوجه شَيْء آخر ، فشتان بين هذا وذاك . إنَّ مخالطة طالب العِلْم لأستاذه وجها لوجه ، وتلقيه عنه شفاهة ، وتعلمه العِلْم والخبرة مباشرة يجعله أثبت قدما ، وأرسخ علما في مجال بحثه ومن خلال هذا اللقاء وبهذا التَّعَلُّم تستوي شخصية الباحث على سوقها .

ومن يتأمل تراجم علمائنا في أي كتاب من كتب التراجم يجد مصداق مقولة ابن خَلْدُون ، فما من عالم معتبر إلا وفي ثَبْت ترجمته عشرات الشيوخ بل المئات . ولنأخذ على سبيل المثال تَرْجَمَة شيخ الإِسْلام ابن حجر العسقلاني . يقول الإمام السخاوي (ت : ٩٠٢ هـ) في ترجمته عن الإمام ابن حجر (ت ٨٥٢ هـ) بعد أَنَّ صنف شيوخه في ثلاثة أقسام مختلفة : « فجملة الأقسام الثلاثة ستمائة نفس وأربعة وأربعون نفسًا »(١) .

ومن العلماء من لم يكتفِ بالشيوخ من الرجال بل تعداهم إلى « الشيخات » من النساء . فالإمام السيوطي (٩١١ هـ) مثلا يذكر في كتابه « طبقات الحفاظ » عن الإمام الكبير « ابن عساكر » (ت ٥٧١ هـ) أَنَّ عدد شيوخه « ألف وثلاثمائة شيخ ونيف وثمانون امرأة »(٢) . والإمام السيوطي نفسه « لم يقتصر تلقيه على الشيوخ من

(١) الجواهر والدرر في تَرْجَمَة شيخ الإِسْلام ابن حجر ، ت : إبراهيم باجس ، دار ابن حزم ، بيروت ، ط١ ، (١٩٩٩ م) ، ١/ ٢٤٠

(٢) السيوطي : طبقات الحفاظ ، دار الكتب العِلْمِيَّة ، بيروت ، ط١ ، (١٤٠٣هـ) ، ص ٤٧٥

العلماء الرجال ، بل كانت له شيخات من النساء اللاتي بلغن الغاية في العِلْم وعلو الكعب في إسناد الحديث من أمثال :

- آسية بنت جار الله بن صالح الشيباني الطبري ، مُحَدِّثة ولدت بمكة ...
- كمالية بنت مُحَمَّد الهاشمية المكية ...
- أم هانئ بنت أبي الحسن الهرويني ... »[1] .

الاتِّجَاهُ إِلَى أَفْضَلِ العُلَمَاءِ:

مما يساعد على التكوين الجيد للباحث وَأَنْ يكون أثبت قدمًا لا يُشَق له غبار أَنْ يَتَلَقَّى علمه على أفضل العلماء في تخصصهم ، وَأَنْ يتلقن الفن الذي يريد أَنْ يتعلمه على يد أربابه الذين به عُرِفُوا واشْتُهِرُوا ، والذين أحاطوا به خُبْرًا ، وقتلوه علمًا ، وسبروا أغواره ، وأحاطوا بجملته وتفاصيله ، وعرفوا دقائقه وتفاريقه .

والحث على طلب الأفضل عامة في أي أمر من الأمور أمرٌ حثَّتْ عليه السُّنَّة ؛ ففي موطأ الإمام مالك عن زيد بن أسلم أَنَّ رجلا في زمان رَسُول الله ﷺ أصابه جُرح ؛ فاحتقن الجرحُ الدمَ ، وَأَنَّ الرجل دعا رجلين من بني أنمار فنظرا إليه ؛ فزعما أَنَّ رَسُول الله ﷺ قال لهما : « أَيُّكُما أطب؟ » فقالا : « أو في الطب خير يا رَسُول ؟! » ، فزعم زيد أَنَّ رَسُول الله ﷺ قال : « أنزل الدواء الذي أنزل الأدواء »[1] . وعلَّق ابن القيم على هذا الحديث بقوله : « ففي هذا الحديث أَنَّهُ ينبغي الاستعانة في كل علم وصناعة بأحذق من فيها فالأحذق ، فَإِنَّهُ إلى الإصابة أقرب . وهكذا يجب على المستفتِي أَنْ يستعين على ما نزل به بالأعلم فالأعلم ؛ لِأَنَّهُ أقرب إصابة فمن هو دونه»[2] . ففي كل علم وصناعة يجب الاستعانة بالأحذق ، والسبب : لِأَنَّهُ إلى الإصابة أقرب .

وفي مجال العِلْم لم يفت أعلام أمتنا التنبيه على أمر كهذا ؛ فنصوا عليه ، أي : نصوا على وجوب الاتجاه إلى من هو أعلم وأبرز في مجاله ، يقول الصحابيُّ الجليل

---

(١) عبد الحفيظ فرغلي القرني : الحافظ جلال الدِّيْن السيوطي إمام المجتهدين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ سلسلة أعلام العرب العدد ١٣٧ ، القاهرة ، ط ، (١٩٩٠م) ، ص٤١ ، ٤٢

(١) موطأ الإمام مالك، ت:محمد فؤاد عبد الباقي،دار إحياء التراث العربي، بيروت،(١٩٨٥م) ٢/ ٩٤٣

(٢) زاد المعاد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٢٧ ، (١٩٩٤م) ، ٤/ ١٢١

عبد الله بن مَسْعُودٍ ـ رضي الله عنه ـ : « **لا يزال الناس بِخَيْرٍ ما أخذوا العِلْم من أَكَابِرِهِمْ ، فإذا أخذوه عن أَصَاغِرِهِمْ وَشِرَارِهِمْ هَلَكُوا** »(١) .

وأنقل هنا نصًا مُهِمًّا جدًا لإمام من أئمة الإِسْلام الإمام الزمخشري (٥٣٨ هـ) إذ يقول في هذا المعنى :

« على كل آخذ علمًا ألا يأخذه إلا مِن أقتل أهله علمًا وأنحرهم دراية ، وأغوصهم على لطائفه وحقائقه ، وإن احتاج إلى أَنْ يضرب إليه أكباد الإبل ، فكم من آخذٍ من غير متقنٍ قد ضيَّع أيامه ، وعَضَّ عند لقاء النحارير أنامله »(٢) .

ويكاد هذا الأمر أن يكون مما تعارف عليه الناس ، وألفوه في حياتهم ، يظهر ذلك مثلا فيما صكَّتْه العَرَبِيَّة من « أمثال » ، مثل: « أهل مكة أدرى بشعابها » و « صاحب الدار أدرى بما فيها » .

والسبب الذي يفسر لماذا يجب الاتجاه لمن ملك ناصية فنه ، وصناعته أَنَّ صاحب الفن أو الصنعة قد خَبَرَها ، وعرف كل تفاصيلها وعرف خَبْأَها ، وألم بكل دقائقها ، يعرف ما الذي يجب تعلمه أَوْلًا من مسائل العِلْم ، وما الذي يأتي تاليا ، وماهي « الأصول » التي يجب أن يتعلمها الطالب في هذا العِلْم ، فلكل علم أصوله.

ولعل اهتمام العلماء المحققون بفكرة « الاتجاة نحو أفضل العلماء » عند تلقي العِلْم أحد أسباب اهتمامهم بكتابة التراجم ، وشيوع كتب الطبقات وكتب الجرح والتعديل التي تهتم بذكر حياة المشتغلين بمسائل العِلْم ، وبيان حالهم للناس ، حَتَّى يكونوا منهم على بينة .

ومما يرتبط بفكرة « اتجاه الباحث أو القارئ أو المتعلم نحو الأفضل » هنا أَيْضًا ألا يخلط الباحث بين ما هو أصيل في تخصصه وما هو فرعي وليس من صميمه ، فلا يجوز مثلا في مجال دراسة السُّنَّة النبوية وأحاديثها الاعتماد على كتب الأدب التي

(١) الشاطبي: الاعتصام ، ت : مشهور بن حسن آل سليمان ، مكتبة التوحيد(بدون بيانات أخرى) ، ٣/ ١٣١

(٢) الكَشَّاف ، ٢/ ٨

ألفت في الأساس لأجل الامتاع الأدبي ، مثل : الشعر والشعراء ، والأغاني ، ونهاية الأرب وغيرها . ويعد عيبًا في الباحث والمتعلم وقدحًا في مهارته البحثية ، وذمًّا لمنهجه إذا لم يلجأ إلى الأفضل في مجاله ؛ لأن ذلك قد يؤدي إلى خلل فيما يتعلمه . ويحضرني هنا مثال على ذلك لفضيلة الدكتور مُحَمَّد أبو شهبة ، فقد ألف فضيلته كتابا بعنوان « دفاع عن السُّنَّة » ردَّ فيه شُبَهَ بعض المستشرقين والكُتَّاب المعاصرين في السنة ، ومن هؤلاء الكُتَّاب الذين رد عليهم كاتبٌ يسمى « محمود أبو رية » الذي ألف كتابا بعنوان « أضواء على السُّنَّة المحمدية » ، جمع فيه مؤلفه بين الغث والثمين ، وخلط فيه الحابل بالنابل ، وكان من المآخذ التي أخذها د. مُحَمَّد أبو شهبة على هذا المؤلِّف خلطه في مصادره بين ما هو أصيل وما هو ليس كذلك ، وقدَّم بين يديِّ هذه الردود قوله : « وإني لأهتبل هذه الفرصة لأُبيِّنَ للباحثين ، وأُنبِّهَ المسلمين إلى أَنَّ كتب الأدب والتاريخ والمواعظ ونحوها مشتملة على الكثير من الإسرائيليات والأحاديث المكذوبة التي هي دخيلة على الإِسْلام »(١) . ومن ردود د. مُحَمَّد أبو شهبة على هذا المؤلِّف قوله : « ولا أدري كيف غاب عنه أَنَّ كتب الأدب والتواريخ ونحوها تجمع بين الغث والثمين ، والمقبول والمردود ، فكيف يعتمد عليها فيما ينقل ؟ ! ألا إِنَّ المُعَوَّلَ عليه في السُّنَّة هي كتب الحديث المعتمدة التي تبرز الأسانيد ، أو تعزو الأحاديث ، وتميز بين الصحيح والضعيف والمقبول والمردود »(٢) . ويقول في موضع ثانٍ : « كيف خفي عليه ما قرره الأئمة المحدثون من أَنَّ المرويات لا يعتمد في الوثوق بها وقبولها على كتب الأدب والتواريخ ؟! إذ فيها زيف كثير وغث غير قليل . وإن الحديث لا يؤخذ إلا من كتب الأئمة الثقات الذين يُرجَع إليهم في معرفة الصحيح من الضعيف والمقبول من المردود . ومن قواعدهم التي وضعوها : من روى حديثًا فعليه أَنْ يبرز سنده أو ينسبه إلى من خرجه ، وإلا فليس له أَنْ ينسبه إلى

(١) دفاع عن السُّنَّة ، ص ١١٤

(٢) السابق ، ص٩٥

رَسُول الله ﷺ بصيغة الجزم إلا إذا تحقق من صحته أو حسنه »[١] .

في هذين الاقتباسين يَنْحى الدكتور مُحَمَّد باللائمة على مؤلف كتاب « أضواء على السنة المحمدية » ، الذي ترك المصادر الحديثية المعتمدة ، ذات الأفضلية والأولى بالاتجاه إليها ، واتجه إلى مصادر ثانوية في المجال الذي يَتَحَدَّث عنه ؛ مما أدَّى إلى اضطراب في البحث ، ونتائج غير مقبولة .

- **أشكال الرجوع إلى أفضل العلماء :**

ننتقل هنا إلى الحديث عن أشكال الرجوع إلى الأفضل . وأقصد بهذا العنوان أَنَّ هناك أنواعًا من الاتجاه إلى أفضل العلماء ، وبمعنى آخر: أَنَّ الرجوع إلى أفضل العلماء قد يأخذ الأشكال الآتية :

- ✓ اللجوء إلى أفضل العلماء ، ويمكن معرفة ذلك بسؤال أهل الخبرة ، وكتب التراجم.
- ✓ وقد يَتَمَثَّل الرجوع إلى أفضل العلماء في الاتجاه إلى أفضل المؤلفات العِلْمِيَّة في مجال التَّخَصُّص .
- ✓ وقد يَتَمَثَّل الرجوع إلى أفضل العلماء في الاتجاه إلى الطبعات الأخيرة من المؤلفات العِلْمِيَّة ، فكثير من المؤلفين يراجعون وينقحون كَثِيرًا من مؤلفاتهم العِلْمِيَّة ، بل قد يَرجِعُون عما قالوه في طبعات كتبهم الأولى ؛ فتكون الطبعة المتأخرة معدلة ومنقحة وبها إضافات جديدة أو حذفت أجزاء منها ، وفي بعض الأحيان نجد كَثِيرًا من العلماء يغيرون اتجاههم الفكري كلية ، ويندمون ـ أو على الأقل يتراجعون ـ عن كثير مما سطروه في بداية حياتهم العِلْمِيَّة والفكرية . ويشير إلى هذه الفكرة شيخ من شيوخ المحققين للتراث العربي د. عبد السلام هارون قائلًا : « ... على أن بعض المؤلفين تتفاوت أقدارهم العِلْمِيَّة وتختلف اختلافًا ظاهرًا بتفاوت أعمارهم ، وباختلاف ضروب التأليف التي يعالجونها ، فنجد المؤلف الواحد يكتب في صدر شبابه كتابًا ضعيفًا ؛ فإذا علت به السن وجدت بَونًا شاسعًا بين يوميه . وهو كذلك يكتب في فن من الفنون قويًّا متقنًا ،

(١) السابق ، ص ١١٤

على حين يكتب في غيره وهو من الضعف على حال »[1] .

فالأفضل للباحث حينئذ الرجوع إلى الطبعات الأخيرة للمؤلفات العِلْمِيَّة إِنْ أمكن ، فالعلماء الحقيقيون دائما ما يراجعون أبحاثهم ، وينقحونها كلما صهرتهم التجربة والخبرات ، فما يكتبه العلماء في بداية حياتهم غير ما يكتبونه في خواتيمها .

- ✓ وقد تكون الأفضلية في الرجوع إلى أفضل « تَرْجَمَة » للمُؤَلَّف العِلْمِيّ ، فقد يتصادف أَنْ يُترجَم كتابٌ واحد ترجمتين ، إحداهما أفضل من الأخرى لخبرة من قام بالترجمة وباعه الطويل فيها ، ونضرب مثالا على ذلك ، فقد ألف الأستاذ إدوارد سعيد (ت: ٢٠٠٣م) كتابًا مُهِمًّا للغاية باللغة الإنجليزية عنوانه « الاستشراق » ، وتُرْجِم هذا الكتاب إلى العَرَبِيَّة ترجمتين : تَرْجَمَة د. كمال أبو الديب ، وهي تَرْجَمَة رديئة ، من يطلع عليها لا يفهم منها شَيْئًا ، وتَرْجَمَة أخرى لأستاذنا الدكتور مُحَمَّد عبد الله عنان وهي تَرْجَمَة قيمة استطاعت أَنْ تُبين بوضوح مضمون الكتاب .
- ✓ وقد تكون الأفضلية بالرجوع إلى أفضل « تحقيق علمي » ، فقد يصادف أَنْ يكون للكتاب الواحد تحقيقان ، أحدهما أجود من الآخر . ومثال ذلك ما وقع من تحقيق كتاب « أسرار البَلاغَة » لإمام البَلاغَة عبد القاهر الجرجاني ، حيث نجد أن للكتاب أكثر من تحقيق ، من أفضلها تحقيق شيخنا العلامة محمود شاكر رَحِمَهُ اللهُ الذي حقق المتن وضبطه ، وقام بتخريج الشواهد وشرحها ، وقام أَيْضًا بتحقيق كتاب « دلائل الإِعْجَاز » ؛ ففاق بتحقيقه تحقيق غيره .
- ✓ وقد تكون الأفضلية في الرجوع إلى مؤلفات متأخري أهل الفن على متقدميهم ، فمن يؤلف في فن ما من المتأخرين يكون تحت ناظريه مؤلفات من سبقه ، وتكون أصول هذا الفن قد استقرت ، وقد يستدرك المتأخرون على السابقين كَثِيرًا من المسائل ، بل قد يُصَوِّبُون ما قد يقعون فيه من أخطاء .

(١) تحقيق النصوص ونشرها ، ص ٤٥ ـ ٤٦

ويجب ألا يفوتنا ـ عند حديثنا عن أهمية الاتجاه إلى أفضل العلماء في تكوين الباحث والمتعلم ـ أن نوجه عنايته إلى كيفية التعامل مع العلماء عند التعلم على أيديهم وتلقي العِلْم عنهم ، وهو أمر لم يغب عن سلفنا الصالح . فهذا السلف المبارك لم يعلمنا كيف نتحمل وعثاء السفر ، ووعورة الطريق فقط ، بل علمونا أَيْضًا كيف يكون التعامل مع العلماء ، وتنقل لنا الروايات كم كان طلاب العِلْم في قمة التوقير والتجلة للمشايخ والعلماء ، وتعظيمهم ورفع شأنهم .

- نقرأ في كتاب « فيض القدير شرح الجامع الصغير » عند شرح الأثر رقْم (٣٣٢٢) الذي يقول : « تعلموا العِلْم ، وتعلموا للعلم السكينة والوقار ، وتواضعوا لمن تعلمون منه» قولَ المُنَاوي (١٠٣١هـ) : « إنَّ العِلْم لا ينال إلا بالتواضع ، وإلقاء السمع ، وتواضع الطالب لشيخه رفعة وذلة » .
- ونقل أَيْضًا عن عدد من الأئمة قوله : « قال السليمي : ما كان إنسان يجترئ على ابن المسيب ليسأله حَتَّى يستأذنه كما يستأذن الأمير .
- وقال الشَّافِعِيّ: كنت أصفح الورق بين يدي مالك برفق لئلا يَسْمَع وقعها .
- وقال الربيع : والله ما اجترأت أَنْ أشرب الماء والشافعي ينظر »[١] .
- ومما يذكر عن الشَّعْبِيِّ أَنَّهُ قال « ركب زيد بن ثابت ، فأخذ ابن عباس بركابه فقال : لا تفعل يابن عم رَسُول الله ﷺ . قال : هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا . فقال له زيد : أرني يديك فأخرج يديه ، فقبلها ، وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا »[٢] .
- وعند تفسير الإمام الزمخشري لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ الحجرات: ٤ قال : « ومن هذا وأمثاله يقتطف ثمر الألباب ، وتقتبس محاسن الآداب ، كما يحكى عن أبى عبيدة ـ ومكانه

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ، دار المعرفة ، بيروت ، ط ٢ ، (١٩٧٢م) ، ٣/ ٢٥٣

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، ت : عبد الله بن عبد المحسن التركي ، دار هجر للطباعة والنشر ، ط١ ، ٢٠٠٣م ، ١٢/ ٩٤ ، وانظر هذه القصة أَيْضًا في : جامع بيان العِلْم وفضله للقرطبي ، والشفا بتعريف حقوق المصطفى ، للفضيل بن عياض .

من العِلْم والزهد وثقة الرواية ما لا يخفى ـ أَنَّهُ قال : ما دققت بابًا على عالم قط حتى يخرج في وقت خروجه »(١) .

*****

أما السؤال الثاني : كيف نعرف العلماء الربانيين المخلصين ؟

هذا سؤال أحسبه قد يرد على ذهن القارئ ، فكيف نعرف « المخلص » ممن لا هَمَّ لهم سوى مطامع الدُّنْيا ، وإرضاء السلطان. ومَن يثير هذا السؤال فهو على حق ؛ فعلماء السوء وعلماء السلطان ، وعلماء الدُّنْيا والمناصب موجودن في كل زمان ومكان ، وقد رأينا في حياتنا بعضًا منهم ، كنا نحضر مجالس علمهم ، ونسمع خطبهم الرنانة ، ولكن في وقت الشدة ، وانقلاب الريح تغيرت وجهتم ، وأنكروا المبادئ التي كانوا يعلموننا إياها ، وألحوا عليها أزمانًا ـ إلا من رحم ربي ـ ، ولا يسمح المقام بذكر أسماء هنا ، فهم ـ الآن ـ أقل من أن نذكرهم.

وأجيب عن هذا السؤال بطريقتين :

أولا : « اعرف الحق تعرف أهله » ؛ فالرجال يُعرفون بالحق ، ولا يعرف الحق بالرجال ، فالمعيار الذي نلجأ إليه لمعرفة هؤلاء العلماء الربانيين المخلصين هو معيار الحق ، **وهذا الحق نستقيه من الكتاب والسنة** .

ثانيًا : قراءة تراجم العلماء ، فمن الأمور التي أرى ـ من وجهة نظري ـ أَنَّها تساهم في الإجابة عن السؤال السابق قراءة تراجم العلماء .

إن قراءة تراجم العلماء مصدر مهم للتعرف على العلماء الصادقين الربانيين ، فعندما نجد أَنَّ **التراجمات تجتمع على إجلال عالم ورفع مقامه وقبول الناس وحبهم له ؛ فتلك علامة على صدقه وربانيته** ، ودليل ذلك قول نبينا ﷺ فيما يرويه عنه أبو هريرة : « إن الله، إذا أحب عبدًا دعا جبريل فقال : إني أحب فلانًا فأحبه. قال: فيحبه جبريل. ثم ينادي في السَّماء فيقول: إنَّ الله يحب فلانا فأحبوه. فيحبه أهل السماء. قال: **ثم يوضع له القبول في الأرض**. وإذا أبغض عبدًا دعا جبريل فيقول: إنِّي أبغض فلانًا فأبغضه.

(١) الزمخشري : الكَشَّاف ، ٤/ ٢٤٨

قال: فيبغضه جبريل. ثم ينادي في أهل السماء: إنَّ الله يبغض فلانًا فأبغضوه. قال: فيبغضونه. ثم توضع له البغضاء في الأرض». وقد روى هذا الحديث الإمام مسلم وغيره ، ووضعه تحت عنوان : « **باب إذا أحبَّ الله عبدًا ، حبَّبَه إلى عبادِه** » .

وبعد أن تعرف العلماء الربانيين المخلصين **فعليك بمؤلفاتهم** .

والأمة بحمد الله ملأى بالعلماء الربانيين قديمًا وحديثًا ، واختيار نماذج منهم لعرضها أمر في غاية الصعوبة ، فمَن نختار ومن ندع؟

ولكن على كل حال سأختار أربع شخصيات أرشحها للقارئ : اثنين من القدماء واثنين من المحدثين ، وأنصحه بقراءة مؤلفاتهم العِلْمِيَّة .

الشخصيتان اللتان أرشحهما من القدماء : شيخ الإِسْلام ابْن تَيْمِيَّة ، والإمام ابن قيم الجوزية ، والشخصيتان المحدثتان : الشيخ مُحَمَّد الغزالي ، والدكتور مُحَمَّد عمارة .

⇦ **شيخ الإِسْلام ابْن تَيْمِيَّة ومؤلفاته** :

ولد أحمد بن عبد الحليم بن تَيْمِيَّة في عاشر ربيع الأول سنة ٦٦١هـ بحران ، وأنبته الله نباتًا حسنًا ؛ فعاش بها بضع سنين في كنف أبيه وتحت رعايته ، ثم انتقل أبوه به وبأخويه إلى دمشق سنة ٦٦٧ هـ عند قدوم التتار إلى الشام .

وفي دمشق ـ إحدى مدائن العلوم الكبيرة في ذلك الزمان ـ نشأ أحمد وترعرع ، ثم درس ونضج حتى بلغ أشده ، وأتاه الله العِلْم والحكمة ، وصار طودًا من الأطواد وصوة من صوى العِلْم ، وأحد الأئمة الأعلام ، ومن كبار شيوخ الإِسْلام الذين خُلِّدوا على مَرِّ الزمان بفضل ما قاموا به من جلائل الأعمال ، وما خلفوه لنا من عظيم الآثار.

وتوافرت له كل عوامل التفوق والنبوغ ومؤهلاته . أخذ « في الدرس وطلب العِلْم ، وعاش متبتلًا له طول حياته ؛ حتى بلغ منه الغاية ، وبزَّ معاصريه وشآهم ، وجاوز أقدارهم جميعًا ، كل ذلك في عِفَّة وتدين ومروءة وأخلاق فاضلة مرضية ،

تحدث بها الجميع ، وقول للحق في قوة حتى لا يخاف في لومة لائم »[(١)] .

يقول عنه الإمام شمس الدِّيْن الذهبي (ت: ٧٤٨هـ) : « ابْن تَيْمِيَّة الشيخ الإمام العلامة الحافظ الناقد الفقيه المجتهد المفسر البارع شيخ الإِسْلام علم الزهاد نادرة العصر ... وعني بالحديث ونسخ الأجزاء **ودار على الشيوخ** ، وخرج وانتقى وبرع في الرجال وعلل الحديث وفقهه ، وفي علوم الإِسْلام وعلم الكلام وغير ذلك. وكان من بحور العِلْم ومن الأذكياء المعدودين والزهاد الأفراد والشجعان الكبار والكرماء الأجواد، أثنى عليه الموافق والمخالف ، وسارت بتصانيفه الركبان لعلها ثلاثمائة مجلد »[(٢)] .

وقال عنه في موضع آخر : « فريد العصر علمًا ومعرفة وذكاء وحفظًا وكرمًا وزهدًا وفرط شجاعة ، وكثرة تآليف ، والله يصلحه ويسدده، فلسنا بحمد الله ممن نغلو فيه ولا نجفو عنه ، ما رئي كاملًا مثل أئمة التابعين وتابعيهم ، **فما رأيته إلا ببطن كتاب** ... ولم يخلف بعده مثله في العِلْم ، ولا من يقاربه »[(١)] .

اجمتعت القلوب على محبة ابْن تَيْمِيَّة ، ومن يقلب في كتب التراجم يجد هذه العبارة تتكرر مرارًا : « وجمع قلوب أهل التقوى على محبته ، والدعاء له ، وكبت أعدائه ، وهدى به رجالًا من أهل الملل والنحلل » . وتتناقل كتب التراجم قول إمام الجرح والتعديل الحافظ المِزِّي في ابْن تَيْمِيَّة : « ما رأيت مثله ، ولا رأى هو مثل نفسه، وما رأيت أحدًا أعلم بكتاب الله وسُنة رَسُول الله ولا أتبع لهما منه » .

هكذا كان الشيخ العظيم فذًا في عصره ، وإمامًا يُقتدَى به في حياته ، وبعد مماته ونجمًا متألقًا ، لم يعتره أفول منذ ولد حتى اليوم ، لم يُرَ في عصره مثله ، ولم يرَ هو

---

(١) د. مُحَمَّد يوسف موسى : ابْن تَيْمِيَّة ، سلسلة أعلام العرب ، ع ٥ ، وزارة الثقافة ، القاهرة ، (بدون تاريخ للطبعة) ، ص ٧٠

(٢) تذكرة الحفاظ ، دار الكتب العِلْمِيَّة ، بيروت ، ط١ ، (١٩٩٨م) ، ٤/ ١٩٢

(١) مُعْجَم الشيوخ الكبير، ت: مُحَمَّد الحبيب، مكتبة الصديق، السعودية، ط١، (١٩٨٨م) ، ١/ ٥٦

أحدًا مثل نفسه ، وكان بحرًا زخارًا بالعلم ، ارتوى منه معاصروه ، ويرتوي الناس منه في كل جيل وزمان ومكان.

ومؤلفات شيخ الإِسْلام ابن تَيْمِيَّة ـ كما يقول الأستاذ الدكتور بشار عواد معروف ـ نافت على الألف . صاغها بأسلوب أدبي رشيق ، وكلمات تشد القارئ ، مع قوة المعاني وجلالها ، مما يجعل الكثير منها يعلق بالذهن ، ومنها على سبيل المثال :

* « إن الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت ظالمة ، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة » .
* « الدُّنْيا تدوم مع العدل والكفر ، ولا تدوم مع الظلم والإسلام » .
* « الخير كله ، أصله وفصله ، منحصر في العِلْم والإيمان » .
* « إذا أراد الله أن يتوب على عبد ألهمه أن يتوب ؛ فيتوب عليه » .

⇦ **الإمام ابن قيم الجوزية (٦٩١هـ ـ ٧٥١هـ) ومؤلفاته :**

الإمام ابن قيم الجوزية هو ـ كما قال الشيخ العلامة المحقق عبد الفتاح أبو غُدة [(١)] ـ الإمام المحقق البارع المُتقن المُتَفنن ، ذو الذهن الوقاد ، والقريحة السيالة ، والقلم العَذبِ البليغ المطواع ، والبيان المُشرق الحي الأَخَّاذ ، والروحانية الفياضة ؛ الشيخ شمس الدِّيْن أبو عبد الله مُحَمَّد بن أبي بكر بن أيوب الزُّرَعِيُّ ، المشهور بابن قيم الجوزية ، الدِّمَشْقِيّ الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ ، واشتهر بابن قيم الجوزية [(٢)] .

وترجمة هذا الإمام باستيفاء تخرجُ في مجلد كبير ، وهو جدير أن تُخرَج عنه دراسة شاملة : في حياته وإمامته وآرائه وفتاواه وانفراداته وتلامذته ومؤلفاته ، وأثره الفكري الحي في صفوف أهل العِلْم من زمنه إلى يومنا هذا ؛ « **فلقد كان أبو عبد الله مُقتدًى به على الأجيال المتعاقبة ، وقَبَسًا من نور شيخه الإمام شيخ الإِسْلام ابْن تَيْمِيَّة**

(١) يُنْظَرُ مقدمة : المنار المنيف في الصحيح والضعيف ، مكتبة ابْن تَيْمِيَّة ، القاهرة ، (بدون تاريخ للطبعة) ، ص ٨

(٢) وهو غير الإمام أبي الفرج بن الجوزي .

رحمهما الله تعالى »[1] .

قال الإمام ابن رجب الحنبلي (ت : ٧٩٥هـ) عنه: « الفقيه، الأصولي، المفسر، النحوي، العارف، شمس الدِّيْن أبو عبد الله ابن قيم الجوزية، شيخنا. ولد سنة إحدى وتسعين وستمائة. وسمع من الشهاب النابلسي العابر، والقاضي تقي الدِّيْن سليمان، **وفاطمة بنت جوهر**، وعيسى المطعم، وأبي بكر بن عبد الدائم، وجماعة.

وتفقه في المذهب ، وبرع وأفتى ... وتفنن في علوم الإسلام ، وكان عارفًا بالتفسير لا يجارى فيه ، وبأصول الدين ، وإليه فيهما المنتهى ، والحديث ومعانيه وفقهه ، ودقائق الاستنباط منه ، لا يلحق في ذلك ، وبالفقه وأصوله ، وبالعربية، وله فيها اليد الطولى وبعلم الكلام والنحو وغير ذلك، وكان عالمًا بعلم السلوك ، وكلام أهل التصوف ، وإشاراتهم ، ودقائقهم ، له في كل فن من هذه الفنون اليد الطولى.

قال الذَّهَبِيُّ في المختص : عني بالحديث ومتونه، وبعض رجاله، وكان يشتغل في الفقه ، ويجيد تقريره وتدريسه ، وفي الأصلين ، وقد حبس مدة ، لإنكاره شد الرِّحال إلى قبر الخليل ... قلت (؛ أي: ابن رجب) : وكان رَحِمَهُ اللهُ ذا عبادة وتهجد ، وطول صلاة إلى الغاية القصوى ، وتأله ، ولهج بالذكر ، وشغف بالمحبة ، والإنابة والاستغفار، والافتقار إلى الله، والانكسار له، والاطراح بين يديه على عتبة عبوديته ، لم أشاهد مثله في ذلك ، ولا رأيت أوسع منه علمًا، ولا أعرف بمعاني القُرْآن والسنة وحقائق الإيمان منه ، وليس هو المعصوم ، ولكن لم أر في معناه مثله ، وقد امتحن وأوذي مرات، وحبس مع الشيخ تقي الدِّيْن في المرة الأخيرة بالقلعة، منفردًا عنه، ولم يفرج عنه إلا بعد موت الشيخ.

وكان في مدة حبسه مشتغلًا بتلاوة القُرْآن بالتدبر والتفكر، ففتح عليه من ذلك خير كثير، وحصل له جانب عظيم من الأذواق والمواجيد الصحيحة... وجاور بـ « مكة » ، وكان أهل« مكة » يذكرون عنه من شدة العبادة ، وكثرة الطواف أمرًا

(١) السابق ، ص ٨

يتعجب منه. ولازمت مجالسه قبل موته أزيد من سنة ، وسمعت عليه قصيدته النونية الطويلة في السنة ، وأشياء من تصانيفه ، وغيرها.

وأخذ عنه العِلْم خلق كثير من حياة شيخه وإلى أن مات ، وانتفعوا به ، وكان الفضلاء يعظمونه ، ويتتلمذون له ، كابن عبد الهادي وغيره.

وقال القاضي بُرْهَانُ الدِّيْن الزُّرْعِيُّ عنه: ما تحت أديم السَّماء أوسع علمًا منه. ... وكتب بخطه ما لا يوصف كثرة. وصنف تصانيف كثيرة جدًا في أنواع العلم، وكان شديد المحبة للعلم ، وكتابته ومطالعته ، وتصنيفه ، واقتناء الكتب ، واقتنى من الكتب ما لم يحصل لغيره »[(١)] .

وعلاقة ابن القيم بشيخ الإِسْلام ابْن تَيْمِيَّة وثيقة ، فقد قرأ عليه ، ولازمه سِتَّ عشرةَ سنة ، وكان الشيخ ابن القيم إذ ذاك في ريعان شبابه ، مع الاستعداد الفطري العِلْمِيّ الكامل الذي منحه الله إياه ، والحافظة القوية العجيبة ، والقدرة الباهرة على هضم المشكلات العِلْمِيَّة وتذليلها ، وتحرير موضع النزاع منها ، وحسن الفَصْل فيها[(١)] .

ولا ريب أَنَّهُ ازداد من ذلك وتقوى فيه من ملازمته للشيخ ملازمة الظِّلِّ للشاخص ١٦ سنة ، ينهل ويَعُلُّ من غزير علومه. ويتضلع ويتروى من عظيم مداركه وفهومه ؛ حتى صار لسان حاله ، والمعروف بالتلمذة عليه من بين العديد الكثير من سائر تلامذته ، **وهو الذي هَذَّبَ كُتُبَه ونشر علمه** .

وقد تلقى العِلْم عن ابن القيم ناسٌ كثيرون ، وقد طبع كثير من مؤلفاته ، **وكلها شاهدُ صدق بسعة باعه ، وعظيم اطلاعه ، ورسوخ إمامته في العلوم التي ألف فيها ، وما ترى له كتابًا في علم إلا وتجد له فيه مزيةٌ بارزة على من ألف في ذلك العلم.**

ومن الأقوال البديعة للإمام ابن القيم في كتابه الماتع « الفوائد » :

(١) الذيل على طبقات الحنابلة ، تحقيق : عبد الرحمن بن سليمان العثيمين ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، ط١ ، (٢٠٠٥م) ، ٥/ ١٧٠

(١) يُنْظَرُ مقدمة : المنار المنيف في الصحيح والضعيف ، ص ٩

» « إضاعة الوقت أشد من الموت ؛ لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة ، والموت يقطعك عن الدُّنْيا وأهلها » .

» « أعظم الربح في الدُّنْيا أن تشغل نفسك كل وقت بما هو أولى بها ، وأنفع لها في معادها » .

» « نتائج المعصية قلةُ التوفيق ، وفسادُ الرأي ، وخفاءُ الحقِّ، وفسادُ القلبِ، وخُمولُ الذِّكْر، وإضاعةُ الوقت ، ونفرةُ الخلق، والوحشةُ بين العبد وبين ربِّه، ومنع إجابة الدعاء، وقسوة القلب، ومحقُ البركة في الرزق والعمر، وحرمان العلم، ولباس الذُّلِّ، وإدالةُ العدوِّ، وضيقُ الصدر، والابتلاءُ بقُرَناءِ السَّوءِ الذين يفسدون القلب ويضيعون الوقت ، وطول الهمِّ والغمِّ ، وضنْكُ المعيشة، وكسفُ البال » .

⇦ **الشيخ مُحَمَّد الغزالي ومؤلفاته** :

الشيخ مُحَمَّد الغزالي السقا ، ولد في ٢٢/ ٩/ ١٩١٧م للميلاد ، في قرية « تكلا العنب » من « إيتاي البارود » من أعمال البحيرة . كان والده من حفظة القُرْآن ، يتعهده بالتلاوة المثبتة ؛ إذ أدخله كُتاب القرية ؛ ليتعلم الخط والحساب، وليحفظ القُرْآن ، فكان يحفظ حصته المقررة على الشيخ ، ويضيف إليها حصة أخرى على والده ، فما إن بلغ العاشرة حتى كان قد حفظه .

ومن كُتَّاب القرية إلى المعهد الديني المخصص لمحافظة البحيرة في الإسكندرية حيث قضى سنواته الأربع في دراسة المرحلة الابتدائية ذات المقررات القوية ، ومن ثم واصل دراسته حتى نال شهادة الكفاءة بعد ثلاث سنوات ثم الشهادة الثانوية بعد سنتين. ومن هناك انتقل إلى القاهرة ليبدأ دراسته الجامعية في كلية أصول الدِّيْن ، وبعد أربع سنوات نال شهادتها العالية ، ليتحول إلى التخصص في الدعوة والإرشاد وقد نال إجازته بعد تمام السنتين.

والمطالع لآثار الشيخ الغزالي ، مؤلفات ومقالات ومحاضرات وأحاديث

يستشعر « بقوة سعة الأفق ، الذي يطل به على مختلف فروع العِلْم ، وأول ما يطالعه من خلالها جميعًا تلك الموهبة الفنية التي تفرغ على تعابيره ألق البيان العفوي الجميل فالقارئ المتذوق لهذا الضرب من البَلاغَة لا يسعه أن يمر بكتاباته دون أن يتوقف بين الحين والآخر ليمتع وجدانه بتلك الصياغة الموفقة ، وطبيعي أن يكون لهذه الأساليب الجذابة أثرها في تثبيت الفكرة التي يعالجها، وقد أجمع علماء البَلاغَة ، منذ الجرجاني والجاحظ ، على أن سر الجمال في كل نص ممتاز عائد بالدرجة الأولى إلى صياغته المحكمة ، وهكذا يتعاون الشكل الباهر مع المضمون القاهر في أدب الشيخ فيجعل له ذلك القبول والعقول »[(١)] .

والشيخ الغزالي يعتبر الأدب الوسيلة المُحقِّقة في الإِنْسَان خاصته الأولى التي أكرمه بها الخالق حين « علمه البيان » ، ويلي الأدب في إيثاره « الدراسات النفسية » ، وهي التي عني بها أصحاب القلوب من الأئمة الذين جمعوا بين العِلْم والعبادة والزهد ، وخلفوا من ذلك كله تراثًا للأجيال ، مثل كتاب « صيد الخاطر » للإمام ابن الجوزي ، و« مدارج السالكين » للإمام ابن قيم الجوزية [(١)] .

وتأتيه الفرصة لكي يكون خطيبًا في مسجد « عمرو بن العاص » ، على يد وزير الأوقاف الدكتور عبد الحليم محمود ، الذي أراد أن يعيد للمسجد جلاله ودوره الدعوي . وبعد تردد قبل الشيخ الفرصة ، وأقبل الناس على المسجد « منذ الجمعة الأولى؛ فملئوه وصحنه ، ثم مضى الأمر على التزايد جمعة بعد أخرى ، حتى قفز العدد عن الألف إلى ما يقارب الثلاثين ألفًا ، يتوافدون إليه من مختلف أنحاء القطر . وتراءى للشيخ من خلال ذلك الإقبال عظم المسئولية ؛ فاستخار الله ، وتوجه إليه بالدعاء أن يوفقه إلى إعلاء كلمته ، وتثبيت حقائق الإِسْلام في هاتيك

(١) مُحَمَّد المجذوب : علماء ومفكرون عرفتهم ، دار الاعتصام ، القاهرة ، (بدون تاريخ للطبعة) ١/ ٢٦٨

(١) السابق ، ١/ ٢٦٩

القلوب المتلهفة إلى قول الحق .

ورأى أن أنفع شَيْء لهذه الآلاف المؤمنة أن يعالجها بالقرآن ، وعلى المنهج الذي أفاده من تأملاته » (١) .

وبشأن مؤلفاته يذكر الشيخ الغزالي أن بعضها طبع عشر مرات ، وهو لا يكاد يؤثر بعضها على بعض ، ومرد ذلك ما تمتاز به جميعًا من صدق التصوير لأعمق أفكاره ، وأحر عواطفه.

ولكنه مع ذلك لا يخفى نظرته الخاصة لكتاب « فقه السيرة » لصلته بأحب الخلق إليه ، ويلي ذلك كتاب أخر هو « قذائف الحق » ؛ لما ضمنه من ردود قاهرة على مفتريات يريد بها أعداء الإِسْلام تدويخ العالم الإسلامي ، على حد تعبيره.

والحق يقال أَنَّ الحديث عن مؤلفات الشيخ الغزالي لا تفي بها العبارة العجلى ؛ لأن فيها من الخصائص المنهجية والأدبية ما يجعلها نسيج وحدها بين الكتب ، وهي بذلك تقتضي الوقوف على كل منها بالتحليل الطويل ، وحسبنا في هذه المناسبة المحدودة أن نذكر القارئ بأسلوبها المميز الذي من المتعذر أن يختلط بغيره من أساليب الكُتَّاب (١) .

⇦ **الدكتور مُحَمَّد عمارة ومؤلفاته :**

وُلِدَ أستاذنا الدكتور مُحَمَّد عمارة مصطفى عمارة في قرية « صروة » ، إحدى القرى التابعة لمركز « قلين » ، بمحافظة كفر الشيخ ، في ٨/ ١٢/ ١٩٣١م ، الموافق ٢٧ رجب ١٣٥٠هـ ، ورحل عن عالمنا في ٢٨/ ٢/ ٢٠٢٠م ، رحمه الله وطيب الله ثراه .

وكعادة أبناء عصره التحق عمارة بالكُتاب ليتم فيه حفظ القُرْآن الكريم ، ثم التحق عقبه بالمعهد الديني بدسوق عام ١٩٤٥م ، وهكذا استَمَرَّ في سلسلة التعليم

---

(١) السابق ، ١/ ٢٧٥ ، ٢٧٦

(١) السابق ، ١/ ٢٨٣

الديني حتى حصل على الليسانس في اللغة العَرَبِيَّة والعلوم الإسلامية ، وتخرج في كلية دار العلوم ١٩٦٥م ، وحصل منها على الماجستير في الفلسفة الإسلامية عام ١٩٧٠، ثم الدكتوراة في نفس التخصص ١٩٧٥م.

امتلك عمارة أول مكتبة في حياته بالتقسيط، فحين فارق جاره الشيخ عبد التواب الشناوي الحياة، كان يملك مكتبة ضخمة تضم حوالي أربعة آلاف كتاب، لم يهتم بها أحد ورثته ، فاشتراها عمارة منهم بالتقسيط وهو في السنة الأخيرة من الكلية.

ويروي عمارة كيف كانت تلك المكتبة الثرية أساسًا في تكوينه الفكري، فقرأ فيها من التراث العربي والإسلامي وأيضًا من المترجمات، وقرأ فيها أَيْضًا نظرية التطور لدارون.

ومما نتعلمه من تَرْجَمَة أستاذنا الدكتور مُحَمَّد عمارة أهمية دور الوالدين ، وأهمية الكتاب وأهمية المعلم . فيقص هو عن نفسه قوله : « نذرني أبي للعلم جنينًا ؛ وكان الوفاء واجبي منذ ولدت » ، وعن دور الكتاب والمعلم يحكي أن أول كتاب اشتراه في حياته كلها كتاب « النظرات » للمنفلوطي، وهو في السنة الثانية الابتدائية، حيث كان سأل أحدُ أساتذته التلاميذ عمن يشتري كتابًا خارج المقرر، فاشترى عمارة النظرات ، وطلب الأستاذُ من تلميذه أن يأتي معه بالكتاب ؛ فكان يقرأ منه في اليوم الدراسي ، ويروي د.عمارة كم كان هذا الأستاذ ـ وهو الشيخ مُحَمَّد كامل الفقي ـ متميزًا ؛ حيث كان يشتغل بالسياسة ، ونفته الحكومة السعدية إلى مدينة دسوق ، وفيه كتب أول قصيدة شعرية في حياته مادحًا.

في ١٩٥٩م، وبينما هو في السنة الأخيرة من دراسته، اعتقل مُحَمَّد عمارة مع التنظيم اليساري وكوادر الماركسيين لفترة تجاوزت الخمس سنوات، وبعد خروجه من السجن، حصل عمارة على ليسانس دار العلوم.

ورغم أَنَّهُ يرى الوظيفة نوع من الاستعباد، فبعد تعيينه في الجمعية الاستهلاكية وهو ما اعتبره محاولة للقتل المعنوي، قدم على إجازة بدون مرتب ليذهب لدار

الكتب ، فكان يعمل في دراساته العليا وعمله الفكري ١٨ ساعة يوميًا ، ولم يتغير حاله بعد الزوج ، فيقول عمارة عن زوجته وكيف كانت خير معين له: « عندما تزوجت كانت زوجتي متفهمة لطموحي الفكري ؛ فتركت دراستها العليا لتتفرغ للمنزل » .

وحين أكمل دراساته العليا يؤكد عمارة أن هدفه منها لم يكن نيل درجة علمية، بل كانت جزء من التأليف والسير في غمار مشروعه الفكري . ويحكي عن نفسه قائلًا: « إِنَّهُ قد آثر مشروعه الفكري على كل شَيْء » .

كان غرض عمارة هو تجديد التراث الفكري الإسلامي وتحقيق النصوص، وهو ما استمر يفعله طوال حياته حتى في أثناء فترة رئاسته لمجلة الأزهر، إذ حرص أن يكون كل كتاب مرفق مع اعدادها تحقيق لتراث إسلامي أو عمل فكري بالغ الأهمية.

يصف عمارة مشروعه الفكري وهدفه في إحدى حواراته الصحفية : « كان مشروعي يستهدف تكوين عقلية إسلامية مرتبطة بالهوية الإسلامية والجذور الإسلامية، وفي الوقت نفسه قادرة على رؤية الإِسْلام في ضوء الفكر الآخر ورؤية الفكر الآخر فى ضوء الإِسْلام » .

تجاوزت مؤلفات الدكتور مُحَمَّد عمارة المائتي مؤلف ، في أسلوب سهل رشيق يمكنك ببساطة أن تتعرف على أفكاره وآرائه، وأيضًا أن تتعلم أبجديات الفكر الإسلامي، ففي كتابه : « الوسيط في المذاهب والمصطلحات الإسلامية » يقدم عمارة ما يمكن اعتباره قاموسًا سهلًا، يستطيع القاريء من خلاله التعرف على أهم ما يحتاجه عن المذاهب والفرق والمصطلحات الإسلامية ، فيعرف باختصار السلف والسلفية ، وفرق الشيعة ومعنى التشيع ، ومصطلحات كالوحي الإلهي والوجودية والتكفير.

حقق مُحَمَّد عمارة كذلك الكثير من الأعمال لأبرز أعلام رواد ما يُسمى « اليقظة الفكرية الإسلامية الحديثة » ، فحقق كتابات مُحَمَّد عبده ورفاعة الطهطاوي

وجمال الدِّيْن الأفغاني وقاسم أمين وعلي مبارك ، وعبد الرحمن الكواكبي.

كما ألّف مجموعة من المؤلفات تتحدث عن أعلام ما يُسمى « تيارالتجديد الإسلامي » ، أمثال: الدكتور عبد الرزاق السنهوري باشا، والشيخ مُحَمَّد الغزالي، ورشيد رضا ، وخير الدِّيْن التونسي ، وأبو الأعلى المودودي ، وسيد قطب ، وحسن البنا.

كما ألف كتبًا عن بعضًا من أعلام الصَّحابَة الكرام مثل: سيدنا عمر بن الخطاب، وأبي ذر الغفاري، وعلي بن أبي طالب رضوان الله عليهم جميعًا. كما كتب الدكتور مُحَمَّد عمارة عن تيارات الفكر الإسلامي القديمة والحديثة وعن أعلام التراث أمثال: غيلان الدمشقي، والحسن البصري.

ومن أبرز مؤلفاته:

- التفسير الماركسي للإسلام.
- نقض كتاب الإِسْلام وأصول الحكم
- التعددية: الرؤية الإسلامية والتحديات الغربية.
- الإسلام وفلسفة الحكم.
- القدس بين اليَهُودِيَّة والإسلام.
- شبهات حول الإسلام.
- فقه الصراع على القدس وفلسطين.
- تجديد الدُّنْيا بتجديد الدِّيْن .
- ابن رشد بين الغرب والإسلام.
- السنة النبوية والمعرفة الإنسانية.
- مستقبلنا بين التجديد الإسلامي والحداثة الغربية.
- الإبداع الفكري والخصوصية الحضارية .
- أزمة الفكر الإسلامي الحديث.
- والشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية .
- الخطاب الديني بين التجديد الإسلامي والتبديل الأمريكاني.
- الغرب والإسلام ـ أين الخطأ وأين الصواب؟

واحتفظت مجلة العربي الكويتية بكثير من مقالاته القيمة ، التي تعلمنا منها الكثير ، وانتفعنا بها أيما انتفاع .

كان عمارة قبل وفاته عضوا في العديد من المؤسسات الفكرية ، أبرزها المجلس

الأعلى للشئون الإسلامية في مصر، وكان عضوًا لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، وكذلك هيئة كبار العلماء، وتولى رئاسة تحرير مجلة الأزهر أربعة سنوات، من ٢٠١١ وحتى يونيو ٢٠١٥ نشر خلالها ٥٠ كتابًا علميًا.

وقد اتسمت كتابات الدكتور عمارة وأبحاثه التي تخطت المائتي مؤلفٍ ، والتي أثرى بها المكتبة العَرَبِيَّة بنظرات تجديدية وإحيائية ، وإسهام مُلاحظ في المشكلات الفكرية ، ومحاولة تقديم مشروع حضاري نهضوي للأمة العَرَبِيَّة والإسلامية كحل للخروج من المرحلة التي تعيش فيها.

وقد كان مُحَمَّد عمارة يتبنَّى مجموعة من الأفكار اليسارية ويُدافع عنها كثيرًا، حتى انتهى به الأمر إلى الفَصْل من الجامعة وإلى السجن وكان ذلك في عام ١٩٥٩م، واستمر في السجن ما يُقارب الست سنوات.

وقد كانت سنوات اعتقاله هذه بمثابة تحولًا فكريًا له، فقد ألّف أربعة كتب تُعد بمثابة إرهاصات لفكره الجديد الذي قرر تبنيه والدفاع عنه. فمنذ نشر هذه الكتب واقترن اسم مُحَمَّد عمارة بوصف المفكر الإسلامي.

ولكن عندما تبنى عمارة الفكر الإسلامي، كان هناك تشابهًا بين فكره وفكر المعتزلة ، فقد كان عمارة يقوم على تقديم العَقْل وتعظيم شأنه دائمًا. كما أَنَّهُ قد تبنى مشروع الأعمال الكاملة وأشرف عليه بنفسه، حيث أعاد إنتاج الأعمال الكاملة لجمال الدِّيْن الأفغاني ومحمد عبده وغيرهم.

وقد رأى أَنَّهُ عندما كان ماركسيًا يساريًا كان يُنادي بالحرية والعدالة الإجتماعية، ولكنه رأى الإِسْلام هو الذي يحل المشكلة الاجتماعية ، ويحقق العدل وليست الطبقية الماركسية اليسارية التي تُنادي بتلك الحقوق وفقط دون أي تنفيذ.

إن أهم ما يميز فكر عمارة هو تبنيه ودفاعه عن فكرة الأمة وضرورة وحدتها وتدعيم شرعية الأمة في مواجهة نفي البعض لها ، حتى أدى تمسكه بهذه الفكرة إلى أن نعَته العلمانيون بأنه المنظّر للحركة الإسلامية. وينتمي عمارة إلى ما يُطلق عليها « المدرسة الوَسَطِيَّة » وكان دائمًا يدعو إليها.

وقد نعى الأزهرُ وفاة هذا العالم الجليل ، حيث قال الأزهر في بيان له: إن رحيل

الدكتور مُحَمَّد عمارة ترك فراغًا يصعب ملؤه في صفوف كبار العلماء الذين يحملون على عاتقهم أمانة العِلْم ، وصدق الكلمة.

كما نعته جامعة الأزهر ممثلة في رئيسها وعمداء الكليات.

الفصل الثامن

لماذا أسلموا ؟

- إسلام هيرالال ابن الزعيم غاندي .
- إسلام المفكر الفرنسي رجاء جارودي .
- إسلام د. روبرت بيير جوزيف.

الفَصْل الثامن

لماذا أسلموا ؟

نأتي بحول الله وفضله لفصلنا الأخير في هذا الكتاب ، وأسأل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن يكون كما يقولون مسك الختام .

ولقد وجدتُني منساقًا إلى الكتابة في هذا العنوان ؛ ولعل الفصول السابقة هي ما دفعتني لهذا ، وأنا أجد في نفسي أن هذا الفَصْل هو الخاتمة المنطقية له . لقد قدمنا الأَدِلَّة والبراهين على أَنَّ الإِسْلام هو دِيْن الله ، وهو الدِّيْن الحق ، وقد يَعنُّ لأحدهم أن يطرح الاعتراض الآتي : إن جُلّ ما قدمته يمكن أن نضعه في الجانب النظري ، فأين قيمة الإِسْلام وأهميته على أرض الواقع ؟! لذلك فإنَّ هذا الفَصْل بمثابة الدليل العملي الفعلي الواقعي الحالي على أَنَّ الإِسْلام هو الدِّيْن ، وَأَنَّ الإسلام يكسب في أرض الواقع ـ رغم كل العقبات التي يلقاها من أبنائه قبل أعدائه ـ أرضًا جديدة ، **ويدخله أفضل العقول في أرجاء المعمورة.**

إنَّ من أقوى الأَدِلَّة على أَنَّ الإِسْلام هو الدِّيْنُ الحقُّ هو انتشاره وامتداده ، على الرغم من الحرب الضروس التي تُثارُ ضده ، وعلى الرغم من الصورة المزرية التي يقدمها المسلمون أنفسهم عنه ، إنَّ الإِسْلام بحق ـ كما يقول القائل ـ : « دِيْن إذا حُوربَ اشتدَّ وإذا تُرِكَ امتدَّ » .

وهناك أسباب أخرى تحثُّنا على الكتابة في هذا الفَصْل ، منها :

١) الاستماع إلى القِصَص بوجه عام أمرٌ مُحَبَّبٌ إلى النفوس ، تميل إليه ، وتشغف به ؛ لذلك لجأ القُرْآن إليها ؛ فأكثر من ثلث القُرْآن قِصَصٌ ؛ لذا فإنَّ

استشهادنا بمجموعة من القِصص لـ « مَن أسلموا » ، يشدُّ انتباه القارئ لما نحن بصدده ، ويجد المتعة والدليل الناصع على قوة الإِسْلام وفَعَّاليته . .

٢) في دراسة أسباب « إسلام مَنْ أسلمَ » عينٌ ثَرَّةٌ ، ومَعينٌ لا ينضَبُ لاستغلالها في الدعوة.

وأنا أدعو وأحثُّ كل الدّعاة وعلماء النفس على دراسة الأسباب التي دعت مَن أسلم إلى الإِسْلام ، والاستفادة من نتائج الدراسة لدعوة غير المسلمين.

وعندما عقدتُ العزمَ على ذلكَ ؛ أي على الكتابة في هذا الموضوع أخذتُ أبحثُ عن بعض المصادر التي تتحدثُ فيه ، ووجدت بغيتي في هذا الكتاب:

« الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء » ، للأستاذ: مُحَمَّد كامل عبد الصمد ، الصادر عن : الدار المصرية اللبنانية ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م ، الجزء الأول ، والجزء الثالث .

وقد أحسن الأستاذ كامل عبد الصمد المؤلف صنعًا بتأليفه هذا الكتاب ، وتسجيل تراجم من أسلموا ، وبيان أسباب إسلامهم ، وأنا أشجِّع أن يُقتفَى أثر الأستاذ الكريم في مثل تلك السبيل .

وقبل أن أختار نماذج من هذا الكتاب ، أحبُّ أن أشير إلى أَنَّ المؤلف قد قَسَّمَ الجزء الأول من كتابه إلى سبعة فصول ، جعل الفَصْل الأول للحديث عن : « **شخصيات عالمية اعتنقت الإِسْلام** » ، وذكر في هذا الفَصْل الشخصيات الآتية :

- ✓ إسلام رئيس جمهورية جامبيا.
- ✓ مع ابن الزعيم غاندي الذي تحدى الجميع وتمسك بإسلامه .
- ✓ مع اللورد هدلي الذي صار المسلم رحمة الله فاروق .
- ✓ مع الدبلوماسي الألماني المسلم السفير الدكتور مراد ولفريد هوفمان.
- ✓ مع بطل العالم في الملاكمة كاسيوس كلاي ، الذي صار مُحَمَّد علي كلاي.
- ✓ مع كريستوفر شامونت ، أشهر رجل اقتصادي في العالم.
- ✓ مع أول رائد فضاء يهبط على القمر نيل أرمسترونج.

- ✓ مع الرحالة السويسري المسلم يوهان لودفيل بروكهارت.
- ✓ مع الضابط الألماني المسلم جوزيف كليمنس.
- ✓ مع القائد الروسي الجنرال أناتولي أندر بوتش الذي أصبح مؤذنًا في مسجد.

وجعل الفَصْل الثاني بعنوان : « **مفكرون عالميون اعتنقوا الإِسْلام** » ، وذكر تحته الأسماء الآتية :

- ○ مع الكاتب النمساوي الكبير ليوبولد فايس ، الذي صار مُحَمَّد أسد.
- ○ مع المفكر المسلم إيتين دينيه ـ ناصر الدِّيْن .
- ○ مع الفيلسوف المسلم رينيه جينو.
- ○ مع المفكر الفرنسي المسلم رجاء جارودي.
- ○ مع المفكر الفرنسي فانسان مونتيه الذي صار مفكرًا إسلاميًّا.
- ○ مع المفكر السويسري روجيه دوباكييه.
- ○ مع المفكر الأمريكي المسلم الكولونيل دونالدس روكويل
- ○ مع المفكر الإنجليزي مارتن لنجز .
- ○ مع الكاتب والصحفي الهندي خالد لطيف جابا.
- ○ مع الصحفي البريطاني روبرت الذي صار أبو القاسم.

وجعل الفَصْل الثالث بعنوان : « **أساتذة أكاديميون اعتنقوا الإِسْلام** » ، وذكر فيهم:

- ⇦ مع العالم البريطاني آرثر أليسون أو عبد الله أليسون.
- ⇦ مع الأستاذ الدكتور روبيرت جوزيف أو الحاج إبراهيم محمد.
- ⇦ مع البروفيسور البريطاني جون مونرو .
- ⇦ مع أستاذ علم النفس المسلم فيلي بوتولو ، أبو الحسن بوتولو.
- ⇦ مع الإيطالي الدكتور أندريه روماني ...
- ⇦ مع البروفيسور الأسباني فيجيل بيرو ...
- ⇦ مع أستاذ الصحافة المسلم مارك شيلفر.
- ⇦ مع العالم الاجتماعي الإنجليزي حسن روف .

⇦ مع الأستاذ الجامعي مُحَمَّد ميشال غريب ...

وفي الجزء الثالث خصص الفصل الأول للشخصيات النسائية الآتية :

* مع الكاتبة الأمريكية « مريم جميلة » .
* مع الكاتبة الإيطالية « إيبيانك مودواودي ساراواك » .
* مع الكاتبة الفرنسية « فالنتين دي سان » .
* مع المفكرة الفرنسية « إيفادو فتيره » .
* مع الراهبة التقية « جاكرو » .
* مع خادمة الكَنِيسَة الأمريكية « جهادة » .
* مع الفرنسية المهتدية « سيلفي فوزي » .
* مع الطبيبة الهندية « أوشا » .
* مع الأستاذة الجامعية « سُمية كاربراين » .
* مع الدانمركية « جنة سالم » .
* مع « ليلى رمزي » مذيعة التليفزيون الأمريكي.
* مع « فابيان » عارضة الأزياء الفرنسية.
* مع الفنانة الألمانية « كارولا » .
* مع « كارولين » أشهر لاعبة سَلَّة في مصر .

وكما هو واضح من هذه الأسماء فإنَّ الإسلام لا يجذب إليه عوام الناس فقط بل يجذب إليه بحمد الله ومَنّه أفضل العقول المخلصة الباحثة عن الحق.

ولقد اخترت من هذه الشخصيات ثلاث تراجم أقدمها هنا كمثال على إسلام بعض الشخصيات المهمة ، وهي :

١ـ إسلام « هيرالال » ابن الزعيم الهندي الشهير « المهاتما غاندي » .

٢ـ المفكر الفرنسي رجاء جارودي .

٣ـ مع الأستاذ الدكتور روبيرت بيير جوزيف .

*****

١ـ إسلام « هيرالال » ابن الزعيم الهندي الشهير « المهاتما غاندي » [(١)] :

والده هو الزعيم الكبير « المهاتما غاندي » الذي انشغل بالنضال من أجل استقلال بلاده ، ومن ثَمَّ تَربَّى ابنه هيرالال في بيته على يد مدرسين تولوا التدريس له، وبدأ يعرف الكثير عن ديانته « الهُنْدُوسِيَّة » ، وطائفته « البراهمية » التي تعد من أرقى الطوائف في الهند.

تعمق هيرالال في دراسة ديانته الهُنْدُوسِيَّة ، ودرس آلهتها المتعددة وشرائعها وكتبها القديمة ، مثل : الفيدا ، والبرهمانا ، واليجفادجيتا وغيرها ، وصراع هذه الدِّيانَة الوثنية مع غيرها ، مثل البُوذِيَّة .

في بداية الأمر لم يكن « هيرالال » **يُلقي بالًا للمتناقضات التي تزخر بها الدِّيانَة الهُنْدُوسِيَّة** ، مثل تعدُّد الآلهة والظلم الاجتماعي ، ولم يفكر في أنَّ هذه الدِّيانَة باطلة ، ولا سيما أَنَّهُ أحد المستفدين منها ، باعتباره من طائفة « البراهما » . واندمج في دراسته حتى تخرج ـ كوالده ـ محامِيًّا ـ ، وتزوَّجَ وكون أسرة ، وشغف بالمحاماة وبالأدب.

وقد أتاح له عمله بالمحاماة فرصة التعرف على الظروف الاجتماعية السيئة التي يحياها الناس في بلاده ، ومدى الظلم الذي يمارسه الهندوس ضد غيرهم من الطوائف ، بل مع بعض أبناء طائفتهم ذاتها ، ممن يطلقون عليهم اسم « المنبوذين » ، ويرون أنَّ على هؤلاء الأخيرين أن يقوموا بخدمة البراهمة ، وبدون هذه الخدمة ليس لهم أجر أو ثواب.

وأدت هذه التفرقة الظالمة بهيرالال إلى مراجعة نفسه حول مدى صحة هذه الدِّيانَة **التي تفرق بين الناس** ، بل وتفرَّق بين أتباعهم أنفسهم ، وآلمه أن يرى المسلمين ـ وهم أهل الدِّيانَة الثانية في بلاده من حيث تعدادهم ـ لا يُفرقون بين غني

(١) مُحَمَّد كامل عبد الصمد: الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء ، ١/ ٢٥

وفقير ، وسليل عائلة كبيرة وصعلوك ؛ فاشتدت رغبته في دراسة الدِّيْن الإسلامي والتعمق فيه ، وخاصة بعد ما لاحظ أن هناك كتبًا للهندوس تتكلم عن نبي له نفس صفات النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ !.

وكان « هيرالال » يعرف الكثير عن الدِّيْن الإسلامي من جراء اطلاعاته على ما كتب عنه ... آمن « هيرالال » أن شَيْئًا من الحق يسطع أمامه ، وأَنَّهُ قد وجد بداية طريقه نحو الحقيقة التي يبحث عنها ، ومن ثم عزم على إشهار إسلامه .

ثم حدث أَنَّ التقى بالشيخين الجليلين : زكريا منيار ، ونذير أحمد خجندي ، من أعضاء جمعية التبليغ الإسلامي ، اللذين أقنعاه بأن ما تبحث عنه روحُه الحَيْرَى موجود في الإِسْلام ، وما زالا به حتى اقتنع بعدما شرح الله صدره للإسلام . وفي يوم الجمعة التالي ارتدى « هيرالال » قميصًا أبيض وعمامة بيضاء خفيفة ، وتوجه إلى الجامع في مدينة « بومباي » ، وأمام أكثر من عشرين ألف مسلم حضروا للصلاة في الجامع ، أعلن « هيرالال غاندي » . وصعد على المنبر وألقى كلمة ، من ضمن ما جاء فيها قوله :

« كلكم يعلم بأني أنا هيرالال ، ابن الزعيم الوثني الكبير غاندي ، فأنا أعلن على رءوس الأشهاد ، وفي وسط هذا الجمع العظيم من المسلمين، بأني قد عشقت الإِسْلام ، وأحببت القُرْآن ، وآمنت بالله وحده ، وبالرسول الأطهر ، سيدنا مُحَمَّد ـ صلوات الله تعالى عليه ـ ، وأَنَّهُ خاتم النبيين ، وأَنَّهُ لا نبي بعده ، وأنَّ ما جاء به القُرْآن حق ، والبعث والنشور حق ، والملائكة والقضاء والقَدَر حق ، والكتب المنزلة كلها حق ، وأنبياء الله ورسله حق ؛ فللإسلام وللقرآن سأحيا وأموت وسأدافع وسأناضل ، وسأكون إحدى دعاماته الكبرى ، وسأكون مُبشِّرًا به ، وداعيًا له بين قومي وعشيرتي ، ألا إن هذا الدِّيْن الحنيف هو دِيْن العِلْم والثقافة ، والعدل والأمانة ، والرحمة والمساواة » .

واستقبل المسلمون إعلان « هيرالال » إسلامه بالتكبير والهتاف : الله أكبر.. وتناقلت الصحف ووكالات الأنباء خبر إسلام ابن الزعيم « غاندي » ، فكان وقعه على « الهندوس » كنزول الصاعقة ، وتشنج له الزعيم « غاندي » تشنجًا كبيرًا ؛ حتى إِنَّهُ امتنع عن الطعام والشراب لمدة يومين كاملين ، كما غضب زعماء الهُنْدُوسِيَّة ، وأغلقت المحال التجارية الهُنْدُوسِيَّة المتصلة بأحياء المسلمين استياءً وحُزنًا.

وانهالت حملات « المهاتماغاندي » على ولده ، كما هاجمته الجمعيات والصحف الوثنية ، وصاحبت هجومها بالوعيد الشديد والتهديد ، ولكن « عبد الله هيرالال » لم يبال لهذا الهجوم ، وتحدى الجميع متمسكًا بإسلامه.

٢ـ المفكر الفرنسي رجاء جارودي :

كان روجيه جارودي معظم حياته عضوًا في الحزب الشيوعي الفرنسي ، حتى صار أهم مفكريه ، وأشهر أعضاء قيادته المتمثلة في المكتب السياسي ، ولكنه بدأ تحت وطأة صدمات العصر الحديث ومطارق العِلْم بدأ يعيد النظر ، ويقلب الفكر ، ولم يكن هذا مما يتسق مع وضعه القيادي ؛ ففصل من الحزب الشيوعي الفرنسي بعد محاكمة « فكرية » شهيرة ..

وبعد هذه المحاكمة أصدر كُتُبًا أحدثت ضجة واسعة ؛ إذ سجل نقطة خلافه الأساسية مع الفكر الماركسي التقليدي. ومنها : « البديل **L' Alternative** » ، و: « كلمات إنسان **Parole D'Home** » ، « من أجل حوار بين الحضارات **Pour Un Dialogue Des Civilisation** » ، « كيف يصبح الإِنْسَان إنسانيًّا؟ **Comment L'Homme Devient Humain** » (١) .

وقد لا يعلم بعضنا أن هذا المفكر رشَّحَ نفسه لانتخابات رئاسة الجمهورية الفرنسية التي أجريت عام ١٩٨١م أمام الرئيس الفرنسي في وقته جيسكار ، وميتران

---

(١) يُنظَر: مقال بعنوا ن : « استعمار التَّاريخ والحوار بين الحضارات » ، بقلم: أحمد بهاء الدِّيْن ، مجلة العربي الكويتية ، العدد ٢٤٣، فبراير ١٩٧٩م ، ص ١٠ وما بعدها .

زعيم الحزب الاشتراكي ، وشيراك زعيم الديجوليين [١] .

هذا المفكر الفرنسي الذي حفلت المكتبة الغربية والعربية بمؤلفاته عن الماركسية أسلم وأعلن إسلامه بعد طول تفكير واقتناع تام ، وبعد أن طاف بكل الأفكار والفلسفات باحثًا ودارسًا للمذاهب والديانات ، **فلم يجد ضالته إلا في الإِسْلام الذي يعتنقه ، ويصير واحدًا من دعاته.**

وعن رحلته للإسلام يقول [٢] : « هي قصة طويلة مرتبطة بحياتي كلها ، حيث شغلي الشاغل طوال حياتي كان محاولة العثور على معنى للحياة ، ووجدت في الإِسْلام دِيْن التفتح والعمل والجمال ... هو دِيْن التفتح ؛ لأنه يختلف عن اليَهُودِيَّة التي انغلقت على مفاهيم التعصب العنصري ، وهي الأفكار التي تتبناها اليوم إسرائيل ... فالإسلام منفتح على باقي الحضارات ، وهذا ما يجذبني إلى الحضارة الإسلامية ، كما أَنَّ الإِسْلام قد بعث الحياة في الثقافات المختلفة ... والإسلام دِيْن الجمال كما نراه في الأعمال التي تركها من المساجد العظيمة التي لا يشك أحد في أَنَّها تعبر عن عقيدة واحدة تجدها ذات معمار مختلف تمام الاختلاف ، وتعبر عن ثقافات مختلفة ، ولكننا نشعر بأننا في مجال روحاني إسلامي ، أقول ذلك بحكم أنني كنت أقوم بتدريس علم الجمال في الجامعة » .

ثم أردف بعدها قائلًا :

« لقد وجدت في الإِسْلام التوافق بين العمل السياسي والإيمان ، وأعتقد أَنَّ **الإِسْلام سيكون له مستقبل باهر ، كما كان في ماضيه أمام انهيار وإفلاس الغرب الرأسمالي والشيوعية الشمولية** ... كما أَنَّ الإِسْلام دِيْن الأخلاقيات والعمل ؛ ولذا فإنني أعتقد أَنَّ الإِسْلام هو الدِّيْن **الوحيد اليوم القادر على حل مشاكلنا ؛ ولهذا أسلمت بسعادة وحماسة** » .

---

(١) يُنْظَرُ مقال بعنوا ن : « حوار مع جارودي الفيلسوف الذي رشح نفسه لرئاسة فرنسا واثقًا من نفسه » ، بقلم: مُحَمَّد صالح ، مجلة العربي الكويتية ، العدد ٢٦٤، نوفمبر ١٩٨٠م ، ص٥٦ ، ٥٩

(٢) مُحَمَّد كامل عبد الصمد: الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء ، ١/ ٨٤

ويُقر جارودي ويعترف بأَنَّ كل نبي أُرسِلَ في مرحلة تاريخية قد مَهَّدَ لمن جاء بعده ، وانتهت أصول الديانات السماوية إلى الرِّسالَة الكاملة الخاتمة ... وبالنسبة للإسلام فهو الدِّيْن الوحيد الذي يعترف بالأديان السابقة ، ويعتبر إبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام كلهم أنبياء مسلمين ... ورسول الله مُحَمَّد ﷺ كما جاء في القُرْآن ـ لم يقل في الأحاديث الشريفة إِنَّهُ جاء بعقيدة جديدة ولكنه أوضح أَنَّهُ جاء ليذكر بملة أبينا إبراهيم ، كما بين أن تعاليم هؤلاء الأنبياء المرسلين من قبله قد حرفت ، وَأَنَّ التحريف بدأ من أيام اليهودية.

أما بالنسبة للنصرانية فإنَّ التحريف بدأ بإعلان « نيقية » ، وتضمن فكرة أَنَّ المسيح ابن الله ، **التي لم ترد في الإنجيل ، ولكن وُضِعَت وضعًا** ؛ ولذلك فأنا أؤمن بأن محمدًا ﷺ قد جاء بالملة الأولى ـ ملة إبراهيم ـ وهي أكثر صور العقيدة تكاملًا ، فاليهود يكفرون بالمسيح عليه السلام ، ويكفرون بمحمد ﷺ ، والنصارى بدورهم يكفرون به ، أما مُحَمَّد ﷺ فَإِنَّهُ يؤمن بإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام.

ويستكمل جارودي نظرته للإسلام في كتابه : « مبشرات الإِسْلام » فيقول : « إن الإِسْلام دعوة لتحرير الشعوب المقهورة سياسيًّا واقتصادِيًّا ودينيًّا ، فقد منح الأمل لجميع المضطهدين ، وطمأن قلوبهم ؛ فسرعان ما انضموا إلى صفوفه ، وساعدوه على مناهضة إمبراطوريات كبرى ، مثل فارس ، وبيزنطة ؛ فانهارت الواحدة تلو الأخرى أمامه ، **ولم تكن قوته تقارب قوة تلك الممالك عددًا ولا عدة ، فمن السذاجة حقًّا تصور انهيار تلك الكيانات أمام المسلمين بفعل السلاح**.

وفضلًا عما سبق فإن الفتح الإسلامي لم يشكل استعمارًا ، فقد استقبل ـ مثلًا ـ شعب أسبانيا الفاتحين المسلمين الذين أنقذوهم من طغيان وغطرسة سلطان بلادهم الروحية والزمنية ، فلم يقاوموهم ، ولعل أصدق صورة تعكس هذه الحقيقة هي أَنَّ العرب فتحوا الأندلس في قرابة سنتين فقط ، في حين تطلبت استعادتها منهم سبعة قرون » .

٣ـ مع الأستاذ الدكتور روبيرت بيير جوزيف (الحاج إبراهيم مُحَمَّد) [(١)] :

إنه أستاذ سابق للفلسفة بالجامعات الفرنسية ، وله العديد من الكتب في مجال الفلسفة والتوحيد ، اعتنق الإِسْلام بعد دراسة جادة مضنية ، أوصلته إلى اقتناع كامل به كدين قائم على التوحيد ـ على عبادة الله الأحد.

وعلى حد تعبيره كان من فضل الله عليه أن مَنَّ الله عليه بالإسلام مكافأة من الله له على ما بذله في سبيل تحصيل العلوم المختلفة ، وخاصة اجتهاده في الفلسفة والتوحيد ، فضلا عن إلمامه الكبير في مختلف فروع المعرفة.

يقول د. روبيرت في حديث معه في مجلة « منبر الإِسْلام » ، عدد يونيو ١٩٧١م [(٢)] : « إن الإِسْلام ـ وهو دِيْن العِلْم والمعرفة ـ يدعو معتنقيه إلى التزود بالعلم والعمل به ، ولا غروَ في ذلك ، فإنَّ أول آية من القُرْآن الكريم هي قوله تعالى لرسوله الكريم :﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾ العلق: ١، والنبي ﷺ يقول : اطلبوا العِلْم ولو كان في الصين ، فمن تجاربي الشخصية ؛ فإنِّي أؤمن إيمانًا لا يتزعزع بأن الفرد الذي يخلص في أبحاثه للحصول على العِلْم في أي فرع من فروعه لخدمة المجتمع ، ولخير البشرية جمعاء ، فإن الله سبحانه وتعالى سيجازيه خير الجزاء على كل ما يقدمه من خير لمجتمعه ...

وبالنسبة لي فإنني لم أكتفِ بدراستي الخاصة في الفلسفة ، بل إنني حاولت في شتى فروع المعرفة ، وخاصة في إثبات وحدانية الله خالق كل شَيْء ، ومدبر كل شَيْء في هذا الكون ، الذي تهدده الحضارة المادية الإلحادية التي تكاد تقضي على كل ما توارثته الأجيال الماضية والحاضرة من تقدم وازدهار. فسلاح العِلْم وحده لا يستخدم إلا في الخير والبناء ، لا في الدمار والخراب ، وذلك هو الأمل لأبناء البشرية جمعاء للوصول إلى الحقيقة الكبرى ، وإلى خلاص العالم من مشاكله.

(١) مُحَمَّد كامل عبد الصمد: الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء ، ١/ ١١٩

(٢) نقلا عن المصدر السابق .

فالعلم والبحث كانا سببًا في انبثاق إشراقة الأمل ونور الحق ، وإنارة الطريق أمامي ، ويهدني ربي إلى الصراط المستقيم ، ويرشدني إلى بر الأمان ، وينقذني من العذاب الشديد الذي كنت أعانيه نتيجة الصراع العنيف الذي كان يدور في نفسي ، ولا ريب في هذا الكلام ؛ فإنني أعتقد بأنَّ الإِسْلام ـ وهو شريعة الله الحق ـ معناه السلام ، بكل ما تحتويه هذه الكلمة من معانٍ كبيرة ، وأولها السلام بين الشخص ونفسه.

فالنفس ـ وهي الأمارة بالسوء ـ لا تستطيع أن تسيطر عليها وتوجهها إلى خير الفرد والمجتمع ، إلا الشريعة الإسلامية ومبادئها السمحاء. فالشهادة تعني أن لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، تعني أَنَّ الناس جميعًا متساوون ، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى .

واتصال العبد مباشرة بخالقه خمس مرات يوميًّا ـ في صلاته ـ زادٌ يومي يُذكِّره بوجود الخالق ، ويدعوه إلى اتباع ما دعا إليه ، واجتناب ما نَهَى عنه ...

والزكاة تُوحِّدُ بين القلوب ، وتقضي على الحقد والبغض والحسد ، فتقرب بين المسلمين ، وتجعلهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا.

وصيام رمضان يعتبر تدريبًا للنفس لكبح جماحها.

وخرج الفرد من زينة الدُّنْيا في الحج يذكره بيوم الحشر والحساب ..

فهذه المبادئ تستطيع إقامة المجتمع المثالي الذي ظل يبحث عنه منذ نشأته ؛ ولذا فإنني أدعو كل إنسان أن يبحث عن حقيقة الإِسْلام ومبادئه المختلفة ، ولا يتأثر بالادعاءات الكاذبة التي يرددها المغرضون وأصحاب الأغراض الشخصية ، فالطريق مفتوح أمام كل إنسان للنظر في كتاب الله وسنة رسوله ؛ وليحكم بعد ذلك بما يمليه عليه ضميره ».

الختام

ها قد وصلنا إلى ختام رحلتنا ، وها نحن أولاء نضع الرحالَ بعد رحلة طويلة ، حاولنا الإجابة عن الأَسْئِلَة التي كانت سببًا في تأليف هذا الكتاب ، وأنا أعلم أَنَّ الكمال غاية لا تدرك ، وَأَنَّ النقص صفة من صفات البشر ، وَأَنَّ الكمال صفة لله وحده ، وحسبي أني اجتهدت ، وعلى الله قصد السبيل ، فإنْ وجد قارئي الكريم خيرًا فليتحدث عنا ، وإن وجد شرًا فليتحدث إلينا ، وحسبي الله ، هو نعم المولى ونعم النصير .

سبحانك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

د. إيهاب عبد الحميد سلامة

drehab1973923@gmail.com

قَائِمَةُ المَرَاجِع

(١)	إبراهيم اليازجي	:	نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد، مكتبة لبنان، القاهرة، ط٣، ١٩٨٥م
(٢)	إبراهيم خليل	:	لماذا أسلم صديقي ؟ ورأي الفاتيكان في تحديات القُرْآن، مكتبة التراث الإسلامي، (بدون بيانات أخرى)
(٣)	إبراهيم عوض	:	من الطبري إلى سيد قطب ـ دراسات في مناهج التفسير ومذاهبه، دار النهضة العَرَبِيَّة، القاهرة، (٢٠١٠م)
(٤)	ابن الأثير	:	النهاية في غريب الحديث والأثر ، ت : محمود مُحَمَّد الطناحي ـ طاهر أحمد، المكتبة الإسلامية، (بدون بيانات أخرى)
(٥)	ابن الجوزي		الموضوعات، ت:عبد الرحمن مُحَمَّد عثمان،المكتبة السلفية،المدينة المنورة، ط١، (١٩٦٦م)
(٦)	ابن العماد الحنبلي	:	شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ت : محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت ط١، (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م)
(٧)	ابن تيمية	:	منهاج السُّنَّة النبوية، ت : مُحَمَّد رشاد سالم، ط١ ، (١٩٨٦م)
(٨)		:	اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، مكتبة الرياض الحديثة، (بدون بيانات أخرى)
(٩)		:	مقدمة في أصول التفسير، دار مكتبة الحياة، بيروت، (١٩٨٠م)
(١٠)	ابن جني	:	الخصائص، ت : مُحَمَّد علي النجار، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة سلسلة الذخائر، ع ١٤٦
(١١)	ابن حجر		ميزان الاعتدال، ت : علي مُحَمَّد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، (بدون بيانات أخرى)
(١٢)		:	فتح الباري، المكتبة السلفية، القاهرة، (بدون بيانات أخرى)
(١٣)		:	لسان الميزان، ت : عبد الفتاح أبو غدة، بيروت، ط١،(٢٠٠٢م)
(١٤)		:	الإصابة في تمييز الصَّحابَة، ت: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر ، القاهرة، ط١ ، (٢٠٠٨م)
(١٥)	ابن خلدون	:	المقدمة، تحقيق : علي عبد الواحد وافي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مكتبة الأسرة، (٢٠٠٦م) .
(١٦)	ابن قيم الجوزية	:	إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، تحقيق : مُحَمَّد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، ط٢ ، (١٩٧٥م)

(١٧)		:	بدائع الفوائد : دار التقوى للنشر والتوزيع ، القاهرة ، (٢٠٠٦ م)
(١٨)	ابن كثير	:	البداية والنهاية ، تحقيق : عبد الله بن عبد المحسن ، دار عالم الكتب ، الرياض ، ط١ ، (٢٠٠٣م)
(١٩)	أبو بكر الجزائري	:	عقيدة المؤمن ، دار السلام ، القاهرة ، ط٢ ، (١٩٩٧م)
(٢٠)	أبو حيان التوحيدي	:	الإمتاع والمؤانسة ، المكتبة العنصرية ، بيروت ، ط١
(٢١)		:	البصائر والذخائر ، ت : وداد القاضي ، دار صادر ، بيروت ، ط١ ، (١٩٨٨م)
(٢٢)		:	البصائر والذخائر ، ت : أحمد أمين ، السيد أحمد صقر ، لجنة التأليف والتَّرْجَمَة والنشر ، القاهرة ، ط ١ ، (١٩٥٣م)
(٢٣)	أبو منصور الثعالبي	:	فقه اللغة وسر العَرَبِيَّة ، ت : د. خالد فهمي ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ط١ ، (١٩٩٨م)
(٢٤)	أبو هلال العسكري	:	معجم الفروق اللغوية ، مؤسسة النشر الإسلامي ، ط٦ ، (١٤٣٣هـ)
(٢٥)	أحمد أمين	:	فجر الإِسْلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مكتبة الأسرة ، القاهرة ، ط ١، (١٩٩٦م)
(٢٦)	أحمد بن الشيخ مُحَمَّد الزرقا	:	شرح القواعد الفقهية ، دار القلم ، دمشق ، ط٢ ، (١٩٨٩م)
(٢٧)	أحمد بن حنبل	:	مسند الإمام أحمد : ت : أحمد شاكر ، دار الحديث ، القاهرة ، ط١ ، (١٩٩٥م)
(٢٨)		:	مسند الإمام أحمد بن حنبل ، ت : شعيب الأرنؤوط ـ عادل مرشد ، مؤسسة الرِّسالَة ، بيروت ، ط١ ، (١٩٩٨م)
(٢٩)	أحمد شاكر	:	الرِّسالَة ، مكتبه الحلبي، مصر ، ط١ ، ١٩٤٠م
(٣٠)		:	الباعث الحثيث في اختصار علوم الحديث ، دار التراث ، القاهرة ، ط٣، (١٩٧٩م).
(٣١)	أحمد مختار عمر	:	صناعة المُعْجَم الحديث ، عالم الكتب ، القاهرة ،(بدون تاريخ للطبعة)
(٣٢)		:	علم الدلالة ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط٥ ، (١٩٩٨م) .
(٣٣)			معجم القراءات القرآنية، الكويت ، ط٢ ، (١٩٨٨م)
(٣٤)	إسحق عبيد	:	محاكم التفتيش نشأتها ونشاطها ، دار المعارف ، القاهرة ، ط١ ، (١٩٧٨م)

(٣٥)	الإسفراييني	:	التبصير في الدِّيْن ، ت : كمال يوسف الحوت ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط١ ، (١٩٨٣م)
(٣٦)	الألباني	:	صحيح السيرة النبوية ، المكتبة الإسلامية ، عَمَّان ، الأردن ، ط١ ، (١٤٢١هـ)
(٣٧)		:	سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ط١ ، ١٩٩٥م
(٣٨)		:	صحيح الجامع الصغير وزياداته ، المكتب الإسلامي ، ١٤٣١هـ ، (بدون بيانات أخرى)
(٣٩)		:	سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها ، مكتبة المعارف للنشر ، الرياض ط١ ، ١٩٩٥م
(٤٠)	أمين نخلة	:	المؤلفات النثرية ـ الأدب واللغة ، دار صادر ، بيروت ، ط١ ، (٢٠١٤م)
(٤١)	أندريه كرسون	:	ديكارت ، تَرْجَمَة : حسن شحاتة سعفان ، مكتبة الأنجلو المصرية ـ سلسلة الألف كتاب (٣٦٩) ، القاهرة ، ط ، (١٩٦١م)
(٤٢)	أنور محمود	:	المعجم الهندسي ، دار الشروق ، ط١ ، ١٩٧٣م
(٤٣)	إي إتش غومبريتش	:	مختصر تاريخ العالم ، تَرْجَمَة د. ابتهال الخطيب ، عالم المعرفة ، الكويت ، ع ٤٠٠ ، مايو ، (٢٠١٣م)
(٤٤)	إيهاب عبد الحميد	:	إعانة الأنام على فهم بَلاغَة القُرْآن ، خطوات منهجية للوقوف على بَلاغَة القُرْآن ، دار زهران ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٢٣م
(٤٥)	إيهاب عبد الحميد	:	شرحا أبي العلاء والخطيب التبريزي على ديوان أبي تمام دراسة نحوية رِسالَة ماجستير ، دار العلوم
(٤٦)		:	قرينة السِّيَاق ودورها في التقعيد النَّحْوِيّ ، رِسالَة دكتوراة ، كلية البنات للعلوم والآداب والتربية
(٤٧)		:	الباحث العِلْمِيّ ، صفاته إعداده منهجه ، الصادر عن مكتبة زهران ، الطبعة الثانية (٢٠٢٢م)
(٤٨)	أيوب أبو دية	:	موسوعة أعلام الفكر العربي الحديث والمعاصر ، الأردن ، ط٤ ، (٢٠١٩م)
(٤٩)	البخاري	:	فتح الباري ، المكتبة السلفية ، القاهرة ، (بدون بيانات أخرى)
(٥٠)	بهاء الدِّيْن السبكي	:	عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ، ت: عبد الحميد هنداوي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط١ ، (٢٠٠٣م)
(٥١)	بولس الفغالي	:	وجه الإِنْسَان وكلام الله ، منشورات الرابطة الكاثوليكية العالمية ، سلسلة محطات كتابية ـ ٢٤ ، (٢٠٠٢م)

(٥٢)	**البيهقي**	: المدخل إلى السنن الكبرى ، ت : د. مُحَمَّد ضياء الرحمن الأعظمي ، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي ، الكويت
(٥٣)		: مناقب الشّافِعِيّ ، ت : أحمد صقر ، دار التراث ، القاهرة
(٥٤)	**تواضروس الثاني**	: مفتاح العهد الجديد ، بطريركية الأقباط الأرثوذكس ، القاهرة ، ط٢ ، (٢٠١٣م)
(٥٥)		: المدخل إلى العهد الجديد ، دار الثقافة المَسِيْحِيَّة ، القاهرة
(٥٦)	**توماس كارليل**	: الأبطال ، تَرْجَمَة : مُحَمَّد السباعي ، دار الهلال ـ كتاب الهلال ، القاهرة ، العدد ٣٢٦ ، (١٩٧٨م)
(٥٧)	**جبر ضومط**	: الخواطر الحسان في المعاني والبيان ، مطبعة الوفاء ، بيروت ، ط٢ ، (١٩٣٠م)
(٥٨)	**جلال مظهر**	: مآثر العرب على الحضارة الأوربية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط١، ١٩٦٠م
(٥٩)	**جميل صليبا**	: المعجم الفلسفي دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، (١٩٨٢م)
(٦٠)	**جورج بوزنر**	: معجم الحضارة المصرية القديمة ، تَرْجَمَة : أمين سلامة ، مكتبة الأسرة ـ الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ، ط١ ، (٢٠٠١م)
(٦١)	**جون غريبين**	: تاريخ العِلْم ، تَرْجَمَة : شوقي جلال ، عالم المعرفة ، يونيو ٢٠١٢م ـ ع ٣٨٩ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ط١ ، (٢٠١٢م)
(٦٢)	**حسين سمرة**	: أصول الفقه الإسلامي ، دار الهاني للطباعة ، القاهرة ، (بدون بيانات أخرى)
(٦٣)	**حسين مؤنس**	: تنقية أصول التّاريخ الإسلامي ، مكتبة الأسرة ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، (٢٠٠٥م)
(٦٤)	**الخطيب البغدادي**	: الكفاية في علم الرواية ، (بدون أية بيانات أخرى)
(٦٥)	**الرازي**	: مفاتيح الغيب ، دار الفكر للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط١ ، (١٩٨١م)
(٦٦)	**الزركشي**	: البرهان في علوم القُرْآن ، ت: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، ط١ ، (١٩٥٧م)
(٦٧)	**زغلول النجار**	: زغلول النجار : من آيات الإِعْجاز العِلْمِيّ ـ الحيوان في القُرْآن الكريم ، دار المعرفة ، بيروت ، ط١ ، (٢٠٠٦م)
(٦٨)	**الزمخشري**	: الكَشَّاف ، ت : يوسف الحمادي ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ط١ ، (بدون بيانات أخرى)
(٦٩)	**سامي بن عبد**	: أطلس تاريخ الأنبياء ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، ط٦ ، (٢٠٠٥م)

الله المغلوث

(٧٠) **سامي خشبة** : مفكرون من عصرنا ، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة ، القاهرة ، (٢٠٠٨ م)

(٧١) : مصطلحات الفكر الحديث ، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة ، القاهرة ، (٢٠٠٦ م)

(٧٢) **ستيفن م. ميلر** : تاريخ الكتاب المقدس منذ التكوين وحتى اليوم ، تَرْجَمَة : وليم وهبة ، دار الثقافة ، القاهرة ، ط١ ، (٢٠٠٨م)

(٧٣) **سعد الفيشاوي** : المُعْجَم العِلْمِيّ للمعتقدات الدينية ، تعريب سعد الفيشاوي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط١ ، (٢٠٠٧م)

(٧٤) **السموأل بن يحيى بن عباس المغربي** : بذل المجهود في إفحام اليهود ، ت : عبد الوهاب طويلة ، دار القلم ، دمشق ، ط١ ، (١٩٨٩م)

(٧٥) **سيبويه** : الكتاب ، تحقيق : عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، ط٣.

(٧٦) **سيد أحمد علي الناصري** : فن كتابة التَّاريخ وطرق البحث فيه، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ط١ ، (بدون تاريخ للطبعة).

(٧٧) **سيد حامد النساج** : رحلة التراث العربي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٣، (١٩٨٧م)

(٧٨) **سيد عبد حسين** : المقارنات التشريعية ، دراسة وتحقيق : د. مُحَمَّد أحمد سراج ، علي جمعة ، دار السلام ، القاهرة ، ط١ ، (٢٠٠١م)

(٧٩) **سيد قطب** : في ظلال القُرْآن ، دار الشروق ، القاهرة .

(٨٠) **السيوطي** : ألفية السيوطي في علم الحديث : مكتبة ابْن تَيْمِيَّة ، القاهرة ، ط ١ ، (١٤١٤هـ)

(٨١) : الإتقان في علوم القُرْآن ، ت: مركز الدراسات القرآنية ، وزارة الشئون الإسلامية الرياض ، (بدون تاريخ للطبعة)

(٨٢) **الشاطبي** : الموافقات ، دار ابن عفان ، الرياض ، ط ١، (١٩٩٧م)

(٨٣) **شفيع السيد** : البحث البَلاغِيّ عند العرب تأصيل وتقييم ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، (بدون بيانات أخرى)

(٨٤) **شمس الدِّيْن الذهبي** : تاريخ الإِسْلام ووفيات المشاهير والأعلام ، ت: بشار عواد معروف ، دار الغرب الإسلامي بيروت ، ط١ ، (٢٠٠٣م)

(٨٥) : سير أعلام النبلاء ، ت : شعيب الأرناؤط ، مؤسسة الرِّسالَة ، ط٣ ، (١٩٨٥م)

(٨٦) : معرفة القُرَّاء الكبار على الطبقات والأعصار ، ت: بشار عَوَّاد معروف

ـ شعيب الأرناؤوط ـ صالح مهدي عباس ، مؤسسة الرِّسالَة ، بيروت ، ط٢ ، (١٩٨٨م)

(٨٧) **شوقي ضيف** : البحث الأدبي طبيعته مناهجه أصوله مصادره

(٨٨) : البَلاغَة تطور وتاريخ ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ١٤، (بدون تاريخ للطبعة)

(٨٩) **الشيخ إبراهيم اليازجي** : نجعة الرائد وشِرعَة الوَارد في المُترادِف والمُتوارد ، مكتبة لبنان ، القاهرة ، ط٣ ، (١٩٨٥م)

(٩٠) **الصابوني** : صفوة التفاسير ، دار القُرْآن الكريم ، بيروت ، ط٤ ، (١٩٨١م)

(٩١) **صبحي الصالح** : علوم الحديث ومصطلحه ، دار العِلم للملايين ، بيروت ، ط ٧ ، (١٩٧٣م)

(٩٢) : مباحث في علوم القُرْآن ، دار العِلْم للملايين .

(٩٣) **صفي الرحمن المباركفوري** : الرحيق المختوم ، دار اليقين ، القاهرة ، ط١ ، (١٩٩١م)

(٩٤) **ضياء الدِّيْن بن الأثير الجزري** : كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب ، ت : د. النبوي عبد الواحد شعلان ، القاهرة ، ط ١، (١٩٩٤م)

(٩٥) **الطبري** : تاريخ الرسل والملوك ، ت: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة ، ط ٢ ، (بدون تاريخ للطبعة)

(٩٦) : جامع البيان عن تأويل آي القُرْآن ، ت: أحمد عبد الرزاق وآخرون ، دار السلام ، القاهرة ، ط ١، (٢٠٠٥م)

(٩٧) **عبد الرحمن صدقي** : الشرق والإسلام في أدب جوته ، المكتبة الثّقافِيَّة (١٠) ، دار القلم ، القاهرة ، (بدون تاريخ للطبعة)

(٩٨) **عبد الفتاح القاضي** : المصحف الشريف ـ أبحاث في تاريخه وأحكامه ، وزارة الأوقاف ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ع ١٨٣، القاهرة ، ط٢ ، (٢٠١٠م)

(٩٩) **عبد القاهر الجرجاني** : دلائل الإِعْجَاز ، ت : محمود مُحَمَّد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة ، ط ٣ ، (١٩٩٢ م)

(١٠٠) **عبد المنعم الحفني** : الموسوعة الفلسفية ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، (بدون تاريخ للطبعة)

(١٠١) **عبد الواحد علام** : مدخل إلى البَلاغَة العربية، دار الثقافة العَرَبِيَّة ، القاهرة ، (١٩٨٩م)

(١٠٢) **عبد الوهاب الكيالي** : موسوعة السياسة ، دار الهدى ، بيروت (بدون بيانات أخرى)

(١٠٣) علاء الدِّيْن علي بن بلبان : الإحسان في تقريب ابن حِبان ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرِّسالَة ، ط١ ، (١٩٨٨م)

(١٠٤) علي أبو المكارم : المدخل إلى دراسة النحو العربي ، ط١ ، (١٩٨٠م)

(١٠٥) علي أحمد عيسى : تراث الإِسْلام ، الحروب الصليبية ، لجنة التأليف والتَّرْجَمَة والنشر ، القاهرة (١٩٣٦م)

(١٠٦) علي سامي النشار : المنطق الصوري منذ أرسطو حَتّى عصورنا الحاضرة ، دار المعرفة الجامعية ، القاهرة ، ط ٥ ، (٢٠٠٢ م)

(١٠٧) علي عبد الواحد وافي : اليَهُودِيَّة واليهود ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، (بدون بيانات أخرى)

(١٠٨) : غرائب النظم والتقاليد والعادات ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، (بدون بيانات أخرى)

(١٠٩) عمر رضا كحالة : العرب : من هم ، وما قيل عنهم ؟ ، مؤسسة الرِّسالَة ، بيروت ، ط ٣، (١٩٨٣م)

(١١٠) عمرو شريف : رحلة عقل ، مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة ، ط٤ ، (٢٠١١م)

(١١١) غوستاف لوبون : سيكولوجية الجماهير ، ، القاهرة ، تَرْجَمَة : هاشم صالح ، دار الساقي ، بيروت ، ط١، (١٩٩١م)

(١١٢) فهيم عزيز : المدخل إلى الإنجيل ، دار الثقافة المَسِيْحِيَّة ، القاهرة ، (بدون بيانات أخرى)

(١١٣) كامل سلمان الجبوري : معجم الأدباء من العصر الجاهلي ٢٠٠٢م ، دار الكتب العِلْمِيَّة ، بيروت ، ط١ ، (٢٠٠٢م)

(١١٤) الكفوي : الكُلِيَّات ، ت : عدنان درويش ، مؤسسة الرِّسالَة ، بيروت ، ط٢ ، (١٩٩٨م)

(١١٥) كمال بشر : علم المعنى ، القاهرة ، (بدون بيانات أخرى)

(١١٦) متى المسكين : الإنجيل بحسب القديس مرقس دراسة وتفسير وشرح ، دير الأنبا مقار ، القاهرة ، ط١ ، (١٩٩٦م)

(١١٧) : التقليد وأهميته في الإيمان المسيحي ، دير أنبا مقار ، القاهرة ، ط٤ ، (٢٠٠٨م)

(١١٨) : شرح إنجيل القديس يوحنا ، دير الأنبا مقار ، القاهرة ، ط١ ، (١٩٩٠م)

(١١٩) محمد أحمد معبد : الملخص المفيد في علم التجويد ، دار السلام ، القاهرة ، ط١٢ ، (٢٠٠٧م)

(١٢٠)	محمد الغزالي	:	خلق المسلم ، دار دعوة ، القاهرة ، ط٣ ، (١٩٩٠م)
(١٢١)		:	مائة سؤال عن الإِسْلام
(١٢٢)		:	عقيدة المسلم ، دار الريان للتراث ، القاهرة ، (بدون بيانات أخرى)
(١٢٣)	محمد بكر إسماعيل	:	الفقه الواضح ، دار المنار ، القاهرة ، ط٢ ، (١٩٩٧م)
(١٢٤)	محمد بلتاجي	:	مدخل إلى علم التفسير ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، ط١ ، (٢٠٠٠م)
(١٢٥)	محمد حسين الذهبي	:	التفسير والمفسرون ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، (بدون تاريخ للطبعة)
(١٢٦)	محمد حسين هيكل	:	الصديق أبو بكر ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٨ ، (بدون تاريخ للطبعة)
(١٢٧)	محمد رشيد رضا	:	تفسير المنار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، (١٩٩٠م)
(١٢٨)	محمد رواس قلعه جي	:	معجم لغة الفقهاء ، دار النفائس ، بيروت ، ط ٣، (٢٠١م)
(١٢٩)	محمد سعيد رمضان البوطي	:	فقه السيرة ، دار الفكر ، القاهرة ،(بدون تاريخ للطبعة)
(١٣٠)	محمد سلام مدكور	:	الإسلام والمجتمع المتطور ، كتاب العربي ١٤ ، يناير ١٩٨٧م ، الكويت
(١٣١)	محمد عبد الله دراز	:	الدِّيْن بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ، دار البيان ، القاهرة ، ط١، (٢٠١٧م)
(١٣٢)	محمد علي أحمدين	:	ضوء القمر على نخبة الفكر ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٢ ، (١٩٥٨ م)
(١٣٣)	محمد عمارة	:	التأويل العبثي للوحي والنبوة والدِّيْن ، هدية مجلة الأزهر ، عدد شهر جُمادَى الآخرة ، القاهرة ، ط١ ، (١٤٢٢هـ)
(١٣٤)		:	الخلافة ونشأة الأحزاب الإسلامية ، كتاب الهلال ، القاهرة ، ع ٣٨٩ ، مايو ١٩٨٣م
(١٣٥)		:	د. عبد الرزاق السنهوري ، إسلامية الدولة والمدنية والقانون ، دار الرشاد ، القاهرة ، ط ١، (١٩٩٩م)
(١٣٦)	محمد فريد وجدي	:	السيرة المحمدية تحت ضوء العِلْم والفلسفة ، مكتبة الأسرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط١ ، (١٩٩٩م)
(١٣٧)	محمد فؤاد عبد	:	**المَعْجَم** المفهرس لألفاظ القُرْآن الكريم ، دار الحديث القاهرة ، القاهرة

	الباقي		، ط١ ، (١٩٩٦م)
(١٣٨)	محمد كامل عبد الصمد	:	الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء ، الدار المصرية اللبنانية .
(١٣٩)	محمد مُحَمَّد أبو شهبة	:	دفاع عن السُّنّة، مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة ، ط ١، (١٩٩٩م)
(١٤٠)	محمد يوسف موسى	:	التشريع الإسلامي وأثره في الفقه الغربي ، المكتبة الثّقافِيَّة ١٩ ، دار القلم ، أغسطس ، القاهرة ، (١٩٦٠م)
(١٤١)	محمود شاكر	:	المتنبي ، طبعة مدني ، القاهرة ، (١٩٨٧ م)
(١٤٢)	مراد وهبة	:	المعجم الفلسفي ، مكتبة الأسرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط١ ، (٢٠١٦م)
(١٤٣)	مصطفى صادق الرافعي	:	إعجاز القرآن والبَلاغَة النبوية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط٩، (١٩٧٧م)
(١٤٤)	منير البعلبكي	:	المورد الحديث ، دار العِلْم للملايين ، بيروت ، ط ٢ ، ٢٠٠٩
(١٤٥)	ميجيل آسين		أثر الإِسْلام في الكوميديا الإلهية ، ت: جلال مظهر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط١ ، (١٩٨٠م)
(١٤٦)	نادية رمضان النجار		اللّغَة وأنظمتها بين القدماء والمحدثين ، دار الوفاء ، الإسكندرية ، (بدون تاريخ للطبعة)
(١٤٧)	نجم عبد الرحمن خلف		الصناعة الحديثية في السنن الكبرى ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، المنصورة ، ط ١ ، (بدون تاريخ للطبعة)
(١٤٨)	النسائي	:	الكامل في ضعفاء الرجال، ت: مازن السرساوي ، مكتبة الرشد ، (بدون بيانات أخرى)
(١٤٩)	هـ .أ. جب	:	**ترجمة : راشد النبراوي ، الموسوعة الإسلامية الميسرة** الهيئة المصريَّة العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة ، القاهرة ، (٢٠١٣ م)
(١٥٠)	ول ديورنت	:	قِصَّة الحَضَارَةِ ، تَرْجَمَة : فؤاد أندراوس ، لجنة التأليف والتَّرْجَمَة والنشر ، القاهرة ط١ ، (١٩٨٦م)
(١٥١)	ول ديورنت	:	قصة الحضارة ، تَرْجَمَة : مُحَمَّد بدران ، مكتبة الأسرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط ١، (٢٠٠١م) .
(١٥٢)	وليم شكسبير		تاجر البندقية ، تَرْجَمَة : مُحَمَّد عناني ، مكتبة الأسرة ـ الهيئة العامة المصرية للكتاب ، القاهرة ، ط١ ، (٢٠٠٢م)
(١٥٣)	ياقوت الحموي:		معجم الأدباء ، ت : إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط١ (١٩٩٣م)

(١٥٤) يوحنا قمير : نشيد الإنشاد أجمل نشيد في الكون ، لبنان ،(١٩٩٤م)
(١٥٥) يوسف القرضاوي : الخصائص العامة للإسلام ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٧٧م
(١٥٦) الرَّسُوْل والعلم ، دار الصحوة ، (بدون بيانات أخرى)
(١٥٧) كيف نتعامل مع السُّنَّة ؟ ، دار الشروق ، القاهرة ، ط٣
(١٥٨) يوسف رياض : مدخل إلى النقد الكتابي ، موسوعة المعرفة المَسِيْحِيَّة ـ الكتاب المقدس ٩ ، دار المشرق ، بيروت ، ط١ ، (١٩٩٧م) .

ثانيًا الصحف والمجلات

أ ـ الصحف اليومية

(١٥٩) الإشارات الكونية في القُرْآن الكريم ومغزى دلالتها العِلْمِيَّة ، مقال د. زغلول النجار ، جَرِيدَة الأهرام ، القاهرة ، ٢٢ أكتوبر ٢٠٠١م ، ، مقال رقم ٢٣
(١٦٠) الإشارات الكونية في القُرْآن الكريم ومغزى دلالتها العِلْمِيَّة ، مقال د. زغلول النجار ، جَرِيدَة الأهرام ، القاهرة ، ٢٢ أكتوبر ٢٠٠١م ، ، مقال رقم ٢٣
(١٦١) الإشارات الكونية في القُرْآن الكريم ومغزى دلالتها العِلْمِيَّة ، مقال د. زغلول النجار ، جَرِيدَة الأهرام ، القاهرة ، ٢٤ ديسمبر ٢٠٠١م ، ، مقال رقم ٢٧
(١٦٢) الإشارات الكونية في القُرْآن الكريم ومغزى دلالتها العِلْمِيَّة ، مقال د. زغلول النجار ، جَرِيدَة الأهرام ، القاهرة ، الأثنين ٢٥ أبريل ٢٠٠٥م ، ، مقال رقم ١٧٨
(١٦٣) الإشارات الكونية في القُرْآن الكريم ومغزى دلالتها العِلْمِيَّة ، مقال د. زغلول النجار ، جَرِيدَة الأهرام ، القاهرة ، الأثنين ٢٨ يناير ٢٠٠٢م ، مقال رقم ٣٢
(١٦٤) الإشارات الكونية في القُرْآن الكريم ومغزى دلالتها العِلْمِيَّة ، مقال د. زغلول النجار ، جَرِيدَة الأهرام ، القاهرة ، ٢٧ سبتمبر ٢٠٠٤م ، ، مقال رقم ١٥٢
(١٦٥) الإشارات الكونية في القُرْآن الكريم ومغزى دلالتها العِلْمِيَّة ، مقال د. زغلول النجار ، جَرِيدَة الأهرام ، القاهرة ، ١٩ أغسطس ٢٠٠٢ م ، ، مقال رقم ٦١
(١٦٦) الإشارات الكونية في القُرْآن الكريم ومغزى دلالتها العِلْمِيَّة ، مقال د. زغلول النجار، جَرِيدَة الأهرام، القاهرة، ٩ ديسمبر ٢٠٠٢ م ، مقال رقم ٧٣
(١٦٧) « موقف المفسرين من الآيات الكونية في القُرْآن الكريم ٢ » ، د. زغلول النجار ، جَرِيدَة الأهرام ، ٧ مايو ٢٠٠١م
(١٦٨) « موقف المفسرين من الآيات الكونية في القُرْآن الكريم ١ » ، د. زغلول النجار ، جَرِيدَة الأهرام ، ٣٠ أبريل ٢٠٠١م

ب ـ المجلات الدورية

(١٦٩) « من قضايا اللّغَة وجوب تحليل البناء اللغويّ من خلال مسرح الحدث الذي دار عليه » : د. بدراوي زهران ، مجلة مجمع اللُّغَة ع ٥٠

(١٧٠) « حوار مع جارودي الفيلسوف الذي رشح نفسه لرئاسة فرنسا واثقًا من نفسه » ، بقلم: مُحَمَّد صالح ، مجلة العربي الكويتية ، العدد ٢٦٤، نوفمبر ١٩٨٠م

(١٧١) إبراهيم مدكور ومنهج الفلسفة الإسلامية ، مجلة العربي ، د. حامد طاهر ، العدد ٤٥٠

(١٧٢) أحمد زكي : الحشرات أكثر مخلوقات الأرض أنواعًا ، مجلة العربي الكويتية ، ع ١٦٥

(١٧٣) رحلتي من القانون إلى التّاريخ : مُحَمَّد عبد الله عنان ، مجلة العربي الكويتية ، عدد ٢٤٦ ، مايو ١٩٧٩م

(١٧٤) المجتهد والعلوم التي يجب عليه تحصيلها : بدر المتولي عبد الباسط ، مجلة العربي ، عدد ١٥٥ أكتوبر ١٩٧١م

(١٧٥) المجتهد والعلوم التي يجب عليه تحصيلها ، د. بدر المتولي عبد الباسط ، مجلة العربي الكويتية العدد ١٥٥ ، أكتوبر ١٩٧١م

(١٧٦) « البُوذِيَّة » ، د. فاخر عاقل ، مجلة العربي الكويتية ، ع ٢٠٣ ، أكتوبر ١٩٧٥م

(١٧٧) « محاكم التفتيش ، أسوأ استخدام لاسم الله » ، مجلة العربي الكويتية ، ع ٢٥٨ ، مايو ، ١٩٨٠م

(١٧٨) « معنى البُوذِيَّة القواعد الأساسية لمذهب تِيرافادا » ، أستاذ بهيكهو أوثيتيلا ، تَرْجَمَة : أحمد عفت عفيفي ، مجلة العربي الكويتية ، ع ١٧٧ ، أكتوبر ١٩٧٣م ، ص١٦٤

(١٧٩) « من حكمة الصين » ، بقلم د.محمد عبد الهادي أبو ريدة ، مجلة العربي الكويتية ، ع ٢٥٨ ، مايو ١٩٨٠م

(١٨٠) « استعمار التَّاريخ والحوار بين الحضارات » ، بقلم: أحمد بهاء الدِّيْن ، مجلة العربي الكويتية ، العدد ٢٤٣، فبراير ١٩٧٩م

(١٨١) « استعمار التَّاريخ والحوار بين الحضارات » ، بقلم: أحمد بهاء الدِّيْن ، مجلة العربي الكويتية ، العدد ٢٤٣، فبراير ١٩٧٩م

(١٨٢) « العَقْل عند الغزالي » ، د. مُحَمَّد عبد الهادي أبو ريدة ، مجلة العربي الكويتية ، ع:٢٤٩ ، أغسطس ١٩٧٩م

(١٨٣) « دستور الأخلاق في القُرْآن »، بقلم : مُحَمَّد خليفة التونسي ، مجلة العربي الكويتية ، ع ١٩١ ، عام ١٩٧٤م ، .

(١٨٤) من فكر قديم إلى فكر جديد ، زكي نجيب محمود ، مجلة العربي الكويتية ، العدد ١٤٠ ،

يوليو ١٩٧٠

(١٨٥) ميشيل سرفيتس ، د. جمال مرسي بدر ، مجلة العربي الكويتية ، العدد ١٩٩ ، يونيو ١٩٧٥م

(١٨٦) ينظر مقال : « من حكمة الصين » ، بقلم د.محمد عبد الهادي أبو ريدة ، مجلة العربي الكويتية ، ع ٢٥٨ ، مايو ١٩٨٠م

ثالثا : الموسوعات العلمية

(١٨٧) دائرة المعارف الكتابية ، دار الثقافة ، (بدون بيانات أخرى)

(١٨٨) قاموس الكتاب المقدس ، دار الثقافة ، القاهرة ، ط ١٠، (بدون تاريخ للطبعة)

(١٨٩) الموسوعة الإسلامية العامة ، وزارة الأوقاف ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، ٢٠٠٣م

(١٩٠) الموسوعة العَرَبِيَّة الميسرة ، دار الشعب ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٧٢م

(١٩١) موسوعة العقيدة الإسلامية ، وزارة الأوقاف ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، ط١ ، (٢٠١٠م)

(١٩٢) موسوعة علوم الحديث الشريف : وزارة الأوقاف ، القاهرة ، ط ٤ ، ٢٠١٣م

ثانيا : المراجع الأجنبية

(١٩٣) - **Allan, Barbara Pease, The Definitive Book Of Body Language,**

(١٩٤) - **Arthur Goldschmidt, A Conice History of the Middle East, Westview Press, fifth edition**

(١٩٥) - **Brain Weiss, Many Lives, Many Master, Piatkus Books, Great Britain, first puplished, 1994**

(١٩٦) - **David Crystal, A dictionary of linguistics and phonetics**

(١٩٧) - **G. Le Bon; La Civilization des Arabes**

(١٩٨) - **Hutchinson's Twentieth Century Encyclopadia**

(١٩٩) - **J. Draper: The Intellectual Development of Europe**

(٢٠٠) - **John B. Noss, Man's Religion, the Macmillan Company, New York, seventh printing, 1953**

(٢٠١) - **Jr. Arthur Goldschmidt, A Concise History of the Middle East, WestviewPress, fifth edition, 1996**

(٢٠٢) - **Lexicon Universal Encyclopedia, Lexicon Publications, Inc. New York, N.Y., 1984**

(٢٠٣) - **M.Rosenthal and P.Yudin, A Dictionary of Philosophy, Progress Publisher, Moscow,**

first printing, 1967

- Many Lives, Many Masters, Piatkus Books, (٢٠٤)
  Great Britain, first published, 1994
- Peter Mark Roget, Thesaurus of English (٢٠٥)
  phrases, New York
- Sédillot, Histoire Générale des Arabes (٢٠٦)
- Stephen R. Covey, First Things First, Simon (٢٠٧)
  and Schuster, New York, 1994
- The Definitive Book Of Body Language (٢٠٨)
- The Story of Civilization, IV, The Age of Faith, (٢٠٩)
  Will Durant, Simon And Schuster, New York,
  1950

الفهرس

المؤلفات العلْميَّة
للدكتور إيهاب عَبدِ الحميد

اسم الكتاب	دار النشر	رقم الطبعة
١ـ الباحث العِلْمِيّ : صفاته إعداده منهجه	دار زهران	الطبعة الثانية
٢ـ إعانة الأنام على فهم بلاغة القرآن	دار زهران	الطبعة الثانية
٣ـ سياق الحال والنحو العربي ، سيبويه إنموذجًا	دار زهران	تحت الطبع
٤ـ لماذا نَبْتَغِي الإِسْلام دِيْنًا ولا نَقْبَل غيره ؟ سؤال يحتاج منك إجابة	دار زهران	الطبعة الأولى

... أظنُّ ظنًّا يَبلُغُ اليقينَ أنَّهُ ما مِنْ مُسْلِمٍ ناضجِ الفكرِ، سليمِ القلبِ، مُهْتَمٍّ بأمرِ الآخِرَةِ، إلا وقد أتَتْ عليه لحظةٌ - أو ستأتي عليه لحظةٌ - من لحظاتِ حياتِه يتوقفُ ليسألَ نفسَه هذه الأسئلة: «لِماذَا أنا مُسلِمٌ ؟!»، و«لِماذَا أبْتَغِي الإسلامَ دِينًا؟!»، و«لِماذَا - أنا كمُسْلم - أعتقدُ أنَّ الإسلامَ هو الحقُّ المبينُ وما سِواه الباطِلُ ؟!»، و«لِماذَا لا يكون ما سِواهُ هو الحَقَّ وهو الباطِلُ ؟!»، و«لماذايجبُ عليَّ أنْ أتحمَّلَ التكاليفَ الشرعِيَّةَ التي يأمُرُني بها الإسلامُ مِن صلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ وحَجٍّ...؟!» و«لِماذَا ليس الحقُّ في غيره من الأديانِ السَّماوِيَّةِ أو الأرضِيَّةِ؟!»، و«لِماذَا ليس الحقُّ في العِلْمانيَّة؟!»، و«لِماذَا لا يكونُ الإلحادُ نفسُه هو الحقُّ؟!»....

ويزدادُ هذا الوقوفُ في لحظاتٍ فارِقةٍ في حياةِ الإنسانِ، في اللحظاتِ التي يُبْتَلَى فيها بالمَرَضِ أو فَقْدِ الأهلِ والأحبابِ، أو موتِ فلذاتِ الأكبادِ، أو قسوةِ الحياةِ وما فيها من متاعبَ وظلمٍ وهمومٍ .... ويجد المسلمُ نفسَه مُضطرًّا لأنْ يصبر. لِماذَا يصبر؟! لأنَّ دينَه يأمره بالصَّبْرِ.

في هذه اللحظات يتوقفُ الإنسانُ فجأةً أمامَ هذه الأسئلة مُحاولًا الإجابة عنها حتي يستطيع أن «يَصْبِرَ»، ويجد لصبره «ثوابًا»، وأنَّ هذا الثواب سوف يحصلُ عليه؛ لأنَّهُ يؤمنُ بـ «الدِّينِ الحقِّ» الذي يأمره بـ «الصبر».

في هذا الكتاب إجابةٌ شافيةٌ - بإذنِ الله تعالى - عن هذه الأسئلة.

د. إيهاب عبد الحميد سلامة

المؤهلات العلمية:



- ليسانس دار علوم جامعة القاهرة ١٩٩٥م.
- ليسانس آداب قسم لغة إنجليزية جامعة بنها ٢٠١٠م.
- دبلومة علم اللغة دار علوم جامعة القاهرة بتقدير جيد جدًا، ٢٠٠٤م
- ماجستير في العلوم اللغوية جامعة القاهرة تقدير امتياز ٢٠١٢م
- دكتوراة في الآداب والدراسات اللغوية والنحوية، مرتبة الشرف الأولى، جامعة عين شمس ٢٠١٦م

الجوائز العلمية:

حاصل على جائزة الأستاذ الدكتور أحمد مختار عمر للتفوق العلمي عام ٢٠٠٤م

مكتبة زهران

توزيع

15 شارع الشيخ محمد عبده - خلف جامعة الأزهر - الأزهر الشريف

01149383472 - 01222900401

مكتبة زهران للطبع والنشر والتوزيع /

9289229518787